

(سورة الشعراء مائتان وسبع وعشرون آية وهي مكية عند الجمهور)*

وبه قال ابن الزبير وقال ابن عباس سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وأخرج القرطبي في تفسيره عن البراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الانجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي وأخرج أيضا عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت المفصل نافلة قال ابن كثير ووقع في تفسير مالك تسميتها بسورة الجمعة

(بسم الله الرحمن الرحيم)*

(طسم) محله الرفع على الابتداء ان كان اسما للسورة كما ذهب اليه الاكثر أو على انه خبر ويجوز أن يكون في محل نصب والتقدير اذكر أو اقرأ وأما اذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدم مرارا فلا محل له من الاعراب وقد قيل انه اسم من أسماء الله سبحانه وقيل انه اسم من أسماء القرآن وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه وقال ابن عباس طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وهو الحق في المقام ولذا قال المحلي الله أعلم بمراده بذلك (تلك) أي السورة أو آيات هذه السورة (آيات الكتاب) أي القرآن (المبين) أي المبين المظهر للحق من الباطل أو البين الظاهر اعجازه ان كان من أبان اللازم بمعنى بان

وهذا

(تفسير سورة المؤمنون مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرني يونس ابن سليم قال أملى علي يونس بن يزيد الايلي عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان اذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وارضنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر ورواه الترمذي في تفسيره والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به وقال الترمذي منكر لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه وقال النسائي في تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبي عمران عن يزيد

ابن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت قد أفلح المؤمنون حتى انتهت الى والذين هم على صلواتهم يحافظون قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر اليها وقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون قال كعب الأحبار لما أعد لهم من الكرامة فيها وقال أبو العالية فأنزل الله ذلك في كتابه وقد روي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعا فقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن مسلمة حدثنا وهيب عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوك ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن عبيد الله العميري حدثنا عدي بن الفضل حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك قال البزار ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك فقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك ثم قال البزار لا نعلم أحدا رفعه الا عدي بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون بقية عن الحجازيين ضعيف وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العبسي عن اسمعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس يرفعه لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر اليها فقال قد أفلح المؤمنون قال وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بعيش ابن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله جنة عدن بيده

وهذا المعنى أليق بالمقام وأوفق بالمرام ولذا اقتصر عليه صاحب الكشاف (لعلك باخع) أي قاتل ومهلك (نفسك) لعل هنا للاشفاق أي أشفق على نفسك بتخفيف هذا الغم والبخع في الأصل أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق في القفا وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف وقرئ باخع نفسك بالاضافة والمعنى لعلك قاتل نفسك (ألا يكونوا) أي أهل مكة (مؤمنين) أي لعدم ايمانهم بما جئت به وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لانه كان حريصا على ايمان قومه شديد الاسف لما يراه من اعراضهم (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية) مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية والمعنى ننزل آية تلجئهم الى الايمان ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي انهم صاروا منقادين لها أي فتظل أعناقهم قيل وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الاعناق لتقرير والتصوير لان الاعناق موضع الخضوع وقيل انها لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ووصفت بما يوصفون به قال عيسى بن عمر خاضعين وخاضعة سواء واختاره المبرد والمعنى انها اذا ذلت رقابهم ذلوا فالاخبار عن الرقاب اخبار عن أصحابها ويسوغ في كلام العرب أن يترك الخبر عن الاول ويخبر عن الثاني وقال أبو عبيد والكسائي ان المعنى خاضعيها هم وضعفه النحاس وقال مجاهد أعناقهم كبراؤهم قال النحاس وهذا معروف في اللغة يقال جاءني عنق من الناس أي رؤساء منهم وقال أبو زيد والاخفش أعناقهم جماعاتهم يقال جاءني عنق منهم أي جماعة وقال ابن عباس خاضعين ذليلين (وما يأتيهم من) مزيدة لتأكيد المعنى (ذكر من الرحمن) لابتداء الغاية (محدث) انزاله وكلما نزل شئ من القرآن بعد شئ فهو أحدث من الاول (الا كانوا عنه معرضين) أي الا يجددون لهم موعظة وتذكيرا الا جددوا ما هو نقيض المقصود وهو الاعراض والتكذيب والاستهزاء والجملة حالية والاستثناء مفرغ من أعم العام وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة الانبياء (فقد كذبوا) بالذكر الذي يأتيهم تكذيبا صريحا ولم يكتفوا بمجرد الاعراض وقيل ان الاعراض بمعنى التكذيب لان من أعرض عن شئ ولم يقبله فقد كذبه وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والاول أولى فالاعراض عن الشئ عدم الالتفات اليه ثم

انتقلوا عن هذا الى ما هو أشد منه وهو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب الى ما هو أشد منه وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله (فسيأتيهم أنباء) وهي ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلا وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن وقال (ما كانوا به يستهزؤن) ولم يقل ما كانوا عنه معرضين أو ما كانوا به يكذبون لأن الاستهزاء أشد منهما وهو مستلزم لهما وفي هذا وعيد شديد وقد مر تفسير مثل هذا في سورة الانعام ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته من الأمور المحسوسة التي يحصل بها للمتأمل فيها والناظر اليها والمستدل بها أعظم دليل وأوضح برهان وبين انه أظهر لهم أدلة تحدث في الارض وقتا بعد وقت تدل على توحيده ومع ذلك استمر أكثرهم على الكفر فقال (أولم يروا) الهمزة للتوبيخ والواو للعطف على مقدر كما في نظائره (الى الارض) أي الى عجائبها وبين بعضها بقوله (كم أنبتنا فيها) أي كثيرا (من كل زوج كريم) فنبه سبحانه على عظمته وقدرته وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد والمراد بالزوج هنا الصنف والنوع وقال الفراء هو اللون وقال الزجاج زوج نوع وكريم محمود والمعنى من كل زوج نافع لا يقدر على انباته الا رب العالمين اذ ما من نبت الا وله النفع والكريم في الاصل الحسن الشريف قال نخلة كريمة أي كثيرة الثمرة ورجل كريم شريف فاضل وكتاب كريم اذا كان مرضيا في معانيه والنبات الكريم هو المرضي في منافعه قال الشعبي الناس مثل نبات الارض فمن صار منهم الى الجنة فهو كريم ومن صار منهم الى النار فهو لئيم وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والاحاطة ان كلمة كل تدل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته قاله الزمخشري واليه أشار في التحرير (ان في ذلك لآية) أي فيما ذكر من الانبات أو في كل واحد من تلك الازواج لدلالة بينة وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه وبديع صنعته واللام زائدة في اسم ان المؤخر وقد كررت هذه الآية في هذه السورة ثمان مرات ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمر على ضلالته مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي سبق علمي فيهم انهم سيكونون هكذا فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام قال سيبويه ان كان هنا صلة أي زائدة (وان ربك لهو العزيز الرحيم) أي الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع

لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت قد أفلح المؤمنون فقال الله وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وقوله تعالى قد أفلح المؤمنون أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الاوصاف الذين هم في صلاتهم خاشعون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس خاشعون خائفون ساكنون وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري ٤ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخشوع خشوع القلب وكذا قال ابراهيم النخعي وقال الحسن البصري كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون خفضوا أبصارهم الى موضع سجودهم قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مصلاه فان كان قد اعتاد النظر فليغمض رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضا مرسلا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية والخشوع في الصلاة انما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الامام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال حبب الي الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد [illegible] أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبي على صهر لنا من الانصار فحضرت الصلاة فقال يا جارية ائتني بوضوء لعلي أصلي فأستريح فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قم يا بلال فأرحنا بالصلاة وقوله والذين هم عن اللغو معرضون أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصي كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الاقوال والافعال كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال قتادة أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك وقوله والذين هم للزكاة فاعلون الأكثرون

على ان المراد بالزكاة ههنا زكاة الاموال مع ان هذه الآية مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة والظاهر أن التي فرضت بالمدينة انما هي ذات النصب والمقادير الخاصة والا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال تعالى في سورة الانعام وهي مكية وآتوا حقه يوم حصاده وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وكقوله وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة على أحد القولين في تفسيرهما وقد يحتمل أن يكون كلا الامرين مرادا وهو زكاة النفوس وزكاة الاموال فانه من جملة زكاة ٥ النفوس والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم وقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك أي غير الازواج والاماء فأولئك هم العادون أي المعتدون وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الاعلى حدثنا سعيد عن قتادة ان امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله أو ما ملكت أيمانهم فأتي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها قال فغرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق وانما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وقد استأنسوا بحديث يرويه الامام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال حدثني علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سبعة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع

كونه كثير الرحمة ولذلك أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة أو المعنى أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه (واذ نادى ربك موسى) مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الاعراض والتكذيب والاستهزاء وشروع في قصص سبع أولها قصة موسى والثانية ابراهيم والثالثة نوح والرابعة هود والخامسة صالح والسادسة لوط والسابعة شعيب والتقدير واتل اذ نادى أو اذكر يا محمد والنداء الدعاء أي نادى حين رأى الشجرة والنار وكان النداء بكلام سمعه من كل الجهات من غير واسطة (أن) مفسرة أو مصدرية أي بأن (ائت القوم الظالمين) وليس هذا مطلع ما ورد في حيز النداء وانما هو ما فصل في سورة طه من قوله اني أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى ووصفهم بالظلم لانهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني اسرائيل وذبح أبنائهم وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا (قوم فرعون) يعني القبط عطف بيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد (ألا يتقون) أي ألا يخافون عقاب الله سبحانه فيصرفون عن أنفسهم عقوبته بطاعته وقيل المعنى قل لهم ألا تتقون وجاء بالتحتية لانهم غيب وقت الخطاب وقرئ بالفوقية أي قل لهم ذلك ومثله قل للذين كفروا ستغلبون بالتحتية والفوقية أو أنهم زاجرا فقد آن لهم أن يتقوا وهي كلمة حث واغراء وقيل يظلمون غير متقين الله وعقابه وعلى هذا حال من الضمير في الظالمين (قال) موسى واعتذر بثلاثة أعذار كل منها مرتب على ما قبله وليس مراده الامتناع من الرسالة بل اظهار العجز عن هذا الامر الثقيل وطلب المعونة عليه من الله (رب اني أخاف أن يكذبون) في الرسالة والخوف غم يلحق الانسان لامر سيقع (ويضيق صدري) بتكذيبهم اياي (ولا ينطلق لساني) أي بتأدية الرسالة للعقدة كانت على لسانه قرئ يضيق وينطلق بالرفع على العطف أو على الاستئناف وبنصبهما قال الفراء كلا القراءتين له وجه قال النحاس الوجه الرفع لان النصب عطف على يكذبون وهذا بعيد (فأرسل) جبريل بالوحي (الى) أخي (هرون) ليكون معي رسولا مؤازرا مظاهرا معاونا ولم يذكر المؤازرة هنا لانها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه واجعل لي وزيرا من أهلي وفي القصص أرسله معي ردءا يصدقني وكان هرون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشام وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له

العالمين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه الناكح يده والفاعل والمفعول به ومدمن الخمر والضارب والديه حتى يستغيثا والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه والناكح حليلة جاره هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته والله أعلم وقوله والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وقوله والذين هم على ٦ صلواتهم يحافظون أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله أخرجاه في الصحيحين وفي مستدرك الحاكم قال الصلاة في أول وقتها وقال ابن مسعود ومسروق في قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون يعني مواقيت الصلاة وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله أولئك هم الوارثون وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد أولئك هم الوارثون قال ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فأما المؤمن فيبنى بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ويبنى بيته الذي في النار وروي عن سعيد

والتماس العون في تبليغ الرسالة بإرسال أخيه لا من باب الاستعفاء من الرسالة ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل (ولهم علي ذنب) هو قتله للقبطي قاله قتادة وسماه ذنبا بحسب زعمهم أو كما سمى جزاء السيئة سيئة (فأخاف أن يقتلون) به قصاصا فيفوت المقصود من الرسالة فهذا هو الخائف عليه وليس هذا تعللا أيضا بل استدفاع للبلية المتوقعة وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلا عن الفضلاء ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع وطرف من الزجر (قال كلا) أي لا يقتلونك كأنه قيل ارتدع عما تظن (فاذهبا) أي أنت وأخوك (بآياتنا) وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدل عليه توجيه الخطاب إليهما وفيه تغليب الحاضر على الغائب لأنه إذ ذاك كان غائبا عن الإرسال والخطاب كان في الطور (إنا معكم) وفي هذا تعليل للردع عن الخوف وهو كقوله سبحانه إنني معكما أسمع وأرى وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متول لحفظهما وكلاءتهما وأجراهما مجرى الجمع فقال معكم لكون الاثنين أقل الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة أو لكونه أراد موسى وهرون ومن أرسلا إليه ويجوز أن يكون المراد هما مع بني إسرائيل أو تعظيما لهما ولا يخفى ما في المعية من المجاز لأن المصاحبة من صفات الأجسام فالمراد معية النصرة والمعونة (مستمعون) أي سامعون ما تقولون وما يقال لكم والاستماع في غير هذا الإصغاء للسماع يقال استمع فلان حديثه أي أصغى إليه ولا يجوز حمله هاهنا على ذلك فحمل على السماع قاله النسفي (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها قال القرطبي فذهبا إلى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ووحد الرسول هنا ولم يثنه كما في قوله إنا رسولا ربك لأنه مصدر بمعنى رسالة والمصدر يوحد وأما إذا كان بمعنى المرسل فإنه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع قال أبو عبيدة رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا إنا ذوو رسالة وقال أبو عبيدة أيضا يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي وهؤلاء رسولي ووكيلي ومنه قوله تعالى فإنهم عدو لي وقيل إن معناه أن كل واحد منا رسول وقيل إنهما لما كانا متعاضدين متساعدين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد وأن في قوله (أن أرسل معنا بني إسرائيل) مفسرة لتضمن الإرسال

المفهوم

ابن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لانهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضا وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجىء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى وفى لفظ له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقال هذا فكاكك ٧ من النار فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا اله الا هو ثلاث مرات ان أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له قلت وهذه الآية كقوله تعالى تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا وكقوله وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس الا اذا كان فيه عنب فالله أعلم (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) يقول تعالى مخبرا عن ابتداء خلق الانسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون وقال الاعمش عن المنهال ابن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس من سلالة من طين قال من صفوة الماء وقال مجاهد من سلالة أى من منى آدم وقال ابن جرير انما سمى آدم طينا لانه مخلوق منه وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب الى السياق فان آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمإ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض جاء منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك وقد رواه أبو داود

المفهوم من الرسول معنى القول أى خلهم واطلقهم معنا الى أرض فلسطين ولا تستعبدهم وكان قد استعبدهم أربعمائة سنة (قال) فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما الله به (ألم نربك فينا) أى فى حجرنا ومنازلنا أراد بذلك المن عليه والاحتقار له أى ربيناك لدينا (وليدا) أى صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامك ولم نقتلك فيمن قتلنا من الاطفال (ولبثت فينا من عمرك سنين) فمتى كان هذا الذى تدعيه قيل لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة وقيل أربعين سنة ثم وبخه بقتل القبطى فقال (وفعلت فعلتك التى فعلت) الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل كما قيل ع الفعلة للمرة والفعلة للحالة وقرأ الشعبى بكسر الفاء والفتح أولى لانها للمرة الواحدة لا للنوع والمعنى أنه عدد عليه النعم وذكر له ذنوبه وأراد بالفعلة قتل القبطى ثم قال (وأنت من الكافرين) للنعمة حيث قتلت رجلا من أصحابى وقيل من الكافرين بأن فرعون اله وقيل من الكافرين بالله فى زعمه لانه كان معهم على دينهم (قال) موسى مجيبا لفرعون (فعلتها اذا) أى فعلت هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى (وأنا) اذ ذاك (من الضالين) أى الجاهلين قاله ابن عباس فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذى علمه الله وقيل المعنى من الجاهلين ان تلك الوكزة تبلغ القتل وقال أبو عبيدة من الناسين وقيل من المخطئين قال ابن جرير العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال (ففررت منكم) أى خرجت من بينكم الى مدين كما فى سورة القصص (لما خفتكم) ان تقتلونى وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج الآية (فوهب لى ربى حكما) أى نبوة أو علما وفهما وقال الزجاج المراد بالحكم تعليمه التوراة التى فيها حكم الله (وجعلنى من المرسلين) أى من جملة رسله رد بذلك ما وبخه به فرعون قدحا فى نبوته وهو القتل بغير حق ووجه الرد أن موهبة الحكم والنبوة كانت بعد تلك الحادثة (وتلك نعمة تمنها على) قيل هذا الكلام من موسى على جهة الاقرار بالنعمة كأنه قال نعم تلك التربية نعمة تمن بها على ولكن لا يدفع ذلك رسالتى وبهذا قال الفراء وابن جرير وقيل هو من موسى على جهة الانكار أى أتمن على بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى اسرائيل وقتلتهم وهم قومى قال الزجاج المفسرون أخرجوا هذا على جهة الانكار لأن يكون ما ذكر فرعون

والترمذى من طرق عن عوف الاعرابى به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح ثم جعلناه نطفة هذا الضمير عائد على جنس الانسان كما
قال فى الآية الاخرى وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين أى ضعيف كما قال ألم نخلقكم من ماء مهين
فجعلناه فى قرار مكين يعنى الرحم معد لذلك مهيأ له الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم
وتنقل من حال الى حال وصفة الى صفة ولهذا قال ههنا ثم خلقنا النطفة علقة أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من
صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى ٨ عظام صدرها ما بين الترقوة الى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة
المستطيلة قال عكرمة وهى دم
فخلقنا العلقة مضغة وهى قطعة
كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا
تخطيط فخلقنا المضغة عظاما يعنى
شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين
بعظامها وعصبها وعروقها وقرأ
آخرون فخلقنا المضغة عظما قال
ابن عباس وهو عظم الصلب
وفى الصحيح من حديث أبى الزناد
عن الاعرج عن أبى هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
كل جسد ابن آدم يبلى الا عجب
الذنب منه خلق ومنه يركب
فكسونا العظام لحما أى جعلنا على
ذلك ما يستره ويشده ويقويه ثم
أنشأناه خلقا آخر أى ثم نفخنا فيه
الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا
سمع وبصر وادراك وحركة
واضطراب فتبارك الله أحسن
الخالقين وقال ابن أبى حاتم حدثنا
على بن الحسين حدثنا جعفر بن
مسافر حدثنا يحيى بن حسان
حدثنا النضر يعنى ابن كثير مولى
بنى هاشم حدثنا زيد بن على عن
أبيه عن على بن أبى طالب رضى
الله عنه قال اذا أتت على النطفة
أربعة أشهر بعث الله اليها ملكا فنفخ فيها الروح فى ظلمات ثلاث فذلك قوله ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى
نفخنا فيه الروح وروى عن أبى سعيد الخدرى انه نفخ الروح قال ابن عباس ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى فنفخنا فيه الروح
وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد واختاره ابن جرير وقال
العوفى عن ابن عباس ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى ينقله من حال الى حال الى ان خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا
ثم شيخا ثم هرما وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع فى هذه التنقلات والاحوال والله أعلم

نعمة على موسى واللفظ لفظ خبر وفيه تبكيت للمخاطب على معنى أنك لو كنت لا تقتل
أبناء بنى اسرائيل لكانت أمى مستغنية عن قذفى فى البحر فكأنك تمن على ما كان بلاؤك
سببا له وذكر نحوه الازهرى باسط منه وقال المبرد يقول التربية كانت بالسبب الذى
ذكرت من التعبد أى تربيتك اياى كانت لاجل التملك والقهر لقومى وقيل ان فى الكلام
تقدير الاستفهام أى أو تلك نعمة قاله الاخفش وأنكره النحاس قال الفراء ومن قال
ان الكلام انكار قال أو تلك نعمة أى ليست هذه نعمة حتى تمن بها على ومعنى (أن عبدت
بنى اسرائيل) ان اتخذتهم عبيدا يقال عبدته وأعبدته بمعنى كذا قال الفراء ومحله الرفع
على انه خبر مبتدا محذوف أو بدل من نعمة والجر باضمار الباء والنصب بحذفها وعن
مجاهد قال عبدت بنى اسرائيل قهرتهم واستعملتهم وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين
(قال فرعون وما رب العالمين) أى لما سمع قول موسى وهرون انا رسول رب العالمين قال
مستفسرا لهما عن ذلك عازما على الاعتراض لما قالاه أى أى شىء هو جاء فى الاستفهام بما
التى يستفهم بها عن المجهول ويطلب بها تعيين الجنس وقيل معناه وما صفته تقول ما زيد
أى طويل أم قصير فقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره فلما قال فرعون
ذلك (قال) موسى (رب السموات والارض وما بينهما) أى بين الجنسين فعين له
ما أراد بالعالمين وترك جواب ما سأل عنه فرعون لانه سأل عن جنس رب العالمين ولا جنس
له فأجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الالهية التى تتضح لكل سامع انه سبحانه الرب
ولا رب غيره وفيه ابطال لدعواه انه اله (ان كنتم موقنين) بشىء من الاشياء فهذا أولى
بالايقان لظهوره وانارة دليله وهو العلم الذى يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن
(قال) فرعون (لمن حوله) من اشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الاساور
وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) ما قاله يعنى موسى معجبا لهم من ضعف المقالة
كأنه قال أتسمعون وتعجبون يعنى سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله أو يزعم انه رب
السموات وهى واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية أو غير معلوم افتقارها الى مؤثر
والعدول عن الجواب المطابق متعين لاستحالته فالسؤال عن الحقيقة سفه وعبث وحمق
وهذا من اللعين مغالطة لما لم يجد جوابا عن الحجة التى أوردها عليه موسى فلما سمع موسى
ما قاله فرعون أورد عليه حجة أخرى هى مندرجة تحت الحجة الاولى ولكنها أقرب الى فهم

السامعين

قال الامام احمد في مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد فوالذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه (٩) الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الاعمش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبي خيثمة قال قال عبد الله يعني ابن مسعود ان النطفة اذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتمكث أربعين يوما ثم تعود في الرحم فتكون علقة وقال الامام أحمد أيضا حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودي ان هذا يزعم انه نبي فقال لاسألنه عن شئ لا يعلمه الا نبي قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الانسان فقال يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فاما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم فقال هكذا كان يقول من قبلك وقال الامام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله فيكتبان ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو وهو ابن دينار نحوه ومن طرق أخر عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله وكل بالرحم

الساعين (قال ربكم ورب آبائكم الاولين) وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لان أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم ان فرعون مربوب لا رب كما يدعيه والمعنى ان هذا الرب الذي أدعوكم اليه هو الذي خلق آباءكم الاولين وخلقكم فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم وله آباء قد فنوا كآبائكم فلم يجبه فرعون عند ذلك بشئ يعتد به بل جاء بما يشكك قومه ويخيل اليهم ان هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء (قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) قاصدا بذلك المغالطة وايقاعهم في الحيرة مظهرا انه مستخف بما قاله موسى مستهزئ به لانى أسأله عن شئ ويجيبني عن آخر وأضافه الى مخاطبيه ترفعا عن ان يكون مرسلا الى نفسه فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الاول (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما) خصهما لانهما أوضح دلالة وأظهر وذلك انه أراد بالمشرق طلوع الشمس وطلوع النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ومعلوم ان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم لا يكون الا بتقدير قادر حكيم والمعنى ليس ملكه كملكك لانك انما تملك بلدا واحدا لا يجرى أمرك في غيره ويموت فيه من لا تحب أن يموت والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب وما بينهما أي فتشاهدون في كل يوم انه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها الى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه اليه من الجنون بل بين لفرعون شمول ربوبية الله للمشرق والمغرب وما بينهما وان كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات والارض وما بينهما لما تقدم ولان فيه تصريحا باسناد حركات السموات وما فيها وتغيير أحوالها وأوضاعها تارة بالنور وتارة بالظلمة الى الله وقيل علم موسى ان قصده في السؤال معرفة من سأل عنه فأجاب بما هو الطريق الى معرفة الرب (ان كنتم تعقلون) شيأ من الاشياء أو ان كنتم من أهل العقول أي ان كنت يا فرعون ومن معك من العقلاء عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك الا ما ذكرت لك لاينهم أولا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم ان كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وأغلظ عليهم في الرد وعارضهم بمثل مقالتهم بقوله ان كنتم تعقلون لانه ابلغ وأوفق بما قبله من رد نسبة الجنون اليه ثم ان اللعين لما انقطع عن الحجة رجع الى

ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فاذا أراد الله خلقها قال أي رب ذكرا أو أنثى شقي أو سعيد فما الرزق والأجل فيكتب في بطن أمه أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله فتبارك الله أحسن الخالقين يعني حين ذكر في خلق هذه النطفة من حال الى حال وشكل الى شكل حتى تصورت الى ما صارت اليه من الانسان السوي الكامل الخلق قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس قال قال عمر يعني (١) ابن الخطاب رضي الله عنه وافقت ربي ووافقني في أربع نزلت هذه الآية ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت فتبارك الله أحسن الخالقين وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا آدم بن أبي اياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد بن ثابت الانصاري قال أملى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى قوله خلقا آخر فقال معاذ فتبارك الله أحسن الخالقين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم ضحكت يا رسول الله فقال بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين وفي اسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جدا وفي خبره هذا نكارة شديدة وذلك ان هذه السورة مكية وزيد بن ثابت انما كتب الوحي بالمدينة وكذلك اسلام معاذ بن جبل انما كان بالمدينة أيضا فالله أعلم وقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون يعني بعد هذه النشأة الاولى من العدم تصيرون الى الموت ثم انكم يوم القيامة تبعثون يعني النشأة الآخرة ثم الله ينشئ النشأة الآخرة يعني يوم المعاد وقيام الارواح الى الاجساد فيحاسب الخلائق ويوفي كل عامل عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) لما ذكر تعالى خلق الانسان عطف بذكر خلق السموات السبع وكثيرا ما يذكر تعالى خلق السموات والارض مع خلق الانسان كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والارض ثم بيان خلق الانسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد وقوله سبع طرائق

الاستعلاء والغلب والتهديد وهكذا ديدن المعاند المحجوج (قال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين) أي من أهل السجن واللام للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني وكان سجن فرعون أشد من القتل لانه اذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت وكان يطرحه في هوة عميقة في مكان تحت الارض وحده ولذلك جعل أبلغ من لأقتلنك ثم وعد موسى بالسجن ولم يقل ما دل ذلك على ان هذا الاله أرسلك لان فيه الاعتراف بان ثم الها غيره وفي توعده بالسجن ضعف لما روي انه كان يفزع من موسى فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله فلما سمع موسى عليه الصلاة والسلام ذلك لاطفه طمعا في اجابته وارخاء لعنان المناظرة معه مريدا لقهره بالحجة المعتبرة في باب النبوة وهي اظهار المعجزة وعرض له على وجه يلجئه الى طلب المعجزة (قال أولو جئتك بشئ مبين) أي أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشئ يتبين به صدقي ويظهر عندك صحة دعواي يعني المعجزة فانها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والهمزة ههنا للاستفهام والواو للعطف على مقدر كما مر مرارا فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى (قال فأت به ان كنت من الصادقين) في دعواك وانما أمره بذلك لظنه انه يقدر على معارضته وهذا الشرط جوابه محذوف لانه قد تقدم ما دل عليه وعند ذلك أظهر موسى المعجزة (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) أي ظاهر ثعبانيته ليس بتمويه وتخييل كما يفعل السحرة قيل انها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون فقال بالذي أرسلك الا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في سورة الاعراف واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الارض فانثعب أي فجرته فانفجر وقد عبر سبحانه في موضع آخر عن الثعبان بالحية بقوله فاذا هي حية تسعى وفي موضع بالجان فقال كأنها جان والجان هو المائل الى الصغر والثعبان هو المائل الى الكبر والحية جنس يشمل الكبير والصغير (ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين) خلاف ما كانت عليه من الادمة وفيه دليل على ان بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نوريا قال ابن عباس يقول وأخرج موسى يده من جيبه فاذا هي بيضاء تلمع للناظرين لمن ينظر اليها ويراها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يغشى الابصار ويسد الافق

(قال

قال مجاهد يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شئ قدير وان الله قد أحاط بكل شئ علما وهكذا قال ههنا ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين أى ويعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا جبل الا يعلم ما فى وعره ولا بحر الا يعلم ما فى قعره ويعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والاشجار وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) يذكر تعالى نعمه على عبيده التى لا تعد ولا تحصى فى انزاله القطر من السماء بقدر أى بحسب الحاجة لا كثيرا فيفسد الارض والعمران ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار بل بقدر الحاجة اليه من السقى والشرب والانتفاع به حتى ان الاراضى التى تحتاج ماء كثيرا لزرعها ولا تحتمل دمنتها انزال المطر عليها يسوق اليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ويقال لها الارض الجرز يسوق الله اليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان امطارها فيأتى الماء يحمل طينا أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لان أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور وقوله فأسكناه فى الارض أى جعلنا الماء اذا نزل من السحاب يخلد فى الارض وجعلنا فى الارض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى وقوله وانا على ذهاب به لقادرون أى لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ولو شئنا لأذى اصرفناه عنكم الى السباخ والبرارى والقفار لفعلنا ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الارض بل ينجر على وجهها لفعلنا ولو شئنا لجعلناه اذا نزل فيها يغور الى مدى لا تصلون اليه ولا تنتفعون به

(قال للملا) مستقرين (حوله ان هذا الساحر عليم) فائق فى علم السحر وكان زمان السحر فلهذا روّج فرعون هذا القول على قومه ثم قال على سبيل التنفير (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) لئلا يقبلوا قول موسى عليه الصلاة والسلام (فماذا تأمرون) أى ما رأيكم فيه وما مشورتكم فى مثله فاظهر لهم الميل الى ما يقولونه تألفا لهم واستجلابا لمودتهم لانه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال وقارب ما كان يعززه عليهم الاضمحلال والا فهو أكبرتيها وأعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من افرادهم وواحد منهم مع كونه قبل هذا الوقت يدعى انه الههم ويذعنون له بذلك ويصدقونه فى دعواه قال أبو السعود بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعدما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما من أرجيته اذا أخرته وقيل المعنى احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) للسحرة وهم الشرط الذين يحشرون الناس أى يجمعونهم (يأتوك بكل سحار عليم) هذا ما أشاروا به عليه وجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه والمراد بالسحار العليم الفائق فى معرفة السحر وصنعته أى يفضل موسى ويفوق ويزيد عليه فى علم السحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو يوم الزينة كما فى قوله قال موعدكم يوم الزينة وكان يوم عيد لهم أو يوم سوق وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى من يوم الزينة حيث قال وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت أى حد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الاحرام والصلاة (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ولمن تكون الغلبة وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور وطلبا أن يكون بجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده لانه يعلم ان حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين والانقهار للمبطلين (لعلنا نتبع السحرة) فى دينهم (ان كانوا

لتعطشوا ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الارض ويسلكه ينابيع في الارض فيفتح
والابار ويسقي به الزروع والثمار وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله
المنة وقوله فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب يعني فأخرجنا لكم مما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق
ذات بهجة أي ذات منظر حسن وقوله من نخيل وأعناب أي فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء
وبين نظيره وكذلك في حق كل أهل اقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره وقوله لكم
فيها فواكه كثيرة أي من جميع
الثمار كما قال ينبت لكم به الزرع
والزيتون والنخيل والاعناب ومن
كل الثمرات وقوله ومنها تأكلون
كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره
تنظرون الى حسنه ونضجه ومنه
تأكلون وقوله وشجرة تخرج من
طور سيناء يعني الزيتونة والطور
هو الجبل وقال بعضهم انما يسمى
طورا اذا كان فيه شجر فان عري عنها
سمي جبلا لا طورا فالله أعلم وطور
سيناء هو طور سينين وهو الجبل
الذي كلم الله عليه موسى بن عمران
عليه السلام وما حوله من الجبال
التي فيها شجر الزيتون وقوله
تنبت بالدهن قال بعضهم الباء زائدة
وتقديره تنبت الدهن كما في قول
العرب ألقى فلان بيده أي يده وأما
على قول من يضمن الفعل فتقديره
تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ولهذا
قال وصبغ أي أدم قاله قتادة
للآكلين أي فيها ما ينتفع به من
الدهن والاصطباغ كما قال الامام
أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن
عيسى عن عطاء الشامي عن أبي
أسيد واسمه مالك بن ربيعة
الساعدي الانصاري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من
شجرة مباركة وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق انا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال ائتدموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق قال
الترمذي ولا يعرف الا من حديثه وكان يضطرب فيه فربما ذكر فيه عمر وربما لم يذكره وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا عبد الله بن
أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن

هم الغالبين) لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وانما
مرادهم أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على
الاهتمام والجد في المغالبة قاله أبو السعود وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون على طريقة
الاستهزاء (فلما جاء السحرة) أي فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على
ما سيفعلونه (وقالوا لفرعون أئن لنا لأجرا) أي لجزاء تجزينا به من مال أو جاه وقيل
أرادوا أئن لنا ثوابا عظيما ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى فقالوا (ان كنا نحن الغالبين)
فوافقهم فرعون على ذلك و (قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) أي نعم لكم ذلك الاجر
والجعل عندي على عملكم السحر مع زيادة عليه وهي كونكم من المقربين لدي
(قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) من السحر فسوف ترون عاقبته وفي آية أخرى قالوا
اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين فيحمل ما ههنا على انه قال لهم ألقوا بعد ان قالوا
هذا القول ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر والتمويه بل أراد أن
يقهرهم بالحجة توسلا الى اظهار الحق ويظهر لهم ان الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي
أرادوا معارضته به (فألقوا حبالهم وعصيهم) سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا
وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصي فيخيلون انها حيات تسعى (وقالوا)
عند الالقاء (بعزة فرعون) أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية وقولهم هذا
يحتمل وجهين الاول انه قسم وجوابه ما بعده والثاني أن يتعلق بمحذوف والباء للسببية
والمراد بالعزة العظمة (انا لنحن الغالبون) أي نغلب بسبب عزته لفرط اعتقادهم في
أنفسهم بالغلبة واتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هي
تلقف ما يأفكون) قد تقدم تفسير هذا مستوفى والمعنى انها تبتلع وتلقف ما صدر
منهم من الافك باخراج الشيء عن صورته الحقيقية قيل ان عصا موسى صارت حية
وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فاذا هي كما كانت أول مرة
(فألقي السحرة) أي خروا وسقطوا (ساجدين) أي لما شاهدوا ذلك علموا أنه صنيع
صانع حكيم ليس من صنيع البشر ولا من تمويه السحرة فآمنوا بالله وسجدوا له وأجابوا
دعوة موسى وقبلوا نبوته وعبر عن الخرور بالالقاء بطريق المشاكلة لانه ذكر مع الالقاآت
ولانهم

الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتا وقال هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وقوله وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون يذكر تعالى ماجعل لخلقه في الانعام من المنافع وذلك انهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الاحمال الثقال الى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم وقال تعالى أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه الى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون أي لاتخافون من الله في اشراككم به فقال الملأ وهم السادة والاكابر منهم ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم يعنون يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي اليه دونكم ولو شاء الله لانزل ملائكة أي لو أراد أن يبعث نبيا لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشرا ماسمعنا بهذا أي ببعثة البشر في آبائنا الاولين يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية وقوله ان هو الا رجل به جنة أي مجنون فيما يزعمه من ان الله أرسله اليكم واختصه من بينكم بالوحي فتربصوا به حتى حين أي انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه (قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان في ذلك لآيات وان

ولامهم لسرعة ماسجدوا وصاروا كأنهم ألقوا وأخذوا فطرحوا على وجوههم وانه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق وقد تقدم بيان معنى ألقي ومن فاعله لوقوع التصريح به قال الشهاب ففي فألقي استعارة تبعية حسنها المشاكلة وليس مجازا مرسلا وان احتمله النظم ووجه الشبه عدم التمالك (قالوا) عند سجودهم بدل اشتمال من ألقي أو حال باضمار قد (آمنا برب العالمين) قال عكرمة أمسوا سحرة وأصبحوا شهداء (رب موسى وهرون) بدل للتوضيح والاشعار بأن سبب ايمانهم ما أجراه الله تعالى على يديهما لعلمهم بأن ماشاهدوه من العصا لايتأتى بالسحر وأضافوه سبحانه اليهما لانهما القائمان بالدعوة في تلك الحالة وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس برب وان الرب في الحقيقة هو هذا فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم لله (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم) أي بغير اذن مني قال ذلك لما خاف على قومه ان يتبعوا السحرة ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا وموهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر (انه لكبيركم الذي علمكم السحر) وانما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لايحب الاعتراف بشئ يرتفع به شأن موسى لانه قد علم كل من حضر أن ماجاء به موسى أبهر مما جاءت به السحرة فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم وان كان قد فاق على مافعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة فلا تظنوا أنه فعل لايقدر عليه البشر وانه من فعل الرب الذي يدعو اليه موسى ولا تعتقدوا ان السحرة آمنوا على بصيرة وظهور حق يعني ان غلبته عليكم لم تكن بالمعجز الالهي بل بما لم يعلمكم من السحر وأنتم اضعف عقولكم حسبتم انه غلبكم بغير جنس السحر فآمنتم ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله فقال (فلسوف تعلمون) وبال مافعلتم وما ينالكم مني أجمل التهديد أولا للتهويل ثم فصله فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي من أجل خلاف ظهر منكم وقيل أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى (ولأصلبنكم أجمعين) كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم في الايمان قيل انه فعل بهم ماتوعدهم به من التقطيع والتصليب وقيل لم يفعله بهم ولم يرد في القرآن مايدل على انه فعل بهم ذلك فلما سمعوا ذلك من قوله (قالوا لا ضير) أي لاضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا فان ذلك

كالمثلين) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبرا عنه في الآية الأخرى فدعا ربه أني مغلوب فانتصر وقال ههنا رب انصرني بما كذبون فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله إلا من سبق عليه القول منهم أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم وقوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون أي عند معاينة (١٤) إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا وقوله فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين كما قال وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين وقوله إن في ذلك لآيات أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أي لحجج ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤا به عن الله تعالى وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء وقوله وإن كنا لمبتلين أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن وبه

يزول ولا بد من الانقلاب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحد ولا يوصف قال الهروي لا ضير ولا ضرر ولا ضر بمعنى واحد قال الجوهري ضاره يضوره ويضيره ضيرا وضورا أي ضره قال الكسائي سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني قال أبو زيد لا يضيرنا الذي تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا (إنا إلى ربنا منقلبون) أي راجعون وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا وثباتنا على توحيده والبراءة من الكفر قاله أبو زيد تعليل لعدم الضير أي لا ضير في ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما توعدتنا به من القتل إذ لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهونها وأرجاها (إنا نطمع) أي نرجو (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أي الكفر والسحر ثم علل ذلك بقولهم (أن كنا) أي بسبب أن كنا (أول المؤمنين) أي إنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد وقال الفراء أول مؤمني زمانهم وأنكره الزجاج وقال قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفا وهم الذين عناهم فرعون بقوله إن هؤلاء لشرذمة قليلون قال أبو زيد كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآيته حين رأوها (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي) أمر الله سبحانه موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلا إلى البحر أي لا إلى جهة الشام بل هو هذا بعد سنين من إيمان السحرة وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الأعراف (إنكم متبعون) تعليل للأمر المتقدم أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم وأغرقهم (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) وذلك حين بلغه خروجهم والمراد بالحاشرين الجامعون للجيش من الأمكنة التي فيها أتباع فرعون ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) يريد بني إسرائيل والشرذمة الجمع الحقير القليل والجمع شراذم قال الجوهري الشرذمة الطائفة القليلة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع قال الفراء يقال عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون قال المبرد الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير وجمعها الشراذم قال الواحدي قال المفسرون وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف

نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) يخبر تعالى انه أنشأ بعد قوم نوح قرنا آخرين قيل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل المراد بهؤلاء ثمود لقوله فأخذتهم الصيحة بالحق وانه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون أي بعيد بعيد ذلك ان هو الا رجل افترى على الله كذبا أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والاخبار بالمعاد وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه قال عما قليل ليصبحن نادمين أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به فأخذتهم الصيحة بالحق أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم والظاهر انه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم وقوله فجعلناهم غثاء أي صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه فبعدا للقوم الظالمين كقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) يقول تعالى ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين أي أمما وخلائق ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وخلفا بعد سلف ثم أرسلنا رسلنا تترى قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضا وهذا كقوله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وقوله كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعني جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقوله فأتبعنا بعضهم بعضا أي أهلكناهم كقوله وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وقوله وجعلناهم أحاديث أي

وبه قال ابن عباس ولا يحصى عدد أصحاب فرعون وقال ابن مسعود ستمائة ألف وسبعون ألفا ومقدمة جيشه سبعمائة ألف فقللهم بالنظر الى كثرة جيشه وجملة جيشه ألف ألف وستمائة ألف وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطا فكان في كل طريق اثنا عشر ألفا كلهم ولد يعقوب وأخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند قال السيوطي واه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله سبحانه هو وأصحابه في سبعين قائدا مع كل قائد سبعون ألفا وكان موسى مع سبعين ألفا حيث عبروا البحر وعنه قال كان طلائع قوم فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد الا على بهيم وأقول هذه الاقوال والروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف مايماثلها في الاضطراب والاختلاف ولا يصح منها شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وانهم لنا لغائظون) يقال غاظني كذا وأغاظني والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ أي غاظونا بخروجهم من غير اذن مني (وانا لجميع حاذرون) أي خائفون من شرهم وقرئ حذرون قال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخلوق كذلك أي مجبولا على الحذر لا تلقاه الا حذرا وقال الزجاج الحاذر المستعد والحذر المتيقظ وبه قال الكسائي والمبرد وذهب أبو عبيدة الى ان معنى حاذرون وحذرون واحد وهو قول سيبويه أي وانا لجمع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الامور أشار أولا الى عدم ما يمنع أتباعهم من شوكتهم ثم الى تحقق ما يدعو اليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثا عليه أو اعتذر بذلك الى أهل المدائن كيلا يظن به ما يكسر سلطانه قاله البيضاوي (فأخرجناهم) أي فرعون وقومه أي خلقنا فيهم داعية الخروج فخرجوا (من جنات وعيون وكنوز) أخرجهم الله من أرض مصر ليلحقوا موسى وقومه وفيها الجنات والبساتين على جانبي النيل من أسوان الى رشيد وهي جمع جنة وعين وكنز والمراد بالكنوز الخزائن وقيل الدفائن وقيل الانهار وفيه نظر لان العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء فتدخل تحتها الانهار والمراد بالكنوز الاموال الظاهرة من الذهب والفضة وسميت كنوزا لانه لم يعط حق الله منها وفي الشهاب المراد بها اما الاموال التي تحت الارض وخصها لان ما فوقها انطمس أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لانه يقال له كنز والاول أوفق باللغة

أخبارًا وأحاديث للناس كقوله فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين
إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قومًا عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين
ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملئه بالآيات
والحجج الدامغات والبراهين القاطعات وان فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين
كما أنكرت الأمم الماضية بعثة (١٦) الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم
واحد أجمعين وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى وقوله وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين قال الضحاك عن ابن عباس الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وقتادة قال ابن عباس
وقوله ذات قرار يقول ذات خصب ومعين يعني ماء ظاهرًا وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وقال فقالوا
مجاهد ربوة مستوية وقال سعيد بن جبير ذات قرار ومعين استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة ومعين الماء الجاري ثم اختلف
المفسرون في مكان هذه الربوة من أي أرض هي فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ليس الربا إلا بمصر والماء حين يرسل يكون الربا عليها
القرى ولولا الربا غرقت القرى وروي عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جدًا وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله
وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين قال هي دمشق قال وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك

والثاني مروي عن السلف فلا وجه لتحكيمهما (ومقام كريم) أي مجلس حسن واختلف في تفسيره فقيل المنازل الحسان وقيل المنابر قاله ابن عباس وقيل مجالس الرؤساء والأمراء والوزراء حكاه ابن عيسى وقيل مرابط الخيل والأول أظهر وقال سعيد بن جبير يعني أن المقام الكريم الفيوم (كذلك) أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا أو مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم أو الأمر كذلك (وأورثناها بني إسرائيل) أي جعلناها ملكًا لهم بعد إغراق فرعون وقومه قال الحسن لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وجناتهم وأموالهم وعيونهم وقيل أراد بالوراثة هنا ما استعاروا من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى وقيل ما تركهم الجنة والكنوز قلت وكلا الأمرين حصل لهم والحمد لله (فأتبعوهم) بقطع الهمزة وقرئ بوصلها وتشديد التاء أي فلحقوهم حال كونهم (مشرقين) أي داخلين في وقت الشروق فقال شرقت الشمس شروقًا إذا طلعت كأصبح وأمسى أي دخل في هذين الوقتين وقيل داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم وقيل مضيئين قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت (فلما تراءى الجمعان) أي تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه وهو تفاعل من الرؤية وقرئ تراءت الفئتان والمراد بنو إسرائيل والقبط (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم وهذه قراءة الجمهور يعني اسم مفعول من أدرك ومنه حتى إذا أدركه الغرق وقرئ بفتح الدال المشددة وكسر الراء قال الفراء هما بمعنى واحد قال النحاس ليس كذلك يقول النحويون الحذاق إنما يقولون مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم قال وهذا معنى قول سيبويه وقال الزمخشري إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد قال موسى زجرًا لهم وردعًا (كلا) يعني إنهم لا يدركونكم وذكرهم وعد الله بالهداية والخلاص والنصر بقوله (إن معي ربي) بالنصر (سيهدين) أي سيدلني على طريق النجاة عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا فقال له علماء بني إسرائيل إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا فقال لهم موسى أيكم يدري أين قبره

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ذات قرار ومعين قال أنهار دمشق وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد وآويناهما الى ربوة قال عيسى بن مريم وامه حين أويا الى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول في قول الله تعالى الى ربوة ذات قرار ومعين قال هي الرملة من فلسطين وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي حدثنا رواد بن الجراح حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة (١٧) حدثنا الشيباني عن ابن وعلة عن كريب السحولي عن مرة البهذي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل انك تموت بالربوة فمات بالرملة وهذا حديث غريب جدا وأقرب الاقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا وكذا قال الضحاك وقتادة الى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الاظهر لانه المذكور في الآية الاخرى والقرآن يفسر بعضه بعضا وهذا أولى ما يفسر به ثم الاحاديث الصحيحة ثم الآثار (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالاكل من الحلال والقيام بالصالح من الاعمال

فقالوا ما يعلم أحد مكان قبره الا عجوز لبني اسرائيل فارسل اليها موسى فقال دلينا على قبر يوسف فقالت لا والله حتى تعطيني حكمي قال وما حكمك قالت أن أكون معك في الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها فاعطاها حكمها فانطلقت بهم الى بحيرة مستنقعة ماء فقالت لهم انضبوا عنها الماء ففعلوا قالت احضروا فحضروا فاستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار فلما عظم البلاء على بني اسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك قوله (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) وذلك أن الله عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله والا فضرب العصا ليس بفارق البحر ولا معينا على ذلك بذاته الا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه وبه نجى موسى وبنو اسرائيل وهلك عدوهم (فانفلق) الفاء فصيحة أي فضرب فصار وانشق اثنى عشر فلقا بعدد الاسباط وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم وهو معنى قوله (فكان كل فرق) هو القطعة من البحر وقرئ فلق باللام بدل الراء (كالطود) كالجبل أو عظيمه والجمع اطواد يقال طاد يطود اذا ثبت (العظيم) أي الضخم بينها مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده قاله ابن عباس وابن مسعود (وأزلفنا ثم الآخرين) أي قربناهم الى البحر قاله ابن عباس قال أبو عبيدة أزلفنا جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع وثم ظرف مكان للبعيد وقيل قربناهم من النجاة وقرئ زلفنا ثلاثيا وقرئ أزلقنا أي أزللنا وأهلكنا من قولهم أزلقت الفرس اذا ألقت ولدها ويعني بالآخرين فرعون وقومه وقيل المراد بهم موسى وأصحابه والاول أولى قيل كان جبريل بين بني اسرائيل وبين قوم فرعون يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ويقول للقبط رويدا ليلحق آخركم أولكم فكان بنو اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياسة من هذا الرجل وكان القبط يقولون ما رأينا أحسن داع من هذا (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بمرورهم في البحر بعد ان جعله الله طرقا يمشون فيها (ثم أغرقنا الآخرين) يعني فرعون وقومه أغرقهم الله باطباق البحر عليهم بعد ان دخلوا فيه متبعين موسى وقومه وخرج بنو اسرائيل منه وفيه ابطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث فانهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم (ان في ذلك) أي فيما صدر بين موسى وفرعون الى

 : فدل هذا على ان الحلال عون على العمل الصالح فقام الانبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولا وعملا ودلالة ونصحا فجزاهم الله عن العباد خيرا قال الحسن البصري في قوله يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال اما والله ما أمركم باصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا الى الحلال منه وقال سعيد بن جبير والضحاك كلوا من الطيبات يعني الحلال وقال أبو اسحق السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه وفي الصحيح وما من نبي الا رعى الغنم قالوا وأنت يا رسول الله قال نعم وأنا كنت ارعاها على قراريط لاهل مكة وفي الصحيح ان داود

عليه السلام كان يأكل من كسب يده وفي الصحيحين ان احب الصلاة الى الله صلاة داود واحب الصيام الى الله صيام داود واحب القيام الى الله قيام داود كان ينام نصف الليل و يقوم ثلثه و ينام سدسه وكان يصوم يوما و يفطر يوما ولا يفر اذا لاقى وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابو اليمان الحكم بن نافع حدثنا ابو بكر بن ابى مريم عن ضمرة بن حبيب ان ام عبد الله بنت شداد بن اوس قالت بعثت الى النبي صلى الله عليه وسلم (١) بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد اليها رسولها ان كانت لك الشاة فقالت اشتريتها من مالي فشرب (١٨) منه فلما كان من الغد اتته ام عبد الله بنت شداد فقالت يا رسول الله بعثت اليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الى الرسول فيه فقال لها بذلك أمرت الرسل لا تأكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الامام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن ابي حازم عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ايها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه الى السماء يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث فضيل بن مرزوق وقوله وان هذه امتكم امة واحدة اي دينكم يا معشر الانبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال وانا ربكم فاتقون وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الانبياء وان قوله امة واحدة منصوب على الحال وقوله فتقطعوا امرهم بينهم زبرا أي الامم الذين بعثت اليهم الانبياء كل حزب بما لديهم فرحون أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لانهم يحسبون انهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتوعدا فذرهم في غمرتهم أي غيهم وضلالهم حتى حين أي الى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى فمهل الكافرين أمهلهم رويدا وقال تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون وقوله أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون يعني أيظن هؤلاء المغرورون ان ما نعطيهم من الاموال

(١) بقدح لبن عند فطره كذا بالنسخ التي بايدينا ولعل فيه سقطا والاصل يشرب به عند فطره أو نحو ذلك فحرر وانظر اه

هذه الغاية (لآية) عبرة عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه لمن بعدهم (وما كان أكثرهم) أي أكثر هؤلاء الذين مع فرعون (مؤمنين) بالله فانه لم يؤمن منهم فيما بعد الا القليل كحزقيل وابنته وآسية امرأة فرعون والعجوز التي دلت على قبر يوسف وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى فانهم هلكوا جميعا في البحر بل المراد من كان معه من الاصل ومن كان متابعا له ومنتسبا اليه هذا غاية ما يمكن أن يقال وقال سيبويه وغيره ان كان زائدة وان المراد الاخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة (وان ربك لهو العزيز) أي المنتقم من أعدائه باغراقهم (الرحيم) باوليائه بانجائهم (واتل) أي اقصص يا محمد (عليهم) أي على كفار مكة (نبأ) خبر (ابراهيم) وحديثه (اذ قال) أي وقت قوله (لابيه وقومه ما) أي أي شئ (تعبدون) وهو يعلم انهم يعبدون الاصنام ولكنه أراد الزامهم الحجة وليريهم ان ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة بل بمعزل عنها بالكلية (قالوا نعبد اصناما) افتخارا ومباهاة بعبادتها (فنظل لها عاكفين) أي فنقيم وندوم على عبادتها مستمرين طول النهار لا في وقت معين يقال ظل يفعل كذا اذا فعله نهارا وبات يفعل كذا اذا فعله ليلا فظاهره انهم يستمرون على عبادتها نهارا الا ليلا والمراد من العكوف لها الاقامة على عبادتها وانما قال لها لافادة ان ذلك العكوف لاجلها فلما قالوا هذه المقالة (قال) ابراهيم منبها على فساد مذهبهم (هل يسمعونكم اذ تدعون) قال الاخفش المعنى هل يسمعون منكم أو هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم قال الزمخشري انه على حكاية الحال الماضية ومعناه استحضروا الاحوال التي كنتم تدعونها فيها هل سمعوكم اذا دعوتم وهو أبلغ في التبكيت (أو ينفعونكم) بوجه من وجوه النفع ان عبدتموها (أو يضرون) أي يضرونكم اذا تركتم عبادتها وهذا الاستفهام للتقرير فانها اذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضر فلا وجه لعبادتها فاذا قالوا نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث والسفه وعند ذلك تقوم الحجة عليهم فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جوابا الا رجوعهم الى التقليد البحت وهو أنهم (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) هذه العبادة لهذه الاصنام فقلدناهم مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها وفي أبي السعود هذا الجواب منهم اعتراف بانها بمعزل عما

والاولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الامر كما يزعمون في قولهم نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين لقد أخطؤا
في ذلك وخاب رجاؤهم بل انما نفعل بهم ذلك استدراجا وانظارا واملاء ولهذا قال بل لا يشعرون كما قال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا
أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وقال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقال تعالى فذرني ومن يكذب بهذا
الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم الآية وقال ذرني ومن خلقت وحيدا الى قوله عنيدا وقال تعالى وما أموالكم
ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا الآية والآيات في هذا كثيرة قال قتادة في قوله

أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون قال مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالايمان والعمل الصالح وقال الامام احمد حدثنا محمد حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين الا لمن احب فمن اعطاه الله الدين فقد احبه والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه يا رسول الله قال غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار ان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ان الخبيث لا يمحو الخبيث

(ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) يقول تعالى
ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون أي هم مع احسانهم وايمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره
بهم كما قال الحسن البصري ان المؤمن جمع احسانا وشفقة وان المنافق جمع اساءة وأمنا والذين هم بآيات ربهم يؤمنون أي يؤمنون
بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى اخبارا عن مريم عليها السلام وصدقت بكلمات ربها وكتبه أي أيقنت أن ما كان انما
هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو ان كان أمرا فمما يحبه ويرضاه وان كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وان كان خيرا فهو

عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار ان لا مستند لهم سوى
التقليد أي ما علمنا ولا رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون
فاقتدينا بهم انتهى قال الخازن وفي الآية دليل على ابطال التقليد في الدين وذمه ومدح
الاخذ بالاستدلال انتهى وهذا الجواب هو العصى التي يتوكأ عليها كل عاجز ويمشي بها
كل أعرج ويغتر بها كل مغرور وينخدع لها كل مخدوع فانك لو سألت الآن هذه المقلدة
للرجال التي طبقت الارض بطولها والعرض وقلت لهم ما الحجة لكم على تقليد فرد من
افراد العلماء والاخذ بكل ما يقوله في الدين ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا
غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه وأخذوا يعدون عليك من سبقهم الى تقليد هذا من
سلفهم واقتدى بقوله وفعله وهم قد ملؤا صدورهم هيبة وضاقت أذهانهم عن تصورهم
وظنوا انهم خير أهل الارض وأعلمهم وأورعهم فلم يسمعوا لناصح نصحا ولا لداع الى الحق
دعاء ولو فطنوا لرأوا انفسهم في غرور عظيم وجهل شنيع وانهم كالبهيمة العمياء وأولئك
الاسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي كما قال الشاعر

كبهيمة عمياء قاد زمامها * أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف أن تورد عليهم حجج الله
وتقيم عليهم براهينه فانه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه وأما من قد
استحكم في قلبه هذا الداء العضال فلو أوردت عليه كل حجة وأقمت عليه كل برهان لما
أعارك الا أذنا صماء وعينا عمياء ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن
والهداية بيد الخلاق العليم انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ولما قال
هؤلاء المقلدة هذه المقالة (قال) الخليل عليه السلام (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم
وآباؤكم الاقدمون) أي فهل ابصرتم او تفكرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون من هذه
الاصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر حتى تعلموا انكم على ضلالة وجهالة والرؤية هنا
مستعملة في معناها الاصلي واليه نحا أبو السعود وصنيع الكازروني يقتضي انها بمعنى
اخبروني أي أخبروني عن حال ما كنتم تعبدون هل هو حقيق بالعبادة او لا وهذا استهزاء
بعبدة الاصنام والفاء فاء السببية تفيد أن ما بعدها وهو العداوة سبب لطلب الاخبار عن
حالهم فهي بمعنى اللام أي اخبروني عن حالها لانها عدو لي كما صرح به الرضي في قوله اخرج

حق كما قال الله والذين هم بربهم لا يشركون أي لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفء له وقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء وهذا من باب الإشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل قال لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به نحوه قال الترمذي وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون وروى هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا إسمعيل المكي حدثنا أبو خلف مولى بني جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقالت مرحباً بأبي عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا فقال أخشى أن أهلك فقالت ما كنت لتفعل قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها قالت أية آية قال الذين يؤتون ما آتوا أو الذين يأتون ما أتوا فقالت أيتهما أحب إليك فقلت والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلي من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هي فقلت الذين يأتون ما أتوا فقالت أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف فيه إسمعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لأنه قال أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين والله أعلم

منهما فإنك رحيم ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها فقال (فإنهم عدو لي) ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً أنه إن عبدهم كانوا له عدواً يوم القيامة قال الفراء هذا من المقلوب أي فإني عدو لهم لأن من عاديته عاداك وأسند العداوة إلى نفسه تعريضاً بهم وهو أنفع في النصيحة من التصريح بأن يقول فإنهم عدو لكم والعدو كالصديق يطلق على الواحد والمثنى والجماعة والمذكر والمؤنث كذا قال الفراء قال علي بن سليمان من قال عدوة الله فأثبت الهاء قال هي بمعنى المعادية ومن قال عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب وقيل المراد بقوله فإنهم عدو لي آباؤهم الأقدمون لأجل عبادتهم للأصنام ورد بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا في العابدين (إلا) أي لكن (رب العالمين) ليس كذلك بل هو وليي في الدنيا والآخرة لا يزال متفضلاً علي فيهما قال الزجاج قال النحويون هو استثناء ليس من الأول وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله فإني أعبده قال الجرجاني تقديره أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدو لي فجعله من باب التقديم والتأخير وجعل إلا بمعنى دون وسوى كقوله لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى أي دون الموتة الأولى وقال الحسن بن الفضل إن المعنى إلا من عبد رب العالمين ثم وصف رب العالمين بقوله (الذي خلقني فهو يهدين) أي يرشدني إلى مصالح الدين والدنيا وطرق النجاة وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله فإن الخلق والهداية والرزق الذي يدل عليه قوله (والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) ودفع المرض وجلب مع الشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة للذنب كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها وأولاها العبادة ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الرب كما قال الخضر فأردت أن أعيبها وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما وإلا فالمرض والشفاء من الله سبحانه (والذي يميتني ثم يحيين) المراد بالإحياء البعث ولهذا عطف هنا بثم خلاف ما قبله لاتساع الأمر بين الإماتة والإحياء لأن المراد به الإحياء في الآخرة وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي وقرئ كلها بإثبات الياء وإنما قال

عليه

(ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون) يقول تعالى مخبرا عن عدله فى شرعه على عباده فى الدنيا انه لا يكلف نفسا الا وسعها أى الا ما تطيق حمله والقيام به وانه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شئ ولهذا قال ولدينا كتاب ينطق بالحق يعنى كتاب الاعمال وهم لا يظلمون

أى لا يبخسون من الخير شيأ وأما السيآت فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش بل قلوبهم فى غمرة أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ولهم أعمال أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك وهم لها عاملون قال لا بد ان يعملوها وكذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد وقال آخرون ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد ان يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود فوالذى لا اله غيره ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وقوله حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون يعنى حتى اذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم اذا هم يجأرون أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ان لدينا انكالا وجحيما الآية وقال تعالى وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وقوله لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الامر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون أى اذا دعيتم أبيتم وان طلبتم امتنعتم ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا

عليه السلام (والذى أطمع ان يغفر لى خطيئتى) هضما لنفسه وتعليما للامة ان يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب ان يغفر لهم ما يفرط منهم وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة المعطوفة للايذان بان كل واحد من تلك الصلات نعت جليل مستقل فى ايجاب الحكم قيل ان الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه وبمعنى الرجاء فى حق سواه وقرئ خطاياى لانها ليست خطيئة واحدة قال النحاس خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب قال مجاهد يعنى بخطيئته قوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم وقوله ان سارة أخته زاد الحسن وقوله للكوكب هذا ربى وحكى الواحدى عن المفسرين انهم فسروا الخطايا بما فسر بها مجاهد قال الزجاج الانبياء بشر ويجوز ان تقع عليهم الخطيئة الا انهم لا تكون منهم الكبيرة لانهم معصومون (يوم الدين) أى يوم الجزاء للعباد باعمالهم ولا يخفى ان تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف فان تلك معاريض وهى أيضا انما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه وعن عائشة قالت قلت يا رسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعاله قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قوله انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه والاعتراف بنعمه وفنون ألطافه الفائضة عليه من حضرة الحق من مبدا خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى فعقبه بالدعاء ليقتدى به غيره فى ذلك فقال (رب هب لى حكما) المراد بالحكم الكمال فى العلم والفهم والعمل يستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق وقيل النبوة والرسالة وقيل المعرفة بحدود الله وأحكامه (وألحقنى بالصالحين) يعنى بالنبيين قبلى فى العمل الصالح وقيل بأهل الجنة أى فى درجاتهم قاله ابن عباس والاول أولى ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى اجعل لى ثناء حسنا وذكرا جميلا وجاها وصيتا وقبولا عاما فى الامم الآخرين الذين يأتون بعدى فى الدنيا يبقى أثره الى يوم القيامة قال القتيبى وضع اللسان موضع القول على الاستعارة لان القول يكون بها وقد تكنى العرب بها عن الكلمة وقد أعطى الله سبحانه ابراهيم ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين وأجاب دعاءه فان كل أمة تتمسك به وتعظمه وكل أهل الاديان يتولونه ويثنون عليه خصوصا هذه الامة وخصوصا فى كل تشهد من

فالحكم لله العلى الكبير وقوله مستكبرين به سامرا تهجرون فى تفسيره قولان احدهما ان مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وابائهم اياه استكبارا عليه واحتقارا له ولاهله وعلى هذا الضمير فى به فيه ثلاثة أقوال أحدها انه الحرم أى مكة ذموا لانهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام والثانى انه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام انه سحر انه شعر انه كهانة الى غير ذلك من الاقوال الباطلة والثالث انه محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يذكرونه فى سمرهم بالاقوال الفاسدة ويضربون له الامثال الباطلة

من انه شاعر او كاهن أو ساحر او كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله مستكبرين به أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون انهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيد الله عن اسرائيل عن عبد الاعلى انه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس انه قال انما كره السمر حين نزلت هذه الآية مستكبرين به سامرا تهجرون فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه وقد أطنب ابن أبى حاتم ههنا بما هذا حاصله (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون) يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وغيره واعراضهم عنه مع انهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير فكان اللائق بهؤلاء ان يقابلوا النعمة التى أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى

تشهدات الصلوات وقال مكى قيل معنى سؤاله ان يكون من ذريته فى آخر الزمان من يقوم بالحق فاجيبت دعوته فى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتكون الآية على تقدير مضاف أى صاحب لسان صدق أو هو مجاز من اطلاق الجزء على الكل لان الدعوة باللسان ولا وجه لهذا التخصيص والتكلف وقال القشيرى أراد الدعاء الحسن الى قيام الساعة ولا وجه لهذا أيضا فان لسان الصدق أعم من ذلك وعن ابن عباس فى الآية قال اجتماع أهل الملل على ابراهيم فما من أمة الا وهى تحبه وتثنى عليه (واجعلنى) وارثا (من ورثة جنة النعيم) أى ممن جاءهم ومن جملتهم أى ممن يعطاها بلا تعب ومشقة كالارث الحاصل للانسان من غير تعب واضافة الجنة الى النعيم من اضافة المحل للحال فيه ولما طلب عليه السلام بالدعوة الاولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة وهى جنة النعيم قيل وجعلها مما يورث تشبيها للغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا وقد تقدم تفسير معنى الوراثة فى سورة مريم (واغفر لابى) كان أبوه قد وعده انه يؤمن به فاستغفر له فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه وقد تقدم تفسير هذا مستوفى فى سورة التوبة وسورة مريم وعن ابن عباس قال امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك (انه كان من الضالين) أى من المشركين الضالين عن طريق الهداية وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم فى غير موضع (ولا تخزنى يوم يبعثون) أى لا تفضحنى على رؤس الاشهاد بمعاتبتى أو عاقبنى على ما فرطت أو لا تعذبنى يوم القيامة وقال ذلك لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا أو المعنى لا تخزنى بتعذيب أبى أو ببعثه فى جملة الضالين أو بنقص رتبتى عن رتبة بعض الوراث والاخزاء يطلق على الخزى وهو الهوان وعلى الخزاية وهى الحياء أى الاستحياء أخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال يلقى ابراهيم اباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لا تعصنى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم رب انك وعدتنى ان لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الابعد فيقول الله انى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول ما تحت رجليك يا ابراهيم فاذا بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار والذيخ هو الذكر من الضباع فكأنه حول آزر الى صورة ذيخ وقد أخرجه النسائى باطول من هذا (يوم لا ينفع) فيه (مال ولا بنون) أحدا من الناس والابن هو أخص القرابة وأولاهم بالحماية والدفع والنفع فاذا لم ينفع

عنهم وقال قتادة أفلم يدبروا القول اذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك ثم قال منكراً على الكافرين من قريش أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم أي أفيقدرون على انكار ذلك والمباهتة فيه ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة أيها الملك ان الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين

سأله وأصحابه عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم الا الصدق فاعترفوا بذلك وقوله أم يقولون به جنة يحكي قول المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه تقول القرآن أي افتراه من عنده أو ان به جنوناً لا يدري ما يقول وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فانه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض ان يأتوا بمثله ان استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون يحتمل ان تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل ان تكون خبرية مستأنفة والله أعلم وقال قتادة ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له أسلم فقال الرجل انك لتدعوني الى أمر أنا له كاره فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم وان كنت كارهاً وذكر لنا انه لقي رجلاً فقال له أسلم فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبي الله صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث فلقيت رجلاً تعرف وجهه ونسبه فدعاك الى طريق واسع سهل أكنت تتبعه قال نعم قال فوالذي نفس محمد بيده انك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه واني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت اليه وذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له أسلم فتصعده ذلك فقال له نبي الله صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما اذا حدثك صدقك واذا ائتمنته أدى اليك أهو أحب اليك أم فتاك الذي اذا حدثك كذبك واذا ائتمنته خانك قال بل فتاي الذي اذا حدثني صدقني واذا ائتمنته أدى الي فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم كذاكم أنتم عند ربكم وقوله ولو اتبع الحق أهواءهم

فغيره من القرابة والأعوان بالأولى وقال ابن عطية ان هذا وما بعده من كلام الله وهو ضعيف والأظهر انه من كلام ابراهيم (الا من أتى الله بقلب سليم) قيل هو استثناء منقطع أي لكن من أتى الله قال في الكشاف الا مال من أتى الله فقدر مضافاً محذوفاً قال أبو حيان ولا ضرورة تدعو الى ذلك وقيل ان هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف أو مستثنى منه اذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحداً من الناس الا من كانت هذه صفته ويحتمل ان يكون بدلاً من فاعل ينفع فيكون مرفوعاً قال أبو البقاء فيكون التقدير الا مال من أو بنو من فانه ينفع وهذا الماضي بمعنى المضارع وكذا يقال في قوله وأزلفت وبرزت وقيل وكبكبوا وقالوا واختلف في معنى القلب السليم فقيل السليم من الشرك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد قاله أكثر المفسرين وقال سعيد بن المسيب السليم الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى في قلوبهم مرض وقيل هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن الى السنة وقيل السالم من آفة المال والبنين وقال الضحاك السليم الخالص وقال الجنيد رحمه الله السليم في اللغة اللديغ معناه انه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن قال الرازي أصح الأقوال ان المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة وقال ابن عباس بشهادة أن لا اله الا الله وقد صوب الخليل استثناء الخليل اكراماً له ثم جعله صفة له في قوله وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم قال النسفي وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن ان يكون حجة ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمه من حين انشائه الى وقت وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الأدب ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا انتهى (وأزلفت الجنة للمتقين) أي قربت وأدنيت لهم ليدخلوها أو بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون اليها

لفسدت السموات والارض ومن فيهن قال مجاهد وأبو صالح والسدي الحق هو الله عز وجل والمراد لو أجابهم الله الى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الامور على وفق ذلك لفسدت السموات والارض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ثم قال أهم يقسمون رحمة ربك وقال تعالى قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لأمسكتم خشية الانفاق الآية وقال أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وانه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس فلا اله غيره ولا رب سواه ولهذا قال بل أتيناهم بذكرهم أي القرآن فهم عن ذكرهم معرضون وقوله أم تسألهم خرجا قال الحسن أجرا وقال قتادة جعلا فخراج ربك خير أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيأ على دعوتك اياهم الى الهدى بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجري الا على الله وقال قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقال قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى وقال وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وقوله وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون قال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي ابن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا الى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك اذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال أرأيتم ان أوردتكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعوني فقالوا نعم قال فانطلق بهم وأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي ان وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء ان تتبعوني قالوا بلى قال فان بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني قال

وقال الزجاج قرب دخولهم اياها ونظرهم اليها (وبرزت الجحيم للغاوين) أي جعلت بارزة لهم والمراد بهم الكافرون الضالون عن طريق الحق الذي هو الايمان والتقوى والمعنى انها أظهرت بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الاحوال الهائلة ويوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا وقيل أظهرت قبل ان يدخلوها ليشتد حزن الكافرين ويكثر سرور المؤمنين وقرئ برزت على البناء (وقيل لهم) على سبيل التوبيخ (أينما) أي في أي مكان (كنتم تعبدون من دون الله) من الاصنام والانداد وهذا سؤال تبكيت لا يتوقع له جواب (هل ينصرونكم) فيدفعون عنكم العذاب (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا كله توبيخ وتقريع لهم (فكبكبوا فيها) أي ألقوا في جهنم على رؤسهم وقيل قلبوا على رؤسهم وقيل ألقي بعضهم على بعض وقيل جمعوا قاله ابن عباس مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة قاله الهروي وقال النحاس هو مشتق من كوكب الشئ وهو معظمه والجماعة من الخيل كوكب وكبكبة وقيل دهدهوا وهذه المعاني متقاربة والكبكبة تكرير الكب وهو الالقاء على الوجه جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه اذا ألقي في جهنم ينكب مرة اثر مرة حتى يستقر في قعرها نعوذ بالله منها وأصله كببوا بباءين الاولى مشددة من حرفين فأبدل من الباء الوسطى الكاف ورجح الزجاج ان المعنى طرح بعضهم على بعض ورجح ابن قتيبة ان المعنى ألقوا على رؤسهم وقيل انكسوا وقيل الضمير في كبكبوا لقريش (هم) أي الآلهة المعبودون والاصنام (والغاوون) أي العابدون لهم وقيل الجن والكافرون وقال ابن عباس مشركو العرب والآلهة (وجنود ابليس) أي شياطينه الذين يغوون العباد من الانس والجن وقيل ذريته وأتباعه وقيل كل من يدعو الى عبادة الاصنام (أجمعون) تأكيد للضمير في كبكبوا وما عطف عليه (قالوا) أي الغاوون (وهم) أي حال كونهم (فيها يختصمون) مع معبودهم مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ومقول القول (تالله ان كنا) أي ان الشأن كونا (لفي ضلال مبين) واضح ظاهر والمراد بالضلال هنا الخسار والتبار والحيرة عن الحق ويجوز ان ينطق الله الاصنام حتى يصح التقاول والتخاصم أو يجري ذلك من العصاة والشياطين (اذ نسويكم) العامل في الظرف هو كونهم في الضلال وقيل العامل هو الضلال وفيه ضعف وقيل ظرف لمبين وقيل

فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبد الله الاشعري حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني ممسك بحجزكم عن النار وتغلبوني تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب فأوشك ان أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتردون علي معا وأشتاتا أعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الابل في ابله فيذهب بكم ذات الشمال فأناشد فيكم رب العالمين

ما يدل عليه الكلام كأنه قيل ضللنا وقت تسويتنا لكم في العبادة (برب العالمين) الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقال الكوفيون ان في ان كنا نافية واللام بمعنى الا أي ما كنا الا في ضلال مبين والاول أولى وهو مذهب البصريين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية (وما أضلنا) عن الهدى (الا المجرمون) يعني من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس والشياطين وقيل رؤساؤهم الذين أضلوهم وقيل ابليس وجنوده وابن آدم الاول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصي وقيل من سن الشرك وقيل الاولون الذين اقتدينا بهم (فما لنا من شافعين) يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمؤمنين (ولا صديق حميم) أي ذي قرابة والحميم القريب الذي توده ويودك وجمع الشفعاء ووحد الصديق لما تقدم غير مرة أنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث أو لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق لان الصديق الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك قليل وسئل حكيم عن الصديق فقال اسم لا معنى له وقيل اسم بلا مسمى والنفي ههنا يحتمل نفي الصديق من أصله أو نفي صفته فقط أو لان الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء والحميم مأخوذ من حامة الرجل أي خاصته وأقربائه ويقال حم الشيء وأحم اذا قرب ومنه الحمى لانه يقرب من الاجل وقال علي بن عيسى انما سمي القريب حميما لانه يحمى لغضب صاحبه فجعله مأخوذا من الحمية وقيل من الاحتمام بمعنى الاهتمام الذي يهمه ما يهمك قاله الزمخشري (فلو أن لنا كرة) هذا منهم على طريق التمني الدال على كمال التحسر كأنهم قالوا فليت لنا كرة أي رجعة الى الدنيا وجواب التمني (فنكون من المؤمنين) أي نصير من جملتهم حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء (ان في ذلك) أي ما تقدم ذكره من نبأ ابراهيم وقصته وقومه (لآية) أي عبرة وعلامة وحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر فانها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الاشارة الى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلالتها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالقته معهم وكمال اشفاقه عليهم وتصوير الامر في نفسه واطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضا بهم وايقاظا لهم ليكون أدعى الى الاستماع والقبول والتنوين في آية يدل على التعظيم والتفخيم (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي أكثر هؤلاء الذين يتلو

أي رب قومي أي رب أمتي فيقال يا محمد انك لا تدري ما أحدثوا بعدك انهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم فلا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت وقال علي بن المديني هذا حديث حسن الاسناد الا ان حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الاشعري القمي قلت بل قد روى عنه أيضا أشعث بن اسحق وقال فيه يحيى ابن معين صالح ووثقه النسائي وابن حبان وقوله وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون أي لعادلون حائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق اذا زاغ عنها وقوله ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بانه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون وقال ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه الى قوله بمبعوثين فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون قال الضحاك عن ابن عباس

كمائه لرجعوا وما لا يكون أبدا (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) يقول تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد فما استكانوا

لربهم وما يتضرعون أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم فما استكانوا أي ما خشعوا وما يتضرعون أي ما دعوا كما قال تعالى فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة المروزي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبي عن يزيد يعني النحوي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر والدم فأنزل الله ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا الآية وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل عن علي ابن الحسين عن أبيه وأصله في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله ابن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله فقال وهب نحن في طرف من عذاب الله والله يقول ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله قال أحدث لنا فأحدثنا يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة وقوله حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم ثم ذكر تعالى نعمه على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول والفهوم

عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أراهم وهم قريش ومن دان بدينهم وقيل وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين وهو ضعيف لأنهم كانوا كلهم غير مؤمنين (وإن ربك لهو العزيز) القاهر لأعدائه (الرحيم) بأوليائه أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم وهو في معنى الجماعة أو الأمة أو القبيلة وفي المصباح القوم يذكر ويؤنث وكذا كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر وأوقع التكذيب على المرسلين وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل وقيل كذبوا نوحا في الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل (إذ قال لهم أخوهم نوح) أي أخوهم من أبيهم لا أخوهم في الدين وقيل المراد أخوة المجالسة وقيل هو من قول العرب يا أخا تميم يريدون واحدا منهم (ألا تتقون) الله بترك عبادة الأصنام وتجيبون رسوله الذي أرسله إليكم (إني لكم رسول أمين) فيما أبلغكم عن الله وقيل أمين فيما بينكم فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه (فاتقوا الله) أي اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه (وأطيعون) فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك والقيام بفرائض الدين تصدير القصص الخمس بالحث على التقوى يدل على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية (وما أسألكم عليه من أجر) أي ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة ولا أطمع في ذلك منكم ومن زائدة في المفعول (إن أجري) أي ما ثوابي الذي أطلبه وأريده (إلا على رب العالمين) لا على غيره وكرر قوله (فاتقوا الله وأطيعون) للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهما بسبب وهو الأمانة في الأول وقطع الطمع في الثاني ونظيره قولك ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرا ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرا وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله علة لطاعته (قالوا أنؤمن لك) الاستفهام للإنكار أي كيف نتبعك ونصدق لك ونؤمن بك (و) الحال أن قد (اتبعك الأرذلون) جمع أرذل وجمع التكسير أراذل والأنثى رذلاء وهم الأقلون جاها ومالا والرذالة الخسة والذلة استرذلوهم

التي يدركون بها الاشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وانه الفاعل المختار لما يشاء وقوله قليلا ما تشكرون أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الارض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامة يجمع الاولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا الا أعاده كما بدأه ولهذا قال وهو الذي يحيي ويميت أي يحيي الرمم ويميت الامم وله اختلاف الليل والنهار أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار الآية وقوله أفلا تعقلون أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شئ وعز كل شئ وخضع له كل شئ ثم قال مخبرا عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم الى البلى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين يعنون الاعادة محال انما يخبر بها من تلقاها عن كتب الاولين واختلاقهم وهذا الانكار والتكذيب منهم كقوله اخبارا عنهم أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك اذا كرة خاسرة فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة وقال تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الآيات (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون) يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد الى انه الله الذي لا اله الا هو ولا تنبغي العبادة الا له وحده لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ان يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وانه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه

استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم أو لاتضاع أنسابهم قال مجاهد الارذلون الحواكون وقال قتادة سفلة الناس وأراذلهم وقال ابن عباس يعني القافة وقيل هم الحاكة والاساكفة وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية والصناعة لا تزري بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا وان كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا وما زالت أتباع الانبياء كذلك وانما بادر والاتباع قبل الاغنياء لاستيلاء الرياسة على الاغنياء وصعوبة الانفكاك منها والانفة عن الانقياد للغير والفقير خلي من تلك الموانع فهو سريع الاجابة والانقياد وهذا غالب أحوال أهل الدنيا وهذا من سخافة عقولهم وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلين من الدنيا مانعا من اتباعهم وجعلوا ايمانهم بما يدعوهم اليه دليلا على بطلانه وقرئ أتباعك الارذلون قال النحاس وهي قراءة حسنة لان هذه الواو تتبعها الاسماء كثيرا وأتباع جمع تابع (قال وما علمي بما كانوا يعملون) كان زائدة والمعنى وما علمي بعملهم أي لم أكلف العلم بأعمالهم انما كلفت أن أدعوهم الى الايمان والاعتبار به لا بالحرف والصنائع والفقر والغنى وكأنهم أشاروا بقولهم واتبعك الارذلون الى أن ايمانهم لم يكن عن نظر صحيح وانما لتوقع مال ورفعة فأجابهم بهذا أي اني لم أقف على باطن أمرهم وانما وقفت على ظواهرهم وقيل المعنى اني لم أعلم ان الله سيهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم ويرشدهم ويغويكم (ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) أي ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم الا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم ما عيرتموهم بصنائعهم وقرئ يشعرون بالتحتية كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت الى الاخبار عنهم قال الزجاج والصناعات لا تضر في باب الديانات وما أحسن ما قال (وما أنا بطارد المؤمنين) هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم (ان أنا الا نذير مبين) أي ما أنا الا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بابلاغه اليكم وهذه الجملة كالعلة لما قبلها (قالوا لئن لم تنته يا نوح) أي ان لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا (لتكونن من المرجومين) بالحجارة وقيل من المشتومين وقيل من المقتولين فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح الى التجبر والتوعد فلما سمع نوح قولهم هذا (قال رب ان قومي كذبون) أي أصروا وصمموا على تكذيبي بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي وانما قال هذا اظهارا

في الآلهة مع اعترافهم مع اعترافهم بأن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فقال قل لمن الأرض ومن فيها أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات إن كنتم تعلمون سيقولون لله أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له فإذا كان ذلك قل أفلا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ومن هو رب العرش العظيم يعني الذي هو سقف المخلوقات كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا وأشار بيده مثل القبة وفي الحديث الآخر ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة ولهذا قال بعض السلف إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وقال الضحاك عن ابن عباس إنما سمي عرشاً لارتفاعه وقال الأعمش عن كعب الأحبار إن السموات في العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض وقال مجاهد ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة وقال ابن أبي حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثوري عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال العرش لا يقدر قدره أحد وفي رواية إلا الله عز وجل وقال بعض السلف العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال ههنا ورب العرش العظيم أي الكبير وقال في آخر السورة رب العرش الكريم أي الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء وقال ابن مسعود إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله سيقولون لله قل أفلا تتقون أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب

للمبادرة عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تكذيبهم له واستجفاؤهم به (فافتح بيني وبينهم فتحاً) الفتح الحكم أي احكم بيننا حكماً يستحقه كل واحد منا أي أنزل العقوبة والهلاك وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح (ونجني ومن معي من المؤمنين) وكانوا ثمانين أربعون من الرجال وأربعون من النساء (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) أي السفينة المملوءة من الناس والحيوان والطير والشحن ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع قال ابن عباس المشحون الممتلئ وعنه قال أتدرون ما المشحون قلنا لا قال هو الموقر وعنه أيضاً قال هو المثقل (ثم أغرقنا بعد) أي بعد إنجائهم (الباقين) من قومه (إن في ذلك لآية) أي علامة وعبرة عظيمة (وما كان أكثرهم مؤمنين) فإنهم لو كان أكثرهم مؤمنين لما أخذوا (وإن ربك لهو العزيز) أي القاهر لأعدائه والمنتقم بإهانة من جحد وأصر (الرحيم) بأوليائه والمنعم بإعانة من وحد وأقر (كذبت عاد المرسلين) أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى وكان من نسل سام بن نوح ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً (إذ قال لهم أخوهم) نسباً (هود) وكان تاجراً جميل الصورة يشبه آدم وعاش من العمر أربعمائة وأربعاً وستين سنة (ألا تتقون) والكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً وكذا في قوله (إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية) الريع المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة يقال كم ريع أرضك أي كم ارتفاعها قال أبو عبيدة الريع الارتفاع جمع ريعة وقال قتادة والضحاك والكلبي الريع الطريق وبه قال مقاتل والسدي وابن عباس وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة وقيل الريع الجبل واحده ريعة والجمع أرياع وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين وروي عنه أنه الثنية الصغيرة وروي عنه أيضاً أنه المنظرة وقيل بروج الحمام وقال ابن الأعرابي الريع الصومعة والريع البرج يكون في الصحراء والريع التل العالي وفي الريع لغتان كسر الراء وفتحها والاستفهام للتقريع والتوبيخ ومعنى الآية أنكم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء (تعبثون) ببنائه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون من يمر بكم وتسخرون منهم وقال الكلبي

الليل والاعتبار حدثنا اسحق بن ابراهيم ان عبيدالله بن جعفر أخبرني عبدالله بن دينار عن ابن عمر انه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقك قالت الله قال فمن خلق أبي قالت الله قال فمن خلقني قالت الله قال فمن خلق السموات قالت الله قال فمن خلق الارض قالت الله قال فمن خلق الجبل قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم قالت الله قال فاني أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع قال ابن عمر كان رسول الله كثيرا ما يحدثنا هذا الحديث قال عبدالله بن دينار كان ابن عمر كثيرا (٢٦) ما يحدثنا بهذا الحديث قلت في اسناده عبدالله بن جعفر المديني والد الامام علي بن المديني وقد تكلموا فيه فالله أعلم قل من بيده ملكوت كل شيء أي بيده الملك ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها أي متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا والذي نفسي بيده وكان اذا اجتهد في اليمين قال لا ومقلب القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون كانت العرب اذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر في جواره وليس لمن دونه ان يجير عليه لئلا يفتات عليه ولهذا قال الله وهو يجير ولا يجار عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والامر ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقال الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون أي لا يسئل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم كما قال تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقوله سيقولون لله أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له قل فأنى تسحرون أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى بل أتيناهم بالحق وهو الاعلام بانه لا اله الا الله وأقمنا الادلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك وانهم لكاذبون أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم الى ما هم فيه من الافك والضلال وانما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم

الكلبي انه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاه الماوردي (وتتخذون مصانع) هي الابنية التي يتخذها الناس منازل قال أبو عبيدة كل بناء مصنعة وبه قال الكلبي وغيره وقيل هي الحصون المشيدة قاله مجاهد وغيره وقال الزجاج انها مصانع الماء التي تجعل تحت الارض واحدتها مصنعة ومصنع أي حياضا وبركا تجمعون فيها الماء فهي من قبيل الصهاريج قال الجوهري المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر والمصانع الحصون وقال عبد الرزاق المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية (لعلكم تخلدون) أي راجين أن تخلدوا في الدنيا لانكاركم البعث والتوبيخ حينئذ ظاهر أو عاملين عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون بنيانها وقيل ان لعل هنا للاستفهام التوبيخي قاله زيد بن علي وبه قال الكوفيون أي فهل تخلدون كقولهم لعلك تشتمني أي هل تشتمني وقال الفراء كي تخلدون وبه قرأ عبدالله أي لا تتفكرون في الموت وقيل المعنى كأنكم باقون مخلدون فلعل معناها التشبيه ولم أر من نص على انها تكون للتشبيه وقرئ تخلدون مخففا ومشددا وحكى النحاس أن في بعض القراآت كأنكم تخلدون وبه قال ابن عباس (واذا بطشتم) بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) من غير رأفة والبطش السطوة والاخذ بالعنف قال مجاهد وغيره اذا أردتم البطش لئلا يتحد الشرط والجزاء قال الزجاج انما أنكر عليهم ذلك لانه ظلم وأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز قال الكرخي اعلم ان اتخاذ الابنية العالية تدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهي ممتنعة الحصول للعبد انتهى ثم لما وصفهم بهذه الاوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتو والتمرد والتجبر أمرهم بالتقوى فقال (فاتقوا الله) في ذلك (وأطيعون) فيما أمرتكم به أجمل التقوى ثم فصله بقوله (واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعم والخير الحاصلة لكم ثم فصل هذا الاجمال بقوله (أمدكم بأنعام وبنين) الخ باعادة الفعل لزيادة التقرير والتأكيد لان التفصيل بعد الاجمال والتفسير بعد الابهام أدخل في ذلك (وجنات وعيون) أي بساتين وأنهار وآبار ثم وعظهم وحذرهم فقال (اني أخاف عليكم) ان كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم (عذاب يوم عظيم) أي العذاب الدنيوي والاخروي فان كفران النعمة مستتبع للعقاب كما أن شكرها مستتبع لزيادتها (قالوا سواء علينا) أي مستو

معتدون (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود والمشاهد ان الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو انه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فان لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد وما جاء هذا المحال الا من فرض التعدد فيكون محالا فاما ان حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لانه لا يليق بصفة الواجب ان يكون مقهورا ولهذا قال تعالى ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا عالم الغيب والشهادة أى يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه فتعالى عما يشركون أى تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون (قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) يقول تعالى آمرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم رب اما تريني ما يوعدون أى ان عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم كما جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى وصححه واذا أردت بقوم فتنة فتوفنى اليك غير مفتون وقوله تعالى وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون أى لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن ثم قال تعالى مرشدا له الى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الاحسان الى من يسىء اليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ادفع بالتى هى أحسن السيئة وهذا كما قال

عندنا (أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أصلا أى وعظك وعدمه سواء عندنا لا نبالى بشىء منه ولا نلتفت الى ما تقوله ولا نرعوى له والحاصل أنهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ولم يقل أم لم تعظ لرؤس الآى وتوافى القوافى وأبدى له الزمخشرى معنى فقال هو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ وعن الكسائى أوعظت بادغام الظاء فى التاء وهو بعيد لان حرف الظاء حرف اطباق انما يدغم فيما قرب منه جدا وقرأ الباقون باظهار الظاء (ان هذا) تعليل لما قبله أى ما هذا الذى جئتنا به ودعوتنا اليه من الدين وقيل المعنى ما هذا الذى نحن عليه (الا خلق الاولين) أى طبيعتهم وعادتهم التى كانوا عليها وهذا بناء على ما قال الفراء وغيره ان معنى الخلق العادة قال النحاس الخلق عند الفراء العادة وعن محمد بن يزيد خلقهم مذهبهم وما جرى عليه أمرهم والقولان متقاربان وقال مقاتل قالوا ما هذا الذى تدعونا اليه الا كذب الاولين قال الواحدى هو قول ابن مسعود ومجاهد قال والخلق والاختلاق الكذب ومنه قوله وتخلقون افكا وقرئ خلق بفتح الخاء وسكون اللام وبضمهما قال الهروى معناه على الاولى اختلاقهم وكذبهم وعلى الثانية عادتهم وهذا التفصيل لابد منه قال ابن الاعرابى الخلق الدين والطبع والمروءة وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام وهى تخفيف لقراءة الضم لهما والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال ما هذا الذى نحن عليه الا عادة الاولين وفعلهم ويؤيده قولهم (وما نحن بمعذبين) على ما نفعل من البطش ونحوه مما نحن عليه الآن فى الدنيا من الاعمال ولا بعث ولا حساب (فكذبوه) أى هودا أى أصروا على تكذيبه (فأهلكناهم) فى الدنيا بالريح كما صرح به القرآن فى غير هذا الموضع وهى ريح باردة شديدة الصوت لا ماء فيها سلطت عليهم سبع ليال وثمانية أيام أولها من صبح يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال وكانت فى عجز الشتاء (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسير هذا قريبا فى هذه السورة ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ذكر قصة صالح وقومه وكانوا يسكنون الحجر فقال (كذبت ثمود المرسلين) المراد بهم صالح وفى التعبير عنه بالجمع ما تقدم وثمود اسم قبيلة سميت باسم أبيها وهو ثمود بن جد صالح ولذا قال (اذ قال لهم أخوهم) نسبا (صالح) لاجتماعهم معهم فى الاب

الأعلى

فى الآية الاخرى ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا الآية أى وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة الا الذين صبروا أى على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع اسدائهم اليهم القبيح وما يلقاها الا ذو حظ عظيم أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لانهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف وقد قدمنا عند الاستعاذة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقوله تعالى وأعوذ بك رب أن يحضرون أى فى شئ من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الامور وذلك لطرد الشيطان عند الاكل والجماع والذبح وغير ذلك من الامور ولهذا روى أبو داود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم انى أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده ان يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث محمد بن اسحق وقال الترمذى حسن غريب (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة الى الدنيا ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته ولهذا قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا كما قال تعالى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى أحدكم الموت الى قوله والله خبير بما تعملون وقال تعالى وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب الى قوله مالكم من زوال وقال تعالى يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل وقال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا

الاعلى وعاش صالح من العمر مائتين وثمانين سنة وبينه وبين هود مائة سنة (ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) قد تقدم تفسيره فى قصة هود المذكورة قبل هذه القصة (أتتركون فيما ههنا آمنين) الاستفهام للانكار التوبيخى أى لا تظنوا أو لا ينبغى لكم أن تعتقدوا انكم تتركون فى الدنيا متقلبين فى هذه النعم التى أعطاكم الله آمنين من الموت أو العذاب باقين فى الدنيا ولما أبهم النعم فى هذا فسرها بقوله (فى جنات وعيون وزروع ونخل) ذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الاشجار أو لان المراد بها غيره من الاشجار وكثيرا ما يذكرون الشئ الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون الا الابل وهكذا يذكرون الجنة ولا يريدون الا غير النخل وهو اسم جمع الواحدة نخلة وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر وأما النخيل بالياء فمؤنثة اتفاقا (طلعها هضيم) الطلع أول ما يطلع من الثمر وبعده يسمى خلالا ثم بلحا ثم بسرا ثم رطبا ثم تمرا وفى البيضاوى هو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو انتهى وهذا التشبيه من حيث الهيئة والشكل والهضيم هو النضيج الرخص اللين اللطيف أو متدل متكسر من كثرة الحمل وقيل ما لم يخرج من كفراه لدخول بعضه فى بعض وحكى الماوردى فى معنى هضيم اثنى عشر قولا أحسنها أو أوفقها باللغة ما ذكرناه وعن ابن عباس قال هضيم معشب وعنه قال أينع وبلغ وعنه قال أرطب واسترخى (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) النحت النجر والبرى نحته ينحته بالكسر براه والنحاية البراية والمنحت ما ينحت به وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر فان السقوف والابنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم وفى الخطيب وكان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذا كان قوم هود وقرئ فرهين قال أبو عبيدة وغيره وهما بمعنى واحد والفره النشاط وشدة الفرح وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا فارهين حاذقين بنحتها قاله ابن عباس وقيل متجبرين وفرهين بطرين أشرين وبه قال مجاهد وابن عباس وغيره وقيل شرهين وقال الضحاك كيسين وقال قتادة معجبين ناعمين آمنين وبه قال الحسن وقيل فرحين قاله الاخفش وقال ابن زيد أقوياء (فاتقوا الله وأطيعون) فيما أمرتكم به (ولا تطيعوا أمر المسرفين) أى المشركين وقيل التسعة الذين عقروا الناقة جعل الامر مطاعا على

رجعنا فاعمل صالحا إنا موقنون وقال تعالى ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا إلى قوله وإنهم لكاذبون وقال تعالى وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وقال تعالى قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل والآية بعدها وقال تعالى وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم وقوله ههنا كلا إنها كلمة هو قائلها كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه وقوله تعالى إنها كلمة هو قائلها قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون قال قتادة والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار وقال محمد بن كعب القرظي حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا إنها كلمة هو قائلها وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحا يقول الله تعالى كلا كذبت وقال قتادة في قوله تعالى حتى إذا جاء أحدهم الموت قال كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظي نحوه وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل يعني ابن عياض عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال إذا وضع يعني الكافر في قبره فيرى مقعده من النار قال فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحا قال فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع

الجار المحكي في التسعة الإتباعية والمراد الآمر ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله (الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أي ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض ولا يبدر منهم الصلاح بطاعة لله البتة (قالوا إنما أنت من المسحرين) أي الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد وقتادة وقيل المسحر هو المعلل بالطعام والشراب قاله الكلبي وغيره فيكون المسحر الذي له سحر وهو الرئة وكأنهم قالوا إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب قال الفراء أي إنك تأكل الطعام والشراب وتسحر به قال المؤرج المسحر المخلوق بلغة بجيلة قال ابن عباس مسحر من مخلوقين (ما أنت إلا بشر مثلنا) فكيف تدعي أنك رسول الله (فأت بآية إن كنت من الصادقين) في قولك أنك رسول الله (قال) صالح (هذه ناقة) أشار إليها بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها قال أبو موسى الأشعري رأيت مبركها فإذا هو ستون ذراعا في ستين ذراعا ثم وصاهم صالح بأمرين الأول (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) أي لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم وهذا دليل على جواز المهايأة قال الفراء الشرب الحظ من الماء قال النحاس فأما المصدر فيقال فيه شرب شربا وشربا وأكثرها المضموم والشرب بفتح الشين جمع شارب والمراد هنا الشرب بالكسر وبه قرأ الجمهور فيهما وقرئ بالضم فيهما والأمر الثاني (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو ضرب أو شيء مما يسوءها وجواب النهي (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد (فعقروها) يوم الثلاثاء أي عقرها قدار وضرب بالسيف في ساقيها وكان ابن ربه فصر ادمها ولكنهم راضون به فأضيف إليهم (فأصبحوا نادمين) على عقرها لما عرفوا أن العذاب نازل وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم وندموا حيث لا ينفع الندم لأن ذلك لا يجدي عند معاينة العذاب وظهور آثاره ولأن مجرد الندم ليس توبة (فأخذهم العذاب) الذي وعدهم به يوم السبت وهو أنهم في اليوم الأول أي الأربعاء اصفرت وجوههم ثم احمرت في الخميس ثم اسودت في الجمعة وفي قول مقاتل أنه خرج في أبدانهم خراج مثل الحمص فكان في اليوم الأول أحمر ثم صار من الغد أصفر ثم صار في الثالث أسود وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد فتفقأت فيه تلك الجراحات

ثم يؤوى اليه هوام الارض وحياتها وعقاربها وقال أيضا احدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثني سلمة بن تمام حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها انها قالت ويل لاهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى ومن ورائهم يعني أمامهم وقال مجاهد البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع

أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم وقال أبو صخر البرزخ المقابر لاهم في الدنيا ولاهم في الآخرة فهم مقيمون الى يوم يبعثون وفي قوله تعالى ومن ورائهم برزخ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى من ورائهم جهنم وقال تعالى ومن ورائه عذاب غليظ وقوله تعالى الى يوم يبعثون أي يستمر به العذاب الى يوم البعث كما جاء في الحديث فلا يزال معذبا فيها اى في الارض (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) يخبر تعالى انه اذا نفخ في الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون أي لا تنفع الانساب يومئذ ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه قال الله تعالى ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم أي لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد أثقل ظهره وهو أعز الناس عليه كان في الدنيا ما التفت اليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه الآية وقال ابن مسعود اذا كان يوم القيامة جمع الله الاولين والآخرين ثم نادى مناد الا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وان كان صغيرا ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون رواه ابن أبي حاتم وقال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبد الله بن رافع عن

وصاح عليهم جبريل صيحة فماتوا بالامرين وكان ذلك ضحوة وقد تقدم تفسير قوله (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وفيه ايماء بانه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم (وان ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيرها أيضا في هذه السورة (كذبت قوم لوط المرسلين) ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الانبياء مع قومهم وهي قصة لوط وقد تقدم تفسير قوله (اذ قال لهم أخوهم لوط) أي في البلد والسكنى والتجاور في القرية لا في الدين ولا في النسب لانه ابن أخي ابراهيم وهما من بلاد المشرق من أرض بابل (ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتأتون) أي أتنكحون (الذكران) جمع الذكر ضد الانثى وهم بنو آدم أو كل حيوان (من العالمين) أي من الناس وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الاعراف (وتذرون) تتركون (ما خلق) أي أصلح وأحل وأباح (لكم ربكم) لاجل استمتاعكم به (من أزواجكم) المراد به جنس الاناث وقال مجاهد تركتم اقبال النساء الى أدبار الرجال وأدبار النساء وعن عكرمة نحوه وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات قال النسفي ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيما (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون للحد في جميع المعاصي ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران (قالوا لئن لم تنته يا لوط) عن الانكار علينا وتقبيح أمرنا (لتكونن من المخرجين) من بلدنا المنفيين عنها ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوء حال (قال اني لعملكم) وهو ما أنتم فيه من اتيان الذكران (من القالين) أي من المبغضين له والقلى البغض الشديد كأنه يقلي الفؤاد يقال قليته اقليه قلى وقلاء وفيه دليل على عظم المعصية لان قلاه من حيث الدين ثم رغب عليه السلام عن محاورتهم وطلب من الله عز وجل ان ينجيه فقال (رب نجني وأهلي مما يعملون) أي من عملهم الخبيث أو من عقوبته التي ستصيبهم فأجاب الله سبحانه دعاءه وقال (فنجيناه وأهله) أي أهل بيته ومن تابعه على دينه (أجمعين الا عجوزا) هي امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضي بالمعصية في حكم العاصي واستثناء الكافرة من الاهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وان لم تشاركهم في الايمان (في الغابرين) أي من الباقين في العذاب وقال

المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها وينشطني ما ينشطها وان الأنساب تنقطع يوم القيامة الا نسبي وسببي وصهري وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها وقال الامام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر ما بال رجال يقولون ان رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه بلى والله ان رحمي موصولة في الدنيا والآخرة واني أيها الناس فرطكم اذا جئتم قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه انه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال أما والله ما بي الا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر انه أصدقها أربعين ألفا اعظاما واكراما رضي الله عنه فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا ابراهيم بن عبد السلام عن ابراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري وروي فيه من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا سألت ربي عز وجل أن لا أزوج اتقوه الى أحد من أمتي ولا يتزوج الى أحد منهم الا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك ومن حديث عمار بن سيف عن اسمعيل عن عبد الله ابن وقوله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس فأولئك هم المفلحون أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة وقال ابن عباس أولئك الذين فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ومن خفت موازينه أي ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خسروا أنفسهم أي خابوا

فيه الى الجنة ابن

أبو عبيدة من الساقين في الهرم أي بقيت حتى هرمت قال النحاس يقال للذاهب غابر وللباقي غابر والأغبار بقية الألبان ويقول العرب ما مضى وما غبر أي ما بقي قال قتادة هي امرأة لوط غبرت في عذاب الله (ثم دمرنا الآخرين) أي أهلكناهم بالخسف والحصب وبقلب ديارهم عليهم وجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليهم) أي على من كان منهم في ذلك الوقت خارج القرى لسفر أو غيره (مطرا) يعني الحجارة وقيل الكبريت والنار (فساء مطر المنذرين) المخصوص بالذم محذوف والتقدير مطرهم ولم يردهم وما بإعيانهم بل جنس الكافرين وقد تقدم تفسير قوله (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) في هذه السورة (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) الأيكة الشجر الملتف وهي الغيضة وقرئ ليكة بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسما غير معرف بال مضافا اليه أصحاب وليكة اسم للقرية وأنكره الزمخشري وهو غير جيد وقيل هما بمعنى واحد اسم للغيضة قال القرطبي فأما ما حكاه أبو عبيد من ان ليكة اسم القرية التي كانوا فيها وان الأيكة اسم البلد كله فشيء لم يثبت ولم يعرف من قاله ولو عرف لكان فيه نظر لأن أهل العلم جميعا على خلافه قال أبو علي الفارسي الأيكة تعريف أيكة فاذا حذف الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام قال الخليل الأيكة الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر قال مجاهد ليكة هي الأيكة وقد وقع لفظ الأيكة في القرآن أربع مرات في الحجر وق وما هنا وفي ص والأولان بال والجر والآخران يقرآن بال وبالجر وبحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وفتح الهاء مع ان الكل مجرورات باضافة لفظ أصحاب اليها وقال ابن عباس كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر الى مدين (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم وقد مضى تحقيق نسبه في الأعراف وبعث الله شعيبا الى أمتين أصحاب الأيكة وأهل مدين فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين (اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) وانما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة (أوفوا الكيل) أي

وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا اسمعيل بن الحرث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المري عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال ان لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فان ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وان خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا اسناده ضعيف فان داود بن المحبر ضعيف متروك ولهذا قال تعالى في جهنم خالدون أي ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون تلفح وجوههم (٣٥) النار كما قال تعالى وتغشى وجوههم النار وقال تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا محمد بن سلمان الاصبهاني عن أبي سنان ضرار بن مرة عن عبد الله ابن أبي الهذيل عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم الا سقط على العرقوب وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان حدثنا عمرو بن أبي الحرث ابن الخضر القطان حدثنا سعيد بن سعيد المقبري عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى تلفح وجوههم النار قال تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم وقوله تعالى وهم فيها كالحون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني عابسون وقال الثوري عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود وهم فيها كالحون قال ألم تر الى الرأس المشيط الذي قد بدا اسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد رحمه الله أخبرنا علي بن اسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته ورواه الترمذي عن سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) هذا تقريع من الله وتوبيخ لاهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك

أتم وملي أراده وعامل به (ولا تكونوا من المخسرين) أي الناقصين للكيل والوزن يقال أخسرت الكيل والوزن أي نقصته ومنه قوله تعالى واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون قال النسفي الكيل واف وهو مأمور به وطفيف وهو منهي عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على انه ان فعله فقد أحسن وان لم يفعل فلا شيء عليه ثم زاد سبحانه في البيان فقال (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أي أعطوا الحق بالميزان السوي وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان وقرئ القسطاس مضموم القاف ومكسورها وهي الميزان أو القبان فان كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلان والا فهو رباعي (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص يقال بخسه حقه اذا نقصه أي لا تنقصوا حقوقهم التي لهم وهذا تعميم بعد التخصيص وقيل دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها وقد تقدم تفسيره في سورة هود وتقدم أيضا تفسير (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فيها وفي غيرها أي لا تبالغوا فيها بالفساد نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه يقال عثا في الارض اذا أفسد وبابه سما وعثي بالكسر وعثى بفتحتين بوزن فتى قال الازهري القراء كلهم متفقون على فتح الثاء وقد دل على ان القرآن نزل باللغة الثانية وفي القاموس عثى كسعى ورمى ورضي (واتقوا) الله (الذي خلقكم) أي من نطفة واعدامكم أهون شيء عليه وأشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله (والجبلة الاولين) الذين أهلكوا بالمعاصي كقوم لوط كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة قرئ الجبلة بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرئ بضمهما وتشديد اللام وقرئ بفتح الجيم مع سكون الباء والجبلة الخليقة قاله مجاهد وغيره يعني الامم المتقدمة يقال جبل فلان على كذا أي خلق قال النحاس الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الاولين وضمهما مع تشديد اللام فيهما وبضم الجيم وسكون الباء وضمه وفتحها قال الهروي الجبلة والجبلة والجبل والجبل لغات وهو الجمع والعدد الكثير من الناس ومنه قوله تعالى جبلا كثيرا أي خلقا كثيرا (قالوا انما أنت من المسحرين) أي من المخلوقين (وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو هنا يفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم التسحير والبشرية يعني ان كلا منهما كاف فكيف اذا اجتمعا وترك الواو في قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا وقد تقدم تفسيره في هذه السورة (وان نظنك لمن الكاذبين) فيما تدعيه علينا من الرسالة

ثم قال تعالى ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير إلى قوله فسحقا لأصحاب السعير ولهذا قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون أي ارددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا (٣٦) فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل إلى قوله فالحكم لله العلي الكبير أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار يقول اخسئوا فيها أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ولا تكلمون أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي قال العوفي عن ابن عباس اخسئوا فيها ولا تكلمون قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان المروزي حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا هذا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا فيها ولا تكلمون قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحدا غير وجوههم وألوانهم فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع

وقيل ما بطلت الأمن الكاذبين والأول أولى (فأسقط علينا كسفا) كان شعيب عليه السلام يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا له هذا القول تعنتا واستبعادا وتعجيزا قال أبو عبيد الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة قال الجوهري الكسفة القطعة من الشيء يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان (من السماء) أي السحاب أو الظلة (إن كنت من الصادقين) في دعواك (قال ربي أعلم بما تعملون) من الشرك والمعاصي فهو مجازيكم على ذلك إن شاء وفي هذا تهديد شديد (فكذبوه) استمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك (فأخذهم عذاب يوم الظلة) هي السحاب أقامها الله فوق رؤوسهم فأمطرت عليهم نارا فهلكوا وقد أصابهم الله بما اقترحوا لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر وإن أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها قال ابن عباس أرسل الله إليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين والسموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه وعنه أيضا أنه سئل عن قوله فأخذهم عذاب إلى آخره فقال خرجوا من البيوت هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارا فذلك عذاب يوم الظلة وعنه قال من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه قلت فما معنى قوله رضي الله عنه هذا مع ما تقدم من ذلك مما نقلناه عنه آنفا وقد رواه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم ويمكن أن يقال إنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم فمن حدث بحديث عذاب يوم الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه لأنه قد علم ولم يعلمه غيره والله أعلم وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيها على أن لهم في ذلك اليوم عذابا غير عذاب يوم الظلة (١) كذا قيل ثم وصف سبحانه

(١) قوله غير عذاب يوم الظلة كذا بالأصل الذي بأيدينا وانظره اهـ مصححه

فيقول يارب فيقول الله من عرف احدا فليخرجه فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف احدا فيناديه الرجل يافلان انا فلان فيقول ما اعرفك قال فعند ذلك يقولون فى النار ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فعند ذلك يقول الله تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون فاذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم فى الدنيا وما كانوا يستهزؤن بعباده المؤمنين وأوليائه فقال تعالى انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا أى فسخرتم منهم فى دعائهم اياى وتضرعهم الى حتى انسوكم ذكرى أى حملكم بغضهم على ان نسيتم معاملتى وكنتم منهم تضحكون أى من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون أى يلمزونهم استهزاء ثم اخبر تعالى عما جازى به اولياءه وعباده الصالحين فقال تعالى انى جزيتهم اليوم بما صبروا أى على أذاكم لهم واستهزائكم بهم انهم هم الفائزون أى جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار (قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين أى كم كانت اقامتكم فى الدنيا قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين أى الحاسبين قال ان لبثتم الا قليلا أى مدة يسيرة على كل تقدير لو انكم كنتم تعلمون اى لما آثرتم الفانى على الباقى ولما تصرفتم لانفسكم هذا التصرف السيئ ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة فلو انكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن يونس حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أيفع بن عبد الكلاعى انه سمعه يخطب الناس فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قال لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلدين ثم

هذا العذاب الذى أصابهم بقوله (انه كان عذاب يوم عظيم) لما فيه من الشدة عليهم التى لا يقادر قدرها وقد تقدم تفسير قوله (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) فى هذه السورة مستوفى فلا نعيده وقد تقدم الكلام على هذه القصص فى سورة الاعراف وهود فأغنى عن الاعادة هنا وفى هذا التكرير لهذه الكلمات فى آخر هذه القصص السبع من التهديد والزجر والتقرير والتأكيد مالا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه وقال النسفى قد كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا للمعانيها فى الصدور وليكون أبلغ فى الوعظ والزجر ولان كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها فكانت جديرة بان تفتح بما افتتحت به صاحبتها وان تختم بما اختتمت به (وانه) الضمير يرجع الى ما نزله عليه من الاخبار أى وان هذه الاخبار أو وان القرآن وان لم يجر له ذكر للعلم به وبه قال قتادة (لتنزيل رب العالمين) أى فليس بشعر ولا سحر ولا أساطير ولا غير ذلك مما قالوه فيه (نزل) قرئ مخففا ومشددا (به الروح الامين) هو جبريل كما فى قوله قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك وبه قال قتادة وابن عباس وعنه مرفوعا قال الروح الامين جبريل رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فهى مثل ريش الطواويس أخرجه أبو الشيخ وسماه روحا لانه خلق من الروح وسماه أمينا لانه مؤتمن على وحيه لانبيائه (على قلبك) اى انه تلاه على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه ووجه تخصيص القلب انه اول مدرك من الحواس الباطنة قال الكرخى خصه بالذكر ليؤكد ان ذلك المنزل محفوظ والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ولان القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الاعضاء مسخرة له ويدل عليه القرآن والحديث والمعقول اما القرآن فقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب والحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب أخرجاه فى الصحيحين واما المعقول فان القلب اذا غشى عليه وقطع سائر الاعضاء لم يحصل له شعور واذا افاق القلب شعر بجميع ما نزل بالاعضاء من الآفات وعبارة الخازن ومن المعقول ان موضع الفرح والسرور والغم والحزن هو القلب فاذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الاعضاء فكان القلب

قال يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين وقوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا وقيل للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل وأنكم إلينا لا ترجعون أي لا تعودون في الدار الآخرة كما قال تعالى أيحسب الإنسان أن يترك سدى يعني هملا وقوله فتعالى الله الملك الحق أي تقدس أن يخلق (٣٨) شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك لا إله إلا هو رب العرش الكريم فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل كما قال تعالى وأنبتنا فيها من كل زوج كريم قال ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد ابن العاص قال كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وستكون بعدكم للباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأحباب وباشر التراب وواجه الحساب مرتهن بعمله غني عما خلف فقير إلى ما قدم فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ثم رفع طرف ردائه على وجهه وبكى وأبكى من حوله وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن نصر الخولاني حدثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حنش بن عبد الله أن رجلا مصابا مر به على عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا قرأت

كالرئيس لها وسببه أن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فإذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق وهو المكلف لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم انتهى (لتكون من المنذرين) علة للإنزال أي أنزله عليك لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والإنذارات والعقوبات (بلسان عربي مبين) أي لتكون من المنذرين الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وشعيب وصالح وإسمعيل عليهم الصلاة والسلام أو متعلق بنزل أي نزله بلسان عربي لتنذر به وقال أبو البقاء بلسان عربي أي برسالة أو لغة وقال أبو السعود باللغة العربية وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربيا بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب لو نزل بالأعجمي لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم وأزاح علتهم ودفع معذرتهم قال ابن عباس أي بلسان قريش ولو كان غير عربي ما فهموه وعن بريدة قال بلسان جرهم (وإنه) أي إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع أو ذكره وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لفي زبر الأولين) من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبر الكتب الواحد زبور وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا وقيل المراد بكون القرآن فيها أنه مذكور فيها هو نفسه لا ما اشتمل عليه من الأحكام وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية كالفارسية وغيرها والأول أولى وقد قيل إن الصحيح من مذهب أبي حنيفة أن القرآن هو النظم والمعنى معا قاله الشهاب (أولم يكن لهم آية) الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر كما تقدم مرارا والآية العلامة والدلالة أي ألم تكن لهؤلاء أي الكفار مكة علامة دالة على أن القرآن حق وأنه تنزيل رب العالمين وأنه في زبر الأولين (أن يعلمه علماء بني إسرائيل) على العموم أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأسد وأسيد وثعلبة وابن يامين فهؤلاء الخمسة من علماء اليهود وقد حسن إسلامهم فإنهم يخبرون بذلك وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين لأنهم كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم قال الزجاج المعنى أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم نبي حق علامة ودلالة على نبوته لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم وكذا قال الفراء عن ابن عباس قال كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل وكان من خيارهم فآمن بكتاب محمد فقال لهم الله أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (ولو

في اذنه فأخبره فقال له انه الذي قرأت في اذنه أحرقته ثم قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على جبل لزال وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن ابراهيم بن الحرث عن أبيه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية وأمرنا أن نقول اذا نحن أمسينا وأصبحنا أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا اسحق بن وهب العلاف الواسطي حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن

مزاحم عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان أمتي من الغرق اذا ركبوا السفينة بسم الله الملك الحق وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبرا ان من أشرك بالله لا برهان له أي لا دليل له على قوله فقال تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله فانما حسابه عند ربه أي الله يحاسبه على ذلك ثم أخبر انه لا يفلح الكافرون أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة قال قتادة ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل ما تعبد قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأيهم اذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك قال الله عز وجل قال فما يحملك على ان تعبد هؤلاء معه ام حسبت ان تغلب عليه قال أردت شكره بعبادة هؤلاء معه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلمون ولا يعلمون فقال الرجل بعدما أسلم لقيت رجلا خصمني هذا مرسل من هذا الوجه وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسندا عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك وقوله تعالى وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين هذا الارشاد من الله تعالى الى هذا الدعاء فالغفر اذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها ان يسدده ويوفقه في الاقوال والافعال آخر تفسير سورة المؤمنون

(تفسير سورة النور وهي مدنية)

(ولو نزلناه) أي هذا القرآن على الصفة التي هو عليها (على بعض) رجل من (الاعجمين) جمع أعجمي قاله صاحب التحرير أو جمع أعجم قاله ابن عطية يقال رجل أعجم وأعجمي اذا كان غير فصيح اللسان وان كان عربيا ورجل عجمي اذا كان أصله من العجم وان كان فصيحا الا ان الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي وقرئ على بعض الاعجميين على الاصل وقال الزمخشري الاعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة أو استعجام والاعجمي مثله الا أن فيه زيادة ياء النسب توكيدا (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة (ما كانوا به مؤمنين) انفة من اتباعه مع انضمام اعجاز القراءة من الرجل الاعجمي للكلام العربي أي القرآن أو المعنى أن الاعجمي لا يتهم باكتسابه أصلا ولا باختراعه لفقد الفصاحة فيه ولكونه ليس لغته وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به وقالوا ما نفقه هذا ولا نفهمه ومثل هذا قوله تعالى ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع (كذلك) أي مثل ذلك السلك (سلكناه) أي أدخلنا القرآن (في قلوب المجرمين) أي كفار مكة بقراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وانه معجز وقال الحسن وغيره سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين وقال عكرمة سلكنا القسوة والاول أولى لان السياق في القرآن وفيه حجة على المعتزلة في خلق افعال العباد خيرها وشرها (لا يؤمنون به) أي بالقرآن (حتى يروا العذاب الاليم) أي الى هذه الغاية وهي مشاهدتهم للعذاب الاليم والمراد معاينة الموت عند الموت ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم والجملة مستأنفة أو حالية (فيأتيهم) أي العذاب (بغتة) أي فجأة والفاء للترتيب الرتبي دون الزماني كما في الكشاف والمعنى حتى يروا العذاب فما هو أشد منه رؤيته وهو لحوقه بهم مفاجأة فما هو أشد منه وهو سؤالهم الانظار مع القطع بامتناعه كما يأتي (وهم) أي والحال انهم (لا يشعرون) باتيانه وقرأ الحسن فتأتيهم بالفوقية أي الساعة وان لم يتقدم لها ذكر لكنه قد دل العذاب عليها لقربه (فيقولوا هل نحن منظرون) أي مؤخرون وممهلون عن الهلاك ولو طرفة عين لنؤمن قالوا هذا تحسرا على ما فات من الايمان وطمعا في المحال وهو امهالهم بعد مجيء العذاب وتمنيا الرجعة الى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم فيقال لهم لا تأخير ولا امهال وقيل المراد بقولهم هذا الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء بقوله (أفبعذابنا يستعجلون)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ يقول تعالى هذه سورة أنزلناها فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها وفرضناها قال مجاهد وقتادة أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود وقال البخاري ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم وأنزلنا فيها آيات بينات أي مفسرات واضحات لعلكم تذكرون (٤٠) ثم قال تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد وللعلماء فيه تفصيل ونزاع فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرا وهو الذي لم يتزوج أو محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفا يعني أجيرا على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام واغد يا أنيس لسانين لرجل من أسلم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك حدثني ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم

ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر فإن معنى هل نحن منظرون طلب النظرة والإمهال وأما قوله أفبعذابنا يستعجلون فالمراد به الرد عليهم والإنكار لما وقع منهم من قولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقولهم فأتنا بما تعدنا حيث استعجلوا ما فيه ضررهم وحتف أنفسهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب فيستعجلون به وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون وتقديم الظرف لرعاية الفواصل (أفرأيت) الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام ومعنى رأيت أخبرني والخطاب لكل من يصلح له (إن متعناهم سنين) في الدنيا متطاولة وطول لهم الأعمار (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب والهلاك (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أي أي شيء أو أي إغناء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل المديد والاستفهام للإنكار التقريري وما في ما كانوا مصدرية أو موصولة وقيل ما الأولى نافية والثانية مصدرية أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه وقرئ يمتعون من أمتع الله زيدا بكذا وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون قد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) من مزيدة للتأكيد أي وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار والإعذار بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب (ذكرى) بمعنى تذكرة أي يذكرون ذكرى قال النحاس وهذا قول صحيح لأن معنى إلا لها منذرون إلا لها مذكرون أو التقدير إنذارنا ذكرى أو ذلك ذكرى قال ابن الأنباري هي ذكرى أو يذكرهم ذكرى وقيل ينذرونهم ذوي تذكرة أو لأجل التذكرة وبه صرح أبو البقاء أي ينذرونهم لأجل تذكيرهم بالعواقب وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية (وما كنا ظالمين) في تعذيبهم وليس من شأننا الظلم وقد قدمنا الحجة إليهم وأنذرناهم وأعذرنا إليهم (وما تنزلت به) أي بالقرآن (الشياطين) وقرئ بالواو والنون إجراء له مجرى جمع السلامة قال النحاس وهذا غلط عند جميع النحويين قال المبرد وهذا غلط من العلماء وبه قال الفراء ونازل المؤرج إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لهذه القراءة وجه وقال يونس بن حبيب سمعت أعرابيا يقول دخلنا

بساتين من ورائها بساتين وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن انه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الامين فلا يكون سحرا أو كهانة أو شعرا أو أضغاث أحلام كما يقولون (وما ينبغي لهم) ذلك وما يصح منهم ولا يصلح أن يتنزلوا به (وما يستطيعون) ما نسبه الكفار اليهم أصلا ولا يمكنهم (انهم عن السمع) للقرآن أو لكلام الملائكة (لمعزولون) أي لمحجوبون مرجومون بالشهب ثم لما قرر الله سبحانه حقية القرآن وانه منزل من عنده أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بدعاء الله وحده فقال (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) ان فعلت ذلك الذي دعوك اليه وخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا مع كونه منزها عنه معصوما منه لحث العباد على التوحيد ونهيهم عن شوائب الشرك وكأنه قال أنت أكرم الخلق علي وأعزهم عندي ولو اتخذت معي الها لعذبتك فكيف بغيرك من العباد قال في حاشية الجمل الخطاب له والمقصود غيره (وأنذر عشيرتك الاقربين) خصهم لان الاهتمام بشأنهم أولى وهدايتهم الى الحق أقدم قيل هم قريش وقيل بنو عبد مناف وقيل بنو هاشم وقد ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشا وعم وخص فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فاني لا أملك لك ضرا ولا نفعا الا أن لكم رحما وسأبلها ببلالها وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم بيان للعشيرة الاقربين وانذار لهم جهارا (واخفض جناحك) أي جانبك يقال خفض جناحه اذا ألانه وفيه استعارة حسنة والمعنى ألن جانبك وتواضع (لمن اتبعك من المؤمنين) الموحدين من عشيرتك وغيرهم وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم (فان عصوك) أي خالفوا أمرك ولم يتبعوك (فقل) لهم (اني بريء مما تعملون) أي من عملكم أو من الذي تعملونه من عبادة غير الله وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون

رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى ان يطول بالناس زمان ان يقول قائل لانجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله فالرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا وهذا قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الامام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثني عبد الرحمن بن عوف ان عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول ألا وان أناسا يقولون ما الرجم في كتاب الله وانما فيه الجلد وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ولولا ان يقول قائل أو يتكلم متكلم ان عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت وأخرجه النسائي من حديث عبيد الله بن عبد الله به وقد روى الامام أحمد أيضا عن هشيم عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر الرجم فقال انا لانجد من الرجم بدا فانه حد من حدود الله تعالى الا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ولولا ان يقول قائلون ان عمر زاد في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف وفلان وفلان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده الا انه سيكون قوم من بعدكم يكذبون بالرجم وبالشفاعة وبعذاب القبر وبقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان عن يحيى الانصاري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب اياكم أن تهلكوا عن آية الرجم الحديث رواه الترمذي من حديث سعيد عن عمر وقال صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا ابن عوف عن محمد هو ابن سيرين قال ابن عمر نبئت عن كثير بن الصلت قال كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد ابن ثابت كنا نقرأ الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة قال مروان ألا كتبتها في المصحف قال ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال أنا أشفيكم من ذلك قال قلنا فكيف قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم فأتاه فذكر ذلك الرجل الرجم فقال يا رسول الله اكتب آية الرجم قال لا أستطيع الآن هذا أو نحو ذلك وقد روى النسائي من حديث محمد

ابن مثنى عن غندر عن شعبة بن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت فهذه طرق كلها متعددة متعاضدة ودلت على ان آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولا به والله أعلم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الاجير لما زنت مع الاجير ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه جلدهم قبل الرجم وانما وردت الاحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والالفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد (٤٢) ولهذا كان مذهب جمهور العلماء الى هذا أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله وذهب الامام أحمد رحمه الله تعالى الى انه يجب ان يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه لما أتي بسراحة وكانت قد زنت وهي محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى الامام أحمد وأهل السنن الاربعة ومسلم من حديث قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم وقوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله أي في حكم الله أي لا ترحموهما في شرع الله وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وانما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك قال مجاهد ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال اقامة الحدود اذا رفعت الى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وقد جاء في الحديث تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب وفي الحديث الآخر لحد يقام في الارض خير لاهلها من أن يمطروا أربعين صباحا وقيل المراد ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح قال عامر الشعبي ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال رحمة في شدة الضرب وقال عطاء ضرب ليس بالمبرح وقال سعيد بن أبي عروبة عن حماد بن أبي سليمان يجلد القاذف وعليه ثيابه والزاني يخلع ثيابه ثم تلا ولا تأخذكم

للمسلمين المصدقين بالايمان لان المؤمنين اهل لان يعصوه ولا يخالفوه ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال (وتوكل على العزيز الرحيم) أي فوض جميع أمورك اليه فانه القادر على قهر الاعداء وهو الرحيم للاولياء قرئ وتوكل بالفاء والواو وهما قراءتان سبعيتان فعلى الاولى يكون ما بعده كالجزاء لما قبلها مترتبا عليه وعلى الثانية يكون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب (الذي يراك حين تقوم) الى الصلاة وحدك منفردا في قول أكثر المفسرين وقال مجاهد حين تقوم حيثما كنت (وتقلبك في الساجدين) المصلين أي ويرى تقلبك في الجماعة راكعا وقائما وساجدا كذا قال أكثر المفسرين وعن مقاتل انه سأل أبا حنيفة رحمهما الله هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن قال لا يحضرني فتلا له هذه الآية وقيل يراك في أصلاب الرجال الموحدين من نبي الى نبي من لدن آدم وحواء الى عبد الله وآمنة حتى أخرجك في هذه الامة فجميع أصوله رجالا ونساء مؤمنون وأورد على هذا آزر أبو ابراهيم فانه كافر بمقتضى الآيات وأجاب بعضهم بأنه كان عم ابراهيم لا أباه وفيه ضعف بين وأجاب بعضهم انه والد أعلى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخله الشرك بحاله ما دام النور المحمدي في الذكر والانثى فاذا انتقل منه لمن بعده أمكن ان يعبد غير الله وآزر ما عبد الاصنام الا بعد انتقال النور منه لابراهيم وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله قاله البيضاوي وقيل المراد تقلب قيامه الى السجود وقيل بالقلب ترددك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة وتقلب بصرك فيهم كذا قال مجاهد قال ابن عباس تقلبك أي قيامك وركوعك وسجودك وعنه قال يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم وعنه قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا قام الى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ومنه الحديث في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم واني لأراكم من وراء ظهري (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) به ثم اكد سبحانه معنى قوله وما تنزلت به الشياطين وبينه فقال (هل أنبئكم) يا كفار مكة (على من تنزل الشياطين) أي تتنزل فحذف احدى التاءين وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (تنزل على كل أفاك أثيم) الأفاك الكثير الافك والاثيم كثير الاثم والمراد به كل من كان كاهنا

بهما رأفة في دين الله فقلت هذا في الحكم قال هذا في الحكم والجلد يعني في اقامة الحد وفي شدة الضرب وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الاودي حدثنا وكيع عن نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع أراه قال وظهرها قال قلت ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة ان الله لم يأمرني ان أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها وقوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر أي فافعلوا ذلك واقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة انه قال يا رسول الله اني لاذبح الشاة وأنا أرحمها فقال ولك في ذلك أجر وقوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين هذا فيه تنكيل للزانيين اذا جلدا بحضرة الناس فان ذلك يكون أبلغ في زجرهما وانجع في ردعهما فان في ذلك تقريعا وتوبيخا وفضيحة اذا كان الناس حضورا قال الحسن البصري في قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين يعني علانية ثم قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد الطائفة الرجل الواحد الى الالف وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد ان الطائفة تصدق على واحد وقال عطاء بن أبي رباح اثنان وبه قال اسحق بن راهويه وكذا قال سعيد بن جبير طائفة من المؤمنين قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعدا وقال عبد الله بن وهب عن الامام مالك في قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا لانه لا يكفي شهادة في الزنا الا أربعة شهداء فصاعدا وبه قال الشافعي وقال ربيعة خمسة وقال الحسن البصري عشرة وقال قتادة أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين قال ليس ذلك للفضيحة انما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة (الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) هذا خبر من الله تعالى بان الزاني لا يطأ الا زانية أو مشركة اي لا يطاوعه على مراده من الزنا

فان الشياطين كانت تسترق السمع ثم يأتون اليهم فيلقونه اليهم مثل مسيلمة من المتنبئة وكسطيح من الكهنة وهو معنى قوله (يلقون السمع) أي ما يسمعونه مما يسترقونه فالمعنى حال كون الشياطين ملقين السمع أي ما يسمعونه من الملا الاعلى الى الكهان ويجوز أن يكون المعنى ان الشياطين يلقون السمع أي يصغون الى الملا الاعلى ليسترقوا منهم شيأ ويكون المراد بالسمع على الوجه الاول المسموع وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع ويجوز أن تكون جملة يلقون السمع راجعة الى كل أفاك أثيم على أنها صفة أو مستأنفة ومعنى الالقاء أنهم يسمعون ما تلقيه اليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها وتكذب المائة الكلمة ويلقونها الى عوام الخلق أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت سأل أناس النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكهان قال انهم ليسوا بشئ قالوا يا رسول الله انهم يحدثون أحيانا بشئ يكون حقا قال تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة وفي لفظ للبخاري فيزيدون معها مائة كذبة (و) جملة (أكثرهم كاذبون) راجعة الى كل أفاك أثيم أي وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين لانهم يضمون الى ما يسمعونه كثيرا من أكاذيبهم المختلقة أو وأكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع أي المسموع من الشياطين الى الناس أو وهذه الجملة راجعة الى الشياطين أي وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه الى الكهنة مما يسمعونه فانهم يضمون الى ذلك من عند أنفسهم كثيرا من الكذب وكان هذا قبل ان حجبت الشياطين عن السماء وقد قيل كيف يصح على الوجه الاول وصف الافاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالافك وأجيب بأن المراد بالافاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا ينطق الا بالكذب فالمراد بقوله وأكثرهم كاذبون انه قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الشياطين والغرض الذي سيق لاجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جملة من يلقي اليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان ان الاغلب على الكهنة الكذب ولم يظهر من أحوال محمد صلى الله عليه وآله وسلم الا الصدق فكيف يكون كما زعموا ثم ان هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين وهذا النبي المرسل من عند الله برسالته الى الناس يذمهم ويلعنهم ويأمر بالتعوذ منهم ثم لما كان قد قال قائل من المشركين ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاعر

الزانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك الزانية لا ينكحها إلا زان أي عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة قال ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك وهذا إسناده عنه صحيح وقد روي عنه من غير وجه أيضا وقد روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك وقوله تعالى وحرم ذلك على المؤمنين أي تعاطيه والتزويج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار وقال أبو داود الطيالسي حدثنا قيس عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وحرم ذلك على المؤمنين قال حرم الله الزنا على المؤمنين وقال قتادة ومقاتل بن حيان حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا وتقدم في ذلك فقال وحرم ذلك على المؤمنين وهذه الآية كقوله تعالى محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وقوله محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان الآية ومن ههنا ذهب الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى وحرم ذلك على المؤمنين وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال قال أبي حدثنا الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه قال فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها قال فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين وقال النسائي أخبرنا عمرو بن علي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمرو قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأنزل الله عز وجل الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها

والمهل

بين سبحانه حال الشعراء ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (والشعراء يتبعهم) مشددا ومخففا أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم (الغاوون) أي الضالون عن الحق والشعراء جمع شاعر والغاوون جمع غاو وهم ضلال الجن والإنس قاله ابن عباس وقيل الزائلون عن الحق وقيل المشركون وقيل الشياطين وقيل الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لا يجوز وقيل المراد شعراء الكفار خاصة فمنهم عبد الله بن الزبعرى السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي وأمية بن أبي الصلت الثقفي تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويروون عنهم قولهم فذلك قوله تعالى هذا قال الزجاج إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون والمعنى لا يتبعهم على كذبهم وباطلهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون عن ابن عباس قال تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله هذه الآية ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) تقرير لما قبله والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية يقال هام يهيم هيما وهيمانا إذا ذهب على وجهه والهائم أن يذهب على وجهه من عشق وغيره وهو تمثيل كما في الكشاف والمعنى ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ويذمون الحق ويمدحون الباطل ويرغبون في فعل المحرمات ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة كيف وأكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم في التشبيب بالحرام والغزل والابتهار والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه قاله البيضاوي وغيره وهذا من باب الاستعارة المليحة

الازان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين قال الترمذي حدثنا عبد الله بن حميد حدثنا روح بن عبادة عن عبيد الله بن الاخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجلا يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة قال وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وانه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال فجئت حتى انتهيت الى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت الى عرفتني فقالت مرثد فقلت مرثد فقالت مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة قال فقلت يا عناق حرم الله الزنا فقالت يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم قال فتبعني ثمانية فسلكت الخندق فانتهيت الى غار أو كهف فدخلت فيه فجاؤا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني قال ثم رجعوا فرجعت الى صاحبي وحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت الى الاذخر ففككت عنه أحبله فجعلت أحمله ويعييني حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا أنكح عناقا مرتين فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد علي شيأ حتى نزلت الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا مرثد الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة فلا تنكحها ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وقد رواه أبو داود والنسائي في كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الاخنس به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسدد أبو الحسن حدثنا عبد الوارث عن حبيب المعلم حدثني عمرو بن شعيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينكح الزاني المجلود الا مثله وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر عن عبد الله بن عمرو كلاهما عن عبد الوارث به وقال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا عاصم بن محمد عن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أخيه عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالما يقول قال عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال والديوث وثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق

والتمثيل الرائع شبه جولانهم في أفانين القول بطريق المدح والذم والتشبيب وأنواع الشعر بهيام الهائم في كل وجه وطريق والهائم هو الذي يخبط في طريقه ولا يقصد موضعا معينا والهائم العاشق والهيمان العطشان والهيام داء يأخذ الابل من العطش وجمل أهيم وناقة هيماء والجمع فيهما هيم قال تعالى فشاربون شرب الهيم قال ابن عباس في الآية في كل لغو يخوضون وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل انهم يمدحون الشئ ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق فالوادي مثل لفنون الكلام وطرقه والغوص في المعاني والقوافي ثم قال سبحانه (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) أي يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة في ذلك ألجأهم اليه الفن الذي سلكوه فقد يحثون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه وقد ينسبون الى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوي الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات وأنهم فعلوا بمن كذا وكذا وذلك كذب محض وافتراء بحت ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق وكانوا يجيبون شعراء الكفار ويهجونهم وينافحون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقال (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي دخلوا في حزب المؤمنين وعملوا بأعمالهم الصالحات (وذكروا الله كثيرا) في أشعارهم ولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله كابن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير رضي الله تعالى عنهم عن عروة قال لما نزلت والشعراء الى قوله ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أني منهم فأنزل الله الا الذين آمنوا الى قوله ينقلبون وروى نحو هذا من طرق (وانتصروا من بعد ما ظلموا) كمن يهجوهم منهم من هجاه أو ينتصر لعالم أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانهم كانوا يهجون من يهجوه ويحمون عنه ويذبون عن عرضه ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة وكافح أهل البدعة وزيف ما يقول شعراؤهم من مدح بدعتهم وهجو السنة المطهرة كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة ونحوهم فان الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدين الله القائمين بما أمر الله بالقيام به واعلم ان الشعر في نفسه ينقسم الى أقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه

لوالده ومدمن الخمر والمنان بما أعطى ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمري عن عبد الله
ابن يسار به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا يعقوب حدثنا أبي حدثنا الوليد بن كثير عن قطن بن وهب عن عويمر بن الأجدع عمن
حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال حدثني عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة حرم الله عليهم الجنة مدمن
الخمر والعاق لوالديه والذي يقر في أهله الخبث وقال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثني شعبة حدثني رجل من آل سهل بن
حنيف عن محمد بن عمار عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة ديوث يستشهد بها
قادم الاحاديث وقال ابن ماجه
حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلام
ابن سوار حدثنا كثير بن سليم عن
الضحاك بن مزاحم سمعت أنس
ابن مالك يقول سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول من أراد
أن يلقى الله وهو طاهر متطهر
فليتزوج الحرائر في اسناده ضعف
وقال الامام أبو نصر اسمعيل بن
حماد الجوهري في كتابه الصحاح
في اللغة الديوث القنزع وهو الذي
لا غيرة له فأما الحديث الذي رواه
الامام أبو عبد الرحمن النسائي
في كتاب النكاح من سننه أخبرنا
محمد بن اسمعيل بن علية عن يزيد
ابن هرون عن حماد بن سلمة وغير عن
هرون بن زياد عن عبد الله بن عبيد
ابن عمير وعبد الكريم عن عبد الله
ابن عبيد بن عمير عن ابن عباس عبد
الكريم رفعه الى ابن عباس وهرون
لم يرفعه قالا جاء رجل الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال ان
عندي امرأة من أحب الناس الي
وهي لا تمنع يد لامس قال طلقها
قال لا أصبر عنها قال استمتع بها
ثم قال النسائي هذا الحديث غير
ثابت وعبد الكريم ليس بالقوي وهرون أثبت منه وقد أرسل الحديث وهو ثقة وحديثه أولى بالصواب بريه
من حديث عبد الكريم قلت وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث وقد خالفه هرون بن زياد وهو تابعي ثقة
من رجال مسلم فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق عن اسحق بن راهويه عن النضر بن شميل
عن حماد بن سلمة عن هرون بن زياد عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس مسندا فذكره بهذا الاسناد فرجاله على شرط مسلم الا أن
النسائي بعد روايته له قال هذا خطأ والصواب مرسل ورواه غير النضر على الصواب وقد رواه النسائي أيضا وأبو داود عن الحسين

منه الى قسم الحرام وقد يبلغ ما فيه خير منه الى قسم الراجح وقد وردت أحاديث في ذمه
وذم الاستكثار منه ووردت أحاديث أخر في اباحته وتجويزه والكلام في تحقيق ذلك
يطول وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه
قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه
فقال ان المؤمن يجاهد بنفسه بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح
النبل وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم اذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن يمتلئ
جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا وأخرج الديلمي مرفوعا عن ابن مسعود
الشعراء الذين يموتون في الاسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين
لأزواجهن في الجنة والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار وأخرج ابن
مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر لحكمة
قال وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت فقالوا انا نقول الشعر
وقد نزلت هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقرؤوا فقرؤوا والشعراء الى
قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقال أنتم هم وذكروا الله كثيرا فقال أنتم هم
وانتصروا من بعد ما ظلموا فقال أنتم هم وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن
عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحسان بن ثابت اهج المشركين فان
جبريل معك وأخرج أحمد وابن سعد عن أبي هريرة قال مر عمر بحسان وهو ينشد في
المسجد فلحظ اليه فنظر اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك فسكت ثم
التفت حسان الى أبي هريرة فقال أنشدك بالله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم يقول أجب عني اللهم أيده بروح القدس قال نعم وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر حكما وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن
مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر حكما ومن البيان سحرا وأخرج
مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن يمتلئ جوف أحدكم
قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعا لأن
يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا قال في الصحاح وري القيح جوفه

ابن حريث أخبرنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسين بن واقد عن عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وهذا الاسناد جيد وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعف له كما تقدم عن النسائي ومنكر كما قال الامام أحمد هو حديث منكر وقال ابن قتيبة انما أراد انها سخية لا تمنع سائلا وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم فقال وقيل سخية تعطي ورده هذا بانه لو كان المراد لقال لا ترد يد ملتمس وقيل المراد ان سجيتها لا ترد يد لامس لا ان المراد ان هذا واقع منها وانها تفعل الفاحشة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها فان زوجها والحالة هذه يكون ديوثا وقد تقدم الوعيد على ذلك ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقها فلما ذكر انه يحبها أباح البقاء معها لان محبته لها محققة ووقوع الفاحشة منها متوهم فلا يصار الى الضرر العاجل لتوهم الآجل والله سبحانه وتعالى أعلم قالوا فأما اذا حصلت توبة فانه يحل التزويج كما قال الامام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن ابن أبي ذئب قال سمعت شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال اني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي فرزق الله عز وجل من ذلك توبة فأردت ان أتزوجها فقال أناس ان الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة فقال ابن عباس ليس هذا في هذا انكحها فما كان من اثم فعلي وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء ان هذه الآية منسوخة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب قال ذكر عنده الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك قال كان يقال نسختها التي بعدها وأنكحوا الايامى منكم قال كان يقال الايامى من المسلمين وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضا الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة فاذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه

يريه وريا اذا أكله وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام قال القرطبي رواه اسمعيل عن عبد الله بن عوف الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال ردفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت قلت نعم قال هيه فانشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت وقال الشعبي كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر من الثلاثة وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد وروي انه دعا عمرو بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده قصيدة فانشده اياها وهي قريب من تسعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها من مرة واحدة وروى البخاري عن أبي بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان من الشعر حكمة وقالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح وللآزاد البلجرامي رحمه الله في بيان حكم الشعر كلام لطيف في كتابه تسلية الفؤاد ان شئت فارجع اليه ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال (وسيعلم) وفيه تهديد شديد ووعيد عظيم وكذا في اطلاق (الذين ظلموا) وابهام (أي منقلب ينقلبون) بعد الموت وخص بعضهم هذه الآية بالشعراء ولا وجه لذلك فان الاعتبار بعموم اللفظ وقد تلاها أبو بكر لعمر حين عهد اليه وكان السلف يتواعظون بها قال ابن عطاء سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا والمعنى ينقلبون منقلبا أي منقلب والمراد جهنم وقدم أي لتضمنه معنى الاستفهام قال أبو البقاء ولا يعمل فيه سيعلم لان الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله بل هو معلق عن العمل فيه وهذا الذي قاله مردود بأن أيا الواقعة صفة لا تكون استفهامية وكذلك الاستفهامية لا تكون صفة بل هما قسمان كل منهما قسم برأسه وأي تنقسم الى أقسام كثيرة قال النحاس وحقيقة القول في ذلك الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض والله أعلم وقال القرطبي معناه أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون لان مصيرهم الى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم الى العذاب وهو أشر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع ان المنقلب الانتقال الى ضد ما هو فيه والمرجع العود من حال هو فيها الى حال

أيضا وليس فيه نزاع بين العلماء فان أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درئ عنه الحد ولهذا قال تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون فأوجب على القاذف اذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام أحدها أن يجلد ثمانين جلدة الثاني انه ترد شهادته أبدا الثالث أن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس ثم قال تعالى الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود الى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائما (٤٨) وان تاب أو يعود الى الجملتين الثانية والثالثة وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف فذهب الامام مالك وأحمد والشافعي الى انه اذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضا وقال الامام أبو حنيفة انما يعود الاستثناء الى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبدا وممن ذهب اليه من السلف القاضي شريح وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد ابن جابر وقال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وان تاب الا أن يعترف على نفسه انه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج اذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه اقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها الى الامام فيدعي عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء انه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين فاذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وحرمت عليه أبدا ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ولا يدرأ عنها العذاب الا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين أي فيما رماها به والخامسة أن غضب

كان عليه اقتصار كل من رجح منقلبا وليس كل منقلب من جعاد ذكره الماوردي والمعنى عند الحسن وابن عباس ان الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله والانفكاك منه ولا يقدرون على ذلك وعن فضالة بن عبيد في الآية قال هؤلاء الذين يخربون البيت

(سورة النمل هي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية)

قال القرطبي وهي مكية كلها في قول الجميع ومثله قال ابن عباس وعن ابن الزبير مثله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس) قد مر الكلام مفصلا في فواتح السور وهذه الحروف ان كانت اسما للسورة فمحلها الرفع على الابتداء وما بعدها خبرها ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف أي اسم هذه السورة طس وان كانت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها والله أعلم بمراده بذلك (تلك) اشارة الى نفس السورة لأنها قد ذكرت اجمالا بذكر اسمها (آيات القرآن وكتاب مبين) عطف بزيادة صفة على مفهوم المعطوف عليه وكان مغايرا له بهذا الاعتبار والمراد بالكتاب القرآن نفسه أو اللوح المحفوظ أو نفس السورة وقد وصف الآيات بالوصفين القرآنية الدالة على كونها مقروءة مع الاشارة الى كونها قرآنا عربيا معجزا والكتابية الدالة على كونها مكتوبة مع الاشارة الى كونها متصفة بصفة الكتب المنزلة ثم ضم الى الوصفين وصفا ثالثا وهي الابانة لمعانيه لمن يقرأه وهو من أبان بمعنى بان معناه أو اتضح اعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة أو ظهر لمن تأمل فيه ما تضمنه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقدم وصف القرآنية هنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة وأخره في سورة الحجر فقال تلك آيات الكتاب وقرآن مبين نظرا الى حالته التي قد صار عليها فانه مكتوب والكتابة سبب القراءة والله أعلم وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب وتعريف الكتاب في سورة الحجر وتنكير القرآن فلعله لصلاحية كل واحد منهما للتعريف والتنكير لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصفان له لأنه مقروء ومكتوب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف (هدى وبشرى للمؤمنين) أي تلك آيات هادية ومبشرة أو هو هدى أو هي ذو هدى وبشرى أو هاد من الضلالة ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال

(الذين)

(الذين يقيمون الصلاة) أى الخمس ويديمون على شرائطها من الفروض والسنن ويأتون بها على وجهها (ويؤتون الزكاة) أى يؤدون ويعطون زكاة أموالهم اذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم ولما كانت اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد فى أوقاتهما أتى بهما فعلين ولما كان الايقان بالآخرة أمرا ثابتا مطلوبا دوامه أتى به جملة اسمية فقال (وهم بالآخرة هم يوقنون) يعلمونها بالاستدلال وجعل الخبر مضارعا للدلالة على أن ايقانهم يستمر على سبيل التجدد فى كل وقت وعدم الانقطاع وكرر الضمير للدلالة على الحصر ولما فصل بينه وبين الخبر أى لا يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق وانهم الاوحدون فيه ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى لا يصدقون بالبعث وهم الكفار (زينا لهم أعمالهم) قيل المراد ان الله زين لهم أعمالهم السيئة القبيحة بتركيب الشهوة فيهم حتى رأوها حسنة وقيل المراد ان الله زين لهم الاعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك قال الزجاج معنى الآية انا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه بان جعلناه مشتهى بالطبع محبوبا للنفس (فهم يعمهون) أى يترددون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون الى طريقه ولا يقفون على حقيقته لعدم ادراكهم قبحها فى الواقع وقيل المعنى يتمادون قاله أبو العالية وقال قتادة يلعبون وعن الحسن يتحيرون وقيل يداومون ويتمكنون فيها أو يستمرون والمعانى متقاربة (أولئك الذين لهم سوء العذاب) أى أشده قيل فى الدنيا كالقتل والاسر ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى هم أشد الناس خسرانا وأعظمهم خيبة فالمفضل عليه هو أنفسهم من حيث اعتبار اختلاف الزمان والمكان ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الاخبار العجيبة فقال مخاطبا النبى صلى الله عليه وآله وسلم (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى يلقى عليك بشدة فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم ووجه الجمع بينهما مع أن العلم داخل فى الحكمة ان العلم الذى يدخل فيها هو العلم العملى وهو الذى يتعلق بكيفية عمل والعلم أعم منه فكأنه قيل مصيب فى أفعاله لا يفعل شيأ الا على وفق علمه عليم بكل شئ سواء كان ذلك العلم مؤديا الى العمل أم لا قيل ان

الله عليها ان كان من الصادقين ولهذا قال ويدرأ عنها العذاب يعنى الحد ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين فخصها بالغضب كما ان الغالب ان الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا الا وهو صادق معذور وهى تعلم صدقه فيما رماها به ولهذا كانت الخامسة فى حقها ان غضب الله عليها والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته اى لحرجتم ولشق عليكم كثير من اموركم (٤٩) وان الله تواب على عباده وان كان ذلك بعد الحلف والايمان المغلظة حكيم فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه وقد وردت الاحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار رضى الله عنه أهكذا أنزلت يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الانصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يارسول الله لا تلمه فانه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط فاجترأ رجل منا ان يتزوجها من شدة غيرته فقال سعد والله يارسول الله انى لأعلم انها الحق وانها من الله ولكنى قد تعجبت انى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى ان أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله انى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته قال فما لبثوا الا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه وسمع باذنيه فلم يهجه حتى أصبح فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت باذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الانصار وقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ويبطل شهادته فى الناس فقال هلال والله انى لأرجو ان يجعل الله لى منها مخرجا وقال هلال يارسول الله فانى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم انى لصادق فوالله ان رسول الله

الذي هو أعني عبده وفيها العبارات كما تقدم في سورة الكهف وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد ان يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه وقد اشتملت هذه السورة على قصص خمسة الاولى هذه وتليها قصة النملة وتليها قصة بلقيس وتليها قصة صالح وتليها قصة لوط (اذ قال موسى لاهله) قال الزجاج أي اذكر قصته اذ قال لاهله والمراد باهله امرأته في مسيره من مدين الى مصر وكان في ليلة مظلمة باردة مثلجة وقد ضل الطريق وأخذ زوجته الطلق والحامل له على هذا السفر ان يجتمع بامه وأخيه بمصر ولم يكن معه اذ ذاك الا زوجته بنت شعيب فكنى عنها بلفظ الاهل الدال على الكثرة للتعظيم وقيل كان معه ولده وخادمه أيضا ويدل له قوله امكثوا (اني آنست نارا) أي أبصرتها من بعيد (سآتيكم منها بخبر) عن حال الطريق وكان قد ضلها والسين تدل على بعد مسافة النار وتأكيد الوعد والجمع ان صح انه لم يكن معه عليه السلام الا امرأته لما كنى عنها بالاهل أو للتعظيم مبالغة في التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على ان الثاني بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها وقرئ بالاضافة على أنها للبيان فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي والترديد للايذان بانه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين قاله أبو السعود والمعنى على القراءتين آتيكم بشعلة نار مأخوذة من أصلها في رأس فتيلة أو عود قال الزجاج من نون جعل قبس من صفة شهاب وقال الفراء هذه الاضافة كمسجد الجامع وصلاة الاولى أضاف الشيء الى نفسه لاختلاف أسمائه وقال النحاس هي اضافة النوع الى الجنس كما تقول ثوب خز وخاتم حديد وهي بمعنى من أي شهاب من قبس قال ويجوز في غير القرآن بشهاب قبسا على انه مصدر أو بيان أو حال قال الزجاج كل أبيض ذي نور فهو شهاب وقال أبو عبيدة الشهاب النار وقال ثعلب أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه والشهاب الشعاع المضيء وقيل للكوكب شهاب (لعلكم تصطلون) أي رجاء ان تستدفئوا بها من البرد أو لكي تستدفئوا بها يقال صلي بالنار واصطلى بها اذا استدفأ بها والاصلاء النار

صلى الله عليه وسلم يريدان يأمر بضربه اذ أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الوحي وكان اذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد وجهه يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله الآية فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا فقال هلال قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلوا اليها فأرسلوا اليها فجاءت فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فذكرهما وأخبرهما ان عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال والله يا رسول الله لقد صدقت عليها فقالت كذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وان هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها فشهد في الخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم قيل للمرأة اشهدي أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة وأوقفها اتقي الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وان هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت في الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى ان لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد وقضى ان لا قوت لها من أجل انهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها وقال ان جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو للذي رميت به فجاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الأليتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا الأيمان لكان لي ولها شأن قال عكرمة فكان بعد ذلك أميرا على مصر وكان يدعى لامه ولا يدعى لأب ورواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يزيد بن هرون به نحوه مختصرا ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة فمنها ما قال البخاري حدثني محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن هشام بن حسان حدثني عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند

العظمة

النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أوحد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة أوحد في ظهرك فقال هلال والذي بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل وانزل عليه والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك ابن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزيادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح وهو ابن عمر حدثنا عاصم يعني ابن كليب عن أبيه حدثني ابن عباس قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى امرأته برجل فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يردده حتى أنزل الله تعالى والذين يرمون ازواجهم فقرأ حتى فرغ من الآيتين فارسل اليهما فدعاهما فقال ان الله تعالى قد انزل فيكما فدعا الرجل فقرأ عليه فشهد اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ثم امر به فامسك على فيه فوعظه فقال له كل شئ اهون عليك من لعنة الله ثم أرسله فقال لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم دعاها فقرأ عليها فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ثم أمر بها فامسك على فيها فوعظها وقال ويحك كل شئ أهون من غضب الله ثم أرسلها فقالت غضب الله عليها ان كان من الصادقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله لاقضين بينكما قضاء فصلا قال فولدت فما رأيت مولودا بالمدينة أكثر منه فقال ان جاءت به لكذا وكذا فهو كذا وان جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا فجاءت به يشبه الذي قذفت به وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال سمعت سعيد بن جبير قال سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في امارة ابن الزبير فما دريت ما أقول

العظيمة واختلاف الالفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ التزوج (فلما جاءها) أي النار التي أبصرها (نودي) من جانب الطور (أن بورك من في النار ومن حولها) أن هي المفسرة لما في النداء من معنى القول أي قيل له بورك أو هي المصدرية أي بان بورك أي بارك الله أي ناداه بانا قدسناك وطهرناك واخترناك للرسالة وقيل هي المخففة من المثقلة وتقديره بأنه بورك واسمها ضمير الشان وبورك خبرها وجاز ذلك من غير عوض وان منعه الزمخشري أي لم يحتج هنا الى فاصل لان قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة وقرئ ان بوركت النار وحكى الكسائي عن العرب باركك الله وبارك فيك وعليك ولك وكذلك حكى هذا الفراء قال ابن جرير قال بورك من في النار ولم يقل بورك على من في النار على لغة من يقول باركك الله أي بورك وقدس وطهر من في النار وهو موسى وليس هو فيها حقيقة بل في المكان القريب منها وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له كما حيى ابراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت قاله القرطبي وقال السدي كان في النار ملائكة والنار هنا هي مجرد النور ولكنه ظن موسى انها نار فلما وصل اليها وجدها نورا وعن الحسن وسعيد بن جبير ان المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي نوره أو قدرته وسلطانه وقيل بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة قال الواحدي ومذهب المفسرين أن المراد بالنار هنا النور وعن ابن عباس قال يعني تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعني الملائكة وعنه قال كان الله في النور نودي من النور ومن حولها قال الملائكة وعنه قال ناداه الله وهو في النور وعنه قرئ بوركت النار وفي مصحف أبي بن كعب بوركت النار أما النار فيزعمون انها نور رب العالمين وعن ابن عباس بورك قال قدس وقيل المراد بمن غير العقلاء وهو النور والامكنة التي حولها وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي موسى الاشعري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو رفع لاحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره ثم قرأ أبو عبيدة ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله

فقمت من مكانى الى منزل ابن عمر فقلت يا أبا عبد الرحمن المتلاعنان أيفرق بينهما فقال سبحان الله ان أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال يارسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فان تكلم تكلم بأمر عظيم وان سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه فلما كان بعد ذلك اتاه فقال الذى سألتك عنه قد ابتليت به فأنزل الله تعالى هذه الآيات فى سورة النور والذين يرمون ازواجهم حتى بلغ أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين فبدأ بالرجل فوعظه وذكره واخبره ان عذاب الدنيا اهون من عذاب الآخرة فقال والذى بعثك بالحق ما كذبت ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها واخبرها ان عذاب الدنيا اهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة والذى بعثك بالحق انه لكاذب قال فبدأ بالرجل فشهد اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم ثنى بالمرأة فشهدت اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ثم فرق بينهما رواه النسائى فى التفسير من حديث عبد الملك بن ابى سليمان به واخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال الامام احمد حدثنا يحيى بن حماد حدثنا ابو عوانة عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال كنا جلوسا عشية الجمعة فى المسجد فقال رجل من الانصار أحدنا اذا رأى مع امرأته رجلا ان قتله قتلتموه وان تكلم جلدتموه وان سكت سكت على غيظ والله لان أصبحت صحيحا لاسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأله فقال يارسول الله ان احدنا اذا رأى مع امرأته رجلا ان قتله قتلتموه وان تكلم جلدتموه وان سكت سكت على غيظ اللهم احكم قال فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل اول من ابتلى به انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الاعمش به وقال الامام احمد ايضا حدثنا أبو كامل حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سهل بن سعد قال جاء عويمر الى عاصم بن عدى فقال له سل رسول الله صلى الله عليه وسلم ارايت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله ايقتل به ام كيف يصنع فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل قال فلقيه عويمر فقال ما صنعت قال ما صنعت انك لم تأتنى بخير سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما قال فدعا بهما ولاعن بينهما قال عويمر ان انطلقت بها يارسول الله لقد

رب العالمين والحديث أصله مخرج فى صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة وفى التوراة جاء الله من سيناء وأشرق من ساعين واستعلى من جبال فاران والمراد بعثة موسى من سيناء وبعثة عيسى من ساعين وبعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فاران وهو اسم مكة ثم نزه سبحانه نفسه من السوء فقال (وسبحان الله رب العالمين) فيه تعجيب لموسى من ذلك وهو من جملة ما نودى به وانما وقع التعرض للتنزيه فى هذا المقام ادفع ما ربما ان يتوهمه موسى بحسب الطبع البشرى الجارى على العادة الخلقية ان الكلام الذى يسمعه فى ذلك المكان بحرف وصوت حادث ككلام الخلق أو المتكلم به فى مكان أو جهة قاله الحفناوى (ياموسى انه) أى الشان (أنا الله العزيز) الغالب القاهر (الحكيم) فى أمرى وفعلى وقيل ان موسى قال يارب من الذى نادانى فاجابه سبحانه بقوله انه أنا الله وهو تمهيد لما أراد ان يظهره على يده من المعجزات فأمره سبحانه بان يلقى عصاه ليعرف ما أجراه على يده من المعجزات الخارقة فيأنس بها فقال (وألق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى ان بورك وأن ألق (عصاك فلما رآها تهتز) جملة حالية من هاء رآها لان الرؤية بصرية وقوله (كأنها جان) يجوز ان تكون حالا ثانية وان تكون حالا من ضمير تهتز فتكون حالا متداخلة قاله السمين قال الزجاج صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية البيضاء وانما شبهها بالجان فى خفة حركتها والا فهى كانت كبيرة جدا وشبهها فى موضع آخر بالثعبان لعظمها وجمع الجان جنان وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم وقال الكلبى لا صغيرة ولا كبيرة والفاء فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فابصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر يقال عقب فلان اذا رجع وكل راجع معقب وقيل لم يقف ولم يلتفت ولم يعطف ولم ينتظر والاول أولى لان التعقيب هو الكر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه ان ذلك الامر أريد به كما ينبئ عنه قوله (ياموسى لا تخف) من غيرى أى من الحية وضررها ثقة بى أو لا تخف مطلقا (انى لا يخاف لدى المرسلون) أى لا يخاف عندى من أرسلته برسالتى من حية وغيرها فلا تخف أنت عندى قيل ونفى الخوف عن المرسلين ليس فى جميع الاوقات بل فى وقت

كذبت عليها قال ففارقها قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت سنة المتلاعنين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابصروها فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه الا قد صدق وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه الا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة الا الترمذي ورواه البخاري أيضا من طرق عن الزهري به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت رجلا رأى مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قضي فيك وفي امرأتك قال فتلاعنا وانا شاهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففارقها فكانت سنة ان يفرق بين المتلاعنين وكانت حاملا فأنكر حملها وكان ابنها يدعى اليها ثم جرت السنة في الميراث ان يرثها وترث منه ما فرض الله لها وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا اسحق بن الضيف حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس بن أبي اسحق عن أبيه عن زيد بن يثيع عن حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لو رأيت مع ام رومان رجلا ما كنت فاعلا قال كنت والله فاعلا به شرا قال فأنت يا عمر قال كنت والله فاعلا كنت أقول لعن الله الاعجز فانه خبيث قال فنزلت والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ثم قال لا نعلم أحدا أسنده الا النضر بن شميل عن يونس بن اسحق ثم رواه من حديث الثوري عن أبي اسحق عن زيد بن يثيع مرسلا فالله أعلم وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن ابن سيرين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لأول لعان كان في الاسلام ان شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته فرفعته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة شهود والا فحد في ظهرك فقال يا رسول الله ان الله يعلم اني لصادق ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد فأنزل الله آية اللعان والذين يرمون أزواجهم الى آخر الآية قال فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال اشهد بالله انك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا فشهد بذلك أربع شهادات ثم قال له في الخامسة ولعنة الله عليك ان كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا ففعل ثم دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قومي فاشهدي بالله انه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا فشهدت بذلك أربع شهادات ثم قال لها في الخامسة وغضب الله عليك

الخطاب لهم والايحاء والارسال لانهم اذ ذاك مستغرقون في مطالعة شؤن الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من شئ وأما في غير هذه الحالة فالمرسلون أخوف الناس منه تعالى أو المعنى لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه ثم استثنى استثناء منقطعا فقال (الا من ظلم) أي لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية (ثم بدل حسنا) أي توبة وندما (بعد سوء) أي بعد عمل سوء (فاني غفور رحيم) أقبل التوبة واغفر له وقيل الاستثناء من مقدر أي لا يخاف لدي المرسلون وانما يخاف غيرهم من ظلم الا من ظلم الخ كذا قال الفراء وقال النحاس الاستثناء من محذوف محال لانه استثناء من شئ لم يذكر وعن الفراء أن الا بمعنى الواو وقيل ان الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف والمعنى الا من ظلم من المرسلين باتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد واختار هذا النحاس وقال علم من عصاه منهم فاستثناه فقال الا من ظلم وان كنت قد غفرت له كآدم وداود واخوة يوسف وموسى لقتله القبطي ولا مانع من الخوف بعد المغفرة فان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول وددت اني شجرة تعضد (وأدخل يدك في جيبك) المراد بالجيب هو المعروف أي طوق القميص سمي جيبا لانه يجاب أي يقطع ليدخل فيه الرأس وفي القصص اسلك يدك في جيبك وفي أدخل من المبالغة ما لم يكن في اسلك ولم يأمره بادخالها في كمه لانه كان عليه مدرعة صغيرة من صوف لا كم لها وقيل كان لها كم قصير عن ابن عباس قال كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه فقال له أدخل يدك في جيبك فادخلها (تخرج) خلاف لونها من الادمة (بيضاء من غير سوء) أي من غير برص أو نحوه من الآفات فهو احتراس وقيل في الكلام حذف تقديره أدخل يدك تدخل وأخرجها تخرج ولا حاجة الى هذا الحذف ولا ملجئ اليه قال المفسرون وكانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا ازار فادخل يده في جيبه وأخرجها فاذا هي تبرق كالبرق لها شعاع يغشى البصر (في تسع آيات) قال أبو البقاء هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج وفيه بعد وقيل متعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات وقيل متعلق بقوله ألق عصاك وأدخل يدك في جملة تسع آيات وقيل المعنى فيهما آيتان من تسع يعني العصا واليد فتكون الآيات احدى عشرة هاتان والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم

إن كان من الصادقين فشهدت أربعاً فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت على القول ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال انظروا فإن جاءت به جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أبيض سبطاً قضيء العينين فهو لهلال بن أمية فجاءت به جعداً حمش الساقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن (إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) (٥٤) هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري قال أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن

قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني اليد داخلة في تسع آيات وكذا قال المهدوي والقشيري قال الزجاج والقشيري تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم أي خرجت عاشر عشرة ففي بمعنى من لقربها منها كما تقول خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها وقيل في بمعنى مع واليد والعصا خارجتان من التسع وكذا فعل ابن عطية (إلى فرعون وقومه) قال الفراء في الكلام إضمار أي إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه وكذا قال الزجاج (إنهم كانوا قوماً فاسقين) تعليل لما قبله من المقدر أي خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) التي كانت على يد موسى حال كونها (مبصرة) أي مضيئة واضحة اسم فاعل أطلق على المفعول نحو ماء دافق أي مدفوق إشعاراً بأنها لفرط إنارتها ووضوحها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر كقوله وآتينا ثمود الناقة مبصرة وقرئ مبصرة بفتح الميم والصاد أي مكاناً يكثر فيه التبصر كما قال الزجاج مجبنة ومبخلة والأول أولى ونسب الإبصار إليها مجازاً لأن بها تبصر والمعنى إما حقيقة في كلها أو حسية في بعضها وهو اليد فلما جاءتهم آياتنا (قالوا هذا) الذي نشاهده من الخوارق التي أتى بها موسى (سحر مبين) واضح ظاهر سحريته (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) أي قد كذبوا بها ولم يقروا حال كون أنفسهم مستيقنة لها أنها من عند الله فالواو للحال يقال جحد حقه وبحقه بمعنى والاستيقان أبلغ من الإيقان (ظلماً) أي للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحراً (وعلواً) استكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما إما على العلة أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو أو على الحالية من فاعل جحدوا أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف أي جحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً قال أبو عبيدة والباء في وجحدوا بها زائدة وقال الزجاج التقدير وجحدوا بها ظلماً وعلواً أي وتكبروا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أي تفكر يا محمد في ذلك فإن فيه معتبراً للمعتبرين وقد كانت عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة والإحراق ثمة وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر ولما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود وابنه سليمان وهذه القصة

وماقبلها او مابعدها هي كالبيان والتقرير لقوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فقال (ولقد آتينا) أي أعطينا (داود وسليمان) ابنه (علما) التنوين اما للنوع أي طائفة من العلم أو للتعظيم أي علما كثيرا قيل المراد علم الدين والحكم وقيل علم القضاء والسياسة وقيل علم داود تسبيح الطير وعلم سليمان منطق الطير والدواب وكان لداود تسعة عشر ولدا سليمان واحد منهم وعاش داود مائة سنة وبينه وبين موسى خمسمائة سنة وتسع وستون سنة وعاش سليمان نيفا وخمسين سنة وبينه وبين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة ذكره في التحبير (وقالا) أي كل منهما والواو للعطف على محذوف لان هذا المقام مقام الفاء فالتقدير ولقد آتيناهما علما فعملا به وقالا شكرا لله (الحمد لله) ويؤيده ان الشكر باللسان انما يحسن اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية (الذي فضلنا) بالعلم والنبوة وتسخير الطير والجن والانس والشياطين (على كثير) ممن لم يؤت علما أو مثل علمنا وهذه المقالة على سبيل التحدث والشكر (من عباده المؤمنين) ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعا منهم وظاهر النظم ان التسخير كان لكل من داود وسليمان ومثله في الخازن والخطيب وفي الآية دليل على شرف العلم وارتفاع محله وتقدم حملته وأهله وان نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده وان من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من العباد ومنح شرفا جليلا وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورثة الانبياء الا لمدانا تهم لهم في الشرف والمنزلة لانهم القوام بما بعثوا من أجله وفيه انه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه وان يعتقد العالم انه ان فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر رضي الله عنه كل الناس أفقه من عمر وعن عمر بن عبد العزيز انه كتب ان الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها الا كان حمده افضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك الا في كتاب الله المنزل فقد قال الله عز وجل ولقد آتينا داود وسليمان علما الى قوله عباده المؤمنين وأي نعمة أفضل مما أعطي داود وسليمان أقول ليس في الآية ما يدل على ما فهمه رحمه الله والذي تدل عليه انهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم فمن أين تدل على أن حمده أفضل من نعمته (وورث سليمان داود) أي ورثه العلم والنبوة والكتب دون باقي اولاده قال قتادة والكلبي كان لداود تسعة عشر ولدا فذكر ورث سليمان من بينهم نبوة ولو كان المراد

فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه قالت وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت ان القوم سيفقدونني فيرجعون الي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فادلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان قد رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا والناس يفيضون في قول أهل الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبني في وجعي اني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي أرى منه حين أشتكي انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي ام مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وام مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف وامها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن اثاثة بن عباد بن عبد المطلب فاقبلت أنا وابنة أبي رهم ام مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت ام مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت تسبين رجلا شهد بدرا فقالت أي هنتاه ألم تسمعي ما قال قلت وماذا قال قالت فأخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا الى مرضي فلما رجعت الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لي أن آتي أبوي قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما

فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت أبوي فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت أي بنية هوني عليك فوالله

لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا قالت

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي

طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال اسامة يارسول الله أهلك ولا نعلم إلا

خيرا وأما علي بن أبي طالب فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة فقالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقام سعد بن معاذ الانصاري رضي الله عنه فقال أنا أعذرك منه يارسول الله إن كان من الاوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد

وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر لان جميع اولاده في ذلك سواء وكذا قال جمهور المفسرين فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم العلماء ورثة الانبياء قال قتادة في الآية ورث نبوته وملكه وعلمه وأعطي ما اعطي داود وزيد له تسخير الريح والجن والشياطين وكان اعظم ملكا منه وأقضى منه وكان داود اشد تعبدا من سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال) سليمان لبني اسرائيل تحدثا بما أنعم الله به عليه وشكرا للنعمة التي خصه بها (يا أيها الناس علمنا) الضمير فيه وفي اوتينا لكل من داود وسليمان قال القرطبي بفضل الله علينا زيادة على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الارض ان فهمنا (منطق الطير) اي فهم ما يريده كل طائر اذا صوت والمعاني التي في نفوسها سمي صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس وقدم منطق الطير لانها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره قال الفراء منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ومعنى الآية فهمنا ما يقول الطير ومقتضى هذا ان كلامهم ما كان يعلم اصوات الطير وما تريده قال الخطيب علمنا اي انا وابي بتيسير الله واسهاله وفي التعارف النطق والمنطق في التعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفردا كان أو مركبا مفيدا كان أو غير مفيد وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد فان الاصوات الحيوانية من حيث انها تابعة للتخيلات نزلت منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الاغراض بحيث يفهمها ما هو من جنسه ولعل سليمان مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية الغرض الذي صوت لاجله والغرض الذي نطق به انتهى قال جماعة من المفسرين انه علم منطق جميع الحيوانات وانما ذكر الطير لانه كان جندا من جنوده يسير معه لتظليله من الشمس فخص بالذكر لكثرة مداخلته وقال قتادة والشعبي انما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة فانها من جملة الطير وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير وكذلك كانت هذه النملة التي سمع سليمان كلامها وفهمه أخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول اللهم أنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك فاما ان تسقينا واما ان تهلكنا فقال سليمان للناس ارجعوا

الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من فقد

رهطك ما أحببت ان يقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق

تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم

وأبواي يظنان ان البكاء فالق كبدي قالت فبينماهما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست

فقد سقيتم بدعوة غيركم وقد ذكر الخازن والنسفي في تفسيريهما منطق بعض الطيور وما تقوله القمري وغيرها وكذا القرطبي بلا اسناد صحيح متصل يعتمد عليه ويصار اليه فتركنا ذكرها ههنا فانه لا يأتي بكثير فائدة للمنتهين (وأوتينا من كل شئ) تدعو اليه الحاجة كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن والانس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والارض وجاء سليمان بنون العظمة والمراد نفسه بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف لا تكبرا وتعظيما لنفسه عن جعفر بن محمد قال أعطى سليمان ملك مشارق الارض ومغاربها فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ملك أهل الدنيا كلهم وأعطى كل شئ وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة حتى اذا أراد الله أن يقبضه أوحى اليه ان يستودع علم الله وحكمته أخاه وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة قال الذهبي هذا باطل وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان عن القرظي وغيره لا تطيب النفس بذكر شئ منها فالامساك عن ذكرها أولى (ان هذا) أي ما تقدم ذكره من التعليم والايتاء (لهو الفضل المبين) أي الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد أو المظهر لفضيلتنا وانما قال ذلك شكرا لا فخرا (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير) من الاماكن المختلفة في مسيره والحشر الجمع أي جمع له جنوده من هذه الاجناس وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصح من جهة النقل ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر (فهم يوزعون) أي لكل طائفة منهم وزعة ترد أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم قيل كان في جنوده وزراء وهم النقباء ترد أول العسكر على آخره لئلا يتقدموا في السير يقال وزعه يزعه وزعا كفه فاتزع أي انكف وأوزعه بالشئ أغراه به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم أي يرده وجمعه وزعة وقيل هو من التوزيع بمعنى التفريق يقال القوم أوزاع أي طوائف وقال ابن عباس يوزعون يدفعون وعنه قال لكل صف وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا تتقدمها في السير كما يصنع الملوك وفي الآية دليل على اتخاذ الائمة والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض اذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم قال الحسن لا بد للناس من وازع أي سلطان يكفهم (حتى اذا أتوا) حتى هي

تبكي معي فبينا نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني شئ قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لابي أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لامي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت بأمر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لي ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت وأنا والله أعلم حينئذ اني بريئة وان الله تعالى مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله مارام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال ابشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك قالت فقالت لي أمي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيأ أبدا بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة

ان يؤتوا أولي القربى الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لي فرجع
الى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب
بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمري فقال يا زينب ما علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري
والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع
وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك قال ابن شهاب فهذا ما انتهى الينا من أمر

هؤلاء الرهط أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري وهكذا رواه ابن اسحق عن الزهري كذلك قال وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الانصاري عن عمرة عن عائشة بنحو ما تقدم والله أعلم ثم قال البخاري وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها قالت لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد أشيروا على في أناس أبنوا أهلي وايم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط الا وأنا حاضر ولا غبت في سفر الا غاب معي فقام سعد ابن معاذ الانصاري فقال يا رسول الله ائذن لي ان نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم
حسان من رهط ذلك الرجل فقال كذبت أما والله ان لو كانوا من الاوس ما أحببت ان تضرب
أعناقهم حتى كاد ان يكون بين الاوس والخزرج شر في المسجد وما علمت فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي
أم مسطح فعثرت فقالت تعس مسطح فقلت لها أي أم تسبين ابنك فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت تعس مسطح فقلت
لها أي أم تسبين ابنك ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه الا فيك فقلت في أي شأني قالت
فبقرت لي الحديث فقلت وقد كان هذا قالت نعم والله فرجعت الى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ووعكت

التي يشتد لبعدها الكلام ويكون غاية لما قبلها والمعنى فهم يوزعون الى حصول هذه الغاية وهي اتيانهم (على واد النمل) أي فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى اذا أتوا على مكان فيه نمل كثير وعدى بعلى لانهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون والمعنى انهم قطعوا الوادي وبلغوا آخره قال كعب وادي النمل بالطائف وقال قتادة ومقاتل هو بالشام والنمل حيوان معروف شديد الاحساس والشم حتى انه يشم الشئ من بعيد ويدخر قوته ومن شدة ادراكه انه يفلق الحبة فلقتين خوفا من الانبات ويفلق حبة الكسبرة أربع فلق لانها اذا فلقت فلقتين تنبت ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي باقيه عدته ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله الذين جابوا الصخر بالواد الا الكسائي فانه وقف بالياء قال لان الموجب للحذف انما هو التقاء الساكنين بالوصل (قالت نملة) ملكة النمل على وجه الصحة قولا لاشتماله على حروف وأصوات وكانت عرجاء ذات جناحين وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة قاله سليمان الجمل قيل وكانت أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند اليها ورد هذا أبو حيان فقال لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال في المذكر قالت لان نملة وان كانت بالتاء فانها مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه بل يتميز بالاخبار عنه بانه ذكر أو أنثى ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ولا بالتعرض لاسم النملة ولا لذكر القصص الموضوعة والاحاديث المكذوبة وقرئ النمل والنملة بزنة رجل وسمرة وقرئ بضمتين فيهما ثم قيل ان هذا الوادي كان صغار وهو النمل المعروف أو كبار كالبخاتي أو كالذئاب والاول هو المشهور والجملة جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادي فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة (يا أيها النمل) وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعا من البلاغة أولها النداء يا وثانيها أيها كناية وثالثها هاء التنبيه ورابعها سمت سولها النمل وخامسها أمرت بقولها (ادخلوا) وسادسها نصت بقولها (مساكنكم) جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب والمساكن هي الامكنة التي تسكن النمل فيها وقرأ أبي ادخلن مساكنكن وقرئ مسكنكم وسابعها حذرت بقولها (لا يحطمنكم) أي لا يكسرنكم والحطم الكسر يقال حطمته حطما أي كسرته كسرا فتحطم وتحطم

تكسر

تكسر والتحطيم التكسير والحطام ما تكسر من اليبس وهذا النهى هو فى الظاهر للنمل وفى الحقيقة لسليمان فهو من باب لا أرينك ههنا أو بدل من الامر أو جواب للامر وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لانه من ضرورات الشعر وقرئ لا يحطمنكم بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء وثامنها خصت بقولها (سليمان) وتاسعها عمت بقولها (وجنوده) أرادت جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ وعاشرها أشارت بقولها (وهم) وحادى عشرها عذرت بقولها (لا يشعرون) أى بحطمكم ولا يعلمون بمكانكم أى لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة لهم بالعدل كأنها عرفت أن النبى معصوم وجنده محفوظ فلا يقع منهم حطم هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء وحفظ أصحابهم وفيه ان الرافضة الذين ينسبون الظلم وحطم الحقوق الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أهل بيته وعترته هم أقل عقلا وأضعف رأيا من تلك النملة فانها اعتقدت فى جنود سليمان العدل وهؤلاء اعتقدوا بأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم الظلم وشتان بينهما وقيل ان المعنى والنمل لا يشعرون ان سليمان يفهم مقالتها وهو بعيد جدا (فتبسم) سليمان ابتداء (ضاحكا) انتهاء (من قولها) وقرئ ضحكا وعلى الاول حال مؤكدة لانه قد فهم الضحك من التبسم وقيل حال مقدرة لان التبسم أول الضحك وقيل لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له وقيل ان ضحك الانبياء هو التبسم لا غير وعلى الثانى مصدر منصوب بفعل محذوف وكل من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح فى الفم لكن الاول انفتاح بلا صوت أصلا والثانى مع صوت خفيف والثالث مع صوت قوى وكان ضحك سليمان تعجبا من قولها وفهمها واهتدائها الى تحذير النمل أو فرحا لظهور عدله (وقال رب أوزعنى) قد تقدم بيان معناه قريبا فى قوله فهم يوزعون قال فى الكشاف وحقيقة أوزعنى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكرا لك انتهى قال الواحدى أوزعنى أى ألهمنى وبه قال قتادة وعن الحسن مثله يقال فلان موزع بكذا أى مولع به قال القرطبى وأصله من وزع فكأنه قال كفنى عما يسخطك انتهى وقال الزجاج معناه امنعنى أن أكفر نعمتك وهو تفسير باللازم (أن أشكر نعمتك التى أنعمت) بها (على) مفعول ثان لا وزعنى أى من النبوة والملك والعلم (وعلى والدى)

وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى الى بيت ابى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أم رومان ما جاء بك يا بنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث واذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى فقالت يا بنية خفضى عليك الشأن فانه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا حسدنها وقيل فيها واذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى فقلت وقد علم به أبى قالت نعم قلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لامى ما شأنها قالت بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه رضى الله عنه فقال أقسمت عليك يا بنية الا رجعت الى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى فسأل عنى خادمى فقالت يا رسول الله لا والله ما علمت عليها عيبا الا أنها ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خبزها أو عجينها وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسقطوا لها به فقالت سبحان الله والله ما علمت عليها الا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الاحمر وبلغ الامر ذلك الرجل الذى قيل له فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط قالت عائشة رضى الله عنها فقتل شهيدا فى سبيل الله قالت وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال أما بعد يا عائشة ان كنت قارفت سوأ أو ظلمت فتوبى الى الله فان الله يقبل التوبة عن عباده قالت وقد جاءت امرأة من الانصار فهى جالسة بالباب فقلت ألا تستحى من هذه المرأة ان تذكر شيأ فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت الى أبى فقلت له أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فماذا أقول فالتفت الى أمى فقلت أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ماذا أقول فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت أما بعد فوالله ان قلت لكم انى لم أفعل والله عز وجل يشهد انى لصادقة ما ذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم وان قلت لكم انى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها وانى والله ما أجد لى ولكم مثلا والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه الا أبا يوسف حين قال فصبر جميل والله المستعان

على ما تصفون وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك قالت وكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وكانت عائشة تقول أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي ابن سلول وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة

قالت فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة أبدا فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولو الفضل منكم إلى آخر الآية يعني أبا بكر والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين يعني مسطحا إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقا بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد ابن أسامة أحد الأئمة الثقات وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع عن أبي أسامة مطولا بمثله أو نحوه ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة ببعضه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزل عذري من السماء جاءني النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرني بذلك فقلت نحمد الله لا نحمدك وقال الإمام أحمد حدثني ابن أبي عدي عن محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة أيضا عن عائشة قالت لما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم ورواه أهل السنن الأربعة وكان
وقال الترمذي هذا حديث حسن ووقع عند أبي داود تسميتهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها وقد روي من حديث أمها أم رومان رضي الله عنها فقال الإمام أحمد حدثنا علي بن عاصم أخبرنا حصين عن أبي وائل عن مسروق عن أم رومان قالت بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت فعل الله بفلان وفعل فقالت عائشة ولم قالت إنه كان فيمن حدث الحديث قالت وأي الحديث قالت

الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه لأن الإنعام عليهما إنعام عليه وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه قال أهل الكتاب وأمه هي زوجة أوريا أو ريا ورقوبلا التي امتحن الله بها داود قاله القرطبي والله أعلم بصحته ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها ولا سيما النعم الدينية فقال (وأن أعمل صالحا) في بقية عمري (ترضاه) مني ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلا في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق بها الطلب فقال (وأدخلني) الجنة (برحمتك في عبادك الصالحين) من الأنبياء أو صلحاء العباد والمعنى أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم إلى دار الصالحين وهي الجنة أو في بمعنى مع والصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ولا يفعل معصية ولا يهم بها وهذه درجة عالية اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم فتقبل ذلك مني وتفضل علي به فإني وإن كنت مقصرا في العمل ففضلك الواسع هو سبب الفوز بالخير ورحمتك أرجى عندي من عملي وهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المتقين بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه في الصحيح سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته فإذا لم يكن إلا فضلك الواسع فترك طلبه منك عجز والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان وذلك بدلالة الهدهد فقال (وتفقد الطير) التفقد تطلب ما غاب عنك وتعرف أحواله والطير اسم جنس لكل ما يطير والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير وتعرف حال ما غاب منها وكانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها (فقال ما لي) وقرئ بسكون الياء (لا أرى الهدهد) أي ما للهدهد لا أراه فهذا من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيرا وقيل لا حاجة إلى ادعاء القلب إذ المعنى صحيح بدونه بل هو استفهام واستخبار عن المانع له من رؤية الهدهد كأنه قال ما لي لا أراه هل ذلك لساتر يستره عني أو لشيء آخر قال الكلبي ولم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد والهدهد معروف ثم ظهر له أنه غائب فقال (أم كان من الغائبين) فلم أره لغيبته وأم هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب عن ابن عباس أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير فقال إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء

كذا وكذا قالت وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت و بلغ أبا بكر قالت نعم فخرت عائشة رضى الله عنها مغشيا عليها فما أفاقت الا وعليها حمى بنافض قالت فقمت فدثرتها قالت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم قال فما شأن هذه فقلت يارسول الله أخذتها حمى بنافض قال فلعله فى حديث تحدث به قالت فاستوت عائشة قاعدة فقالت والله لئن حلفت لكم لاتصدقونى ولئن اعتذرت اليكم لاتعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب و بنيه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون قالت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذرها فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فدخل فقال ياعائشة ان الله تعالى قد أنزل عذرك فقالت بحمد الله لابحمدك فقال لها أبو بكر تقولين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر فحلف أن لايصله فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة الى آخر الآية فقال أبو بكر بلى فوصله تفرد به البخارى دون مسلم من طريق حصين وقد رواه البخارى عن موسى بن اسمعيل عن أبى عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به وفى لفظ أبى عوانة حدثتنى أم رومان وهذا صريح فى سماع مسروق منها وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وذلك لما ذكره أهل التاريخ انها ماتت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال الخطيب وقد كان مسروق يرسله فيقول سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف فاعتقد الراوى انها سألت فظنه متصلا قال الخطيب وقد رواه البخارى كذلك ولم تظهر له علته كذا قال والله أعلم فقوله تعالى ان الذين جاؤا بالافك أى الكذب والبهت والافتراء عصبة أى جماعة منكم لاتحسبوه شرا لكم أى يا آل أبى بكر بل هو خير لكم أى فى الدنيا والآخرة لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة واظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى الله عنه وعنها وهى فى سياق الموت قال لها أبشرى فانك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزل براءتك من السماء وقال ابن جرير فى تفسيره حدثنى محمد بن عثمان الواسطى حدثنا جعفر بن عون عن المعلى بن عرفان

وكان الهدهد يدل سليمان على الماء فأراد أن يسأله عنه ففقده قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس رضى الله عنه هذا قيل له كيف ذلك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب و يضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده فقال اذا جاء القضاء ونزل القدر ذهب اللب وعمى البصر فلما تحقق الغيبة قال (لأعذبنه عذابا شديدا) اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ماهو فقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج هو ان ينتف ريشه جميعا وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقال يزيد بن رومان هو ان ينتف ريش جناحيه وقيل أن يحبسه مع اضداده وقيل أن يمنعه من خدمته وقيل القاؤه فى الشمس وقيل التفريق بينه و بين الفه وقيل الزامه خدمة اقرانه وقيل ايداعه فى القفص وقيل طرحه بين يدى النمل ليأكله وفى هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع واذا سخر له الطير لم يتم التسخير الا بالتأديب والسياسة وعن الحسن قال كان اسم هدهد سليمان غبر قال الشوكانى لا أدرى من أين جاء هذا للحسن رحمه الله وهكذا ماروى عنه أن اسم النملة حرس وانها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وانها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ونحن نعلم انه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك شئ ونعلم انه ليس للحسن اسناد متصل بسليمان أو بأحد من أصحابه فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب وقد أمرنا أن لانصدقهم ولا نكذبهم فان ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ماروى حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فليس ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك بل فيما يذكرعنهم من القصص الواقعة لهم وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة (أو لأذبحنه) بقطع حلقومه (أو ليأتينى بسلطان مبين) هو الحجة البينة فى غيبته قال ابن عباس السلطان المبين خبر الحق الصدق البين وعنه قال كل سلطان فى القرآن حجة وذكر هذه الآية ثم قال وأى سلطان كان للهدهد يعنى أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذى هو الملك والحلف فى الحقيقة على أحد الاولين بتقدير عدم الثالث فكلمة أو بين الاولين للتخيير وفى الثالث للترديد بينه وبينهما قال الزمخشرى فان قلت قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعله لا كلام فيه ولكن كيف يصح حلفه على فعل الهدهد ومن أين درى انه

عن محمد بن عبد الله بن جحش قال تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء وقالت عائشة
أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب يا عائشة ما قلت حين ركبتها قالت
قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت قلت كلمة المؤمنين وقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم أي لكل من تكلم في هذه
القصة ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب والذي تولى كبره قيل ابتدأه وقيل
الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه وسببه له عذاب عظيم أي على ذلك ثم الأكثرون على أن المراد بذلك

أي بسلطان قلت لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قوله
ليكونن أحد الأمور يعني إن كان الإتيان بسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن
كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية الغيب وأو الثانية ترجع في المعنى إلى أنها بمعنى
الأولى وهي في كل من الأمرين فلما كأنه قال لأعذبنه إلا أن يأتيني أو لأذبحنه إلا أن
يأتيني بسلطان مبين (فمكث) بفتح الكاف من باب نصر وقرئ بضم الكاف من باب قرب
قال سيبويه مكث يمكث مكوثاً كقعد يقعد قعوداً أي مكث الهدهد بعد تفقد سليمان
إياه زماناً (غير بعيد) وقيل إن الضمير في مكث لسليمان والمعنى بقي سليمان بعد التفقد
والتوعد زماناً غير طويل والأول أولى (فقال أحطت بما لم تحط به) الإحاطة العلم بالشيء
من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه منه معلوم وأول في الكلام حذف والتقدير فمكث الهدهد
غير بعيد فجاء فعوتب على مغيبه فقال معتذراً عن ذلك أحطت بما لم تحط به قال الفراء
ويجوز أحط بإدغام الطاء في التاء والمعنى علمت ما لم تعلمه من الأمر وبلغت ما لم تبلغه أنت
ولا جنودك وقال ابن عباس اطلعت على ما لم تطلع عليه وقد ألهم الله الهدهد هذا
الكلام فكافح سليمان به مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه وتنبيهاً
على أن أدنى خلقه قد أحاط علماً بما لم يحط به لتكون لطافة في ترك الإعجاب وإنما أخفى
الله على سليمان مكانها وكانت المسافة بينهما قريبة لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف
على يعقوب وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في
زمانه أحد أعلم منه (وجئتك من سبأ) قرئ بالصرف على أنه اسم رجل نسب إليه قوم
وقرئ بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل
وقال سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن وقيل هو اسم امرأة سميت بها المدينة قال
القرطبي والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مسيك المرادي
قال ابن عطية وخفي هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء وزعم الفراء أن الرؤاسي سأل
أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال ما أدري ما هو قال النحاس وأبو عمرو أجل من أن يقول
هذا قال والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل فإن صرفته فلأنه
قد صار اسماً للحي وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند
سيبويه الصرف انتهى وأقول لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس وهو

إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه
الله ولعنه وهو الذي تقدم النص
عليه في الحديث وقال ذلك مجاهد
وغير واحد وقيل المراد به حسان
ابن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه
وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على
ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه
من الصحابة الذين كان لهم فضائل
ومناقب ومآثر وأحسن مآثره
أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بشعره وهو الذي قال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم
هاجهم وجبريل معك وقال الأعمش
عن أبي الضحى عن مسروق قال
كنت عند عائشة رضي الله عنها
فدخل حسان بن ثابت فأمرت
فألقي له وسادة فلما خرج قلت لعائشة
ما تصنعين بهذا يعني يدخل
عليك وفي رواية قيل لها أتأذنين
لهذا يدخل عليك وقد قال الله
والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم
قالت وأي عذاب أشد من العمى
وكان قد ذهب بصره لعل الله أن
يجعل ذلك هو العذاب العظيم
ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وفي رواية

أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمدحها به فقال * حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل * فقالت أما أنت فلست كذلك وفي رواية لكنك لست كذلك وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا مسلمة بن علقمة حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب

هجوت محمداً فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه * وبحرى لا تكدره الدلاء   فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغوا قالت لا انما اللغو ما قيل عند النساء
قيل أليس الله يقول والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم قالت أليس قد أصابه عذاب عظيم أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف تعنى
الضربة التى ضربه بها صفوان بن المعطل السلمى حين بلغه عنه انه يتكلم فى ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله (لولا اذ سمعتموه
ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم
الكاذبون) هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين فى قضية عائشة رضى

الله عنها حين أفاض بعضهم فى ذلك
الكلام السيئ وما ذكر من شأن
الافك فقال تعالى لولا يعنى هلا اذ
سمعتموه أى ذلك الكلام الذى
رميت به أم المؤمنين رضى الله عنها
ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم
خيرا أى قاسوا ذلك الكلام على
أنفسهم فان كان لا يليق بهم فأم
المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق
الاولى والأحرى وقد قيل انها نزلت
فى أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى
وامرأته رضى الله عنهما كما قال
الامام محمد بن اسحق بن يسار عن
أبيه عن بعض رجال بنى النجار
ان أبا أيوب خالد بن زيد الانصارى
قالت له امرأته أم أيوب يا أبا
أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى
عائشة رضى الله عنها قال نعم وذلك
الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم
أيوب قالت لا والله ما كنت لافعله
قال فعائشة والله خير منك قال
فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل
من قال فى الفاحشة ما قال من أهل
الافك ان الذين جاؤا بالافك عصبة
منكم وذلك حسان وأصحابه الذين
قالوا ما قالوا ثم قال تعالى لولا اذ
سمعتموه ظن المؤمنون الآية أى
كما قال أبو أيوب وصاحبته وقال
محمد بن عمر الواقدى حدثنى ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب ان أم أيوب قالت لابى أيوب
ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة قال بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك قالت لا والله قال فعائشة والله خير منك فلما نزل القرآن
وذكر أهل الافك قال الله عز وجل لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين يعنى أبا أيوب حين
قال لام أيوب ما قال ويقال انما قالها أبى بن كعب وقوله تعالى ظن المؤمنون الخ أى ظنوا الخير فان أم المؤمنين أهله وأولى به هذا
ما يتعلق بالباطن وقوله وقالوا أى بألسنتهم هذا افك مبين أى كذب ظاهر على أم المؤمنين رضى الله عنها فان الذى وقع لم يكن ريبة

أيضا اسم رجل من قحطان وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ولكن المراد
هنا ان الهدهد جاء الى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه وسيأتى من المأثور
ما يوضح هذا ويؤيده وعن ابن عباس قال سبأ أرض اليمن يقال لها مأرب بينها وبين
صنعاء مسيرة ثلاث ليال والمعنى ان الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة (بنبأ يقين) النبأ
هو الخبر الخطير الشأن وهذا من محاسن الكلام ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظا ومعنى
ههنا ألا ترى انه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما فى النبأ من
الزيادة التى يطابقها وصف الحال فلما قال الهدهد لسليمان ما قال قال له سليمان وما ذاك
فقال (انى وجدت امرأة تملكهم) وهى بلقيس بنت شراحيل روى ذلك عن الحسن
وقتادة وزهير بن محمد وعن ابن جريج انها بنت ذى شرح وجدها الهدهد تملك أهل
سبا وكان أبوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هى وقومها
مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبا على تأويل القوم وأهل المدينة
والجملة هذه كالبيان والتفسير للجملة التى قبلها أى ذلك النبأ اليقين هو كون هذه
المرأة تملك هؤلاء قال ابن عباس اسمها بلقيس بنت ذى شيرة وكانت هلباء شعراء قيل
كانت من نسل يعرب بن قحطان وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم احدى أبوى بلقيس كان جنيا أخرجه ابن عساكر وابن مردويه وأبو الشيخ وابن
جرير (وأوتيت من كل شئ) فيه مبالغة والمراد انها أوتيت من كل شئ من الاشياء التى
تحتاجها الملوك من الآلة والعدة وكان يخدمها النساء وهذا عام أريد به الخصوص وقيل
المعنى أوتيت من كل شئ فى زمانها شيأ من أسباب الدنيا والمال والعدد ما يليق بحالها
فحذف شيأ لان الكلام قد دل عليه (ولها عرش عظيم) أى سرير كبير ضخم وقيل المراد
بالعرش هنا الملك والاول أولى لقول سليمان أيكم يأتينى بعرشها ووصفه بالعظم بالنسبة
اليها والى أمثالها من ملوك الدنيا لانه كما قيل كان مضروبا من الذهب والفضة طوله ثمانون
ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا مكللا بالدر والياقوت
الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد وأما وصف عرش الله بالعظيم فهو بالنسبة الى جميع
المخلوقات من السموات والارض وما بينهما فبينهما بون عظيم وفرق بين قال ابن عطية
واللازم من الآية انها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير كبير

وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستوراً فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة الفاحشة الفاجرة والصفقة الخاسرة قال الله تعالى لولا أي هلا جاؤوا عليه أي على ما قالوه بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما جاؤوا به فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون أي في حكم الله كاذبون فاجرون (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) يقول تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة أيها الخائضون في شأن عائشة أن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه من قضية الإفك عذاب عظيم وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه ثم قال تعالى إذ تلقونه بألسنتكم قال مجاهد وسعيد بن جبير أي يرويه بعضكم عن بعض يقول هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا وذكر بعضهم كذا وقرأ آخرون إذ تلقونه بألسنتكم وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك وتقول هو من ولق اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه تقول العرب ولق فلان في السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة هي أعلم به من غيرها وقوله تعالى وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم أي تقولون ما لا تعلمون ثم قال تعالى وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين

وكانت كافرة من قوم كفار وعن ابن عباس قال سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالي الثمن عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه قيل كانوا مجوساً وقيل زنادقة ووجدت بمعنى لقيت وأصبت فتتعدى لواحد (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي يعملونها وهي عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر (فصدهم عن السبيل) أي صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح وهو الإيمان بالله وتوحيده (فهم لا يهتدون) إلى ذلك ولا يبعد من الهدهد أن يهتدي إلى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها (ألا يسجدوا لله) قال ابن الأنباري الوقف على لا يهتدون غير تام عند من شدد ألا لأن المعنى وزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا وقال النحاس هي أن دخلت عليها لا قال الأخفش أي زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا لله وهو على الوجهين مفعول له وقيل فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ولا على هذا زائدة كقوله ما منعك أن لا تسجد وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود إما بالتزيين أو بالصد أو بمنع الاهتداء وقد رجح كونه علة للصد الزجاج ورجح الفراء كونه علة لزين قال زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا وقرئ ألا بالتخفيف وعلى هذا فهي حرف تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ألا يا اسجدوا واسجدوا فعل أمر وتقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا قال الزجاج وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون قراءة التشديد والقراءة بالتخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه وكذا قال النحاس وعلى هذه يكون جملة ألا يا اسجدوا معترضة من كلام الهدهد أو من كلام سليمان أو من كلام الله سبحانه وقرأ ابن مسعود هلا تسجدوا بالفوقية وقرأ أبي ألا تسجدوا بالتاء وفيه مناسبة لما قبله وهي الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله (الذي يخرج الخبء في السموات والأرض) يقال خبأت الشيء أخبؤه خبأً والخبء ما خبأت أي يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما الإله لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من فيهما عالم

بجميع المعلومات وفي إخراج الخبء دليل على القدرة قال الزجاج جاء في التفسير أن الخبء ههنا بمعنى القطر من السماء والنبات من الأرض وقيل خبء الأرض كنوزها ونباتها وقال قتادة الخبء السر قال النحاس أي ما غاب فيهما وقرئ الخب بفتح الباء من غير همز وقرئ الخبا بالألف قال أبو حاتم وهذا لا يجوز في العربية ورد عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن وقرئ من السموات قال الفراء من وفي تتعاقبان عن ابن عباس قال يعلم كل خبيئة في السماء والأرض (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) قرئ بالتحتية في الفعلين وبالفوقية للخطاب أما الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة وأما الثانية فلكون القراءة فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك فهذا من ذلك الخطاب والمعنى أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفي بعلمه كما يخرج ما خفي في السماء والأرض وفيه دليل على إثبات العلم والإعلان ذكره لتوسيع دائرة العلم للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى علمه تعالى ثم بعد ما وصف الرب سبحانه بما تقدم مما يدل على عظيم قدرته وجليل سلطانه وسعة علمه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) بالجر نعتاً للعرش وبالرفع نعتاً للرب وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما عرش بلقيس فتعظيمه بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك وهذا بالنسبة إلى جميع الموجودات من السماء والأرض وبينهما بون عظيم كما تقدم وإلى هنا كلام الهدهد لكنه من قوله الذي يخرج إلى هنا ليس داخلاً تحت قوله أحطت بما لم تحط به يعني ليس مما علمه الهدهد دون سليمان بل سليمان يعلمه أيضاً على وجه أتم وأكمل من علم الهدهد وإنما ذكره الهدهد بياناً لما هو عليه معتقده وإظهار التصلبه في الدين فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) له سليمان (سننظر) فيما أخبرتنا به من هذه القصة ونتعرف والنظر هو التأمل والتصفح وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار والكشف عن الحقائق وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه (أصدقت) فيما قلت والهمزة استفهامية (أم كنت من الكاذبين) أم هي المتصلة وهذا القول أبلغ من قوله أم كذبت فيه مع أنه أخصر وأشهر لأن المعنى من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقاً لهم فهو يفيد أنه كاذب لا محالة على أتم وجه ومن كان كذلك

ويحسبون ذلك يسيراً لو لم تكن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان شيئاً فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم وفي الصحيحين إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض وفي رواية لا يلقي لها بالاً (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً وإن لا يشعر نفسه سوى ذلك ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً فلا ينبغي أن يتكلم به فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل أخرجاه في الصحيحين وقال الله تعالى ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد سبحانك هذا بهتان عظيم أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله ثم قال تعالى يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي فيما يستقبل ولهذا قال إن كنتم مؤمنين أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم

فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ثم قال تعالى ويبين الله لكم الآيات أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية والله عليم حكيم أي عليم بما يصلح عباده حكيم في شرعه وقدره (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه فقد قال تعالى إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح لهم عذاب أليم في الدنيا أي بالحد وفي الآخرة بالعذاب الأليم والله يعلم وأنتم لا تعلمون أي

فردوا الامور اليه ترشدوا وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون بن أبي محمد المرائي حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) يقول الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم أي لولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رؤف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب اليه من هذه وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ثم قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر هذا تنفير وتحذير من الله بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس خطوات الشيطان عمله وقال عكرمة نزغاته وقال قتادة كل معصية فهي من خطوات الشيطان وقال أبو مجلز النذور في المعاصي من خطوات الشيطان وقال مسروق سأل رجل ابن مسعود فقال اني حرمت أن آكل طعاما وسميه فقال هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان ابن عبد الله المصري حدثنا السري ابن يحيى عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت على امرأتي فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر ان لم تطلق امرأتك فأتيت عبد الله بن عمر فقال انما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة وأتيت عاصم بن عمر فقالت مثل ذلك ثم قال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع اليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ولكن الله يزكي من يشاء أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي وقوله والله سميع أي سميع لأقوال عباده عليم بمن يستحق منهم الهدى والضلال

لا يرتق به وقال البيضاوي التعبير للمبالغة والمحافظة على الفواصل ثم بين سليمان هذا النظر الذي وعده فقال (اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم) أي الى أهل سبا قال الزجاج في ألقه خمسة أوجه قرئ بها وخص الهدهد بارساله بالكتاب لانه المخبر بالقصة ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلا للرسالة (ثم تول) أي تنح وانصرف (عنهم) وقف قريبا منهم وانما أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك والمراد التنحي الى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما يسمع وقيل معنى التولي الرجوع اليه والاول أولى لقوله (فانظر ماذا يرجعون) أي تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم الى بعض من القول وما يتراجعونه بينهم من الكلام قال ابن عباس يقول كن قريبا منهم فانظر ما الذي يردون من الجواب (قالت) بلقيس (يا أيها الملأ) في الكلام حذف والتقدير فذهب الهدهد فألقاه اليهم فسمعها تقول يا أيها الملأ (اني ألقي الي كتاب كريم) والملأ هم الاشراف سموا ملأ لانهم يملؤن العيون وفاعل ألقي محذوف قيل لجهلها به ان لم تكن شاهدته وقيل لاحتقاره ان كانت رأته والكريم المكرم المعظم ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها فعظمته اجلالا لسليمان وقيل لاشتماله على كلام حسن وقيل لكونه مصدرا بالبسملة وقيل لغرابة شأنه وقيل لكونه وصل اليها مختوما بخاتم سليمان وكرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا قال ابن المقنع من كتب الى أخيه كتابا لم يختمه فقد استخف به ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت (انه من) عبد الله (سليمان) بن داود الى بلقيس ملكة سبأ (وانه بسم الله الرحمن الرحيم) أي وان ما اشتمل عليه الكتاب من الكلام وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكريم قال ابن عباس انطلق بالكتاب حتى اذا توسط عرشها ألقى الكتاب اليها فقرئ عليها فاذا فيه انه من سليمان الخ وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكان يكتب البسملة وبعدها السلام على من اتبع الهدى (ان لا تعلوا) أي اما بعد فلا تتكبروا (علي) كما تفعله جبابرة الملوك وان هي المفسرة وقيل مصدرية ولا ناهية وقيل نافية ومحل الجملة الرفع على انها بدل من كتاب أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أن لا تعلوا وقرئ لا تغلوا بالغين من الغلو وهو تجاوز الحد في الكبر (وأتوني مسلمين)

(ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) يقول تعالى ولا يأتل من الألية وهي الحلف أي لا يحلف أولوا الفضل منكم أي الطول والصدقة والاحسان والسعة أي الجدة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الارحام ولهذا قال تعالى وليعفوا وليصفحوا أي عما تقدم منهم من الاساءة والاذى وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لانفسهم

وهذه الآية نزلت في الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعدما قال في عائشة ما قال كما تقدم في الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فانه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له الا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها وكان الصديق رضي الله عنه معروفا بالمعروف له الفضل والأيادي على الاقارب والاجانب فلما نزلت هذه الآية الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم الآية فان الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب اليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك فعند ذلك قال الصديق بلى والله انا نحب ان تغفر لنا يا ربنا ثم رجع الى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا في مقابلة ما كان قال والله لا أنفعه بنافعة أبدا فلهذا كان الصديق هو الصديق (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات خرج مخرج الغالب المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على ان من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فانه كافر لانه معاند للقرآن

أي طائعين منقادين الدين مؤمنين بما جئت به وقيل لم يزد سليمان على ما نص الله في كتابه وكذلك الانبياء كانوا يكتبون جملا لا يطيلون ولا يكثرون وقيل طبعه سليمان بالمسك أي جعل عليه قطعة منه كالشمع ثم ختمه بخاتمه (قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري) أي أشيروا علي وبينوا الي الصواب في هذا الامر وأجيبوني بما يقتضيه الحزم وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون ذلك حلا لما أشكل من الامر عليها وفي الكلام حذف والتقدير فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت اشراف قومها وكانوا ثلثمائة واثني عشر لكل واحد منهم أتباع كثيرة وقالت لهم يا أيها الملأ اني ألقي الي يا أيها الملأ أفتوني وكرر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم ثم زادت في التأدب واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب فقالت (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) أي عادتي وشأني معكم اني ما كنت مبرمة وقاضية وفاصلة أمرا من الامور حتى تحضروا عندي وتشيروا علي فلما قالت لهم ذلك (قالوا) مجيبين لها (نحن أولوا قوة) في العدد والعدة (وأولوا بأس شديد) عند الحرب واللقاء ولنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلادنا ومملكتنا يعني أشاروا عليها بالقتال ثم فوضوا الامر اليها لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها فقالوا (والامر) موكول (اليك) أي الى رأيك ونظرك (فانظري) أي تأملي (ماذا تأمرين) انا نأتمر به فنحن سامعون لامرك مطيعون له فلما سمعت تفويضهم الامر اليها لم ترض بالحرب بل مالت للصلح وبينت السبب في رغبتها فيه و (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى (أفسدوها) أي خربوا أماكنها وغيروا مغانيها وأتلفوا أموالها وفرقوا شمل أهلها قال ابن عباس اذا أخذوها عنوة وقهرا أخربوها وعن الزجاج مثله (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أي أهانوا أشرافها وحطوا مراتبهم فصاروا عند ذلك أذلة وانما يفعلون ذلك لاجل ان يتم لهم الملك وتستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان اليهم ودخوله بلادهم (وكذلك) أي مثل ذلك الفعل (يفعلون) أرادت ان هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير لانها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت قال ابن الانباري الوقف على قوله أذلة وقف تام فقال الله عز وجل تحقيقا وتصديقا لقولها وكذلك يفعلون وقيل هذه الجملة من تمام كلامها فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله وعلى الاول مستأنفة لا محل لها من الاعراب قال النسفي واحتج الساعي في الارض

وفى تسميتهن أمهات المؤمنين قولان أصحهما انهن كهى والله أعلم وقوله تعالى لعنوا فى الدنيا والآخرة الآية كقوله ان الذين يؤذون الله ورسوله الآية وقد ذهب بعضهم الى انها خاصة بعائشة رضى الله عنها فقال ابن ابى حاتم حدثنا ابو سعيد الاشج حدثنا عبد الله ابن خراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات قال نزلت فى عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا احمد بن عبدة الضبى حدثنا أبو عوانة عن عمر بن ابى سلمة عن انس عن عائشة رضى (٦٨) الله عنها قالت رميت بما رميت به وانا غافلة فبلغنى بعد ذلك قالت فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندى اذ أوحى اليه قالت وكان اذا أوحى اليه أخذه كهيئة السبات وانه أوحى اليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال يا عائشة ابشرى قالت فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حتى بلغ أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم هكذا أورده وليس فيه ان الحكم خاص بها وانما فيه انها سبب النزول دون غيرها وان كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله اعلم وقال الضحاك وابو الجوزاء وسلمة بن نشيط المراد بها أزواج النبى خاصة دون غيرهن من النساء وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الآية يعنى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباؤا بسخط من الله فكان ذلك فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد ذلك والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء الى قوله فان الله غفور رحيم فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد وقال ابن جرير حدثنا القاسم [illegible] الحطاب حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بنى أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الآية قال فى شأن عائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم وهى مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء الى قوله الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية قال فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهم بعض القوم ان يقوم اليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور فقوله وهى مبهمة اى

بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراما فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين انتهى ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة وبينت لهم ما فى دخول الملوك الى أرضهم من المفسدة أوضحت لهم وجه الرأى عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت (وانى مرسلة اليهم) أى الى أهل هذا الرجل بارسال رسلى اليه (بهدية) مشتملة على نفائس الاموال فان كان ملكا أرضيناه بذلك وكفينا أمره وان كان نبيا لم يرضه ذلك لان غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء الى الدين فلا ينجينا منه الا اجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ولهذا قالت (فناظرة بم يرجع المرسلون) بالهدية من قبول أورد فعاملة بما يقتضيه ذلك وذلك ان بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الامور وجربتها وقد طول المفسرون فى ذكر هذه الهدية قال ابن عباس أرسلت بلبنة من ذهب فلما قدموا اذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله أتمدون بمال الآية وقال ثابت البنانى أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج وقال مجاهد أهدت جوارى لباسهن لباس الغلمان وغلمانا لباسهم لباس الجوارى وقال عكرمة أهدت مائتى فرس على كل فرس غلام وجارية وعلى كل فرس لون ليس على الآخر وقال سعيد بن جبير كانت الهدية جواهر وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره (فلما جاء) رسولها المرسل بالهدية وهو منذر بن عمرو والمراد بهذا المضمر الجنس فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها بم يرجع المرسلون وقرئ فلما جاؤا أى الرسل (سليمان قال أتمدون بمال) مستأنفة والاستفهام للانكار أى قال منكرا لامدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله (فما آتانى الله) من النبوة والعلم والملك العظيم والاموال الكثيرة (خير مما آتاكم) من المال الذى هذه الهدية من جملته وهذا تعليل للنفى ثم انه أضرب عن الانكار المتقدم وقال توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء (بل أنتم بهديتكم تفرحون) وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتى لان الله سبحانه قد أعطانى منها ما لم يعطه أحدا من العالمين ومع ذلك أكرمنى بالنبوة والمراد بهذا الاضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الازراء بهم والحط عليهم ثم قال سليمان للرسول (ارجع اليهم) أى الى بلقيس وقومها بما أتيت به من الهدية وخاطب المفرد ههنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل اما لان الذى سيرجع هو الرسول فقط أو خص أمير الرسل

عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت اماما في ذلك وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم مارواه ابن ابي حاتم حدثنا احمد بن عبد الرحمن بن اخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن ابي الغيث عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يارسول الله قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربا واكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات اخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به وقال الحافظ ابو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني حدثني ابي ح وحدثنا ابو شعيب الحراني حدثنا جدي احمد بن ابي شعيب حدثني موسى بن أعين عن ليث عن ابي اسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة وقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون قال ابن ابي حاتم حدثنا ابو سعيد الاشج حدثنا ابو يحيى الرازي عن عمرو بن ابي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انهم يعني المشركين اذا رأوا أنه لايدخل الجنة الا اهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على افواههم وتشهد ايديهم وارجلهم ولايكتمون الله حديثا وروى ابن ابي حاتم وابن جرير ايضا حدثنا يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب اخبرني عمرو بن الحرث عن دراج عن ابي الهيثم عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال له هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله فتشهد عليهم ايديهم والسنتهم ثم يدخلهم النار وقال ابن ابي حاتم ايضا حدثنا ابو شيبة ابراهيم بن عبد الله بن ابي شيبة الكوفي حدثنا منجاب بن الحرث التميمي حدثنا ابو عامر الاسدي حدثنا سفيان بن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو الفقيمي عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال اتدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله اعلم قال من مجادلة العبد ربه يوم

بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتنانا في الكلام وقرئ ارجعوا وقيل ان الضمير يرجع الى الهدهد واللام في (فلنأتينهم) جواب قسم محذوف أي والله ان لم يأتوني مسلمين لنأتينهم قال النحاس وسمعت ابن كيسان يقول هي لام توكيد ولام أمر ولام خفض وهذا قول الحذاق من النحويين لانهم يردون الشئ الى أصله وهذا لايتهيأ الا لمن درب في العربية (بجنود لاقبل) أي لاطاقة (لهم بها) وحقيقة القبل المقابلة والمقاومة أي لايقدرون أن يقابلوهم (ولنخرجنهم منها) أي من بلادهم وأرضهم التي هم فيها وهي سبأ حال كونهم (أذلة) بعد أن كانوا أعزة (وهم صاغرون) هي حال ثانية مؤكدة للاولى لان الصغار هو الذلة وقيل ان المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد وقيل ان الصغار الاهانة التي تسبب عنها الذلة ولما رجع الرسول الى بلقيس بالهدية تجهزت للمسير الى سليمان انتظار مايامرها به وأخبر جبريل سليمان بذلك (قال) سليمان لكل من هو عنده في قبضته من الجن والانس وغيرهما (ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) أي عرش بلقيس الذي تقدم وصفه بالعظم وكان سليمان اذذاك في بيت المقدس وعرشها في سبا بلدة باليمن وبينها وبين القدس مسيرة شهرين (قبل أن يأتوني مسلمين) أي قبل أن تاتيني هي وقومها منقادين طائعين قيل انما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا اليه ويسلموا لانهم حينئذ حربيون واذا أسلمت وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضاهم لان الاسلام يعصم مالهم قال ابن عطية وظاهر الروايات ان هذه المقالة من سليمان بعد مجئ هديتها ورده اياها وبعثه الهدهد بالكتاب وعلى هذا جمهور المتأولين وقيل استدعى العرش قبل وصولها اليه ليريها القدرة التي هي من عند الله ويجعله دليلا على نبوته وقيل أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال نكروا لها عرشها كما سيأتي وقيل أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم والقول الاول هو الذي عليه الاكثر (قال عفريت من الجن) وقرئ عفرية بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء ورويت هذه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقرأ أبو حيان بفتح العين وهو شاذ والعفريت المارد الغليظ الشديد القوي قال النحاس يقال للشديد اذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفرية وعفريت وقال قتادة هو الداهية وقيل هو رئيس الجن وقال ابن عطية وقرأت فرقة عفر بكسر العين جمعه على عفار قال وهب اسمه كوذي وقال السهيلي ذكوان وقيل هو صخر المارد قاله ابن عباس

القيامة يقول أي رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول لا أجيز علي إلا شاهدا من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقد رواه مسلم والنسائي جميعا عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعي عن سفيان الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال وقال قتادة ابن آدم والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك فإنه لا يخفى عليه

خافية الظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله وقوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق قال ابن عباس دينهم أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم وكذا قال غير واحد ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم وقوله ويعلمون أن الله هو الحق المبين أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) قال ابن عباس الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول قال ونزلت في عائشة وأهل الإفك وهكذا روي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن بن أبي الحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت والضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى أولئك مبرءون مما يقولون وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أي ما كان الله ليجعل عائشة

وقيل اسمه ذكوان وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه وكان مسخرا لسليمان (أنا آتيك به) أي أنا آتي بالعرش إليك مضارع أو اسم فاعل (قبل أن تقوم من مقامك) أي مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة بين الناس وهو من الغداة إلى نصف النهار (وإني عليه) أي على حمله (لقوي أمين) على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان أريد أسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) المنزل على الأنبياء قبل سليمان كالتوراة التي أنزلت على موسى قال أكثر المفسرين اسمه آصف بن برخيا بالمد وبالقصر وهو من بني إسرائيل وكان وزير سليمان وصديقه وقيل كاتبه وكان من أولياء الله تظهر الخوارق على يديه كثيرا وقيل كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب قال ابن عطية وقالت فرقة هو سليمان نفسه ويكون الخطاب على هذا للعفريت كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت فقال له هذه المقالة تحقيرا له وقيل هو جبريل وقيل ملك آخر وقيل الخضر وقد قيل غير ذلك مما لا أصل له والأول أولى (أنا آتيك به) أي بالعرش وقال مجاهد في قراءة ابن مسعود أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به (قبل أن يرتد إليك طرفك) إذا نظرت به إلى شيء ما والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر وارتداده انضمامها ولكونه أمرا طبيعيا غير منوط بالقصد آثر الارتداد على الرد وفي القاموس إن الطرف كما يطلق على نظر العين يطلق على العين نفسها وقيل هو بمعنى المطروف أي الشيء الذي ينظره وقيل هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة قاله مجاهد وقال سعيد بن جبير إنه قال لسليمان انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه والمعنى حتى يعود إليك طرفك بعد مده إلى السماء والأول أولى هذه الأقوال ثم الثالث قال ابن عباس لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان وقال مجاهد لما تكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم (فلما رآه مستقرا عنده) قيل في الآية حذف والتقدير فأذن له سليمان فدعا الله فأتى به فلما رأى سليمان العرش حاضرا لديه (قال هذا) أي حضور العرش وثبوته من غير تحرك وتقلقل (من فضل ربي) وإحسانه إلي (ليبلوني) أي ليختبرني وقيل ليتعبدني وهو مجاز والأصل في الابتلاء الاختبار (أأشكر) الله بذلك وأعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة

وأقوم

زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهي طيبة لانه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا
ولهذا قال تعالى أولئك مبرؤن مما يقولون أي هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان لهم مغفرة أي بسبب ما قيل فيهم من
الكذب ورزق كريم أي عند الله في جنات النعيم وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة قال ابن أبي
حاتم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم باسناده الى يحيى بن الجزار
قال جاء أسير بن جابر الى عبد الله فقال لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني فقال عبد الله ان
الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها اليه وان الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها اليه ثم قرأ عبد الله الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات الآية ويشبه هذا ما رواه الامام أحمد في المسند مرفوعا مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث الا بشر ما سمع كمثل رجل جاء الى صاحب غنم فقال اجزرني شاة فقال اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم وفي الحديث الآخر الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم
جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين
وذلك في الاستئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده وينبغي أن
يستأذن ثلاث مرات فان أذن له والا انصرف كما ثبت في الصحيح ان أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال
عمر ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك قال اني استأذنت
ثلاثا فلم يؤذن لي واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف فقال عمر لتأتيني على

وأقوم بحقه (أم أكفر) بترك الشكر وعدم القيام به أو بان أثبت لنفسي فعلا وتصرفا
في ذلك وقال الاخفش المعنى لينظر أأشكر أم أكفر (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) لانه
استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها فان الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة
المفقودة والمعنى انه لا يرجع نفع ذلك وثوابه الا الى الشاكر (ومن كفر) النعمة بترك
الشكر (فان ربي غني) عن شكره (كريم) في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه
وسلبه ما أعطاه منها (قال نكروا لها عرشها) قيل انما أعيد ذكر القول لكون المتعلق
مختلفا لكونه أولا ثناء على الله وثانيا متعلقا بشأن عرشها والتنكير التغيير وجعل الشئ
بحيث لا يعرف ضد التعريف ومنه نقل الى مصطلح أهل العربية يقول غيروا سريرها الى
حال تنكره اذا رأته قيل جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وقيل غير بزيادة ونقصان قاله
ابن عباس قال الفراء وغيره انما أمر بتنكيره لان الشياطين قالوا له ان في عقلها شيأ فاراد
ان يمتحنها وقيل خافت الجن ان يتزوج بها سليمان فيولد له ولد منها فيبقون مسخرين
لآل سليمان أبدا فقالوا لسليمان انها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار وقيل أراد
سليمان ان يظهر لها أن الجن مسخرون له (ننظر) أي نعلم قرئ بالجزم على انه جواب الامر
وبه قرأ الجمهور وقرئ بالرفع على الاستئناف قال ابن عباس لننظر الى عقلها فوجدت
ثابتة العقل (أتهتدي) الى معرفته أو الى الايمان بالله (أم تكون من الذين لا يهتدون)
الى ذلك (فلما جاءت) بلقيس الى سليمان (قيل) لها والقائل هو سليمان أو غيره بامره
(أهكذا عرشك) الذي تركتيه في قصرك وأغلقت عليه الابواب وجعلت عليه حرسا
والهمزة للاستفهام ولم يقل هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتم الاختبار لعقلها
(قالت كأنه هو) أي فاجابت أحسن جواب فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة
عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للامرين قال مجاهد جعلت تعرف وتنكر وتعجب من
حضوره عند سليمان فقالت كأنه هو وقال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا
عليها ولو قيل لها أهذا عرشك لقالت نعم وقال عكرمة كانت حكيمة قالت ان قلت هو
خشيت ان أكذب وان قلت لا خشيت ان أكذب فقالت كأنه هو (وأوتينا العلم من
قبلها وكنا مسلمين) قيل هو من كلام بلقيس أي وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه

هـذا سمعه والأوجعنك ضربا فذهب الى ملأ من الانصار فذكر لهـم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك الا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألهاني عنه الصفق بالاسواق وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس أو غيره ان النبي صلى الله عليه وسلم استأذن على سعد بن عبادة فقال السلام عليكم ورحمة الله فقال سعد وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه سعد فقال يارسول الله بأبي أنت وامي ما سلمت تسليمة (٧٢) الا وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك واردت ان استكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب اليه زبيبا فأكل نبي الله فلما فرغ قال أكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أبي عمرو الاوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا قال قيس فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد وقال يارسول الله اني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام قال فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل

كم

سعد بن عبادة قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب اليه سعد حمارا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد ياقيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اركب فأبيت فقال اما أن تركب واما أن تنصرف قال فانصرفت وقد روي هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوي والله أعلم ثم ليعلم انه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما

الآية في العرش وكانوا مقادين لامره وقيل هو من قول سليمان اي وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس وقيل العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وقيل هو من كلام قوم سليمان والقول الثاني أرجح من سائر الاقوال وبه قال مجاهد وعن زهير بن محمد نحوه (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) من جملة كلام سليمان او كلاهما على الاحتمالين السابقين وذكر أبو السعود احتمالا آخر وهو أنه من كلام الله سبحانه بيانا لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام أي منعها من اظهار الايمان ما كانت تعبده وهو الشمس قال النحاس اي صدها عبادتها عن التقدم الى الاسلام وقيل منعها الله عما كانت تعبد من دونه وقيل منعها سليمان عما كانت تعبد والاول أولى والجملة مستأنفة للبيان (انها كانت من قوم كافرين) تعليل للجملة الاولى اي سبب تأخرها عن عبادة الله ومنع ما كانت تعبده عن ذلك انها كانت من قوم متصفين بالكفر راسخين فيه ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهي بينهم بل حتى دخلت تحت ملك سليمان (قيل لها ادخلي الصرح) قال ابو عبيدة الصرح القصر وقال الزجاج الصرح الصحن يقال هذه صرحة الدار وقاعتها وقال ابن قتيبة الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك وأصله من التصريح وهو الكشف وكذب صراح اي ظاهر مكشوف ولوم صراح وحكى ابو عبيد في الغريب ان الصرح كل بناء عال مرتفع (فلما رأته) اي الصرح بين يديها (حسبته لجة) هي معظم الماء وقال ابن عباس البحر (و) لذلك (كشفت عن ساقيها) لخوض الماء خوفا عليها ان تبتل فاذا هي احسن النساء ساقا سليمة مما قالت الجن فيها غير أنها كانت كثيرة الشعر فلما فعلت ذلك و بلغت الى هذا الحد (قال) لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها (انه صرح ممرد) اي مسقف مسطح (من قوارير) فلا اراد مجاوزته لا يحتاج الى تشمير ثيابه والممرد المحكوك المملس ومنه الامرد لملاسة وجهه وتمرد الرجل اذا لم تخرج لحيته قال الفراء ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق لها والتمريد في البناء التمليس والتسوية والممرد ايضا المطول ومنه قيل للحصن مارد وقوارير جمع قارورة اي زجاج وتطلق القارورة على المرأة لان الولد والمني يقر في رحمها كما يقر الشيء في الاناء او تشبيها بآنية الزجاج لضعفها قال الازهري والعرب تكني عن المرأة بالقارورة والقوصرة قال آزاد البلجرامي رحمه الله

رواه أبو داود حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني في آخرين قالوا حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن أو الايسر ويقول السلام عليكم السلام عليكم وذلك ان الدور لم يكن عليها يومئذ ستور انفرد به أبو داود وقال أبو داود أيضا حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير ح شد قال أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حفص عن الاعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان سعد فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على

الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هكذا عنك أو هكذا فانما الاستئذان من النظر وقد رواه أبو داود الطيالسي عن سفيان الثوري عن الاعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود من حديثه وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو أن امرأ أطلع عليك بغير اذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي فدققت الباب فقال من ذا فقلت أنا قال أنا أنا كأنه كرهه وانما كره ذلك لان هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها والا فكل احد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية وقال العوفي عن ابن عباس الاستئناس الاستئذان وكذا قال غير واحد وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا قال انما هي خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا وهكذا رواه هشيم عن أبي بشر وهو جعفر بن اياس عن سعيد عن ابن عباس بمثله وزاد وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا وتسلموا وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا غريب جدا عن ابن عباس وقال هشيم أخبرنا مغيرة عن ابراهيم قال في مصحف ابن مسعود حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا رواية عن ابن عباس وهو اختيار ابن جرير وقد قال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن

كم من قلوب رقاق اثر عيسهم * يا حادي العيس رفقا بالقوارير

والمراد بها هنا بيت الزجاج فلما سمعت بلقيس ذلك اذعنت واستسلمت و (قالت رب اني ظلمت نفسي) أي بما كنت عليه من عبادة غيرك وهو الشمس وقيل بالظن الذي توهمته في سليمان لانها توهمت انه أراد تغريقها في اللجة والاول أولى (وأسلمت مع سليمان) متابعة له داخلة في دينه وهو الاسلام (لله رب العالمين) التفتت من الخطاب الى الغيبة قيل لاظهار معرفتها بالله والاولى انها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الاسماء ولكونه علما للذات وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عباس في أثر طويل ان سليمان تزوجها بعد ذلك قال أبو بكر بن أبي شيبة ما أحسنه من حديث قال ابن كثير في تفسيره بعد حكايته هذا القول بل هو منكر جدا ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم والاقرب في مثل هذه السياقات انها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا الى هذه الامة من بني اسرائيل من الاوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ انتهى وكلامه هذا هو شعبة مما قد ذكرناه في هذا التفسير ونبهنا عليه في عدة مواضع وكنت أظن انه لم ينبه على ذلك غيري فالحمد لله على هذه الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف وقيل انتهى أمرها الى قولها أسلمت ولا علم لأحد وراء ذلك لانه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح وأخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول من صنعت له الحمامات سليمان وروي عنه مرفوعا من طريق أخرى رواها الطبراني وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب بلفظ أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال أوه من عذاب الله روي ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وانقضى ملك بلقيس بانقضاء ملك سليمان فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا) اللام هي الموطئة للقسم وهذه القصة من جملة بيان قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم وثمود هو أبو القبيلة التي منها صالح فهو جده والمراد به هنا نفس القبيلة وتسمى عادا الثانية وأما عاد الاولى فهم قوم هود وتقدم ان بينهما مائة سنة وعاش صالح مائتين وثمانين سنة (ان اعبدوا الله) ان هي المفسرة أو المصدرية أي بأن اعبدوا الله ووحدوه (فاذاهم

حديث أخبرني عمرو بن أبي سفيان أن عمرو بن أبي صفوان أخبره أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وجداية وضغابيس والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى الوادي قال فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله النبي عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل وذلك بعدما أسلم صفوان ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه من حديثه وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربعي قال أتى رجل من بني عامر (٧٤) استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته فقال أألج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أألج أو أنلج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها روضة قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن يستأذن فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فقال ادخل وقال الترمذي حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا سعيد بن زكريا عن عنبسة بن عبد الرحمن عن محمد بن زاذان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام قبل الكلام ثم قال الترمذي عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ومحمد بن زاذان في إسناده نكارة وضعف وقال هشيم قال مغيرة قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال السلام عليكم أأدخل قالت ادخل بسلام فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال قولي ادخل قالت ادخل فدخل ولابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول حدثني خالد بن إياس حدثتني جدتي أم إياس قالت كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلت ندخل فقالت لا قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت السلام عليكم أندخل قالت ادخلوا ثم قالت يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها الآية وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم وقال أشعث

فريقان يختصمون) إذا هي الفجائية أي ففاجأ إرساله التفرق والاختصام والمراد بالفريقين المؤمنون منهم والكافرون ومعنى الاختصام أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه ويزعم أن الحق معه وقيل إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا وقيل أحد الفريقين صالح والآخر جميع قومه وهو ضعيف وقد تقدم حكاية اختصام الفريقين في سورة الأعراف في قوله قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم الآية (قال) صالح للمكذبين (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) قال مجاهد أي بالعذاب قبل الرحمة والمعنى لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون ائتنا يا صالح بالعذاب ووصف العذاب بأنه سيئة مجازا إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروها (لولا) هلا (تستغفرون الله) وتتوبون إليه من الشرك (لعلكم ترحمون) أي رجاء أن ترحموا ولكي ترحموا فلا تعذبوا فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم (قالوا اطيرنا بك) أصله تطيرنا وقد قرئ بذلك والتطير التشاؤم أي تشاءمنا بك وإصابة الشؤم والضيق والشدة بك (وبمن معك) ممن أجابك ودخل في دينك وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشنعهم بها وكانوا إذا أرادوا سفرا أو أمرا من الأمور نفروا طائرا من وكره فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه وإن طار يسرة تركوا ذلك وفي القرطبي لا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل فلما قالوا ذلك (قال) لهم صالح (طائركم عند الله) أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله وهو مكتوب عليكم سمي طائرا لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم والمعنى ليس ذلك بسبب الطيرة التي تشاءمون بها بل سبب ذلك عند الله وهو ما يقدره عليكم وقيل المعنى أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم وهذا كقوله تعالى يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله وقيل طائركم عملكم وسمي طائرا لسرعة صعوده إلى السماء ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان فقال (بل أنتم قوم تفتنون) أي تمتحنون وتختبرون وقيل تعذبون بذنوبكم وقيل يفتنكم غيركم وقيل يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون فأضرب عن ذكر

الطائر

عن عـدى بن ثابت أن امرأة من الانصار قالت يارسول الله انى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها لا والد ولا ولد وانه لا يزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال قال فنزلت يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا الآية وقال ابن جريج سمعت عطاء ابن أبى رباح يخبر عن ابن عباس رضى الله عنـه قال ثلاث آيات جحدهن الناس قال الله تعالى ان أكرمكم عند الله اتقاكم قال ويقولون ان أكرمهـم عند الله أعظمهم بيتا قال والادب كله قد جحده الناس قال قلت استـأذن على اخواتى أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد قال نعم فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال تحب أن تراها عريانة قلت لا قال فاستـأذن قال فراجعته أيضا فقال أتحب أن تطيع الله قال قلت نعم قال قال فاستأذن قال ابن جريج وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال ما من امرأة أكره الى أن أرى عورتها من ذات محرم قال وكان يشدد فى ذلك وقال ابن جريج عن الزهرى سمعت هزيل ابن شرحبيل الاودى الاعمى انه سمع ابن مسـعود يقول عليكم الاذن على امهاتكم وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته قال لا وهـذا محمول عـلى عـدم الوجوب والا فالاولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال ان تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد ابن حازم عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار عن ابن أخى زينب امرأة عبد الله بن مسـعود عن زينب رضى الله عنها قالت كان عبد الله اذا جاء من حاجة فانتهى الى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه اسـناده صحيح وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبى هبيرة قال كان عبـد الله اذا دخل الدار استـأنس تـكلم ورفع صوته وقال مجاهد حتى تسـتأنسوا قال تنحنحوا أو تنخموا وقال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله انه قال اذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم انه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفى رواية لئلا يتخونهم وفى الحديث الآخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال انتظروا حتى ندخل مساء يعنى آخر النهار حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن

الطائر الى ما هو السبب الداعى اليه وجاء بالخطاب مراعاة لتقدم الضمير ولو روعى ما بعده لقيل يفتنون بياء الغيبـة وهو جائز ولكنه مرجوح تقول أنت رجل تفعل ويفـعل ونحن قوم نقرو يقرون (وكان فى المديـنة) التى كان فيها صالح وهى الحجر كذا قال المفسرون هنا وتقدم فى سورة الحجر انه وادبين المدينة والشام وهو ديار ثمود (تسعة رهط) أى تسعة رجال أو أشخاص من أبناء الاشراف وبهذا الاعتبار وقع تمييز التسعة لا باعتبار لفظه والاضافة بيانية أى تسعة هم رهط والرهط اسم جماعة فكانهـم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة وقيل الرهط ما دون العشرة من الرجال ليس فيه امرأة وسكون الهاء أفصح من فتحها وهو جمع لا واحـد له من لفظه وقيل الرهط من سبعة الى عشرة وما دون السـبعة الى الثـلاثة نفر قال ثعلب الرهط والنفر والقوم والمعشر والعشـيرة معناهم الجمع لا واحـد لها من لفظها وهو للرجال دون النساء وقال ابن السـكيت الرهط والعترة بمعنى وقال الاصمعى الرهط ما فوق العشرة الى الاربعين ونقله ابن فارس أيضا والجمع أرهط وأراهط وهؤلاء التسعـة هم أصحاب قدار عاقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وقد اختلف فى أسماء هؤلاء التسـعة اختلافا كثير الاحاجة الى التطويل بذكره ثم وصف هؤلاء بقوله (يفسدون فى الارض ولا يصلحون) أى شأنهم وعملهـم الفساد فى الارض لا فى المدينة فقط فسادا لا يخالطه شئ من الاصـلاح قيل كانوا يتبعون معائب الناس ولا يسـترون عوراتهم وقيل كانوا يظلمون ولا يمنعون الظالمين (قالوا تقاسموا) اى قال بعضهم لبعض احلفوا (بالله) هذا على ان تقاسموا فعل أمر ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا كانه قيل ما قالوا فقال تقاسموا أو قالوا ذلك متقاسمين واليه ذهب الزمخشرى وقرأ ابن مسعود تقاسموا بالله ليس فيها قالوا (لنبيتنه) اللام جواب قسم أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات فنقتله ليلا (وأهله) أى من آمن به وكانوا أربعة آلاف (ثم لنقولن لوليه) بالنون للمتـكلم وقرئ بالتحتية وبالفوقية على خطاب بعضهـم لبعض والمراد بولى صالح رهطه الذين لهـم ولاية الدم (ما شهدنا مهلك أهله) اى ما حضرنا قتلهم ولا ندرى من قتله وقتل اهله ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفى شهودهم لنفس القتل بالاولى وقيل ان المهلك بمعنى الاهلاك قرئ مهلك بفتح الميم واللام وبكسر اللام (وانا لصادقون) فيما قلناه من انكارنا لقتلهـم قال الزجاج وكان هؤلاء النفر تحالفوا ان يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عنـد

واصل بن السائب حدثنى أبو سورة بن أخى أبى أيوب عن أبى أيوب قال قلت يارسول الله هذا السلام فما الاستئناس قال يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت هذا حديث غريب وقال قتادة فى قوله حتى تستأنسوا هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع اما الاولى فليسمع الحى واما الثانية فيأخذوا حذرهم واما الثالثة فان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فان الناس حاجات ولهم اشغال والله أولى بالعذر وقال مقاتل بن حيان فى قوله ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا (٧٦) وتسلموا على أهلها كان الرجل فى الجاهلية اذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ويقول حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم وكان أحدهم ينطلق الى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلت ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله فى ستر وعفة وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها الآية وهذا الذى قاله مقاتل حسن ولهذا قال تعالى ذلكم خير لكم يعنى الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولاهل البيت لعلكم تذكرون وقوله تعالى فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير اذنه فان شاء اذن وان شاء لم يأذن وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم اى اذا ردوكم من الباب قبل الاذن او بعده فارجعوا هو أزكى لكم اى رجوعكم ازكى لكم وأطهر والله بما تعملون عليم وقال قتادة قال بعض المهاجرين لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما ادركتها ان استأذن على بعض اخوانى فيقول لى ارجع فارجع وانا مغتبط فان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم وقال سعيد بن جبير فى الآية اى لا تقفوا على أبواب الناس وقوله تعالى ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة الآية هذه الآية الكريمة أخص من التى قبلها وذلك انها تقتضى جواز الدخول الى البيوت التى ليس فيها احد اذا كان له متاع فيها بغير اذن كالبيت المعد للضيف اذا اذن له فيه اول مرة كفى قال ابن جريج قال ابن عباس لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ثم نسخ واستثنى فقال تعالى ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم وكذا روى عن عكرمة والحسن البصرى وقال آخرون هى بيوت التجار كالخانات ومنازل الاسفار وبيوت مكة وغير ذلك واختار

اوليائه انهم مافعلوا ذلك ولا رأوه وكان هذا مكرا منهم ولهذا قال الله سبحانه (ومكروا) بهذه المحالفة (مكرا) وهو ما اخفوه من تدبير الفتك بصالح (ومكرنا مكرا) اى جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم (وهم لا يشعرون) بمكر الله بهم وهذا على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة كما فى الكشاف وشروحه يعنى تشبيه الدبا بالمكر من حيث كونه اضرارا فى خفية لان المكر قصد الاضرار على طريق الغدر والحيلة (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) اى انظر ما انتهى اليه امرهم الذى بنوه على المكر وما اصابهم بسببه (انا دمرناهم وقومهم اجمعين) بفتح همزة انا وقرئ بكسرها وهما سبعيتان قال الفراء والزجاج من كسر استأنف وهو يفسر به ما كان قبله كأنه جعله تابعا للعاقبة كأنه قال العاقبة انا دمرناهم وعلى قراءة الفتح التقدير بانا أو لانا وكان تامة وعاقبة فاعل لها أو يكون بدلا من عاقبة أو يكون خبر مبتدا محذوف أى هى انا دمرناهم وفى حرف أبى ان دمرناهم والمعنى ان الله دمر التسعة الرهط المذكورين بالرمى ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك بصيحة جبريل عليه السلام وأجمعين تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه ومعناه انه لم يشذ منهم احد ولا سلم من العقوبة فرد من افرادهم وجملة (فتلك بيوتهم خاوية) مقررة لما قبلها أى حال كونها خاوية قال الفراء والنحاس أى خالية عن اهلها خراباليس بها ساكن من خوى البطن اذا خلا أو ساقطة متهدمة من خوى النجم اذا سقط وقيل الاصل تلك بيوتهم الخاوية كقوله وله الدين واصبا (بما ظلموا) اى بسبب ظلمهم (ان فى ذلك) التدمير والاهلاك (لآية) اى لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) اى يتصفون بالعلم بالاشياء (وانجينا الذين آمنوا) وهم صالح ومن آمن به (وكانوا يتقون) الله ويخافون عقابه وخرج صالح ومن معه من المؤمنين الى حضرموت فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت قال الضحاك ثم بنى الاربعة آلاف الذين كانوا معه مدينة يقال لها حاضوراء (و) ارسلنا (لوطا اذ قال لقومه) هم أهل سذوم (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح والشناعة وهى اتيان الذكور واللواط (وأنتم تبصرون) أى وأنتم تعلمون علما يقينيا انها فاحشة وقبيحة وذلك أعظم لذنوبكم على ان تبصرون من بصر القلب وهو العلم أو بمعنى النظر لانهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتوا وتمردا والجملة حالية مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ وقد تقدم تفسير هذه

القصة

ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة والاول اظهر والله اعلم وقال مالك عن زيد بن اسلم هي بيوت الشعر (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون) هذا امر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا الا الى ما أباح لهم النظر اليه وان يغضوا أبصارهم عن المحارم فان اتفق ان وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عن جده عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال سألت النبي (٧٧) صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فامرني ان أصرف بصري وكذا رواه الامام احمد عن هشيم عن يونس ابن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضا وقال الترمذي حسن صحيح وفي رواية لبعضهم فقال اطرق بصرك يعني انظر الى الارض والصرف أعم فانه قد يكون الى الارض والى جهة اخرى والله اعلم وقال ابو داود حدثنا اسمعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن ابي ربيعة الايدي عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليس لك الآخرة ورواه الترمذي من حديث شريك وقال غريب لا نعرفه الا من حديثه وفي الصحيح عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نقعد فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابيتم فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال غض البصر وكف الاذى ورد السلام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال أبو القاسم البغوي حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضل بن جبير سمعت ابا امامة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا لي ستا اكفل لكم بالجنة اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا اؤتمن فلا يخن واذا وعد فلا يخلف وغضوا ابصاركم وكفوا ايديكم واحفظوا فروجكم وفي صحيح البخاري من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه اكفل له الجنة وقال عبد الرزاق انبأنا معمر عن ايوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال كل ما عصي الله به فهو كبيرة وقد ذكر الطرفين فقال قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ولما كان النظر داعية الى فساد القلب كما قال بعض السلف النظر سهم سم الى القلب ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الابصار التي هي بواعث الى

القصة في الاعراف مستوفى (أئنكم لتأتون الرجال) فيه تكرير التوبيخ مع التصريح بان تلك الفاحشة هي اللواطة التي أبهمها أولا وفيه اشارة الى ان فعلتهم هذه مما يعيي الواصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل ان أحدا يفعلها ثم علل ذلك بقوله (شهوة) تنزيلا لهم الى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد ولا اعفاف والتقدير للشهوة أو اتيانا شهوة أو مشتهين لهم (من دون النساء) أي متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك وفيه اشارة الى انهم أساؤا من الطرفين في الفعل والترك (بل أنتم قوم تجهلون) التحريم أو عاقبة فعلكم والعقوبة على هذه المعصية قيل أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها أو تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وقد اجتمع الخطاب والغيبة هنا وفي قوله بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لانه أقوى وأرسخ اذ الاصل ان يكون الكلام بين الحاضرين (فما كان جواب قومه الا ان قالوا) أي الا قولهم (أخرجوا آل لوط) أي لوطا وأهله والمراد بهم بنتاه وزوجته المؤمنة (من قريتكم) فيه امتنان عليه باسكانه عندهم والاضافة للجنس لان قراهم كانت خمسا أعظمها سذوم (انهم أناس يتطهرون) أي يتنزهون ويتباعدون عن أدبار الرجال قالوا ذلك استهزاء منهم بهم (فأنجيناه وأهله) من العذاب الواقع بالقوم فخرج لوط بأهله من أرضهم وطوى الله له الارض حتى نجا ووصل الى ابراهيم (الا امرأته قدرناها) قرئ مخففا ومشددا والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى (من الغابرين) أي الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم) أي على كل من كان منهم خارج المدائن (مطرا) أي حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها وهو حجارة السجيل أي الطين المحرق وهذا التأكيد يدل على شدة المطر وانه غير معهود (فساء مطر المنذرين) أي الذين أنذروا فلم يعقلوا ولم يقبلوا الانذار والمخصوص بالذم محذوف أي مطرهم وقد مضى بيان ذلك كله في الاعراف والشعراء (قل الحمد لله) قال الفراء قال أهل المعاني قيل للوط قل الحمد لله على هلاكهم وخالفه جماعة المفسرين فقالوا ان هذا خطاب لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم أي قل الحمد لله على هلاك كفار الامم الخالية قال النحاس وهذا أولى لان القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكل ما فيه فهو مخاطب به الا ما لم يصح معناه الا لغيره وكان هذا صدر خطبة لما يلق من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة الآتي ذكرها بقوله أمن خلق الخ قيل والمراد بقوله (وسلام على عباده الذين اصطفى)

أمته صلى الله عليه وآله وسلم والأولى حمله على العموم فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم قال ابن عباس هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم اصطفاهم الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وروي مثله عن سفيان الثوري والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل في ذلك أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم دخولاً أولياً وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما (آلله) فيه وجهان يجريان في خمسة مواضع في القرآن غير هذا الموضع أحدهما تسهيل الهمزة الثانية مقصورة والثاني أن تبدل ألفاً ممدودة مد الإشباع والمعنى آلله الذي ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته (خير أما يشركون) به من الأصنام وفيه تبكيت للمشركين وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار وأم هي متصلة عاطفة لاستكمال شروطها والتقدير أيهما خير وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي بل هي كقول الشاعر

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم إذ لا خير فيهم أصلاً وقد حكى سيبويه أن العرب تقول السعادة أحب إليك أم الشقاوة ولا خير في الشقاوة أصلاً وقيل المعنى أثواب الله خير أم عقاب ما يشركون به وقيل قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً وقيل المراد من هذا الاستفهام الخبر وقرأ الجمهور يشركون بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية (أمن خلق السموات والأرض) أم هذه هي المنقطعة وقال أبو حاتم تقديره آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقدر على خلقهن وقيل المعنى أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق العالم الجسماني فتكون أم على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم كما في الجملة الأولى

(وأنزل لكم من السماء ماء) أي نوعاً من الماء وهو المطر (فأنبتنا به حدائق) جمع حديقة قال الفراء الحديقة البستان الذي عليه حائط فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة وقال قتادة وعكرمة الحدائق النخل (ذات بهجة) أي ذات حسن ورونق والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ولم يقل ذوات بهجة على الجمع لأن المعنى جماعة حدائق وصرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم لتأكيد المعنى اختصاص الفعل

ذلك فقال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الآية وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك ذلك أزكى لهم أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته ويروى في قلبه وروى الإمام حدثنا عتاب حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب ومثله يتسامح فيه وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم وقال الطبراني حدثنا أحمد بن زهير التستري قال قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه وقوله تعالى إن الله خبير بما يصنعون كما قال تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه رواه البخاري تعليقاً ومسلم مسنداً من وجه آخر بنحو ما تقدم وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً وقال ابن أبي الدنيا حدثنا أبو سعيد المدني حدثنا عمر بن سهل المازني حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عين باكية يوم القيامة الا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في سبيل الله وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم

ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لازواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال بلغنا والله أعلم ان جابر بن عبد الله الانصاري حدث ان اسماء بنت مرشدة كانت في محل لها في بني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت اسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية فقوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن أي عما حرم الله عليهن من النظر الى غير أزواجهن ولهذا ذهب كثير من العلماء الى انه لا يجوز للمرأة النظر الى الرجال الاجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أم سلمة انه حدثه ان أم سلمة حدثته انها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عميا وان انتما ألستما تبصرانه ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وذهب آخرون من العلماء الى جواز نظرهن الى الاجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينظر الى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر اليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت وقوله ويحفظن فروجهن قال سعيد بن جبير عن الفواحش وقال قتادة وسفيان عما لا يحل

بدائه وايذانا بأن انبات الحدائق المختلفة الاصناف والالوان والطعوم والاشكال مع سقيها بماء واحد لا يقدر عليه الا هو وحده ثم رشح معنى الاختصاص بقوله (ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة ومعنى هذا النفي الحظر والمنع من فعل هذا أي ما يصح للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدورهم لعجزهم عن اخراج الشيء من العدم الى الوجود وان تأتي ذلك محال من غيره ثم قال سبحانه موبخا لهم ومقرعا (أإله) أي هل معبود (مع الله) الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكا له في العبادة وقرئ الها أي أتدعون الها مع الله والاستفهام للانكار أي ليس معه اله وكذا يقال في المواضع الاربعة الآتية ثم أضرب عن توبيخهم وتقريعهم بما تقدم وانتقل الى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة فقال (بل هم قوم يعدلون) بالله غيره أو يعدلون عن الحق الى الباطل وبل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم ثم شرع في الاستدلال بأحوال الارض وما عليها فقال (أمن جعل الارض قرارا) القرار هو المستقر أي دحاها وسواها وجعلها بحيث يمكن الاستقرار عليها للانسان والدواب باخلاء بعضها من الماء حسبما تدور عليه منافعهم وقيل هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله أمن خلق السموات والارض ولا ملجئ لذلك بل هي وما بعدها اضراب وانتقال من التقريع والتوبيخ بما قبلها الى التوبيخ والتقريع بشيء آخر (وجعل) أي خلق أو صير (خلالها) أي فيما بينها (أنهارا) تطرد بالمياه والخلال الوسط وقد تقدم تحقيقه في قوله فجرنا خلالهما نهرا (وجعل لها رواسي) أي جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة (وجعل بين البحرين) هما العذب والمالح أي جعل بينهما من قدرته (حاجزا) أي مانعا معنويا وهو المنع الالهي اذ ليس هنالك حاجز حسي كما هو مشاهد فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل في هذا وقدم بيانه في سورة الفرقان (أإله مع الله) أي اذا ثبت انه لا يقدر على ذلك الا الله فهل اله في الوجود يصنع صنعه ويخلق خلقه فكيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع (بل أكثرهم لا يعلمون) توحيد ربهم وسلطان قدرته (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الانسان اليه على العموم والمضطر اسم مفعول من الاضطرار وهو افتعال من الضرورة وهي الحاجة المحوجة الى اللجا يقال اضطره الى كذا والمضطر هو المكروب المجهود الذي

لهن وقال مقاتل عن الزنا وقال أبو العالية كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا الا هذه الآية ويحفظن فروجهن ان لا يراها أحد وقوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها أى ولا يظهرن شيأ من الزينة للاجانب الا ما لا يمكن اخفاؤه قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لان هذا لا يمكن اخفاؤه ونظيره في زى النساء ما يظهر من ازارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء

وابراهيم النخعي وغيرهم وقال الاعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها قال وجهها وكفيها والخاتم وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وابراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل ان يكون تفسيرا للزينة التي نهين عن ابدائها كما قال أبو اسحق السبيعي عن أبي الاحوص عن عبد الله قال في قوله ولا يبدين زينتهن الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة وفي رواية عنه بهذا الاسناد قال الزينة زينتان فزينة لا يراها الا الزوج الخاتم والسوار وزينة يراها الاجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا يحل له الا الاسورة والاخمرة والاقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها الا الخواتم وقال مالك عن الزهري الا ما ظهر منها الخاتم والخلخال ويحتمل ان ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكي ومؤمل بن الفضل الحراني قالا حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله [illegible] عنها ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وأشار الى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم وقوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن يعني المقانع يعمل لها صيقات ضاربات على صدورهن لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فانهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة

مسه الضر ولا حول له ولا قوة وقيل هو المذنب اذا استغفر وقيل هو المظلوم اذا دعا أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر وقيل هو الذي عراه ضر من فقر أو مرض أو نازلة من نوازل الدهر فألجأه الى التضرع الى الله واللام في المضطر للجنس لا للاستغراق فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين اجابة دعائه والا فقد ضمن الله سبحانه اجابة دعاء المضطر اذا دعاه وأخبر بذلك عن نفسه والوجه في اجابة دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الاخلاص وقطع النظر عما سوى الله وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين وان كانوا كافرين فقال حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وقال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون فأجابهم عند ضرورتهم واخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون الى شركهم (ويكشف السوء) الذي يسوء العبد من غير تعيين وقيل هو الضر وقيل هو الجور وهذا من عطف العام على الخاص (ويجعلكم خلفاء الارض) أى يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم والمعنى يهلك قرنا وينشئ آخرين وقيل يجعل أولادكم خلفا منكم وقيل جعلكم خلفاء الجن في الارض وقيل يجعل المسلمين خلفا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم (أإله مع الله) الذي يوليكم هذه النعم الجسام (قليلا ما) أى تذكرا قليلا (تذكرون) وما زائدة لتقليل القليل وهو كناية عن العدم بالكلية فالمراد نفي تذكرهم رأسا قال الكرخي المعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية على الخبر ردا على قوله بل أكثرهم لا يعلمون (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر) أى يرشدكم في الليالي المظلمة اذا سافرتم في البر والبحر الى مقاصدكم وقيل المراد مفاوز البر التي لا أعلام لها ولجج البحار وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها وقيل يهديكم بالنجوم ليلا وبعلامات الارض نهارا (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) المراد بالرحمة هنا المطر أى بين يدى المطر وقبل نزوله (أإله مع الله) يفعل ذلك ويوجده (تعالى الله عما يشركون) أى تنزه وتقدس عن وجود ما يجعلونه له شريكا (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق

فألزمهم الاعادة أي اذا قدر على الابتداء قدر على الاعادة (ومن يرزقكم من السماء والارض) بالمطر والنبات أي أهو خير أم ما تجعلونه شريكا له مما لا يقدر على شئ من ذلك (أإله مع الله) حتى تجعلوه شريكا له (قل هاتوا برهانكم) أي حجتكم عقلية أو نقلية على أن لله سبحانه شريكا أو هاتوا حجتكم على ان ثم صانعا يصنع كصنعه (ان كنتم صادقين) ان مع الله الها فعل شيأ مما ذكر وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم وسألوه عن وقت قيام الساعة فنزل (قل لا يعلم من) أي لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة الثابتة الساكنة المستقرة (في السموات والارض) وهم الملائكة والانس (الغيب) الذي استأثر الله بعلمه (الا الله) أي لكن الله يعلم ذلك فالاستثناء منقطع ورفع ما بعد الا على اللغة التميمية كما في قوله * الا اليعافير والا العيس * وقيل لا يعلم غيب من فيهما ولا يعلم الاشياء التي تحدث فيهما الا الله وقيل هو استثناء متصل من من والاول أولى لان الاتصال يقتضي ان الله من جملة من فيهما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية وقالت في آخره ومن زعم انه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم الآية (وما يشعرون) أي الكفار (أيان يبعثون) أي متى ينشرون من القبور وأيان مركبة من أي وان وقد تقدم تحقيقه وقرئ ايان بكسر الهمزة وهي لغة بني سليم (بل ادارك) أصله تدارك وقرئ أدرك من الادراك وقرئ بل ادرك بفتح لام بل وتشديد الدال وأدرك على الاستفهام وقرئ بل تدارك باثبات التاء ومعنى الآية بل تكامل (علمهم في الآخرة) لانهم رأوا كلما وعدوا به وعاينوه وقيل معناه تتابع وتلاحق والقراءة الثانية معناها كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة وذلك حين لا ينفعهم العلم لانهم كانوا في الدنيا مكذبين وقال الزجاج انه على معنى الانكار واستدل على ذلك بقوله فيما بعد بل هم منها عمون أي لم يدرك علمهم علم الآخرة وقيل المعنى بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم ومعنى الثالثة كالاولى فافتعل وتفاعل قد يجيئان لمعنى والرابعة هي بمعنى الانكار قال الفراء وهو وجه حسن كأنه وجهه الى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم وفي الآية قراآت أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها وعن ابن عباس قال بل ادارك علمهم في الآخرة حين لا ينفع الندم وعنه قال لم يدرك علمهم وعنه انه قرأها بالاستفهام وعنه قال غاب علمهم

بصدرها الا يواريه شئ وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيآتهن وأحوالهن كما قال تعالى يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وقال في هذه الآية الكريمة وليضربن بخمرهن على جيوبهن والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس وهو التي تسميها الناس المقانع قال سعيد بن جبير وليضربن وليشددن بخمرهن على جيوبهن يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شئ وقال البخاري حدثنا أحمد بن شبيب حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت يرحم الله نساء المهاجرات الاول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن به وقال أيضا حدثنا أبو نعيم حدثنا ابراهيم ابن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة ان عائشة رضي الله عنها كانت تقول لما نزلت هذه الآية وليضربن بخمرهن على جيوبهن أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثني الزنجي بن خالد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها ان لنساء قريش لفضلا واني والله ما رأيت أفضل من نساء الانصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا ايمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور وليضربن بخمرهن على جيوبهن انقلب رجالهن اليهن يتلون عليهن ما أنزل اليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته فما منهن امرأة الا قامت الى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وايمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح معتجرات كأن على رؤسهن الغربان ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب ان قرة بن عبد الرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة انها قالت يرحم الله النساء المهاجرات الاول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن أكثف مروطهن فاختمرن به ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به وقوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أي أزواجهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن

أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها ان تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى يعني ابن هرون حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن حتى فرغ منها وقال لم يذكر العم والخال لانهما ينعتان لابنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فانما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره وقوله أو نسائهن يعني تظهر بزينتها أيضا

للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وان كان محذورا في جميع النساء الا انه في نساء أهل الذمة أشد فانهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم ان ذلك حرام فتنزجر عنه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر اليها أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود وروى سعيد بن منصور في سننه حدثنا اسمعيل بن عياش عن هشام ابن الغاز عن عبادة بن نسي عن أبيه عن الحرث بن قيس ان عمر ابن الخطاب كتب الى أبي عبيدة أما بعد فانه بلغني ان نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر الى عورتها الا أهل ملتها وقال مجاهد في قوله او نسائهن قال نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن وليس للمرأة المسلمة ان تكشف بين يدي مشركة وروى عبد الله في تفسيره عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس اونسائهن قال هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما يحل ان يراه الا محرم وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال لا تضع المسلمة خمارها ولا عند مشركة لان الله تعالى يقول اونسائهن فليست من نسائهن وعن مكحول وعبادة بن نسي انهما كرها ان تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة فأما ما رواه ابن ابي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا ابو عمير حدثنا ضمرة قال قال ابن عطاء عن ابيه قال لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس كان قوابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات فهذا ان صح محمول على حال الضرورة أو ان ذلك من باب الامتهان ثم انه ليس فيه كشف عورة ولا بد والله أعلم وقوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن قال ابن جريج

(بل هم في شك منها) أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة ثم اضرب عن ذلك الى ما هو أشد منه فقال (بل هم منها عمون) فلا يدركون شيئا من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الادراك وعمون جمع عم وهو من كان أعمى القلب والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون الى شيء مما يوصل الى العلم بها فمن قال ان معنى الآية الاولى انه كمل علمهم وتم مع المعاينة فلا بد من حمل قوله بل هم في شك الخ على ما كانوا عليه في الدنيا ومن قال ان معنى الآية الاولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم يحتج الى تقييد قوله بل هم في شك الخ بما كانوا عليه في الدنيا وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهورا بينا والاضرابات الثلاث تنزيل لاحوالهم وتكرير لجهلهم ولما ذكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث وانهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبهتهم وهي مجرد استبعاد احياء الموتى بعد صيرورتهم ترابا فقال (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) المعنى انهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد ان قد صاروا ترابا ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا (لقد وعدنا هذا) يعنون البعث (نحن وآباؤنا من قبل) أي من قبل وعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لنا وقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شيء فذلك دليل على أنه لا حقيقة له والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الانكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير (ان هذا) الوعد بالبعث (الا أساطير الاولين) أي أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة التي كتبوها ولا حقيقة لها وقد تقدم تحقيق معنى الاساطير في سورة المؤمنين ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الانبياء من الاخبار بالبعث فأمرهم بالنظر في أحوال الامم السابقة المكذبة للانبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) المكذبين بما جاءت به الانبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام من الاخبار بالبعث ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر فان في المشاهدة زيادة اعتبار وكفاية لاولي الابصار وقيل المعنى فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم والاول أولى لامرهم بالسير في الارض وفيه تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم (ولا تحزن عليهم) الحزن سببه اما فوت أمر في الماضي أو توقع مكروه في المستقبل أي لا تحزن على عدم ايمان المستهزئين فيما مضى

يعني من نساء المشركين فيجوز لها ان تظهر زينتها لها وان كانت مشركة لانها أمتها واليه ذهب سعيد بن المسيب وقال الاكثرون بل
يجوز لها ان تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع
سالم بن دينار عن ثابت عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال وعلى فاطمة ثوب اذا قنعت به رأسها
لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك
وغلامك وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية ان عبد الله بن
مسعدة الفزاري كان أسود شديد الادمة وانه قد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهبه لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروى الامام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن نبهان عن أم سلمة ذكرت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا كان لاحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان وقوله تعالى أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال يعني كالاجراء والاتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك في عقولهم وله ولا همم لهم الى النساء ولا يشتهونهن قال ابن عباس هو المغفل الذي لا شهوة له وقال مجاهد هو الابله وقال عكرمة هو المخنث الذي لا يقوم ذكره وكذلك قال غير واحد من السلف وفي الصحيح من حديث الزهري عن عروة عن عائشة ان
مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولي الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو
ينعت امرأة يقول انها اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أرى هذا يعلم
ما ههنا لا يدخلن عليكم فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم وروى الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا
هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة انها قالت دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها عبد الله بن
أبي أمية والمخنث يقول يا عبد الله ان فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال فسمعه

ولا تغتم وتهتم بمكرهم في المستقبل وهو معنى قوله (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) الضيق الحرج يقال ضاق الشيء ضيقا بالفتح وضيقا بالكسر قرئ بهما وهما لغتان قال ابن السكيت يقال في صدر فلان ضيق وضيق وهو ما يضيق عنه الصدور وقرئ لا تكن بثبوت النون هنا على الاصل وقد حذفت من هذا المضارع في القرآن في عشرين موضعا تسعة منها مبدوءة بالتاء وثمانية بالياء واثنان بالنون وواحد بالهمزة وهو قوله ولم أك بغيا وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل (ويقولون متى هذا الوعد) بالعذاب الذي تعدنا (ان كنتم صادقين) في ذلك خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين (قل عسى أن يكون ردف لكم) يقال ردفت الرجل وأردفته اذا ركبت خلفه وردفه اذا اتبعه وجاء في اثره قال ابن شجرة معنى ردف لكم تبعكم قال ومنه ردف المرأة لانه تبع لها من خلفها قال الجوهري وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه واتبعه قال الفراء ردف لكم دنا لكم ولهذا قيل لكم وقرئ ردف بفتح الدال وهي لغة والكسر أشهر وقرأ ابن عباس أزف لكم وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك يجري الله وعده قاله ابو السعود والمعنى قل يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ولحقكم فتكون اللام زائدة للتأكيد أو بمعنى اقترب لكم ودنا منكم قاله ابن عباس فتكون غير زائدة (بعض الذي تستعجلون) من العذاب أي حلوله قيل هو عذابهم بالقتل يوم بدر وقيل هو عذاب القبر ثم ذكر سبحانه فضله فقال (وان ربك لذو فضل على الناس) في تأخير العقوبة والاولى أن تحمل الآية على العموم ويكون تأخير العقوبة من جملة افضاله سبحانه وانعامه (ولكن أكثرهم لا يشكرون) فضله وانعامه ولا يعرفون حق احسانه ثم بين سبحانه انه مطلع على ما في صدورهم فقال (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أي ما تخفيه فليس التأخير لخفاء حالهم عليه قرئ بضم التاء من أكن وبفتحها وضم الكاف يقال كننته بمعنى سترته وأخفيت أثره (وما يعلنون) من أقوالهم وأفعالهم ويظهرونها وقال ابن عباس يعلم ما عملوا بالليل والنهار (وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين) أي في اللوح المحفوظ والغائبة هي من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كراوية

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لام سلمة لا يدخلن هذا عليك أخرجاه في الصحيحين من هشام بن عروة به وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولي الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال انها اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم هذا فحجبوه ورواه مسلم وأبو داود من طريق (٨٤) عبد الرزاق به عن أم سلمة وقوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فاذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء فأما ان كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء فلا يمكن من الدخول على النساء وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والدخول على النساء قيل يا رسول الله أفرأيت الحمو قال الحمو الموت وقوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن الآية كانت المرأة في الجاهلية اذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الارض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك وكذلك اذا كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن الى آخره ومن ذلك انها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن ثابت بن عمارة الحنفي عن غنيم بن قيس عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية قال وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حسن صحيح ورواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لقيته امرأة شم منها ريح الطيب

وعلامة وقيل هي الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية قال الزمخشري ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات قال الحسن الغائبة هنا هي القيامة وقال مقاتل علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وان غاب عن الخلق وقال ابن شجرة الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه وغيبه عنهم مبين في أم الكتاب فكيف يخفى عليه شيء من ذلك ومن جملة ذلك ما يستعجلون من العذاب فانه موقت بوقت مؤجل أجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له وقال ابن عباس ما من شيء في السماء والارض سرا ولا علانية الا يعلمه (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل) الموجودين في زمان نبينا بالتصريح والتنصيص ولذا خص الاكثر بالذكر فقال (أكثر الذي هم فيه يختلفون) من التشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير ومسيح وذلك لان أهل الكتاب تفرقوا فرقا وتحزبوا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض فنزل القرآن مبينا لما اختلفوا فيه من الحق فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم (وانه لهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (للمؤمنين) أي لمن آمن بالله وتابع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وخصهم لانهم هم المنتفعون به ومن جملتهم من آمن من بني اسرائيل (ان ربك يقضي بينهم) كغيرهم يوم القيامة (بحكمه) أي يقضي بالعدل بين المختلفين من بني اسرائيل فيحكم بين المحق فيجازي المحق ويعاقب المبطل فلا يمكن أحدا مخالفته كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءه ورسله وقيل يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه وقرئ بحكمه بضم الحاء وسكون الكاف وبكسرها وفتح الكاف جمع حكمة والحكم بمعنى العدل والحق والمحكوم به (وهو العزيز) الذي لا يغالب (العليم) بما يحكم به أو الكثير العلم ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة فقال (فتوكل على الله) الفاء لترتيب الامر على ما تقدم ذكره لان هذه الاوصاف توجب على كل أحد أن يفوض جميع أموره اليه والمعنى فوض الى الله أمرك واعتمد عليه فانه ناصرك ثم علل ذلك بعلتين الاولى قوله (انك على الحق المبين) أي الظاهر وقيل المظهر وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك وفيه بيان ان صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته وتأييده وحفظه له والعلة الثانية قوله (انك لا تسمع الموتى) أي موتى القلوب وهم الكفار وفيه قطع طمعه عن متابعتهم ومعاضدتهم رأسا (ولا تسمع الصم الدعاء) لانه اذا علم ان

حالهم

ولديلها اعصار فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد قالت نعم قال لها تطيبت قالت نعم قال انى سمعت حبى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة ورواه ابن ماجه عن أبى بكر ابن أبى شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به وروى الترمذى أيضا من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الرافلة فى الزينة فى غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها ومن ذلك أيضا انهن نهين عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من التبرج قال أبو داود حدثنا

القعنبى حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد عن أبى اليمان عن شداد بن أبى عمرو بن حماس عن أبيه عن حمزة بن أبى أسيد الانصارى عن أبيه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء استأخرن فانه ليس لكن ان تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى ان ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به وقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون أى افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والاخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الاخلاق والصفات الرذيلة فان الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه والله تعالى هو المستعان (وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) اشتملت هذه الآيات الكريمة المبينة على جمل من الاحكام المحكمة والاوامر المبرمة فقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم الى آخره هذا أمر بالتزويج وقد ذهب طائفة من العلماء الى وجوبه على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله عليه

حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجدوى بالسماع أو كحال الصم الذين لا يسمعون ولا يفهمون ولا يهتدون صار ذلك سياقويا فى عدم الاعتداد بهم شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء الى الله وقرئ تسمع بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع وقرئ بالتحتية مفتوحة وفتح الميم وفاعله الصم ثم ذكر سبحانه جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال (اذا ولوا مدبرين) أى أعرضوا عن الحق اعراضا تاما فان الاصم لا يسمع الدعاء اذا كان مقبلا فكيف اذا كان مدبرا معرضا عنه موليا قال قتادة الاصم اذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى اليه من الايمان وظاهر نفى سماع الموتى العموم فلا يخص منه الا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح انه صلى الله عليه وآله وسلم خاطب القتلى فى قليب بدر فقيل له يا رسول الله انما تكلم أجسادا لا أرواح لها وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له اذا انصرفوا ثم ضرب العمى مثلا لهم فقال (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) أى ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق ارشادا يوصله الى المطلوب منه وهو الايمان وليس فى وسعك ذلك ومثله قوله انك لا تهدى من أحببت قرأ الجمهور باضافة هادى الى العمى وقرئ بالتنوين وقرئ تهدى فعلا مضارعا وفى حرف عبد الله وما ان تهدى العمى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا) أى من يصدق بالقرآن فى علم الله لا من يكفر (فهم مسلمون) تعليل للايمان أى فهم منقادون مخلصون بتوحيد الله ثم هدد العباد بذكر طرف من اشراط الساعة وأهوالها فقال (واذا وقع القول عليهم) اختلف فى معنى هذا الوقوع فقال قتادة وجب الغضب عليهم وقال مجاهد حق القول عليهم بانهم لا يؤمنون وقيل حق العذاب عليهم وقيل وجب السخط والمعانى متقاربة وقيل المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجىء الساعة وما فيها من فنون الاهوال التى كانوا يستعجلونها وقيل وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن وذلك اذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر قاله ابن عمر وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا وعن أبى العالية انه فسر وقع القول بما أوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن والحاصل ان المراد بوقع وجب وبالقول مضمونه أو أطلق المصدر على المفعول أى المقول وجواب الشرط قوله (أخرجنا لهم دابة من الارض) اختلف فى هذه الدابة على أقوال فقيل انها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب

السلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود وجاء في السنن من غير وجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة وفي رواية حتى بالسقط والأيامى جمع أيم ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهري عن أهل اللغة يقال رجل أيم وامرأة أيم وقوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد الأزرق حدثنا عمر بن عبد الواحد عن سعيد يعني ابن عبد العزيز قال بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وعن ابن مسعود التمسوا الغنى في النكاح يقول الله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله رواه ابن جرير وذكر البغوي عن عمر نحوه وعن الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ومع هذا فزوجه تلك المرأة وجعل صداقها الموقية عليه أن يعلمها ما معه من القرآن والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث تزوجوا فقراء يغنكم الله فلا أصل له ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن وفي القرآن غنية عنه وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها ولله الحمد والمنة وقوله تعالى وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجا بالتعفف عن الحرام كما قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم

الساعة ويكون من أشراطها وقيل هي دابة جزغبة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها الجساسة وبه قال ابن عمرو وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقيل هي دابة على خلقة بني آدم رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض وقيل رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا ولعل ذلك هو الجساسة وقيل هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان وقيل هي دابة ما لها ذنب ولها لحية وقيل هي إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار وفيه بعد وعن ابن عباس قال الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره وقال هو أصح الأقوال واختلف في تعيينها وصفها اختلافا كثيرا قد ذكرناه في كتاب التذكرة انتهى واختلف من أي موضع تخرج فقيل من جبل الصفا تنصدع فتخرج منه قاله ابن عمرو وقيل تخرج من جبل أبي قبيس وقيل لها ثلاث خرجات خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس ويكثر الدماء ثم تكمن وتخرج في القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وقيل تخرج من بين الركن والمقام وقال ابن عباس تخرج من بعض أودية تهامة وقيل من مسجد الكوفة من حيث فار التنور وقيل من أرض الطائف وقيل من صخرة من شعب أجياد قاله ابن عمرو وقيل من صدع في الكعبة وقيل من بحر سدوم قاله وهب بن منبه واختلف في معنى قوله (تكلمهم) فقيل تكلم الموجودين ببطلان الأديان سوى دين الإسلام وقيل تكلمهم بما يسوءهم وقيل تكلمهم بالعربية بقوله تعالى الآتي أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قاله ابن عباس أي بخروجها لأن خروجها من الآيات وقال ابن عباس أيضا تكلمهم تحدثهم وعنه أنه سئل هو من الكلام باللسان أو من الكلم وهو الجرح فقال كل ذلك والله تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر أي تجرحه قرأ الجمهور تكلمهم من التكلم وتدل عليه قراءة أبي تنبئهم وقرئ بفتح

الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء الحديث وهذه الآية مطلقة والتى فى سورة النساء أخص منها وهى قوله ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات الى قوله وان تصبروا خير لكم أى صبركم عن تزويج الاماء خير لكم لان الولد يجيء رقيقا والله غفور رحيم قال عكرمة فى قوله وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى فان كانت له امرأة فليذهب اليها وليقض حاجته منها وان لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات والارض حتى يغنيه الله وقوله تعالى والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا هذا أمر من الله تعالى للسادة اذا طلب عبيدهم منهم الكتابة ان يكاتبوهم بشرط ان يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى الى سيده المال الذى شارطه على أدائه وقد ذهب كثير من العلماء الى ان هذا الامر أمر ارشاد واستحباب لا أمر تحتم وايجاب بل السيد مخير اذا طلب منه عبده المكاتبة ان شاء كاتبه وان شاء لم يكاتبه قال الثورى عن جابر عن الشعبى ان شاء كاتبه وان شاء لم يكاتبه وكذا روى ابن وهب عن اسمعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبى رباح ان يشأ يكاتبه وان لم يشأ لم يكاتبه وكذا قال مقاتل ابن حيان والحسن البصرى وذهب آخرون الى انه يجب على السيد اذا طلب منه عبده ذلك ان يجيبه الى ما طلب اخذا بظاهر هذا الامر وقال البخارى وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب على اذا علمت له مالا ان أكاتبه قال ما أراه الا واجبا وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء أتأثره عن احد قال لا ثم اخبرنى ان موسى ابن أنس اخبره ان سيرين سأل انسا المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق الى عمر رضى الله عنه فقال كاتبه فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضى الله عنه فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا فكاتبه هكذا ذكره البخارى معلقا ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء أواجب على اذا علمت له مالا ان أكاتبه قال ما أراه الا واجبا وقال ابن جريج حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن بكر حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك ان سيرين أراد ان يكاتبه فتلكأ عليه فقال له عمر لتكاتبنه اسناد صحيح وروى سعيد بن منصور حدثنا هشيم بن جويبر عن الضحاك قال هى عزمة وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى وذهب فى الجديد

الفوقية وسكون الكاف من الكلم وهو الجرح قال عكرمة أى تسمهم وسما وقيل تجرحهم وقيل قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم وهو الجرح والتشديد للتكثير قاله أبو حاتم وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس ذلك حديثا ولا كلاما ولكنها سمة تسم من أمرها الله به فيكون خروجها من الصفا ليلة منى فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يجرح جارح حتى اذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا كان أول خطوة تضعها بأنطاكية وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشترى الرجل الدابة فيقال له ممن اشتريتها فيقول من الرجل المخطم وعن حذيفة بن أسيد رفعه قال تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى وغيرهم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخرج دابة الارض ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصى حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر وعن حذيفة بن أسيد الغفارى قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدابة فقال لها ثلاث خرجات من الدهر الحديث أخرجه البيهقى والحاكم وصححه وابن المنذر وغيرهم وفى صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف وأما كونها تخرج وكونها من علامات الساعة فالاحاديث الواردة فى ذلك صحيحة ومنها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها الدابة فانه فى صحيح مسلم وفى السنن الاربع وكحديث بادروا بالاعمال طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة فانه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا وكحديث ابن عمر مرفوعا ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى فانه فى صحيح مسلم أيضا ثم قرأ الجمهور (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) بكسر ان على الاستئناف وقرئ بفتحها قال الاخفش المعنى على الفتح بان الناس وبها قرأ ابن مسعود وقال أبو عبيدة أى تخبرهم أن الناس الخ وعلى هذه فالذى تكلم الناس به هو قوله ان الناس الخ كما قدمنا الاشارة الى ذلك واما على الكسر

الى انه لايجب لقوله عليه السلام لايحل مال امرئ مسلم الابطيب نفس وقال ابن وهب قال مالك الامر عندنا انه ليس على سيد العبد ان يكاتبه اذا ساله ذلك ولم اسمع احدا من الائمة أكره احدا على ان يكاتب عبده قال مالك وانما ذلك أمر من الله تعالى واذن منه للناس وليس بواجب وكذا قال الثوري وابو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهم واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية وقوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا قال بعضهم أمانة وقال بعضهم صدقا وقال بعضهم مالا وقال بعضهم حيلة وكسبا وروى أبو داود في المراسيل عن يحيى بن أبي كثير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا قال ان علمتم فيهم حرفة ولاترسلوهم كلا على الناس وقوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم أطرحوا لهم من الكتابة بعضها ثم قال بعضهم مقدار الربع وقيل الثلث وقيل النصف وقيل جزء من الكتابة من غير حد وقال آخرون بل المراد من قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم هو النصيب الذين فرض الله لهم من أموال الزكاة وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وابيه ومقاتل ابن حيان واختاره ابن جرير وقال ابراهيم النخعي في قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم قال حث الناس عليه مولاه وغيره وكذا قال بريدة بن الحصيب الاسلمي وقتادة وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين ان يعينوا في الرقاب وقد تقدم في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة حق على الله عونهم فذكر منهم المكاتب يريد الاداء والقول الاول أشهر وقال ابن ابى حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنا وكيع عن ابن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر انه

سمع

كاتب عبدا له يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حل فقال يا أبا امية اذهب فاستعن به في مكاتبتك فقال يا امير المؤمنين لو تركته حتى يكون من آخر نجم قال اخاف ان لا ادرك ذلك ثم قرأ فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم قال عكرمة فكان اول نجم ادى في الاسلام وروى ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا هرون بن المغيرة عن عنبسة عن سالم الافطس عن سعيد ابن جبير قال كان ابن عمر اذا كاتب مكاتبا لم يضع عنه شيأ من اول نجومه مخافة ان يعجز فترجع اليه صدقته ولكنه اذا كان في

فالجملة مستأنفة كما قدمنا ولايكون من كلام الدابة وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين وجزم به الكسائي والفراء وقال الاخفش ان كسر ان هو على تقدير القول أى تقول لهم ان الناس فيرجع معنى القراءة الاولى على هذا الى معنى الثانية والمراد بالناس في الآية هم الناس على العموم فيدخل في ذلك كل مكلف وقيل المراد الكفار خاصة وقيل كفار مكة والاول أولى كما صنع جمهور المفسرين والمعنى لايؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب وبخروجها ينقطع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولايبقى تائب ولاتائب ولايؤمن كافر كما أوحى الله الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة بعد بيان مباديها فقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) العامل في الظرف فعل محذوف خوطب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحشر الجمع قيل والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب الخاص بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق ومن لابتداء الغاية والفوج الجماعة كالزمرة والقوم وقيدهم الراغب فقال الفوج الجماعة المارة المسرعة وكان هذا هو الاصل ثم أطلق وان لم يكن مرور ولا اسراع والجمع أفواج وفوج (ممن يكذب بآياتنا) من بيانية (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم لاجل تلاحقهم وقيل معناه يدفعون وقد تقدم تحقيقه في هذه السورة مستوفى ومعنى الآية واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الامم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم أو يدفعون أى اذكر لهم هذا وبينه تحذيرا لهم وترهيبا (حتى اذا جاؤا) الى موقف الحساب (قال) الله لهم توبيخا وتقريعا (أكذبتم بآياتى) التى أنزلتها على رسلى وأمرتهم بابلاغها اليكم (و) الحال انكم (لم تحيطوا بها علما) بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ولا مستدلين على صحتها أو بطلانها تمردا وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ لان من كذب بشئ ولم يحط به علما فقد كذب في تكذيبه ونادى على نفسه بالجهل وعدم الانصاف وسوء الفهم وقصور الادراك ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من علوم الشريعة أو لذم علم هو مقدمة من مقدماتها ووسيلة يتوسل بها اليها وتفيد زيادة بصيرة في معرفتها وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية باسرها وهى اثنا عشر علما وعلم أصول الفقه فانه يتوصل به الى استنباط الاحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية

آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وآتوهم من مال الله الذي آتاكم قال ضعوا عنهم يعني من مكاتبتهم وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي مرة وعبد الكريم بن مالك الجزري والسدي وقال محمد بن سيرين في الآية كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان المقري أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج أخبرني عطاء بن السائب أن عبد الله بن جندب أخبره عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ربع الكتابة وهذا حديث غريب ورفعه منكر والأشبه أنه موقوف (٨٩) على علي رضي الله عنه كما رواه أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله وقوله تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم

* ذكر الآثار الواردة في ذلك *

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مسنده حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهري قال كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية قال نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة كان يكرهها على الفجور وكانت

لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إلى قوله ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم وروى النسائي من حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر نحوه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا علي بن سعيد حدثنا الأعمش حدثني أبو سفيان عن جابر قال كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها مسيكة وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إلى قوله ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم صرح الأعمش بالسماع عن أبي سفيان طلحة بن نافع فدل على بطلان قول من قال لم يسمع منه إنما هو صحيفة حكاه البزار وروى أبو داود الطيالسي عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية فولدت

مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله وسنة رسوله فإنه قد نادى على نفسه بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ولا يعلم به ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعفاء العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زورا وكذبا (أم ماذا) أم هي المنقطعة بمعنى بل والمعنى أي شيء (كنتم تعملون) حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها أو التفكر في معانيها وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم (ووقع القول) أي وجب العذاب (عليهم) وقد تقدم تفسيره قريبا (بما ظلموا) أي بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله (فهم لا ينطقون) عند وقوع القول عليهم أي ليس لهم عذر ينطقون به أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم وقال أكثر المفسرين يختم على أفواههم فلا ينطقون ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد وإبلاء للمعذرة فقال (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) أي ألم يعلموا أنا خلقنا الليل للسكون والاستقرار والنوم فيه وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش (و) خلقنا (النهار مبصرا) ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بد لهم منه ووصف النهار بالإبصار وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه ففي الكلام إسناد عقلي من الإسناد إلى الزمان قيل في الكلام حذف والتقدير وجعلنا الليل مظلما ليسكنوا وحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وقد تقدم تحقيقه في الإسراء وفي يونس (إن في ذلك) المذكور (لآيات) أي لعلامات ودلالات (لقوم يؤمنون) بالله سبحانه وفي الآية دليل على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على تقليب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الإعادة بعد الموت كيف ومن تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه مبنية على حكم تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالتيقظ الذي هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وجزم بأن الله قد جعل هذا أنموذجا ودليلا يستدل به على أن

أولادا من الزنا فقال لها مالك لا تزنين قالت والله لا أزني فضربها فأنزل الله عز وجل ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية وروى البزار أيضا حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا الى ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري ان رجلا من قريش أسر يوم بدر وكان عبد الله بن أبي أسيرا وكانت لعبد الله (٩٠) بن أبي جارية يقال لها معاذة وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لإسلامها وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل للقرشي فيطلب فداء ولده فقال تبارك وتعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا وقال السدي أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان اذا نزل به ضيف أرسلها اليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية الى أبي بكر رضي الله عنه فشكت اليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا وقال مقاتل بن حيان بلغني والله أعلم ان هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما أحدهما اسمها مسيكة وكانت للأنصار (١) وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبي وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة فأتت مسيكة وأمها النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتا ذلك له فأنزل الله في ذلك ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء يعني الزنا وقوله تعالى ان أردن تحصنا هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له وقوله تعالى لتبتغوا عرض الحياة الدنيا أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن وفي رواية مهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث وثمن الكلب خبيث وقوله تعالى ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم أي لهن كما تقدم في الحديث عن جابر وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة وقال أبو عبيد حدثني إسحق الأزرق عن عوف عن الحسن في هذه

(١) قوله وكانت أميمة الخ كذا بالنسخ التي بأيدينا وحرر اهـ

سائر الآيات حتى نازل من عند الله قاله أبو السعود ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال (ويوم ينفخ في الصور) وهو معطوف على ويوم نحشر منصوب بناصبه المتقدم قال الفراء ان المعنى وذلكم يوم ينفخ في الصور والأول أولى والصور قرن ينفخ فيه اسرافيل وقد تقدم في الأنعام استيفاء الكلام عليه والنفخات في الصور ثلاث الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث وقيل انها نفختان وان نفخة الفزع اما ان تكون راجعة الى نفخة الصعق أو الى نفخة البعث واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما وقال الماوردي هذه النفخة المذكورة هنا هي يوم النشور من القبور (ففزع) كل (من) كان (في السموات ومن) كان (في الأرض) حيا ذلك الوقت لم يسبق له موت أو كان ميتا لكنه حي في قبره كالأنبياء والشهداء أي خافوا الخوف المفضي بهم الى الموت كما في آية أخرى فصعق من في السموات الخ وانزعجوا لشدة ما سمعوا وقيل المراد بالفزع هنا الاسراع والاجابة الى النداء من قولهم فزعت اليك في كذا اذا أسرعت الى اجابته والأول أولى بمعنى الآية وانما عبر بالماضي مع كونه معطوفا على المضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان وقال الفراء هو محمول على المعنى لأن المعنى اذا نفخ (الا من شاء الله) أن لا يفزع عند تلك النفخة فهو لا يفزع واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له فقيل هم الشهداء والأنبياء وقيل الملائكة وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الحور العين وخزنة النار وحملة العرش وقيل هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ويمكن ان يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك قال البيضاوي ولعل المراد ما يعم ذلك لعدم قرينة الخصوص انتهى فهؤلاء كلهم لا يفضي بهم الفزع الى الغشي والاغماء بل هو أقل من ذلك (وكل أتوه) قرئ فعلا ماضيا وكذا قرأ ابن مسعود وقرأ قتادة كل أتاه وقرئ آتوه على اسم الفاعل مضافا الى الضمير الراجع الى الله سبحانه قال الزجاج من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه وهو غلط ظاهر فان كلتا القراءتين لا توحيد فيهما بل التوحيد في قراءة قتادة فقط (داخرين) أي صاغرين ذليلين قاله ابن عباس وقرئ دخرين بغير الألف والمعنى صغار ذل وهيبة من الجبار فيشمل هذا الطائعين والعاصين وقال الكرخي المراد به ذل العبودية

الآية فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم قال لهن والله لهن والله وعن الزهري قال غفور لهن ما أكرهن عليه وعن زيد بن أسلم قال غفور رحيم للمكرهات حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء عن سعيد بن جبير قال في قراءة عبد الله بن مسعود فان الله من بعد اكراههن لهن غفور رحيم لهن واثمهن على من أكرههن وفي الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ولما فصل تبارك وتعالى هذه الاحكام وبينها قال تعالى ولقد أنزلنا اليكم

آيات مبينات يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم أي خبرا عن الامم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين أي زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم للمتقين أي لمن اتقى الله وخافه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الله نور السموات والارض يقول هادي أهل السموات والارض قال ابن جريج قال مجاهد وابن عباس في قوله الله نور السموات والارض يدبر الامر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما وقال ابن جرير حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس بن مالك قال ان الله يقول نوري هدى واختار هذا القول ابن جرير وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره قال هو المؤمن الذي جعل الله الايمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال الله نور السموات والارض فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال مثل نور من آمن به قال فكان أبي بن كعب يقرأها مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الايمان والقرآن في صدره وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس انه قرأها

والرق لاذل الذنوب والمعاصي وذلك يعم الخلق كافة كما في قوله تعالى ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا وفي القاموس دخر الشخص كمنع وفرح دخرا ودخورا صغر وذل وادخرته بالالف للتعدية وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل (وترى الجبال تحسبها) بفتح السين وكسرها (جامدة) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للرؤية والرؤية بصرية وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة والمعنى تظنها واقفة قائمة ساكنة مكانها قاله ابن عباس (وهي تمر مر السحاب) أي وهي تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التي تسيرها الرياح وذلك ان كل شيء عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين أطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما ان سير السحاب لا يرى لعظمه وقال القتيبي وذلك ان الجبال تجمع وتسير وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير قال النسفي وهكذا الاجرام العظام المتكاثرة العدد اذا تحركت أي في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها ونحوه قال البيضاوي قال القشيري وهذا يوم القيامة ومثله قوله تعالى وسيرت الجبال فكانت سرابا وقال أبو السعود هذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله الارض غير الارض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهي وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها انما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله فقل ينسفها ربي نسفا الخ وقوله يوم تبدل الارض وقد قيل ان المراد بالنفخة هي النفخة الاولى والفزع هو الذي يستتبع الموت فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم والمراد بالاتيان داخرين رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب في ان ذلك مما ينبغي ان تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق فانه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذي لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص في الباب ما سيأتي من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله الذي أتقن كل شيء) أي صنع الله ذلك صنعا وهو مصدر مؤكد لقوله ويوم ينفخ في الصور وقيل انظروا صنع الله الذي احكم يقال رجل تقن بكسر التاء أي حاذق بالاشياء والاتقان الاتيان بالشيء على أكمل حالاته وهو مأخوذ من قولهم تقن أرضه اذا ساق اليها الماء الخاثر بالطين لتصلح للزراعة وأرض

كذلك نور من آمن بالله وقرأ بعضهم الله نوّر السموات والأرض وعن الضحاك الله نور السموات والأرض وقال السدي في قوله الله نور السموات والأرض فبنوره أضاءت السموات والأرض وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحق في السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول اللهم (٩٢) لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن الحديث وعن ابن مسعود قال إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله تعالى مثل نوره في هذا الضمير قولان أحدهما أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن قاله ابن عباس كمشكاة والثاني أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف فقوله كمشكاة قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده فيها مصباح وهو الذبالة التي تضيء وقال العوفي عن ابن عباس قوله الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة والمشكاة كوة البيت قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نورا ثم سماها أنواعا شتى وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هي الكوة بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال المشكاة الكوة التي لا منفذ لها وعن مجاهد المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل والقول الأول أولى وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال فيها مصباح وهو النور الذي في الذبالة قال أبي بن كعب المصباح النور وهو

نفسه والمعنى فعل ذلك بها والمعنى أتقانها بمعنى الغدير من ذلك أو الأرض ذكره النسفي قال ابن عباس أتقن أي أحسن كل شيء صنعه وخلقه وأوثقه (إنه خبير بما تفعلون) تعليل لما قبله من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء والخبير المطلع على الظواهر والضمائر قرئ بالفوقية على الخطاب وبالتحتية على الخبر قال أبو علي أي بما تفعلون من عداوته من المعصية وأوليائه من الطاعة (من جاء بالحسنة) أي بجنس الحسنة يوم القيامة (فله) من الجزاء والثواب عند الله (خير) أي أفضل (منها) وأكثر وقيل خير حاصل من جهتها والأول أولى وقيل الحسنة هي الإخلاص وقيل أداء الفرائض والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وإن قال به بعض السلف وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة فله خير منها قال هي لا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار قال هي الشرك وإذا صح هذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالمصير إليه في التفسير متعين ويحمل على أن المراد قول لا إله إلا الله مخلصا وما يجب لها فيدخل تحت ذلك كل طاعة ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه فيقول الله للإيمان انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة فله خير منها يعني قول لا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة يعني شهادة أن لا إله إلا الله فله خير منها يعني بالحسنة الجنة ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار وقال هذه تنجي وهذه تردي وعن ابن مسعود وابن عباس مثله وعنه قال خير منها أي من جهتها وقال أبو حيان خير أي ثواب قيل وشدة الحاجة بيان لقوله إنه بما تعملون خبير وقيل بيان لقوله وكل أتوه داخرين (وهم من فزع يومئذ آمنون) قرئ من فزع بالتنوين وفتح ميم يومئذ وقرئ بفتحها من غير تنوين وقرئ بإضافة فزع إلى يومئذ قال أبو عبيدة وهذا أعجب إلي لأنه أعم التأويلين لأن معناه الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع وقيل

القرآن والايمان الذى فى صدره وقال السدى هو السراج المصباح فى زجاجة أى هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية وقال أبى
ابن كعب وغير واحد وهى نظير قلب المؤمن الزجاجة كأنها كوكب درى قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أى كأنها
كوكب من در وقرأ آخرون درىء ودرىء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع وذلك ان النجم اذا رمى به يكون أشد
استنارة من سائر الاحوال والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درارى قال أبى بن كعب كوكب مضىء وقال قتادة مضىء
مبين ضخم يوقد من شجرة مباركة أى يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة زيتونة بدل أو عطف بيان لاشرقية
ولا غربية أى ليست فى شرق بقعتها فلا تصل اليها الشمس من أول النهار ولا فى غربها فيتقلص عنها الفىء قبل الغروب بل هى فى مكان وسط يقصرها الشمس من أول النهار الى آخره فيجىء زيتها صافيا معتدلا مشرقا وروى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار قال حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن سعد أخبرنا عمر بن أبى قيس عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله زيتونة لاشرقية ولا غربية قال هى شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شىء وهو أجود لزيتها وقال يحيى بن سعيد القطان عن عمران بن حدير عن عكرمة فى قوله تعالى لاشرقية ولا غربية قال هى بصحراء وذلك أصفى لزيتها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن فروخ عن حبيب بن الزبير عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى زيتونة لاشرقية ولا غربية قال تلك زيتونة بأرض فلاة اذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فاذا غربت غربت عليها فذلك أصفى
ما يكون من الزيت وقال مجاهد فى قوله تعالى لاشرقية ولا غربية قال ليست بشرقية لا تصيبها الشمس اذا طلعت ولا غربية
لا تصيبها الشمس اذا غربت بل تصيبها اذا طلعت واذا غربت وعن سعيد بن جبير فى قوله زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها
يضىء قال هو أجود الزيت قال اذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فاذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس
فالشمس تصيبها بالغداة والعشى فتلك لا تعد شرقية ولا غربية وقال السدى قوله زيتونة لاشرقية ولا غربية يقول ليست
بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو فى صحراء تصيبها الشمس النهار كله

انه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر فتكون القراءتان بمعنى واحد وقيل المراد
بالفزع ههنا هو الفزع الاكبر المذكور فى قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر وقد تقدم فى سورة
هود كلام فى هذا مستوفى (ومن جاء بالسيئة) قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم حتى قيل
انه مجمع عليه بين أهل التأويل ان المراد بالسيئة هنا الشرك ووجه التخصيص قوله (فكبت
وجوههم فى النار) فهذا الجزاء لا يكون الا لمثل سيئة الشرك والمعنى انهم كبوا فيها على
وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها يقال كببت الرجل اذا ألقيته لوجهه فانكب وأكب
وذكرت الوجوه لانها موضع الشرف من الحواس فغيرها أولى (هل تجزون الا ما كنتم
تعملون) بتقدير القول أى يقال لهم ذلك وقت كبهم أو مقولا لهم ذلك وهذا أوضح والقائل
لهم خزنة جهنم أى ما تجزون الا جزاء عملكم فى الدنيا من الشرك والمعاصى (انما أمرت أن
أعبد رب هذه البلدة) لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدا والمعاد أمر رسوله صلى الله
عليه وآله وسلم ان يقول لهم هذه المقالة تنبيها لهم على انه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه
ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم
ضلوا أو رشدوا أصلحوا أو أفسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمر أنفسهم ويشتغلوا
بالتدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعنى قل يا محمد انما أمرت أن أخص الله
بالعبادة وحده لا شريك له والمراد بالبلدة مكة قاله ابن عباس وانما خصها من بين سائر
البلاد لكون بيت الله الحرام فيها ولكونها أحب البلاد الى رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم (الذى) الموصول صفة للرب وهكذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عباس وابن مسعود التى على
ان الموصول صفة للبلدة والسياق انما هو للرب لا للبلدة فلذلك كانت قراءة العامة واصحة
ومعنى (حرمها) جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يعضد شوكها ولا
يصاد صيدها ولا يختلى خلاها وتخصيص مكة بهذه الاضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها
فلا ينافى قوله (وله) أى للرب (كل شئ) من الاشياء خلقا وملكا وتصرفا (وأمرت أن
أكون من المسلمين) أى المنقادين لامر الله المستسلمين له بالطاعة وامتثال أمره واجتناب
نهيه والمراد بقوله أن أكون اثبت على ما أنا عليه (وأن أتلو القرآن) أى أداوم تلاوته
وأواظب على ذلك لتنكشف لى حقائقه الرائقة المخزونة فى تضاعيفه شيأ فشيأ قيل ليس
المراد من تلاوة القرآن هنا الا تلاوة الدعوة الى الايمان والاول أولى قرأ الجمهور ان

وقيل المراد بقوله تعالى لا شرقية ولا غربية انها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب قال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قول الله تعالى زيتونة لا شرقية ولا غربية قال هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا اذا طلعت ولا اذا غربت قال وكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال ان قال صدق وان حكم عدل وان ابتلي صبر وان أعطي شكر فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله زيتونة لا شرقية ولا غربية قال هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا قال عطية العوفي لا شرقية ولا غربية قال هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن الدشتكي حدثنا عمرو بن أبي قيس عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى لا شرقية ولا غربية ليست شرقية ليس فيها شرق ولا غربية ليس فيها غرب ولكنها شرقية غربية وقال محمد بن كعب القرظي لا شرقية ولا غربية قال هي القبلية وقال زيد بن أسلم لا شرقية ولا غربية قال الشام وقال الحسن البصري لو كانت هذه شجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره وقال الضحاك عن ابن عباس توقد من شجرة مباركة قال رجل صالح زيتونة لا شرقية ولا غربية قال لا يهودي ولا نصراني وأولى هذه الأقوال القول الأول وانها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس ولا تفرعه من أول النهار الى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني لضوء اشراق الزيت وقوله تعالى نور على نور قال العوفي عن ابن عباس يعني بذلك ايمان العبد وعمله وقال مجاهد والسدي يعني نور النار ونور الزيت وقال أبي بن كعب نور على نور فهو يتقلب في خمسة من النور فكلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى نور يوم القيامة الى الجنة وقال شمر بن عطية جاء ابن عباس الى كعب الأحبار فقال

أتلو آيات القرآن من التلاوة وهي القراءة أو من التلو وهو الاتباع كقوله واتبع ما أوحي اليك من ربك وقرئ ان اتل بحذف الواو أمرا له صلى الله عليه وآله وسلم كذا وجهه الفراء قال النحاس ولا نعرف هذه القراءة وهي مخالفة لجميع المصاحف ولقد قام صلى الله عليه وآله وسلم بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به (فمن اهتدى) أي على العموم أو من اهتدى بما أتلوه عليه فعمل بما فيه من الايمان بالله والعمل بشرائعه (فانما يهتدي لنفسه) لأن نفع ذلك راجع اليه لا الي (ومن ضل) بالكفر وأعرض عن الهداية (فقل) له (انما أنا من المنذرين) وقد فعلت الانذار بابلاغ ذلك اليكم وليس علي غير ذلك وقيل الجواب محذوف أي فوباله عليه وأقيم انما أنا من المنذرين مقامه لكونه كالعلة له والأول أظهر قيل نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) على نعمه التي أنعم بها علي من النبوة والعلم وغير ذلك وقيل لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها الى كافة الورى وقوله (سيريكم آياته) هو من جملة ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله أي سيريكم الله آياته الباهرة التي نطق بها القرآن في أنفسكم وفي غيركم قيل هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل آياته في السموات والأرض وقيل آياته في الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا (فتعرفونها) أي تعرفون آياته ودلائل قدرته ووحدانيته وهذه المعرفة لا تنفع الكفار لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الايمان وذلك عند حضور الموت ثم ختم السورة بقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) قرئ بالفوقية على الخطاب وبالتحتية وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم

(سورة القصص وتسمى أيضا سورة موسى وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيبها وترتيب الآيات الكريمات)

وهي ثمان وثمانون آية وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء قال المحلي هي مكية الا ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد نزلت بالجحفة والا الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغي الجاهلين انتهى عن ابن عباس نزلت الأولى بالجحفة فليست مكية

حدثني عن قول الله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار قال يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم انه نبي كما يكاد ذلك الزيت انه يضيء وقال السدي في قوله تعالى نور على نور قال نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءت أو لا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا فلا يكن أحدهما الا بصاحبه وقوله تعالى يهدي الله لنوره من يشاء أي يرشد الله الى هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا ابراهيم بن محمد الفزاري حدثنا الاوزاعي حدثني ربيعة بن زيد عن عبد الله الديلي عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله (٩٥) صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل طريق أخرى عنه قال البزار حدثنا أيوب عن سويد عن يحيى بن أبي كثير الشيباني عن أبيه عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول ان الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نورا من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه وقوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية حدثنا شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الاجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح فأي المدتين غلبت على الاخرى غلبت عليه اسناده جيد ولم يخرجوه (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير

ولا مدنية وقال مقاتل فيها من المدني الذي آتيناهم الخ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) الله أعلم بمراده بذلك والكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء وغيرها فلا نعيده وكذلك مر الكلام على قوله (تلك آيات الكتاب المبين) قال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام وهو من أبان بمعنى أظهر ويقال أبنته فأبان لازم ومتعد أي مبين خيره وبركته (نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أي نوحي اليك بواسطة جبريل من أمرهما متلبسا بالحق وخص المؤمنين لان التلاوة انما ينتفع بها المؤمن وقيل نتلو عليك شيأ من نبئهما ومن مزيدة على رأي الاخفش والاولى ان تكون للبيان أو للتبعيض ولا الجئ الى الحكم بزيادتها والحق الصدق (ان فرعون علا في الارض) مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبا قال المفسرون معنى علا تكبر وتعظم وتجبر بسلطانه والمراد بالارض أرض مصر وقيل معنى علا ادعى الربوبية وقيل علا عن عبادة ربه (وجعل أهلها شيعا) أي فرقا وأصنافا في خدمته يشايعونه على ما يريد ويطيعونه قال مجاهد فرق بينهم وقال قتادة يستعبد طائفة منهم ويدع طائفة ويقتل طائفة ويستحيي طائفة أو فرقا متفرقة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) مستأنفة مسوقة لبيان حال الاهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا ويجوز أن تكون حالا من فاعل جعل أي جعلهم شيعا حال كونه مستضعفا طائفة منهم ويجوز أن تكون صفة لطائفة والطائفة هم بنو اسرائيل فانهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم وذلك ان بني اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا المعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا على المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم الى أن أنجاهم الله على يد موسى عليه السلام (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) بدل من الجملة الاولى أو مستأنفة للبيان أو حال أو صفة كالتي قبلها وانما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ويستبقيهن لان المنجمين في ذلك العصر أخبروه انه يذهب ملكه على يد مولود من بني اسرائيل قال الزجاج والعجب من حمق فرعون فان الكاهن الذي أخبره بذلك ان كان صادقا عنده فما ينفع القتل وان كان كاذبا فلا معنى

) لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلا ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع الى الله تعالى من الارض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد فقال تعالى في بيوت أذن الله أن ترفع أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والاقوال والافعال التي لا تليق فيها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة في بيوت أذن الله أن ترفع قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين وقال قتادة هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها وقد ذكر لنا أن كعبا كان يقول مكتوبا في التوراة ان بيوتي في الارض المساجد وانه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمته وحق على المزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت في ذلك جزأ على حدة ولله الحمد والمنة ونحن بعون الله تعالى نذكر هنا طرفا من ذلك ان شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة أخرجاه في الصحيحين وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة وللنسائي عن عمرو بن عبسة مثله والاحاديث في هذا كثيرة جدا وعن عائشة رضي الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وان تنظف وتطيب رواه أحمد وأهل السنن الا النسائي ولاحمد وأبي داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخاري قال عمر ابن الناس ما يكنهم واياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس وروى ابن ماجه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ساء عمل قوم قط الا زخرفوا مساجدهم وفي اسناده ضعف وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت بتشييد المساجد قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله

للقتل وقد قيل انه ذبح سبعين ألفا (انه كان من المفسدين) الراسخين في الافساد في الارض بالمعاصي والتجبر ولذلك اجترأ على مثل تلك الجريمة العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الانبياء عليهم السلام وفيه بيان ان القتل من فعل أهل الفساد (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض) جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية واستحضار صورتها أي نريد أن نتفضل عليهم بانجائهم من بأسه بعد استضعافهم وقال النسفي وهو دليل لنا على مسئلة الاصلح انتهى والمراد هؤلاء بنو اسرائيل والواو للعطف على جملة ان فرعون علا وهذا أولى (ونجعلهم أئمة) أي قادة في الخير ودعاة اليه يقتدى بهم وولاة على الناس وملوكا فيهم بعد ان كانوا أتباعا مسخرين مهانين قال علي بن أبي طالب يعني يوسف وولده وقال قتادة أي ولاة الامر وهم بنو اسرائيل (ونجعلهم الوارثين) أي الذين يرثون الارض بعد فرعون وقومه لا الوراثة المعهودة في شرعنا قاله قتادة أي نجعلهم الوارثين لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون مساكن قومه ويتمتعون بأملاكهم وأملاكهم (ونمكن لهم في الارض) أي نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرفون فيها كيف شاؤا يقال مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه و يتمكن فيه أو يرقد ثم استعير للتسلط واطلاق الامر والارض أرض مصر والشام (ونري فرعون وهامان وجنودهما) الفاعل هو الله سبحانه وقرئ يرى بالتحتية والفاعل فرعون والاولى ألصق بالسياق لان قبلها نريد ونمكن بالنون وأجاز الفراء ويرى فرعون أي ويرى الله فرعون والرؤية بصرية والاضافة اليهما اما للتغليب أو انه كان لهامان جنود مخصوصة به وان كان وزيرا أو لان جند السلطان جند وزيره والابصار لا يتوقف على الحياة عند أهل الحق ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في أهل القليب ما أنتم بأسمع منهم أو المراد رؤية طلائعه وأسبابه وذلك حين أدركهم الغرق (منهم) أي من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) والمعنى ان الله يريهم أو يرون هم الذي كانوا يخافون منه ويحتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بني اسرائيل المستضعفين والحذر التوقي من الضرر (وأوحينا الى أم موسى) أي ألهمناها الذي صنعت بموسى قاله ابن عباس وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى الى الرسل وقيل كان ذلك رؤيا في منامها وقيل كان ذلك ملك أرسله

الله

الله يعلمها بذلك فعلى هذا هو وحي اعلام لا الهام وقد اجمع العلماء على انها لم تكن نبية وانما كان ارسال الملك اليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للاقرع والابرص والاعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح فلم يكن بذلك نبيا وكان اسمها يوحانذ وقيل لوحا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب نقله القرطبي عن الثعلبي (أن أرضعيه) أن هي المفسرة لان في الوحي معنى القول أو بأن ارضعيه قيل ارضعته ثمانية أشهر وقيل اربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها وكان الوحي برضاعه قبل ولادتها وقيل بعدها وأمرها بارضاعه مع انها ترضعه طبعا ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون (فاذا خفت عليه) من فرعون بأن يبلغ خبره اليه فيذبحه قال ابن عباس أن يسمع جيرانك صوته (فألقيه في اليم) وهو بحر النيل وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه (ولا تخافي) عليه الغرق والضيعة (ولا تحزني) لفراقه والخوف غم يصيب الانسان لامر يتوقعه في المستقبل والحزن غم يصيبه لامر وقع ومضى فلا يقال ما الفرق بينهما حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية (انا رادوه اليك) عن قريب على وجه تكون به نجاته وتأمنين عليه والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن (وجاعلوه من المرسلين) الذين نرسلهم الى العباد وقد اشتملت هذه الآية على أمرين أرضعيه وألقيه ونهيين لا تخافي ولا تحزني وخبرين انا رادوه وجاعلوه وبشارتين في ضمن الخبرين وهما الرد والجعل المذكوران (فالتقطه آل فرعون) الفاء هي الفصيحة والالتقاط اصابة الشيء من غير طلب والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر والتقدير فألقته في اليم بعد ما جعلته في التابوت فالتقطه من وجده من آل فرعون أي اعوانه قال الزجاج كان فرعون من أهل فارس من اصطخر (ليكون لهم عدوا وحزنا) اللام لام العاقبة ووجه ذلك انهم انما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرة عين لا ليكون عدوا فكان عاقبة ذلك انه كان لهم عدوا يقتل رجالهم وحزنا يستعبد نساءهم قاله المحلي وقال صاحب الكشاف هي لام كي التي معناها التعليل ولكن هذا المعنى وارد على طريق المجاز لانه لما كانت هذه العداوة نتيجة التقاطهم وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لاجله قرئ حزنا بفتح الحاء والزاي وحزنا بضم الحاء وسكون الزاي وهما لغتان كالعدم

صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن الا الترمذي وعن بريدة ان رجلا نشد في المسجد فقال من دعا الى الجمل الاحمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا وجدت انما بنيت المساجد لما بنيت له رواه مسلم وعن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتياع وعن تناشد الاشعار في المساجد رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي حسن وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك واذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك رواه الترمذي وقال حسن غريب وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعا قال خصال لا تنبغي في المسجد لا يتخذ طريقا ولا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم نيء ولا يضرب فيه حد ولا يقتص فيه أحد ولا يتخذ سوقا وعن واثلة بن الاسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع ورواه ابن ماجه أيضا وفي اسنادهما ضعف اما انه لا يتخذ طريقا فقد ذكره بعض العلماء المرور فيه الا لحاجة اذا وجد مندوحة عنه وفي الآثار الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه واما انه لا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل فلما يخشى من اصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحدا كما ثبت ذلك في الصحيح واما النهي عن المرور باللحم النيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه اذا خافت التلويث واما أنه لا يضرب فيه حد ولا يقتص فلما يخشى من ايجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع واما أنه لا يتخذ سوقا فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه فانه انما بني لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك الاعرابي الذي بال في طائفة المسجد ان المساجد لم تبن لهذا انما بنيت لذكر الله والصلاة فيها ثم أمر بسجل من ماء فاهريق على بوله وفي الحديث الثاني جنبوا مساجدكم صبيانكم وذلك

لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة وكان يعس المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحدا ومجانينكم يعني لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم فيؤدي إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك وبيعكم وشراءكم كما تقدم وخصوماتكم يعني التحاكم والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه ولهذا (٩٨) قال بعده ورفع أصواتكم وقال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يحيى ابن سعيد حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن قال حدثني يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد الكندي قال كنت قائما في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال اذهب فأتني بهذين فجئته بهما فقال ممن أنتما أو من أين أنتما قالا من أهل الطائف قال لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال النسائي حدثنا سويد بن نصر عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال أتدري أين أنت وهذا أيضا صحيح وقوله وإقامة حدودكم وسل سيوفكم تقدما وقوله واتخذوا على أبوابها المطاهر يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة وقد كانت قريبا من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك وقوله وجمروها في الجمع يعني بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبيد الله حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله ابن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة إسناده حسن لا بأس به والله أعلم وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال في صلاة ما انتظر

ولعدوهم ولرشدهم وانكسار لشأنهم (إن فرعون وهامان وجنودهما) تعليل لما قبله أو اعتراض لقصد التأكيد (كانوا خاطئين) أي عاصين آثمين في كل أفعالهم وأقوالهم فعوقبوا على يديه مع أنه تربى على أيديهم فيه لطيفة أبلغ في إذلالهم وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب أي لم يشعروا أن الذي يذهب بملكهم أو من خطئ يخطئ أي تجاوز الصواب (وقالت امرأة فرعون) وقد هم مع أعوانه بقتله وهي آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وقيل كانت من بني إسرائيل وقيل كانت عمة موسى حكاه السهيلي (قرة عين لي ولك) وكأنها رأت عليه النور عند رؤيتها له لما وصل إليها وأخرجته من التابوت وخاطبت بقولها (لا تقتلوه) فرعون ومن عنده من قومه أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له وقرأ ابن مسعود قالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرة عين لي ولك وقيل إنها قالت هذا الغلام أكبر من سنة وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي وقد حكى الفراء عن السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن قوله لا تقتلوه من كلام فرعون واعترض بكلام يرجع إلى النظم ويكفي في رده ضعف إسناده وقيل إنها قالت لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بني إسرائيل ثم عللت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم والتبني له فقالت (عسى أن ينفعنا) فنصيب منه خيرا لأن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله (أو نتخذه ولدا) وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها (وهم لا يشعرون) أنهم على خطأ في التقاطه وأن هلاكهم على يده فيكون حالا من آل فرعون وهي من كلام الله سبحانه وقيل هي من كلام المرأة أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون قاله الكلبي وهو بعيد جدا وما أحسن تمام الكلام عند أصحاب المعاني والبيان (وأصبح) أي صار (فؤاد أم موسى فارغا) من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه قاله المفسرون وقال أبو عبيدة خاليا من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى وقال الحسن وابن إسحق وابن زيد فارغا من الوحي الذي أوحى الله إليها من قوله ولا تخافي ولا تحزني وذلك لما سول الشيطان لها من غرقه وهلاكه وقال الأخفش فارغا من الخوف والغم لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدم من الوحي إليها وروي مثله عن أبي عبيدة أيضا وقال الكسائي ناسيا ذاهلا وقيل صفرا من العقل وقال العلاء بن زياد نافرا وقال سعيد بن جبير والها كادت تقول وا ابناه من شدة الجزع وقال مقاتل كادت تصيح شفقة

الصلاة وعند الدارقطني مرفوعا لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد وفي السنن بشر المشائين الى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وان يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم قال فاذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك

واذا خرج فليقل اللهم افتح لي أبواب فضلك ورواه النسائي عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك واذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا الليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن حسين عن أمه فاطمة بنت حسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك واذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث حسن واسناده ليس بمتصل لان فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك الكبرى فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الاحاديث الواردة في ذلك كله لمحاذرة الطول داخل في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع وقوله ويذكر فيها اسمه كقوله يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين وقوله وان المساجد لله الآية وقوله تعالى ويذكر فيها اسمه قال ابن عباس يعني يتلى كتابه وقوله تعالى يسبح له فيها بالغدو والآصال أي في البكرات والعشيات والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس كل تسبيح في القرآن هو الصلاة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني بالغدو صلاة الغداة ويعني بالآصال صلاة العصر وهما أول ما افترض

شفقة عليه من الغرق وقيل المعنى انها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش قال النحاس وأصح هذه الاقوال الاول والذين قالوه أعلم بكتاب الله فاذا كان فارغا من كل شيء الا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي وقول من قال فارغا من الغم غلط قبيح لان بعده ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها وقرئ فزعا مكان فارغا من الفزع أي خائفا وجلا وقرأ ابن عباس قرعا من قرع رأسه اذا انحسر شعره (ان كادت لتبدي به) من بدا يبدو اذا ظهر وأبدى يبدي أي أظهر والمعنى لتظهر أمر موسى وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش والخوف والحزن وقيل الضمير في به عائد الى الوحي الذي أوحي اليها والاول أولى وقال الفراء ان كادت لتبدي باسمه لضيق صدرها وقال ابن عباس تقول يا ابناه وقيل الباء زائدة للتأكيد والمعنى لتبديه كما تقول أخذت الحبل وبالحبل وقيل المعنى لتبدي القول به (لولا أن ربطنا على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبت قال الزجاج معنى الربط على القلب الهام الصبر وتقويته وجواب لولا محذوف أي لابدت (لتكون من المؤمنين) أي ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك قال يوسف بن الحسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت بشيئين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها (وقالت) أم موسى (لاخته) وهي مريم وقال الضحاك ان اسمها كلثمة وقال السهيلي كلثوم ذكره الماوردي (قصيه) أي تتبعي أثره واعرفي خبره وانظري أين وقع والى من صار يقال قصصت الشيء اذا اتبعت أثره متعرفا لحاله (فبصرت به) أي أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى وقرئ بصرت بفتح الباء وضم الصاد وقرئ بفتحها وبكسرها (عن جنب) أصله عن مكان جنب ومنه الاجنبي وقيل المراد بقوله عن جنب عن جانب قاله ابن عباس والمعنى انها أبصرته اليه متجانفة مخاتلة وقرئ عن جانب اى بصرت به مستخفية كائنة عن جنب او بعيدا منها وقرئ بفتحتين وبضم الجيم وسكون النون وقال ابو عمرو بن العلاء ان معنى عن جنب عن شوق قال وهي لغة جذام يقولون جنبت اليك اى اشتقت اليك (وهم لا يشعرون) انها اخته وانها تقصه وتتبع أثره أخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي امامة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لخديجة اما شعرت ان الله زوجني مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وامرأة فرعون قالت هنيأ لك يا رسول الله وأخرجه ابن عساكر عن

الشمس الصلاة فاحب أن يذكرهما وان يذكر بهما عباده وكذا قال الحسن والضحاك يسبح له فيها بالغدو والآصال يعني الصلاة
ومن قرأ من القراء يسبح له فيها بالغدو والآصال بفتح الباء من يسبح على انه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله والآصال وقفا تاما
وابتدأ بقوله رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وكأنه مفسر للفاعل المحذوف كما قال الشاعر

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه قال من يبكيه قال هذا يبكيه وكأنه قيل من يسبح له فيها قال رجال واما على قراءة من قرأ يسبح بكسر

الباء فجعله فعلا وفاعله رجال فلا يحسن الوقف الا على الفاعل لانه تمام الكلام فقوله تعالى رجال فيه اشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية واما النساء وصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثني عمرو عن أبي السمح عن السائب مولى ام سلمة عن ام سلمة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير مساجد النساء قعر بيوتهن وقال أحمد أيضا حدثنا هرون أخبرني عبد الله بن وهب حدثنا داود بن قيس عن عبد الله بن سويد الانصاري عن عمته ام حميد امرأة أبي حميد الساعدي انها جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني أحب الصلاة معك قال قد علمت انك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي قال فامرت فبني لها مسجد في اقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى لم يخرجوه هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط ان لا تؤذي أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما في الصحيح عن عبد الله بن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمنعوا اماء الله مساجد الله رواه

ابن مردويه مرفوعا باطول من هذا وفي آخره انها قالت بالرفاء والبنين (وحرمنا عليه المراضع) جمع مرضع وقيل جمع مرضع بفتح الضاد وهو الرضاع أو موضعه وهو الثدي أي منعناه أن يرضع من المرضعات جعله مجازا اما استعارة أو مرسلا لان من حرم عليه شئ فقد منعه لان الصبي ليس من أهل التكليف (من قبل) أي من قبل ان نرده الى امه أو من قبل ان تأتيه امه او من قبل قصها الاثر قال ابن عباس لا يؤتى بمرضع فيقبلها وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه فلم يرضع من واحدة منهن (فقالت) اخته لما رأت امتناعه من الرضاع وحنوهم عليه (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أي يضمنون لكم القيام به وارضاعه وهي امرأة قتل ولدها وأحب شئ اليها ان تجد ولدا ترضعه (وهم له ناصحون) اى مشفقون عليه لا يقصرون في ارضاعه وتربيته والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وفي الكلام حذف اى قال لها من هم فقالت أمي فقيل وهل لامك لبن قالت نعم لبن أخي هرون وكان ولد في السنة التي لا يقتل فيها فدلتهم على أم موسى فدفعوه اليها فقبل ثديها وارضعته قيل كانوا يعطونها كل يوم دينارا واباحوا لها ما تأخذه لانه مال حربي لا انه اجرة على ارضاع ولدها (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) بولدها (ولا تحزن) حينئذ على فراقه (ولتعلم ان وعد الله) اى جميع وعده ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله انا رادوه اليك (حق) لا خلف فيه واقع لا محالة (ولكن أكثرهم) اى اكثر آل فرعون (لا يعلمون) بذلك بل كانوا في غفلة عن القدر وسر القضاء او اكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون ان الله وعدها بان يرده اليها وهذه اخته وهذه امه (ولما بلغ أشده) اى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وانعم عند سيبويه وقد قال ربيعة ومالك هو الحلم لقوله تعالى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا الآية وأقصاه اربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثوري وغيرهما وقيل الاشد ما بين الثمانية عشر الى الثلاثين وقال ابن عباس ثلاث وثلاثين سنة وقد تقدم الكلام في بلوغ الاشد في الانعام (واستوى) أي اعتدل وتم استحكامه والاستواء من الثلاثين الى الاربعين فاذا زاد على الاربعين أخذ في النقصان قاله ابن عباس وقيل الاستواء هو بلوغ الاربعين ويروى انه لم يبعث نبي الا على رأس أربعين سنة وقيل الاستواء اشارة الى كمال الخلقة وقيل الاشد والاستواء بمعنى واحد وهو ضعيف لان العطف يشعر بالمغايرة (آتيناه حكما

البخارى ومسلم ولاحمد وابى داود يبوتهن خير لهن وفى رواية وليخرجن وهن تفلات أى لاريح لهن وقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا شهدت احداكن المسجد فلا تمس طيبا وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها انها قالت كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرجعن متلفعات بمروطهن مايعرفن من الغلس وفى الصحيحين عنها أيضا انها قالت لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بنى اسرائيل وقوله تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع الآية يقول تعالى لاتشغلهم الدنيا وزخارفها وزينتها وملاذ بيعها وربحه عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون ان الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم لان ماعندهم ينفد وما عند الله باق ولهذا قال تعالى لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة أى يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم قال هشيم عن سيار حدثت عن ابن مسعود انه رأى قوما من أهل السوق حيث نودى للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا الى الصلاة فقال عبدالله بن مسعود هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله الآية وهكذا روى عمرو بن دينار القهرمانى عن سالم عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما انه كان فى السوق فاقيمت الصلاة فاغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابى حدثنا محمد بن عبدالله بن بكر الصنعانى حدثنا أبو سعيد مولى أبى هاشم حدثنا عبدالله بن بجير حدثنا ابو عبد رب قال قال أبو الدرداء رضى الله عنه انى قمت على هذا الدرج أبايع عليه اربح كل يوم ثلاثمائة دينار أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد اما انى لا أقول ان ذلك ليس بحلال ولكنى أحب ان أكون من الذين قال الله فيهم رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقال عمرو بن دينار الاعور كنت مع سالم بن عبدالله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا الى الصلاة وخمروا

حكما وعلما) الحكم الحكمة على العموم وقيل النبوة وقيل الفقه فى الدين والعلم الفهم قاله السدى وقال مجاهد الفقه وقال ابن اسحق العلم بدينه ودين آبائه وقيل كان هذا قبل النبوة وقد تقدم بيان معنى ذلك فى البقرة (وكذلك) اى مثل ذلك الجزاء الذى جزينا ام موسى لما استسلمت لامر الله والقت ولدها فى البحر وصدقت بوعد الله (نجزى المحسنين) على احسانهم والمراد العموم (ودخل المدينة) اى دخل موسى مدينة مصر الكبرى وقيل مدينة غيرها من مدائن مصر وهى منف من اعمال مصر وقيل ام خنان او حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين شمس (على حين غفلة من اهلها) اى مستخفيا قيل لما عرف موسى ماهو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه فاخافوه فخافهم فكان لايدخل المدينة الا مستخفيا قيل كان دخوله بين العشاء والعتمة قاله ابن عباس وقيل وقت القائلة اى نصف النهار قاله ابن عباس ايضا وقيل يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم قال الضحاك طلب ان يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يختصمان ويتنازعان (هذا من شيعته) أى ممن شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل أى اسرائيلى وقيل هو السامرى (وهذا من عدوه) أى من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون أى قبطى وهو طباخ فرعون واسمه فاتون أو فليثون وكان كافرا اتفاقا وأما الاسرائيلى فقيل كان مؤمنا وقيل كان كافرا (فاستغاثه الذى من شيعته) أى طلب منه الاسرائيلى ان ينصره ويعينه على خصمه والاستغاثة طلب الغوث (على الذى من عدوه) أى القبطى فاغاثه لان نصر المظلوم واجب فى جميع الملل قيل أراد القبطى ان يسخر الاسرائيلى ليحمل حطبا للمطبخ فرعون فابى عليه واستغاث موسى (فوكزه موسى) الوكز الضرب والدفع بجميع الكف وهكذا اللكز واللهز وقيل اللكز على اللحى والوكز على القلب وقيل اللكز باطراف الاصابع والوكز بجميع الكف وقيل بالعكس والنكز كاللكز وقيل ضربه بعصاه وقرأ ابن مسعود فلكزه وحكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان فنكزه بالنون قال الاصمعى نكزه بالنون ضربه ودفعه قال الجوهرى اللكز الضرب على الصدر وقال أبو زيد فى جميع الجسد يعنى انه يقال له لكز واللهز الضرب بجميع اليدين فى الصدر ومثله عن أبى عبيدة (فقضى عليه) الضمير

متاعهم فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد فتلا سالم هذه الآية رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم قال هم هؤلاء وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها وقال مطر الوراق كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله يقول عن الصلاة المكتوبة وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس وقال السدي عن الصلاة في جماعة وقال مقاتل بن حيان لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها وقوله تعالى يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال كقوله وأنذرهم يوم الآزفة الآية وقوله إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار وقال تعالى ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا وقوله تعالى ههنا ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله ويزيدهم من فضله أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى إن الله لا يظلم مثقال ذرة الآية وقال تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها الآية وقال من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا الآية وقال والله يضاعف لمن يشاء وقال ههنا والله يرزق من يشاء بغير حساب وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدا واحدا فكلهم لم يشربه لأنه كان صائما فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطرا ثم تلا قوله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار رواه النسائي وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم

المروع لله أو للوكز أو لموسى وهو الظاهر أي قتله وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد قضيت عليه قيل لم يقصد موسى قتل القبطي وإنما قصد دفعه فأتى ذلك على نفسه خطأ فندم ودفنه في الرمل والوكزة لا تقتل غالبا وإنما وافقت أجله وانتهى (قال هذا من عمل الشيطان) وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار وقيل إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأمونا عندهم فلم يكن له أن يغتالهم فكبر ذلك على موسى وقيل إن الإشارة بقوله هذا إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده الله وقيل إنه إشارة إلى المقتول نفسه يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ثم وصف الشيطان بقوله (إنه عدو مضل مبين) أي عدو للإنسان يسعى في إضلاله ظاهر العداوة والإضلال ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه (قال رب إني ظلمت نفسي) بقتل القبطي من غير أمر (فاغفر لي فغفر) الله (له) ذلك وعلم أنه غفر له بإلهام أو نحوه ولا يلزم من هذا نبوته في هذا الوقت (إنه هو الغفور) بإزالة الزلل (الرحيم) بإزالة الخلل المتصف بهما في الأبد والأزل ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر وقيل إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين أو أراد إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به وقيل معنى فاغفر لي استر ذلك علي لا يطلع عليه فرعون وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك خائفا من العقوبة بسببه حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح وقد قيل إن هذا كان قبل النبوة وقيل كان قبل بلوغه سن التكليف وإنه كان إذ ذاك في اثني عشر سنة وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون عن الكبائر والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة لأن الوكزة في الغالب لا تقتل وقيل بل كان من قبيل دفع الصائل وهو لا إثم فيه وأشار له القرطبي بقوله وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها وفرض في جميع الشرائع وقيل هو على سبيل الانقطاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ثم لما أجاب الله سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته (قال رب بما أنعمت علي) الباء للقسم وما موصولة أو مصدرية أي أقسم

يحاسب سائر الخلائق وروى الطبراني من حديث بقية عن اسمعيل بن عبد الله الكندي عن الاعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله قال اجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) هذان مثلان

ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين ناريا ومائيا وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيا وناريا وقد تكلمت على كل منهما في موضعه بما اغنى عن اعادته ولله الحمد والمنة فأما الاول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة الى كفرهم الذين يحسبون انهم على شئ من الاعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الامر على شئ فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الارض عن بعد كأنه بحر طام والقيعة جمع قاع كجار وجيرة والقاع أيضا واحدة القيعان كما يقال جار وجيران وهي الارض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب وانما يكون ذلك بعد نصف النهار وأما الال فانما يكون أول النهار ويرى كأنه ماء بين السماء والارض فاذا رأى السراب من هو محتاج الى الماء قصده يحسبه ماء للشرب منه فلما انتهى اليه لم يجده شيأ فكذلك الكافر يحسب انه قد عمل عملا وانه قد حصل شيأ فاذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيأ بالكلية قد قبل اما لعدم الاخلاص او لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال ههنا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد وفي الصحيحين انه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد عزيرا ابن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون فيقولون يارب عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فينطلقون فيتهافتون فيها وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الاغشام المقلدون لأئمة الكفر

بانعامك علي بالمغفرة لاتوبن قاله الزمخشري والمهدوي والماوردي وقيل المراد بما أنعم به عليه هو ما آتاه من الحكم والمعرفة والعلم والتوحيد قاله القرطبي وقال الثعلبي أي بالمغفرة فلم تعاقبني وجملة (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما انعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما ويجوز أن تكون الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف أي اعصمني بسبب ما أنعمت به علي ويكون قوله فلن أكون ظهيرا مترتبا عليه ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى وتوصل الى انعامه بانعامه وأراد بمظاهرة المجرمين اما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الامر أو مظاهرته على ما فيه اثم أو تكثير سواده قال الكسائي والفراء ليس قوله هذا خبرا بل هو دعاء أي فلا تجعلني يارب ظهيرا لهم وبها قرأ عبد الله وقال الفراء المعنى اللهم فلن أكون الخ وقال النحاس ان جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام وفيه دليل على ان الاسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرا وقيل أراد اني وان أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين فعلى هذا كان الاسرائيلي مؤمنا ونصرة المؤمنين واجبة في جميع الاديان وقيل لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني أي لم يقل فلن أكون ان شاء الله ظهيرا للمجرمين كما قال الله تعالى (فأصبح في المدينة) أي دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي (خائفا يترقب) المكروه أو متى يؤخذ به أو يترقب الفرج أو الخبر هل وصل الى فرعون أم لا قال النسفي وفيه دليل على انه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس انه لا يسوغ الخوف من دون الله سبحانه زاد القرطبي وان الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه (فاذا الذي استنصره) اذا هي الفجائية أي فاذا صاحبه الاسرائيلي الذي استغاثه (بالامس) يقاتل قبطيا آخر أراد ان يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالامس (يستصرخه) أي يستغيث به والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ وذلك ان المستغيث يصوت ويصرخ في طلب الغوث (قال له) أي للاسرائيلي (موسى) واليه ذهب الخازن والمحلي أو للقبطي واليه ذهب القرطبي (انك لغوي مبين) أي بين الغواية وذلك انك تقاتل من لا تقدر على مقاومته ولا تطيقه وقيل انما قال له هذه المقالة لانه تسبب بالامس لقتل رجل ويريد اليوم ان يتسبب لقتل آخر (فلما ان أراد) موسى (أن يبطش بالذي) أي بالقبطي الذي (هو عدو لهما) أي لموسى وللاسرائيلي

الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى أو كظلمات في بحر لجي قال قتادة لجي هو العميق يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب قال معهم قيل فإلى أين يذهبون قال لا أدري وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما يغشاه موج الآية يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر وهي كقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم الآية وكقوله أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة الآية وقال أبي بن كعب في قوله تعالى ظلمات بعضها فوق بعض فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضا وقوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كقوله من يضلل الله فلا هادي له وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين يهدي الله لنوره من يشاء فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورا وعن أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير) يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن الآية

وقوله تعالى والطير صافات أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه أي كل قد أرشده إلى طريقه ومسلكه في عبادة الله عز وجل ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ولهذا قال تعالى والله عليم بما يفعلون ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه وإلى الله المصير أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ليجزي الذين

(١٤)

حيث لم يتكل على دينهما (قال) الإسرائيلي (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس) قال ذلك لما سمع موسى يقول له إنك لغوي مبين ورآه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي هكذا قال جمهور المفسرين وقيل إن القائل هو القبطي وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي وهذا هو الظاهر وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل لأنه هو المراد بقوله عدو لهما ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم منه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى والمرة الأخرى هو الذي أفشى عليه وأيضا أن قوله (إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض) لا يليق صدور مثله إلا من كافر وإن هي النافية أي ما تريد قال الزجاج الجبار في اللغة الذي يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله والقاتل بغير حق جبار وقيل الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقال عكرمة لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين وهو بعيد ولا دلالة في الآية على ذلك والراجح هو الأول الموافق للغة (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) قيل المراد بهذا الرجل حزقيل وهو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم موسى وقيل اسمه شمعون وقيل طالوت وقيل سمعان والمراد بأقصى المدينة آخرها وأبعدها والمعنى يسرع في مشيه وأخذ طريقا قريبا حتى سبق إلى موسى وأخبره وأنذره بما سمع (قال يا موسى إن الملأ) أي أشراف قوم فرعون (يأتمرون بك ليقتلوك) أي يتشاورون في قتلك ويأمرون بذلك وأصل التشاور الائتمار لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به قال الزجاج يأمر بعضهم بعضا بقتلك وهذا أقرب باللفظ والمعنى قاله النحاس وقال أبو عبيدة يتشاورون فيك قال الأزهري ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضا ونظيره قوله تعالى وائتمروا بينكم بمعروف (فاخرج) من المدينة (إني لك من الناصحين) في الأمر بالخروج واللام للبيان لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه (فخرج) موسى (منها) أي من المدينة (خائفا يترقب) أي حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به وإدراكهم له أو راجيا غوث الله إياه ولان للمفسرين وعن ابن عباس قال خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثماني ليال لم يكن له

طعام

أسا واعملوا الا آية فهو الخالق المالك الآله الحكم في الدنيا والاخرى وله الحمد في الاولى والآخرة (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار) يذكر تعالى انه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الازجاء ثم يؤلف بينه أي يجمعه بعد تفرقه ثم يجعله ركاما أي متراكما أي يركب بعضه بعضا فترى الودق أي المطر يخرج من خلاله أي من خلله وكذا قرأها ابن عباس والضحاك قال عبيد بن عمير الليثي يبعث الله

المثيرة فتقم الارض قما ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله وقوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد قال بعض النحاة من الاولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا انما يجيء على قول من ذهب من المفسرين الى ان قوله من جبال فيها من برد معناه ان في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فان من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا لكنها بدل من الاولى والله أعلم وقوله تعالى فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يحتمل بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله فيصيب به من يشاء رحمة بهم ويصرفه عمن يشاء أي يؤخر عنهم الغيث ويحتمل ان يكون المراد بقوله فيصيب به أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم واتلاف زروعهم وأشجارهم

طعام الاوراق الشجر وخرج حافيا فما وصل اليها حتى وقع خف قدمه وعنه قال خرج موسى خائفا جائعا ليس معه زاد حتى انتهى الى ماء مدين وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى ثم دعا ربه بان ينجيه عن خافه و (قال رب نجني من القوم الظالمين) قوم فرعون أي خلصني منهم وادفعهم عني وحل بيني وبينهم واحفظني من لحوقهم (ولما توجه) أي قصد بوجهه (تلقاء مدين) أي نحوها وجهتها قاصدا لها ماضيا اليها قال الزجاج أي سلك في الطريق التي تلقاء مدين فيها انتهى والتوجه الاقبال على الشيء ومدين قرية شعيب يقال داره تلقاء دار فلان وأصله من اللقاء ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ولهذا خرج اليها ولكن لم يكن يعرف طريقها (قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) أي يرشدني نحو الطريق المستوية الى مدين وهو من اضافة الصفة للموصوف وكان لها ثلاث طرق فاخذ موسى الوسطى وجاء الطلاب في أثره فساروا في الاخريين ذكره أبو السعود (ولما ورد ماء مدين) أي وصل اليه وهو الماء الذي يستقون منه والمراد بالماء هنا بئر فيها صرح به الخازن والمحلي فهو من باب ذكر الحال وارادة المحل ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد وقد يطلق على البلوغ اليه وان لم يدخل فيه وهو المراد هنا وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله وان منكم الا واردها وقيل مدين اسم للقبيلة لا للقرية وهي غير منصرفة على كلا التقديرين (وجد عليه أمة) أي وجد على الماء جماعة كثيرة لان التنكير للتكثير (من الناس) أي من أناس مختلفين (يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) أي من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها وقيل معناه في موضع أسفل منهم قاله أبو السعود وفي الخازن في موضع بعيد منهم (امرأتين تذودان) أي تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ويخلوا بينهما وبين الماء ويه قال ابن عباس وورد الذود بمعنى الطرد أي تطردان وقيل تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس وقيل تمنعان اغنامهما عن ان تند وتذهب والاول أولى لقوله (قال) موسى للمرأتين (ما خطبكما) أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس والخطب الشأن قيل وانما يقال ما خطبك لمصاب أو لمضطهد (١) أو لمن يأتي بمنكر (قالتا) عادتنا التأني (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم أو عجزا عن السقي معهم قرئ نسقي بفتح النون وبضمها من أسقى وقرئ يصدر من أصدر ومن صدر

ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم وقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الابصار اذا اتبعته وتراءته وقوله تعالى يقلب الله الليل والنهار أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرا ويقصر الذي كان طويلا والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار أي لدليلا على عظمته تعالى كما قال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب وما بعدها من الآيات الكريمات (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي

(١) المضطهد المقهور المضطر اه صحاح اه

على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات ولهذا قال يخلق الله ما يشاء أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال إن الله على كل شيء قدير (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى ولهذا قال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولاً بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ولهذا قال تعالى وما أولئك بالمؤمنين وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء عن أبي ميمونة عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له وقوله تعالى وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم الآية أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إلى قوله رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً وقوله تعالى وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله مذعنين وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم

يصدر الرعاء أي يرجعون بمواشيهم والرعاء جمع راع على غير قياس لأن فاعلاً الوصف المعتل اللام كقاض قياسه فعلة نحو قضاة ورماة خلافاً للزمخشري في أن جمعه على فعال قياس كصيام وقيام قاله الكرخي قرأ الجمهور الرعاء بكسر الراء وقرئ بضمها قال أبو الفضل هو مصدر أقيم مقام الصفة فلذلك استوى فيه الواحد والجمع وقرئ الرعاء بالضم اسم جمع (وأبونا شيخ كبير) عالي السن وهذا من تمام كلامهما أبدتاه عذراً لهما في مباشرة السقي بأنفسهما أي لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال وعلى أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك قيل أبوهما هو شعيب وقيل هو يثرون ابن أخي شعيب وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب والأول أولى وإنما رضي شعيب لابنتيه بسقي الماشية لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة الضرورة فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما (فسقى لهما) أي سقى أغنامهما لأجلهما رغبة في المعروف وإعانة للملهوف قال المحلي سقى من بئر أخرى لقربها رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس انتهى (ثم) لما فرغ من السقي لهما (تولى إلى الظل) أي انصرف إليه فجلس فيه من شدة الحر وهو جائع قيل كان هذا الظل ظل سمرة هنالك وهي شجرة من شجر الطلح وفيه دليل على جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة (فقال) أي ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب منادياً لربه (رب إني لما أنزلت إلي من خير) أي خير كان (فقير) أي محتاج إلى ذلك واللام بمعنى إلى قال الأخفش يقال هو فقير له وإليه قال ابن عباس لقد قال موسى رب الخ وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع وعنه قال ما سأل إلا الطعام وعنه قال سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع ويحتمل أن يريد إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال ذلك رضاً بالبدل السني وفرحاً بالعوض الهني وشكراً لله العلي وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الأنوار (فجاءته إحداهما) في الكلام حذف يدل عليه السياق قال الزجاج تقديره فذهبتا إلى

أبيهما

ليروج باطله ثم فاذعانه أولا لم يكن عن اعتقاد منه ان ذلك هو الحق بل لانه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه الى غيره ولهذا قال تعالى أفى قلوبهم مرض الآية يعنى لا يخرج أمرهم عن ان يكون فى القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك فى الدين أو يخافون ان يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم وأيا ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات وقوله تعالى بل أولئك هم الظالمون أى بل هم الظالمون الفاجرون والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك قال ابن أبى حاتم حدثنا

أبى حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال كان الرجل اذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى الى النبى صلى الله عليه وسلم علم انه سيقضى له بالحق واذا أراد ان يظلم فدعى الى النبى صلى الله عليه وسلم أعرض وقال أنطلق الى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم من كان بينه وبين أخيه شئ فدعى الى حكم من أحكام المسلمين فأبى ان يجيب فهو ظالم لا حق له وهذا حديث غريب وهو مرسل ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال تعالى انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا أى سمعا وطاعة ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى وأولئك هم المفلحون وقال قتادة فى هذه الآية ان يقولوا سمعنا وأطعنا ذكر لنا ان عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدريا أحد نقباء الانصار انه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك قال بلى قال فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك وعليك ان تقيم لسانك بالعدل وان لا تنازع الامر أهله الا ان يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شئ يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله وقال قتادة ذكر لنا ان أبا الدرداء قال لا اسلام الا بطاعة الله ولا خير الا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة قال وذكر لنا ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول عروة الاسلام شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين رواه ابن أبى حاتم والاحاديث والآثار

أبيهما اسر بعتين وكانت عادتهما الابطاء فى السقى فحدثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما فامر الكبرى من بنتيه وهى صفورا وقيل صفراء وقيل أمر الصغرى وهى ليا وقيل صفيراء ان تدعوه له فجاءته وذهب أكثر المفسرين الى أنهما ابنتا شعيب وقيل هما ابنتا أخى شعيب وان شعيبا كان قد مات والاول أرجح وهو ظاهر القرآن (تمشى) كائنة (على استحياء) حالتى المشى والمجىء لا عند المجىء فقط وهذا دليل كمال ايمانها وشرف عنصرها لانها كانت تدعوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا فأتته مستحيية قال عمر بن الخطاب جاءت مستترة بكم درعها على وجهها من الحياء والحياء والاستحياء بالمد الحشمة والانقباض والانزواء ويتعدى بنفسه وبالحرف يقال استحييته واستحييت منه (قالت ان أبى يدعوك) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذا قالت له لما جاءته فقيل قالت الخ (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى جزاء سقيك لنا فاجابها منكرا فى نفسه أخذ الاجرة وقيل اجاب لوجه الله أو للتبرك برؤية الشيخ لما سمع منهما ان أباهما شيخ كبير (فلما جاءه) أى جاء موسى شعيبا عن أبى حازم قال لما دخل موسى على شعيب اذا هو بالعشاء فقال له شعيب كل قال موسى أعوذ بالله قال ولم ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا عما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيأ من عمل الآخرة بملء الارض ذهبا قال لا والله ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل (وقص عليه القصص) مصدر يسمى به المفعول أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطى الى عند وصوله الى ماء مدين وعن مالك بن أنس انه بلغه ان شعيبا هو الذى قص عليه القصص (قال) شعيب (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى فرعون وأصحابه لان فرعون لا سلطان له على مدين وفيه دليل على جواز العمل بخبر الواحد ولو عبدا أو انثى وعلى المشى مع الاجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وللرازى فى هذا الموضع اشكالات باردة جدا لا تستحق ان تذكر فى تفسير كلام الله عز وجل والجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل وأشف ما جاء به ان موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى ويجاب عنه بانه اتبع سنة الله فى اجابة دعوة نبى من أنبياء الله ولم تكن تلك الاجابة لاجل اخذ الاجر على هذا العمل ولهذا ورد انه لما قدم اليه الطعام قال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الارض ذهبا كما مر وفى الكشاف ان

في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله والخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان وقوله ومن يطع الله ورسوله قال قتادة فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وقوله فأولئك هم الفائزون يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه

تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن قال الله تعالى قل لا تقسموا أي لا تحلفوا وقوله طاعة معروفة قيل معناه طاعتكم طاعة معروفة أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه وكلما حلفتم كذبتم كما قال تعالى يحلفون لكم لترضوا عنهم الآية وقال تعالى اتخذوا أيمانهم جنة الآية فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه كما قال تعالى ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون وقيل المعنى في قوله طاعة معروفة أي ليكن أمركم طاعة معروفة أي بالمعروف من غير حلف ولا إقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أمثالهم إن الله خبير بما تعملون أي هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها ثم قال تعالى قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وقوله تعالى فإن تولوا أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به فإنما عليه ما حمل أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة وعليكم ما حملتم أي من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه وإن تطيعوه تهتدوا وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض الآية وقوله تعالى وما على الرسول إلا البلاغ المبين كقوله تعالى فإنما عليك

طلب الأجرة لشدة الفاقة غير منكر ويشهد لصحته لو شئت لاتخذت عليه أجرا (قالت إحداهما) وهي التي جاءته (يا أبت استأجره) ليرعى لنا الغنم وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم (إن خير من استأجرت القوي الأمين) تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى أي إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتي القوة والأمانة ولم يقل تستأجر مع أنه الظاهر لأنه جعل لتحققه وتجربته منزلة ما مضى وعرف قبل وقد روي عن ابن عباس وعمر أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته أما قوته فرفعه الحجر الذي لا يطيقه إلا عشرة رجال وأما أمانته فقال امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك فزاده ذلك رغبة فيه وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر في أمر عمر (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) الكبرى أو الصغرى وفيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل وهذه سنة ثابتة في الإسلام كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان والقصة معروفة وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة وأيام النبوة وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل زوجه الكبرى وقال الأكثرون إنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورا وهي التي ذهبت في طلب موسى وهاتين يدل على أنه كان له غيرهما وقد قال البقاعي إن له سبع بنات كما في التوراة وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقدا لقال قد أنكحتك (على أن تأجرني ثماني حجج) جمع حجة وهي السنة قال الفراء يقول على أن تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثماني سنين قال المبرد يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود وممدودا والأول أكثر والتزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة (فإن أتممت) ما استأجرتك عليه من الرعي (عشرا) من السنين (فمن عندك) أي تفضلا منك وتبرعا لا إلزاما مني لك وليس بواجب عليك جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام موكولا إلى المروءة أي فهي من عندك والظاهر أنه استدعاء عقد بالأجل الأول نظرا إلى شرعنا ويمكن كونه عقدا صحيحا عندهم قاله الكرخي (وما أريد أن أشق عليك) بإلزامك إتمام العشرة

الاعوام

البلاغ وعلينا الحساب وقوله فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر قال وهب بن منبه أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل يقال له شعياء أن قم في بني اسرائيل فاني سأطلق لسانك بوحي فقام فقال يا سماء اسمعي ويا أرض انصتي فان الله يريد ان يقضي شأنا ويدبر أمرا هو منفذه انه يريد ان يحول الريف الى الفلاة والآجام في الغيطان والانهار في الصحاري والنعمة في الفقراء والملك في الرعاة ويريد ان يبعث أميا من الاميين ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه (١) أبعثه بشيرا ونذيرا لا يقول الخنا يفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا واسدده بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة منطقه والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والحق شريعته والعدل سيرته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به من الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأعرف به النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة وأهواء متشتتة واستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل رواه ابن أبي حاتم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بانه سيجعل أمته خلفاء الارض أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس امنا وحكما فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة فانه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له

الاعوام ولا بالمناقشة في مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال واشتقاق المشقة من الشق اي شق ظنه نصفين فتارة يقول اطيق وتارة يقول لا اطيق ثم رغبه في قبول الاجارة فقال (ستجدني ان شاء الله من الصالحين) في حسن الصحبة ولطف المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد وقيل أراد الصلاح على العموم فيدخل صلاح المعاملة في تلك الاجارة تحت الآية دخولا أوليا وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للامر الى توفيق الله ومعونته والتبرك به لا لتعليق صلاحه بمشيئته تعالى ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى و (قال ذلك بيني وبينك) والاشارة الى ما تعاقدا عليه (أيما الاجلين قضيت) شرطية وجوابها (فلا عدوان علي) والمراد بالاجلين الثمانية الاعوام والعشرة الاعوام ومعنى قضيت وفيت به وأتممته وفرغت منه والاجلين مخفوض باضافة أي اليه وما زائدة أو ما مخفوضة باضافة أي اليها والاجلين بدل منها وقرأ ابن مسعود أي الاجلين ما قضيت والمعنى لا ظلم علي بطلب الزيادة على ما قضيته من الاجلين اى كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الاعوام لا أطالب بالنقصان عن العشرة وقيل المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الاعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الاعوام وهذا أظهر واصل العدوان تجاوز الحد في غير ما يجب قال المبرد وقد علم موسى انه لا عدوان عليه في أتمهما ولكنه جمعهما ليجعل الاقل كالاتم في الوفاء وقرئ عدوان بضم العين وبكسرها (والله على ما نقول) من هذه الشروط الجارية بيننا (وكيل) اى شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحدنا الى الخروج عن شيء من ذلك قيل هو من قول موسى وقيل من قول شعيب والاول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى وتم العقد بذلك ولعل هذا كان في شرعهما والا فهذه الصيغة لا تكفي عندنا في عقد النكاح لان الواقع من شعيب وعد بالانكاح والواقع من موسى ليس فيه مادة التزويج ولا الانكاح وايضا الصداق ليس راجعا للمنكوحة بل لابيها هذا ما جرى عليه المحلي وقال غيره انهما عقدا عقدا بغير الصورة المذكورة هنا منهما قال ابو السعود ليس ما حكى عنهما في الآية تمام ما جرى بينهما من الكلام في انشاء عقد النكاح وعقد الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلا واخرج الطبراني وغيره عن عتبة السلمي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ سورة طسم حتى اذا بلغ قصة موسى

---

(١) قوله ابعثه الخ كذا بالنسخ وحرر اهـ

ما عنده من الكرامة قام بالامر بعده خليفته أبو بكر الصديق ولمّ شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الاسلام الى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الامراء الى أرض الشام وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه الى بلاد مصر ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من

الكرامة ومنّ على أهل الاسلام بان ألهم الصديق ان استخلف عمر الفاروق فقام بالامر بعده قياما تاما لم

يدر الفلك بعد الانبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر الى آخرها وأكثر اقليم فارس وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر الى أقصى مملكته وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر الى القسطنطينية وأنفق أموالها في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الاسلامية الى أقصى مشارق الارض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب الى أقصى ما هنالك الاندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق الى أقصى بلاد الصين وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية وفتحت مدائن العراق وخراسان والاهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا وخذل الله ملكهم الاعظم خاقان وجبي الخراج من المشارق والمغارب الى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك ببركة تلاوته

ودراسته وجمعه الامة على حفظ القرآن ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الايمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا قال الامام مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عني فسألت أبي ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ان موسى آجر نفسه على ثمان سنين أو عشر اعلى عفة فرجه وطعام بطنه فلما وفى الاجل قيل يا رسول الله أي الاجلين قضى موسى قال أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه الحديث بطوله وفيه مسلمة الدمشقي ضعفه الائمة (فلما قضى موسى الاجل) الذي هو أكملهما وأوفاهما وهو العشرة الاعوام والفاء فصيحة عن ابن عباس انه سئل أي الاجلين قضى موسى قال أكثرهما وأطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل وصححه الحاكم أقول في قوله اذا قال رسول الله فعل نظر فان موسى لم يقل انه سيقضي أكثر الاجلين بل قال أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان موسى قضى اتم الاجلين من طرق اخرج الخطيب في تاريخه عن ابي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا سئلت اي الاجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وان سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الاجلين قضى موسى فقل أوفاهما وان سألوك أيهما تزوج فقل الصغرى منهما فروايات انه قضى أتم الاجلين لها طرق يقوي بعضها بعضا (و) لما أتم الاجل ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة (سار بأهله) زوجته بإذن أبيها الى مصر ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه وقيل سار بأصله زوجته وزيارة أمه وأخيه وهذا أولى وفيه دليل على ان الرجل يذهب بأهله حيث شاء (آنس من جانب الطور) اي ابصر من الجهة التي تلي الطور (نارا) وذلك انه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق وقد قدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى قال ابن عباس لما قضى موسى الاجل سار بأهله فضل الطريق وكان في الشتاء فرفعت له نار فلما رآها ظن انها نار وكانت من نور الله (قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) اي لعلي اجد من يدلني على الطريق فان لم اجد خبرا آتيكم بشهاب قبس وهو المراد بقوله (أو جذوة من النار) وهذا تقدم تفسيره ايضا في سورة طه وفي سورة النمل وقرئ جذوة بكسر الجيم وضمها وفتحها وهي لغات في العود الذي في رأسه نار هذا هو المشهور وقيده بعضهم فقال نار من غير لهب وقد ورد ما يقتضي وجود اللهب فيه قال الجوهري الجذوة والجذوة والجذوة الجمرة والجمع

فقال قال كلهم من قريش ورواه البخاري من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به وفي رواية لمسلم انه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك وذكر معه أحاديث أخر وفي هذا الحديث دلالة على انه لابد من وجود اثني عشر خليفة عادل وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فان كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الامر شيء فاما هؤلاء فانهم يكونون من قريش يلون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ثم لا يشترط ان يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الامة متتابعا ومتفرقا وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم ما شاء الله ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنيته كنيته يملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد بن صهمان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا الآية قال كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون الى الله وحده والى عبادته وحده لا شريك له سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد بالهجرة الى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فغبروا بذلك ما شاء الله ثم ان رجلا من أصحابه قال يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تصبروا الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنزل الله تعالى هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ثم ان الله تعالى قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين في امارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم وقال بعض السلف خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله ثم تلا هذه الآية وقال

جذى وجذى قال مجاهد ان الجذوة قطعة من الجمر في لغة العرب وقال أبو عبيدة هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها نارا ولم تكن وليس المراد هنا الا ما في رأسه نار قاله السمين (لعلكم تصطلون) من البرد أي تستدفئون بالنار (فلما أتاها) أي النار التي ابصرها وقيل الى الشجرة والاول أولى لعدم الذكر للشجرة (نودي من) لابتداء الغاية (شاطئ الواد الايمن) صفة للشاطئ أو للوادي وهو من اليمن وهو البركة أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة الى موسى أي الذي يلي يمينه دون يساره وشاطئ الوادي طرفه وحافته وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى قال الراغب وجمع الشاطئ اشطاء قال ابن عباس كان النداء من السماء الدنيا وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله تعالى عنه (في البقعة) متعلق بنودي أو بمحذوف على انه حال من الشاطئ (المباركة) بتكليم الله تعالى فيها (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ الوادي لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ وقال الجوهري شاطئ الاودية ولا يجمع قرأ الجمهور البقعة بضم الباء وقرئ بفتحها وهي لغة حكاها ابو زيد عن ابن مسعود قال ذكرت لي الشجرة التي أوى اليها موسى فسرت اليها يومي وليلتي حتى صبحتها فاذا هي سمرة خضراء ترف فصليت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت فأهوى اليها بعيري وهو جائع فاخذ منها ملأ فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه فصليت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت ثم انصرفت أخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وقيل الشجرة العناب أو العوسج وقيل كانت من العليق (ان يا موسى اني أنا الله رب العالمين) ان هي المفسرة أو هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة النداء مفسرة له والاول أولى وقرئ اني بكسر الهمزة على اضمار القول أو على تضمين النداء معناه والفتح قراءة ضعيفة قال جعفر أبصر نارا دلته على الانوار لانه رأى النور في هيئة النار فلما دنا منها شملته انوار القدس وأحاطت به جلابيب الانس فخوطب بالطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلما شريفا أعطي ما سأل وأمن مما خاف قيل ان موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم انه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة الا الله فعلم بذلك ان المتكلم هو الله تعالى وقيل ان الله خلق في نفس موسى علما ضروريا بان المتكلم هو الله وان ذلك الكلام كلام الله وذهب جماعة من المتكلمين منهم الغزالي الى انه سمع كلامه الازلي

بعد ... هذه الآية وهو ... قوله تعالى واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون وقوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض الآية وقال تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض الآيتين وقوله وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم الآية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم حين وفد عليه أتعرف الحيرة قال لم أعرفها ولكن قد سمعت بها قال (١١٢) فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة

حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز قلت كسرى بن هرمز قال نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد قال عدي فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن أبي سلمة عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب وقوله تعالى يعبدونني لا يشركون بي شيئا قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال يا معاذ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك لا يارتها
يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله أعلم قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا قال ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة وقوله تعالى ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون أي من خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما فالصحابة رضي الله عنهم

النفسي لا صوت ولا حرف ولا دليل عليه وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره وقال في سورة طه إني أنا ربك وقال في النمل نودي أن بورك من في النار ومن حولها وهذا بحسب الماصدق حيث اللفظ إلا أن الجميع متوافق في المقصود وهو فتح باب الاستدلال وسوق الكلام على وجه يؤدي إليه قال الإمام لا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء اهـ (وأن ألق عصاك) وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في طه والنمل وفي الكلام حذف أي فألقاها فصارت ثعبانا (فلما رآها تهتز) أي تتحرك (كأنها جان) في سرعة حركتها مع عظم جسمها (ولى مدبرا) أي هاربا منها (ولم يعقب) أي لم يرجع فنودي (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) من أن ينالك مكروه من الحية وقد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا في سورتين قبله وكذلك قوله (اسلك يدك في جيبك) والسلك بالفتح والسلوك كل منهما مصدر لسلك الشيء في الشيء أنفذه فيه فإنه من باب قعد ونصر (تخرج بيضاء من غير سوء) فأدخلها فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس من غير برص (واضمم إليك جناحك) جناح الإنسان عضده ويقال لليد كلها جناح أي اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقي بهما الحية كالخائف الفزع وقد عبر عن هذا المعنى ثلاث عبارات الأولى اسلك يدك في جيبك والثانية واضمم إليك جناحك والثالثة وأدخل يدك في جيبك قال الزمخشري جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه فالمراد بالجناح المضموم اليد اليمنى وبالجناح المضموم إليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا وقيل كل خائف بعد موسى إذا وضع يده على صدره زال خوفه قال الفراء أراد بالجناح عصاه (من الرهب) أي من أجل الخوف قرئ بفتح الراء والهاء وبإسكان الهاء وبضم الراء وإسكان الهاء وقال بعض أهل المعاني الرهب الكم بلغة حمير وبني حنيفة وقال الأصمعي سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطني ما في رهبك فسألته عن الرهب فقال الكم فعلى هذا يكون معناها اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم (فذانك) إشارة إلى العصا واليد وقرئ بتخفيف النون قيل والتشديد لغة قريش وقرئ بياء تحتية بعد نون مكسورة وهي لغة هذيل وقيل لغة تميم (برهانان) أي حجتان نيرتان ودليلان واضحان وآيتان بينتان وسميت الحجة برهانا

لإنارتهما من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة (من ربك) أي كائنان منه تعالى مرسلان أو واصلان (إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) متجاوزين الحد في الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج والجملة تعليل لما قبلها ولما سمع موسى قول الله سبحانه هذا طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه و(قال رب إني قتلت منهم نفسا) يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه (فأخاف أن يقتلون) بها (وأخي هرون هو أفصح مني لسانا) أي كلاما لأنه كان في لسان موسى حبسة من وضع الجمر في فيه كما تقدم بيانه والفصاحة لغة الخلوص يقال فصح اللبن وأفصح فهو فصيح أي خلص من الرغوة ومنه فصح الرجل جادت لغته وأفصح تكلم بالعربية وقيل الفصيح الذي ينطق والأعجم الذي لا ينطق وأما في اصطلاح أهل البيان ففصاحة الكلمة خلوصها عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس وفصاحة الكلام خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد (فأرسله معي ردأ) النصب على الحال أي عونا والردء المعين من أردأته إذا أعنته يقال فلان ردء فلان إذا كان ينصره ويشد ظهره وقيل من قولهم أردى على المائة إذا زاد عليها فكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديق (يصدقني) بالرفع على الاستئناف وبالجزم على جواب الأمر وقرأ أبي يصدقوني أي فرعون وملؤه وقال ابن عباس كي يصدقني أي هرون ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبه وتلخيص الدلائل بلسانه والجواب عن شبهات الكفار بيانه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت ألا ترى إلى قوله هو أفصح مني وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان وهذا هو الجاري مجرى التصديق كما يصدق القول بالبرهان (إني أخاف أن يكذبون) إذا لم يكن معي هرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة (قال سنشد عضدك بأخيك) هرون وكان إذ ذاك بمصر أي نقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ولذلك يعبر عنه باليد وعن شدتها بشدة العضد فهو مجاز مرسل على طريق إطلاق السبب وإرادة المسبب بمرتبتين فإن شدة العضد سبب مستلزم لشدة اليد وشدة اليد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية قال الشهاب الشد التقوية فهو إما كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشتد بشد العضد والجملة تشتد بشد اليد ولا مانع من الحقيقة كما توهم أو استعارة تمثيلية شبه حال موسى في تقويه بأخيه

لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله وكان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا في سائر العباد والبلاد ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وفي رواية حتى يقاتلون الدجال وفي رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول صلى الله عليه وسلم أي سالكين وراءه فيما به أمرهم وترك ما عنه زجرهم لعل الله يرحمهم بذلك ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمه كما قال تعالى في الآية الأخرى أولئك سيرحمهم الله وقوله تعالى لا تحسبن أي لا تظن يا محمد أن الذين كفروا أي خالفوك وكذبوك معجزين في الأرض أي لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى ومأواهم أي في الدار الآخرة النار ولبئس المصير أي بئس المآل مآل الكافرين وبئس القرار وبئس المهاد (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم) هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض وما تقدم في أول السورة فهو استئذان

الاجانب بعضهم على بعض فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال الاول من قبل صلاة الغداة لان الناس اذذاك يكونون نياما في فرشهم وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة أي في وقت القيلولة لان الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله ومن بعد صلاة العشاء لانه وقت النوم فيؤمر الخدم والاطفال ان لا يهجموا على أهل البيت في هذه الاحوال لما يخشى من ان يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الاعمال ولهذا قال ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن أي اذا دخلوا في حال غير هذه الاحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم اياهم ولا عليهم ان رأوا شيأ من غير تلك الاحوال لانه قد أذن لهم في الهجوم ولانهم طوافون عليكم أي في الخدمة وغير ذلك ويغتفر في الطوافين مالا يغتفر في غيرهم ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الهرة انها ليست بنجسة انها من الطوافين عليكم أو الطوافات ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشئ وكان عمل الناس بها قليلا جدا أنكر عبد الله ابن عباس ذلك على الناس كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الى آخر الآية والآية التي في سورة النساء واذا حضر القسمة أولو القربى الآية والآية التي في الحجرات ان أكرمكم عند الله أتقاكم وفي لفظ له أيضا من حديث اسمعيل بن مسلم وهو ضعيف عن عمرو بن دينار عن عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين اذ ملكت أيمانكم الى آخر الآية وروى أبو داود حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه أخبرنا سفيان بن عبد الله ابن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول لم يؤمن بها أكثر الناس آية الاذن واني لآمر جاريتي هذه تستأذن علي قال أبو داود وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به وقال الثوري عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم قال لم تنسخ قلت فان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وقال ابن أبي حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنا سليمان بن

بحال اليد في تقويها بالعضد ويقال في دعاء الخير شد الله عضدك وفي ضده فت الله عضدك قرأ الجمهور عضدك بفتح العين وضم الضاد وقرئ بضمها وسكون الضاد وبفتحهما (ونجعل لكما سلطانا) أي حجة وبرهانا أو تسلطا وغلبة وهيبة في قلوب الاعداء (فلا يصلون اليكما) بالاذى والسوء ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة (بآياتنا) أي تمتنعان منهم بآياتنا أو اذهبا بآياتنا وقيل الباء للقسم وجوابه فلا يصلون وما أضعف هذا القول وقال الاخفش وابن جرير في الكلام تقديم وتأخير أي أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا وأولى هذه الوجوه أولها وفي قوله (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) تبشير لهما وتقوية لقلوبهما (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) واضحات الدلالة وقد تقدم وجه اطلاق الآيات وهي جمع على العصا واليد في سورة طه وهو أن في كل منهما آيات عديدة (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) أي مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ثم افتريته على الله أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله وسحر لم يفعل قبل هذا الوقت مثله (وما سمعنا بهذا) الذي جئت به من دعوى النبوة أو ما سمعنا بهذا السحر (في آبائنا الاولين) أي كائنا أو واقعا فيهم (وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد نفسه وانما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة والله أعلم قرئ وقال بالواو وبغيرها وكذلك هو في مصاحف أهل مكة (ومن تكون له عاقبة الدار) بالفوقية وهي أوضح من قراءتها بالتحتية على ان اسم يكون عاقبة الدار والتذكير لوقوع الفصل ولانه تأنيث مجازي والمراد بالدار هنا الدنيا وعاقبتها هي الجنة وانما كانت عاقبة لها لان الدنيا خلقت مجازا وطريقا اليها أو المراد بالدار الدار الآخرة الصادقة على الجنة والنار والاضافة بمعنى في والمعنى ومن تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة (انه لا يفلح الظالمون) أي ان الشأن انهم لا يفوزون بمطلب خير (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري) تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه وقد كان يعلم ان ربه الله عز وجل والظاهر انه لا يريد بالهية نفسه كونه خالقا للسموات والارض وما بينهما فان العلم بامتناع ذلك مما لا يخفى على أحد فالشك في ذلك يقتضي زوال العقل بالكلية فالمخذول لعنه الله كأنه يظن ان الافلاك والكواكب كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة الى اثبات صانع قال القاضي نفى علمه باله غيره دون وجوده

بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس ان رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن فقال ابن عباس ان الله ستير يحب الستر كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأى الناس ان ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس ورواه أبو داود عن القعنبي عن الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو به وقال (١١٥) السدي كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون ان يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا الى الصلاة فأمرهم الله ان يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات الا باذن وقال مقاتل بن حيان بلغنا والله أعلم ان رجلا من الانصار وامرأته اسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما فجعل الناس يدخلون بغير اذن فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا انه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامها بغير اذن فأنزل الله في ذلك يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الى آخرها ومما يدل على انها محكمة لم تنسخ قوله كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ثم قال تعالى واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم يعني اذا بلغ الاطفال منكم الحلم الذين انما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث فاذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال يعني بالنسبة الى أجانبهم والى الاحوال التي يكون الرجل على امرأته وان لم يكن في الاحوال الثلاث قال الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير اذا كان الغلام رباعيا فانه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه فاذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال وهكذا قال سعيد بن جبير وقال في قوله كما استأذن الذين من قبلهم يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه وقوله والقواعد من النساء قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد اللاتي لا يرجون نكاحا أي لم يبق لهن تشوف الى التزوج فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة أي ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء قال أبو داود حدثنا أحمد بن محمد المرزوي حدثني علي بن

اذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ولذلك أمر ببناء الصرح قلت هو رد على الزمخشري في قوله ان المقصود بنفي العلم بالاله نفي وجوده ويمكن التوجيه بان يقال الوجود وجودان وجود ذهني ووجود خارجي والمراد في كلامه الاول ولا شك انه اذا انتفى علم الانسان بشئ انتفى وجوده في ذهنه ولكن ربما كان هذا غير مراد للزمخشري لان الظاهر من كلامه الوجود الشائع عند أهل اللغة وهو الخارجي قال سراج الدين غرض صاحب الكشاف ان عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ولا شك انه كذلك فاطلق المسبب وأريد السبب لان بينهما ملازمة كلية على انه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لانه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود اذ لا يشترط عند علماء هذا الفن اللزوم العقلي بل العادي والعرفي كاف أيضا وقد يقول أحدنا الا أعلم ذلك أي لو كان موجودا لعلمته اذا قامت قرينة وهذا الاستعمال شائع في عرف العرب والعجم عند العامة والخاصة كيف وكان المخذول يدعي الالهية فالظاهر أنه من الكناية لا من المجاز والمصنف اغا ذكر معاوسة انتفاء العلم لانتفاء الوجود ليبين ان انتفاء العلم من روادف انتفاء الوجود انتهى قال الشوكاني وهو الذي خطر ببالي انه الجواب لكنه عارض ذلك الخاطر اشكالات لا يتسع لها المقام انتهى وقد أشار أبو السعود في تفسيره الى الجواب عن هذا الاشكال فقال وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية انتهى وقد وافق على هذا القاضي ولاح لك عن هذا جوابان الاول انه ذكر نفي العلم وأراد نفي المعلوم بطريق الكناية على الوجه الذي ذكره السراج الثاني تخصيص العلم بالفعلي لا الانفعالي كما ذكره أبو السعود والبيضاوي والثالث ان يراد بالوجود الوجود في ذهن المتكلم بتلك الكلمة وفي كل جواب من هذه الاجوبة كلام لا يلتبس على العالم بالفن قال الخفاجي وعلى كل حال فكلام القاضي لا يخلو عن ضعف والذي غره فيه كلام صاحب الانتصاف انتهى قال ابن عباس لما قال فرعون هذا القول قال جبريل يا رب طغى عبدك فأذن لي في هلاكه فقال يا جبريل بل هو عبدي وان يسبق له أجل يجيء ذلك الاجل فلما قال أنا ربكم الاعلى قال الله يا جبريل سبقت دعوتك في عبدي وقد جاء أوان هلاكه وأخرج ابن مردويه عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمتان قالهما فرعون ما علمت لكم من اله غيري وقوله أنا ربكم الاعلى قال

كان بينهما أربعون عاما فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ثم رجع الى تكبره وتجبره وايهام قومه بكمال اقتداره فقال (فأوقد لي ياهامان على الطين) أي اطبخ لي الطين حتى يصير آجرا أي بعد اتخاذ لبنا عن قتادة قال بلغني ان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به وعن ابن جريج نحوه والنداء بيا في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر (فاجعل لي) من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجرا (صرحا) أي قصرا عاليا وقيل منارة روى ان هامان بنى صرحا لم يبلغه بناء أحد من الخلق وأراد الله أن يفتنهم فيه فضرب الصرح جبريل بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون وقطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله الا هلك (لعلي أطلع الى اله موسى) أي اصعد اليه وانظر وأقف على حاله كأنه توهم انه لو كان شأنه اله كان جسما في السماء يمكن الرقي اليه والاطلاع الصعود والطلوع والاطلاع واحد يقال طلع الجبل واطلع أي صعد (واني لاظنه) أي موسى (من الكاذبين) في دعواه ان للارض والخلق الها سواه وانه أرسله (واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق) المراد بها أرض مصر والاستكبار التعاظم بغير استحقاق بل بالعدوان لانهم لم تكن لهم حجة يدفع بها ما جاء به موسى ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات (وظنوا) أي فرعون وجنوده (انهم الينا لا يرجعون) قرئ مبنيا للمفعول وللفاعل والمراد بالرجوع البعث والمعاد (فأخذناه وجنوده) بعد أن عتوا في الكفر وجاوزوا الحد فيه (فنبذناهم في اليم) أي طرحناهم في البحر المالح وهو القلزم وفي هذا تفخيم وتعظيم لشأن الاخذ واستحقار المأخوذين كأنه اخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم وقد تقدم بيان الكلام في هذا (فانظر) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (كيف كان عاقبة الظالمين) حين صاروا الى الهلاك (وجعلناهم أئمة يدعون الى النار) أي صيرناهم رؤساء متبوعين في الكافرين فكأنهم باصرارهم على الكفر والتمادي فيه ودعائهم الى الشرك يدعون اتباعهم الى النار لانهم اقتدوا بهم وسلكوا طريقتهم تقليدا لهم وفيه دليل على خلق افعال العباد وقيل المعنى انه يأتم بهم أي يعتبر بهم من جاء بعدهم ويتعظ بما اصيبوا به والاول أولى (ويوم القيامة لا ينصرون) أي لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) أي طردا وابعادا أو أمرنا العباد بلعنهم فكل من ذكرهم لعنهم والاول أولى وفي أبي السعود أي لا تزال تلعنهم الملائكة

الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا الآية قال ابن مسعود في قوله فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن قال الجلباب أو الرداء وكذا روى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وابراهيم النخعي والحسن وقتادة والزهري والاوزاعي وغيرهم وقال أبو صالح تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود ان يضعن من ثيابهن وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس ان يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق وقال سعيد بن جبير في الآية غير متبرجات بزينة يقول لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ماعليهن من الزينة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبد الله حدثنا ابن المبارك حدثني سوار بن ميمون حدثتنا طلحة بنت عاصم عن أم الضياء انها قالت دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت يا أم المؤمنين ماتقولين في الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب رقاق فقالت يامعشر النساء قصتكن كلها واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرما وقال السدي كان شريك لي يقال له مسلم وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان فجاء يوما الى السوق وأثر الحناء في يده فسألته عن ذلك فأخبرني انه خضب رأس مولاته وهي امرأة حذيفة فأنكرت ذلك فقال ان شئت أدخلتك عليها فقلت نعم فأدخلني عليها فاذا هي امرأة جليلة فقلت لها ان مسلما حدثني انه خضب رأسك فقالت نعم يابني اني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحا وقد قال الله تعالى في ذلك ماسمعت وقوله وان يستعففن خير لهن أي وترك وضعهن لثيابهن وان كان جائزا خير وأفضل لهن والله سميع عليم (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من

الملائكة والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) المبعدين والمقبوح المطرود المبعد وقال أبو عبيدة وابن كيسان معناه من المهلكين الممقوتين وقال أبو زيد قبح الله فلانا قبحا وقبوحا أبعده من كل خير قال أبو عمرو قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد وقيل المقبوح المشوه الخلقة أى فهم من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجوه والقبيح أيضا عظم الساعد مما يلى النصف منه الى المرفق والعامل فى يوم محذوف يفسره من المقبوحين أى وقبحوا يوم القيامة وهو الأظهر أو هو معطوف على موضع فى هذه الدنيا أى وأتبعناهم لعنة يوم القيامة أو معطوف على لعنة على حذف مضاف أى ولعنة يوم القيامة والوجه الثانى أظهر (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) أى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم وقيل من بعد ما اهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون والتعرض لكون ايتاء التوراة بعد اهلاك الامم الماضية للاشعار بمسيس الحاجة الداعية اليها تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن على رسول الله فان اهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدين الى اختلال نظام العالم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على ممر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية الموجبة كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة اليها أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الارض غير القرية التى مسخت قردة ألم تر الى قوله ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى وروى عنه موقوفا (بصائر للناس) أى آتيناه الكتاب لاجل أن يتبصر الناس به أو حال كونه بصائر لهم يبصرون به الحق والبصائر جمع بصيرة وهى نور القلب كما ان البصر نور العين (وهدى) يهتدون اليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به (ورحمة) من الله رحمهم بها (لعلهم يتذكرون) هذه النعم فيشكرون الله ويؤمنون به ويجيبون داعيه الى ما فيه خير لهم ويتعظون بما فيه من المواعظ (وما كنت بجانب الغربى) هذا شروع فى بيان ان انزال القرآن واقع فى بيان شدة

عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اختلف المفسرون رحمهم الله فى المعنى الذى رفع لاجله الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض ههنا فقال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقال انها نزلت فى الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى فى سورة الفتح وتلك فى الجهاد لا محالة أى انهم لا اثم عليهم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم وكما قال تعالى فى سورة براءة ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه الى قوله ان لا يجدوا ما ينفقون وقيل المراد ههنا انهم كانوا يتحرجون من الاكل مع الاعمى لانه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره الى ذلك ولا مع الاعرج لانه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره فكرهوا ان يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم وقال الضحاك كانوا قبل المبعث يتحرجون من الاكل مع هؤلاء تقذرا وتعززا ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى ليس على الاعمى حرج الآية قال كان الرجل يذهب بالاعمى أو بالاعرج أو بالمريض الى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون انما يذهبون بنا الى بيوت غيرهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم وقال السدى كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشئ من الطعام فلا يأكل من أجل ان رب البيت ليس ثم فقال الله تعالى ليس على الاعمى حرج الآية وقوله تعالى ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم انما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره فى اللفظ وليساويه ما بعده فى الحكم وتضمن هذا بيوت الابناء لانه لم ينص عليهم ولهذا استدل بهذا من ذهب الى ان مال الولد بمنزلة مال أبيه وقد جاء فى المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أنت ومالك لابيك وقوله أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم الى قوله أو ما ملكتم مفاتحه هذا ظاهر وقد يستدل به من يوجب نفقة الاقارب بعضهم على بعض كما هو مذهب أبى حنيفة والامام أحمد بن حنبل فى المشهور عنهما وأما قوله

أو ما ملكتم مفاتحه وقال سعيد بن جبير والسدي هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس ان يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف وقال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفعون مفاتحهم الى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما احتجتم اليه فكانوا يقولون انه لا يحل لنا ان نأكل انهم أذنوا انا عن غير طيب أنفسهم وانما نحن أمناء فأنزل الله أو ما ملكتم مفاتحه وقوله أو صديقكم أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها اذا علمتم

ان ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك وقال قتادة اذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير اذنه وقوله ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وذلك لما أنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قال المسلمون ان الله قد نهانا ان نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام من أفضل الاموال فلا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله ليس على الأعمى حرج الى قوله أو صديقكم وكانوا أيضا يأنفون ويتحرجون ان يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا وقال قتادة وكان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم ان مخزاة عليه ان يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا فهذه رخصة من الله تعالى في ان يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وان كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك كما رواه الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد ابن مسلم عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به وقد روى ابن ماجه أيضا من حديث عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كلوا جميعا ولا تفرقوا فان البركة مع الجماعة وقوله فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري

الخاصة اهـ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي وهو المكان الواقع في شق الغرب فيكون من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه واختاره الزجاج وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي أي حيث ناجى موسى ربه (اذ قضينا الى موسى الأمر) أي عهدنا اليه وكلفناه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة الى فرعون وقومه (وما كنت من الشاهدين) لذلك حتى تقف على حقيقته وتحكيه من جهة نفسك وقيل معنى اذ قضينا الى موسى الأمر اذ كلمناه وأبرمناه وقيل أخبرناه ان أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الأمم ولا يستلزم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين لانه يجوز أن يحضر ولا يشهد وقيل المراد بالشاهدين السبعون الذين اختارهم موسى للميقات واذا تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن ان يكون بالحضور عندها من نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمشاهدة لها منه وانتفى بالأدلة الصحيحة انه لم يتلق ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدمنا تقريره تبين انه من عند الله سبحانه بوحي منه الى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك فهذا الكلام هو على طريقة وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم (ولكنا أنشأنا قرونا) أي خلقنا أمما بين زمانك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وزمان موسى (فتطاول عليهم العمر) أي طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الأمد وفترت النبوة وكانت الأخبار تخفى فتغيرت الشرائع والأحكام ونسيت الأديان واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها فتركوا أمر الله ونسوا عهده فاقتضت الحكمة التشريع الجديد فبعثناك رسولا وأوحينا اليك خبر موسى وغيره ليكون معجزة لك وتذكيرا لقومك ومثله قوله سبحانه فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وقد استدل بهذا الكلام على ان الله سبحانه قد عهد الى موسى عهودا في محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي الايمان به فلما طال عليهم العمر ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها (وما كنت ثاويا في أهل مدين) أي مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقص عليهم من جهة نفسك يقال ثوى يثوي ثواء وثويا فهو ثاو ومن المعلوم ان واقعة مدين كانت قبل واقعة الطور فمقتضى الترتيب الوقوعي ان يتقدم عليه ماوقعا وسط بينهما للتنبيه على ان كلا منهما برهان مستقل على ان اخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه القصص بطريق الوحي الالهي ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم ان الكل

دليل

يعني فليسلم بعضكم على بعض وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير سمع جابر بن عبد الله يقول اذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة قال ما رأيته الا بركة قال ابن جريج وأخبرني زياد عن ابن طاوس انه كان يقول اذا دخل أحدكم بيته فليسلم قال ابن جريج قلت لعطاء أواجب اذا خرجت ثم دخلت ان أسلم عليهم قال لا ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب الى وما أدعه الا ناسيا وقال مجاهد اذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله واذا دخلت على أهلك فسلم عليهم واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وروى الثوري عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد اذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت على أهلك فسلم عليهم واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فانه كان يؤمر بذلك وحدثنا ان الملائكة ترد عليه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عويد عن أبي عمران الجولاني عن أبيه عن أنس قال أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك واذا دخلت يعني بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين قبلك يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة وقوله تحية من عند الله مباركة طيبة قال محمد بن اسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس انه كان يقول ما أخذت التشهد الا من كتاب الله سمعت الله يقول فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة فالتشهد في الصلاة التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم يدعو لنفسه ويسلم وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن اسحق والذي في صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف هذا والله أعلم وقوله كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الاحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على انه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ليتدبروها

دليل واحد على ما ذكر (تتلو عليهم) أي تقرأ على أهل مدين (آياتنا) وتتعلم منهم وقيل تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل الضمير لاهل مكة والمعنى عليه واضح وأكثر المفسرين على الوجه الاول والجملة في محل نصب على الحال أو خبر ثان ويجوز ان تكون هذه الجملة هي الخبر وثاويا حال وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل وها أنت تتلو على أمتك (ولكنا كنا مرسلين) أي أرسلناك الى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها قال الزجاج المعنى انك لم تشاهد قصص الانبياء ولا تليت عليك ولكنا أوحيناها اليك وقصصناها عليك (وما كنت) يا محمد (بجانب الطور) أي بجانب الجبل المسمى بالطور (اذ نادينا) موسى لما أتى الى الميقات مع السبعين ان خذ الكتاب بقوة وبين الارسال وايتاء التوراة نحو من ثلاثين سنة وقيل المنادى هو أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال وهب وذلك ان موسى لما ذكر الله له فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته قال يا رب أرنيهم فقال الله انك لن تدركهم وان شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم قال بلى يا رب فقال الله يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب آبائهم فيكون معنى الآية على هذا ما كنت يا محمد بجانب الطور اذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وسيأتي ما يدل على هذا ويقويه ويرجحه وعن أبي هريرة في الآية قال نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل ان تسألوني واستجبت لكم قبل ان تدعوني وروى من وجه آخر عنه مرفوعا وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وأبو نصر السجزي في الابانة والديلمي عن عمرو بن عبسة قال سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ما كان النداء وما كانت الرحمة قال كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي على غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل ان تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدي ورسولي صادقا أدخلته الجنة وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة في الآية قال نودوا يا أمة محمد ما دعوتمونا اذ استجبنا لكم ولا سألتمونا اذ أعطيناكم وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا ان الله نادى يا أمة محمد أجيبوا ربكم قال فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم الى يوم القيامة فقالوا لبيك أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا قال صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدي حقا قد عفوت عنكم قبل ان تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة ان لا اله الا الله

ويتقلونها عليهم بسلون (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه (١٢٠) والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الآية وقد قال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا حدثنا بشر هو ابن المفضل عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي حديث حسن (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) قال الضحاك عن ابن عباس كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبيه صلى الله عليه وسلم قال فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقال قتادة أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجل ويعظم وأن يسود وقال مقاتل في قوله لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا يقول لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قال أمرهم الله أن يشرفوه هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا إلى آخر الآية وقوله يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون

دخل الجنة (ولكن رحمة من ربك) أي ولكن فعلنا ذلك رحمة منا لكم وقيل ولكن أرسلنا القرآن رحمة لكم وقيل علمناك وقيل عرفناك قال الأخفش ولكن رحمناك رحمة وقال الزجاج أي فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة وقال الكسائي ولكن كان ذلك رحمة وقرئ رحمة بالرفع أي ولكن أنت رحمة (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) والقوم هم أهل مكة فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله صلى الله عليه وآله وسلم في زمان الفترة بينه وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة أو بينه وبين إسماعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة بني إسرائيل (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون بإنذارك (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) لولا هذه هي الامتناعية وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء أي ولولا إصابة المصيبة لهم وجوابها محذوف قال الزجاج تقديره ما أرسلنا إليهم رسلا يعني أن الحامل على إرسال الرسل إليهم هو إزاحة عللهم فهو كقوله سبحانه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة ووافقه على هذا التقدير الواحدي فقال والمعنى لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم قال السمين ولا معنى لهذا (فيقولوا) الفاء للسببية (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) لولا هذه هي التحضيضية أي هلا أرسلت رسولا من عندك وجوابها قوله (فنتبع آياتك) فلذلك نصب بإضمار أن أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهالك في الفترة يقول رب لم يأتني كتاب ولا رسول ثم قرأ هذه الآية والمراد بالآيات الآيات المنزلة الظاهرة الواضحة وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب للإرسال بواسطة القول قاله في الكشاف وأطال سليمان الجمل في بيان ذلك وذكر عبارة السمين والشهاب وغيرهما وقال أبو السعود لولا قولهم هذا عند إصابة العقوبة لهم بسبب جناياتهم ما أرسلناك ولكن لما كان قولهم ذلك محققا لا محيد عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية (ونكون من المؤمنين) بهذه الآيات ومعنى الآية أنا لو عذبناهم لقالوا طال العهد بالرسل ولم يرسل الله إلينا رسولا ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم (فلما جاءهم الحق من عندنا) أي فلما جاء

أهل مكة الحق من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل عليه من القرآن (قالوا) تعنتا منهم وجدالا بالباطل (لولا) هلا (أوتي) هذا الرسول (مثل ما أوتي موسى) من الآيات كاليد والعصا وغيرهما أو التوراة المنزلة عليه جملة واحدة فأجاب الله عليهم بقوله (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) أي من قبل هذا القول أو من قبل ظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى انهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد حيث (قالوا ساحران تظاهرا) مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم والمراد بهما موسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم والتظاهر التعاون أي تعاونا على السحر والضمير في أولم يكفروا لكفار قريش وقيل هو لليهود والاول أولى فان اليهود لا يصفون موسى بالسحر انما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم الا أن يراد من أنكر نبوة موسى كفرعون وقومه فانهم وصفوا موسى وهرون بالسحر ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فان الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر والذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفوه أيضا بالسحر وقيل المعنى أولم يكفر اليهود في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد قرأ الجمهور ساحران وقرأ الكوفيون سحران يعنون التوراة والقرآن وقيل الانجيل والقرآن قال بالاول الفراء وقال بالثاني أبو زيد وقيل ان الضمير في أولم يكفروا لليهود وانهم عنوا بقولهم ساحران عيسى ومحمدا عليهما الصلاة والسلام وقال ابن عباس في الآية هم أهل الكتاب (وقالوا انا بكل كافرون) يعني بكل من موسى ومحمد أو من موسى وهرون أو من موسى وعيسى أو من عيسى ومحمد أو بكل من التوراة والانجيل والفرقان على اختلاف الاقوال وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم فقال (قل) لهم يا محمد اذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين وقلتم فيهما ما قلتم (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) أي من التوراة والقرآن وأوضح وأبين في هداية الخلق (أتبعه) جواب الامر وقد جزمه جمهور القراء لذلك وقرئ بالرفع على الاستئناف أي فان أتيتم به فأنا أتبعه وقال الفراء انه على هذه القراءة صفة الكتاب وفي هذا الكلام تهكم بهم وفيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور لانه رجع الكلام الى الكتابين

الى قوله ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو انهم صبروا خيرا لهم الآية فهذا كله من باب الادب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم ... آية والقول الثاني في ذلك ان المعنى في لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا أي لا تعتقدوا ان دعاءه على غيره كدعاء غيره فان دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي والله أعلم وقوله قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ويعني بالحديث الخطبة فيلوذون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد الا باذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة وكان اذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لان الرجل منهم كان اذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته وقال السدي كانوا اذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم وقال قتادة في قوله قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا يعني لواذا عن نبي الله وعن كتابه وقال سفيان قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا قال من الصف وقال مجاهد في الآية لواذا قال خلافا وقوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره أي عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الاقوال والاعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل

وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا ان تصيبهم فتنة أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك كما روى الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهي هذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها

وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها أخرجاه من حديث عبد الرزاق (ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال قد يعلم ما أنتم عليه وقد للتحقيق كما قال قبلها قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا وقال تعالى قد يعلم الله المعوقين منكم الآية وقال تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك الآية وقال قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال قد نرى تقلب وجهك في السماء الآية فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتا قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة فقوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى وتوكل على العزيز الرحيم إلى قوله إنه هو السميع العليم وقوله وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين وقال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر وقال تعالى ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون وقال تعالى سواء منكم من أسر القول ومن جهر به الآية وقال تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين وقال وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة مرتين في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدا وقوله ويوم يرجعون إليه أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة فينبئهم بما عملوا أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر وقال ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ولهذا قال ههنا ويوم يرجعون إليه فينبئهم

لا إلى الرسولين (إن كنتم صادقين) فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين (فإن لم يستجيبوا لك) أي لم يفعلوا ما كلفوه من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين وهذا كقوله فإن لم تفعلوا وقيل المعنى فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين وجواب الشرط (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أي آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان وإنما أداة حصر أي أنهم ليس لهم مستند في ذلك ومستمسك يتمسكون به وإنما هم محض هواهم الفاسد (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أضل منه بل هو الفرد الكامل في الضلال (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله (ولقد وصلنا لهم القول) قرئ بتشديد الصاد وتخفيفها ومعنى الآية أتبعنا بعضه بعضا في الإنزال ليتصل التذكير أو في النظم لتتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر وبعثنا رسولا بعد رسول وقال أبو عبيدة والأخفش معناه أتممنا وقال ابن عيينة والسدي بينا وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا والأول أولى وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض وقال مجاهد جعلناه أوصالا أي أنواعا من المعاني والضمير في لهم عائد إلى قريش وقيل إلى اليهود وقيل للجميع (لعلهم يتذكرون) فيكون التذكر سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أي من قبل القرآن وقيل من قبل محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هم به) أي بالقرآن أو بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (يؤمنون) أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله ابن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب قيل نزلت في ثمانين أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام وقال ابن عباس يعني من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب والأول أولى (وإذا يتلى) أي القرآن (عليهم قالوا آمنا به) أي صدقنا به (إنه الحق) الذي نعرفه المنزل (من ربنا) استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به (إنا كنا من قبله مسلمين) أي مخلصين لله بالتوحيد أو مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة والإنجيل من التبشير به وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن (أولئك) أي الموصوفون بتلك الصفات (يؤتون أجرهم

بما عملوا والله بكل شئ عليم والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الفرقان مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا) يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات الآية

وقال ههنا تبارك وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة الذى نزل الفرقان نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل لان الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسورا بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ولهذا سماه ههنا الفرقان لانه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغى والرشاد والحلال والحرام وقوله على عبده هذه صفة مدح وثناء لانه أضافه الى عبوديته كما وصفه بها فى أشرف أحواله وهى ليلة الاسراء فقال سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة اليه وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وكذلك وصفه عند انزال الكتاب عليه ونزول الملك اليه فقال تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله ليكون للعالمين نذيرا أى انما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذى جعله فرقانا عظيما انما خصه بالرسالة الى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود وقال انى أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى فذكر منهن انه كان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة كما قال تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الآية أى الذى أرسلنى هو مالك السموات والارض الذى يقول للشئ كن فيكون

مرتين) بايمانهم بالكتابين منصوب على المصدر قال ابن عباس نزلت فى عشرة رهط أنا أحدهم أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الاول والآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الايمان بالكتاب الاول والكتاب الآخر وبالنبى الاول والنبى الآخر أو بالعمل بهما أو على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ومن عاداهم من أهل دينهم (ويدرؤن بالحسنة السيئة) الدرء الدفع أى يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الاذى وقيل يدفعون بالطاعة المعصية وقيل بالتوبة والاستغفار الذنوب وقيل بالحلم الاذى وقيل بشهادة أن لا اله الا الله الشرك (ومما رزقناهم ينفقون) أى ينفقون أموالهم فى الطاعات وفيما أمر به الشرع ثم مدحهم سبحانه باعراضهم عن اللغو فقال (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرما وتنزها وتأدبا بآداب الشرع ومثله قوله سبحانه واذا مروا باللغو مروا كراما واللغو هنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) لا يلحقنا من ضرر كفركم شئ ولا يلحقكم من نفع ايماننا شئ (سلام عليكم) ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ولكن المراد به سلام المتاركة والاعراض والفراق ومعناه أمنة لكم منا وسلامة لا نجاوبكم ولا نجازيكم فيما أنتم فيه ولا نقابل لغوكم بمثله قال الزجاج وهذا قبل الامر بالقتال (لا نبتغى الجاهلين) أى لا نطلب صحبتهم ومخالطتهم وقال مقاتل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وقال الكلبى لا نحب دينكم الذى أنتم عليه (انك لا تهدى من أحببت) هدايته من الناس وليس ذلك اليك (ولكن الله يهدى من يشاء) هدايته (وهو أعلم) أى عالم (بالمهتدين) أى القابلين للهداية المستعدين لها أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبى هريرة ان هذه الآية نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الاسلام وقد تقدم ذلك فى براءة قال الزجاج أجمع المفسرون على انها نزلت فى أبى طالب وقد تقرر فى الاصول ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا والآية حجة على المعتزلة

لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أي قال مشركو قريش ومن تابعهم إن ندخل في دينك ونعمل به يا محمد يتخطفنا العرب من مكة ويسرع منها بسرعة ولا طاقة لنا بهم وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة وقرئ نتخطف بالجزم على جواب الأمر وبالرفع على الاستئناف ثم رد الله ذلك عليهم ردا مصدرا باستفهام التوبيخ والتقريع وألقمهم الحجر فقال (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أي ألم نجعل لهم حرما ذا أمن أو ذوي أمن من دخله قال أبو البقاء عداه بنفسه لأنه بمعنى جعل كما صرح بذلك في قوله أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ومكن متعد بنفسه من غير أن يضمن معنى جعل كقوله مكناهم فيما إن مكناكم فيه وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز عقلي ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ثم وصف هذا الحرم بصفة أخرى دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة بقوله (يجبى إليه ثمرات كل شيء) أي يجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة وتحمل إليه من الشام ومصر والعراق واليمن وتساق إليه ومعنى الكلية الكثرة على سبيل المجاز كقوله وأوتيت من كل شيء وقرئ يجبى بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات وأيضا ليس تأنيث ثمرات بحقيقي وبالفوقية اعتبارا بثمرات وقرئ ثمرات بضمتين وبضمة وسكون جمع ثمر بضمتين وقرئ بفتح الثاء وسكون الميم (رزقا من لدنا) أي يسوقه إليهم رزقا من عندنا أو رازقين (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن ما نقوله حق لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم وعدم تفكرهم في أمر معادهم ورشادهم لكونهم ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة (وكم أهلكنا من قرية) أي أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء فوقع منهم البطر فكان حالهم كحال هؤلاء في الأمن والخصب ثم (بطرت) أي طغت وتمردت وخسرت وأشرت (معيشتها) أي في زمن حياتها وقال الكرخي كفرت نعمة معيشتها أي أيام حياتها وهي ما يعاش به من النبات والحيوان وغيرهما يعني وقع منهم

وهو الذي يحيي ويميت وهكذا قال هاهنا الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ثم أخبر أنه خلق كل شيء فقدره تقديرا أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف يملكون لعابديهم ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة كقوله وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر وقوله فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فهو الذي لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو الذي لا ولد له ولا والد ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن إن هذا إلا إفك أي كذب افتراه يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأعانه عليه قوم آخرون أي واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعالى فقد جاؤوا ظلما وزورا أي فقد افتروا هم قولا باطلا يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون وقالوا أساطير الأولين اكتتبها يعنون كتب الأوائل أي استنسخها فهي تملى عليه أي تقرأ عليه بكرة وأصيلا أي في أول النهار وآخره وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدا رسول الله

المطر

صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيأ من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده الى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الاخلاق الرديئة حتى انهم كانوا يسمونه فى صغره والى ان بعث الامين لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الاقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقذفونه به فتارة من افكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب قال الله تعالى انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وقال تعالى فى جواب ماعاندوا ههنا وافتروا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الاولين والآخرين اخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا الذى يعلم السر أى الله الذى يعلم غيب السموات والارض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر وقوله انه كان غفورا رحيما دعاء لهم الى التوبة والانابة واخبار لهم بأن رحمته واسعة وان علمه عظيم وان من تاب اليه تاب عليه فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم الى التوبة والاقلاع عما هم فيه الى الاسلام والهدى كما قال تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم وقال تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق قال الحسن البصرى انظروا الى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم الى التوبة والرحمة (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا

البطر فاهلكوا قال الزجاج البطر الطغيان عند النعمة وفى القاموس البطر محركا النشاط والاشر وقلة احتمال النعمة والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهة الشئ من غير ان يستحق الكراهة وفعل الكل كفرح وبطر الحق أى تكبر عنده فلا يقبله قال عطاء عاشوا فى البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الاصنام وقال الزجاج والمازنى معناها بطرت فى معيشتها فلما حذفت فى تعدى الفعل كقوله واختار موسى قومه وقال الفراء هو منصوب على التفسير كما تقول بطرت مالك وبطرته ونظيره قوله تعالى الا من سفه نفسه ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين لان معنى التفسيران تكون النكرة دالة على الجنس وقيل ان معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت (فتلك مساكنهم) أى منازلهم باقية الآثار يشاهدونها فى الاسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم قد خربت بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم الا قليلا) أى لم يسكنها أحد بعدهم الا زمنا قليلا كالذى يمر بها مسافرا فانه يلبث فيها يوما أو بعض يوم أو المعنى لم يبق من يسكن فيها الا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم وقيل ان الاستثناء يرجع الى المساكن أى لم تسكن بعد هلاك أهلها الا قليلا من المساكن وأكثرها خراب كذا قال الفراء وهو قول ضعيف (وكنا نحن الوارثين) لها منهم لانهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم ولم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وغيرها (وما كان ربك) بيان للعادة الربانية أى ما صح ولا استقام وما كان وما ثبت فى حكمه الماضى وقضائه السابق ان يكون (مهلك القرى) الكافر أهلها قبل الانذار (حتى يبعث) ويرسل (فى أمها) أى أكبرها وأعظمها (رسولا) ينذرهم و(يتلو عليهم آياتنا) أى تاليا عليهم آيات الله الدالة الناطقة بما أوجبه الله عليهم وما أعده من الثواب للمطيع والعقاب للعاصى ومخبرا ان العذاب سينزل بهم اذا لم يؤمنوا وخص الاعظم منها بالبعثة اليها لان فيها أشراف القوم وأهل الفهم والرأى وفيها الملوك والاكابر فصارت بهذا الاعتبار كالام لما حولها من القرى وقال الحسن أم القرى أولها وقيل المراد بأم القرى هنا مكة كما فى قوله ان أول بيت وضع للناس الآية والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة والروعة وقد تقدم بيان ما تضمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف (وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) معطوفة على الجملة التى قبلها والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعد ان

نورا كبيرا) يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم الحق بلا حجة ولا دليل منهم وإنما تعللوا بقولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ويمشي في الأسواق أي يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا أو يلقى إليه كنز أي علم كنز ينفق منه أو تكون له جنة يأكل منها أي تسير معه حيث سار وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا قال الله تعالى انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا أي جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ولهذا قال فضلوا عن طريق الهدى فلا يستطيعون سبيلا وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك الآية قال مجاهد يعني في الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعط نبيا قبلك ولا نعطي أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله عز وجل في ذلك تبارك الذي إن شاء إنه جعل لك خيرا من ذلك الآية وقوله بل كذبوا بالساعة أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال وأعتدنا أي أرصدنا لمن كذب بالساعة سعيرا أي عذابا أليما حارا لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير السعير واد من قيح جهنم وقوله إذا رأتهم أي جهنم من مكان بعيد يعني في مقام المحشر قال السدي من مسيرة مائة عام سمعوا لها تغيظا وزفيرا أي حنقا عليهم كما قال تعالى إذا

بعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وتأكيد الحجة عليهم كقوله سبحانه وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (وما أوتيتم) يا كفار مكة (من شيء) من الأشياء (فمتاع) أي فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون به مدة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه أو يزول عنكم (وزينتها) تتزينون به أيام عيشكم ثم يفنى وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء (وما عند الله) من ثوابه وجزائه (خير) من ذلك الزائل الفاني لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر (وأبقى) لأنه يدوم أبدا وذلك ينقضي بسرعة (أفلا تعقلون) أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل قال الشافعي رحمه الله من وصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف إلى المشتغلين بطاعة الله وقرئ يعقلون بالياء والتاء على الخطاب وهي أرجح لقوله وما أوتيتم وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني الحديث بطوله وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا وأعطش ما كانوا وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كان في رضاء الله كان الله في رضاه (أفمن وعدناه وعدا حسنا) بالجنة وما فيها من النعم التي لا تحصى (فهو لاقيه) أي مدركه ومصيبه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد ولذلك جيء بالاسمية المفيدة لتحققه وعطف بفاء السببية والفاء الأولى لترتيب إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاعها وبين ما عند الله عز وجل (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) المشوب بالأكدار المستتبع للتحسر على الانقطاع فأعطي منه بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) هذا معطوف على قوله متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له والمعنى ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام وفيه من التهويل ما لا يخفى أي ليس حالهما سواء فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعده مع

ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وروى ابن أبي حاتم حدثنا ادريس بن حاتم بن الاحنف الواسطى انه سمع محمد بن الحسن الواسطى عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك باسناده عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقل على مالم أقل أو ادعى الى غير والديه أو انتمى الى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل يارسول الله وهل لها من عينين قال أما سمعتم الله يقول اذا رأتهم من مكان بعيد الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خداش عن

محمد بن يزيد الواسطى به وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد القنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل وله أيضا عن قال : لما خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر الى حديدة في النار ونظر الربيع بن خيثم اليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فصعق يعني الربيع وحملوه الى أهل بيته فرابطه عبد الله الى الظهر فلم يفق رضي الله عنه وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا اسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد ولابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس قال ان العبد ليجر الى النار فتشهق اليه شهقة البغلة الى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد الا خاف هكذا رواه ابن أبي حاتم باسناده مختصرا وقد رواه الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا اسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد باسناده الى ابن عباس قال ان الرجل ليجر الى النار فينزوي بعضها الى بعض فيقول لها الرحمن مالك قالت انه يستجير مني فيقول أرسلوا عبدي وان الرجل ليجر الى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك فيقول ان تسعني رحمتك فيقول أرسلوا عبدي وان الرجل ليجر الى النار فتشهق اليه النار شهقة البغلة الى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد الا خاف وهذا اسناد صحيح وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا قال ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا خر ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول رب لا أسألك

انه لا يفوته نصيبه من الدنيا وهذا حال المؤمن وأما حال الكافر فانه لم يكن معه الا مجرد التمتع بشئ من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن وينال كل واحد منهما حظه منه وهو صائر الى النار فهل يستويان وثم للتراخي في الزمان أو في الرتبة قيل نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي جهل أو في علي وحمزة وأبي جهل أو في المؤمن والكافر أو في عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة (ويوم يناديهم) أي اذكر يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله والقصد من هذا النداء توبيخهم وتقريعهم بان معبوداتهم لم تنفعهم في هذا الوقت (فيقول) لهم (أين شركائي الذين) عبدتموهم من دوني واثبتم لهم شركة في استحقاق العبادة و(كنتم تزعمون) انهم ينصرونكم ويشفعون لكم (قال الذين حق عليهم القول) أي حقت عليهم كلمة العذاب بدخول النار وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون الله كذا قال الكلبي وقال قتادة هم الشياطين (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أي دعوناهم الى الغواية يعنون الاتباع في الكفر (أغويناهم كما غوينا) أي اضللناهم كما ضللنا وآثروا الكفر على الايمان كما آثرناه نحن وكنا السبب في كفرهم فقبلوا منا فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا لهم داعيا الى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم الى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث اليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا الى الايمان (تبرأنا اليك) ممن أطاعنا وهذه مقررة لما قبله ولذلك لم يعطف قال الزجاج برئ بعضهم من بعض وصاروا أعداء كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو (ما كانوا ايانا يعبدون) انما كانوا يعبدون أهواءهم قيل ما مصدرية أي تبرأنا اليك من عبادتهم ايانا والاول أولى (وقيل) للكفار من بني آدم تهكما بهم وتبكيتا لهم (ادعوا شركاءكم) أي استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم (فدعوهم) عند ذلك (فلم يستجيبوا لهم) ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع (ورأوا) أي التابع والمتبوع (العذاب) قد غشيهم (لو أنهم كانوا يهتدون) قال الزجاج جواب لو محذوف أي لانجاهم ذلك ولم يروا العذاب وقيل المعنى ما دعوهم وقيل لو كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق وقيل لو يهتدون بوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب وقيل قد آن لهم ان يهتدوا لو كانوا يهتدون وقيل غير ذلك

اليوم الانفستي وقوله واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال مثل الزج في الرمح أي من ضيقه وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل عن قول الله واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين قال والذي نفسي بيده انهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط وقوله مقرنين قال أبو صالح يعني مكتفين دعوا هنالك ثبورا أي بالويل والحسرة والخيبة لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا الآية وروى الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ورواه ابن جرير من حديث ابن سلمة به وقال العوفي عن ابن عباس في قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا الآية أي لا تدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا وقال الضحاك الثبور الهلاك والاظهر ان الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون واني لاظنك يا فرعون مثبورا أي هالكا قال عبد الله بن الزبعرى

اذ اجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبورا

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسئولا)

يقول تعالى يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الاشقياء الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم اليها لهم فيها ما يشاؤن من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا وهذا من وعد الله

(ويوم يناديهم) عطف على ما قبله فسألوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك كما قال (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أي ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين لما بلغوا رسالاتي (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون والاصل فعموا عن الانباء ولكنه عكس الكلام للمبالغة والانباء الاخبار وانما سمى حججهم أخبارا لانها لم تكن من الحجة في شئ وانما هي أقاصيص وحكايات وقرئ عميت بضم العين وتشديد الميم (فهم لا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب الواقع وذلك لفرط الدهشة أو لعلمهم بان الكل سواء في الجهل وقيل لا يسأل بعضهم بعضا عن الانساب قاله مجاهد ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون لان الله قد أعذر اليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة (فأما من تاب) من الشرك (وآمن) وصدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) أي ادى الفرائض (فعسى ان يكون من المفلحين) أي الناجين بوعد الله الفائزين بعطاياهم من سعادة الدارين وعسى وان كانت في الاصل للرجاء فهي من الله واجب على ما هو عادة الكرام وقيل ان الترجي هو من قبل التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه اى فليتوقع الفلاح (وربك يخلق ما يشاء) ان يخلقه وفيه دلالة على خلق الافعال (ويختار) ما يشاء ان يختار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم أي الاختيار الى الله (ما كان لهم الخيرة) أي التخير وهو كالطيرة فانهما للتطير اسمان يستعملان استعمال المصدر وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه وقيل المراد من الآية انه ليس لاحد من خلق الله ان يختار شيأ اختيارا حقيقيا بحيث يقدم على تنفيذه بدون اختيار الله بل الاختيار هو الى الله عز وجل يختار لطاعته او لنبوته او المعنى يخلق محمدا ويختار الانصار لدينه وقيل اختار من النعم الضأن ومن الطير الحمام ولا وجه للتخصيص والعموم اولى وظاهر الآية نفي الاختيار عنهم رأسا والامر كذلك فان اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقيل ان هذه الآية جواب عن قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقيل جواب عن اليهود حيث قالوا لو كان الرسول الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم غير جبريل لآمنا به قال الزجاج الوقف على ويختار تام على ان ما نافية قال ويجوز ان يكون ما في موضع نصب بيختار والمعنى ويختار الذي كان

لهم فيه الخيرة والصحيح الاول لاجماعهم على الوقف وقال ابن جرير ان تقدير الآية ويختار لولايته الخيرة من خلقه وهذا في غاية من الضعف وجوز ابن عطية ان تكون كان تامة ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة وهذا أيضا بعيد جدا ومن قال معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل الى الاعتزال وقيل ان ما مصدرية أي يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول به أي ويختار مختارهم وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير والراجح أول هذه التفاسير ومثله قوله سبحانه وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها فلا نطول بذكرها ثم نزه سبحانه نفسه فقال (سبحان الله) أي تنزه تنزها خاصا به من غير ان ينازعه منازع أو يشاركه مشارك أو يزاحم اختياره (وتعالى عما يشركون) أي عن الذين يجعلونهم شركاء له (وربك يعلم ما تكن صدورهم) أي تخفيه قلوبهم وتسره من الشرك أو من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحسده أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق (وما يعلنون) بالسنتهم من ذلك ويظهرونه ثم تمدح نفسه سبحانه بالوحدانية والتفرد بالاستحقاق للحمد فقال (وهو الله) أي هو المستأثر بالالهية المختص بها وقوله (لا اله الا هو) تقرير لذلك (له الحمد في الاولى) أي في الدنيا (والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا والتحميد ثمة على وجه اللذة لا على الكلفة وهو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين (وله الحكم) أي القضاء النافذ في كل شئ فيقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك (واليه) لا الى غيره (ترجعون) بالبعث والنشور والخروج من القبور فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (قل) لاهل مكة (أرأيتم) أي اخبروني (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) باسكان الشمس تحت الارض أو بتحريكها حول الافق الغائر والسرمد هو الدائم المستمر من السرد وهو المتابعة والاطراد فالميم زائدة كما في دلامص من الدلاص ووزنه فعمل وقيل ان ميمه أصلية ووزنه فعلل لا فعمل وهو الظاهر بين لهم سبحانه انه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة فانه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلا دائما لا نهار معه (الى يوم القيامة) لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بد لهم منه مما يقوم به

الذي تفضل به عليهم وأحسن به اليهم ولهذا قال كان على ربك وعدا مسئولا أي لا بد ان يقع وان يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية ان معنى قوله وعدا مسئولا أي وعدا واجبا وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كان على ربك وعدا مسئولا يقول سلوا الذي واعدتكم أو قال أوعدنا كم تنجزوه وقال محمد بن كعب القرظي في قوله كان على ربك وعدا مسئولا ان الملائكة تسأل لهم ذلك ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وقال أبو حازم اذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فانجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله وعدا مسئولا وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة ثم وما فيها من النضرة والحبور ثم قال أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) يقول تعالى مخبرا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله قال مجاهد هو عيسى والعزير والملائكة فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء الآية أي فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين أأنتم دعوتم هؤلاء الى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتني به الآية ولهذا قال تعالى مخبرا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من أولياء قرأ الاكثرون بفتح النون من قوله

نتخذ من دونك من أولياء أي ليس للخلائق كلهم ان يعبدوا احدا سواك لا نحن ولا هم فنحن مادعوناهم الى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك الآية وقرأ آخرون ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من أولياء أي ما ينبغي لأحد ان يعبدنا فانا عبيد لك وفقراء اليك وهي قريبة المعنى من الاولى ولكن متعتهم وآباءهم أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أي نسوا ما أرسلته اليهم على ألسنة رسلك من الدعوة الى عبادتك وحدك لا شريك لك وكانوا قوما بورا قال ابن عباس

أي هلكى وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري أي لا خير فيهم وقال ابن الزبعرى حين أسلم

يا رسول المليك ان لساني
راتق ما فتقت اذ أنا بور
اذ أجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور

قال الله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم انهم لكم أولياء وانهم يقربونكم الى الله زلفى كقوله تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقوله فما تستطيعون صرفا ولا نصرا أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ومن يظلم منكم أي يشرك بالله نذقه عذابا كبيرا (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) يقول تعالى مخبرا عن جميع من بعثه من الرسل

العيش من المطاعم والمشارب والملابس ثم امتن عليهم فقال (من اله غير الله يأتيكم) أي هل لكم من اله يزعمكم من الآلهة التي تعبدونها يقدر على ان يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم (بضياء) أي بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون اليه وتصلح ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم والجملة صفة أخرى لاله عليها يدور الكسب والارزاق (أفلا تسمعون) هذا الكلام سماع فهم وقبول وتدبر وتفكر وهذا توبيخ لهم على أبلغ وجه ثم لما فرغ الله من الامتنان عليهم بوجود النهار امتن عليهم بوجود الليل فقال (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا) أي جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهارا (الى يوم القيامة) لا ليل معه بامساك الشمس في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق (من اله غير الله) يزعمكم (يأتيكم بليل تسكنون) أي تستقرون (فيه) من النصب والتعب وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب (أفلا تبصرون) هذه المنفعة العظيمة ابصار متعظ متيقظ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله فاذا أقروا بانه لا يقدر على ذلك الا الله عز وجل فقد لزمتهم الحجة وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة واعلم انه سبحانه قرن بالضياء قوله أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل قوله أفلا تبصرون لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه والبصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك (ومن رحمته) تعالى (جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي في النهار بالسعي في المكاسب وفيه مدح السعي في طلب الرزق وهو لا ينافي التوكل (ولعلكم تشكرون) أي ولكي تشكروا النعمة الله عليكم وهذه الآية من باب اللف والنشر واعلم انه وان كان السكون في النهار ممكنا وطلب الرزق في الليل ممكنا وذلك عند طلوع القمر على الارض أو عند الاستضاءة بشيء من النور كالسراج لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين لانهم ينادون مرة فيدعون الاصنام وينادون أخرى فيسكتون وفي هذا التكرار أيضا تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ وايذان بانه لا شيء أجلب لغضب الله من الاشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده أو الاول لتقرير فساد

المتقدمين انهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون الى التغذي به ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم فان الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والاعمال الكاملة والخوارق الباهرة والادلة القاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى وقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام الآية وقوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون أي اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع رأيهم

من يعصى ولهذا قال أتصبرون وكان ربك بصيرا أى بمن يستحق ان يوحى اليه كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته ومن يستحق ان يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك قال محمد بن اسحق فى قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون قال يقول الله لوشئت ان أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ولكنى قد أردت ان أبتلى العباد بهم وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى انى مبتليك ومبتلى بك وفى المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوشئت لاجرى الله معى جبال الذهب والفضة وفى الصحيح انه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار فى كفرهم وعنادهم فى قولهم لولا أنزل علينا الملائكة أى بالرسالة كما تنزل على الانبياء كما أخبر الله عنهم فى الآية الاخرى قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وقد تقدم تفسيرها فى سورة سبحان ولهذا قال أو نرى ربنا ولهذا قال الله تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقد قال تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية وقوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا أى هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث اخرجى الى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن فيضربونه كما قال الله تعالى ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم الآية وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أى بالضرب أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون

رأيهم والثانى لبيان انه لم يكن عن مستند وانما هو محض تشه وهوى (ونزعنا) جاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقيق أى أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) يشهد عليهم بما قالوا قال مجاهد هم الانبياء وقيل عدول كل امة والاول أولى ومثله قوله سبحانه فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ثم بين سبحانه ما يقوله لكل امة من هذه الامم بقوله (فقلنا) لهم (هاتوا برهانكم) أى حجتكم ودليلكم بان معى شركاء فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن اقامة البرهان ولذا قال (فعلموا ان الحق لله) فى الالهية وانه وحده لا شريك له (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى غاب عنهم غيبة الشئ الضائع وبطل وذهب ما كانوا يختلقون من الكذب فى الدنيا بان لله شركاء يستحقون العبادة ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال (ان قارون كان من قوم موسى) قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة والعلمية وليس بعربى مشتق من قرنت قال الزجاج لو كان قارون من قرنت الشئ لانصرف قال النخعى وقتادة وغيرهما كان ابن عم موسى وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث وقال ابن اسحق كان عم موسى لاب وأم فجعله أخا لعمران وهما ابنا قاهث وقيل هو ابن خالة موسى وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان من السبعين الذين اختارهم موسى للمناجاة فسمع كلام الله قاله الرازى ولم يكن فى بنى اسرائيل اقرأ للتوراة منه فنافق كما نافق السامرى وخرج عن طاعة موسى وهو معنى قوله (فبغى) أى جاوز الحد فى التجبر والتكبر وطلب التفضل (عليهم) وان يكونوا تحت أمره وحسد موسى على رسالته وهرون على امامته وكفر بالله بعدما آمن به وبسبب كثرة ماله قال الضحاك بغيه على بنى اسرائيل استخفافه بهم لكثرة ماله وولده وقال قتادة بغيه بنسبة ما آتاه الله من المال الى نفسه لعلمه وحيلته وقيل كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وقيل كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية (وآتيناه من الكنوز) جمع كنز وهو المال المدخر سميت أمواله كنوزا لانه كان ممتنعا من أداء الزكاة قال عطاء أصاب كنزا من كنوز يوسف وقيل كان يعمل الكيمياء (ما ان مفاتحه) ما موصولة صلتها ان وما فى حيزها ولهذا كسرت ونقل الاخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما فى حيزها صلة

على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولهذا قال في هذه الآية الكريمة يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات قال الله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب ان الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه اخرجي الى روح وريحان ورب غير غضبان وقد تقدم الحديث في سورة ابراهيم عند قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وقال آخرون بل المراد بقوله يوم يرون الملائكة لا بشرى يعني يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ولا منافاة بين هذا وما تقدم فان الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا أي وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضي على فلان اذا منعه التصرف اما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لانه يمنع الطواف ان يطوفوا فيه وانما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لانه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق والغرض أن الضمير في قوله ويقولون عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا موسى يعني ابن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري في الآية ويقولون حجرا محجورا قال حراما محرما أي يبشر بما يبشر به المتقون وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج انه قال ذلك من كلام المشركين يوم يرون الملائكة أي يتعوذون من الملائكة وذلك ان العرب اذا نزل باحدهم نازلة أو شدة يقول حجرا محجورا وهذا القول وان كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة الى السياق بعيد لا سيما وقد نص الجمهور على

الذي واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل المراد بالمفاتح الخزائن فيكون واحدها مفتحا بفتح الميم وقال الواحدي ان المفاتح الخزائن في قول أكثر المفسرين كقوله وعنده مفاتح الغيب قال وهو اختيار الزجاج قال الأشبه في التفسير ان مفاتحه خزائن ماله وقال آخرون هي جمع مفتاح وهو ما يفتح به الباب فهذا قول قتادة ومجاهد وعن خيثمة قال كانت مفاتح كنوز قارون من جلود الابل كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدة فاذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغر محجل وعنه قال وجدت في الانجيل ان بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة ما يزيد كل مفتاح منها على اصبع لكل مفتاح كنز قال الشوكاني لم أجد في الانجيل هذا الذي ذكره خيثمة (لتنوء بالعصبة أولي القوة) أي لتثقل بالجماعة الاقوياء يقال نأى بحمله اذا نهض به متثاقلا ويقال نأى بي الحمل أي أثقلني والمعنى يثقلهم حمل المفاتيح فلا يستطيعون حملها وقال الرازي فلا يستطيعون ضبطها لكثرتها انتهى قال أبو عبيدة هذا من المقلوب والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها قال أبو زيد نأوت بالحمل اذا نهضت به وقال الفراء معنى تنوء بالعصبة تميلهم بثقلها كما يقال يذهب بالبؤس ويذهب البؤس وذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته اختار هذا النحاس وبه قال كثير من السلف وقيل هو مأخوذ من النأي وهو البعد وهو بعيد وقرئ لينوء بالتحتية أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى أو التقدير حملها أو ثقلها وقيل الضمير في مفاتحه لقارون فاكتسب المضاف من المضاف اليه التذكير كقولهم ذهبت أهل اليمامة قاله الزمخشري والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض قيل هي من الثلاثة الى العشرة وقيل من العشرة الى الخمسة عشر وقيل ما بين العشرة الى العشرين وقيل من الخمسة الى العشرة وقيل أربعون وقيل سبعون وقيل غير ذلك قال ابن عباس لا ترفعها العصبة من الرجال أولي القوة والعصبة أربعون رجلا (اذ قال له قومه لا تفرح) أي اذكر والمراد بقومه هنا هم المؤمنون من بني اسرائيل وقال الفراء هو موسى وهو جمع أريد به الواحد والمعنى لا تبطر ولا تأشر ولا تفرح بكثرة المال (ان الله لا يحب الفرحين) البطرين الاشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم قال الزجاج المعنى لا تفرح بالمال فان الفرح بالمال لا يؤدي حقه وقيل المعنى لا تفسد قال الزجاج

خلافه ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال في قوله حجرا محجورا أي عوذا معاذا فيحتمل انه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال حجرا محجورا عوذا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم وقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فاخبر انه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الاعمال التي ظنوا انها منجاة لهم شئ وذلك لانها فقدت الشرط الشرعي اما الاخلاص فيها واما المتابعة لشرع الله فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل فاعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية قال مجاهد والثوري وقدمنا أي وعمدنا وكذا قال السدي وبعضهم يقول أتينا عليه وقوله تعالى فجعلناه هباء منثورا قال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن الحرث عن علي رضي الله عنه في قوله هباء منثورا قال شعاع الشمس اذا دخل في الكوة وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم وكذا قال الحسن البصري هو الشعاع في كوة أحدهم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هباء منثورا قال هو الماء المهراق وقال أبو الاحوص عن أبي اسحق عن الحرث عن علي هباء منثورا قال الهباء وهج الدواب وروي مثله عن ابن عباس أيضا والضحاك وقاله عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وقال قتادة في قوله هباء منثورا قال ما رأيت يبيس الشجر اذا ذرته الريح فهو ذلك الورق قال وقال عبد الله بن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبي سريع الطائي عن عبيد بن يعلى قال وان الهباء الرماد اذا ذرته الريح وحاصل هذه الاقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك انهم عملوا اعمالا اعتقدوا انها على شئ فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا اذا انها لا شئ بالكلية وشبهت في ذلك بالشئ التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شئ بالكلية كما قال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى الى قوله تعالى لا يقدرون على شئ مما كسبوا وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

الزجاج الفرحين والفارحين سواء وقال الفراء معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح والفارحين الذين يفرحون في المستقبل وقال مجاهد معنى لا تفرح لا تبغ والفرحين الباغين وقيل معناه لا تبخل ان الله لا يحب الباخلين وقال ابن عباس الفرحين المرحين قيل انه لا يفرح بالدنيا الا من رضي بها واطمأن واما من قلبه الى الآخرة ويعلم انه يتركها عن قريب فلا يفرح بها (وابتغ فيما آتاك الله) أي واطلب فيما أعطاك الله من الاموال والثروة والغنى (الدار الآخرة) هي الجنة فانفقه فيما يرضاه الله كصدقة وصلة رحم واطعام جائع وكسوة عار ونفقة على محتاج لا في التجبر والبغي وقرئ واتبع (ولا تنس نصيبك من الدنيا) قال جمهور المفسرين وهو ان يعمل في دنياه لآخرته ونصيب الانسان عمره وعمله الصالح قال الزجاج معناه لا تنس ان تعمل لآخرتك لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته وقال الحسن وقتادة معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك اياه وهذا الصق بمعنى النظم القرآني وقال ابن عباس ان تعمل فيها لآخرتك وفسر بعضهم النصيب بالكفن وعليه قول الشاعر

نصيبك مما تجمع الدهر كله ⁂ رداآن تدرج فيهما وحنوط

وفسره البيضاوي بما يحتاج اليه منها وفي الحديث اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وهو مرسل وبهذا ما جرى عليه مجاهد وابن زيد وقيل معناه خذ ما تحتاجه من الدنيا وأخرج الباقي وقيل امر ان يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه (وأحسن كما أحسن الله اليك) الكاف للتشبيه أي أحسن احسانا كاحسان الله اليك أو للتعليل أي أحسن الى عباد الله بما أنعم به عليك من نعم الدنيا لما أمره بالاحسان بالمال أمره ثانيا بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وقيل اطع الله واعبده كما أنعم عليك ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما ان جبريل سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (ولا تبغ الفساد في الارض) أي لا تعمل فيها بمعاصي الله (ان الله لا يحب المفسدين) في الارض يعني انه يعاقبهم (قال انما أوتيته) أي المال (على علم عندي) قال قارون هذه المقالة ردا على من نصحه بما تقدم أي انما أعطيت ما أعطيت من المال لاجل علمي وليس

الطما آن ماحتى اذاجاءه لم يجده شيأ وتقدم الكلام على تفسير ذلك ولله الحمد والمنة وقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا أى يوم القيامة لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون وذلك ان أهل الجنة يصيرون الى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات فهم فى مقام أمين حسن المنظر طيب المقام خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما وأهل النار يصيرون الى الدركات السافلات والحسرات المتتابعات وانواع العذاب والعقوبات انها ساءت مستقرا ومقاما أى بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما ولهذا قال تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا أى بما عملوه من الاعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا الى ما صاروا اليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار فنبه تعالى بحال السعداء على حال الاشقياء وانه لاخير عندهم بالكلية فقال تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا أحسن مقيلا قال الضحاك عن ابن عباس انما هى ساعة فيقيل أولياء الله على الاسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين وقال سعيد بن جبير يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار قال الله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقال عكرمة انى لاعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الاكبر اذا انقلب الناس الى أهليهم للقيلولة فينصرف أهل النار الى النار واما أهل الجنة فينطلق بهم الى الجنة فكانت قيلولتهم فى الجنة واطعموا كبد حوت فاشبعهم ذلك كلهم وذلك قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقال سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقيل وقرأ ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا قال قالوا فى الغرف من الجنة وكان حسابهم اذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى فاما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وقال قتادة خير مستقرا وأحسن مقيلا مأوى ومنزلا وقال قتادة

تفضلا وهذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا قيل هو علم التوراة وقيل علمه بوجوه المكاسب والزراعات وانواع التجارات وقيل معرفة الكنوز والدفائن وقيل علم الكيمياء وقيل المعنى ان الله آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى اياها لفضل علمه منى واختار هذا الزجاج وأنكر ماعداه ثم رد الله عليه قوله هذا فقال (أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) للمال ولو كان المال أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله وقيل القوة الآلات والجمع الاعوان وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون لانه قد قرأ التوراة وعلم علم القرون الاولى واهلاك الله سبحانه لهم أو سمعه من حفاظ التواريخ قاله الكرخى (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أى لا يسئلون سؤال استعتاب كما فى قوله ولاهم يستعتبون وماهم من المعتبين وانما يسئلون سؤال تقريع وتوبيخ ويحاسبون ويشدد عليهم كما فى قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين وقال مجاهد لاتسأل الملائكة عن المجرمين لانهم يعرفون بسيماهم فانهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون وقال قتادة لا يسئل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها بل يدخلون النار بغير سؤال وحساب وقيل لا يسئل مجرمو هذه الامة عن ذنوب الامم الخالية أو المعنى يعترفون بها بغير سؤال وقيل لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكيتها اذا أراد ان يعاقبهم قال ابن عادل وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب (فخرج) قارون وكان خروجه يوم السبت (على قومه فى زينته) أى باتباعه الكثيرين ركبانا متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية قاله المحلى عن أوس بن أوس الثقفى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال خرج على قومه فى أربعة آلاف بغل أخرجه ابن مردويه وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ماخرج به على قومه من الزينة ولا يصح منها شئ مرفوعا بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة ولا ادرى كيف اسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه وقد ذكر المفسرون أيضا فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة والمراد انه خرج فى زينة انبهر لها من رآها ولهذا تمنى الناظرون اليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) اختلف فى هؤلاء القائلين بهذه المقالة فقيل هم من مؤمنى ذلك الوقت تمنوا الدنيا ليتقربوا الى الله تعالى ولينفقوه فى سبيل الخير فتمنوا مثله لاعينه حذرا من الحسد

وحدث صفوان بن محرز انه قال يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا في الدنيا الى الحمرة والبياض فيحاسب فاذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به الى النار والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول يارب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول الله صدق عبدي فارسلوه فيؤمر به الى الجنة ثم يتركان ماشاء الله ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شر مقيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت فيقول رب خير مقيل فيقال له عد رواها ابن أبي حاتم كلها وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحرث ان سعيدا الصواف حدثه انه بلغه ان يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر الى غروب الشمس وانهم يتقلبون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الامور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الابصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء قال مجاهد وهذا كما قال تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحرث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن يوسف بن مهران عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا قال ابن عباس رضي الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والانس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والانس وجميع الخلق فيحيطون بالجن والانس وبجميع الخلق ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والانس وجميع الخلق وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها

وقيل هم قوم من الكفار (يا) للتنبيه (ليت لنا مثل ما أوتي قارون) في الدنيا (انه لذو حظ عظيم) أي نصيب وبخت ودولة وافرة من الدنيا (وقال الذين أوتوا العلم) بما وعد الله في الآخرة وهم أحبار بني اسرائيل قالوا للذين تمنوا (ويلكم) كلمة زجر منصوبة بمقدر أي ألزمكم الله ويلكم قاله الزمخشري ومثله في التبيان وأصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى (ثواب الله) في الآخرة بالجنة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتي قارون في الدنيا لان الثواب منافعه عظيمة خالصة عن شوائب المضار دائمة وهذه النعم على الضد في هذه الصفات فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم وهذا بيان للمفضل عليه (ولا يلقاها) أي هذه الكلمة التي تكلم بها الاحبار وقيل الضمير يعود الى الاعمال الصالحة وقيل الى الجنة والمعنى لا يفهمها ولا يوفق عليها ويوفق للعمل لها (الا الصابرون) على طاعة الله والمصبرون أنفسهم عن الشهوات الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار (فخسفنا به) أي بقارون (وبداره الارض) يقال خسف المكان يخسف خسوفا ذهب في الارض وخسف به الارض خسفا أي غاب به فيها والمعنى ان الله غيبه وغيب داره في الارض (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله) أي ما كان له جماعة يدفعون ذلك الخسف عنه (وما كان) هو في نفسه (من المنتصرين) أي من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال كان قارون ابن عم موسى وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده فقال له موسى ان الله أمرني ان آخذ الزكاة فأبى فقال ان موسى يريد ان يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون ان تعطوه أموالكم فقالوا لا نحتمل فما ترى فقال لهم أرى أن أرسل الى بغي من بغايا بني اسرائيل فترسلها اليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فارسلوا اليها فقالوا لها نعطيك حكمك على ان تشهدي على موسى انه فجر بك قالت نعم فجاء قارون الى موسى فقال اجمع بني اسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال نعم فجمعهم فقالوا له ما أمرك ربك قال أمرني ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وان تصلوا الرحم وكذا وكذا وأمرني اذا زنى الرجل وقد أحصن ان يرجم قالوا وان كنت أنت قال

وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والانس وجميع الخلق ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والانس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والانس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والانس وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم (١٣٦) زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل ما بين أخمص قدم أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه الى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبتيه الى حجزته مسيرة خمسمائة عام وما بين حجزته الى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته الى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام وجهنم (١) مجسه هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثني الحجاج عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران انه سمع ابن عباس يقول ان هذه السماء اذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الانس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الارض فيقول أهل الارض جاء ربنا فيقولون لم يجىء وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف الى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والانس قال فتنزل الملائكة الكروبيون ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجهه وجه صاحبه وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول سبحان الملك القدوس وعلى رؤسهم شيء مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فداره على علي بن زيد بن جدعان وفيه ضعف في سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم وقد قال الله تعالى فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك

تفجيع

ثم قالوا فانك قد زنيت قال أنا فارسلوا الى المرأة فجاءت فقالوا اما تشهدين على موسى فقال لها موسى أنشدك بالله الا ما صدقت قالت اما اذا انشدتني بالله فانهم دعوني وجعلوا لي جعلا على ان أقذفك بنفسي وأنا أشهد انك بريء وانك رسول الله فخر موسى ساجدا يبكي ويقول يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله اليه ما يبكيك قد سلطناك على الارض فرها فتطيعك فرفع رأسه فقال خذيهم فاخذتهم الى أعقابهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم الى ركبهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم الى أعناقهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم فغيبتهم فأوحى الله اليه ياموسى سألك عبادي وتضرعوا اليك فلم تجبهم وعزتي لو انهم دعوني لاجبتهم قال ابن عباس وذلك قوله فخسفنا به وبداره الارض خسف به الى الارض السفلى ذكره الخازن والقرطبي وغيرهما بالفاظ وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لبس ثوبا جديدا فاختال فيه خسف به من شفير جهنم فهو يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها لان قارون لبس جبة فاختال فيها فخسف الله به الارض رواه الحرث بن اسحق من حديث ابن عباس وأبي هريرة باسناد ضعيف جدا قال الحافظ في الفتح ان مقتضى هذا الحديث ان الارض لا تأكل جسده فيمكن ان يلغز ويقال لنا كافر لا يبلى جسده بعد الموت وهو قارون ذكره ابن القيم والتجلجل السوخ في الارض والتحرك والتضعضع والجلجلة التحريك قيل اذا وصل قارون الى قرار الارض السابعة نفخ اسرافيل في الصور (وأصبح) أي صار (الذين تمنوا مكانه) أي منزلته ورتبته من الدنيا (بالامس) أي منذ زمان قريب ولم يرد خصوص اليوم الذي قبل يومه (يقولون ويكأن الله) أي يقول كل واحد منهم متندما على ما فرط منه من التمني قال النحاس أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي ان القوم تنبهوا فقالوا وي والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه وي قال الجوهري وي كلمة تعجب ويقال ويك وقد تدخل وي على كأن المخففة والمشددة ويكأن الله قال الخليل هي مفصولة تقول وي ثم تبتدي فتقول كان وقال الفراء هي كلمة تقرير كقولك أما ترى صنع الله واحسانه وقيل هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا وقال قطرب انما هو ويلك فاسقطت لامه وقال ابن الاعرابي والاخفش معنى ويك اعلم وقال القتيبي معناها بلغة حمير رحمة لك وقيل هي بمعنى ألم تر وروي عن الكسائي انه قال هي كلمة

---

(١) قوله مجسه هكذا في الاصل الذي بأيدينا من غير نقط وليحرر لفظ الرواية اه مصححه

وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر بن عبد الله اذا نظر أهل الارض الى العرش يهبط عليهم من فوقهم شخصت اليه أبصارهم ورجفت كلاهم في أجوافهم وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم الى حناجرهم قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثنا المعتمر بن سليمان عن عبد الجليل عن أبي حازم عن عبد الله بن عمرو قال يهبط الله عز وجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة فيصوت في تلك الظلمة صوت تخلع له القلوب وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو ولعله من الزاملتين والله أعلم وقوله تعالى الملك يومئذ

تفجع وقيل معناها ألم تر وأقدر (يبسط) أي يوسع (الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي ويضيق على من يشاء والمعنى ليس الامر كما زعمنا من ان البسط ينبئ عن الكرامة والقبض ينبئ عن الهوان بل كل منهما بمقتضى مشيئته (لولا ان من الله علينا) برحمته بعدم اعطائه ما تمنيناه وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغي (لخسف بنا) كما خسف به قرئ مبنيا للفاعل وللمفعول (ويكأنه لا يفلح الكافرون) أي لا يفوزون بمطلب من مطالبهم تأكيد لما قبله (تلك) التي سمعت بخبرها وبلغك شأنها (الدار الآخرة) أي الجنة والاشارة اليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) أي رفعة وتكبرا على المؤمنين وقيل ظلما وقيل استطالة على الناس وتهاونا بهم بالبغي (ولا فسادا) أي عملا بمعاصي الله سبحانه فيها كقتل النفس والزنا والسرقة وشرب الخمر أو دعاء الى عبادة غير الله ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثا بقوله ان فرعون علا في الارض ولا تبغ الفساد في الارض وذكر الفساد والعلو منكرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه انه فساد وانه علو من غير تخصيص بنوع خاص اما الفساد فظاهر انه لا يجوز شئ منه كائنا ما كان وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريقة التكبر على الغير والتطاول على الناس وليس منه طلب العلو في الحق والرياسة في الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال التجبر في الارض والاخذ بغير الحق أخرجه المحاملي والديلمي وروى مثله عن مسلم البطين وابن جرير وعكرمة وقال سعيد بن جبير بغيا في الارض وعن الحسن قال هو الشرف والعلو عند ذوي سلطانهم وأقول ان كان ذلك التقوى به على الحق فهو من خصال الخير لا من خصال الشر وعن علي بن أبي طالب قال ان الرجل ليحب ان يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علي وهذا محمول على من أحب ذلك لا لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت ان رجلا قال يا رسول الله اني أحب ان يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنة أفمن الكبر

الحق للرحمن الآية كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وفي الصحيح ان الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الارضين بيده الاخرى ثم يقول أنا الملك أنا الديان أين ملوك الارض أين الجبارون أين المتكبرون وقوله وكان يوما على الكافرين عسيرا أي شديدا صعبا لانه يوم عدل وقضاء فصل كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير فهذا حال الكافرين في هذا اليوم وأما المؤمنون فكما قال تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر الآية وروى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا وقوله تعالى ويوم يعض الظالم على يديه الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه وسلك طريقا

 أخرى غير سبيل الرسول فاذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الاشقياء فانها عامة في كل ظالم كما قال تعالى يوم تقلب وجوههم في النار الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا يعني من صرفه عن الهدى وعدل به الى طريق الضلال وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما لقد أضلني عن الذكر وهو القرآن بعد اذ جاءني أي بعد بلوغه الي قال الله تعالى وكان الشيطان للانسان خذولا أي يخذله عن الحق

ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه اليه (وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) يقول تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم انه قال يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وذلك ان المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآية فكانوا اذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه وترك الايمان به وترك تصديقه من هجرانه وترك تدبره

وتفهمه من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدول عنه الى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه فنسأل الله الكريم المنان القادر على مايشاء أن يخلصنا مما يسخط ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه انه كريم وهاب وقوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الامم الماضين لان الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين يدعون الناس الى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا وكفى بربك هاديا ونصيرا أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فان الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة وانما قال هاديا ونصيرا لان المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين الآية (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي اليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والانجيل والزبور وغيرها من الكتب الالهية فاجابهم الله تعالى عن ذلك بانه انما نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ومايحتاج

ذلك قال لا ان الله جميل يحب الجمال وعن علي بن أبي طالب قال نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس وعن ابن عباس مثله وعن عدي بن حاتم قال لما دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألقى اليه وسادة فجلس على الارض فقال أشهد انك لا تبغي علوا في الارض ولا فسادا فاسلم أخرجه ابن مردويه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) أي لمن اتقى عقاب الله باداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة (من جاء) يوم القيامة متصفا (بالحسنة) بان كان من المؤمنين والحسنة ما يحمد فاعلها شرعا وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها في القيامة والمراد الحسنة المقبولة الاصلية المعمولة للعبد أو ما في حكمها كما لو تصدق عنه غيره لا المأخوذة في نظير ظلامته كما لو ضرب زيد عمرا ضربة وكان لزيد حسنات موجودة فيؤخذ منها فيعطى لعمرو فهذه الحسنة لا تنسب لعمرو لا حقيقة ولا حكما فلا تضاعف له ويخرج بالمعمولة مالو هم بحسنة فلم يعملها لمانع فانها تكتب له واحدة ويجازى عليها من غير تضعيف (فله خير منها) وهو ان الله يجازيه بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف والتضعيف خاص بهذه الامة وأما غير هذه الامة من بقية الامم فلا تضعيف لهم والصواب دخول المضاعفة في حسنات العصاة ان كانت على وجه يتناوله القبول بان يعملها على وجه لا رياء فيه ولا سمعة وعدم دخولها في أعمال الكفار لانه لا يجتمع مع الكفر طاعة مقبولة ان لم يسلم والا فتكون كالمقبولة في الاسلام ولا تضاعف الحسنات الحاصلة بالتضعيف (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى) معناه فلا يجزون فوضع (الذين عملوا السيئات) موضع الضمير لان في اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين والسيئة هي مايذم فاعلها شرعا صغيرة كانت أو كبيرة وسميت سيئة لان فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها (الا) مثل (ما كانوا يعملون) وحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا الخ مبالغة في المماثلة ومن فضله العظيم ان لا يجزي السيئة الا بمثلها ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل (ان الذي فرض عليك القرآن) قال المفسرون أي أنزل عليك وقال الزجاج فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن وتقدير الكلام فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه وقيل أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه عن علي بن حسين بن واقد قال أنزلت

هذه

المعنى الأحكام لتثبت قلوب المؤمنين به كقوله وقرآ نافرقناه الآية ولهـذا قال لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا قال قتادة بيناه تبيينا وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا ولا يأتونك بمثل أي بحجة وشبهة الاجئناك بالحق وأحسن تفسيرا أي ولا يقولون قولا يعارضون به الحق الا أجبناهم بما هو الحق في نفس الامر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ولا يأتونك بمثل أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول الاجئناك بالحق الآية أي الانزل جبرائيل من الله تعالى بجوابهم وما هذا الا اعتناء وكبير شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلا ونهارا سفرا وحضرا وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر اخوانه من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم نبي أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ففي الملأ الاعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك الى الارض منجما بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائي باسناده عن ابن عباس قال أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة قال الله تعالى ولا يأتونك بمثل الاجئناك بالحق وأحسن تفسيرا وقال تعالى وقرآ نا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم الى جهنم في أسوء الحالات وأقبح الصفات الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا وفي الصحيح عن أنس ان رجلا قال يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال ان الذي أمشاه على رجليه قادر ان يمشيه على وجهه يوم القيامة وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) يقول تعالى

هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجحفة حين خرج صلى الله عليه وآله وسلم مهاجرا الى المدينة فليست مكية ولا مدنية كما مر في أول السورة (لرادك الى معاد) قال جمهور المفسرين أي الى مكة وهذا أقرب التفاسير وبه قال ابن عباس كما أخرجه البخاري عنه وزاد كما أخرجك منها قال القتيبي معاد الرجل بلده لانه ينصرف فيعود الى بلده وقال مجاهد وعكرمة والزهري والحسن ان المعنى لرادك الى يوم القيامة وهو اختيار الزجاج يقال بيني وبينك المعاد أي يوم القيامة لان الناس يعودون فيه احياء وقال أبو مالك وأبو صالح لرادك الى الجنة وبه قال أبو سعيد الخدري وروى عن مجاهد وقيل الى معاد أي الى الموت (قل ربي اعلم من جاء بالهدى) وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانه الجائي به (ومن هو في ضلال مبين) وهم المشركون وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم انك في ضلال والاولى حمل الآية على العموم وان الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين ويجازيها بما تستحقه من خير وشر (وما كنت) قبل مجيء الرسالة اليك (ترجو) وتؤمل ان نرسلك الى العباد و (ان يلقى اليك الكتاب) فانزاله عليك ليس عن ميعاد ولا عن طلب سابق منك وهذا تذكير له صلى الله عليه وآله وسلم بالنعم والاستثناء في قوله (الا رحمة من ربك) منقطع أي لكن القاه عليك رحمة من ربك أو متصل حملا على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا لاجل الرحمة من ربك والاول أولى وبه جزم الكسائي والفراء ثم أمره الله بخمسة أشياء فقال (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أي عونا لهم وفيه تعريض بغيره من الامة وقيل المراد لا تكونن ظهيرا لهم بمداراتهم (ولا يصدنك) قرئ من صده يصده ومن أصده بمعنى صده والمعنى لا يمنعنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم (عن آيات الله) أي عن تلاوتها والعمل بها أو تبليغها (بعد اذ أنزلت اليك) أي بعد اذ أنزلها الله اليك وفرضت عليك (وادع) الناس (الى ربك) أي الى الله والى توحيده والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه (ولا تكونن من المشركين) باعانتهم وفيه تعريض بغيره كما تقدم لانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون منهم بحال من الاحوال وكذلك قوله (ولا تدع مع الله الها آخر) فانه تعريض بغيره ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال (لا اله الا هو كل شئ) من الاشياء كائنا ما كان (هالك) في حد ذاته لان وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده الى واجب الوجود فهو بالقوة و بالذات

متوعدا من كذب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من مشركي قومه ومن خالفه ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالامم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وانه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أي نبيا موازرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل اذ لا فرق بين رسول ورسول ولو فرض ان الله تعالى بعث اليهم كل رسول فانهم كانوا يكذبون ولهذا قال تعالى وقوم نوح لما كذبوا الرسل ولم يبعث اليهم الا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله عزوجل ويحذرهم نقمه فما آمن معه الا قليل ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يترك من بني آدم على وجه الارض سوى أصحاب السفينة فقط وجعلناهم للناس آية أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من انجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره وقوله تعالى وعادا وثمود وأصحاب الرس قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة كسورة الاعراف بما أغنى عن الاعادة وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج عن ابن عباس هم أهل قرية من قرى ثمود وقال ابن جريج قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس وقال قتادة فلج من قرى اليمامة ولابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله وأصحاب الرس قال بئر بأذربيجان وقال الثوري عن أبي بكير عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها قال ابن اسحق عن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الاسود وذلك ان الله تعالى بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها الا ذلك العبد الاسود ثم ان أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرا فالقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاما وشرابا ثم يأتي به الى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلي اليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت قال فكان ذلك ما شاء الله ان يكون ثم انه ذهب يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته

النقضين

معدوم حالا والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي لان وجوده كلا وجود وأما حمل هالك على المستقبل فكلام ظاهري قاله الشهاب (الا وجهه) أي الا ذاته قال الزجاج وجهه منصوب على الاستثناء ولو كان في غير القرآن كان مرفوعا بمعنى كل شئ غير وجهه هالك وقضية الاستثناء اطلاق الشئ على الله تعالى وهو الصحيح لان المستثنى داخل في المستثنى منه وانما جاء على عادة العرب في التعبير بالاشرف عن الجملة ومن لم يطلقه عليه جعله متصلا أيضا وجعل الوجه ما عمل لاجله سبحانه فان ثوابه باق قاله الكرخي وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال لما نزلت كل من عليها فان قالت الملائكة هلك أهل الارض فلما نزلت كل نفس ذائقة الموت قالت الملائكة هلك كل نفس فلما نزلت كل شئ هالك الا وجهه قالت الملائكة هلك أهل السماء والارض وعنه قال الا ما أريد به وجهه والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله

ثمانية حكم البقاء يعمها * من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي ونار وجنة * وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

(له الحكم) أي القضاء النافذ يقضي بما شاء ويحكم بما أراد (واليه) أي الى جزائه أو اليه وحده (ترجعون) في جميع أحوالكم في الدنيا وعند البعث ليجزي المحسن باحسانه والمسيئ باساءته لا الى غيره سبحانه وتعالى

(سورة العنكبوت هي تسع وتسعون آية قيل مكية كلها)

قاله ابن عباس وابن الزبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقيل انها مدنية كلها وهو أحد قولي ابن عباس وقتادة وهو قول يحيى بن سلام وعن علي بن أبي طالب قال نزلت بين مكة والمدينة وهذا قول ثالث وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات يقرأ في الركعة الاولى العنكبوت أو الروم وفي الثانية يس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في أول سورة البقرة (أحسب الناس) الاستفهام للتوبيخ والتقريع أو للتقرير والحسبان قوة أحد

وفرغ منها فاذا أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم انه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم انه هب واحتمل حزمته ولا يحسب الا انه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ثم ذهب الى الحفيرة في موضعها الذي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وكان قد بدا للقوم فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الاسود ومافعل فيقولون له لاندري حتى قبض الله النبي وهب الاسود من نومته بعد ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة

النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم هو القطع على أحدهما ولا يصح تعليقه بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل (أن يتركوا أن يقولوا) أي لان يقولوا أو بان يقولوا أو على ان يقولوا (آمنا) أي نطقوا بكلمة الشهادة (وهم لا يفتنون) أي يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء وليس الامر كما حسبوا بل لابد ان نختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب والثابت في الدين من المضطرب فيه فالآية مسوقة لانكار ذلك الحسبان واستبعاده وبيان انه لابد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها قال الزجاج المعنى أحسبوا ان نقنع منهم بان يقولوا انا مؤمنون فقط ولا يمتحنون بما يتبين به حقيقة ايمانهم بل يمتحنون ليتميز الراسخ في الدين من غيره قال السدي وقتادة ومجاهد أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ماذكرنا قال ابن عطية وهذه الآية وان كانت نازلة في سبب خاص فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم موجود حكمها بقية الدهر وذلك ان الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالاسر ونكاية العدو وغير ذلك والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الاوطان والمهاجرة ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الانفس والاموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم لينالوا الصبر عليها والى الدرجات فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وغيرهم انها أنزلت في ناس كانوا بمكة وقد أقروا بالاسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة لما أنزلت آية الهجرة انه لا يقبل منكم اقرار ولا اسلام حتى تهاجروا قال فخرجوا عامدين الى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا اليهم انه قد أنزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فان اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون وقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فانزل الله فيهم ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم وعن قتادة نحوه باختصار منه وقيل نزلت في عمار ابن ياسر اذ كان يعذب في الله وعن ابن مسعود قال أول من أظهر الله اسلامه سبعة رسول الله وأبو بكر وسمية أم عمار وعمار وصهيب وبلال والمقداد فاما رسول الله فمنعه الله

وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن كعب مرسلا وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه ادراجا والله أعلم وقال ابن جرير لا يجوز ان يحمل هؤلاء على انهم أصحاب الرس الذين ذكروا في القرآن لان الله أخبر عنهم انه أهلكهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم الا ان يكون حدث احداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم واختار ابن جرير ان المراد باصحاب الرس أصحاب الاخدود الذين ذكروا في سورة البروج فالله أعلم وقوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا أي وأمما بين اضعاف ذلك أهلكناهم كثيرا ولهذا قال وكلا ضربنا له الامثال أي بينا لهم الحجج وأوضحنا لهم الادلة كما قال قتادة وأزحنا الاعذار عنهم وكلا تبرنا تتبيرا أي أهلكنا اهلاكا كقوله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح والقرن هو الامة من الناس كقوله ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والاظهر ان القرن هو الامة المتعاصرون في الزمن الواحد واذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين خير القرون قرني الحديث ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل كما قال تعالى وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين وقال وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وقال تعالى وانها لبسبيل مقيم وقال وانهما لبامام مبين ولهذا قال أفلم يكونوا يرونها أي فيعتبروا بما حل باهلها بسبب تكذيبهم الرسول وبمخالفتهم أوامر الله بل كانوا لا يرجون نشورا يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون

لأنهم لا يرجون نشورا أي معادا يوم القيامة (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأوه كما قال وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا الآية يعنونه بالعيب والنقص وقال ههنا وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث

الله رسولا أي على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله كما قال ولقد استهزئ برسل من قبلك الآية وقوله تعالى إن كاد ليضلنا عن آلهتنا يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا وسوف يعلمون حين يرون العذاب الآية ثم قال تعالى لنبيه منبها أن من كتب عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل أرأيت من اتخذ إلهه هواه أي مهما استحسن من شيء ورآه حسنا فإن الله يضل من يشاء الآية ولهذا قال ههنا أفأنت تكون عليه وكيلا قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول ثم قال تعالى أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون الآية أي هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة فإن تلك تفعل ما خلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم (ألم تر

بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه وأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أي هذه سنة الله في عباده قديمة جارية في الأمم كلها وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع لهم من قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل ومنهم من ألقي في النار ومنهم من مشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب والمقصود التنبيه على حظهم في هذا الامتحان والمعنى أحسبوا ذلك وقد علموا أنه خلاف سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا (فليعلمن الله الذين صدقوا) في قولهم آمنا علم مشاهدة (وليعلمن الكاذبين) منهم في ذلك أي ليظهر الله الصادق والكاذب في قولهم ويميز بينهم وقرئ بضم الياء وكسر اللام والمعنى أنه يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهم أو يعلم الناس بصدق من صدق ويفضح الكاذبين بكذبهم أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها وقيل إن علم الله صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع إلا أن قبل التكليف يعلم أن زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصي ثم بعد التكليف يعلم أنه مطيع والآخر عاص ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال وإنما المتغير هو المعلوم وأتى بصيغة الفعل في صدقوا وباسم الفاعل في الكاذبين لأن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه لأن وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام وعن قوم مستمرين على الكفر فعبر في حق الأولين بلفظ الفعل وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات فالله أراده (أم حسب الذين يعملون السيئات) أي الشرك والمعاصي (أن يسبقونا) أي أن يفوتونا فلا ننتقم منهم ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون وأم هي المنقطعة ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه وقالوا الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين المشركين (ساء ما يحكمون) أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا وقال

الزجاج

إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى ألم تر إلى ربك كيف مد الظل قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ولو شاء لجعله ساكنا أي دائما لا يزول كما قال تعالى قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الآيات وقوله تعالى ثم جعلنا الشمس عليه دليلا

الزجاج ما فى موضع نصب بمعنى ساء شيأ أو حكما يحكمون قال ويجوز ان تكون ما فى موضع رفع بمعنى ساء الشئ أو الحكم حكمهم وقال ابن كيسان ساء حكمهم (من كان يرجو لقاء الله) الرجاء بمعنى الطمع قاله سعيد بن جبير وقيل الرجاء هنا بمعنى الخوف قال القرطبى وأجمع أهل التفسير على ان المعنى من كان يخاف الموت وقيل البعث والحساب قال الزجاج أى ثواب المصير اليه تعالى فالرجاء على هذا معناه الامل ومن موصولة أو شرطية والجزاء قوله (فان أجل الله) والراجح انه ليس بجزاء لان أجله جاء لا محالة من غير تقييد بشرط لانه لو كان جواب الشرط لزم ان من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيا بل الجواب محذوف أى فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا والمعنى من كان يرجو ويطمع لقاء الله فان أجله المضروب للبعث والثواب والعقاب (لآت) أى لجاء لا محالة قال مقاتل يعنى يوم القيامة وفى الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى (وهو السميع) لاقوال عباده (العليم) بما يسرونه وما يعلنونه (ومن جاهد) الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات أو جاهد الشيطان بدفع وساوسه (فانما يجاهد لنفسه) أى ثواب ذلك له لا لغيره ولا يرجع الى الله سبحانه من نفع ذلك شئ وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فان الكريم اذا وعد وفى فالحصر اضافى فلا يقال كيف يستقيم الحصر مع ان جهاد الشخص قد ينتفع به غيره كما ينتفع الآباء باصلاح الاولاد وينتفع من سن سنة حسنة بفعل من استن بها وقيل المعنى ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله فليس لله حاجة بجهاده والاول أولى وفيه بشارة وتخويف (ان الله لغنى عن العالمين) من الانس والجن والملائكة فلا يحتاج الى طاعاتهم كما لا تضره معاصيهم وانما أمر ونهى رحمة لعباده (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم) أى لنبطلها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير اذهاب السيئة بالحسنة والمراد بالسيئة الشرك والمعاصى وتكفيرها هو الايمان والتوبة والآية تستدعى وجود السيآت حتى تكفر والوجه فيه انه ما من مكلف الا وله سيئة أما غير الانبياء فظاهر وأما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى باحسن جزاء أعمالهم وقيل بجزاء أحسن أعمالهم والمراد باحسن مجرد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه وهذا

أى لولا ان الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لا يعرف الا بضده قال قتادة والسدى دليلا تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله وقوله تعالى ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا أى الظل وقيل الشمس يسيرا أى سهلا قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفيا وقال السدى قبضا خفيا حتى لا يبقى فى الارض ظل الا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس ما فوقه وقال أيوب بن موسى فى الآية قبضا يسيرا قليلا قليلا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا أى يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى والليل اذا يغشى والنوم سباتا أى قاطعا للحركة لراحة الابدان فان الاعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معا وجعل النهار نشورا أى ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله الآية (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا) وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو انه تعالى يرسل الرياح مبشرات أى بمجئ السحاب بعدها والريح أنواع فى صفات كثيرة من التسخير فمنها ما تثير السحاب ومنها ما تحمله ومنها ما تسوقه ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرا ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الارض ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ولهذا قال تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا أى آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراهما فهذا أصح ما يقال فى ذلك وأما من قال انه فعول بمعنى فاعل أو انه مبنى للمبالغة والتعدى فعلى كل منهما اشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى باسناده الى الطويل عن ثابت البنانى قال دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير وطرق البصرة قذرة فصلى فقلت له فقال وأنزلنا من السماء ماء طهورا قال طهره ماء السماء وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال أنزله الله طهورا لا ينجسه شئ وعن أبى سعيد قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر

يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب فقال ان الماء طهور لا ينجسه شئ رواه الشافعي وأحمد وصححه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وروى ابن أبي حاتم باسناده حدثنا أبي حدثنا أبو الاشعث حدثنا معتمر سمعت أبي يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد منه ماء من السماء ومنه ماء يشربه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق فاما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فاما النبات فما كان من السماء وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة الا أنبت بها في الارض عشبة او في البحر لؤلؤة وقال غيره في البر بر وفي البحر در وقوله تعالى

لنحيي به بلدة ميتا أي أرضا قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شئ فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الازاهير والالوان كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت الآية ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسي كثيرا اي وليشرب منه الحيوان من انعام واناسي محتاجين اليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم كما قال تعالى وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا الآية وقال تعالى فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها الآية وقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم ليذكروا أي أمطرنا هذه الارض دون هذه وسقنا السحاب يمر على الارض ويتعداها ويتجاوزها الى الارض الاخرى فيمطرها والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة ماء وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء

ليس بشئ لانه من باب الاولى فانه اذا جازاهم بالاحسن جازاهم بما دونه فهو من التنبيه على الادنى بالاعلى وقيل معناه نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أي ايصاء حسنا على المبالغة قاله الكواشي أو ذا حسن وهذا مذهب البصريين أو ان يفعل حسنا قاله الكوفيون قال الزجاج ان يفعل بوالديه ما يحسن وقيل وصيناه أمرا ذا حسن وقيل ألزمناه حسنا وقيل وصيناه بحسن وقيل يحسن حسنا ومعنى الآية التوصية للانسان بوالديه بالبر بهما والعطف عليهما والاحسان اليهما بكل ما يمكنه من وجوه الاحسان فيشمل ذلك اعطاء المال والخدمة ولين القول وعدم المخالفة لهما وغير ذلك قرئ حسنا بضم الحاء واسكان السين وبفتحهما وقرئ احسانا وكذا في مصحف أبي (وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم) أي ان طلبا منك وألزماك ان تشرك بي الها ليس لك علم بكونه الها وفي سورة لقمان على ان تشرك بي لان ما هنا وافق ما قبله لفظا وهو من جاهد فانما يجاهد لنفسه وما هناك محمول على المعنى لان التقدير وان حملاك على أن تشرك قاله الكرماني (فلا تطعهما) في الاشراك وعبر بنفي العلم عن نفي الاله لان ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه فكيف بما علم بطلانه واذا لم تجز طاعة الابوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه فلا طاعة لهما فيما هو معصية الله كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال قالت أمي لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا فنزلت هذه الآية الى قوله فلا تطعهما وأخرجه أيضا الترمذي من حديثه وقال نزلت في أربع آيات وذكر نحو هذه القصة وقال حسن صحيح وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا قال القرطبي فلم يطعها سعد وقال لها والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فان شئت فكلي وان شئت فلا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت قال الكرخي هذا وما في لقمان والاحقاف نزل في سعد بن أبي وقاص (الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أي أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها فأجازي كلا منكم بما يستحقه وفي

ثم قرأ هذه الآية ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا اي ليذكروا باحياء الله الارض الميتة انه قادر على احياء الاموات والعظام الرفات أو ليذكر من منع المطر انما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه وقال عمر مولى غفرة كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل اني أحب أن أعلم أمر السحاب قال فقال له جبريل يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صكاك مختمة اسق بلاد كذا وكذا كذا وكذا قطرة رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى فأبى أكثر الناس الا كفورا قال عكرمة يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذي قاله

ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة في الدين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في زمرة الراسخين في الصلاح وهو من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الانبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وقال يوسف عليه السلام توفني مسلما وألحقني بالصالحين وقيل لندخلنهم في مدخل الصالحين وهو الجنة كذا قيل والاول أولى ومعنى ادخالهم فيهم كونهم معدودين من جملتهم لاتصافهم بصفتهم أي نحشرهم معهم اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين وارزقنا لسان صدق في الآخرين (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي) أي أصابه بلاء من الناس أو أذى من الكفار (في الله) أي في شأن الله وسبيله ولاجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الايمان وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات وأصحاب البدع مع أصحاب السنة وأهل التقليد مع أهل الاتباع بل كل مبطل مع كل محق من ايقاع أنواع الاذى عليهم لاجل الايمان بالله والعمل بما أمر به من كتاب وسنة (جعل فتنة الناس) التي هي ما يوقعونه عليه من الاذى وجزع من أذاهم فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظم (كعذاب الله) فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عقابه وقيل هو المنافق اذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر وكان يمكنه أن يصبر على الاذى الى حد الاكراه ويكون قلبه مطمئنا بالايمان فعل المنافقون فتنة الناس صارفة عن الايمان كما ان عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر فعذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عقاب أليم والمشقة اذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا قال الزجاج ينبغي للمؤمن أن يصبر على الاذية في الله أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي وغيرهم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت على ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد الا ما وارى ابط بلال (ولئن جاء نصر من ربك) أي فتح من الله للمؤمنين وغلبة على الاعداء وغنيمة يغنمونها منهم (ليقولن) بضم اللام حملا على المعنى بعد الحمل على اللفظ ونقل أبو معاذ النحوي انه قرئ بالفتح جريا على مراعاة لفظها أيضا وقراءة العامة أحسن لقوله (انا كنا معكم) في دينكم

عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لاصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل أتدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا)

يقول تعالى ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا يدعوهم الى الله عز وجل ولكن خصصناك يا محمد بالبعثة الى جميع أهل الارض وأمرناك ان تبلغهم هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده لتنذر أم القرى ومن حولها قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وفي الصحيحين بعثت الى الاسود والاحمر وفيهما وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ولهذا قال تعالى فلا تطع الكافرين وجاهدهم به يعني القرآن قاله ابن عباس جهادا كبيرا كما قال تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين الآية وقوله تعالى وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج أي خلق الماءين الحلو والملح فالحلو كالانهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال قاله ابن جريج واختاره ابن جرير وهذا المعنى لاشك فيه فانه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات والله سبحانه وتعالى انما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم اليه أنهارا وعيونا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لانفسهم وأراضيهم وقوله تعالى وهذا ملح أجاج أي مالح مر زعاق لا يستطاع وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح ومنها ما فيه مد وجزر ففي أول كل شهر يحصل منها

مدّ وجزر فاذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع الى غايتها الاولى فاذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد الى
الليلة الرابعة عشر ثم شرع في النقص فاجرى الله سبحانه وتعالى وهو ذو القدرة التامة العادة بذلك فكل هذه البحار الساكنة
خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك ولئلا تجوى الارض بما يموت فيها من الحيوان
ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به
فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته رواه الائمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن باسناد جيد وقوله

فأشركوا في النعمة فالمراد الفتنة في الايمان دون المحنة في المال لانها أعسر واعم قاله
الشهاب فكذبهم الله فقال (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) من الايمان والنفاق
أي هو سبحانه أعلم بما فيها من خير وشر فكيف يدعون هذه الدعاوى الكاذبة وهؤلاء
هم قوم ممن كان في ايمانهم ضعف كانوا اذا مسهم الاذى من الكفار وافقوهم واذا ظهرت
قوة الاسلام ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن قالوا انا كنا معكم وقيل المراد
بهذا وما قبله المنافقون قال مجاهد نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم فاذا أصابهم
بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا وقال الضحاك نزلت في ناس من المنافقين بمكة
كانوا يؤمنون فاذا أوذوا رجعوا الى الشرك وقيل نزلت في الذين أخرجهم المشركون
معهم الى بدر والظاهر أن هذا النظم من قوله ومن الناس من يقول الى قوله وقال الذين
كفروا نازل في المنافقين لما ظهر من السياق ولقوله (وليعلمن الله الذين آمنوا) بقلوبهم
أي صدقوا وثبتوا على الاسلام عند البلاء (وليعلمن المنافقين) بترك الايمان عند البلاء
فانه لتقرير ما قبله وتأكيده واللام في الفعلين لام قسم أي والله ليميزن الله بين الطائفتين
وليظهرن اخلاص المخلصين ونفاق المنافقين فيجازي الفريقين فالمخلص الذي لا يتزلزل بما
يصيبه من الاذى ويصبر في الله حق الصبر ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله والمنافق
الذي يميل هكذا وهكذا فان أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر بالله
عز وجل وان هبت ريح الاسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع الى الاسلام وزعم انه
من المسلمين وتغيير الاسلوب حيث عبر في الاول بالفعل وفي الثاني باسم الفاعل نص لرعاية
الفاصلة قيل هذه الآيات العشر من أول السورة الى ههنا مدنية وباقي السورة مكي قاله
يحيى بن سلام (وقال الذين كفروا) من أهل مكة كأبي سفيان وأتباعه (للذين آمنوا)
اللام لام التبليغ أي قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع أي قالوا لهم (اتبعوا
سبيلنا) أي اسلكوا طريقنا وادخلوا في ديننا (ولنحمل خطاياكم) أي ان كان اتباع
سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ
بها دونكم قال مقاتل يعني قولهم نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله واللام في
لنحمل لام الامر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك وقال الزمخشري الامر بمعنى الخبر وقرئ
بكسر اللام وهو لغة الحجاز ثم رد عليهم بقوله (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) من

تعالى وجعل بينهما برزخا وحجرا
أي بين العذب المالح برزخا أي
حاجزا وهو اليبس من الارض
وحجرا محجورا أي مانعا من أن
يصل أحدهما الى الآخر كقوله
تعالى مرج البحرين يلتقيان بينهما
برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما
تكذبان وقوله تعالى أمن جعل
الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا
وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين
حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم
لا يعلمون وقوله تعالى وهو
الذي خلق من الماء بشرا الآية
أي خلق الانسان من نطفة
ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل
الخلقة ذكرا أو أنثى كما يشاء فجعله
نسبا وصهرا فهو في ابتداء أمره
ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا
ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات
وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال
تعالى وكان ربك قديرا (ويعبدون
من دون الله ما لا ينفعهم ولا
يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا
وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا
قل ما أسألكم عليه من أجر الا من
شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذي
خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا
وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الاصنام التي لا تملك ضرا
ولا نفعا بلا دليل قادهم الى ذلك ولا حجة أدتهم اليه بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون
الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى وكان الكافر على ربه ظهيرا أي عونا في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم

الاولى

الغالبون كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون أى آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا وهؤلاء الجهلة للاصنام جند محضر يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين فى الدنيا والآخرة قال مجاهد وكان الكافر على ربه ظهيرا قال يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه وقال سعيد بن جبير وكان الكافر على ربه ظهيرا يقول عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك وقال زيد بن أسلم وكان الكافر على ربه ظهيرا قال مواليا ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرا بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله قل ما أسألكم عليه من أجر أى على هذا البلاغ وهذا الانذار من أجرة أطلبها من أموالكم وانما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى لمن شاء منكم ان يستقيم الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا أى طريقا ومسلكا ومنهجا يقتدى فيها بما جئت به ثم قال تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت أى فى أمورك كلها كن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبدا الذى هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم الدائم الباقى السرمدى الابدى الحى القيوم رب كل شئ ومليكه اجعله ذخرك وملجأك وهو الذى يتوكل عليه ويفزع اليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نفيل قال قرأت على معقل يعنى بن عبيد الله عن عبد الله بن أبى حسين عن شهر بن حوشب قال لقى سلمان النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض فجاج المدينة فسجد له فقال لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت وهذا مرسل حسن وقوله تعالى وسبح بحمده قرن بين حمده وتسبيحه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أى اخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وقال تعالى فاعبده وتوكل عليه وقال تعالى قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا وقوله تعالى وكفى به بذنوب عباده خبيرا أى بعلمه التام الذى

الاولى بيانية والثانية مزيدة للاستغراق أى وما هم بحاملين شيأ من خطاياهم التى التزموا بها وضمنوا لهم حملها ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال (انهم لكاذبون) فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم قال المهدوى هذا التكذيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى لان المعنى ان اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فلما كان الامر يرجع فى المعنى الى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر (وليحملن أثقالهم) أى أوزارهم التى عملوها والتعبير عنها بالاثقال للايذان بأنها ذنوب عظيمة (وأثقالا مع أثقالهم) أى أوزارا مع أوزارهم وهى أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى الى الضلالة ومثله قوله سبحانه ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم وغيره (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتوبيخ (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه من الاكاذيب والاباطيل التى كانوا يأتون بها فى الدنيا وأضلوهم بها ومن جملتها هذا الوعد (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وعمره أربعون سنة أو أكثر وبينه وبين آدم ألف سنة أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أول السورة ولقد فتنا الذين من قبلهم (فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) فيه تثبيت للنبى صلى الله عليه وآله وسلم كأنه قيل له ان نوحا لبث هذه المدة الكثيرة يدعو قومه ولم يؤمن منهم الا قليل فصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك قيل ووقع فى النظم الا خمسين عاما ولم يقل تسعمائة سنة وخمسين لان فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى فقد يطلق على ما يقرب منه وذكر الالف أفخم وأوصل الى الغرض وجئ بالمميز أولا بالسنة ثم بالعام لان تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة ثم انه خص لفظ العام بالخمسين ايذانا بأن نبى الله لما استراح منهم بقى فى زمن حسن والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجدب بالسنة وقد اختلف فى مقدار عمر نوح عليه السلام وليس فى الآية الا أنه لبث فيهم هذه المدة وهى لا تدل على انها جميع عمره فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم وقد تلبث فى الارض من بعد هلاكهم بالطوفان فقال ابن عباس بعث الله نوحا وهو ابن أربعين سنة ولبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وعن عكرمة قال كان عمر نوح

قبل أن يبعث الى قومه وبعد ما بعث ألفا وسبعمائة سنة وعن عوف بن شداد قال ان الله أرسل نوحا الى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة وقال أبو السعود عاش نوح بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين وعن أنس بن مالك قال جاء ملك الموت الى نوح فقال يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا ولذتها قال كرجل دخل بيتا له بابان فقال في وسط البيت هنية ثم خرج من الباب الآخر (فأخذهم الطوفان) أي الماء الكثير طاف بهم وعلاهم فغرقوا وارتفع على أعلى جبل أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر حتى غرق كل شيء غير من في السفينة والفاء للتعقيب أي أخذهم عقب تمام المدة المذكورة والطوفان يقال لكل شيء كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر أو قتل أو موت قاله النحاس وقال سعيد بن جبير وقتادة والسدي هو المطر وقال الضحاك الغرق وقيل الموت قال الشهاب ولكنه غلب في الماء كما هو المراد هنا (وهم ظالمون) أي مستمرون على الظلم والشرك ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدة بطولها (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أي أنجينا نوحا وأنجينا من معه في السفينة من أولاده وأتباعه واختلف في عددهم على أقوال قيل كانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم (وجعلناها) أي السفينة (آية للعالمين) أي عبرة عظيمة لهم ولمن بعدهم من الناس ان عصوا رسولهم وفي كونها آية وجوه أحدها انها كانت باقية على الجودي مدة مديدة كذا قال قتادة وثانيها ان الله سلم السفينة بأن جعلها آية وقيل ان الضمير راجع في جعلناها الى الواقعة أو القصة أو الحادثة أو الى النجاة أو الى العقوبة بالغرق (وابراهيم) انتصابه بالعطف على نوحا وقال الكسائي هو معطوف على الهاء في جعلناها وقيل منصوب بمقدر أي واذكر وقرأ ابراهيم النخعي وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهما وابراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال) منصوب على الظرفية أي وأرسلنا ابراهيم وقت قوله أو وجعلنا ابراهيم آية وقت قوله أو واذكر ابراهيم وقت قوله (لقومه اعبدوا الله) أي أطيعوه وأفردوه بالعبادة وخصوه بها أو وحدوه وفيه اشارة الى اثبات الاله (واتقوه) أن تشركوا به شيأ وفيه اشارة الى نفي الغير لان من يشرك مع الملك غيره في ملكه فقد أتى بأعظم الجرائم وقيل اعبدوا الله اشارة الى الاتيان

بالواجبات

لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله تعالى الذي خلق السموات والارض الآية أي هو الحي الذي لا يموت وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها والارضين السبع في سفولها وكثافتها في ستة أيام ثم استوى على العرش أي يدبر الامر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين وقوله ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا أي استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به وقد علم انه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فما قاله فهو الحق وما أخبر به فهو الصدق وهو الامام المحكم الذي اذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم اليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى فان تنازعتم في شيء الآية وقال تعالى وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله وقال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أي صدقا في الاخبار وعدلا في الاوامر والنواهي ولهذا قال تعالى فاسأل به خبيرا قال مجاهد في قوله فاسأل به خبيرا قال ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية في قوله فاسأل به خبيرا هذا القرآن خبير به ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الاصنام والانداد واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أي لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون ان يسموا الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم ولهذا أنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى أي هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أي لا نعرفه ولا نقر به أنسجد لما تأمرنا أي لمجرد قولك وزادهم نفورا فأما المؤمنون فانهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالالهية ويسجدون له وقد اتفق العلماء رحمهم الله على ان هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه والله سبحانه

وتعالى أعلم (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) يقول تعالى ممجدا نفسه ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج وهى الكواكب العظام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبى صالح والحسن وقتادة وقيل هى قصور فى السماء للحرس يروى هذا عن على وابن عباس ومحمد بن كعب وابراهيم النخعى وسليمان بن مهران الاعمش وهو رواية عن أبى صالح أيضا والقول الاول أظهر اللهم الا ان يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح الآية وقوله تعالى تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وهى الشمس المنيرة التى هى كالسراج فى الوجود كما قال تعالى وجعلنا سراجا وهاجا وقمرا منيرا أى مشرقا مضيئا بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقال مخبرا عن نوح عليه السلام انه قال لقومه ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ثم قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة أى يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران اذا ذهب هذا جاء هذا واذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى وسخر لكم الشمس والقمر دائبين الآية وقال يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا الآية وقال لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر الآية وقوله تعالى لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا أى جعلهما يتعاقبان توقيت العبادة عباده له عز وجل فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل وقد جاء فى الحديث الصحيح ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل وقال أبو داود الطيالسى حدثنا أبو حمزة عن الحسن ان عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيأ لم تكن تصنعه فقال انه بقى على من وردى شىء فأحببت ان أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية يقول من فاته شىء من الليل ان يعمله أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه بالليل وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خلفة أى مختلفين أى هذا

بالواجبات وقوله اتقوه اشارة الى الامتناع من المحرمات ثم يدخل فى الاول الاعتراف بالله وفى الثانى الامتناع من الشرك (ذلكم) أى عبادة الله وتقواه (خير لكم) من الشرك ولا خير فى الشرك أبدا ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم وقيل خير من كل شىء لان حذف المفضل عليه يقتضى العموم مع عدم احتياجه الى التأويل اذ المراد بكل شىء كل شىء فيه خيرية ويجوز كونه صفة لا اسم تفضيل (ان كنتم تعلمون) شيأ من العلم أو تعلمون علما تميزون به بين ما هو خير وما هو شر وان من المرسلين ابراهيم ثم ذكر ابراهيم بطلان مذهبهم بأبلغ وجه بقوله (انما تعبدون من دون الله أوثانا) وبين لهم انهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر والاوثان هى الاصنام وقال أبو عبيدة الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة وقال الجوهرى الوثن الصنم والجمع أوثان (وتخلقون افكا) أى وتكذبون كذبا على ان معنى تخلقون تكذبون قال الحسن معنى تخلقون تنحتون أى انما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها وهذا على قراءة الجمهور بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق وافكا بكسر الهمزة وسكون الفاء وقرأ على بن أبى طالب وزيد بن على والسلمى وقتادة بفتح الخاء واللام مشددة والاصل تتخلقون وروى عن زيد بن على انه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان افكا بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب أو صفة لمصدر محذوف أى خلقا افكا (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون على ان يرزقوكم شيأ من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم الى الله فهو الذى عنده الرزق كله فاسألوه واطلبوه من فضله (واعبدوه) أى وحدوه دون غيره (واشكروا له) على نعمائه ذكرهما بعد طلب الرزق لان الاول أى العبادة سبب لحدوث الرزق والثانى أى الشكر موجب لبقائه وسبب للمزيد عليه يقال شكرته وشكرت له (اليه) أى الى محل جزائه تعالى (ترجعون) بالموت ثم بالبعث لا الى غيره فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد وقال (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى وان تكذبونى فقد وقع ذلك لغيرى ممن قبلكم فهو من قول ابراهيم وقيل هو من قول الله سبحانه أى وان تكذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فذلك عادة الكفار مع من سلف كقوم شيث وادريس ونوح

وغيرهم وقيل هذا اعتراض متصل إلى قوله عذاب أليم وقع تذكيرا لأهل مكة وتحذيرا لهم (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) لقومه الذين أرسل إليهم وليس عليه هدايتهم وليس ذلك في وسعه ولما بين الله تعالى الأصل الأول وهو التوحيد وأشار إلى الثاني وهو الرسالة بقوله ما على الرسول الخ شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر وهذه الأصول الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض في الذكر الإلهي فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده) قرئ بالتحتية على الخبر قال أبو عبيد كأنه قال أولم ير الأمم وقرئ بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه وقيل هو خطاب من الله لقريش وقرئ يبدئ من أبدأ يبدئ ومن بدأ يبدي وقرئ كيف بدأ والمعنى ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ثم يخرجهم إلى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك ثم هو يعيدهم كما بدأهم وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم والواو للعطف على مقدر والمراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقا أول فهو من الله (إن ذلك) أي الخلق الأول والثاني (على الله يسير) لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون فكيف ينكرون الثاني ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير في الأرض ليتفكروا ويعتبروا فقال (قل) لمنكري البعث (سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة الله فإن من قدر على إنشائها ابتداء قدر على إعادتها وقيل إن المعنى قل لهم يا محمد سيروا ومعنى قوله (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أن الله الذي بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث أي وكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيدا بعد الموت ثانيا وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحد منهما إنشاء أي ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك والجملة عطف على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول قال ابن عباس النشأة الآخرة هي الحياة بعد الموت وهو النشور قرئ النشأة بالقصر وسكون الشين وبالمد وفتح الشين وهما لغتان

كالرأفة

بسواده وهذا بضيائه (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) هذه صفات عباد الله المؤمنين الذين يمشون على الأرض هونا أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى ولا تمش في الأرض مرحا الآية فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روي عن عمر أنه رأى شابا يمشي رويدا فقال ما بالك أأنت مريض قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله وعباد الرحمن الآية قال إن المؤمنين قوم ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض وإنهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ولكن أبكاهم الخوف من النار إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه وقوله تعالى وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما وكما قال تعالى وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه الآية وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي خالد الوالبي عن النعمان بن مقرن المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول

كالرأفة والرآفة وهى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد والاصل الانشاءة اوعلى حذف العامل اى ينشئ فينشؤن النشأة (ان الله على كل شئ) من البداءة والاعادة (قدير) والجملة تعليل لما قبلها (يعذب من يشاء) تعذيبه بعد النشأة الآخرة بالخذلان وهم الكفار والعصاة (ويرحم) بالهداية (من يشاء) رحمته وهم المؤمنون به المصدقون رسله العاملون بأوامره ونواهيه أو المعنى يعذب بالحرص ويرحم بالقناعة أو بسوء الخلق وحسنه أو بالاعراض عن الله وبالاقبال عليه أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة وقدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة لان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب أولا لسبق ذكر مستحقيه (واليه) لا الى غيره (تقلبون) أى ترجعون وتردون (وما انتم) الخطاب لبنى آدم وهم من أهل الارض وليس فى وسعهم الهرب فى السماء لكن المقصود امتناع الفوات على جميع الاحوال (بمعجزين) ربكم عن ادراككم (فى الارض) الفسيحة (ولا فى السماء) التى هى افسح منها قال الفراء ولا من فى السماء بمعجزين الله فيما قال وهو كما فى قول حسان

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

اى ومن يمدحه وينصره سواء ومثله قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم اى الا من له مقام معلوم والمعنى انه لا يعجزه سبحانه اهل الارض فى الارض ولا اهل السماء فى السماء ان عصوه وقال قطرب ان معنى الآية ولا فى السماء لو كنتم فيها كما تقول لا يفوتنى فلان ههنا ولا بالبصرة يعنى ولا بالبصرة لو صار اليها وقال المبرد المعنى ولا من فى السماء على ان من ليست موصولة بل نكرة وفى السماء صفة لها فاقيمت مقام الموصوف ورده الاخفش ورجح ما قاله قطرب والمقصود بيان امتناع الفوات على جميع التقادير ممكنا كان او مستحيلا وهذا ان حملت الارض والسماء على المشهورين معناهما ويجوز أن يراد بهما جهة السفل وجهة العلو وقال هنا فى الارض ولا فى السماء واقتصر فى شورى على الارض لان ما هنا خطاب لقوم فيهم النمروذ الذى حاول الصعود الى السماء وقد حذفا معا للاختصار فى قوله فى الزمر وما هم بمعجزين (وما لكم من دون الله) أى غيره (من ولى ولا نصير) من مزيدة للتأكيد أى ليس له ولى يواليه ولا نصير ينصره ويدفع عنه عذاب الله (والذين كفروا بآيات الله) اى التنزيلية او التكوينية او بجميعهما (ولقائه) اى

عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به واذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به اسناده حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد قالوا سلاما يعنى قالوا سدادا وقال سعيد ابن جبير ردوا معروفا من القول وقال الحسن البصرى قالوا سلام عليكم ان جهل عليهم حلموا يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ثم ذكر ان ليلهم خير ليل فقال تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما أى فى طاعته وعبادته كما قال تعالى كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحارهم يستغفرون وقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع الآية وقال تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه الآية ولهذا قال تعالى والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما أى ملازما دائما كما قال الشاعر

ان يعذب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

ولهذا قال الحسن فى قوله ان عذابها كان غراما كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وانما الغرام اللازم مادامت الارض والسموات وكذا قال سليمان التيمى وقال محمد بن كعب ان عذابها كان غراما يعنى ما نعموا فى الدنيا ان الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها اليه فأغرمهم فادخلهم النار انها ساءت مستقرا ومقاما أى بئست المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما وقال ابن أبى حاتم عند قوله انها ساءت مستقرا ومقاما حدثنا أبى حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحرث قال اذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فاذا انتهى الى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاساود والعقارب قال فتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدلم فاذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم الى أقدامهم فاذا وجدت حر النار رجعت وقال الامام احمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعنى ابن مسكين عن أبى ظلال عن أنس بن مالك رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عبدا في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فأتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع الى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل ائتني به فانه في مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل فيقول الله عز وجل ردوا عبدي فيقول يا رب ما كنت أرجو اذا أخرجتني منها ان تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدي

وقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا الآية أي ليسوا بمبذرين في انفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء عن أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم بل عدلا خيارا وخير الامور أوسطها لا هذا ولا هذا وكان بين ذلك قواما كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط الآية وقال الامام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر ابن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن ضمرة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من فقه الرجل قصده في معيشته ولم يخرجوه وقال أحمد أيضا حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي حدثنا ابراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عال من اقتصد لم يخرجوه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا ابراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال يعني العبسي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر وما أحسن القصد في العبادة ثم قال لا نعرفه يروى الا من حديث حذيفة رضي الله عنه وقال الحسن البصري ليس في النفقة في سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة في معصية الله عز وجل (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية

انكروا البعث وما بعده ولم يعملوا بما اخبرتهم به رسل الله سبحانه والاشارة بقوله (اولئك) الى الكافرين بالآيات واللقاء (يئسوا من رحمتي) في الدنيا ولم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ولا ما اخبرتهم به رسله وقيل المعنى انهم ييأسون يوم القيامة من رحمة الله وهي الجنة وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه واضاف الرحمة الى نفسه ولم يضف العذاب اليها لسبق رحمته واعلاما للعباد بعمومها لهم (واولئك لهم عذاب اليم) تكرير الاشارة للتأكيد ووصف العذاب بكونه أليما للدلالة على انه في غاية الشدة وهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة وقوله (فما كان جواب قومه الا ان قالوا) رجوع الى خطاب ابراهيم بعد الاعتراض عما تقدم من خطاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم على قول من قال ان قوله قل سيروا في الارض خطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم واما على قول من قال انه خطاب لابراهيم عليه السلام فالكلام في سياقه سابقا ولاحقا اى قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم لا تجيبوا عن براهينه الثلاثة الدالة على الاصول وهي التوحيد والنبوة والحشر وافعلوا بابراهيم احد الامرين (اقتلوه) بالسيف او نحوه فتستريحوا منه عاجلا (او حرقوه) بالنار فاما ان يرجع الى دينكم اذا اوجعته النار واما ان يموت بها اذا اصر على قوله ودينه وانما اجابوا بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح ثم اتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار (فأنجاه الله من النار) بأن جعلها عليه بردا وسلاما قيل ان ذلك اليوم لم ينتفع احد بنار وذلك لذهاب حرها (ان في ذلك) اى في انجاء الله لابراهيم بعد القائه في النار (لآيات) اى دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا اثرت فيها اثرا بل صارت الى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة والاحراق قال المحلي هي عدم تأثيرها فيه واخمادها وانشاء روض مكانها في زمن يسير انتهى اى مقدار طرفة عين بحيث انهم لم تؤذه ولكن احرقت وثاقه ليخلص (لقوم يؤمنون) اى يصدقون بتوحيد الله وقدرته وانما خص المؤمنون لانهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه وينتفعون بها واما من عداهم فهم عن ذلك غافلون (وقال) ابراهيم لقومه بعد الانجاء من النار ولم يحصل له منهم رعب ولا مهابة (انما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم) اى للتودد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم ان تركتم عبادتها اقرئ برفع

مودة واضافها الى بينكم وبالنصب منونة ونصب بينكم على الظرفية (في الحياة الدنيا) اي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) اي يكفر بعض هؤلاء المتخذين للاوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم فيتبرأ القادة من الاتباع والاتباع من القادة وقيل المعنى يتبرأ العابدون للاوثان من الاوثان والاوثان من العابدين لها يقولون لا نعرفكم (ويلعن بعضكم بعضا) اي كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين (ومأواكم النار) اي مأوى الكفار جميعا وقيل يدخل في ذلك الاوثان (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها بنصرتهم لكم (فآمن له) اي لابراهيم (لوط) فصدقه في جميع ما جاء به وقيل انه لم يؤمن به الا حين رأى النار لا تحرقه وكان لوط ابن أخي ابراهيم هاران وقيل ابن أخته والاول أولى قال ابن عباس آمن أي صدق برسالته (وقال اني مهاجر الى ربي) قال النخعي وقتادة الذي قال اني مهاجر هو ابراهيم قيل هو أول من هاجر الى الله وترك بلده وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة وقال قتادة هاجر من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى فلسطين وهي برية الشام ثم الى الشام ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارة وقد تزوجها ومن ثم قالوا لكل نبي هجرة ولابراهيم هجرتان والمعنى اني مهاجر عن دار قومي الى حيث أعبد ربي عن أنس قال أول من هاجر من المسلمين الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم صحبهما الله ان عثمان لاول من هاجر الى الله بأهله بعد لوط أخرجه أبو يعلى وابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت هاجر عثمان الى الحبشة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه أول من هاجر بعد ابراهيم ولوط أخرجه ابن منده وابن عساكر وعن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط مهاجر أخرجه الطبراني والحاكم في الكنى وابن عساكر (انه هو العزيز الحكيم) أي الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة وقيل ان القائل اني مهاجر الى ربي هو لوط والاول أولى لرجوع الضمير في قوله (ووهبنا له اسحق ويعقوب) الى ابراهيم وكذا الضمير في قوله (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا) فان هذه الضمائر كلها لابراهيم بلا خلاف يعني من الله عليه بالاولاد فوهب له بعد اسمعيل بأربع عشرة سنة اسحق ولد الله ويعقوب ولد الولد اسحق وقول ابن عباس هما

حدثنا الاعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أكبر قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قال ثم أي قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قال ثم أي قال ان تزاني حليلة جارك قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري عن أبي معاوية به وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الاعمش ومنصور زاد البخاري وواصل ثلاثتهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به فالله أعلم ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم الحديث طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن اسحق الاهوازي حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السري يعني ابن اسمعيل حدثنا الشعبي عن مسروق قال قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلس على نشز من الارض وقعدت أسفل منه ووجهي حيال ركبتيه واغتنمت خلوته وقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أي الذنب أكبر قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قلت ثم مه قال ان تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك قلت ثم مه قال ان تزاني حليلة جارك ثم قرأ والذين لا يدعون مع الله الآية وقال النسائي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال ابن يساف عن سلمة بن قيس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع الا انما هي أربع فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وقال الامام أحمد حدثنا علي بن المديني رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعد الانصاري سمعت أبا ظبية الكلاعي سمعت المقداد بن الاسود رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه ما تقولون في الزنا قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام الى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه لان يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره قال فما تقولون في السرقة قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام قال لان يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا

سعيد بن جبير عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له وقال ابن جريج أخبرني يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية ونزل قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي فاختة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك وينهاك أن تزني بحليلة جارك قال سفيان وهو قوله والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية وقوله تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال أثاما واد في جهنم وقال عكرمة يلق أثاما أودية في جهنم يعذب فيها الزناة وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وقال قتادة يلق أثاما نكالا كنا نحدث أنه واد في جهنم وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول يا بني إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أمامة الباهلي موقوفا ومرفوعا أن غيا وأثاما بئران في قعر جهنم أجارنا الله منهما بمنه وكرمه وقال السدي يلق أثاما جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا منه وهو قوله تعالى يضاعف له العذاب يوم القيامة أي يكرر عليه ويغلظ ويخلد فيه مهانا أي حقيرا ذليلا وقوله تعالى إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر إلا من تاب أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه وقيل

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ومن يقتل مؤمنا متعمدا الآية فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قال تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به الآية وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث وقوله تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما في معنى قوله يبدل الله

ولد إبراهيم لأنه يريد ولده وولد ولده لأن ولد الولد بمنزلة الولد وحمل هذا الأخير على مثل ابن عباس وهو حبر الأمة وشهد له عنه من رواية العوفي وفي الصحيحين إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم (وجعلنا في ذريته النبوة) فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه ونسله (والكتاب) وحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب والمراد التوراة والإنجيل والزبور والفرقان (وآتيناه أجره في الدنيا) أنه أعطي فيها الأولاد في غير أوانه وأخبره الله باستمرار النبوة فيهم وذلك مما تقر به عينه ويزداد به سرورا وقيل أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منهم ويثنون عليه الثناء الحسن ويذكره أهل الإسلام في آخر كل تشهد إلى آخر الدهر وقيل أعطاه في الدنيا عملا صالحا وعاقبة حسنة وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا وعن ابن عباس قال إن الله وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به وقال أجره الدنيا الذكر الحسن وقال أيضا الولد الصالح والثناء (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة وكثرة العطاء والفوز بالدرجات العلى من الرب سبحانه (و) اذكر (لوطا) وقال الكسائي المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا (إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة) أي الخصلة المتناهية في القبح وهي اللواطة قرئ بالاستفهام وبغيره (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الإنس والجن مستأنفة مقررة لكمال قبح هذه الخصلة وإنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم قيل لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط من حيث إنها استقذرته الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى قدموا عليها لخبث طينتهم وهذه الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة لأنها اشتركت مع الزنا في كونها فاحشة وقد قال تعالى ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وهذا وإن كان قياسا إلا أن الجامع مستفاد من الآية قاله الرازي ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال (أئنكم لتأتون الرجال) أي تلوطون بهم (وتقطعون السبيل) قيل إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم فقطعوا السبيل بهذا السبب قال الفراء كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث وقيل كانوا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم ونهبهم والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص

وقيل ان معنى قطع الطريق قطع النسل بالعدول عن النساء الى الرجال (وتأتون في ناديكم المنكر) النادي والندي والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم ولا يقال للمجلس ناد الا مادام فيه أهله واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه فقيل كانوا يحذفون الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب وعن أم هانئ بنت أبي طالب قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قال كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وقال لا نعرفه الا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك وأخرج ابن مردويه عن جابر ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الحذف وهو قول الله سبحانه وتأتون في ناديكم المنكر وعن ابن عمر قال في الآية هو الحذف وعن ابن عباس مثله وقيل كانوا يتضارطون في مجالسهم قالته عائشة وقيل كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضا وقيل كانوا يلعبون بالحمام وقيل كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون بين الكباش وقيل يبزق بعضهم على بعض ويلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات وكان من أخلاقهم مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازار والصفير ولا مانع من انهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات قال الزجاج في هذا اعلام انه لا ينبغي ان يتعاشر الناس على المنكر وان لا يجتمعوا على الهزء والمناهي ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلون أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أي فما أجابوا بشيء الا بهذا القول رجوعا منهم الى التكذيب واللجاج والعناد وقد تقدم الكلام على هذه الآية وقد تقدم في سورة النمل فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وتقدم في الاعراف فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الارشاد ومكررا النهي لهم والوعيد عليهم فقالوا له أولا ائتنا بعذاب الله كما في هذه الآية فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوهم كما في الاعراف والنمل وقيل انهم قالوا أولا أخرجوهم من قريتكم ثم قالوا ثانيا ائتنا بعذاب الله ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه و (قال رب انصرني على القوم المفسدين) بانزال عذابك عليهم وتحقيق قولي ان العذاب نازل بهم وافسادهم هو ما سبق من اتيان الرجال وعمل

سيآتهم حسنات قولان أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيآت بعمل الحسنات قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل ايمانهم على السيآت فرغب الله بهم عن السيآت فحولهم الى الحسنات فابدلهم مكان السيآت الحسنات وروى عن مجاهد عن ابن عباس انه كان ينشد عند هذه الآية

وبدلن بعد حره خريفا * وبعد طول النفس الوجيفا

يعني تغيرت تلك الاحوال الى غيرها وقال عطاء بن أبي رباح هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الاوثان عبادة الرحمن وابدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات وقال الحسن البصري أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح وأبدلهم بالشرك اخلاصا وأبدلهم بالفجور احصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة أخرى والقول الثاني ان تلك السيآت الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات وما ذاك الا انه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وان وجده مكتوبا عليه فانه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار النبوية عن السلف رضي الله عنهم (١) فعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعرف آخر أهل النار خروجا من النار وآخر أهل الجنة دخولا الى الجنة يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له عملت يوم كذا كذا وكذا وعملت يوم كذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع ان ينكر من ذلك شيأ فيقال ان لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لا أراها ههنا قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه انفرد باخراجه مسلم وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن اسمعيل حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان اعطني صحيفتك فيعطيه اياها فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيآت من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين

(١) قوله فعن أبي ذر الخ في بعض النسخ زيادة السند عبارته قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر الخ اه

تكبيرة ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة تم الثلثمائة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة وعارم قالا حدثنا ثابت يعني ابن يزيد أبو زيد حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود حدثنا أبو العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال ليأتين الله عز وجل أناس يوم القيامة قد استكثروا

من السيئات قيل من هم يا أبا هريرة قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل قال يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين قلت لم سموا أصحاب اليمين قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرؤوا سيئاتهم حرفا حرفا وقالوا يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا هاؤم اقرؤوا كتابيه فهم أكثر أهل الجنة وقال علي بن الحسين زين العابدين يبدل الله سيئاتهم حسنات قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواهما ابن أبي حاتم وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال جاء شيخ كبير قد هرم سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أأسلمت فقال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله غافر لك غدراتك وفجراتك ومبدل سيئاتك حسنات ما كنت كذلك فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي فقال وغدراتك وفجراتك فولى الرجل يكبر ويهلل وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت رجلا عمل الذنوب

المنكر بأذاهم فاستجاب الله سبحانه دعاءه وبعث لعذابهم ملائكة وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم ولهذا قال (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أي بالبشارة بالولد وهو إسحق وبولد الولد وهو يعقوب (قالوا) لإبراهيم (إنا مهلكو أهل هذه القرية) وهي سدوم التي كان فيها قوم لوط قيل كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام (إن أهلها كانوا ظالمين) تعليل للإهلاك أي أهلكناهم بهذا السبب (قال) إبراهيم (إن فيها) أي في هذه القرية (لوطا) وهو غير ظالم فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها) من الأخيار والأشرار ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط (لننجينه وأهله) من العذاب قرئ لننجينه بالتخفيف والتشديد وهما قراءتان سبعيتان (إلا امرأته كانت) في علم الله وحكمه الأزلي (من الغابرين) أي الباقين في العذاب المعذبين فيه الذين لم يتخلصوا منه بسبب أن الدال على الشر كفاعله كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على أضياف لوط فصارت واحدة منهم بسبب الدلالة وقيل المعنى من الباقين في القرية التي سينزل بها العذاب فتعذب من جملتهم ولا تخرج فيمن نجا والغابر لفظ مشترك بين الماضي والباقي وقد تقدم تحقيقه (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) بعد مفارقتهم إبراهيم وأن زائدة وهو مطرد (سيء بهم) أي جاءه ما ساءه وأخافه لأنه ظنهم من البشر فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية (وضاق بهم ذرعا) أي عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره وضيق الذراع كناية عن العجز وفقد الطاقة كما يقال في الكناية عن الفقر ضاقت يده ومقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له وذلك لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في هود ولما شاهدت الملائكة ما حل به من الحزن والضجر (قالوا لا تخف) علينا من قومك (ولا تحزن) فإنهم لا يقدرون علينا (إنا منجوك وأهلك) من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم قرئ منجوك بالتخفيف والتشديد قال المبرد التقدير وننجي أهلك (إلا امرأتك كانت من الغابرين) في العذاب (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله والرجز العذاب أي عذابا من السماء وهو الرمي بالحجارة وقيل إحراقهم بنار نازلة من السماء وقيل هو الخسف والحصب كما في غير هذا الموضع ومعنى كون الخسف من السماء أن الأمر به نزل من السماء وهي

العذاب

كلها ولم يترك حاجة ولا داجة له فهل له من توبة فقال أسلمت فقال نعم قال فافعل الخيرات واترك السيآت فيجعلها الله لك خيرات كلها قال وغدراتي وفجراتي قال نعم قال فما زال يكبر حتى توارى ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا ابراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة اني زنيت وولدت وقتلته فقلت لا ولا نعمت العين ولا كرامة فقامت وهي تدعو بالحسرة ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى قوله الا من تاب الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم وقد رواه ابن جرير من حديث ابراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول يا حسرتا أخلق هذا الحسن للنار وعنده انه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا وتوبة مما عملت وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت الى الله عز وجل ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وانه من تاب اليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا أو صغيرا فقال تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا أي فان الله يقبل توبته كما قال تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه الآية وقال تعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده الآية وقال تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية أي لمن تاب اليه (والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) هذه أيضا من صفات عباد الرحمن انهم لا يشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الاصنام وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو

العذاب بالرجز لانه يقلق المعذب من قولهم ارتجز اذا ارتجس أي اضطرب قرأ ابن عباس منزلون بالتشديد وقرئ بالتخفيف (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بينة) أي أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها حتى أدركها أوائل هذه الامة وخراب الديار وآثار منازلهم الخربة وقال مجاهد هو الماء الاسود الباقي على وجه أرضهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر (لقوم) متعلق بتركنا أو بآية أو بينة وهو أظهر (يعقلون) أي يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول وخص من يعقل لانه الذي يفهم ان تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها (والى مدين) هو اسم رجل وقيل اسم المدينة فعلى الاول المعنى وأرسلنا الى مدين وأولاده وعلى الثاني أرسلنا الى أهل مدين (أخاهم شعيبا) قد تقدم ذكره وذكر نسبه وذكر قومه في سورة الاعراف وسورة هود واضيف شعيب هنا اليهم بخلافه في قصة نوح وابراهيم ولوط حيث ذكر قومهم مؤخراعنهم معرفا بالاضافة الى ضمير كل واحد منهم لان الاصل في جميع المواضع ان يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان الله لا يبعث رسولا الى غير معين غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالاضافة لنبيهم فقيل قوم نوح وقوم لوط وقوم ابراهيم وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله فقال والى مدين أخاهم شعيبا والى عاد أخاهم هودا ذكره الرازي (فقال يا قوم اعبدوا الله) أي أفردوه بالعبادة وخصوه بها لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن غيره ذلك لان لوطا كان في زمن ابراهيم وابراهيم سبقه بذلك حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق وانما ذكر عنه ما اختص به من النهي عن الفاحشة وأما غيره فكان في زمن غير مشتهر بالتوحيد فامروا به (وارجوا اليوم الآخر) أي توقعوه وافعلوا اليوم من الاعمال ما يدفع عذابه عنكم قال يونس النحوي معناه اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الاعمال وخافوه (ولا تعثوا في الارض مفسدين) حال مؤكدة لعاملها والعثو والعثي أشد الفساد وقد تقدم تفسيره (فكذبوه) والتكذيب راجع الى الاخبارات الضمنية كأنه قال الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه فلا يقال انه لا يكذب الآمر ولا الناهي وانما يكذب المخبر (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة وكذا في الاعراف

والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هو أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر". وقيل المراد بقوله تعالى: لا يشهدون الزور أي شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر" ثلاثا قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "الشرك بالله وعقوق (١٥٨) الوالدين" وكان متكئا فجلس فقال: "ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور" فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ولهذا قال تعالى: وإذا مروا باللغو مروا كراما أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال: مروا كراما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرني إبراهيم بن ميسرة أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما" ثنا إبراهيم بن ميسرة وإذا مروا باللغو مروا كراما. وقوله تعالى: والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا وهذه أيضا من صفات المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى: وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم فقوله لم يخروا عليها صما وعميانا أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله لا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله لم يخروا عليها صما وعميانا قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا. قال الحسن البصري رضي الله عنه: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة: قوله تعالى والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عبد الله بن حمران عن ابن عون قال

وقال في سورة هود الصيحة والرجفة واحدة. قال ابن عباس: أي صيحة جبريل وهي سبب الرجفة ورجفت الأرض من صيحته والقلوب رجفت بها والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب (فأصبحوا في دارهم) أي في بلدهم وأرضهم أو ديارهم (جاثمين) أي باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) بالصرف وتركه على معنى الحي والقبيلة. قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون معطوفا على فأخذتهم الرجفة أي وأخذت عادا وثمود. وقال الزجاج: التقدير وأهلكنا عادا وثمود. وقيل المعنى: اذكر عادا وثمود إذ أرسلنا إليهم هودا وصالحا (وقد تبين) أي ظهر (لكم) يا معشر الكفار ويا أهل مكة (من مساكنهم) أي منازلهم الكائنة بالحجر والأحقاف واليمن آيات بينات تعتبرون بها وتتفكرون فيها وكانوا يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي يعملونها من الكفر ومعاصي الله (فصدهم) بهذا التزيين (عن السبيل) أي الطريق الواضح الموصل إلى الحق (وكانوا مستبصرين) بواسطة الرسل يعني لم يكن لهم في ذلك عذر لأن الرسل أوضحوا السبيل قاله الفراء. وقيل مستبصرين في الضلالة قاله ابن عباس أي أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال ولكنهم لم يفعلوا. وقال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر في أمور الدنيا فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل المعنى كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالهم معجبين بما هم فيه يحسبون أنهم على هدى ويرون أن أمرهم حق فوصفهم بالاستبصار على هذا الاعتبار وما بعده أو مستيقنين أن العذاب نازل بهم لأن الله قد بين لهم على ألسن الرسل ولكنهم لجوا حتى هلكوا (وقارون وفرعون وهامان) قال الكسائي: إن شئت كان معطوفا على عاد وكان فيه ما فيه وإن شئت كان على فصدهم عن السبيل أي وصد قارون الخ. وقيل التقدير وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل وقدم قارون على فرعون لشرف نسبه لقرابته من موسى لكونه ابن عمه وهامان وزير فرعون (ولقد جاءهم موسى بالبينات) أي بالحجج الظاهرات والدلالات الواضحات الباهرات (فاستكبروا في الأرض) عن عبادة الله (وما كانوا سابقين) أي فائتين عذابنا بل أدركهم أمر الله فلم يفوتوه يقال سبق طالبه إذا فاته. وقيل سابقين في الكفر بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة (فكلا) من المذكورين (أخذنا بذنبه) أي عاقبنا بسبب كفره وتكذيبه. قال الكسائي: أي فأخذنا كلا بذنبه

وفيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أي ريحا تأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار فترجمهم بها وهم قوم لوط قاله ابن عباس (ومنهم من أخذته الصيحة) وهو ثمود وأهل مدين قاله ابن عباس (ومنهم من خسفنا به الارض) وهو قارون وأصحابه قاله ابن عباس (ومنهم من أغرقنا) وهم قوم نوح وفرعون قاله ابن عباس (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فيعذبهم بغير ذنب لانه قد أرسل اليهم رسله وأنزل اليهم كتبه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله وارتكابهم الذنوب (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) يوالونهم ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ومن الاحياء أو من الاموات (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوي اليه وان بيتها في غاية الضعف والوهن لا يغني عنها شيأ لا في حر ولا قر ولا مطر كذلك ما اتخذوه وليا من دون الله فانه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيأ شبه حال من اتخذ الاصنام والاوثان والاحبار والرهبان أولياء وعبدها واعتمد عليها راجيا لنفعها وشفاعتها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يغني عنها في مطر ولا أذى قال الفراء هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما ان بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا قال ولا يحسن الوقف على العنكبوت لانه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به وقد جوز الوقف على العنكبوت الاخفش وغلطه ابن الانباري قال لان اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتا فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ونونه أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل قولهم في الجمع عناكب وفي التصغير عنيكب وهذا مطرد في أسماء الاجناس ويجمع على عكاب وعكبة وأعكاب وعناكب وعنكبوتات أيضا وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجا رقيقا وقد يقال لها عنكبات والغالب في استعماله التأنيث (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) لا بيت أضعف منه مما يتخذه الهوام بيتا ولا يدانيه في الوهن والوهن شيء من ذلك فان الريح اذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فكما ان أوهن البيوت بيته كذلك أضعف الاديان دين عبدة الاوثان ومن يعبد غير الله أو يتخذه وليا وأربابا من دونه كمقتدي الاحبار والرهبان ومقلديهم (لو كانوا

سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم قال فتلا هذه الآية يعني انه لا يسجد معهم لانه لم يتدبر آية السجدة ولا ينبغي للمؤمن أن يكون امعة الا على بصيرة في أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة قال عكرمة لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال ان يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم ان يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج في الآية في قوله هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني يسألون الله الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم ان يهديهم للاسلام وقال الامام أحمد حدثنا يعمر بن بشر حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه قال جلسنا الى المقداد بن الاسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا انا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لانه ما قال الا خيرا ثم أقبل اليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه أولا تحمدون الله اذ أخرجكم الله من بطون أمهاتكم لا تعرفون الا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشر حال بعث عليها نبيا من الانبياء في فترة جاهلية ما يرون ان دينا أفضل من عبادة الاوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده ان كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للايمان يعلم انه ان هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم ان حبيبه في النار وانها التي قال الله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه وقوله تعالى واجعلنا للمتقين اماما قال ابن عباس والحسن والسدي

وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا في الخير وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) (١٦٠) لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله أولئك أي المتصفون بهذه يجزون يوم القيامة الغرفة وهي الجنة قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي سميت بذلك لارتفاعها بما صبروا أي على القيام بذلك ويلقون فيها أي في الجنة تحية وسلاما أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون فيها التوقير والاحترام فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله تعالى خالدين فيها أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الآية وقوله تعالى حسنت مستقرا ومقاما أي حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا ثم قال تعالى قل ما يعبأ بكم ربي أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا قال مجاهد وعمرو بن شعيب ما يعبأ بكم ربي يقول ما يفعل بكم ربي وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله قل ما يعبأ بكم ربي الآية يقول لولا إيمانكم وأخبر الله تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين وقوله تعالى فقد كذبتم أيها الكافرون فسوف يكون لزاما أي فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعني مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ويدخل في ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصري فسوف يكون لزاما أي يوم القيامة ولا منافاة بينهما (آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة)

يعلمون) أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتا أو أن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن ما عبدوها أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم لعلموا هذا قال ابن عباس في الآية ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العنكبوت شيطان مسخه الله فمن وجدها فليقتلها وعن يزيد بن ميسرة قال العنكبوت شيطان وأخرج الخطيب عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن وروى القرطبي في تفسيره عن علي أنه قال طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر وعن عطاء الخراساني قال نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود عليه السلام ومرة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) ما استفهامية أو نافية أو موصولة ومن للتبيين أو مزيدة للتأكيد وقيل التقدير قل للكافرين إن الله يعلم أي شيء تدعون من دونه من إنس وجن وملك وحجر وراهب وغير ذلك وجزم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية وعلى تقدير النفي كأنه قيل يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء يعني ما تدعونه ليس بشيء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه وعلى تقدير الموصولة إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه وهذا أظهر الأوجه فيها كما قال الكرخي ويجوز أن تكون ما مصدرية ومن شيء عبارة عن المصدر وقرئ يدعون بالتحتية لذكر الأمم قبل هذه الآية وقرئ بالفوقية على الخطاب (وهو العزيز) الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا وحيوانا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء (الحكيم) الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير (وتلك الأمثال) أي هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن (نضربها للناس) تنبيها لهم وتقريبا لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) أي ما يفهم صحتها وحسنها وفائدتها أو يعقل الأمر الذي ضربناها لأجله (إلا العالمون) بالله وبأسمائه وصفاته الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم وما يشاهدونه لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأوهام كما صور هذا التشبيه من حال المشرك وحال الموحد ودلت الآية على فضل العلم على العقل ثم إنه تعالى لما أمر الخلق

بالإيمان

(تفسير سورة الشعراء وهي مكية) ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في اول تفسير سورة البقرة وقوله تعالى تلك آيات الكتاب المبين أي هذه آيات القرآن المبين أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد وقوله تعالى لعلك باخع أي مهلك نفسك أي مما تحرص وتحزن عليهم الا يكونوا مؤمنين وهذه تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في عدم ايمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كقوله فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم لعلك باخع نفسك أي قاتل نفسك قال الشاعر

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه
لشئ نحته عن يديه المقادر

ثم قال تعالى ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين أي لو نشاء لانزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ولكن لا نفعل ذلك لانا لا نريد من أحد الا الايمان الاختياري وقال تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وقال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة الآية فنفذ قدره ومضت حكمته

 وقامت حجته البالغة على خلقه بارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم ثم قال تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين أي كلما جاء كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقال تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه الآية ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذي اجترؤا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الارض وأنبت فيها من كل زوج

بالايمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق) أي خلقهما متلبسا بالعدل والقسط مراعيا في خلقهما مصالح عباده غير قاصد به باطلا وقيل المراد بالحق كلامه وقدرته والاول أولى لان المقصود بالذات من خلقهما أفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار اليه بقوله (ان في ذلك لآية للمؤمنين) أي لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرده بالالهية وخص المؤمنين لانهم الذين ينتفعون بذلك بخلاف الكافرين أي فان لم يؤمنوا فلا يضر ذلك في يقينكم وايمانكم (أتل ما أوحي اليك من الكتاب) أي القرآن وفيه الامر بالتلاوة للقرآن والمحافظة على قراءته تقربا اليه مع التدبر لآياته والتفكر في معانيه من الاوامر والنواهي (وأقم الصلاة) أي دم على اقامتها وجملة (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) تعليل لما قبلها كأنه قيل صل بهم ان الصلاة الخ والفحشاء ما قبح من العمل كالزنا مثلا والمنكر ما لا يعرف في الشريعة أي تمنعه عن معاصي الله وتبعده منها ومعنى نهيها عن ذلك ان فعلها يكون سببا للانتهاء عنهما والمراد هنا الصلوات المفروضة المكتوبة المؤداة بالجماعة قال ابن عباس وابن مسعود في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله هذا فقال من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له أخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن مسعود مرفوعا نحوه قال السيوطي وسنده ضعيف قال ابن كثير في تفسيره والاصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والاعمش وغيرهم وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصي والسيآت كما روى عن أنس قال كان فتى من الانصار يصلي الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم يدع من الفواحش شيأ الا ركبه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان صلاته ستنهاه يوما فلم

كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثورى عن رجل عن الشعبى الناس من نبات الارض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ان فى ذلك لآية أى دلالة على قدرة الخالق للاشياء الذى بسط الارض ورفع بناء السماء ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه وقوله وان ربك لهو العزيز أى الذى عز على كل شئ وقهره وغلبه الرحيم أى بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن اسحق العزيز فى نقمته وانتصاره (١٦٢) ممن خالف أمره وعبد غيره وقال سعيد بن جبير الرحيم عن تاب اليه وأناب لديه

(واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى اسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الايمن وكلمه وناجاه وأرسله واصطفاه وأمره بالذهاب الى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون هذه أعذار سأل من الله ازاحتها عنه كما قال فى سورة طه قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى الى قوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وقوله تعالى وقيل ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون أى بسبب قتل القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر قال كلا أى قال الله له لا تخف من شئ من ذلك كقوله سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا أى برهانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون كقوله اننى معكما أسمع وأرى أى اننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين كقوله فى الآية الاخرى انا رسولا ربك أى كل منا أرسل اليك أن أرسل معنا بنى اسرائيل أى أطلقهم من

يلبث ان تاب وحسنت حاله وقيل معنى الآية انه ما دام فى صلاته فانها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله ان فى الصلاة لشغلا وقيل تنهى عنهما مطلقا فى سائر الاوقات لان الصلاة تشغل جميع بدن المصلى فاذا دخل فى المحراب خشع وأخبت لربه وتذكر انه واقف بين يدى مولاه وانه تعالى مطلع عليه ويراه فصلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيئتها لو بعد خروجه منها ولم يكد يفتر عن ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها الى أفضل حاله فهذا معنى هذه الآية لان صلاة المؤمن هكذا ينبغى ان تكون لاسيما وان أشعر نفسه ان هذا ربما يكون آخر عمله فهو أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد فان الموت ليس له سن محدود ولا زمن مخصوص ولا مرض معلوم وهذا مما لا خلاف فيه روى عن بعض السلف انه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم فى ذلك فقال انى واقف بين يدى الله وحق لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك فهذه صلاة تنهى ولابد عن الفحشاء والمنكر ومن صلاته قاصرة على الاجزاء أى اسقاط الطلب عن المكلف ولا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل كصلاتنا فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان فان كان مرتكب المعاصى قد بعد من الله بسببها فتلك الصلاة تتركه يتمادى على بعده وقيل لابن مسعود ان فلانا كثير الصلاة فقال انها لا تنفع الا من اطاعها ذكره القرطبى وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن والاول أولى وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لابد وان يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها (ولذكر الله) بسائر أنواعه من تحميد وتهليل وتسبيح وغير ذلك (أكبر) من كل شئ أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر وقد نقل القرطبى هذا التقييد عن ابن زيد وقتادة قال ابن عطية وعندى ان المعنى ولذكر الله أكبر على الاطلاق أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل ما لم يكن منه فى الصلاة لان الانتهاء لا يكون الا من ذاكر الله مراقبا له وقيل ذكر الله أكبر من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه قال الفراء وابن قتيبة المراد بالذكر هنا الصلاة والصلاة أكبر من سائر الطاعات وعبر عنها بالذكر كما فى قوله فاسعوا الى ذكر الله للدلالة على ان ما فيها من الذكر هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات وكونها ناهية عن السيآت وقيل عبر عنها بالذكر ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله

اسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك فانهم ... وحزبه الخلصون وهم معك فى العذاب،
أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ونظر الى ... والغمص فقال ألم نربك فينا وليدا الآية أى أما
ربى بنتوا أنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الاحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا
قال وأنت من الكافرين أى الجاحدين قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير قال فعلتها اذا أى فى تلك
الحال وأنا من الضالين أى قبل ان يوحى الى وينعم على بالرسالة والنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما
ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم وأنا من الضالين أى الجاهلين قال ابن جريج وهو كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ففررت منكم لما خفتكم الآية أى انفصل الحال الاول وجاء أمر آخر فقد أرسلنى الله اليك فان أطعته سلمت وان خالفته عطبت ثم قال موسى وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل أى وما أحسنت الى وربيتنى يقابل ما أسأت الى بنى اسرائيل فجعلتهم عبيدا وخدما تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك أفيفى احسانك الى رجل واحد منهم بما أسأت الى مجموعهم أى ليس ما ذكرته شيئا بالنسبة الى ما فعلت بهم (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده فى قوله وما
رب العالمين وذلك انه كان يقول لقومه ما علمت لكم من اله غيرى فاستخف قومه فاطاعوه وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ويعتقدون انه لا رب لهم سوى فرعون فلما قال له موسى انى رسول رب العالمين قال له فرعون ومن هذا الذى تزعم انه رب العالمين غيرى هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدى هذه الآية كقوله تعالى فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومن زعم من أهل المنطق ان هذا سؤال عن الماهية فقد غلط فانه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر وان كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين قال

وقيل المعنى ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم واختار هذا ابن جرير ويؤيده حديث من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منهم وقال ابن عباس يقول ولذكر الله لعباده اذا ذكروه أكبر من ذكرهم اياه وعن عبد الله بن ربيعة قال سألنى ابن عباس عن قول الله ولذكر الله أكبر فقلت ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير قال ولذكر الله اياكم أكبر من ذكركم اياه ثم قال اذكرونى أذكركم وعن ابن مسعود قال ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله وعن ابن عمر نحوه وعن ابن عباس أيضا قال لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه وفى لفظ ذكر الله عند ما حرمه وذكر الله اياكم أعظم من ذكركم اياه وعن معاذ بن جبل قال ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا ولا الجهاد فى سبيل الله قال لا الا ان يضرب بسيفه حتى ينقطع لان الله يقول فى كتابه العزيز ولذكر الله أكبر وعن عنترة قال قلت لابن عباس أى العمل أفضل قال ذكر الله وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وأخرج البخارى عن أبى هريرة وأبى سعيد انهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده وروى ان اعرابيا قال يا رسول الله أى الاعمال أفضل قال تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله وفى الباب أحاديث كثيرة لا نطول بذكرها قال ابن عطاء أكبر أى لن تبقى معه معصية وقيل ذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقيل لان ذكره بلا علة

رب السموات والارض ومابينهما أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه والمه لاشريك له هو الذي خلق الاشياء كلها العالم العلوي ومافيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات والعالم السفلي ومافيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار ومابين ذلك من الهواء والطير ومايحتوي عليه الجو الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ان كنتم موقنين أي ان كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة فعند ذلك التفت فرعون الى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ألا تستمعون أي ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه ان لكم الهاغيري فقال لهم موسى ربكم ورب آبائكم الاولين أي خالقكم وخالق آبائكم الاولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه قال أي فرعون لقومه ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون أي ليس له عقل في دعواه ان ثم ربا غيري قال أي موسى لاولئك الذين أوغر اليهم فرعون ما أوغر من الشبهة فاجاب موسى بقوله رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون أي هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها فان كان هذا الذي يزعم انه ربكم والهكم صادقا فليعكس الامر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا كما قال تعالى عن الذي حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب الآية ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل الى استعمال جاهه وقوته وسلطانه واعتقد ان ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه (قال لئن اتخذت الهاغيري لاجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل الى ان يقهر موسى بيده وسلطانه فظن انه ليس وراء هذا المقام مقال فقال لئن اتخذت الهاغيري لاجعلنك من المسجونين فعند ذلك قال موسى أولو جئتك

القرآن

ود كركم مشوب بالعلل والاماني ولان ذكره لايفنى ود كركم لايبقى أو ذكره أكبر من ان تحويه افهامكم وعقولكم والذكر النافع هو الذي يكون مع العلم واقبال القلب وتفرغه مما سوى الله تعالى واما مالايتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى (والله يعلم ماتصنعون) من الذكر وسائر الطاعات لايخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا ثم شرع سبحانه في بيان ارشاد أهل الكتاب بعد بيان ارشاد أهل الشرك فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) أي بالخصلة التي هي أحسن للثواب وذلك على سبيل الدعاء لهم الى الله عز وجل والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء اجابتهم الى الاسلام لاعلى طريق الاغلاظ والمخاشنة وعن ابن عباس قال بالتي هي أحسن بلا اله الا الله (الا الذين ظلموا منهم) بان افرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالاغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بان المراد باهل الكتاب اليهود والنصارى وقيل معنى الآية لاتجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسائر من آمن منهم الا بالتي هي أحسن يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من اخبار أهل الكتاب ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم الباقون على كفرهم قال مجاهد هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها وقيل هي منسوخة بآية القتال وبذلك قال قتادة ومقاتل قال النحاس وغيره من قال هي منسوخة احتج بان الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك وقول مجاهد حسن لان أحكام الله عز وجل لايقال فيها انها منسوخة الا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول واختار هذا القول ابن العربي قال سعيد بن جبير ومجاهد المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين وآذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وقيل الا الذين اثبتوا الولد والشريك فقد جعل فيه أهل الشرك وعبدة الاوثان والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة الحقة بالتي هي أحسن قال السمين الاستثناء متصل وفيه معنيان أحدهما الا الظلمة فلا تجادلوهم البتة بل جادلوهم بالسيف والثاني تجادلوهم بغير التي هي أحسن أي اغلظوا لهم كما أغلظوا عليكم وقرأ ابن عباس ألا حرف تنبيه أي جادلوهم (وقولوا) هذا تبيين لمجادلتهم بالتي هي أحسن (آمنا بالذي أنزل الينا) من

بشيء مبين أي ببرهان قاطع واضح قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ونزع يده أي من جيبه فاذا هي بيضاء للناظرين أي تتلألأ كقطعة من القمر فبادر فرعون بشقاوته الى التكذيب والعناد فقال للملأ حوله ان هذا الساحر عليم أي فاضل بارع في السحر فروّج عليهم فرعون ان هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال يريد ان يخرجكم من أرضكم بسحره الآية أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذوا البلاد منكم فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم أي أخره حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد فأجابهم الى ذلك وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة وذلك ان القبط أرادوا ان يطفؤا نور الله بأفواههم فأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وهذا شأن الكفر والايمان ما تواجها وتقابلا الا غلبه الايمان بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون وقل جاء الحق وزهق الباطل الآية ولهذا جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر وكانوا اذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك وكان السحرة جمعا كثيرا وجما غفيرا قيل كانوا اثني عشر ألفا وقيل خمسة عشر ألفا وقيل سبعة عشر ألفا وقيل تسعة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين

القرآن (وأنزل اليكم) من التوراة والانجيل أي بأنهما منزلان من عند الله وانهما شريعة ثابتة الى قيام الشريعة الاسلامية والبعثة المحمدية ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه أخرج البخاري والنسائي وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا واليكم وأخرج البيهقي وأبو نصر السجزي في الابانة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا اما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعني وعن ابن مسعود قال لا تسألوا أهل الكتاب وذكر نحو حديث جابر ثم قال فان كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه وهذه الآية من جنس المجادلة بالاحسن (والهنا والهكم واحد) لا شريك له ولا ند ولا ضد (ونحن له مسلمون) أي ونحن معاشر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مطيعون له خاصة لم نقل عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أربابا من دون الله ويحتمل ان يراد ونحن جميعا منقادون له ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب وطاعتهم أبلغ من طاعتهم (وكذلك أنزلنا) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة الى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة أي ومثل ذلك الانزال البديع أنزلنا (اليك الكتاب) وهو القرآن وقيل المعنى كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعني مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وخصهم بايتائهم الكتاب لكونهم العاملين به وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه وجحدهم لصفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة فيه وكان اسلامهم بالمدينة والسورة مكية فهذا من قبيل الاخبار بالغيب أخبره تعالى بحالهم قبل وقوعه (ومن هؤلاء) اشارة الى أهل مكة والمراد ان منهم وهو من قد أسلم (من يؤمن به) أي بالقرآن وقيل اشارة الى جميع العرب (وما يجحد بآياتنا) أي القرآن والجحود انما يكون بعد المعرفة وعبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية

أسا وقل عباس انما وصل عبد ذلك رأسه أعلم بعد تهم قال ابن اسحق وكان أمر شهر راجعا الى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم
حر وسابور وحطحط ومصفى واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم
الغالبين ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة او من موسى بل ارغبه على دين ملككم فلما جاء السحرة اى الى مجلس
فرعون وقد حضروا الا وطافا وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته فقام السحرة بين يدى فرعون يطلبون

منه الاحسان اليهم والتقرب اليه ان غلبوا اى هذا الذى جمعتنا من أجله فقالوا أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين
قال نعم وانكم اذا لمن المقربين أى
وأخص مما تطلبون اجعلكم من
المقربين عندى وجلسائى فعادوا
الى مقام المناظرة قالوا ياموسى
اما أن تلقى واما ان نكون أول من
ألقى قال بل ألقوا وقد اختصر هذا
ههنا فقال لهم موسى ألقوا ما انتم
ملقون الى قوله انا لنحن الغالبون
وهذا كما تقوله الجهلة من العوام
اذا فعلوا شيئا هذا بثواب فلان
وقد ذكر الله تعالى فى سورة الاعراف
انهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم
وجاؤا بسحر عظيم وقال فى سورة
طه فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه
من سحرهم انها تسعى الى قوله ولا
يفلح الساحر حيث أتى وقال ههنا
فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف
ما يأفكون أى تختطفه وتجمعه
من كل بقعة وتبلعه فلم تدع منه شيأ
قال الله تعالى فوقع الحق وبطل
ما كانوا يعملون الى قوله رب موسى
وهرون فكان هذا أمرا عظيما جدا
وبرهانا قاطعا للعذر وحجة دامغة
وذلك ان الذين استنصر بهم وطلب
منهم ان يغلبوا غلبوا وخضعوا
وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة
وسجدوا لله رب العالمين الذى أرسل موسى وهرون بالحق وبالمعجزة الباهرة فغلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله مخبوطا
وكان وقحا جريئا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فعدل الى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يهددهم ويتوعدهم
ويقول انه لكبيركم الذى علمكم السحر وقال ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة الآية (قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم
الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون
انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين) تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم وتوعدهم فما زادهم الا ايمانا وتسليما وذلك انه

السبع على من يجحدها (الا الكافرون) المصممون على كفرهم الا وعاند فيه من
المشركين ومن أهل الكتاب ككعب بن الاشرف واضرابه فان ذلك يصدهم عن التأمل
عما يؤديهم الى معرفة حقيتها (وما كنت) يا محمد (تتلو من قبله من كتاب) أى من قبل
القرآن كتابا ولا تقدر على ذلك لانك أمى لا تقرأ ولا تكتب ومن زائدة (ولا تخطه بيمينك)
أى ولا تكتبه لانك لا تقدر على الكتابة وخص اليمين لان الكتابة غالبا تكون باليمين أى
ولا تكتب كما قال مجاهد كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم ان محمدا صلى الله عليه وآله
وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية قال النحاس وذلك دليل على نبوته لانه لا يكتب
ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الانبياء والامم قال ابن
عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ولا يكتب وكان أميا قال الحافظ ابن
حجر فى تخريج أحاديث الرافعى قال البغوى فى التهذيب هل كان النبى صلى الله عليه وآله
وسلم يحسن الخط ولا يكتب ويحسن الشعر ولا يقوله أولا والاصح انه كان لا يحسنهما
ولكن كان يميز بين جيد الشعر ورديئه حكاه السهاب وما أحسن ما قال آزاد رحمه الله

ما كان يعرف ألواحا ولا قلما * وكان يعرف ما فى اللوح والقلم

وهذا شروع فى الدليل على كون القرآن معجزا (اذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت ممن
يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة من الكتب
المدونة فى اخبار الامم فلما كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا
محل للشك أبدا بل انكار من أنكر وكفر من كفر مجرد عناد وجحود بلا شبهة وسماهم
المبطلين لان ارتيابهم على تقدير انه صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور
نزاهته ووضوح معجزاته (بل هو) اى القرآن الذى جئت به (آيات بينات) وقال قتادة
ومقاتل ان الضمير يرجع الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أى بل محمد آيات أى ذو آيات
وقرأ ابن مسعود بل هى آيات بينات قال الفراء معنى هذه القراءة بل آيات القرآن آيات
بينات واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل وقد استدلا لما قالاه بقراءة ابن السميفع
بل هذا آيات بينات ولا دليل فى هذه على ذلك لان الاشارة يجوز ان تكون الى القرآن كما
جاز ان تكون الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بل رجوعها الى القرآن أظهر لعدم
احتياج ذلك الى التأويل وهو اضراب عن ارتيابهم أى ليس القرآن مما يرتاب فيه لكونه

قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من ان هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر الا ان يكون الله قد أيده به وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ولهذا لما قال لهم فرعون آمنتم له قبل ان آذن لكم أي كان ينبغي ان تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا علي في ذلك فان أذنت لكم فعلتم وان منعتكم امتنعتم فاني انا الحاكم المطاع انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فانهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر هذا لا يقوله عاقل ثم توعدهم فرعون بقطع الايدي والارجل (١٦٧) والصلب فقالوا لا ضير أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به انا الى ربنا منقلبون أي المرجع الى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ولهذا قالوا انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ان كنا أول المؤمنين أي بسبب انا بادرنا قومنا من القبط الى الايمان فقتلهم كلهم (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل) لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون لم يبق لهم الا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام ان يخرج ببني اسرائيل ليلا من مصر وان يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل خرج بهم بعد ما استعار راس قوم فرعون حليا كثيرا وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر وذكر مجاهد رحمه الله انه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم وان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بني اسرائيل عليه فاحتمل تابوته معهم ويقال انه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك اذا خرج بنو اسرائيل ان يحتملوه معهم وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا ابن فضيل عن عبد الله بن أبي اسحق عن ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال نزل رسول الله

محفوظا (في صدور الذين أوتوا العلم) يعني العلماء المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده صلى الله عليه وآله وسلم وحفظوه بعده عن ظهر قلب وهذا من خصائص القرآن بخلاف سائر الكتب فانها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ الا من المصاحف ولذا جاء في وصف هذه الامة صدورهم أناجيلهم ولذلك لا يقدرون على تحريفه ولا تغييره والمراد انهم يحفظونه تلقيا منك وبعضهم من بعض وانت تلقيته عن جبريل عن اللوح المحفوظ فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه (وما يجحد بآياتنا) أي القرآن الكريم (الا الظالمون) أي المجاوزون للحد والمتوغلون في الظلم (وقالوا) أي المشركون (لولا أنزل عليه آيات من ربه) المعنى هلا أنزلت عليه آيات كآيات الانبياء وذلك كآيات موسى وناقة صالح واحياء المسيح للموتى ثم أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم فقال (قل انما الآيات عند الله) ينزلها على من يشاء من عباده ولا قدرة لاحد على ذلك (وانما أنا نذير مبين) أنذركم بما أمرت وابين لكم كما ينبغي ليس في قدرتي غير ذلك (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) مستأنفة للرد على اقتراحهم وبيان بطلانه أي أولم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بان يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى أو بآيات غيره من الانبياء لقالوا سحر ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ولما آمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ومكان فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها أو تكون في مكان دون مكان والمعنى ان القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الانبياء مغنية عن سائر الآيات لان معجزة القرآن تدوم على مر الدهور والزمان ثابتة لا تضمحل كغيرها من الآيات (ان في ذلك) الكتاب الموجود في كل مكان وزمان الى آخر الدهور الموصوف بما ذكر (لرحمة) عظيمة في الدنيا والآخرة (وذكرى) في الدنيا يتذكرون بها وترشدهم الى الحق (لقوم يؤمنون) أي لقوم يصدقون بما جئت به من عند الله فانهم هم الذين ينتفعون بذلك أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وغيرهما عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفى بقوم حمقا أو ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم الى ما جاء به غيره الى غيرهم فنزلت أولم يكفهم الآية وعن الزهري ان حفصة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله

وسلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه والنبى صلى الله عليه وآله وسلم يتلون وجهه فقال والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم وعن عبد الله بن الحرث الانصارى قال دخل عمر بن الخطاب على النبى صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من اهل الكتاب أعرضها عليك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغيرا شديدا لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحرث لعمر أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنا حظكم من الامم أخرجه عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس وأخرج البيهقى وضعفه عن عمر بن الخطاب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تعلم التوراة فقال لا تتعلمها وآمن بها وتعلموا ما أنزل اليكم وآمنوا به (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) أى قل للمكذبين كفى الله شهيدا بما وقع بينى وبينكم وقال ابن عباس معناه يشهد لى انى رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه والقرآن وحده كاف واف لا حاجة معه الى غيره من الكتب لمن آمن به وعمل صالحا (يعلم ما فى السموات والارض) لا تخفى عليه من ذلك خافية ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا بالباطل) أى بما يعبدونه من دون الله قال ابن عباس بالباطل أى بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله والمعانى متقاربة ثم ذكر الكفر بعد الباطل لبيان قبح الاول فقال (وكفروا بالله) وآياته والجملة مؤكدة لما قبلها (أولئك هم الخاسرون) الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان (ويستعجلونك بالعذاب) استهزاء وتكذيبا منهم بذلك كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (ولولا أجل مسمى) قد جعله الله لعذابهم وعينه وهو القيامة وقال الضحاك الاجل مدة أعمارهم لانهم اذا ماتوا صاروا الى العذاب وقيل المراد بالاجل المسمى النفخة الاولى وقيل الوقت الذى قدره الله لعذابهم فى الدنيا بالقتل أو الاسر يوم بدر والحاصل ان لكل عذاب اجلا لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه كما فى قوله سبحانه لكل نبإ مستقر (لجاءهم العذاب) أى لولا ذلك الاجل المضروب لجاءهم العذاب

الذى

صلى الله عليه وسلم باعرابى فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاهدنا فأتاه الاعرابى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حاجتك قال ناقة برحلها وعنز يحتلبها أهلى فقال أعجزت ان تكون مثل عجوز بنى اسرائيل فقال له أصحابه وما عجوز بنى اسرائيل يا رسول الله قال ان موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببنى اسرائيل أضل الطريق فقال لبنى اسرائيل ما هذا فقال له علماء بنى اسرائيل نحن نحدثك ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله ان لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا فقال لهم موسى فأيكم يدرى أين قبر يوسف قالوا انما يعلمه الا عجوز من بنى اسرائيل فأرسل اليها فقال لها دلينى على قبر يوسف فقالت والله لا أفعل حتى تعطينى حكمى فقال لها وما حكمك قالت حكمى ان أكون معك فى الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها قال فانطلقت معهم الى بحيرة مستنقع ماء فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما أنضبوه قالت احفروا فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار وهذا حديث غريب جدا والاقرب انه موقوف والله أعلم فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى اسرائيل لما يريد الله تعالى به من الدمار فارسل سريعا فى بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ان هؤلاء يعنى بنى اسرائيل لشرذمة قليلون أى لطائفة قليلة وانهم لنا لغائظون أى كل وقت يصل منهم الينا ما يغيظنا وانا لجميع حاذرون أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف وانا لجميع حذرون أى مستعدون بالسلاح وانى أريد ان أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم أى فخرجوا من هذا النعيم الى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والانهار والاموال والارزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا كذلك وأورثناها بنى اسرائيل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها الآية وقال تعالى ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين الآيتين (فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب

الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلا (وليأتينهم بغتة) أي فجأة كوقعة بدر فانها أتتهم بغتة والجملة مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها (وهم لا يشعرون) أي حال كونهم لا يعلمون باتيانه على ما يشهد له كتب السير ثم ذكر سبحانه ان موعد عذابهم النار فقال (يستعجلونك بالعذاب) أي يطلبون منك تعجيل عذابهم في الدنيا ذكر هذا للتعجب لان من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة قد يرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات وأما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بان المتوعد قادر لا يخلف الميعاد فلا يخطر بباله ان يقول هات ما توعدني به فقوله ويستعجلونك بالعذاب أولا اخبار عنهم وقوله ثانيا يستعجلونك بالعذاب تعجب منهم وقيل التكرير للتأكيد (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أي والحال ان مكان العذاب محيط بهم أي سيحيط بهم عن قرب فان ما هو آت قريب فعبر عن الاستقبال بالحال للدلالة على التحقق والمبالغة أو يراد بجهنم أسبابها الموصلة اليها فلا تأويل في قوله محيطة والاول أظهر والمراد بالكافرين جنسهم فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوليا والمعنى ان جهنم جامعة لهم لا يبقى منهم أحد الا دخلها قال ابن عباس جهنم هو هذا البحر الاخضر تنتثر الكواكب فيه وتكون فيه الشمس والقمر ثم يستوقد فيكون هو جهنم وفي هذا نكارة شديدة فان الاحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بان جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي وردت بها الكتاب والسنة ثم ذكر سبحانه كيفية احاطة العذاب بهم فقال (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أي من جميع جهاتهم لقوله تعالى من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل فاذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم قيل خص الجانبين ولم يذكر اليمين ولا الشمال ولا الخلف ولا الامام لان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا فنار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه وشماله وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل في العادة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم بل تطفأ ونار جهنم تنزل من فوق ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم ذكره الرازي (ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) والقائل هو الله سبحانه أو بعض ملائكته بأمره في ذلك اليوم أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي فلا تفوتونا قرئ نقول بالنون وبالتحتية لقوله قل كفى بالله وقرئ ويقال ذوقوا ولما ذكر سبحانه حال الكفرة من

موسى انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه أولي الحل والعقد والدول من الامراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل دهم ففيه نظر وقال كعب الاحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفي ذلك نظر والظاهر ان ذلك من مجازفات بني اسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم والذي أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم اذ لا فائدة تحته لانهم خرجوا بأجمعهم فأتبعوهم مشرقين أي وصلوا اليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها فلما تراءى الجمعان أي رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك قال أصحاب موسى انا لمدركون وذلك انه انتهى بهم السير الى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار امامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين أي لا يصل اليكم شيء مما تحذرون فان الله سبحانه هو الذي أمرني ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد وكان هرون عليه السلام في المقدمة ومعه يوشع ابن نون أو مؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام يا نبي الله ههنا أمرك ربك ان تسير فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق الا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق باذن الله وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر قال يا من كان قبل كل شيء المكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة الى البحر ان اذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدري من أي جانب يضربه موسى

فلما انتهى اليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبي الله أين أمرك ربك عز وجل قال أمرني أن أضرب البحر قال فاضرب به وقال محمد بن إسحق أوحى الله فيما ذكر إلى البحر إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظار لما أمره الله وأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق وذكر غير واحد أنه جاءه فقال انفلق على ذلك بإذن الله قال الله تعالى فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل الكبير قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن (١٧٠) كعب والضحاك وقتادة وغيرهم وقال عطاء الخراساني هو الفج بين الجبلين

وقال ابن عباس صار البحر اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق وزاد السدي وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الأرض قال الله تعالى فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى وقال في هذه القصة وأزلفنا ثم الآخرين قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي وأزلفنا أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك وروى ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له انفرق فقال له البحر لقد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأنفرق لك قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبي الله قال ما أمرت إلا بهذا الوجه يعني البحر قال والله ما كذبت ولا كذبت ثم اقتحم الثانية فسبح (١) ثم خرج فقال أين أمرت يا نبي الله قال ما أمرت إلا بهذا الوجه قال والله ما كذبت ولا كذبت قال فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم

أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم في الإنذار وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه (يا عبادي الذين آمنوا) أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفا وتكريما والموصول صفة موضحة أو مميزة (إن أرضي واسعة) قيل نزلت في ضعفاء مسلمي أهل مكة يقول الله إن كنتم في ضيق في مكة من إظهار الإيمان وفي مكابدة للكفار فاخرجوا منها ليتيسر لكم عبادتي وحدي وتسهل عليكم وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة وقال الزمخشري إن خافوا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج قال الزجاج أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا تمكنهم فيه عبادة الله وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته وقال مطرف بن الشخير المعنى إن رحمتي واسعة ورزقي لكم واسع فابتغوه في الأرض وقيل البلاد والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتا كثيرا قال علي القاري رحمه الله وأما اليوم فأنا بحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني وأطهر له من مكة حرسها الله تعالى أقول ولا سيما الآن من استطالة أهل البدع على أهل السنة وإيثار المطعمات السلطانية على الأحكام الرحمانية وظلم أهل المكس على الحجاج وعدم الانتصاف من أهل الاعتساف والحجر على العمل بالسنة والمسك بالحق والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال سهل إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين قلت وأنى لنا هذا اليوم ولو علمنا أرضا طائعة على وجه البسيطة على حسب ما نطق به الكتاب والسنة أو ما ذهب إليه فقهاء الأمة لخرجنا إليها إن شاء الله تعالى ولكن كم من أمنية ضاعت فإنا لله وإنا إليه راجعون وروي مرفوعا من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنة ولينظر في سنده وتخريجه وقيل المعنى إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة (فإياي فاعبدون) حتى أورثكموها وانتصاب إياي بفعل مضمر أي فاعبدوا إياي ثم لما صعب على المؤمنين ترك الأوطان ومفارقة الإخوان خوفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة وشجع المهاجرين لئلا يقيموا بدار الشرك خوفا من الموت فقال (كل نفس) من النفوس (ذائقة الموت) أي واجدة مرارة الموت وكربه ومشاقه لا محالة كما

(١) قوله ثم اقتحم الثانية الخ هكذا في النسخ وحرر اه

وفي رواية اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انطم عليهم البحر فما رؤي سواداً أكثر من يومئذ وغرق فرعون لعنه الله ثم قال تعالى ان في ذلك لآية أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم تقدم تفسيره (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال

أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين) هذا اخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم عليه السلام امام الحنفاء أمر الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ان يتلوه على أمته ليقتدوا به في الاخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله فان الله تعالى آتى ابراهيم رشده من قبل أي من صغره الى كبره فانه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الاصنام مع الله عز وجل فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين أي مقيمين على عبادتها ودعائها قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون يعني اعترفوا بان أصنامهم لا تفعل شيأ من ذلك وانما رأوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون فعند ذلك قال لهم ابراهيم أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين أي ان كانت هذه الاصنام شيأ ولها تأثير وتقدر فلتخلص الى بالمساءة فاني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام فأجمعوا أمركم وشركاءكم الآية وقال هود عليه السلام اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم وهكذا تبرأ ابراهيم من آلهتهم فقال وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله الآية وقال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم الى قوله حتى تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني

يجد الذائق طعم المذوق فلا يصعب عليكم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان وهجر الخلان بل الاولى ان يكون ذلك في سبيل الله فجازيكم عليه فلا تخافوا من بعد الشقة ومقاساة المشقة (ثم الينا) لا الى غيرنا (ترجعون) بالموت والبعث الينا فكل حي في سفر الى دار القرار وان طال لبثه في هذه الدار عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت انك ميت وانهم ميتون قلت يا رب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الانبياء فنزلت كل نفس ذائقة الموت الآية أخرجه ابن مردويه وينظر كيف صحته فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ان يسمع قول الله سبحانه انك ميت وانهم ميتون يعلم انه ميت وقد علم ان من قبله من الانبياء قد ماتوا وانه خاتم الانبياء فكيف ينشأ عن هذه الآية ما نقل عنه على رضي الله عنه من قوله أيموت الخلائق ويبقى الانبياء فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) في هذا ترغيب الى الهجرة وان جزاء من هاجر ان يكون في غرف الجنة كما قال (لنبوئنهم) أي لننزلنهم وهو مأخوذ من المباءة وهي الانزال وقرئ لنثوينهم بالثاء والمعنى لنعطينهم غرفاً يثوون فيها من الثوى وهو الاقامة قال الزجاج يقال ثوى الرجل اذا أقام وأثويته اذا أنزلته منزلاً يقيم فيه قال الاخفش لا تعجبني هذه القراءة لانك لا تقول أثويته الدار بل تقول في الدار وليس في الآية حرف جر في المفعول الثاني (من الجنة غرفاً) أي غرف الجنة وهي علاليها جمع علية ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال (تجري من تحتها الانهار) أي من تحت الغرف (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود في الغرف لا يموتون أبداً أو في الجنة والاول أولى (نعم أجر العاملين) للاعمال الصالحة أجرهم بين في هذه الآية ان للمؤمنين الجنات في مقابلة ان للكافرين النيران وان فيها غرفاً تحتها الانهار في مقابلة ان تحت الكافرين النار وبين ان ذلك أجر عملهم بقوله نعم أجر العاملين في مقابلة ما تقدم للكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ولم يذكر ما فوق المؤمنين لانهم في أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيأ اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم ولم يجعل الماء من تحت أقدامهم بل من تحت غرفهم لان الماء يكون ملتذاً به في أي جهة كان وعلى أي بعد كان اذا كان تحت الغرفة ذكره الرازي ثم وصف هؤلاء العاملين بقوله (الذين صبروا) على مشاق التكاليف وعلى أذية المشركين لهم والهجرة لاظهار الدين وعلى الطاعة وعن المعاصي ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم (وعلى

فانه يهدين وجعلها كلمة هي لا اله الا الله (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) يعني لا أعبد الا الذي يفعل هذه الاشياء الذي خلقني فهو يهدين أي هو الخالق الذي قدر قدرا وهدى الخلائق اليه فكل يجري على ما قدر له وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء والذي يطعمني ويسقين أي هو خالق ورازق بما سخر ويسر من الاسباب السماوية والارضية فساق المزن وانزل الماء وأحيى به الارض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا نسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا وقوله واذا مرضت فهو يشفين أسند المرض الى نفسه وان كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه الى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا المصلي ان يقول اهدنا الصراط المستقيم الى آخر السورة فأسند الانعام والهداية الى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدبا وأسند الضلال الى العبيد كما قالت الجن وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا وكذا قال ابراهيم واذا مرضت فهو يشفين أي اذا وقعت في مرض فانه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الاسباب الموصلة اليه والذي يميتني ثم يحيين أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فانه هو الذي يبدئ ويعيد والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة الا هو ومن يغفر الذنوب الا الله وهو الفعال لما يشاء (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي انه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) وهذا سؤال وفي من ابراهيم عليه السلام ان يؤتيه ربه حكما قال ابن عباس وهو العلم وقال عكرمة هو اللب وقال مجاهد هو القرآن وقال السدي هو النبوة وقوله وألحقني بالصالحين أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار اللهم في الرفيق الاعلى قالها ثلاثا وفي الحديث في الدعاء اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين وقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين أي واجعل لي ذكرا جميلا بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى وتركنا عليه

ربهم يتوكلون) أي موصوفين أمورهم اليه في كل اقدام واحجام ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل وهو النظر في حال الدواب فقال (وكأين) قد تقدم الكلام فيها وانها أي دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيهما معنى كم كما صرح به الخليل وسيبويه وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد (من دابة) وقيل المعنى وكم من دابة ذات حاجة الى غذاء (لا تحمل رزقها) أي لا تطيق حمله لضعفها ولا تدخره لغد ولا ترفعه معها مثل البهائم والطير (الله يرزقها واياكم) أي انما رزقها الله من فضله ويرزقكم فكيف لا تتوكلون على الله مع قوتكم وقدرتكم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها قال الحسن تأكل لوقتها لا تدخر شيئا وقال مجاهد يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا وعن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والمعنى انها تذهب أول النهار جياعا ضامرة البطون وتروح آخر النهار الى أوكارها شباعا ممتلئة البطون ولا تدخر شيئا قال سفيان بن عيينة ليس شيء من خلق الله يخبأ الا الانسان والفأرة والنملة سوى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين الحريص والمتوكل في الرزق وبين الراغب والقانع وبين الجلد والعاجز يعني ان الجلد لا يتصور انه مرزوق بجلده ولا يتصور العاجز انه ممنوع من الرزق بعجزه (وهو السميع) الذي يسمع كل مسموع (العليم) بكل معلوم أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط التمر ويأكل فقال لي مالك لا تأكل قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبؤن رزق سنتهم ويضعف اليقين قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا واني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة

فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين قال مجاهد وقتادة واجعل لى لسان صدق فى الآخرين يعنى الثناء الحسن قال مجاهد كقوله تعالى وآتيناه فى الدنيا حسنة الآية وكقوله وآتيناه أجره فى الدنيا الآية وقال ليث بن أبى سليم كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة وقوله تعالى واجعلنى من ورثة جنة النعيم أى أنعم على فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم وقوله واغفر لأبى الآية كقوله ربنا اغفر لى ولوالدى وهذا مما رجع عنه ابراهيم عليه السلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه الى قوله ان

ابراهيم لأواه حليم وقد قطع تعالى الالحاق فى استغفاره لأبيه فقال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه الى قوله وما أملك لك من الله من شئ وقوله ولا تخزنى يوم يبعثون أى أجرنى من الخزى يوم القيامة ويبعث الخلائق أولهم وآخرهم وقال البخارى عند هذه الآية قال ابراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذئب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة وفى رواية أخرى حدثنا اسمعيل حدثنا أخى عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم أباه فيقول يارب انك وعدتنى أن لاتخزينى يوم يبعثون فيقول الله تعالى انى حرمت الجنة على الكافرين هكذا رواه عند هذه الآية وفى أحاديث الانبياء بهذا الاسناد بعينه منفردا به ولفظه يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لاتعصينى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتنى أن لاتخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الابعد فيقول الله تعالى انى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا ابراهيم انظر تحت رجلك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار ورواه عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير وقوله ولا تخزنى يوم يبعثون أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنى ابراهيم بن طهمان عن محمد بن عبد الرحمن عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة وقال له قد نهيتك عن هذا فعصيتنى قال لكنى اليوم لا أعصيك واحدة قال يارب وعدتنى أن لاتخزينى يوم يبعثون فان أخزيت أباه فقد أخزيت

وفى اسناده أبو العطوف الجوزى وهو ضعيف ثم انه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ولا يتركون عبادة غيره فقال (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض) أى بشيئين أحدهما يتعلق بالذوات وهو هذا والثانى يتعلق بالصفات وهو قوله (وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) خالقها لا يقدرون على انكار ذلك ولا يتمكنون من جحوده (فأنى يؤفكون) أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده بالالهية وانه وحده لاشريك له والاستفهام للانكار والاستبعاد ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير لان مجرد خلقهما ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لاتتحرك ماحصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فحينئذ الحكمة انما هى فى تحريكهما وتسخيرهما ولما قال المشركون لبعض المؤمنين لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع الله سبحانه ذلك بقوله (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى التوسيع فى الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء على حسب ماتقتضيه حكمته ومايليق بأحوال عباده من القبض والبسط ولهذا قال (ان الله بكل شئ عليم) يعلم مافيه صلاح عباده وفسادهم ومنه البسط والتضييق (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها) أى جدبها وقحط أهلها (ليقولن الله) أى يعترفون بذلك لايجدون الى انكاره سبيلا فكيف يشركون به بعد هذا الاقرار ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات وهو يقتضى بطلان ماهم عليه من الشرك وعدم افراد الله سبحانه بالعبادة أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمد الله على اقرارهم بذلك وعدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد وتشددهم فى رد كل ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التوحيد فقال (قل الحمد لله) أى احمد الله على ان جعل الحق معك وأظهر حجتك عليهم وقيل على انزال الماء واحياء الارض بالنبات والاول أولى ثم ذمهم فقال (بل أكثرهم لايعقلون) الاشياء التى يتعقلها العقلاء فلذلك لايعملون بمقتضى مااعترفوا به مما يستلزم بطلان ماهم عليه عند كل عاقل ثم أشار سبحانه الى تحقير الدنيا وتصغيرها وانها من جنس اللعب واللهو وهى لاتزن عند الله جناح بعوضة وان الدار على الحقيقة هى الدار الآخرة فقال (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب) أى من جنس

الا بعد قال يا ابراهيم ان حرمتها على الكافرين فأخذ منه قال يا ابراهيم أين أبوك قال أنت أخذته منى قال انظر أسفل منك فنظر فاذا ذيخ يتمرغ فى نتنه فأخذ بقوائمه فألقى فى النار وهذا اسناد غريب وفيه نكارة والذيخ هو الذكر من الضباع كأنه حول آزر الى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فلقى فى النار كذلك وقد رواه البزار باسناده من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه غرابة ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وقوله يوم

لا ينفع مال ولا بنون أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى على الارض ذهبا ولا بنون أى ولو افتدى بمن على الارض جميعا ولا ينفع يومئذ الا الايمان بالله واخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله ولهذا قال الا من أتى الله بقلب سليم أى سالم من الدنس والشرك قال ابن سيرين القلب السليم ان يعلم ان الله حق وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور وقال ابن عباس الا من أتى الله بقلب سليم القلب السليم أن يشهد أن لا اله الا الله وقال مجاهد والحسن وغيرهما بقلب سليم يعنى من الشرك وقال سعيد بن المسيب القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض قال الله تعالى فى قلوبهم مرض قال أبو عثمان النيسابورى هو القلب السالم من البدعة المطمئن الى السنة

(وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) آتيناهم

وأزلفت الجنة أى قربت وأدنيت من أهل الموقف مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما فى الدنيا وعملوا لها فى الدنيا وبرزت الجحيم للغاوين أى أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر وقيل لاهلها تقريعا وتوبيخا أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون أى ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الاصنام

ما يلهو به الصبيان ويلعبون به وأما القرب كالصلاة والصوم والحج والاستغفار والتسبيح فى أمور الآخرة لظهور غرتها فيها والهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث وقيل اللهو هو الاعراض عن الحق بالكلية واللعب الاقبال على الباطل قاله الرازى وفى هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية ان سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها قال أبو عبيدة وابن قتيبة ان الحيوان الحياة قال الواحدى وهو قول جميع المفسرين ذهبوا الى أن معنى الحيوان ههنا الحياة وانه مصدر بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان وواو الحيوان مقلوبة عن ياء عند سيبويه وأتباعه وقال أبدلت شذوذا وكذا فى حياة علما وقال أبو البقاء لئلا يلتبس بالتثنية وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره فالحياة عنده لامها واو ولا دليل لسيبويه فى حى لان الواو متى انكسرت ما قبلها قلبت ياء نحو عرى ورعى ورضى والتقدير لهى دار الحيوان أو ذات الحيوان أى دار الحياة الباقية التى لا تزول أو لا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم وقدر أبو البقاء ان حياة الدار وذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن قال ابن عباس هى الحيوان أى باقية وعن أبى جعفر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عجبا كل العجب من مصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب وهو مرسل (لو كانوا يعلمون) أن الحياة هى حياة الآخرة أو يعلمون شيأ من العلم لما آثروا الدار الفانية المنغصة على الآخرة الباقية ثم بين سبحانه انه ليس المانع لهم من الايمان الا مجرد تأثير الحياة فقال (فاذا ركبوا فى الفلك) أى اذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا الى الفطرة والركوب هو الاستعلاء وهو متعد بنفسه وانما عدى بكلمة فى للاشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الامكنة (دعوا الله) وحده (مخلصين له الدين) بصدق نياتهم وتركهم عند ذلك دعاء الاصنام لعلمهم انه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه (فلما نجاهم الى البر) وأمنوا (اذا هم يشركون) أى فاجؤا المعاودة الى الشرك ودعوا غير الله سبحانه وعادوا الى ما كانوا عليه من العناد وقيل كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الاصنام فاذا اشتد الريح ألقوها فى البحر وقالوا يا رب يا رب (ليكفروا بما

والانداد لتغنى عنكم اليوم شيأ ولا تدفع عن أنفسها فانكم واياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون وقوله فكبكبوا فيها هم والغاوون قال مجاهد يعنى قدهوروا فيها وقال غيره كبكبوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر والمراد انه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم الى الشرك وجنود ابليس أجمعون أى ألقوا فيها عن آخرهم قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين أى يقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين أى نجعل أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين وعبدنا كم مع رب العالمين وما أضلنا الا المجرمون أى مادعانا الى ذلك الا المجرمون فمالنا من شافعين قال بعضهم يعنى من الملائكة كما يقولون فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل وكذا قالوا فمالنا من شافعين ولا صديق حميم أى قريب قال قتادة يعلمون والله ان الصديق اذا كان صالحا نفع وان الحميم اذا كان صالحا شفع فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين وذلك انهم يتمنون انهم يردون الى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون والله تعالى يعلم انهم لو ردوا الى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار فى سورة ص ثم قال تعالى ان ذلك لحق تخاصم أهل النار ثم قال تعالى ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين أى ان فى محاجة ابراهيم لقومه واقامة الحجج عليهم فى التوحيد لآية أى لدلالة واضحة جلية على ان لا اله الا الله وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون) هذا اخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو اول رسول بعثه الله الى أهل الارض بعد ما عبدت الاصنام والانداد فبعثه الله ناهيا عن ذلك ومحذرا من وبيل عقابه فكذبه قومه فاستمروا على ما هم فيه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم اصنامهم مع الله تعالى وانزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل فلهذا قال تعالى كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون أى لا تخافون الله فى عبادتكم انى لكم رسول أمين أى انى رسول من الله اليكم

آتاهم) من نعمة الانجاء (وليتمتعوا) أى فاجؤا الشرك بالله ليكفروا أو يجحدوا نعمة الله وليتمتعوا بها فاللام فى الفعلين لام كى وفيه شئ لانه ليس الحامل لهم على الاشراك قصد الكفر والظاهر انها لام العاقبة والمآل كما أشار له الشهاب وقيل اللام للتعليل والمعنى لافائدة لهم فى الاشراك الا التمتع به فى العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة وقيل هما لاما الامر تهديدا ووعيدا أى اكفروا بما أعطينا كم من النعمة وتمتعوا ويدل على هذا المعنى قراءة أبى وتمتعوا وهذا الاحتمال للامرين انما هو على قراءة أبى عمرو وورش بكسر اللام واما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف انها لام الامر (فسوف يعلمون) عاقبة ذلك الامر وما فيه من الوبال عليهم وفيه تهديد لهم عظيم (أولم يروا) أى ألم ينظر كفار قريش (أنا جعلنا) حرمهم أى بلدهم مكة (حرما آمنا) يأمن فيه ساكنه من الغارة والقتل والسبى والنهب فصاروا فى سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب فانهم فى كل حين تطرقهم الغارات وتجتاح أموالهم الغزاة وتسفك دماءهم الجنود وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها (ويتخطف الناس) جملة حالية أى وهم يتخطف الناس (من حولهم) بالقتل والسبى والنهب والخطف الاخذ بسرعة وقد مضى تحقيق معناه فى سورة القصص والجملة حالية (أفبالباطل يؤمنون) وهو الشرك والاصنام والشيطان بعد ظهور حجة الله عليهم واقرارهم بما يوجب التوحيد (وبنعمة الله يكفرون) أى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والاسلام ويجعلون كفرها مكان شكرها وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) وهو من زعم ان لله شريكا (أو كذب بالحق لما جاءه) أى كذب بالرسول الذى أرسل اليه أو الكتاب الذى أنزله على رسوله وقال السدى بالتوحيد والظاهر شموله لما يصدق عليه انه حق ثم هدد المكذبين وتوعدهم فقال (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى مكان يستقرون فيه والاستفهام للتقرير والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلوا ما فعلوا لان همزة الانكار اذا دخلت على النفى صار ايجابا فيرجع الى معنى التقرير أو ألم يصح عندهم ان جهنم مثواهم حين اجترؤا مثل هذه الجرأة ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين التوحيد الكافرين بنعم الله أردفه بحال عباده الصالحين فقال (والذين جاهدوا) أى اوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دل عليه بالمفاعلة (فينا) أى فى شأن الله

أمرني فيما بعثني الله به أبلغكم رسلات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله فاتقوا الله وأطيعون فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين) يقولون لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الارذلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا ولهذا قالوا أنؤمن لك واتبعك (١٧٦) الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص انما على ان أقبل منهم تصديقهم اياي وأكل سرائرهم الى الله عز وجل ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين كأنهم سألوا منه ان يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين أي انما بعثت نذيرا فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه سواء كان شريفا أو وضيعا أو جليلا أو حقيرا (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم الى الله تعالى ليلا ونهارا وسرا وجهارا وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد وقالوا في الآخر لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين أي لئن لم تنته عن دعوتك ايانا الى دينك لتكونن من المرجومين أي لنرجمنك فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال يا رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا الآية كما قال في الآية الاخرى فدعا ربه اني مغلوب فانتصر الى آخر الآية وقال ههنا فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين والمشحون هو المملوء بالامتعة والازواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون اني لكم

لطالب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير وقيل في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ومن اقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه بالقول والفعل في الشدة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا (لنهدينهم سبلنا) أي سبل السير والطريق الموصل الينا وقيل لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا وعن ابن عطاء جاهدوا في رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان وعن الجنيد جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الاخلاص أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والانس بنا قال ابن عطية هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي وانما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته وقيل الآية هذه نزلت في العباد قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فان الله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا الخ وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات والمخالفة للهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فينا أي في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله الذين جاهدوا باقامة السنة واماتة البدعة لنهدينهم سبل الجنة وقال ابن عباس الذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الداراني الذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما علم وفق لعلم ما لم يعلم وقال ابراهيم بن أدهم هي في الذين يعملون بما يعلمون وقال الداراني أيضا ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وأعظمه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله قال ابن عيينة مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم فكذلك من لزم السنة في الدنيا سلم وظاهر الآية العموم فيدخل تحته كل ذلك قال النسفي أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين (وان الله لمع المحسنين) بالنصر والعون في دنياهم والمغفرة في عقباهم وثوابهم الجنة في الآخرة ومن كان الله معه لا يخذل أبدا ودخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما أو على انها حرف ودخلت عليها لافادة معنى الاستقرار كما تقول ان زيدا لفي الدار والبحث مقرر في علم النحو وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر اظهارا لشرفهم بوصف الاحسان

(سورة الروم هى ستون أو تسع وخمسون آية)

قال القرطبى كلها مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله وقال البيضاوى الا قوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون والاول أولى وأخرج عبد الرزاق وأحمد قال السيوطى بسند حسن عن رجل من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها سورة الروم وأخرج البزار عن الاغر المزنى مثله وعن عبد الملك بن عمير ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قرأ فى الفجر يوم الجمعة بسورة الروم وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وأحمد بن قانع من طريق ابن عمير مثل حديث الرجل الذى من الصحابة وزاد فتردد فيها فلما انصرف قال انما يلبس علينا فى صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور من شهد الصلاة فليحسن الطهور

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة والله أعلم بمراده بذلك (غلبت الروم) قرئ مبنيا للمفعول وللفاعل قال النحاس قراءة الناس بضم الغين وكسر اللام قال أهل التفسير غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب وافتخروا على المسلمين فقالوا نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لانهم أهل كتاب أى نصارى فهم أقرب الى الاسلام والفرس مجوس فهم أقرب الى كفار قريش وفارس اسم أعجمى علم على تلك القبيلة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بل والعجمة وعن أبى سعيد قال لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت الم غلبت الروم وقرأها على البناء للفاعل ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس وعن أبى الدرداء قال سيجئ أقوام يقرؤن الم غلبت يعنى بالفتح وانما هى غلبت يعنى بالضم والروم اسم قبيلة سميت باسم جدها وهو روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم قاله ابن جزى فى تفسيره وسمى عيصو لانه كان مع يعقوب فى بطن فعند خروجهما تزاحما وأراد كل ان يخرج قبل صاحبه فقال عيصو ليعقوب ان لم أخرج قبلك والا خرجت من جنبها فتأخر يعقوب شفقة منه فلذا كان أبا الانبياء وعيصو أبا الجبارين كذا قيل والله أعلم قيل وكان هذا الحرب بين اذرعات

رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهذا اخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام انه دعا قومه عادا وكان قومه يسكنون الاحقاف وهى جبال الرمل قريبا من حضرموت من جهة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال فى سورة الاعراف واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة وذلك انهم كانوا فى غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول المديد والارزاق الدارة والاموال والجنات والانهار والابناء والزروع والثمار وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه فبعث الله هودا اليهم رجلا منهم رسولا وبشيرا ونذيرا فدعاهم الى الله وحده وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته وبطشه فقال لهم كما قال نوح لقومه الى أن قال أتبنون بكل ريع آية تعبثون اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله انه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة تبنون هنالك بناء محكما هائلا باهرا ولهذا قال أتبنون بكل ريع آية أى علما بناء مشهورا تعبثون أى وانما تفعلون ذلك عبثا لا للاحتياج اليه بل لمجرد اللعب واللهو واظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لانه تضييع للزمان واتعاب للابدان فى غير فائدة واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون قال مجاهد والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد

وفى رواية عنه بروج الحمام وقال قتادة هى مأخذ الماء قال قتادة وقرأ بعضهم وتتخذون مصانع كأنكم خالدون وفى القراءة المشهورة وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون أى لكى تقيموا فيها أبدا وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم وروى ابن أبى حاتم رحمه الله حدثنا أبى حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثنى عون بن عبد الله بن عتبة ان أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام فى مسجدهم فنادى يا أهل دمشق فاجتمعوا اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ألا تستحيون ألا تستحيون تجمعون ما لا تأكلون وتبنون

مالاتسكنون وتأملون مالاتدركون انه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح املهم غرورا وأصبح جمعهم بورا وأصبحت مساكنهم قبورا ألا ان عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين وقوله واذا بطشتم بطشتم جبارين أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت فاتقوا الله وأطيعون أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عـذاب يوم عظيم أي ان كذبتم

وخالفتم فدعاهم بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هـذا الاخلق الاولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم وبين لهم الحق ووضحه قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين أي لا نرجع عما نحن عليه وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين وهكذا الامر فان الله تعالى قال ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون وقال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية وقولهم ان هذا الاخلق الاولين قرأ بعضهم ان هـذا الاخلق الاولين بفتح الخاء وتسكين اللام قال ابن مسعود والعوفي عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد يعنون ما هـذا الذي جئتنا به الا أخلاق الاولين كما قال المشركون من قريش وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا وقال وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين وقرأ آخرون ان هذا الاخلق الاولين بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الامر هو دين الاولين من الآباء والاجداد ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد ولهـذا قالوا وما نحن بمعذبين قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان هـذا الاخلق الاولين يقول دين الاولين وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقوله فكذبوه فأهلكناهم أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله وقد بين سبب اهلاكه اياهم

و بصري والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز (في أدنى الارض) متعلق بغلبت أي أقرب أرض من أرض العرب أو في أقرب أرض العرب منهم قيل هي أرض الجزيرة وقيل اذرعات وقيل كسكر وقيل الاردن وقيل فلسطين وهـذه المواضع هي أقرب الى بلاد العرب من غيرها وانما حملت الارض على أرض العرب لانها المعهودة في ألسنتهم اذا أطلقوا الارض ارادوا بها جزيرة عرب وقيل ان الالف واللام عوض عن المضاف اليه والتقدير في ادنى ارضهم فيعود الضمير الى الروم ويكون المعنى في أقرب أرض الروم من العرب الى فارس والمراد بالجزيرة ما بين دجلة والفرات وليس المراد بها جزيرة العرب وحدها على ما روي عن الاصمعي انها من أقصى عدن الى ريف العراق طولا ومن جدة وما والاها الى اطراف الشام عرضا وسبب تسميتها جزيرة احاطة البحار والانهار العظيمة بها كبحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات وقال ابن جرى في تفسيره الجزيرة بين الشام والعراق وهي أول الروم الى فارس قال ابن عطية ان كانت الوقعة باذرعات فهي من أدنى الارض بالقياس الى مكة وان كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس الى أرض كسرى وان كانت بالاردن فهي أدنى الى ارض الروم وعن ابن عباس قال كان المشركون يحبون ان يظهر فارس على الروم لانهم كانوا أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لانهم أصحاب كتاب فذكروه لابي بكر فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما انهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الا جعلته أراه قال دون العشرة فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله الم غلبت الروم فغلبت ثم غلبت بعد قال سفيان سمعت انهم ظهروا عليهم يوم بدر وعن البراء بن عازب نحوه وزاد انه لما مضى الاجل ولم تغلب الروم فارس ساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه وقال ما دعاك الى هـذا قال تصديقا لله ولرسوله فقال تعرض لهم وأعظم الخطة واجعله الى بضع سنين فأتاهم أبو بكر فقال هـل لكم في العود فان العود أحمد قالوا نعم فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية فقمر أبو بكر فجاء به أبو بكر يحمله الى رسول الله

في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية أي ريحا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدا فكانت سبب اهلاكهم من جنسهم فانهم كانوا أعتى شيء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة كما قال ما لي ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد وهم عاد الاولى كما قال وأنه أهلك عادا الاولى وهم من نسل ارم بن سام بن نوح ذات العماد الذين كانوا يسكنون العمد ومن زعم ان ارم مدينة فانما أخذ ذلك من الاسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل اصيل ولهذا قال التي لم يخلق مثلها في البلاد أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم

ولو كان المراد بذلك مدينة لقال التي لم يبن مثلها في البلاد وقال تعالى فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون وقد قدمنا ان الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح الا مقدار أنف الثور عتت على الخزنة فأذن الله لها في ذلك فسلكت فحصبت بلادهم فحصبت كل شيء لهم كما قال تعالى تدمر كل شيء بأمر ربها الآية وقال تعالى فأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية الى قوله حسوما أي كاملة فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية أي بقوا أبدانا بلا رؤس وذلك ان الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات وحفروا لهم في الارض الى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيأ لان أجل الله اذا جاء لا يؤخر ولهذا قال تعالى فكذبوه فأهلكناهم الآية (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) وهذا اخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام انه بعثه الى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ومساكنهم معروفة مشهورة وقد قدمنا في سورة الاعراف الاحاديث المروية في مرور رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم حين أراد عبور الشام فوصل الى تبوك ثم عاد الى المدينة ليتأهب لذلك وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام فدعاهم نبيهم صالح الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده لا شريك له وان يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه وأخبرهم انه لا يبتغي بدعوتهم أجرا

الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال هذا السحت تصدق به ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد ان العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة والقصة حجة عليهما لا لهما لانها كانت قبل تحريم القمار وفيه هذا السحت تصدق به (وهم من بعد غلبهم) أي والروم من بعد غلب فارس اياهم (سيغلبون) أهل فارس والغلب والغلبة لغتان (في بضع سنين) قد تقدم تفسير البضع واشتقاقه في سورة يوسف والمراد به هنا ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل الى التسع وقيل الى السبع وقيل ما دون العشرة وانما أبهم البضع ولم يبينه وان كان معلوما للنبيه صلى الله عليه وآله وسلم لادخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت كما يؤخذ ذلك من تفسير الفخر الرازي أخرج الترمذي وصححه والدارقطني في الافراد والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي في الشعب عن نيار بن مكرم الاسلمي قال لما نزلت الم غلبت الروم الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لانهم واياهم أهل الكتاب وفي ذلك يقول الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الخ وكانت قريش تحب ظهور فارس لانهم واياهم ليسوا أهل كتاب ولا ايمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فقال ناس من قريش لابي بكر ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك فقال بلى وذلك قبل تحريم الرهان فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لابي بكر لم تجعل البضع ثلاث سنين الى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا تنتهي اليه قال فسموا بينهم ست سنين فمضت الست قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين لان الله قال في بضع سنين فأسلم عند ذلك ناس كثير وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لابي بكر ألا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث الى تسع وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه وفي الباب روايات وما ذكرنا يغني عما سواه (لله الامر) اي هو المتفرد بالقدرة وانفاذ الاحكام (من قبل ومن بعد) أي من وقت المغلوبية ووقت الغالبية فهو لف ونشر مرتب على الآية وقال ابو السعود أي في اول الوقتين

منهم وإنما طلب ثواب ذلك من الله عز وجل ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال (أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع
ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون) يقول لهم واعظا لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في
أمن من المحذورات وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات ولهذا قال ونخل
طلعها هضيم قال العوفي عن ابن عباس أينع وبلغ فهو هضيم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
ونخل طلعها هضيم يقول معشبة
وقال إسمعيل بن أبي خالد عن عمرو
ابن أبي عمرو وقد أدرك الصحابة عن
ابن عباس في قوله ونخل طلعها
هضيم قال إذا رطب واسترخى رواه
ابن أبي حاتم ثم قال وروي عن أبي
صالح نحو هذا وقال أبو إسحق عن
أبي العلاء ونخل طلعها هضيم قال
هو المذنب من الرطب وقال مجاهد
هو الذي إذا مس تهشم وتفتت
وتناثر وقال ابن جريج سمعت عبد
الكريم أبا أمية سمعت مجاهدا
يقول ونخل طلعها هضيم قال حين
يطلع تقبض عليه فتهضمه فهو من
الرطب الهضيم ومن اليابس الهشيم
تقبض عليه فتهشمه وقال عكرمة
وقتادة الهضيم الرطب اللين وقال
الضحاك إذا كثر حمل الثمرة وركب
بعضها بعضا فهو هضيم وقال مرة
هو الطلع حين يتفرق ويخضر
وقال الحسن البصري هو الذي
لا نوى له وقال أبو صخر ما رأيت
الطلع حين يشق عنه الكم فترى
الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو
الهضيم وقوله وتنحتون من الجبال
بيوتا فارهين قال ابن عباس وغير
واحد يعني حاذقين وفي رواية عنه شرهين أشرين وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما فإنهم كانوا وقيل
يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكناها وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو
المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال فاتقوا الله وأطيعون أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من
عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق (قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت

وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا
ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس انتهى قرئ بضم الظرفين
لكونهما مقطوعين عن الإضافة أي من قبل الغلب ومن بعده أو من قبل كل أمر وبعده
قال الزجاج معنى الآية من متقدم ومن متأخر وحكى الكسائي من قبل ومن بعد بكسر
الأول منونا وضم الثاني بلا تنوين وحكى الفراء بكسرهما من غير تنوين وغلطه
النحاس وقال إنما يجوز مكسورا منونا قلت وقد قرئ بذلك ووجهه أنه لم ينو إضافتهما
فأعربهما وقال شهاب الدين وقد قرئ بكسرهما منونين (ويومئذ) أي يوم أن تغلب
الروم على فارس ويحل ما وعده الله من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) للروم على
فارس لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب بخلاف فارس فإنهم لا كتاب لهم ولهذا
سر المشركون بنصرهم على الروم وقيل نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به
المشركين من غلبة الروم على فارس والأول أولى قال الزجاج هذه الآية من الآيات التي
تدل على أن القرآن من عند الله لأنه أنبأ بما سيكون وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه (ينصر من
يشاء) أن ينصره (وهو العزيز) الغالب القاهر (الرحيم) الكثير الرحمة لعباده
المؤمنين وقيل المراد بالرحمة هنا الدنيوية وهي شاملة للمسلم والكافر (وعد الله لا يخلف الله
وعده) أي وعد الله وعدا لا يخلفه وهو ظهور الروم على فارس (ولكن أكثر الناس
لا يعلمون) بجهلهم وعدم تفكرهم أن الله لا يخلف وعده وهم الكفار وقيل كفار مكة على
الخصوص نفى عنهم العلم النافع للآخرة وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فقال (يعلمون)
بدل من لا يعلمون وهذا أحسن من قول الحوفي إنها مستأنفة من حيث المعنى إلا أن
الصناعة لا تساعد عليه لأن بدل فعل مثبت من فعل منفي لا يصح والضمير للأكثر وكذا
يقال فيما بعده وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي
لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا (ظاهرا من الحياة الدنيا) أي ظاهر ما يشاهدونه من زخارف
الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية وقيل هو ما تلقيه
الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع وقيل الظاهر الباطل وقيل يعني
معايشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ومتى يزرعون ومتى يحصدون قال
الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطئ وهو لا يحسن يصلي

الابشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة * يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب
يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان في ... أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم)
يقول تعالى مخبرا عن ثمود وجوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم الى عبادة ربهم عز وجل انهم قالوا انما أنت من المسحرين
قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين وروى أبو صالح عن ابن عباس من المسحرين يعني من المخلوقين واستشهد بعضهم
على هذا بقول الشاعر

فان تسألينا فيم نحن فانا * عصافير من هذا الانام المسحر

يعني الذين لهم سحر والسحر الرئة والاظهر في هذا قول مجاهد وقتادة انهم يقولون انما أنت في قولك هذا مسحور لاعقل لك ثم قالوا ما أنت الابشر مثلنا يعني فكيف أوحي اليك دوننا كما قالوا في الآية الاخرى أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الاشر ثم انهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء وأشاروا الى صخرة عندهم من صفتها كذا وكذا فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل ان يجيبهم الى سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا اليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها فآمن بعضهم وكفر أكثرهم قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم يعني ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فحذرهم نقمة الله ان أصابوها بسوء فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربا وريا فلما طال عليهم الامد وحضر أشقاهم تمالؤا على قتلها وعقرها فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب وهو ان أرضهم زلزلت زلزالا شديدا وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الامر مالم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في دارهم جاثمين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون اني

وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وقيل لا يعلمون الدنيا بحقيقتها انما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها وافادت الآية الكريمة ان للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها وباطنها انها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة وبالاعمال الصالحة وتنكير الظاهر يفيد انهم لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم عن الآخرة) التي هي النعمة الدائمة واللذة الخالصة (هم غافلون) لا يلتفتون اليها ولا يعدون لها ما تحتاج اليه أو غافلون عن الايمان بها والتصديق بمجيئها وفيه انهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها واعادة لفظ هم الثانية للتأكيد (أولم يتفكروا) الهمزة للانكار عليهم والواو للعطف على مقدر كما في نظائره (في أنفسهم) ظرف للتفكر وليس مفعولا للتفكر والمعنى ان أسباب التفكر حاصلة لهم وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته تعالى وصدق أنبيائه وقيل انها مفعول التفكر والمعنى أولم يتفكروا في خلق الله اياهم ولم يكونوا شيأ والاول أولى لان المعنى أولم يتفكروا في قلوبهم الفارغة من الفكر التي هي أقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الاهمال وانه لابد لها من الانتهاء الى وقت يجازى فيه على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة في التدبير وانه لابد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) متعلق بالقول المحذوف معناه أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول وقيل معناه فيعلموا لان في الكلام دليلا عليه وما في ما خلق نافية اي لم يخلقها (الا بالحق) الثابت الذي يحق ثبوته أو هي اسم في محل نصب على اسقاط الخافض أي بما خلق الله ويضعف ان تكون استفهامية بمعنى النفي والباء للسببية أو هي ومجرورها في محل النصب على الحال أي متلبسة بالحق قال الفراء معناه الا للحق اي للثواب والعقاب وقيل بالحق بالعدل وقيل بالحكمة وقيل انه هو الحق وللحق خلقها (وأجل مسمى) للسموات والارض وما بينهما تنتهي اليه وهو يوم القيامة وفي هذا تنبيه على الفناء وان لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه وقيل معناه انه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشئ (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم) أي بالبعث بعد الموت (لكافرون)

لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين) يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهي مشهورة ببلاد الغور ناحية جبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث ولهذا قال تعالى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا لئن لم تنته يا لوط أي عما جئتنا به لتكونن من المخرجين أي ننفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال إني لعملكم من القالين أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال رب نجني وأهلي مما يعملون قال الله تعالى فنجيناه وأهله أجمعين أي كلهم إلا عجوزا في الغابرين وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه فصبروا لأمر الله واستمروا وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك الآية ولهذا قال تعالى ثم دمرنا الآخرين

واللام هي المؤكدة والمراد هؤلاء الكفار على الإطلاق أو كفار مكة (أولم يسيروا في الأرض فينظروا) الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار والمعنى أنهم قد ساروا وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من طوائف الكفار والأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم بالله وجحودهم الحق وتكذيبهم للرسل (كانوا أشد منهم قوة) كعاد وثمود والجملة مبينة للكيفية التي كانوا عليها وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية وقال ابن عمر كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل أخرجه ابن مردويه (وأثاروا الأرض) أي حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك ولم يكن أهل مكة أهل حرث (وعمروها) عمارة (أكثر مما عمروها) لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا وأقوى أجساما وأكثر تحصيلا لأسباب المعاش فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أي المعجزات والحجج الظاهرات وقيل بالأحكام الشرعية (فما كان الله ليظلمهم) بتعذيبهم على غير ذنب وإهلاكهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر والتكذيب للرسل (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أي عملوا السيئات من الشرك والمعاصي (السوأى) هي فعلى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وقيل هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة أو مصدر كالبشرى والذكرى وصفت به العقوبة مبالغة وقرئ عاقبة بالرفع على أنها اسم كان والخبر السوأى أي الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى ومن القائلين بأن السوأى جهنم الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين وسميت سوأى لأنها تسوء صاحبها (أن كذبوا) أي لأن كذبوا (بآيات الله) التي أنزلها على رسله أو بأن كذبوا قال الزجاج المعنى ثم كان عاقبة الذين أشركوا تكذيبهم بآيات الله واستهزاؤهم بها (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه في حكم العلة أو في حكم الاسمية لكان أو الخبرية لها (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا (ثم إليه ترجعون) أي إلى موقف الحساب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وأفرد الضمير في يعيده باعتبار لفظ الخلق وجمعه في ترجعون باعتبار معناه وقرئ يرجعون بالتحتية والفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قرئ يبلس على البناء للفاعل

وأمطرنا عليهم مطرا الى قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) هؤلاء يعنى أصحاب الايكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبى الله شعيب من أنفسهم وانما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لانهم نسبوا الى عبادة الايكة وهى شجرة وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فلهذا لما قال كذب أصحاب الايكة المرسلين لم يقل اذ قال لهم أخوهم شعيب وانما قال اذ قال لهم شعيب فقطع نسب الاخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا اليه وان كان أخاهم نسبا ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن ان أصحاب الايكة غير أهل مدين فزعم ان شعيبا عليه السلام بعثه الله الى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم وقد روى اسحق بن بشر الكاهلى وهو ضعيف حدثنى ابن السدى عن أبيه وزكريا بن عمرو عن خصيف عن عكرمة قالا ما بعث الله نبيا مرتين الا شعيبا مرة الى مدين فاخذهم الله بالصيحة ومرة الى أصحاب الايكة فاخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة وروى أبو القاسم البغوى عن هدبة عن همام عن قتادة فى قوله تعالى وأصحاب الرس قوم شعيب وقوله وأصحاب الايكة قوم شعيب وقاله اسحق بن بشر وقال غير جويبر أصحاب الايكة ومدين هما واحد والله أعلم وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعيد عن سعيد بن أبى هلال عن ربيعة بن يوسف عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوم مدين وأصحاب الايكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبى عليه السلام وهذا غريب وفى رفعه نظر والاشبه ان يكون موقوفا والصحيح انهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشئ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على انهما أمة واحدة (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) يأمرهم عليه السلام بايفاء المكيال والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين أى اذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصا وتأخذوه اذا كان لكم تاما وافيا ولكن خذوا كما تعطون

للفاعل يقال أبلس الرجل اذا سكت وانقطعت حجته فهو قاصر لا يتعدى قال الفراء والزجاج المبلس الساكت المنقطع فى حجته الذى أيس ان يهتدى اليها وقرئ مبنيا للمفعول وفيه بعد لان أبلس لا يتعدى وقال الكلبى أى ييأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب وقد قدمنا تفسير الابلاس عند قوله فاذا هم مبلسون وقال ابن عباس يبلس ييأس وعنه يكتئب وعنه الابلاس الفضيحة (ولم يكن لهم) أى لا يكون للمشركين يوم تقوم الساعة (من شركائهم) الذين عبدوهم من دون الله وأشركوهم وهم الاصنام ليشفعوا لهم (شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله (وكانوا) فى ذلك الوقت (بشركائهم) أى بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله (كافرين) أى جاحدين لكونهم آلهة لانهم علموا اذ ذاك انهم لا ينفعون ولا يضرون وقيل ان معنى الآية كانوا كافرين فى الدنيا بسبب عبادتهم والاول أولى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله الله يبدأ الخلق والمراد بالتفرق ان كل طائفة تنفرد فالمؤمنون يصيرون الى الجنة والكافرون الى النار وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ومثله قوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب فلا يجتمعون أبدا ثم بين الله سبحانه كيفية تفرقهم فقال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال النحاس سمعت الزجاج يقول معنى أما دع ما كنا فيه وخذ فى غيره وكذا قال سيبويه ان معناها مهما يكن من شئ فخذ فى غير ما كنا فيه (فهم فى روضة) الروضة كل ارض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وقيل البستان الذى هو فى غاية النضارة قال المفسرون والمراد بها هنا الجنة والتنكير لابهام امرها وتفخيم شأنها قال ابو عبيد الروضة ما كان فى سفل فاذا كان مرتفعا فهو ترعة وقال غيره احسن ما تكون الروضة اذا كانت فى مكان مرتفع (يحبرون) الحبور والحبرة السرور أى فهم فى رياض الجنة ينعمون وقال ابن عباس يحبرون يكرمون وقال النحاس حكى الكسائى حبرته اى أكرمته ونعمته وقيل يحلون والاولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربى ونفس دخول الجنة يستلزم الاكرام والنعيم وفى السرور زيادة على ذلك وقيل التحبير التحسين فمعنى يحبرون يحسن اليهم وقيل هو السماع الذى يسمعونه فى الجنة وقيل غير ذلك والرجح ما ذكرناه واخرج الديلمى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان يوم القيامة قال الله اين الذين كانوا ينزهون اسماعهم

وأعطوا كما تأخذون وزنوا بالقسطاس المستقيم والقسطاس هو الميزان وقيل هو القبان قال بعضهم هو معرب من الرومية قال مجاهد القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية وقال قتادة القسطاس العدل وقوله ولا تبخسوا الناس أشياءهم أي لا تنقصوهم أموالهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وقوله واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام ربكم ورب آبائكم الأولين قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والجبلة الأولين يقول خلق الأولين وقرأ ابن زيد ولقد أضل منكم جبلا كثيرا (قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا إنما أنت من المسحرين يعني من المسحورين كما تقدم وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين أي تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا فأسقط علينا كسفا من السماء قال الضحاك جانبا من السماء وقال قتادة قطعا من السماء وقال السدي عذابا من السماء وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلى أن قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا وقوله وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة فأسقط علينا كسفا من السماء الآية قال ربي أعلم بما تعملون يقول الله أعلم بكم فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقا ولهذا قال تعالى فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون

وأبصارهم عن مزامير الشيطان مروهم فيمرون في كثب المسك والعنبر ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي قال فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط وعن مجاهد قال ينادي مناد يوم القيامة وذكر نحوه وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح في الجنة شجر على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا وعن أبي هريرة مرفوعا نحوه أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر (وأما الذين كفروا) بالله (وكذبوا بآياتنا) أي القرآن (ولقاء الآخرة) أي البعث والجنة والنار (فأولئك) المتصفون بهذه الصفات (في العذاب محضرون) أي مقيمون فيه لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله وما هم بخارجين منها وقيل مجموعون وقيل نازلون وقيل معذبون والمعاني متقاربة والمراد دوام عذابهم ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر والخير العام فقال (فسبحان الله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فإذا علمتم ذلك فسبحوا الله أي نزهوه عما لا يليق به وصفوه بصفات الكمال وهذا أولى وقيل صلوا كما سيأتي (حين تمسون وحين تصبحون) أي في وقت الصباح والمساء وفي العشي وفي وقت الظهيرة وعلى أن المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس فقوله حين تمسون صلاة المغرب والعشاء وقوله حين تصبحون صلاة الفجر (وله الحمد في السموات والأرض) معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما في قوله سبحانه فسبح بحمد ربك وقوله ونحن نسبح بحمدك وقيل معنى وله الحمد الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد والأول أولى (وعشيا) عطف على حين وفيه صلاة العصر والعشي من صلاة المغرب إلى العتمة قاله الجوهري وقال قوم هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر أي الحمد له يكون في السموات والأرض (وحين تظهرون) أي تصلون صلاة الظهر كذا قال الضحاك وسعيد ابن جبير وغيرهما قال الواحدي قال المفسرون إن معنى فسبحان الله فصلوا لله قال النحاس أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات الخمس قال وسمعت محمد بن يزيد يقول حقيقته عندي فسبحوا الله في الصلوات لأن التسبيح يكون في الصلاة وقال ابن عباس كل تسبيح في القرآن فهو صلاة وعنه قال جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة

فسبحان

فسبحان الله حين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون الفجر وعشيا العصر وحين تظهرون الظهر وقد وردت أحاديث صحاح في فضل التسبيح وثواب المسبح وأخرج أحمد وابن السني والطبراني وغيرهم عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى لانه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد الآية وفي اسناده ابن لهيعة وأخرج أبو داود والطبراني وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال حين يصبح سبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ادرك مافاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك مافاته في ليلته واسناده ضعيف (يخرج الحي من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة والمؤمن من الكافر (ويخرج الميت من الحي) كالنطفة والبيضة من الانسان والطير والكافر من المؤمن وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران قيل ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها ان الانسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج من اليقظة الى النوم (ويحيي الارض) بالنبات (بعد موتها) باليباس وهو شبيه باخراج الحي من الميت (وكذلك) الاخراج (تخرجون) من قبوركم قرئ على البناء للمفعول والفاعل فأسند الخروج اليهم كقوله يخرجون من الاجداث والمعنى ان الابداء والاعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على اخراج الميت من الحي وعكسه (ومن آياته) الباهرة الدالة على البعث وذكر لفظ من آياته ست مرات تنتهي عند قوله اذا أنتم تخرجون ذكر فيها بدء خلق الانسان آية آية الى حين بعثه من القبور وختم هذه الآية بقيام السموات والارض لكونه من العوارض اللازمة لان كلا من السماء والارض لايخرج عن مكانه فيتعجب من وقوف الارض وعدم نزولها ومن علو السماء وثباتها بغير عمد ثم أتبع ذلك بالنشأة الآخرة وهي الخروج من الارض وذكر من الانفس أمرين خلقكم وخلق لكم من أنفسكم وذكر من الآفاق السماء والارض وذكر من لوازم الانسان اختلاف الالسنة واختلاف اللون وذكر من عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البرق والمطر ومن لوازمهما قيام السماء وقيام الارض كذا في النهر فجملة مايتعلق بالنوع الانساني ستة أشياء اثنان أصول واثنان لوازم واثنان عوارض وستة متعلقة بالآفاق اثنان أصول واثنان لوازم

اليها يستظلون بظلها من الحر فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما ورجفت بهم الارض وجاءتهم صيحة عظيمة ازهقت أرواحهم ولهذا قال تعالى انه كان عذاب يوم عظيم وقد ذكر الله تعالى صفة اهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ففي الاعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وذلك لانهم قالوا لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن في ملتنا فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة وفي سورة هود قال فأخذتهم الصيحة وذلك لانهم استهزؤا بنبي الله في قولهم أصلواتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا أوأن نفعل في أموالنا مانشاء انك لانت الحليم الرشيد قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب ان يأتيهم صيحة تسكتهم فقال فأخذتهم الصيحة الآية وههنا قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء الآية على وجه التعنت والعناد فناسب ان يحقق عليهم مااستبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم قال قتادة قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ان الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى مايظلهم منه شيء ثم ان الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق اليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردا وراحة فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعا فاستظلوا تحتها فأججت عليهم نارا وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بعث الله اليهم الظلة حتى اذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى وقال محمد ابن كعب القرظي ان أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب

أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا البيوت فتسقط عليهم فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال مارأيت كاليوم ظلا لا أطيب ولا أبرد من هذا هلموا أيها الناس فدخلوا جميعا تحت الظلة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وقال محمد بن جرير حدثني الحرث حدثني الحسن حدثني سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد حدثنا حاتم بن أبي صفيرة حدثني يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية فأخذهم عذاب يوم الظلة الآية قال بعث الله عليهم رعدة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم

نخرجوا من البيوت هرابا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم أى العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) يقول تعالى مخبرا عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وانه أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الآية لتنزيل رب العالمين أى انزله الله عليك وأوحاه اليك نزل به الروح الامين وهو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج وهذا مما لا نزاع فيه قال الزهرى وهذه كقوله قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وقال مجاهد من كلمه الروح الامين لا تأكله الارض على قلبك لتكون من المنذرين اى نزل به ملك كريم ذو مكانة عند الله مطاع فى الملا الاعلى على قلبك يا محمد سالما من الدنس والزيادة والنقص من المنذرين اى لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه وتبشر به المؤمنين المتبعين له وقوله تعالى بلسان عربى مبين أى هذا القرآن الذى أنزلناه اليك أنزلناه باللسان العربى الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحا ظاهرا قاطعا للعذر مقيما للحجة دليلا الى المحجة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن ابى بكر العتكى حدثنا عباد بن عباد المهلبى عن موسى بن محمد عن ابراهيم التيمى عن أبيه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى يوم دجن اذ قال لهم كيف ترون بواسقها قالوا ما أحسنها وأشد تراكمها قال فكيف ترون قواعدها قالوا ما أحسنها وأشد تمكنها قال فكيف ترون جريها قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال فكيف ترون رحاها استدارت قالوا ما أحسنها وأشد استدارتها قال فكيف ترون برقها أوميض أم خفق أم يشق شقا قالوا بل يشق شقا قال الحياء الحياء ان شاء الله قال فقال رجل يا رسول الله بأبى وأمى ما أفصحك ما رأيت الذى هو أعرب منك قال فقال حق لى وانما انزل القرآن بلسانى والله يقول بلسان عربى مبين وقال سفيان الثورى لم ينزل

واثنان عوارض (أن خلقكم) أى خلق أباكم آدم (من تراب) وخلقكم فى ضمن خلقه لان الفرع مستمد من الاصل ومأخوذ منه وقد مضى تفسير هذا فى الانعام (ثم اذا أنتم بشر) الترتيب والمهلة ههنا ظاهران فانهم انما يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة واذا هى الفجائية وان كانت أكثر ما تقع بعد الفاء لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة الى ما يليق بهذه الحالة الخاصة وهى أطوار الانسان كما حكاه الله فى مواضع من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار (تنتشرون) أى تنصرفون فيما هو قوام معايشكم وتنبسطون فى الارض (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم) أى من جنسكم فى البشرية والانسانية (أزواجا) وقيل المراد حواء فانه خلقها من ضلع آدم والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ونطف النساء (لتسكنوا) أى تألفوا وتميلوا (اليها) أى الى الازواج فان الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر ولا يميل قلبه اليه (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى ودادا وتراحما بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم من قبل ذلك معرفة فضلا عن مودة ورحمة وقال مجاهد المودة الجماع والرحمة الولد وبه قال الحسن وابن عباس وقال السدى المودة المحبة والرحمة الشفقة وقيل المودة حب الرجل امرأته والرحمة رحمته اياها من أن يصيبها بسوء وقيل المودة للشابة والرحمة للعجوز وقيل المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أى بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة (ان فى ذلك) المذكور سابقا (لآيات) عظيمة الشان بديعة البيان واضحة البرهان على قدرته سبحانه على البعث والنشور (لقوم يتفكرون) ان قوام الدنيا بوجود التناسل لانهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له يتحصل عنه أولا ان الفكر يؤدى الى الوقوف على المعانى المطلوبة من التأنس والتجانس بين الاشياء كالزوجين وأما الغافلون عن التفكر فما هم الا كالانعام (ومن آياته) الدالة على أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) فان من خلق هذه الاجرام العظيمة بلا مادة مساعدة لها وجعلها باقية مادامت هذه الدار وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قادر على ان يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم وقدم السماء على الارض لان السماء كالذكر فنزول المطر من السماء على الارض كنزول المنى من الذكر فى المرأة لان الارض

وهي الا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية رواه ابن أبي حاتم (وانه لفي زبر الاولين أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) يقول تعالى وان ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الاولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا في ملئه بالبشارة بأحمد واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد والزبر ههنا هي

الكتب وهي جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود وقال الله تعالى وكل شيء فعلوه في الزبر أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل أي أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك ان العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم قال الله تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الآية ثم قال تعالى مخبرا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن انه لو نزل على رجل من الاعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به ولهذا قال ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كما أخبر عنهم في الآية الاخرى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا الآية وقال تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية وقال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية (كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) يقول تعالى كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أي أدخلناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به أي بالحق حتى يروا العذاب الاليم أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار فيأتيهم بغتة أي عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون

الارض تنبت وتخضر بالمطر (واختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم من عرب وعجم وترك وروم وغير ذلك بان علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس النطق وأشكاله فانك لا تكاد تسمع متكلمين متساويين في الكيفية من كل وجه (وألوانكم) من البياض والسواد والحمرة والصفرة والشقرة والزرقة والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ويجمعكم نوع واحد وهو الانسانية وفصل واحد وهو الناطقية حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا بل في كل فرد من افرادكم ما يميزه عن غيره من الافراد حتى ان التوأمين مع توافق موادهما واسبابهما والامور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة وان كانا في غاية التشابه وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله الا العالمون ولا يفهمه الا المتفكرون ولو اتفقت الاصوات والصور وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة ولم يعرف العدو من الصديق ولا القريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وانما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية الحقيقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان في ذلك لآيات) لدلالات على قدرته تعالى (للعالمين) لعموم العلم فيهم قرئ بكسر اللام وبفتحها وهما سبعيتان وقال الفراء للكسرة وجه جيد لانه قد قال لآيات لقوم يعقلون لآيات لاولي الالباب وما يعقلها الا العالمون (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) قيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقيل المعنى صحيح من دون تقديم وتأخير أي ومن آياته العظيمة انكم تنامون بالليل وتنامون بالنهار في بعض الاحوال للاستراحة كوقت القيلولة والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولا سيما في البلاد الحارة وابتغاؤكم من فضله فيهما فان كل واحد منهما يقع فيه ذلك وان كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر والاول هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى والآخر هو المناسب للنظم القرآني ههنا ووجه ذكر النوم والابتغاء ههنا وجعلهما من جملة الادلة على البعث ان النوم شبيه بالموت والتصرف في الحاجات والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت (ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) الآيات

والمواعظ سماع متفكر متدبر بآذان واعية فيستدلون بذلك على البعث (ومن آياته يريكم البرق) المعنى أن يريكم ومنه المثل المشهور تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقيل ويريكم البرق من آياته وقيل من آياته آية يريكم بها وفيها البرق وقيل المقدر ومن آياته سحاب يريكم البرق (خوفا وطمعا) من آياته قال قتادة خوفا للمسافر وطمعا للمقيم وقال الضحاك خوفا من الصواعق وطمعا في الغيث وقال يحيى بن سلام خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر وطمعا أن يكون ممطرا (وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها) بالنبات بأن تنبت (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة كيف والعقل ملاك الأمر وهو المؤدي إلى العلم فيما ذكر وغيره وإنما قال هنا يعقلون وفيما تقدم يتفكرون لأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام القاصرة أن ذلك بالطبيعة لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف والبرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف بل يختلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة يكون قويا وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل وإن لم يتفكر تفكرا تاما قاله الكرخي (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) هذا شروع في بيان بقائهما وثباتهما بعد بيان إيجادهما في قوله ومن آياته خلق السموات والأرض والأظهر كما أن هنا إلى هي علم الاستعمال لأن القيام هنا بمعنى البقاء لا الإيجاد وهو مستعمل باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآيات (بأمره) أي قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه وقدرته بلا عمد يعمدهما ولا مستقر يستقران عليه قال الفراء يقول أن تدوما قائمتين بأمره وأعاد كقوله إن في ذلك لآيات في أربع مواضع ولم يذكره في الأول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا في الأخيرة وهي هذه لأن في الأول خلق الإنس وخلق الأزواج من باب واحد وهو الإيجاد فاكتفى فيهما بذكره مرة واحدة وأما قيام السموات والأرض الذي هو الأخير فلأن في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يسمعون ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الأمر ظاهرا وفي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يبين أحدا على أحد وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الإعادة قاله الرازي

قوله أهل محضرون أي ترون حين يشاهدون العذاب أي لو أنظروا قليلا لا ليعملوا ولا رجعهم لطاعة الله كما قال الله تعالى وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب إلى قوله ما لكم من زوال فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندما شديدا هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا إلى قوله قال قد أجيبت دعوتكما فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل إلى قوله وكنت من المفسدين وقال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده الآيات وقوله تعالى أفبعذابنا يستعجلون إنكارا عليهم وتهديدا لهم فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبا واستبعادا ائتنا بعذاب الله كما قال تعالى ويستعجلونك بالعذاب الآيات ثم قال أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمليناهم برهة من الدهر وحينا من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر وقال تعالى وما يغني عنه ماله إذا تردى ولهذا قال تعالى ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وفي الحديث الصحيح يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيرا قط هل رأيت نعيما قط فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان في الدنيا فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول لا والله يا رب أي ما كان شيئا كان ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة * إذا أنت أدركت الذي أنت تطلب

ثم قال تعالى مخبرا عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا إلى قوله وأهلها ظالمون (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله وما تنزلت به (ثم)

(ثم) أي بعد موتكم ومصيركم في القبور (اذا دعاكم دعوة) واحدة (من الارض) التي أنتم فيها كما يقال دعوته من أسفل الوادي فطلع الي وقيل أي خرجتم من الارض ولا يجوز أن يتعلق بتخرجون لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها وهذه الدعوة هي نفخة اسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدم بيانه (اذا أنتم تخرجون) أي فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث ولا توقف كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع واذا الفجائية تقوم مقام الفاء في جواب الشرط وقال هنا اذا أنتم وقال في خلق الانسان ثم اذا أنتم بشر تنتشرون لان هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فتنفخ فيه الروح فاذا هو بشر وأما في الاعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج فلم يقل هنا ثم ذكره الكرخي وقد أجمع القراء على فتح التاء في تخرجون هنا واختلفوا في التي في الاعراف (وله من في السموات والارض) من جميع المخلوقات ملكا وتصرفا وخلقا ليس لغيره في ذلك شيء (كل له قانتون) أي مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس وقيل مقرون بالعبودية اما بالمقال واما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي وقيل مصلون وقيل قائمون يوم القيامة كقوله يوم يقوم الناس لرب العالمين أي للحساب قاله الربيع ابن أنس وقيل بالشهادة انهم عباده قاله الحسن وقيل مطيعون لافعاله لا يمتنع عليه شيء يريد فعله بهم من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الارادة لا طاعة العبادة وقيل مخلصون قاله سعيد بن جبير وقال ابن عباس مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة (وهو الذي يبدأ الخلق) للناس (ثم يعيده) بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة (وهو) أي البعث أو الاعادة نظرا الى المعنى دون اللفظ وهو رجعه أورده وتذكيره باعتبار الخبر (أهون عليه) أي هين لا يستصعبه أو أهون عليه بالنسبة الى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض والا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض بل كل الاشياء مستو به يوجدها بقوله كن فيكون قال أبو عبيدة من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله وكان ذلك على الله يسيرا وبقوله ولا يؤده حفظهما والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا كما في قول الفرزدق

ان الذي سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك

الشياطين ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه أحدها انه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لان من سجاياهم الفساد واضلال العباد وهذا فيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ونور وهدى وبرهان عظيم فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ولهذا قال تعالى وما ينبغي لهم وقوله تعالى وما يستطيعون أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك قال الله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا الى ذلك لانهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لان السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا في مدة انزال القرآن على رسول الله فلم يخلص أحد من الشياطين الى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الامر وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه وتأييده لكتابه ولرسوله ولهذا قال تعالى انهم عن السمع لمعزولون كما قال تعالى مخبرا عن الجن وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا الى قوله أم أراد بهم ربهم رشدا (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين انه هو السميع العليم) يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ومخبرا أن من أشرك به عذبه ثم قال تعالى آمرا الرسول صلى الله عليه وسلم ان ينذر عشيرته الاقربين أي الادنين اليه وانه لا يخلص أحدا منهم الا ايمانه بربه عزوجل وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ولهذا قال تعالى فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى لتنذر قوما ما انذر آباؤهم فهم غافلون وقال تعالى لتنذر أم القرى ومن حولها وقال تعالى وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم وقال تعالى لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وقال تعالى لأنذركم به ومن بلغ كما قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وفي صحيح مسلم والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها الحديث الاول قال الامام احمد رحمه الله حدثنا عبد الله بن نمير عن الاعمش

عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله عز وجل وأنذر عشيرتك الأقربين أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني لؤي أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله تبت يدا أبي لهب وتب ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به (١٩) الحديث الثاني قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فاطمة ابنة محمد يا صفية ابنة عبد المطلب يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم انفرد بإخراجه مسلم الحديث الثالث قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنا عبد الملك ابن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الأقربين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة والموصول هو الصحيح وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وهذا وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا محمد يعني ابن إسحق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئا سلاني من مالي ما شئتما تفرد به من هذا الوجه وتفرد به أيضا عن معاوية عن زائدة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه أيضا عن حسن بن

بني رجال إن أموت وإن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد وكقولهم الله أكبر أي كبير وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقرأ ابن مسعود وهو عليه هين وقال مجاهد وعكرمة والضحاك إن الإعادة أهون على الله من البداءة أي أيسر وإن كان جميعهما هينا وقيل المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداءة وقيل الضمير في عليه للخلق أي والعود أهون على الخلق أي أسرع وأقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا من طور إلى طور لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم كونوا فيكونون فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة وقال ابن عباس الإعادة أهون على المخلوق لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون وابتداء الخلقة من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (وله المثل الأعلى) أي الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال والجلال والجمال التي ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها وقال الخليل المثل الصفة أي وله الوصف الأعلى قول لا إله إلا الله أي الوحدانية وبه قال قتادة وقال الزجاج وله المثل الأعلى (في السموات والأرض) مرتبط بما قبله وهو قوله وهو أهون عليه قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل وقيل مرتبط بما بعده من قوله ضرب لكم مثلا من أنفسكم وقيل المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء قاله ابن عباس وقيل هو أن ما أراده كان بقول كن والمعنى أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى ووصف به في السموات والأرض أي في هاتين الجهتين وقيل غير ذلك (وهو العزيز) في ملكه القادر الذي لا يغالب (الحكيم) في أفعاله وأقواله (ضرب لكم) أيها المشركون (مثلا) قد تقدم تحقيق معنى المثل (من أنفسكم) من لابتداء الغاية أي مثلا منتزعا كائنا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا ثم بين المثل المذكور فقال (هل لكم مما ملكت أيمانكم) من للتبعيض أي من مماليككم وفي قوله (من شركاء) زائدة للتأكيد والمعنى هل لكم شركاء (فيما رزقناكم) من الأموال وغيرها كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم وهم العبيد والإماء والاستفهام للإنكار قال ابن عباس في الآية كان يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فأنزل الله هذه الآية (فأنتم) وهم (فيه سواء) أي مستوون في التصرف فيه على عادة الشركاء

لهيعة عن الاعرج عن أبي هريرة مرفوعا وقال أبو يعلى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا هشام بن اسمعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يا بني قصي يا بني هاشم يا بني عبد مناف أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد الحديث الرابع قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد التيمي عن أبي عثمان عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي يا بني عبد مناف انما أنا نذير انما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل

ينادي ويهتف يا صباحاه ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن طرخان التيمي عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي عن قبيصة وزهير بن عمرو الهلالي به الحديث الخامس قال الامام احمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن الاعمش عن المنهال عن عباد بن عبد الله الاسدي عن علي رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية وانذر عشيرتك الاقربين جمع النبي صلى الله عليه وسلم من اهل بيته فاجتمع ثلاثون فاكلوا وشربوا قال وقال لهم من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي فقال رجل لم يسمه شريك يا رسول الله أنت كنت بحرا من يقوم بهذا قال ثم قال الآخر ثلاثا قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي أنا طريق اخرى بأبسط من هذا السياق قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان ابن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة ابن ماجد عن علي رضي الله عنه قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو دعا رسول الله بني عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب وقال يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة والى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي قال فلم يقم اليه احد قال فقمت اليه وكنت أصغر القوم قال فقال اجلس ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم اليه فيقول لي اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن

وهذا جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ومحقق لنفي الشركة بينهم وبين العبيد والاماء المملوكين لهم في أموالهم والمعنى هل ترضون لانفسكم والحال ان عبيدكم واماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الاموال ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خيفة (كخيفتكم أنفسكم) أي كما تخافون الاحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الاموال وجواز التصرف والمراد نفي الاشياء الثلاثة الشركة بينهم وبين المملوكين والاستواء معهم وخوفهم اياهم وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم ما تأتينا فتحدثنا والمراد اقامة الحجة على المشركين فانهم لا بد أن يقولوا لا نرضى بذلك فيقال لهم فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم في البشرية وتجعلون عبيد الله شركاء له فاذا بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه والخلق كلهم عبيد الله تعالى لم يبق الا انه رب وحده لا شريك له قرئ أنفسكم بالنصب على انه معمول المصدر المضاف الى فاعله وبالرفع على اضافة المصدر الى مفعوله (كذلك نفصل الآيات) تفصيلا واضحا وبيانا جليا لان التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها (لقوم يعقلون) لانهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وارشادهم الى الحق بما ضرب لهم من المثل فقال (بل اتبع الذين ظلموا) بالاشراك وفيه الاضراب مع الالتفات وأقيم الظاهر مقام الضمير للتسجيل عليهم بوصف الظلم (أهواءهم بغير علم) أي لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة وآراءهم الفاسدة الزائفة والمعنى جاهلين بأنهم على ضلالة (فمن يهدي من أضل الله) أي لا أحد يقدر على هدايته لان الرشاد والهداية بتقدير الله وارادته (وما لهم) أي ما لهؤلاء الذين أضلهم الله والجمع باعتبار معنى من (من ناصرين) ينصرونهم ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بتوحيده وعبادته كما أمره فقال (فأقم وجهك للدين حنيفا) شبه الاقبال على الدين بتقويم وجهه اليه واقباله عليه أي مائلا اليه مستقيما عليه غير ملتفت الى غيره من الاديان الباطلة فان من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه مقبلا عليه (فطرت الله التي فطر الناس عليها) الفطرة في الاصل الخلقة والمراد بها هنا الملة وهي الاسلام والتوحيد قال

اسحق قال حدثني من سمع عبد الله بن الحرث بن نوفل واستكتمني اسمه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت اني ان بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فصمت فجاءني جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك قال علي رضي الله عنه فدعاني فقال يا علي ان الله تعالى قد أمرني ان أنذر عشيرتي الاقربين فعرفت اني ان بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت (١٩٢) عن ذلك ثم جاءني جبريل فقال يا محمد ان لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام واعدد لنا عس لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت اليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة فشقها باسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى الا آثار أصابعهم والله ان كان الرجل منهم ليأكل مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقهم يا علي فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب الى الكلام فقال لهذا سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي عدلنا بمثل الذي كنت صنعت بالامس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني الى ما سمعت قبل ان أكلم القوم

الواحدي هذا قول المفسرين في الفطرة وقيل المراد بها قابلية الدين وتهيؤه وترسم الفطرت بالتاء المجرورة وليس في القرآن غيرها والمراد بالناس هنا الذين فطرهم الله على الاسلام لان المشرك لم يفطر على الاسلام وهذا الخطاب وان كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فامته داخلة معه فيه قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل والاولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم وانهم جميعا مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مولود الا يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة واقرؤا ان شئتم فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله وفي رواية حتى تكونوا أنتم تجدعونها أخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم عن الاسود بن سريع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية الى خيبر فقاتلوا المشركين فانتهى القتل الى الذرية فلما جاؤا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما حملكم على قتل الذرية قالوا يا رسول الله انما كانوا أولاد المشركين قال وهل خياركم الا أولاد المشركين والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد الا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا وروى الامام أحمد في المسند عن عياض بن حماد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوما فقال في خطبته حاكيا عن الله سبحانه واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم الحديث وهذا معاضد لحديث أبي هريرة المتقدم فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملة الاسلام ولكن لا اعتبار بالايمان والاسلام الفطريين وانما يعتبر الايمان والاسلام الشرعيان وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقول جماعة من المفسرين وهو الحق والقول بان المراد بالفطرة هنا الاسلام هو مذهب جمهور السلف وقال آخرون هي البداءة التي ابتدأهم عليها فانه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة والفاطر في كلام العرب هو المبتدى وهذا مصير من القائلين به الى معنى الفطرة لغة

ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالامس فأكلوا حتى نهلوا عنه وايم الله ان كان الرجل منهم ليأكل مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقهم يا علي فجئت بذلك القعب فشربوا حتى نهلوا جميعا وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال لهذا ما سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي عدلنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالامس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني الى ما سمعت قبل ان أكلم القوم ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم

لمذواهمال معناها شرعا والمعنى الشرعى مقدم على المعنى اللغوى باتفاق أهل الشرع ولا ينافى ذلك ورود الفطرة فى الكتاب أو السنة فى بعض المواضع مرادابها اللغوى كقوله تعالى الحمد لله فاطر السموات والارض أى خالقهما ومبتديهما وكقوله ومالى لا أعبد الذى فطرنى اذ لانزاع فى ان المعنى اللغوى هو هذا ولكن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة وهو ما ذكره الاولون كما بيناه وانتصاب فطرة على انها مصدر مؤكد للجملة التى قبلها وقال الزجاج منصوب بمعنى اتبع فطرة الله قال لان معنى فاقم وجهك للدين اتبع الدين واتبع فطرة الله وقال ابن جرير هى مصدر من معنى فاقم وجهك لان معنى ذلك فطرة الله الناس على الدين وقيل هى منصوبة على الاغراء اى الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله ورد هذا الوجه أبو حيان وقال ان كلمة الاغراء لا تضمر اذ هى عوض عن الفعل فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه وهو اجحاف وأجيب بان هذا رأى البصريين واما الكسائى وأتباعه فيجيزون ذلك (لا تبديل لخلق الله) أى لما جبلكم وطبعكم عليه من قبول الحق وهذا تعليل لما قبله من الامر بلزوم الفطرة أى هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه أو تعليل لوجوب الامتثال له أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين وقيل لا يقدر أحد أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بازالتها رأسا ووضع فطرة اخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة ان التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة ان سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ذكره أبو السعود وقيل هو نفى معناه النهى أى لا تبدلوا خلق الله قال مجاهد وابراهيم النخعى معناه لا تبديل لدين الله قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد هذا فى المعتقدات وقال عكرمة ان المعنى لا تغيير لخلق الله فى البهائم بان تخصى فحولها وقيل لا تبدلوا التوحيد بالشرك والسنة بالبدعة وقيل لا تبديل لما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقى سعيدا (ذلك) الدين المأمور باقامة الوجه له هو (الدين القيم) أو لزوم الفطرة هو الدين القيم أى المستقيم وقال ابن عباس الدين القضاء (ولكن أكثر الناس) أى كفار مكة

كما صنع بالامس فأكلوا حتى نهلوا ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه وايم الله ان كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنى عبد المطلب انى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به انى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة قال أحمد بن عبد الجبار بلغنى ان ابن اسحق انما سمعه من عبد الغفار بن القاسم بن أبى مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبد الغفار بن القاسم بن أبى مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس عن على بن أبى طالب (١٩٣) فذكر مثله وزاد بعد قوله انى جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله ان أدعوكم اليه فايكم يوازرنى على هذا الامر على ان يكون أخى وكذا وكذا قال فاحجم القوم عنها جميعا وقلت وانى لأحدثهم سنا وأرمصهم عينا وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقا أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتى ثم قال ان هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ثم قام القوم يضحكون ويقولون لابى طالب قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم بن أبى مريم وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الائمة رحمهم الله طريق أخرى قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا الحسين عن عيسى بن ميسرة الحارثى حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث قال قال على رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الاقربين قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام واناء لبنا قال ففعلت ثم

قال لى ادع بنى هاشم قال فدعوتهم وانهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل قال وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذروتها ثم قال كلوا فأكلوا حتى شبعوا وهى على هيئتها لم يزدرد واا منها الا اليسير قال ثم أتيتهم بالاناء فشربوا حتى رووا قال وفضل فضل فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتكلم فبدروه الكلام فقالوا ما رأينا كاليوم فى السحر فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لى اصنع رجل شاة بصاع من طعام فصنعت قال فجمعتهم فلما أكلوا وشربوا بادرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام فقال أيكم يقضى عنى

(لا تعلمون) ذلك حتى تعلموه وتعملوا به (منيبين) أي راجعين (إليه) بالتوبة والإخلاص ومطيعين له في أوامره ونواهيه قال الجوهري أناب إلى الله أي أقبل وتاب قال الفراء فأقم وجهك ومن معك منيبين وكذا قال الزجاج وقال تقديره فأقم وجهك وأمتك فالحال من الجميع وقيل كونوا منيبين إليه لدلالة ولا تكونوا من المشركين على ذلك ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال (واتقوه) أي خافوه باجتناب معاصيه (وأقيموا الصلاة) التي أمرتم بها (ولا تكونوا من المشركين) بالله أي ممن يشرك به غيره في العبادة وقوله (من الذين فرقوا دينهم) باختلافهم فيما يعبدونه وهو بدل مما قبله بإعادة الجار (وكانوا شيعا) الشيع الفرق أي لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقا في الدين يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع والأهواء وقيل المراد بهم اليهود والنصارى وقرئ فارقوا دينهم أي الذي يجب اتباعه وهو التوحيد وهي سبعية وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام (كل حزب) أي كل فريق منهم (بما لديهم) من الدين المبني على غير الصواب (فرحون) أي مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء والجملة اعتراض مقرر لما قبله من تفريقهم دينهم وكونهم شيعا (وإذا مس الناس) أي كفار مكة وغيرهم (ضر) أي قحط وشدة أو هزال أو مرض (دعوا ربهم) أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به (منيبين) أي راجعين ملتجئين (إليه) لا يعولون على غيره وقيل مقبلين عليه بكل قلوبهم (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم (إذا فريق منهم بربهم يشركون) إذا هي الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء في إفادة التعقيب أي فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم وفيه مراعاة معنى لفظ الفريق وكذا في قوله (ليكفروا بما آتيناهم) أي من نعمة الله عليهم واللام لام كي وقيل لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد وقيل هي لام العاقبة التي تقتضي المهلة سميت لام المآل والشرك والكفران متقاربان لا مهلة بينهما ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال (فتمتعوا) أريد به التهديد والتفت فيه عن الغيبة إلى الخطاب لأجل المبالغة في زجرهم وقرئ فيتمتعوا على الخطاب وبالتحتية على البناء للمفعول وفي مصحف ابن مسعود فليتمتعوا (فسوف تعلمون)

دنى ويكون خليفتي في أهلي قال فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله قال وسكت أنا لسن العباس ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس فلما رأيت ذلك قلت أنا يا رسول الله قال وإني يومئذ لأسوأهم هيئة وإني لأعمش العينين ضخم البطن حمش الساقين فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي رضي الله عنه ومعنى سؤاله صلى الله عليه وسلم لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه في أهله يعني إن قتل في سبيل الله كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل فلما أنزل الله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فعند ذلك أمن وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية والله يعصمك من الناس ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من علي رضي الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كان بعد هذا والله أعلم دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى أي إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي من طريق عمرو بن سمرة عن محمد بن سوقة عن عبد الواحد الدمشقي قال رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون فقيل له ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين فقال لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أزهد الناس في الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين إلى قوله فقل إني بريء مما تعملون وقوله تعالى وتوكل على العزيز الرحيم ما
أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعل كلمتك وقوله تعالى الذي يراك حين تقوم أي هو معتن بك كما قال تعالى فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا قال ابن عباس الذي يراك حين تقوم يعني إلى الصلاة وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده وقال الحسن الذي يراك حين تقوم إذا صليت وحدك وقال الضحاك الذي يراك حين تقوم أي من فراشك أو مجلسك وقال قتادة الذي يراك قائما وجالسا وعلى حالاتك وقوله تعالى وتقلبك في الساجدين قال قتادة الذي يراك حين

تقوم وتقلبك في الساجدين قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري
وقال مجاهد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه كما يرى من أمامه ويشهد لهذا ما صح في الحديث سووا صفوفكم
فاني أراكم من وراء ظهري وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس انه قال في هذه الآية يعني تقلبه من صلب نبي الى
صلب نبي حتى أخرجه نبيا وقوله تعالى انه هو السميع العليم أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى وما
تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم

شهودا اذ تفيضون فيه الآية (هل

ما يعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الاليم (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أم هي المنقطعة
والاستفهام للانكار على مذهب الكوفيين ومذهب البصريين انها بمعنى بل والهمزة
والسلطان الحجة الظاهرة وفيه التفات عن الخطاب الى الغيبة للايذان بالاعراض عنهم
وبعدهم عن ساحة الخطاب قال الفراء ان العرب تؤنث السلطان يقولون قضت به عليك
السلطان فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح وبه جاء القرآن والتأنيث عندهم جائز
لانه بمعنى الحجة وقيل المراد بالسلطان هنا الملك (فهو يتكلم) أي يدل كما في قوله هذا كتابنا
ينطق عليكم بالحق وهو في حيز النفي المستفاد من أم (بما كانوا به يشركون) أي ينطق
باشراكهم بالله سبحانه أو المعنى بالامر الذي كانوا بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس)
أي كفار مكة وغيرهم (رحمة) أي خصبا ومطرا ونعمة وسعة وصحة وعافية (فرحوا بها)
فرح بطر وأشر لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها اليهم كما دل عليه قوله قل بفضل الله
وبرحمته فبذلك فليفرحوا ثم قال سبحانه (وان تصبهم سيئة) أي بلاء من جدب أو ضيق
او مرض أو شدة على أي صفة (بما قدمت أيديهم) أي بسبب شؤم ذنوبهم (اذا هم
يقنطون) القنوط الاياس من الرحمة كذا قال الجمهور وقال الحسن القنوط ترك
فرائض الله سبحانه وقرئ يقنطون بفتح النون وبكسرها وهما سبعيتان وبابه ضرب
وتعب والمعنى اذا هم يأسون وهذا خلاف وصف المؤمنين فان من شأنهم أن يشكروا عند
النعمة ويرجوا ربهم عند الشدة أو يقال الدعاء اللساني بناء على مجرى العادة لا ينافي
القنوط القلبي وقد يشاهد مثل ذلك في كثير من الناس فلا يخالف هذا قوله دعوا ربهم
منيبين اليه أو المراد يفعلون فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء قاله
الكرخي (أولم يروا) أي فما لهم لم يشكروا في السراء والضراء كالمؤمنين ولم يعلموا (ان
الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) من عباده امتحانا هل يشكر أم يطغى فيكفر
(ويقدر) أي يضيق على من يشاء ابتلاء هل يصبر أم يضيق ذرعا فيكفر (ان في ذلك) البسط
والقبض (لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون بها على الحق لدلالتها على كمال القدرة
وبديع الصنع وغريب الخلق والحكمة ولما بين سبحانه كيفية التعظيم لامر الله أشار
الى ما ينبغي من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه فقال (فآت ذا
القربى حقه) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أسوته أو لكل مكلف له مال

أنبئكم على من تنزل الشياطين
تنزل على كل أفاك أثيم يلقون
السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء
يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد
يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون
الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وذكروا الله كثيرا وانتصروا من
بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي
منقلب ينقلبون) يقول تعالى
مخاطبا لمن زعم من المشركين ان
ما جاء به الرسول صلى الله عليه
وسلم ليس بحق وانه شيء افتعله من
تلقاء نفسه أو انه أتاه به رئي من
الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب
رسوله عن قولهم وافترائهم ونبه ان
ما جاء به انما هو من عند الله وانه تنزيله
ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم
وانه ليس من قبل الشياطين فانهم
ليس لهم رغبة في مثل هذا
القرآن العظيم وانما ينزلون على من
يشاكلهم ويشابههم من الكهان
الكذبة ولهذا قال تعالى هل
أنبئكم أي أخبركم على من تنزل
الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم
أي كذوب في قوله وهو الافاك
الاثيم اي الفاجر في أفعاله فهذا
هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة فان الشياطين أيضا كذبة فسقة يلقون السمع أي
يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها الى أوليائهم من الانس فيحدثون
بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما صح بذلك الحديث كما رواه البخاري
من حديث الزهري أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير انه سمع عروة بن الزبير يقول قالت عائشة رضي الله عنها سأل ناس النبي صلى
الله عليه وسلم عن الكهان فقال انهم ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله فانهم يحدثون بالشيء يكون حقا فقال النبي صلى الله عليه وسلم

تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة وروى البخاري أيضا حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها

على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء تفرد به البخاري وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الانصار قريبا من هذا وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ حتى اذا فزع عن قلوبهم الآية وروى البخاري أيضا وقال الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الاسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالامر في الارض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة وروى البخاري في موضع آخر من كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبي الاسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة بنحوه

وقوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الكفار يتبعهم ضلال الانس والجن وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما وقال عكرمة كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهاد عن يحنس مولى مصعب بن الزبير عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج اذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من

قوله

وسع الله به عليه وقدم الاحسان الى القرابة لان خير الصدقة ما كان على قريب فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها او المراد الاحسان اليهم بالصدقة والصلة والبر سواء كانوا في مخمصة أو لم يكونوا وقيل فيه دليل على وجوب النفقة للمحارم كما قالت الحنفية وعدم ذكر بقية الاصناف المستحقين للزكاة يدل على ان ذلك في صدقة التطوع وقاس الشافعي سائر الاقارب ما عدا الفروع والاصول على ابن العم لانه لا ولادة بينهم ولا يصح حمل الصدقة على الواجبة وهي الزكاة لان السورة مكية والزكاة ما فرضت الا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة وللقريب المعسر في مال قريبه الغني حق واجب وبه قال مجاهد وقتادة قال مجاهد لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج وقيل المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القرطبي والاول أصح قال حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى وقال الحسن ان الامر في ايتاء ذي القربى للندب (والمسكين وابن السبيل) أي آتهما حقهما الذي يستحقانه ووجه تخصيص الاصناف الثلاثة بالذكر انهم أولى من سائر الاصناف بالاحسان ولكون ذلك واجبا لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان قبل الحول أو بعده لان المقصود هنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للانسان مال زائد والفقير داخل في المسكين لان من أوصى للمساكين بشئ صرف الى الفقراء أيضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين وجبت الزكاة عليهم وأما المسكين فحاجته ليست مختصة بموضع فتقدم على من حاجته مختصة بموضع دون موضع قال مقاتل حق المسكين أن يتصدق عليه وحق ابن السبيل الضيافة وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقيل هي منسوخة بآية المواريث وقيل محكمة (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أي ذلك الايتاء أفضل من الامساك لمن يريد التقرب الى الله سبحانه ويقصد بمعروفه اياه خالصا (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالا لأمره (وما آتيتم) بالمد بمعنى أعطيتم وقرئ بالقصر بمعنى ما فعلتم وجئتم وقيل بالقصر بمعنى ما جئتم به من اعطاء ربا وهو يؤول من حيث المعنى الى القراءة المشهورة لانه يقال أتى معروفا وأتى قبيحا اذا فعلهما (من ربا) وأجمعوا على الاولى في

أن يمتلئ شعرا وقوله تعالى ألم تر انهم فى كل واد يهيمون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقال الضحاك عن ابن عباس فى كل فن من الكلام وكذا قال مجاهد وغيره وقال الحسن البصرى قد والله رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها مرة فى شتيمة فلان ومرة فى مديحة فلان وقال قتادة الشاعر يمدح قوما بباطل ويذم قوما بباطل وقوله تعالى وانهم يقولون مالا يفعلون قال العوفى عن ابن عباس كان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الانصار والآخر من قوم آخرين وانهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال الله تعالى والشعراء (١٩٧) يتبعهم الغاوون ألم تر انهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنه هو الواقع فى نفس الامر فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا لانهم يقولون مالا يفعلون على قولين وقد ذكر محمد بن اسحق ومحمد بن سعد فى الطبقات والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها
بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
اذا شئت غنتنى دهاقين قرية
ورقاصة تجثو على كل منسم
فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى
ولا تسقنى بالاصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال اى والله انه ليسوءنى ذلك ومن لقيه فليخبره انى قد عزلته وكتب اليه عمر بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير أما بعد فقد بلغنى قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوءنى وقد عزلتك فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر وقال والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط وما ذاك الشعر الا شئ طفح على لسانى فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا وقد

قوله وما آتيتم من زكاة أصل الربا الزيادة والمعنى ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض بان تعطوا شيأ هبة أو هدية (ليربو فى أموال الناس) أى ليزيد ويزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) قرئ بالتحتية على ان الفعل مسند الى ضمير الربا وقرئ بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة بمعنى لتكونوا ذوى زيادات وقرئ لتربوها ومعنى الآية انه لا يزكو عند الله ولا يثيب عليه لانه لا يقبل الا ما أريد به وجهه خالصا قال السدى الربا فى هذا الموضع الهدية يهديها الرجل لاخيه يطلب المكافأة فان ذلك لا يربو عند الله أى لا يؤجر عليه صاحبه ولا اثم عليه وهكذا قال قتادة والضحاك قال الواحدى وهذا قول جماعة المفسرين قال الزجاج يعنى دفع الرجل الشئ ليعوض أكثر منه وذلك ليس بحرام ولكنه لا ثواب فيه لان الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه وقال الشعبى معنى الآية ان ما خدم به الانسان أحدا لينتفع به فى دنياه فان ذلك النفع الذى يجرى به الخدمة لا يربو عند الله وقيل هذا كان حراما على النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الخصوص لقوله سبحانه ولا تمنن تستكثر ومعناها ان تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه وحرم عليه تشريفا له وقيل ان هذه الآية نزلت فى هبة الثواب وبه قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد قال ابن عطية وما يجرى مجراه مما يصنعه الانسان ليجازى عليه كالسلام وغيره وهو وان كان لا اثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله قال عكرمة الربا ربوان فربا حلال وربا حرام فاما الربا الحلال فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه يعنى كما فى هذه الآية وقيل ان هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرم فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول لا يحكم به بل هو للمأخوذ منه قال المهلب اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب فقال مالك ينظر فيه فان كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله مثل ذلك مثل هبة الفقير للغنى وهبة الخادم للمخدوم وهبة الرجل لاميره وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون له ثواب اذا لم يشترط وهو قول الشافعى رحمه الله الآخر وعن على قال المواهب ثلاث موهبة يراد بها وجه الله وموهبة يراد بها ثناء الناس وموهبة يراد بها الثواب فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها اذا لم يثب عليها بخلاف القسمين الآخرين فلا يرجع فيهما صاحبهما قال ابن عباس فى الآية الربا ربوان ربا لا بأس به وربا لا يصلح فاما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل الى الرجل يريد فضلها وأضعافها عنه قال هذا هو الربا الحلال أن يهدى

قلت ما قلت فلم يد كرانه حده على الشراب وقد ضمنه شعره لانهم يقولون مالا يفعلون ولكن ذمه عمر رضي الله عنه ولامه على ذلك وعزله به ولهذا جاء في الحديث لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير له من أن يمتلئ شعرا والمراد من هذا ان الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لان حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقال تعالى انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين وهكذا قال (١٩٨) ههنا وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين الى أن قال وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون الى أن قال هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون وقوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال محمد بن اسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن سالم البراد انه عبد الله مولى تميم الداري قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية انا شعراء فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال أنتم وذكروا الله كثيرا قال أنتم وانتصروا من بعد ما ظلموا قال أنتم رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن اسحق وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن أبي سعيد الاشج عن أبي أسامة عن الوليد بن أبي كثير عن يزيد بن عبد الله عن أبي الحسن مولى بني نوفل ان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية والشعراء يتبعهم الغاوون يبكيان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأها عليهما والشعراء يتبعهم الغاوون حتى بلغ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال أنتم وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون الى قوله وانهم يقولون مالا يفعلون قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله قد علم الله اني منهم فأنزل الله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات الآية وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد محمد

يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر ونهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة فقال ولا تمنن تستكثر (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله) أي وما أعطيتم من صدقة تطوع لا تطلبون بها المكافأة وانما تقصدون بها ما عند الله (فأولئك هم المضعفون) أي ذوو الاضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف قال الفراء هو نحو قولهم مسمن ومعطش ومضعف اذا كانت له ابل سمان وعطاش وضعفة وقرئ بفتح العين اسم مفعول وفيه التفات حسن عن الخطاب لانه يفيد التعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفا لحالهم فهو أمدح لهم من أن يقول فأنتم المضعفون أو للتعميم لغير المخاطبين كأنه قال من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين وكان مقتضى ظاهر النظم أن يقال لم يربو عند الله فغير عبارة الربا الى الاضعاف ونظم التعليه الى الاسمية الدالة على الدوام المشتملة على ضمير الفصل المفيد للحصر والمعنى المضعفون به لانه لا بد له من ضمير يرجع الى ما الموصولة (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) عاد سبحانه الى الاحتجاج على المشركين وانه الخالق الرازق المميت المحيي أي المختص بالخلق والرزق والاماتة والاحياء ثم قال على جهة الاستفهام (هل من شركائكم) أي أصنامكم التي زعمتم انهم شركاء وأضاف الشركاء اليهم لانهم كانوا يسمونهم آلهة ويجعلون لهم نصيبا من أموالهم (من يفعل من ذلكم) أي الخلق والرزق والاماتة والاحياء (من شيء) اي شيأ من هذه الافعال ومعلوم انهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيأ من ذلك فتقوم عليهم الحجة ومن الاولى والثانية للبيان شروع الحكم في جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم النفي ثم نزه سبحانه نفسه فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي نزهوه تنزيها وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك (ظهر الفساد) بين سبحانه ان الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد (في البر والبحر) أي العالم والفساد من فسد كنصر وكرم فسادا ضد صلح فهو فاسد والفساد أخذ المال ظلما والجدب والمفسدة ضد المصلحة واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور فقيل هو القحط وعدم النبات ونقصان الرزق وكثرة الخوف ونحو ذلك وقال مجاهد وعكرمة فساد البر قتل ابن آدم أخاه يعني قتل قابيل لهابيل وفساد البحر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبا وليت شعري أي دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب فان الآية نزلت على

محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتعريف فى الفساد يدل على الجنس فيعم كل فساد واقع فى حيزى البر والبحر وقال السدى الفساد الشرك وهو أعظم الفساد ويمكن ان يقال ان الشرك وان كان الفرد الكامل فى أنواع المعاصى ولكن لا دليل على انه المراد بخصوصه وقيل الفساد كساد الاسعار وقلة المعاش وقيل قطع السبل والظلم وقيل نقصان البركة باعمال العباد كى يتوبوا قال النحاس وهو أحسن ما قيل فى الآية وعنه ان الفساد فى البحر انقطاع صيده بذنوب بنى آدم قال ابن عطية فاذا قل المطر قل الغوص فيه وعميت دواب البحر وقيل غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه والظاهر من الآية ظهور ما يصح اطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعا الى أفعال بنى آدم من معاصيهم واقترافهم السيآت وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم أو راجعا الى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع والثمار وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شئ والبر والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل البر الفيافى والبحر القرى التى على ماء قاله عكرمة والعرب تسمى الامصار البحار قال مجاهد البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر والبحر ما كان على شط نهر وعن ابن عباس نحوه والاول أولى ويكون معنى البر مدن البر ومعنى البحر مدن البحر وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها (بما كسبت أيدى الناس) من المعاصى والذنوب والباء السببية وما اما موصولة أو مصدرية (ليذيقهم بعض الذى عملوا) اللام للعلة أى ليذيقهم بعض عقوبة عملهم أو جزاء بعض عملهم فى الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة وقيل للصيرورة وقرئ بالياء وبنون العظمة (لعلهم يرجعون) عما هم فيه من المعاصى ويتوبون الى الله قال ابن عباس يرجعون من الذنوب ولما بين سبحانه ظهور الفساد فيهم بما كسبت أيدى المشركين والعصاة بين لهم ضلال امثالهم من أهل الزمن الاول فقال (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أمرهم بان يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم فان منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار (كان أكثرهم مشركين) مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها وايضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به الى ما صارت اليه وهو فشو الشرك والعصيان فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم (فاقم)

وقتادة وزيد بن اسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم ولا شك انه استثناء ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات فى شعراء الانصار وفى ذلك نظر ولم يتقدم الا مرسلات لا يعتمد عليها والله اعلم ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الانصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الاسلام واهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا فى مقابلة ما تقدم من الكلام السئ فان الحسنات يذهبن السيآت وامتدح الاسلام وآهله فى مقابلة ما كان يذمه كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم يارسول المليك ان لسانى * راتق ما فتقت اذ أنا بور اذ أجارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا فلما أسلم لم يكن أحد أحب اليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجوه ويتولاه بعدما كان قد عاداه وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ان أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال يارسول الله ثلاث أعطنيهن قال نعم قال معاوية تجعله كاتبا بين يديك قال نعم قال وتؤمرنى حتى اقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال نعم وذكر الثالثة ولهذا قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا قيل معناه ذكروا الله كثيرا فى كلامهم وقيل فى شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق وقوله تعالى وانتصروا من بعد ما ظلموا قال ابن عباس يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد وهذا كما ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم أو قال هاجهم وجبريل معك وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه انه قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد أنزل فى الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ان المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل وقوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون كقوله تعالى يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم الآية وفى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة قال قتادة بن دعامة فى قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا اى

منقلب ينقلبون يعني من الشعراء وغيرهم وقال أبو داود الطيالسي حدثنا اياس بن أبي تميمة قال حضرت الحسن ومر عليه جنازة نصراني فقال وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون قال عبد الله بن أبي رباح وصفوان بن محرز انه كان اذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول قد اندق قضيب زوره وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وقال ابن وهب أخبرنا شريح الاسكندراني عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبيناهم ليلة على نار يشتوون عليها أو يصطلون اذا ركبان قد أقبلوا فقاموا اليهم فاذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم قال وصاحب لنا قائم يصلي حتى مر بهذه الآية وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون قال فضالة بن عبيد هؤلاء الذين يخربون البيت وقيل المراد بهم أهل مكة وقيل الذين ظلموا من المشركين والصحيح ان هذه الآية عامة في كل ظالم كما قال ابن أبي حاتم ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطي حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت كتب أبي في وصيته سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب اني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وان يجر ويبدل فلا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين

(تفسير سورة النمل وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور وقوله تعالى تلك آيات أي هذه آيات القرآن وكتاب مبين أي بين واضح هدى وبشرى للمؤمنين أي انما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار كما قال تعالى قل هو للذين

الصالحات

خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أسوته فيه كأن المعنى اذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم (وجهك) يا محمد (للدين القيم) قال الزجاج اجعل جهتك اتباع الدين القيم المستقيم وهو الاسلام وقيل المعنى أوضح الحق وبالغ في الاعذار واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم قاله القرطبي (من قبل أن يأتي يوم) يعني يوم القيامة (لا مرد له من الله) المرد مصدر رد أي لا يقدر أحد على أن يرده كقوله لا يستطيعون ردها فلا بد من وقوعه وقيل المعنى لا يرده الله لتعلق ارادته القديمة بمجيئه قاله أبو السعود (يومئذ) أي يوم اذ يأتي هذا اليوم (يصدعون) أصله يتصدعون والتصدع التفرق يقال تصدع القوم اذا تفرقوا ومنه قول الشاعر

وكنا كندماني جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وفي المصباح صدعته صدعا من باب نفع شققته فانصدع وصدعت القوم صدعا فتصدعوا أي فرقتهم فتفرقوا وقوله فاصدع بما تؤمر قيل مأخوذ من هذا أي شق جماعاتهم بالتوحيد وقيل افرق بذلك بين الحق والباطل وقيل أظهر ذلك وصدعت بالحق تكلمت به جهارا وصدعت الفلاة قطعتها والمراد بتفرقهم ان أهل الجنة يصيرون الى الجنة وأهل النار الى النار ثم فصل سبحانه المتصدعين فقال (من كفر فعليه كفره) أي جزاء كفره ووباله وهو النار (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أي يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح والمهاد الفراش وقد تقول مهدت الفراش مهدا اذا بسطته ووطأته فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها وقيل المعنى فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص وقال مجاهد فلأنفسهم يمهدون في القبر أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) والكافرين بعدله متعلق بيصدعون أو يمهدون أي يتفرقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه على أن ضرر الكفر لا يعود الا على الكافر ومنفعة الايمان والعمل الصالح ترجع الى المؤمن لا تتجاوزه أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم وقال ابن عطية تقديره ذلك ليجزي وتكون الاشارة الى ما تقدم من قوله من كفر ومن عمل قال ابن عباس ليثيبهم الله ثوابا أكثر من أعمالهم وجعل أبو حيان قسيم قوله الذين آمنوا وعملوا

الصالحات محذوف الدلالة قوله (انه لا يحب الكافرين) عليه لانه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه وغضبه يستتبع عقوبته وقيل تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس وفيه تهديد ووعيد لهم (ومن آياته أن يرسل الرياح) أى ومن دلالات بديع قدرته تعالى ارسال الرياح أى الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة وأما الدبور فهى ريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الرياح بالجمع والافراد على قصد الجنس لاجل قوله (مبشرات) بالمطر لانها تتقدمه كما فى قوله سبحانه بشرا بين يدى رحمته (وليذيقكم من رحمته) أى يرسلها ليذيقكم بها الغيث والخصب أو نعمته من المياه العذبة والاشجار الرطبة وصحة الابدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها الا الله وقيل اللام متعلقة بمحذوف أى وأرسلها ليذيقكم وقيل الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك فتتعلق اللام بيرسل ومن تبعيضية (و) يرسل الرياح (لتجرى الفلك) فى البحر عند هبوبها ولما أسند الجرى الى الفلك عقبه بقوله (بامره) أى بتدبيره أو بتكوينه كقوله انما أمره اذا أراد شيأ الآية (ولتبتغوا) الرزق (من فضله) بالتجارة التى تحملها السفن (ولعلكم تشكرون) هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما أرسلناك الى قومك وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو اعتراض بين الكلامين المتصلين معنى أى قوله ومن آياته أن يرسل الرياح وقوله الله الذى يرسل الرياح وقال أبو حيان جاء تأنيسا له صلى الله عليه وآله وسلم ووعدا بالنصر ووعيدا لاهل الكفر وحقية نصر المؤمنين على الله لا تختص بالدنيا بل تعم الآخرة أيضا فما فى الآخر من متناولات الآية (فجاؤهم بالبينات) أى بالمعجزات الواضحات والحجج النيرات على صدقهم فى رسالتهم اليهم فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا الاضمار قوله (فانتقمنا) بالاهلاك فى الدنيا (من الذين أجرموا) أى فعلوا الاجرام وهى الآثام (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) على الكافرين باهلاكهم وانجاء المؤمنين هذا اخبار من الله سبحانه بان نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان

آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر الآية وقال تعالى لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ولهذا قال تعالى ههنا ان الذين لا يؤمنون بالآخرة أى يكذبون بها ويستبعدون وقوعها زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون اى حسنا لهم ما هم فيه ومددنا لهم فى غيهم فهم يتيهون فى ضلالهم وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة كما قال تعالى ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة الآية اولئك الذين لهم سوء العذاب أى فى الدنيا والآخرة وهم فى الآخرة هم الاخسرون اى ليس يخسر انفسهم واموالهم سواهم من اهل المحشر وقوله تعالى وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم اى وانك يا محمد لتلقى اى لتأخذ القرآن من لدن حكيم عليم أى من عند حكيم عليم أى حكيم فى أمره ونهيه عليم بالامور جليلها وحقيرها فخبره هو الصدق المحض وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا (اذ قال موسى لاهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر او آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى انه انا الله العزيز الحكيم وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مذكرا له ما كان من أمر موسى عليه السلام كيف اصطفاه الله

وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والادلة القاهرة وابتعثه الى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له فقال تعالى اذ قال موسى لاهله أى اذكر حين سار موسى باهله فأضل الطريق وذلك فى ليل وظلام فآنس من جانب الطور نارا أى رأى نارا تأجج وتضطرم فقال لاهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أى عن الطريق أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون أى تتدفؤن به وكان كما قال فانه رجع منها بخبر عظيم واقتبس منها نورا عظيما ولهذا قال تعالى فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها أى فلما أتاها ورأى منظرا هائلا عظيما حيث انتهى

حقا على الله أن يدخله نار جهنم يوم القيامة ثم تلا وكان حقا علينا نصر المؤمنين وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء (الله الذي يرسل الرياح) قرئ بالجمع والافراد قال أبو عمرو كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع وما كان بمعنى العذاب فهو موحد وهي مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا) أي تزعجه وتهيجه وتحركه (فيبسطه) أي ينشره متصلا بعضه ببعض أي ينشره كمال الانتشار والا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائما (في السماء) أي في سمت السماء وجهتها وشقها كقوله وفرعها في السماء أي في جهة العلو وليس المراد حقيقة السماء المعروفة (كيف يشاء) تارة سائرا وتارة واقفا وتارة مطبقا وتارة غير مطبق وتارة الى مسافة بعيدة وتارة الى مسافة قريبة وتارة من ناحية الشمال وتارة من ناحية الجنوب أو الدبور أو الصبا وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة وفي سورة النور (ويجعله كسفا) تارة أخرى أو يجعله بعد بسطه قطعا متفرقة بعضها فوق بعض والكسف جمع كسفة بالكسر وهي القطعة من الشيء أو السحاب وقرئ بفتح السين وسكونها والمسكن مخفف من المحرك بمعنى والقراءتان سبعيتان وجمع الجمع أكساف وكسوف وكسفه يكسفه قطعه (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من بينه ووسطه (فاذا أصاب به) أي بالودق (من يشاء من عباده) أي بلادهم وأرضهم (اذا هم يستبشرون) اذا هي الفجائية أي فاجؤا الاستبشار بمجيء المطر والخصب والاستبشار الفرح (وان) أي وان الشأن وفسر المحلى ان بقد تبعا للمغوي والاول أولى ويدل له اللام في لمبلسين فانها اللام الفارقة (كانوا من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله) تكرير للتأكيد قاله الاخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس كقوله فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيها على ما قاله الزمخشري الدلالة على ان عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم يأسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك قال السمين وهو كلام حسن وقال ابن عطية وفائدة هذا التأكيد الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الابلاس الى الاستبشار وذلك ان قوله من قبل أن ينزل عليهم يحتمل الفسحة في الزمان أي من قبل ان ينزل بكثير كالايام فجاء قوله من قبله بمعنى ان ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد وقال قطرب ان الضمير في قبله راجع الى المطر أي وان كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر قبل

اليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار الا توقدا ولا تزداد الشجرة الا خضرة ونضرة ثم رفع رأسه فاذا نورها متصل بعنان السماء قال ابن عباس وغيره لم تكن نارا وانما كانت نورا يتوهج وفي رواية عن ابن عباس نور رب العالمين فوقف موسى متعجبا مما رأى فنودي أن بورك من في النار قال ابن عباس تقدس ومن حولها أي من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود وهو الطيالسي حدثنا شعبة والمسعودي عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل زاد المسعودي وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره ثم قرأ أبو عبيدة أن بورك من في النار ومن حولها وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة وقوله تعالى وسبحان الله رب العالمين أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ولا يحيط به شيء من مصنوعاته وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ولا يكتنفه الارض والسموات بل هو الاحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات وقوله تعالى يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه الحكيم في أقواله وأفعاله ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ولهذا قال تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان والجان ضرب من الحيات أسرعه المعنى

حركة وأكثره اضطرابا وفي الحديث نهى عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك ولى مدبرا ولم يعقب أي لم يلتفت من شدة فرقه يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون أي لا تخف مما ترى فاني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيا وجيها وقوله تعالى الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب فان الله يتوب عليه كما قال تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى ومن يعمل

سوأ أو بظلم نفسه الآية والآيات في هذا كثيرة جدا وقوله تعالى وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه فاذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف وقوله تعالى في تسع آيات أي هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهانا لك الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كما تقدم تقرير ذلك هنالك وقوله تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة أي بينة واضحة ظاهرة قالوا هذا سحر مبين وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين وجحدوا بها أي في ظاهر أمرهم واستيقنتها أنفسهم أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ظلما وعلوا أي ظلما من أنفسهم سجية ملعونة وعلوا أي استكبارا عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المفسدين أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في اهلاك الله اياهم واغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة وفحوى الخطاب يقول احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى فان محمدا صلى الله عليه وسلم أشرف وأعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله وما سبقه من البشارات من الانبياء به وأخذ المواثيق له عليهم من ربه أفضل الصلاة والسلام (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة

المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر وقيل من قبل ان ينزل عليهم من قبل السحاب أي من قبل رؤيته واختار هذا النحاس وقيل الضمير عائد الى الكسف وقيل الى الارسال وقيل الى الاستبشار والراجح الوجه الاول وما بعده من هذه الوجوه كلها في غاية التكلف والتعسف (لمبلسين) أي آيسين يقال أبلس الرجل ابلاسا سكت وأبلس أيس وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا (فانظر الى آثار رحمة الله) الناشئة عن انزال المطر من النبات والثمار والزرائع التي بها يكون الخصب ورخاء العيش أي انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وآثار بالجمع سبعية (كيف يحيي الارض بعد موتها) فاعل الاحياء ضمير يعود الى الله سبحانه وقيل ضمير يعود الى الاثر أي انظر الى كيفية هذا الاحياء البديع للارض بعد موتها والمراد بالنظر التنبيه على عظيم قدرته وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لامر البعث وقرئ تحيي بالفوقية على ان فاعله ضمير يعود الى الرحمة أو الى الآثار (ان ذلك) أي ان الله العظيم الشان المخترع لهذه الاشياء المذكورة (لمحيي الموتى) أي لقادر على احيائهم في الآخرة وبعثهم ومجازاتهم كما أحيا الارض الميتة بالمطر وهذا استدلال باحياء الموات على احياء الاموات (وهو على كل شيء قدير) أي عظيم القدرة وكثيرها وهذا من جملة المقدورات بدليل الانشاء (ولئن أرسلنا ريحا) مضرة وهي الريح الدبور التي أهلكت بها عاد (فرأوه) أي الزرع والنبات الذي كان من أثر رحمة الله (مصفرا) من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره وقيل الضمير راجع الى الريح وهو يجوز تذكيره وتأنيثه وقيل راجع الى الاثر المدلول عليه بالآثار وقيل راجع الى السحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر والاول أولى واللام هي الموطئة وجواب القسم قوله تعالى (لظلوا من بعده) وهو يسد مسد جواب الشرط لانه اجتمع هنا شرط وقسم والشرط مؤخر فيحذف جوابه لدلالة عليه بجواب القسم على القاعدة والمعنى والله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفرة لظلوا من بعد ذلك (يكفرون) بالله ويجحدون نعمه والمعنى انهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم وليس كذا حال أهل الايمان ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال (فانك لا تسمع الموتى)

وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة الملك والتمكين التام في الدنيا والنبوة والرسالة في الدين ولهذا قال تعالى ولقد آتينا داود
وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين قال ابن أبي حاتم ذكر عن ابراهيم بن يحيى بن هشام أخبرني أبي
عن جدي قال كتب عمر بن عبد العزيز ان الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها الا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك
الا في كتاب الله المنزل قال الله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين فاي نعمة
أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام (٢٠٤) وقوله تعالى وورث سليمان داود أي في الملك والنبوة وليس المراد
وراثة المال اذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود فانه كان لداود مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فان الانبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم حتى انه سخر له الانس والجن والطير وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا وهذا شئ لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الامر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات
من وقت خلقت الى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور في
في الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ أي مما يحتاج اليه
الملك ان هذا لهو الفضل المبين أي الظاهر البين لله علينا قال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن
أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان
اذا خرج أغلقت الابواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال فخرج ذات يوم وأغلقت الابواب فاقبلت امرأة تطلع الى الدار

أي موتى القلوب اذا دعوتهم فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب (ولا تسمع الصم الدعاء) اذا دعوتهم الى الحق ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها (اذا ولوا مدبرين) بيان لاعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالاموات وكونهم صم الآذان وقد تقدم تفسير هذا في سورة النمل فان قلت الاصم لا يسمع مقبلا أو مدبرا فما فائدة هذا التخصيص قلت هو اذا كان مقبلا يفهم بالرمز والاشارة فاذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالاشارة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاهل بدر والاسناد ضعيف والمشهور في الصحيحين وغيرهما ان عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نادى أهل قليب بدر وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قيل له انك تنادي أجسادا بالية ما أنتم باسمع لما أقول منهم وفي مسلم من حديث أنس ان عمر بن الخطاب لما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يناديهم فقال يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون يقول الله انك لا تسمع الموتى فقال والذي نفسي بيده ما أنتم باسمع منهم ولكنهم لا يطيقون ان يجيبوا ثم وصفهم بالعمى فقال (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) لفقدهم للانتفاع بالابصار كما ينبغي أو لفقدهم للبصائر (ان) أي ما (تسمع الا من يؤمن بآياتنا) لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر (فهم مسلمون) أي منقادون للحق متبعون له وفيه مراعاة معنى من (الله الذي خلقكم) ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته وهو خلق الانسان نفسه على أطوار مختلفة كما قال (من ضعف) أي بدأكم وأنشأكم على ضعف وهو مصدر ضد القوة قال الواحدي قال المفسرون من نطفة كقوله من ماء مهين أي ذي ضعف وقيل المراد حال الطفولية والصغر وهذه أحوال غاية الضعف قرئ ضعف بضم الضاد في هذه المواضع وفتحها وهما سبعيتان قال الفراء الضم لغة قريش والفتح لغة تميم قال الجوهري الضعف والضعف خلاف القوة والصحة وقيل هو بالفتح في الرأي وبالضم في الجسم وأجاز الكوفيون ضعف بفتحتين (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وهي قوة الشباب وبلوغ الاشد فانه اذ ذاك تستحكم القوة وتشتد الخلقة الى بلوغ النهاية (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أي عند الكبر والهرم (وشيبة) هي تمام الضعف ونهاية الكبر وقيل بياض الشعر الاسود ويحصل أوله

فى الغالب فى السـنة الثالثة والاربعين وهو أوّل سن الاكتهال والاخذ فى النقص بالفعل بعد الخمسين الى أن يزيد النقص فى الثالثة والستين وهو أوّل سن الشيخوخة ويقوى الضعف الى ماشاء الله تعالى (يخلق مايشاء) من جميع الاشياء ومن جملتها القوّة والضعف والشباب والشيبة فى بنى آدم (وهو العليم) بتدبيره وأحوالهم (القدير) على خلق مايريده وتغييرهم وهـذا الترديد فى الاحوال أبين دليل على الصانع القادر (ويوم تقوم) أى توجد وتحصل (الساعة) أى القيامة وهى النفخة الثانية وسميت ساعة لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة (يقسم المجرمون) أى يحلف المشركون والكافرون المنكرون للبعث بانهم (مالبثوا) فى الدنيا قاله الخطيب والكشاف والقاضى أو فى قبورهم قاله مقاتل والكلبى (غير ساعة) فيمكن ان يكونوا استقلوا مدة لبثهم واستقر ذلك فى أذهانهم فحلفوا عليـه وهم يظنون ان حلفهم مطابق للواقع وقال ابن قتيبة انهم كذبوا فى هـذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبـل وهذا هو الظاهر لانهم ان أرادوا لبثهم فى الدنيا فقد علم كل واحد منهم مقداره وان أرادوا لبثهم فى القبور فقد حلفوا على جهالة ان كانوا لايعرفون الاوقات فى البرزخ (كذلك) الصرف (كانوا يؤفكون) أى يصرفون ويقولون ماهى الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين يقال افك الرجل اذا صرف عن الصدق والحق وقيل المراد يصرفون عن الحق وقيل عن الخير والاول أولى وهو دليـل على ان حلفهم كذب (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) اختلف فى تعيين هؤلاء فقيل الملائكة وقيـل الانبياء وقيل علماء الامم وقيل مؤمنو هذه الامة ولامانع من الحمل على الجميع قالوا رداعلى هؤلاء الكفرة وتكذيبا لهم (لقد لبثتم فى كتاب الله) أى سابق علمه وسابق قضائه (الى يوم البعث) قال الزجاج فى علم الله المثبت فى اللوح المحفوظ قال الواحدى المفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله وكان رد الذين أوتوا العـلم عليهم باليمين للتأكـيد أو للمقابلة لليمين باليمين ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على انكار البعث فنبهوهم على طريقة التبكيت بقولهم (فهذا) الوقت الذى صاروا فيه هو (يوم البعث) الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا وقيـل الفاء جواب شرط محـذوف تقديره ان كنتم منكرين للبعث فهـذا يومه أى فقد تبين بطلان انكاركم (ولكنكم كنتم لاتعلمون) انه حق ووقوعه فى

فاذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فاذا الرجـل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت فقال الذى لايهاب الملوك ولايمتنع من الحجاب فقال داود أنت اذا والله ملك الموت مرحبا بامر الله فدخل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان عليه السـلام للطير أظلى داود فظللت عليـه الطير حتى أظلمت عليـه الارض فقال لها سليمان اقبضى جناحا جناحا قال أبو هريرة يارسول الله كيف فعلت الطير فقبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم يده وغلبت عليه يومئذ المضرجية قال أبو الفرج ابن الجوزى المضرجية هى النسور الحمر وقوله تعالى وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون اى وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الانس وكانوا هم الذين يلونه والجن وهـم بعـدهم فى المنزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه فان كان حر أظلته منـه باجنحتها وقوله فهـم يوزعون أى يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحـد عن منزلته التى هى مرتبة له قال مجاهد جعـل على كل صـف وزعة يردون أولاها عـلى أخراها لئـلا يتقـدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم وقوله حتى اذا أتوا على وادى النمل أى حتى اذا مر سليمان عليه السـلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل قالت نملة ياأيها النمـل ادخلوا مساكنكم لايحطمنـكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فاورد ابن عساكر من طريق اسحق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن ان اسم هذه النملة حرس وانها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وانها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب أى خافت على النمل ان تحطمها الخيول بحوافرها فامرتهم بالدخول الى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السـلام منها فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى ان أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه أى الهمنى ان أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدى بالاسلام لك والايمان بك وان أعمل صالحا ترضاه أى عملا تحبـه وترضاه وأدخلنى برحمتـك فى عبادك الصالحين أى اذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك والرفيق الاعلى من أوليائك ومن قال من المفسرين ان هذا الوادى كان بارض الشام أو بغيره وان هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك

من الاقاويل فلا حاصل لها وعن نوف البكالي أنه قال كان نمل سليمان أمثال الذئاب هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناة من تحت وانما هو بالباء الموحدة وذلك تصحيف والله أعلم والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك وهذا أمر عظيم جدا وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فاذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول اللهم انا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك والا تسقنا تهلكنا فقال سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم

الدنيا بل كنتم تستعجلونه تكذيبا واستهزاء (فيومئذ) الفاء لتفصيل ما يفهم مما قبلها من انه لا يفيدهم تقليل مدة اللبث ولا النسيان أو هو جواب شرط مقدر أيضا (لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أي لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم علمهم بالقيامة كأنهم توهموا ان التقليل ونحوه عذر في عدم طاعتهم كقوله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وقيل لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع الى الدنيا واعتذروا ولم يعذروا قرئ لا ينفع بالتحتية وبالفوقية وهما سبعيتان (ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منهم العتبى وهو الرجوع الى ما يرضي الله من التوبة والعمل الصالح وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم يقال استعتبته فاعتبني أي استرضيته فأرضاني وذلك اذا كنت جانيا عليه وحقيقة أعتبته أزلت عتبه والمعنى أنهم لا يدعون الى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا الى ذلك في الدنيا (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الامثال التي تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بذلك أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد أو جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل (ليقولن الذين كفروا) منهم (ان أنتم الا مبطلون) أي ما أنت يا محمد وأصحابك الا أصحاب أباطيل يتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان أو انكم كلكم أيها الرسل مبطلون واللام مؤكدة واقعة في جواب القسم (كذلك) الطبع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به الى الحق والتوحيد ويجنون به من الباطل والشرك والمصرين على خرافات اعتقدوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر معللا لذلك بحقية وعده سبحانه وعدم الخلف فيه فقال (فاصبر) على ما تسمعه منهم من الاذى وتنظره من الافعال الكفرية والفاء فصيحة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصر عليهم واعلاء حجتك واظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه (ولا يستخفنك) أي لا يحملنك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الخفة والجهل والطيش

وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قرصت نبيا من الانبياء نملة فامر بقرية النمل فاحرقت فاوحى الله اليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت امة من الامم تسبح فهلا نملة واحدة (وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء اذا كان بارض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الارض كما يرى الانسان الشئ الظاهر على وجه الارض ويعرف كم مساحة بعده من وجه الارض فاذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الارض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الازرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له قف يا ابن عباس غلبت اليوم قال ولم قال انك تخبر عن الهدهد انه يرى الماء في تخوم الارض وان الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي فقال ابن عباس لولا ان يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته ثم قال له ويحك انه اذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر فقال له نافع والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدا وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله البرزي من أهل برزة من غوطة دمشق

والطيش بترك الصبر ولا يستفزنك عن دينك وما انت عليه يقال استخف فلان فلانا أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى وقرئ من الاستحقاق والنهى فى الآية من باب لا ارينك ههنا (الذين لا يوقنون) بالله ولا يصدقون انبياءه ولا يؤمنون بكتبه ولا بالبعث والحساب

(سورة لقمان آياتها ثلاث أو أربع وثلاثون آية)

وهى مكية الا ثلاث آيات وهى قوله تعالى ولو أن ما فى الارض من شجرة اقلام الى تمام الآيات الثلاث قاله ابن عباس وعنه انها مكية ولم يستثن وعن قتادة انها مكية الا آيتين مدنيتان وأخرج النسائى وابن ماجه عن البراء قال كنا نصلى خلف النبى صلى الله عليه وآله وسلم الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على مثل فاتحة هذه السورة فلا نعيده (تلك آيات الكتاب الحكيم) وقد تقدم أيضا بيان مرجع الاشارة مرارا فى نظائرها والحكيم اما ان يكون بمعنى مفعل أو بمعنى فاعل أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله والاضافة بمعنى من (هدى ورحمة) قال الزجاج المعنى تلك آيات الكتاب فى حال الهداية والرحمة وقرئ بالرفع أى هو هدى ورحمة (للمحسنين) المحسن العامل للحسنات أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح لما سأله جبريل عن الاحسان فقال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ثم وصفهم بقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) وخص هذه العبادات الثلاث لانها عمدتها (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة والمعنى هنا ان أولئك المتصفين بالاحسان وفعل تلك الطاعات التى هى امهات العبادات هم على طريقة الهدى وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى الدارين (ومن الناس من يشترى) من اما موصولة أو موصوفة ومفردا لفظا جمع معنى وروعى لفظها أولا فى ثلاثة ضمائر يشترى ويضل ويتخذ وروعى معناها ثانيا فى موضعين وهما أولئك لهم ثم رجع الى مراعاة اللفظ فى خمسة ضمائر وهى واذا تتلى عليه الخ (لهو الحديث) وهو كل باطل

وكان من الصالحين يصوم يوم الاثنين والخميس وكان أعور فروى ابن عساكر بسنده الى أبى سليمان من سبب عوره فامتنع عليه فالح عليه ثم وراقا فاخبره انه من اهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة وسألاه عن وادى فاريتهما اياه فاخرجا مجامر وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجيج الوادى بالدخان فاخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان اليهما فلا يلتفتان الى شئ منها حتى اقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار فاستبشرا عظيما وقالا الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة وكسرا المجامر واخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به فسألتهما ان يكحلانى فأبيا فالححت عليهما وقلت لابد من ذلك وتوعدتهما بالدولة فكحلا عينى الواحدة اليمنى فحين وقع فى عينى نظرت الى الارض تحتى مثل المرآة أنظر ما تحتها كما ترى المرآة ثم قالا لى سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثانى حتى اذا بعدت عن القرية اخذانى فكتفانى وادخل احدهما يده فى عينى ففقأها ورمى بها ومضى فلم ازل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بى نفر ففك وثاقى فهذا ما كان من خبر عينى وقال ابن ابى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال اسم هدهد سليمان عليه السلام عنبر وقال محمد بن اسحق كان سليمان عليه السلام اذا غدا الى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره الا الهدهد فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين أخطأه بصرى أم غاب فلم يحضر وقوله لاعذبنه عذابا شديدا قال الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد عن ابن عباس يعنى نتف ريشه وقال عبد الله بن شداد نتف ريشه وتشميسه وكذا قال غير واحد من السلف انه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل وقوله أو لاذبحنه يعنى قتله أو ليأتينى بسلطان مبين بعذر بين واضح وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد لما قدم الهدهد قالت له الطير ما خلفك فقد نذر سليمان دمك فقال هل استثنى قالوا نعم قال لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين قال نجوت اذا قال مجاهد انما دفع الله عنه ببره بامه (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبا بنبا يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت

من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) يقول تعالى فمكث الهدهد غير بعيد أي غاب زمانا يسيرا ثم جاء فقال لسليمان أحطت بما لم تحط به أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك وجئتك من سبأ بنبأ يقين أي بخبر صدق حق يقين وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال إني وجدت امرأة تملكهم قال الحسن البصري وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ وقال قتادة

كانت أمها جنية وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة من بيت مملكة وقال زهير بن محمد هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان وأمها فارعة الجنية وقال ابن جريج بلقيس بنت ذي سرح وأمها بلتعة وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد حدثنا سفيان بن عيينة عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس قال كان مع صاحبة سليمان مائة ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف وقال الأعمش عن مجاهد كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى إني وجدت امرأة تملكهم كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن والله أعلم وقوله وأوتيت من كل شيء أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ولها عرش عظيم يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ قال زهير بن محمد كان من ذهب وصفحتاه مرمولان بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وقال محمد بن إسحق كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وكان إنما يخدمها النساء ولها ستمائة امرأة تلي الخدمة قال علماء التاريخ وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحا ومساء وفي

يلهي ويشغل عن الخير من الغناء والملاهي والأحاديث المكذوبة والأضاحيك والسمر بالأساطير التي لا أصل لها والخرافات والقصص المختلقة والمعازف والمزامير وكل ما هو منكر والإضافة بيانية أي اللهو من الحديث لأن اللهو يكون حديثا وغيره فهو كثوب خز وهذا أبلغ من حذف المضاف وقيل المراد شراء القينات المغنيات والمغنين فيكون التقدير من يشتري أهل لهو الحديث قال الحسن لهو الحديث المعازف والغناء وروي عنه أنه قال هو الكفر والشرك وفيه بعد والمراد بالحديث الحديث المنكر والمعنى يختارون حديث الباطل على حديث الحق قال القرطبي إن أولى ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء قال وهو قول الصحابة والتابعين قال ابن عباس لهو الحديث باطله وهو في النضر بن الحرث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وأخبار الأكاسرة وصنيعهم في دهرهم وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويحدث بها قريشا ويكذب القرآن وعنه قال هو الغناء وأشباهه أخرجه البخاري في الأدب المفرد وعنه قال الجواري الضاربات وعن ابن مسعود قال هو والله الغناء وفي لفظ قال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات وعن ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه وقيل هو كل لهو ولعب والمعنى يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ومن الناس من يشتري لهو الحديث وأخرج البيهقي في السنن وابن أبي الدنيا وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ورواه عنه موقوفا وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك وأخرج الترمذي عنه مرفوعا نحوه

ولهذا قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل أي عن طريق الحق فهم لا يهتدون وقوله ألا يسجدوا لله معناه وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ان لا يسجدوا لله أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي اخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها كما قال تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون وقرأ بعض القراء الا يسجدوا لله جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله. وقوله الذي يخرج الخبء في السموات والارض قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعلم كل خبيئة في السماء والارض وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد وقال سعيد بن المسيب الخبء الماء وكذا قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم خبء السموات والارض ما جعل فيهما من الارزاق المطر من السماء والنبات من الارض وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الارض وداخلها وقوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الاقوال والافعال وهذا كقوله تعالى سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وقوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم أي هو المدعو الله وهو الذي لا اله الا هو رب العرش العظيم أي الذي ليس في المخلوقات أعظم منه ولما كان الهدهد داعيا الى الخير وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله كما رواه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد واسناده صحيح (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين)

وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال وقال ابن مسعود لهو الحديث الرجل يشتري جارية تغنيه ليلا ونهارا وعن ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في لهو الحديث انما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل أخرجه ابن مردويه وعن نافع قال كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق فسمع زمارة فوضع اصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أتسمع قلت لا فأخرج اصبعيه من أذنيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صنع وعن ابن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان (ليضل عن سبيل الله) اللام للتعليل قرئ بضم الياء أي ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق وقرئ بفتح الياء أي ليضل هو في نفسه ويدوم ويستمر ويثبت على الضلال وهما سبعيتان قال الزجاج من قرأ بضم الياء فمعناه ليضل غيره فاذا أضل غيره فقد ضل هو ومن قرأ بالفتح فمعناه ليصير أمره الى الضلال وهو وان لم يكن يشتري الضلالة فان أمره الى ذلك فأفاد هذا التعليل انه انما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد ويؤيد هذا سبب النزول قال ابن عباس سبيل الله قراءة القرآن وذكر الله نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية قال الطبري قد أجمع علماء الامصار على كراهة الغناء والمنع منه وانما فارق الجماعة ابراهيم بن سعد وعبد الله العنبري قال القاضي أبو بكر بن العربي يجوز للرجل ان يسمع غناء جاريته اذ ليس شيء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها فكيف يمنع من التلذذ بصوتها وقال في نيل الاوطار بعد ذكر الاختلاف فيه مع الادلة لا يخفى على الناظر ان محل النزاع اذا خرج عن دائرة الحرام لم يخرج عن دائرة الاشتباه والمؤمنون وقافون عند الشبهات كما صرح به الحديث الصحيح ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ولا سيما اذا كان مشتملا على ذكر القدود والخدود والجمال والدلال والهجر والوصال ومعاقرة العقار وخلع العذار والوقار فان سامع ما كان كذلك لا يخلو عن بلية وان كان من التصلب في ذات الله على حد يقصر عنه الوصف وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول نسأل الله السداد والثبات قلت وقد جمع الشوكاني رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء وما استدل

يقول تعالى مخبرا عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين أي أصدقت في إخبارك هذا أم كنت من الكاذبين في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتابا إلى بلقيس وقومها وأعطاه ذلك الهدهد فحمله قيل في جناحه كما هي عادة الطير وقيل بمنقاره وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدبا ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر أتى به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدبا وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها قال العلماء لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا في تفسيره حيث قال حدثنا أبي حدثنا هرون بن الفضل أبو يعلى الخياط حدثنا أبو يوسف عن سلمة بن صالح عن عبد الكريم أبي أمية عن ابن بريدة عن أبيه قال كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود قلت يا نبي الله أي آية قال سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد قال فانتهى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه فقلت نسي ثم التفت إلي وقال إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم هذا حديث غريب وإسناده ضعيف وقال ميمون بن مهران كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـــل

الحالون له والمحرمون له وحقق هذا المقام على وجه لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها إلى النظر في غيرها وسماها إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع ولنا أيضا بحمد الله عز وجل جواب بسيط في جواز الغناء وعدم جوازه بالفارسية ذكرناه في كتابنا هداية السائل في أحسن تحقيق المقام كما ينبغي فليرجع إلى ذلك (بغير علم) أي حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض أو يفعله عن جهل أو جهلا منه بما عليه من الوزر ونحوه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أي لصواب التجارة (ويتخذها) قرأ حمزة والكسائي والأعمش بالنصب عطفا على يضل والضمير المنصوب راجع إلى السبيل فيكون المعنى على هذه القراءة من جملة التعليل للحكم والمعنى أنه يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل (هزوا) أي مهزوا به والسبيل يذكر ويؤنث وقرأ الجمهور بالرفع عطفا على يشتري فهو من جملة الصلة وقيل الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها والأول أولى (أولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها كما تقدم (لهم عذاب مهين) هو الشديد الذي يصير به من وقع عليه مهينا (وإذا تتلى عليه) أي على هذا المستهزئ (آياتنا ولى مستكبرا) أي أعرض عنها حال كونه مبالغا في التكبر رافعا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن (كأن لم يسمعها) أي كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع (كأن في أذنيه وقرا) ولا وقر فيهما والوقر الثقل وهو حال من لم يسمعها وقد تقدم بيانه وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض (فبشره بعذاب أليم) أي أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم وذكر البشارة تهكم به ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها فقال (إن الذين آمنوا) بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها (وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) أي نعيم الجنات فعكسه للمبالغة جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أي مقدرا خلودهم فيها إذا دخلوها (وعد الله حقا) هما مصدران الأول مؤكد لنفسه أي وعد الله وعدا والثاني مؤكد لغيره وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره حق ذلك حقا والمعنى أن وعده أن لهم جنات النعيم كائن لا محالة ولا خلف فيه (وهو العزيز) الذي لا يغلبه غالب (الحكيم) ف

بعض يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وقوله ان لا تعلوا على قال قتادة يقول لا تجبروا على وأتوني مسلمين وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لا تمتنعوا ولا تتكبروا على وأتوني مسلمين قال ابن عباس موحدين وقال غيره مخلصين وقال سفيان بن عيينة طائعين (قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم

بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون أي حتى تحضرون وتشيرون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد أي منوا اليها بعددهم وعددهم وقوتهم ثم فوضوا اليها بعد ذلك الامر فقالوا والامر اليك فانظري ماذا تأمرين أي نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس ان شئت ان تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه وبعد هذا فالامر اليك فأري فينا رأيك نمتثله ونطيعه قال الحسن البصري رحمه الله فوضوا أمرهم الى علجة يضطرب ثدياها فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان وانه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والانس والطير وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا فقالت لهم اني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص الي والكم الهلاك والدمار دون غيرنا ولهذا قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها قال ابن عباس أي اذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه أي خربوه وجعلوا أعزة أهلها أذلة أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان اما بالقتل أو بالاسر قال ابن عباس قالت بلقيس ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة قال الرب عز وجل وكذلك يفعلون ثم عدلت الى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة فقالت واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون أي سأبعث اليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل

كل أفعاله وأقواله ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته والدعامة بالكسر ما يسند به الحائط اذا مال يمنعه السقوط ودعمت الحائط دعما من باب نفع وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد قيل ان السماء خلقت مبسوطة كصحفة مستوية وهو قول المفسرين وهي في الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك الا بقدرة قادر مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد (ترونها) أي ليس لها شئ يمنعها الزوال من موضعها وهي ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة الله تعالى وفيه وجهان أحدهما انه راجع الى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الوجه الثاني انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية فيمكن ان تكون ثم عمد ولكن لا ترى وقيل ولا عمد البتة قال علي بن سليمان الاولى أن يكون مستأنفا أي ولا عمد ثم (وألقى في الارض رواسي) أي جبالا مرتفعة ثوابت شوامخ من أوتاد الارض وهي سبعة عشر جبلا منها قاف وأبو قبيس والجودي ولبنان وطور سينين وطور سيناء أخرجه ابن جرير ولكن لا وجه للتخصيص والاولى العموم والجبال على الارض أكثر من ذلك والكل يصلح للرسو يقال رسا الشئ ثبت وبابه عدا وسما والرواسي الرواسخ واحدتها راسية (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميد بكم وقيل لئلا تميد والمعنى انه خلقها وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها (وبث) أي نشر وفرق (فيها) أي في الارض (من كل دابة) أي كل نوع من أنواع الدواب ومن زائدة (وأنزلنا) فيه التفات عن الغيبة (من السماء ماء) مطرا وهو من انعام الله على عباده وفضله (فأنبتنا فيها) أي في الارض بسبب انزال الماء (من كل زوج كريم) أي من كل صنف حسن ووصفه بكونه كريما لحسن لونه وكثرة منافعه وقيل ان المراد بذلك الناس فالكريم منهم من يصير الى الجنة واللئيم من يصير الى النار قاله الشعبي وغيره والاول أولى (هذا) أي ما ذكر من خلق السموات والارض وما تعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه تعالى (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله والاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى فأروني أي شئ خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه حتى استوجبوا عندكم العبادة وهذا الامر لهم لقصد التعجيز والتبكيت

ذلك صاويكف عنا أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا قال قتادة رحمه الله ما كان أعقلها في إسلامها وشركها علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس وقال ابن عباس وغير واحد قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك وقال بعضهم أرسلت بلبنة من ذهب والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما أرسلت جواري في زي الغلمان وغلمانا في زي الجواري فقالت إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي قالوا فأمرهم سليمان فتوضؤا فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء وجعل الغلام يغترف فعرفهم بذلك وقيل بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها والغلام بالعكس وقيل بل جعلت الجواري يغسلن من أكفهن إلى مرافقهن والغلمان من مرافقهم إلى كفوفهم ولا منافاة بين ذلك كله والله أعلم وذكر بعضهم أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء لا من السماء ولا من الأرض فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أكان ذلك أم لا وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤوه به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه وقال منكرا عليهم أتمدونن بمال أي أتصانعونني بمال مما لأترككم على شرككم وملككم فما آتاني الله خير مما آتاكم أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه بل أنتم بهديتكم تفرحون أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف قال الأعمش عن المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة فلما رأت رسلها ذلك قالوا ما يصنع هذا بهديتنا وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ارجع إليهم أي بهديتهم

ثم أضرب عن تبكيتهم عاد إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر والإعلام ببطلان ما هم عليه فقال (بل الظالمون في ضلال مبين) فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا ووصفه بالوضوح والظهور ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدي إلى الحق (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف لبيان بطلان الشرك واختلف في لقمان هل هو عربي أم أعجمي مشتق من اللقم فمن قال إنه أعجمي منعه للتعريف والعجمة ومن قال إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون قال الخفاجي والأول أظهر واختلفوا أيضا هل هو نبي أم رجل صالح فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي أنه كان نبيا والأول أرجح لما سيأتي وقيل لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي وهو ضعيف جدا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح وهو آزر أبو إبراهيم وقيل هو لقمان بن عنقاء بن مرون وكان نوبيا من أهل أيلة ذكره السهيلي قال وهب هو ابن أخت أيوب وقال مقاتل هو ابن خالته عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى فقيل له فقال ألا أكتفي إذ كفيت وقيل كان خياطا وقيل نجارا وقيل راعيا وقال الواقدي كان قاضيا في بني إسرائيل وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتدرون ما كان لقمان قالوا الله ورسوله أعلم قال كان حبشيا أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس قال كان عبدا حبشيا نجارا وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء قال الطبراني أراد الحبشة والحكمة التي آتاه الله هي الفقه والعقل والإصابة في القول وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة وقال ابن عباس يعني العقل والفهم والفطنة في غير نبوة وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيأ حفظه وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك شيء ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع وفيه كفاية وما عدا ذلك

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها أى لا طاقة لهم بقتالهم ولنخرجنهم منها أذلة أى ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة وهم صاغرون أى مهانون مدحورون فلما رجعت اليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هى وقومها وأقبلت تسير اليه فى جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته فى الاسلام ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم اليه فرح بذلك وسره (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) قال محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان قال فلما رجعت اليها الرسل بما قال سليمان قالت قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيأ وبعثت اليه انى قادمة عليك بملوك قومى لانظر ما أمرك وما تدعونا اليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الابواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا يخلص اليه أحد من عباد الله ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت الى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل ألوف كثيرة فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى اذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين وقال قتادة لما بلغ سليمان انها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر وكان مسترا بالديباج والحرير وكانت عليه تسعة مغاليق فكره ان يأخذه بعد اسلامهم وقد علم نبى الله انهم متى أسلموا تحرم اموالهم ودماؤهم فقال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين وهكذا قال عطاء الخراسانى والسدى وزهير بن محمد قبل أن يأتونى مسلمين فتحرم على أموالهم باسلامهم قال عفريت من الجن قال مجاهد أى مارد من الجن قال شعيب الجبائى وكان اسمه كوزن وكذا قال محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان وكذا قال

ما لم يصح فليس فى ذكره الا شغلة للحيز وقطيعة للوقت ولم يكن نبيا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا ولا صح اسناد ما روى عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التى هى ضالة المؤمن (أن اشكر لله) ان هى المفسرة لان فى الايتاء معنى القول لانه تعليم أو وحى وقيل التقدير قلنا له هذا القول وقال الزجاج التقدير لان اشكر وقيل بان اشكر فشكر فكان حكيما بشكره والشكر لله الثناء عليه فى مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به وقيل الشكر أن لا تعصى الله بنعمه وقيل أن لا ترى معه شريكا له فى نعمه وقيل هو الاقرار بالعجز ورؤية العجز فى الكل دليل قبول الكل ثم بين سبحانه ان الشكر لا ينتفع به الا الشاكر فقال (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) لان نفع ذلك وثوابه راجع اليه وفائدته حاصلة له اذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها موجبة لامتثال الامر (ومن كفر) أى من جعل كفر النعمة مكان شكرها (فان الله غنى) عن شكره غير محتاج اليه (حميد) مستحق للحمد من خلقه لانعامه عليهم بنعمه التى لا يحاط بقدرها ولا يحصر عددها وان لم يحمده أحد فان كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال قال يحيى بن سلام غنى عن خلقه حميد فى فعله (و) اذكر (اذ قال لقمان لابنه) قال السهيلى واسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير والقتيبى وقال الكلبى مشكم وقال النقاش انعم وقيل ماتان قال القشيرى كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ودل على هذا قوله لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم والتقدير آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره (وهو يعظه) أى والحال انه يخاطبه بالموعظة التى ترغبه فى التوحيد وتصده عن الشرك وذلك لان أعلى مراتب الانسان ان يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وبدأ بالاقرب اليه وهو ابنه فقال (يا بنى) تصغير اشفاق ومحبة (لا تشرك بالله) وهذا يدل على انه كان كافرا كما تقدم قال الخطيب والخازن فرجع اليه وأسلم وقيل كان مسلما ونهاه ان يقع منه الشرك فى المستقبل (ان الشرك لظلم عظيم) لانه تسوية بين من لا نعمة الا وهى منه وبين من لا نعمة له أصلا وبدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك لانه أهم من غيره وقد اختلف فى هذه الجملة فقيل هى من كلام لقمان فتكون تعليلا لما قبلها وقيل هى من كلام الله فتكون منقطعة عما قبلها ويؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح انها لما

نظر إليه بعد ما مدّ بصره. قال أبو صالح: وكان كأنه يقول: أنا آتيك به قبل أن يقوم من مقامك. قال ابن عباس: يعني قبل أن يقوم من مجلسك.
وقال مجاهد: مقعدك. وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس
وإني عليه لقوي أمين. قال ابن عباس: أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك
ومن هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضاره هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد
قبله ولا يكون لأحد من بعده وليجد ذلك ٭ حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا أمر عظيم أن
أتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه هذا وقد حفظته بالأغلاق والأقفال والحفظة فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك قال الذي عنده علم من الكتاب قال ابن عباس وهو آصف كاتب سليمان وكذا روى محمد بن إسحق عن يزيد ابن رومان أنه آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم وقال قتادة كان مؤمنا من الإنس واسمه آصف وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة إنه كان من الإنس زاد قتادة من بني إسرائيل وقال مجاهد كان اسمه أسطوم وقال قتادة في رواية عنه كان اسمه بليخا وقال زهير بن محمد هو رجل من الإنس يقال له ذو النور وزعم عبد الله بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جدا وقوله أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك وقال وهب بن منبه امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش
المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى قال مجاهد قال يا ذا الجلال والإكرام وقال الزهري المفسرين
قال يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها قال فمثل بين يديه قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحق وزهير
ابن محمد وغيرهم لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس غاب السرير
وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال
وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي أي هذا من نعم الله

تراب ولم يلبسوا الثياب حتى نزلت أي لم يشق ذلك على الصحابة وقالوا أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله أن الشرك لظلم عظيم فطابت أنفسهم (ووصينا الإنسان بوالديه) أي أمرناه أن يبرهما
وهذه الوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله وما كنتم تعملون اعتراض بين كلام لقمان
على سبيل الاستطراد لتأكيد ما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بالله وتفسير الوصية
هو قوله أن اشكر لي ولوالديك وما بينهما اعتراض بين المفسر والمفسر وفي جعل الشكر
لهما مقرونا بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها
وجوبا (حملته أمه وهنا على وهن) قرئ بسكون الهاء وفتحها في الموضعين وهما لغتان
أي أمه حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفا على ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها
والوهن الضعف والمشقة وقد وهن من باب وعد ووهنه غيره توهينا والوهن والموهن
نحو من نصف الليل وقال ابن عباس شدة بعد شدة وخلقا بعد خلق وقيل المعنى أن المرأة
ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل وقيل أي حملته ضعفا على ضعف وقال الزجاج المعنى
لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة أي وهنا كائنا على وهن لأن الحمل وهن
والطلق وهن والوضع وهن والرضاع وهن وانتصاب وهنا على المصدر أو الحال (وفصاله
في عامين) الفصال الفطام عن الرضاع وهو أن يفصل الولد عن الأم وقرئ وفصله وهما
لغتان يقال انفصل عن كذا أي تميز وبه سمي الفصيل والمعنى فطامه لتمام سنتين عن
الرضاع قال النيسابوري وفيه دليل على أن مدة الإرضاع حولان (أن اشكر لي ولوالديك)
أي وصيناه بشكرنا وشكر والديه قال سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد
شكر الله ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين وأن مفسرة أو
مصدرية وهو قول الزجاج (إلي المصير) تعليل لوجوب امتثال الأمر أي الرجوع إلي
لا إلى غيري وقيل الجزاء في وقت المصير إلي (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به
علم) أي ما لا علم لك بشركته وذكر هذا النفي وارده للواقع ولا مفهوم له إذ ليس لله
شريك يعلم لأنه مستحيل (فلا تطعهما) في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق
وجملة هذا أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا ترك فريضة على الأعيان
وتلزم طاعتهما في المباحات وقد قدمنا تفسير الآية وسبب نزولها في سورة العنكبوت
قال سعد بن أبي وقاص نزلت في هذه الآية وعن أبي هريرة مثله وعليه جماعة من

المفسرين (وصاحبهما فى الدنيا) أى فى أمورها التى لا تتعلق بالدين مادمت حيا صحابا (معروفا) يبرهما ان كانا على دين يقران عليه وقيل صاحبهما بمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة والخلق الجميل والحلم والاحتمال وما يقتضيه مكارم الاخلاق ومعالى الشيم (واتبع سبيل من أناب) أى رجع (الى) والخطاب لسائر المكلفين أى اتبع أيها المكلف دين من أقبل الى طاعتى من عبادى الصالحين بالتوبة والاخلاص وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقيل يعنى أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال ابن عباس وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم انه صادق فآمنوا به ثم حملهم الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الاسلام أسلموا بارشاد أبى بكر (ثم الى) لا الى غيرى (مرجعكم) جميعا أى أنت والداك ومن أناب الى (فأنبئكم) أخبركم عند رجوعكم الى (بما كنتم تعملون) من خير أو شر فأجازى كل عامل بعمله ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان فى وعظه لابنه فقال (يابنى انها) الضمير عائد الى الخطيئة لما روى ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها الله فقال انها أى الخطيئة (ان تك) بالفوقية على معنى ان تك الخطيئة أو المسئلة أو الخصلة أو القصة (مثقال) قرئ بالنصب على انه خبر كان واسمها هو أحد تلك المقدرات وقرئ بالرفع على انه اسم كان وهى تامة وأنث الفعل فى هذه القراءة لاضافة مثقال الى المؤنث أى زنة (حبة من خردل) والجملة الشرطية مفسرة للضمير قال الزجاج التقدير ان التى سألتنى عنها ان تك مثقال حبة من جنس الخردل وعبر بالخردلة لانها أصغر الحبوب ولا يدرك ثقلها بالحس ولا ترجح ميزانا ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها وصغرها فقال (فتكن فى صخرة) فانها عند كونها فى الصخرة قد صارت فى أخفى مكان وأحرزه قرئ فتكن بضم الكاف (١) ومن الكن الذى هو الشئ المغطى قال السدى هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات والارض وقال ابن عباس صخرة تحت الارضين السبع وهى التى تكتب فيها أعمال الفجار وهى السجين وخضرة السماء منها وقيل غير ذلك (أو فى السموات أو فى الارض) أى حيث كانت من بقاع السموات أو بقاع الارض أى فى أخفى مكان من ذلك فالاخفى من الصخرة كأن تكون فى صخرة تحت الارضين السبع والاخفى

على ليبلونى أى ليختبرنى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه كقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وكقوله ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون وقوله ومن كفر فان ربى غنى كريم أى هو غنى عن العباد وعبادتهم كريم أى كريم فى نفسه وان لم يعبده أحد فان عظمته ليست مفتقرة الى أحد وهذا كما قال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد وفى صحيح مسلم يقول الله تعالى ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيأ ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكى شيأ ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) لما جىء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على انه عرشها أو انه ليس بعرشها فقال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون قال ابن عباس نزع منه فصوصه ومرافقه وقال مجاهد أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر وما كان أصفر جعل أحمر وما كان أخضر جعل أحمر غير كل شئ عن حاله وقال عكرمة زادوا فيه ونقصوا وقال قتادة جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا فلما جاءت قيل أهكذا عرشك أى عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ولها لب ودهاء وحزم فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا انه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وان غير وبدل ونكر فقالت كأنه هو أى يشبهه ويقاربه وهذا غاية فى الذكاء والحزم وقوله وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين قال مجاهد سليمان يقوله وقوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما

(١) ومن الكن الخ كذا فى أصله وتأمل وحرر اه

من السموات كأن تكون فى أعلاها والاخفى من الارض كأن تكون فى أسفلها (يأت بها الله) أى يحضرها يوم القيامة ويحاسب فاعلها عليها (ان الله لطيف) باستخراجها لا يخفى عليه خافية بل يصل علمه الى كل خفى (خبير) بمكانها وبكل شئ لا يغيب عنه شئ ومعنى الآية الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) من الاذى فى ذات الله اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر أو واصبر على ما أصابك من المحن فانها تورث المنح حكى سبحانه عن لقمان انه أمر ابنه بهذه الامور ووجه تخصيص هذه الطاعات انها أمهات العبادات وعماد الخير كله (ان ذلك) الطاعات المذكورة التى وصاه بها (من عزم الامور) أى مما جعله الله عزيمة وأوجبه على عباده وحتمه على المكلفين ولم يرخص فى تركه وقيل المعنى من حق الامور التى أمر الله بها والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم أى من معزومات الامور أو بمعنى العازم كقوله فاذا عزم الامر قال المبرد ان العين تبدل حاء فيقال عزم وحزم وقال ابن جريج ويحتمل أن يريد ان ذلك من مكارم أهل الاخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة وصوب هذا القرطبى وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الامم (ولا تصعر خدك للناس) وقرئ تصاعر والمعنى متقارب وكل منهما فى خط المصحف الامام بلا ألف والصعر الميل يقال صعر خده وصاعر خده اذا أمال وجهه وأعرض تكبرا والمعنى لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم وبه قال الهروى يقال أصاب البعير صعر اذا أصابه داء يلوى عنقه وقيل المعنى ولا تلوشدقك اذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره وقال ابن خويز منداد كأنه نهى ان يذل الانسان نفسه من غير حاجة ولعله فهم من التصعير التذلل وعن أبى أيوب الانصارى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن قوله ولا تصعر خدك فقال لى الشدق أخرجه الطبرانى وابن عدى وابن مردويه وقال ابن عباس لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم اذا كلموك وعنه قال هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر والمعنى أقبل على الناس بوجهك تواضعا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون بل يكون الفقير والغنى عندك سواء (ولا تمش فى الارض مرحا) اى خيلاء وفرحا والمراد النهى عن التكبر والتجبر والمختال يمرح فى مشيه وقد تقدم تحقيقه (ان الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهى المذكور لان الاختيال هو المرح والفخور

الله اى قال سليمان اوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وهى كانت قد صدها اى منعها من عبادة الله وحده ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن وقاله ابن جرير أيضا ثم قال ابن جرير ويحتمل ان يكون فى قوله وصدها ضمير يعود الى سليمان او الى الله عز وجل تقديره ومنعها ما كانت تعبد من دون الله اى صدها عن عبادة غير الله انها كانت من قوم كافرين (قلت) ويؤيد قول مجاهد انها انما اظهرت الاسلام بعد دخولها الى الصرح كما سيأتى وقوله قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها وذلك ان سليمان عليه السلام امر الشياطين فبنوا له قصرا عظيما من قوارير اى من زجاج واجرى تحته الماء فالذى لا يعرف امره يحسب انه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه واختلفوا فى السبب الذى دعا سليمان عليه السلام الى اتخاذه فقيل انه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه ذكر له جمالها وحسنها ولكن فى ساقيها هلب عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة فساءه ذلك فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا هكذا قول محمد بن كعب القرظى وغيره فلما دخلت وكشفت عن ساقيها رأى أحسن الناس ساقا وأحسنهم قدما ولكن رأى على رجليها شعرا لانها ملكة ليس لها زوج فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل له الموسى فقالت لا أستطيع ذلك وكره سليمان ذلك وقال للجن اصنعوا شيأ غير الموسى يذهب به هذا الشعر فصنعوا له النورة وكان أول من اتخذت له النورة قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والسدى وابن جريج وغيرهم وقال محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان ثم قال لها ادخلى الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك انه ماء تخوضه فقيل لها انه صرح ممرد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله وحده وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون الله وقال الحسن البصرى لما رأت العلجة الصرح عرفت والله أن قد رأت ملكا أعظم من ملكها وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال أمر سليمان بالصرح وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضا ثم أرسل الماء تحته ثم وضع له فيه سريره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والانس ثم قال لها ادخلى الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها فلما رأته

هو الذي يفتخر على الناس بماله من المال والشرف أو القوة أو يعدد مناقبه تطاولاً أو غير ذلك ويظن ان اسباغ النعم الدنيوية عليه من محبة الله له وذلك من جهله فان الله أسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغي للعارف ان لا يتكبر على عباده وليس منه التحديث بنعم الله فان الله يقول وأما بنعمة ربك فحدث (واقصد في مشيك) أي توسط فيه واقصد ما بين الاسراع والبطء يقال قصد فلان في مشيته اذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين وقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا مشى أسرع فلابد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة وقال مقاتل معناه لا تختل في مشيتك وقال ابن مسعود كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك وقيل انظر موضع قدميك متواضعاً والمعنى اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين الدبيب والاسراع وقال عطاء امش بالسكينة والوقار كقوله يمشون على الارض هوناً (واغضض من صوتك) أي انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه فان الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ومن تبعيضية وعند الاخفش مزيدة ويؤيده قوله ان الذين يغضون أصواتهم والمعنى شيأ من صوتك وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت (ان أنكر الاصوات) أي أوحشها وأقبحها (لصوت الحمير) تعليل للامر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وآكده قال قتادة أقبح الاصوات صوت الحمير أوله زفير أي صوت قوي وآخره شهيق أي صوت ضعيف وهما صوتا أهل النار وأنكر قيل مبني من الفعل المبني للمفعول نحو أشغل من ذات النحيين وهو مختلف فيه قال المبرد تأويله ان الجهر بالصوت ليس بمحمود وانه داخل في باب الصوت المنكر واللام للتأكيد ووحد الصوت مع كونه مضافاً الى الجمع لانه مصدر وهو يدل على الكثرة وهو مصدر صات يصوت صوتاً فهو صائت وقيل انما وحده ولم يجمع لانه لم يرد ان يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل المراد ان كل جنس من الحيوان له صوت وأنكر أصوات هذه الاجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده وعن الثوري في الآية قال صياح كل شئ تسبيح الا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة والاول أولى وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على ان رفع الصوت في غاية الكراهة ولما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع الى توبيخ المشركين وتبكيتهم واقامة الحجج عليهم فقال (الم

جته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك انه ماء تخوضه قيل لها انه صرح ممرد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله عز وجل وحده وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً اعظاماً لما قالت وسجد معه الناس وسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قالت ويحك ماذا قلت قال وأنسيت ما قلت فقالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين فأسلمت وحسن اسلامها وقد روى الامام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس فقال حدثنا الحسن بن علي عن زائدة حدثني عطاء بن السائب حدثنا مجاهد ونحن في الازد قال حدثنا ابن عباس قال كان سليمان عليه السلام يجلس على سريره ثم توضع كراسي حوله فيجلس عليها الانس ثم يجلس الجن ثم الشياطين ثم تأتي الريح فترفعهم ثم يظلهم الطير ثم تغدو قدر ما يشتهي الراكب ان ينزل شهراً ورواحها شهر قال فبينما هو ذات يوم في مسير له اذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لاعذبنه عذاباً شديداً أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين قال فكان عذابه اياه أن ينتفه ثم يلقيه في الارض فلا يمتنع من نملة ولا من شئ من هوام الارض قال عطاء وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد فمكث غير بعيد فقرأ حتى انتهى الى قوله سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا وكتب بسم الله الرحمن الرحيم الى بلقيس ان لا تعلوا علي وأتوني مسلمين فلما ألقى الهدهد الكتاب اليها ألقي في روعها انه كتاب كريم وانه من سليمان وان لا تعلوا علي وأتوني مسلمين قالوا نحن أولو قوة قالت ان الملوك اذا

دخلوا قرية أفسدوها واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاءت الهدية سليمان قال أتمدونني بمال ارجع اليهم فلما نظر الى الغبار اخبرنا ابن عباس قال وكان بين سليمان وبين ملكة سبا ومن معها حين نظر الى الغبار كما بيننا وبين الحيرة قال عطاء ومجاهد حينئذ في الازد قال سليمان أيكم يأتيني بعرشها قال وبين عرشها وبين سليمان حين نظر الى الغبار مسيرة شهرين قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك قال وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الامراء ثم يقوم فقال انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك قال سليمان أريد أعجل من ذلك فقال الذي عنده علم من الكتاب انا أنظر

في كتاب ربي ثم آتيته به قبل أن يرتد إليك طرفك قال فنحت قدم سليمان من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ثم يصعد إلى السرير قال فلما رأى سليمان عرشها قال هذا من فضل ربي الآية قال نكروا لها عرشها فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو قال فسألته حين جاءته عن أمرين قالت لسليمان أريد ماء ليس من أرض ولا سماء وكان سليمان إذا سئل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين قال فقالت الشياطين هذا هين أجر الخيل ثم خذ عرقها ثم املأ منه الآنية قال فأمر بالخيل فأجريت ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية قال وسألت عن (٢١٨) لون الله عز وجل قال فوثب سليمان عن سريره فخر ساجدا فقال يا رب لقد سألتني عن أمر إنه ليتعاظم في قلبي أن أذكره لك فقال ارجع فقد كفيتكم قال فرجع إلى سريره قال ما سألت عنه قالت ما سألتك إلا عن الماء فقال لجنوده ما سألت عنه فقالوا ما سألتك إلا عن الماء قال ونسوه كلهم قال وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يتخذها لنفسه فإن اتخذها لنفسه ثم ولدت له ولدا لم ننفك من عبوديته قال فجعلوا صرحا ممردا من قوارير فيه السمك قال فقيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فإذا هي شعراء فقال سليمان هذا قبيح ما يذهبه قالوا يذهبه الموسى فقال أثر الموسى قبيح قال فجعلت الشياطين النورة قال فهو أول من جعلت له النورة ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة ما أحسنه من حديث قلت بل هو منكر غريب جدا ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة. أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع قال الله سبحانه وتعالى إخبارا عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب الآية والصرح قصر في اليمن عالي البناء والممرد المبني بناء محكما أملس من قوارير أي زجاج وتمريد البناء تمليسه ومارد حصن بدومة الجندل والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت

ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) قال الزجاج معنى تسخيرها للآدميين الانتفاع بها انتهى فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم بأمر الله سبحانه الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ومن مخلوقات الأرض المسخرة الأحجار والمياه والتراب والزرع والشجر والثمر والبحار والأنهار والحيوانات والدواب التي ينتفعون بها والعشب الذي يرعون فيه دوابهم وغير ذلك مما لا يحصى كثرة فالمراد بالتسخير جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقادا له وداخلا تحت تصرفه أم لا (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) أي أتم وأكمل عليكم نعمه يقال سبغت النعمة إذا تمت وكملت وقرئ أصبغ بإبدال السين صادا وهي لغة كلب يفعلون ذلك في كل سين اجتمع مع الغين والخاء والقاف كصلخ وصقر والنعم جمع نعمة وقرئ نعمة على الإفراد والتنوين اسم جنس يراد به الجمع ويدل به على الكثرة كقوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها والنعمة كل نفع قصد به الإحسان والمراد بالنعم الظاهرة ما يدرك بالعقل أو الحس ويعرفه من يتعرفه وبالباطنة ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم وقيل الظاهرة الصحة وكمال الخلق والبصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة المعرفة والعقل والقلب والفهم وما أشبه ذلك وقيل الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله عن العبد من الآفات وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة كلها ترجع إلى هذا وقيل الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة وقيل الظاهرة الإسلام والقرآن والجمال والباطنة ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة وقيل الظاهرة تسوية الأعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والباطنة محبته واللفظ أعم من ذلك وعن عطاء قال سألت ابن عباس عن هذا فقال هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أما الظاهرة فما سوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم أخرجه البيهقي وعنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله وأسبغ

عليكم

في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل وقالت رب اني ظلمت نفسي اي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله اليهم فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له فاذا هم فريقان يختصمون قال مجاهد مؤمن وكافر كقوله تعالى قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون * قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة أي لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا وذلك انهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم سوء الا قال هذا من قبل صالح وأصحابه قال مجاهد تشاءموا بهم وهذا كما قال الله تعالى اخبارا عن قوم فرعون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية وقال تعالى وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله أي بقضائه وقدره وقال تعالى مخبرا عن أهل القرية اذ جاءها المرسلون قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم الآية وقال هؤلاء اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله أي الله يجازيكم على ذلك بل أنتم قوم تفتنون قال قتادة تبتلون بالطاعة والمعصية والظاهر ان المراد بقوله تفتنون اي تستدرجون فيما انتم فيه من الضلال (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا

عليكم نعمه الخ فقال أما الظاهرة فالاسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك أخرجه ابن النجار والديلمي والبيهقي وعنه قال النعمة الظاهرة الاسلام والنعمة الباطنة كل ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود أخرجه ابن مردويه وعنه انه قال في تفسير الآية هي لا اله الا الله (ومن الناس من يجادل في الله) أي في شأن الله سبحانه في توحيده وصفاته مكابرة وعنادا بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه ولهذا قال (بغير علم) مستفاد من عقل ونقل (ولا هدى) من جهة رسول يهتدي به الى طريق الصواب (ولا كتاب منير) نير واضح أنزله الله بل بمجرد تعنت ومحض عناد وتقليد وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة قيل نزلت في النضر بن الحرث وأبي بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الله وفي صفاته بغير علم (واذا قيل لهم) أي لهؤلاء المجادلين والجمع باعتبار معنى من (اتبعوا ما أنزل الله) على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت و(قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) فنعبد ما كانوا يعبدونه من الاصنام ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون فيها في دينهم ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء قال ابن القيم قد احتج العلماء بهذه الآية وأمثالها في ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لان التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد كما لو قلد رجلا فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر في مسئلة فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام فيه والتقليد أنواع أحدها الاعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات اليه اكتفاء بتقليد الآباء الثاني تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لان يؤخذ بقوله الثالث التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد والفرق بين هذا وبين النوع الاول ان الاول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة وهذا قلد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ذم الله سبحانه هذه الانواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم ولا يكون العبد مهتديا حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله فهذا المقلد ان كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد وان كان لم يعرف ما أنزل الله فهو جاهل ضال باقراره على نفسه فمن أين يعرف

يتقون) يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسهم الذين كانوا دعاة قومهم الى الضلالة والكفر وتكذيب صالح وآل بهم الحال الى انهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضا بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة ثم يقولوا لاوليائه من أقربيه انهم ما علموا بشيء من أمره وانهم لصادقون فيما أخبروهم به من انهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى وكان في المدينة أي مدينة ثمود تسعة رهط اي تسعة نفر يفسدون في الارض ولا يصلحون وانما غلب هؤلاء على امر ثمود لانهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم قال العوفي عن ابن عباس هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم وقد فعل ذلك وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس كان اسماء هؤلاء (١) التسعة رعمى ورعيم وهرم وهريم وداب وصواب ومسطع وقدار بن سالف عاقر الناقة أي الذي باشر ذلك بيده قال الله تعالى فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر وقال تعالى اذ انبعث أشقاها وقال عبد الرزاق أنبأنا يحيى ابن ربيعة الصنعاني سمعت عطاء هو ابن أبي رباح يقول وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قال كانوا يقرضون الدراهم يعني انهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددا كما كان العرب يتعاملون وقال الامام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب انه قال قطع الذهب والورق من الفساد في الارض وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم الا من بأس والغرض ان هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الافساد في الارض بكل طريق يقدرون عليها فمنها ما ذكره هؤلاء الائمة وغير ذلك وقوله تعالى قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لاتقع لقيه ليلا غيلة فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا اليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين وقال قتادة تواثقوا على ان يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا انهم بينما هم معانيق الى صالح ليفتكوا به اذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم وقال العوفي عن ابن عباس هم الذين عقروا الناقة قالوا حين عقروها نبيت صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لاولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين وقال محمد بن اسحق قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة هلم فلنقتل

انه على هدى في تقليده وهذا جواب كل سؤال يورد في هذا الباب وكان طريقة الائمة اتباع الحجة والنهي عن تقليدهم فمن ترك الحجة وارتكب ما نهوا عنه ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقتهم بل هو من المخالفين لهم وانما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة وانقاد للدليل ولم يتخذ رجلا بعينه سوى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجعله مختارا على الكتاب والسنة يعرضهما على قوله وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعا وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما كما فرقت الحقائق بينهما فان الاتباع سلوك طريق المتبع والاتيان بمثل ما أتى به والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وابطاله وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد وان العالم قد يزل ولا بد اذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الارض وحرموه وذموا أهله وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم فانهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك اذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد انتهى بتصرف في العبارة ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت (أولو كان الشيطان يدعوهم) أي آباءهم الذين اقتدوا بهم في دينهم أي يتبعونهم في الشرك ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ويجوز ان يراد انه يدعو هؤلاء الاتباع (الى عذاب السعير) لانه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم والاول أولى لان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كونهم أنفسهم كذلك ويجوز ان يراد انه يدعو جميع التابعين والمتبوعين الى العذاب فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم وجواب لو محذوف أي يدعوهم فيتبعونه وما أقبح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه وأوخم عاقبته وأشأم عائدته على من وقع فيه فان الداعي له الى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق فتأبى ذلك وتتهافت في نار الحريق وعذاب السعير (ومن يسلم وجهه الى الله) أي يفوض أمره اليه ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته وقرئ من يسلم بالتشديد قال النحاس التخفيف في هذا أعرف كما قال عز وجل فقل أسلمت وجهي لله (وهو محسن) في أعماله لان العبادة من غير احسان فيها ولا معرفة بما يحتاج اليه فيها

---

(١) قوله هؤلاء التسعة الخ كذا بأصله والمعدود ثمانية وهي مخالفة لما في الكشاف والخطيب فحرر وانظر الناسخ اه مصححه

ما الها فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا وان كان كاذبا فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم لما عقروا الناقة قال لهم صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب قالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه فخرجوا الى كهف أي غار هناك ليلا فقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا اذا فرغنا منه الى أهله ففرغنا منهم فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ولا يدرون ما فعل بقومهم فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ثم قرأ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية أي فارغة ليس فيها أحد بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام انه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم وهي اتيان الذكور دون الاناث وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فقال أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أي يرى بعضكم بعضا وتأتون في ناديكم المنكر أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون أي لا تعرفون شيئا لا طبعا ولا شرعا كما قال في الآية الأخرى أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون

لا انتفع بالوقع الذي تقع به عبادة المحسنين وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الاحسان انه قال له ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي اعتصم بالعهد الاوثق وتعلق به وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه الى الله بحال من أراد ان يرتقي الى شاهق جبل فيمسك بأوثق عرى حبل متدل منه (والى الله عاقبة الامور) أي مصيرها اليه لا الى غيره فيجازي عليها (ومن كفر فلا يحزنك كفره) أي لا تحزن لذلك فان كفره لا يضرك قرئ بفتح الياء وضم الزاي وبضم الياء وكسر الزاي سبعيتان بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين ثم توعدهم بقوله (الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أي نخبرهم بقبائح أعمالهم ونجازيهم عليها (ان الله عليم بذات الصدور) أي بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية فالسر عنده كالعلانية (نمتعهم) تمتيعا أو زمانا (قليلا) أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها الى انقضاء آجالهم فان النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة الى النعيم الدائم (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) أي نلجئهم ونردهم الى عذاب النار في الآخرة لا يجدون عنها محيصا والمراد الشدة والثقل على المعذب فلا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به فلهذا استعير له الغلظ (ولئن) لام قسم (سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) أي يعترفون بان الله خالق ذلك لوضوح الامر فيه عندهم وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك والزام لهم على اقرارهم ولهذا قال (قل) يا محمد (الحمد لله) على اعترافكم فكيف تعبدون غيره وتجعلونه شريكا له أو المعنى فقل الحمد لله على ما هدانا له من دينه ولا حمد لغيره أو على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون ويجحدها الجاحدون ثم أضرب عن ذلك فقال (بل أكثرهم لا يعلمون) ان ذلك يلزمهم واذا نبهوا عليه لم ينتبهوا وقيل لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا ان خالق هذه الاشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره (لله ما في السموات والارض) ملكا وخلقا وعبيدا فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغني) عن غيره (الحميد) أي المستحق للحمد وان لم يحمدوه أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والارض أتبعه بما يدل على ان له وراء ذلك ما لا يحيط به عد ولا يحصر بحد فقال (ولو أن) جميع (ما في الارض من شجرة أقلام) وحد الشجرة لما تقرر في علم المعاني ان استغراق المفرد أشمل قيل وتوحيد

أى يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن اقراركم على صنيعكم فاخرجوهم من بين أظهركم فانهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها قال الله تعالى فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين أى من الهالكين مع قومها لانها كانت ردأ لهم على دينهم وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة وكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا اليهم لانها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله صلى الله عليه وسلم لا كرامة لها وقوله تعالى وأمطرنا عليهم مطرا أى حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ولهذا قال فساء مطر المنذرين أى الذين قامت

عليهم الحجة ووصل اليهم الانذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا باخراجه من بينهم (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) يقول تعالى آمرا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول الحمد لله أى على نعمه على عباده من النعم التى لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والاسماء الحسنى وان يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره ان المراد بعباده الذين اصطفاهم الانبياء قال وهو كقوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وقال الثورى والسدى هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين وروى نحوه عن ابن عباس أيضا ولا منافاة فانهم اذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالانبياء بطريق الاولى والاحرى والقصد ان الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر أن يحمدوه على جميع أفعاله وان يسلموا على عباده المصطفين الاخيار وقد قال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح حدثنا طلق بن غنام حدثنا الحكم بن ظهير عن السدى ان شاء الله عن أبى مالك عن ابن عباس وسلام على عباده الذين اصطفى قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله لنبيه رضى الله عنهم وقوله تعالى آلله خير أما يشركون استفهام انكار على المشركين فى عبادتهم مع الله

شجرة لان المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه فكأنه قال كل شجرة شجرة حتى لا تبقى من جنس الشجر واحدة الا وقد بريت أقلاما ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى اذ الجمع يحقق بما فوق الثلاثة الا ان تدخل عليه لام الاستغراق هكذا قرروه قال الشهاب وفيه بحث فان افادة المفرد التفصيل بدون تكرار أو الاستغراق بدون فى محل نظر لانه انما عهد ذلك فى نحو جاءونى رجلا رجلا وما عندى تمرة قال أبو حيان وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله ما ننسخ من آية وجمع الاقلام لقصد التكثير أى ولو أن بعد كل شجرة من الشجر أقلاما ثم قال سبحانه (والبحر) أى المحيط لانه المتبادر من التعريف اذ هو الفرد الكامل قرئ البحر بالرفع على انه مبتدأ وخبره يمده وبالنصب عطفا على اسم ان أو بفعل مضمر يفسره (يمده من بعده) أى بعد نفاده (سبعة أبحر) أى والحال ان البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الابحر مدا لا ينقطع كذا قال سيبويه وقال المبرد ان البحر مرتفع بفعل مقدر تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر وقرئ يمده من أمد وقرئ والبحر مداده وجواب لو (ما نفدت كلمات الله) التى هى عبارة عن معلوماته لانها لا نهاية لها قال أبو على الفارسى المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور والامكان دون ما خرج منه الى الوجود والزمان ووافقه القفال فقال المعنى ان الاشجار لو كانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله تعالى الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب قال القشيرى رد القفال معنى الكلمات الى المقدورات وحمل الآية على الكلام القديم أولى والمخلوق لا بد له من نهاية واذا نفيت النهاية فهى نفى للنهاية عما قدر فى المستقبل على ايجاده فاما ما حصره الوجود وعينه فلا بد من تناهيه والقديم لا نهاية له على التحقيق قال النحاس قد تبين ان الكلمات ههنا يراد بها العلم وحقائق الاشياء لانه جل وعلا علم قبل ان يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والارض من شئ وعلم ما فيه من مثاقيل الذر وعلم الاجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما فى الشجر من ورق وما فيها من ضروب الخلق وقيل ان قريشا قالت ما أكثر كلام محمد فنزلت قاله السدى وعن ابن مسعود قال ان أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة يا محمد أرأيت قولك وما أوتيتم من العلم الا قليلا ايانا تريد أم قومك فقال كلا فقالوا ألست تتلو فيما جاءك انا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شئ فقال انها فى علم الله قليل وأنزل

آلهة أخرى ثم شرع تعالى يبين انه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى أمن خلق السموات أي خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها وما جعل فيها من الكواكب المنيرة والنجوم الزاهرة والافلاك الدائرة وخلق الارض في استفالها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال والسهول والاوعار والفيافي والقفار والزروع والاشجار والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الاصناف والاشكال والالوان وغير ذلك وقوله تعالى وأنزل لكم من السماء ماء أي جعله رزقا للعباد فأنبتنا به حدائق أي بساتين ذات بهجة اي منظر حسن وشكل بهي ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أي لم تكونوا تقدرون على انبات أشجارها وانما يقدر على ذلك

الله ولو ان مافي الارض الآية أخرجه ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم قال أبو عبيدة المراد بالبحر هنا الماء العذب الذي ينبت الاقلام وأما الماء الملح فلا ينبتها قال الشوكاني ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه (ان الله عزيز حكيم) أي غالب لا يعجزه شئ ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من افراد مخلوقاته (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس) أي كخلق نفس (واحدة) وبعثها لانه بكلمة كن فيكون قال النحاس هكذا قدره النحويون بمعنى الا كخلق نفس كقوله واسأل القرية قال الزجاج أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة أي سواء في قدرته القليل والكثير فلا يشغله شان عن شان (ان الله سميع) لكل مايسمع (بصير) لكل مايبصر (ألم تر) الخطاب لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم (أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي يدخل كل واحد منهما في الآخر فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر وقد تقدم تفسيره في سورة الحج والانعام (وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وتتميما للمنافع والاختلاف بينهما في الصيغة لما ان ايلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين وأما تسخير النيرين فأمر لاتعدد فيه وانما التعدد والتجدد في آثاره (كل) منهما (يجري الى أجل مسمى) قيل هو يوم القيامة وقيل وقت الطلوع ووقت الافول وقيل الشمس الى آخر السنة والقمر الى آخر الشهر والاول اولى وقال هنا بلفظ الى وفي فاطر والزمر بلفظ اللام لان ماهنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ماينتهي اليه الخلق وهما قوله ماخلقكم الآية وقوله اتقوا ربكم واخشوا يوما الآية فناسب ذكر الى الدالة على الانتهاء ومافي فاطر والزمر خال عن ذلك اذ مافي فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ومافي الزمر ذكر مع ابتدائه فناسب ذكر اللام والمعنى يجري كل كما ذكر لبلوغ أجل قاله الكرخي (وأن الله بما تعملون خبير) لا تخفى عليه خافية لان من قدر على مثل هذه الامور العظيمة فقدرته على العلم بما يعملونه بالاولى وهو عطف على ان الله يولج الخ داخل معه في حيز الرؤية (ذلك) أي ماتقدم ذكره من الآيات الكريمة المشتملة على سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها (بان الله) أي بسبب انه سبحانه (هو الحق) الثابت ألوهيته أو فعل ذلك ليعلموا انه الحق وهو المستحق للعبادة (وأن مايدعون من دونه الباطل)

الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ماسواه من الاصنام والانداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى في الآية الاخرى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله أي هم معترفون بانه الفاعل لجميع ذلك وحده لاشريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون انه لا يخلق ولا يرزق وانما يستحق ان يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ولهذا قال تعالى أإله مع الله أي أإله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضا انه الخالق الرازق ومن المفسرين من يقول معنى قوله أإله مع الله فعل هذا وهو يرجع الى معنى الاول لان تقدير الجواب انهم يقولون ليس ثم احد فعل هذا معه بل هو المتفرد به فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير كما قال تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق الآية وقوله تعالى ههنا امن خلق السموات والارض أمن في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الاشياء كمن لا يقدر على شئ منها هذا معنى السياق وان لم يذكر الآخر لان في قوة الكلام مايرشد الى ذلك وقد قال الله تعالى آلله خير أم مايشركون ثم قال في الآية الاخرى بل هم قوم يعدلون أي يجعلون لله عدلا ونظيرا وهكذا قال تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه اى أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ولهذا قال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله الآية وقال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي أمن هو شهيد على افعال الخلق حركاتهم

وسنتهم بعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لايعلم ولايسمع ولايبصر من هذه الاصنام التي عبدوها من دون الله ولهذا قال تعالى
يعلمون ايان يبعثون الآية كما قال هودهم وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها
رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون) يقول تعالى أمن جعل الارض قرارا أي قارة ساكنة ثابتة
لاتميد ولاتتحرك باهلها ولاترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهادا بساطا
ثابتة لاتتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الاخرى الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء
وجعل خلالها أنهارا أي جعل فيها
الانهار العذبة الطيبة شقها في
خلالها وصرفها فيها مابين انهار
كبار وصغار وبين ذلك وسيرها
شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب
مصالح عباده في أقاليمهم واقطارهم
حيث ذرأهم في ارجاء الارض سير
لهم ارزاقهم بحسب مايحتاجون
اليه وجعل لها رواسي أي جبالا
شامخة ترسي الارض وتثبتها لئلا
تميد بكم وجعل بين البحرين حاجزا
أي جعل بين المياه العذبة والمالحة
حاجزا أي مانعا يمنعها من الاختلاط
لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا فان
الحكمة الالهية تقتضي بقاء كل
منهما على صفته المقصودة منه فان
البحر الحلو هو هذه الانهار السارحة
الجارية بين الناس والمقصود منها
ان تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان
والنبات والثمار منها والبحار المالحة
هي المحيطة بالارجاء والاقطار من
كل جانب والمقصود منها ان يكون
ماؤها ملحا اجاجا لئلا تفسد
الهواء بريحها كما قال تعالى وهو
الذي مرج البحرين هذا عذب
فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما
برزخا وحجرا محجورا ولهذا قال تعالى أإله مع الله أي فعل هذا أو يعبد على القول الاول والآخر وكلاهما
متلازم صحيح بل أكثرهم لايعلمون أي في عبادتهم غيره (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع
الله قليلا ماتذكرون) ينبه تعالى انه المدعو عند الشدائد المرجو عند النوازل كما قال تعالى واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون
الا اياه وقال تعالى ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون وهكذا قال ههنا امن يجيب المضطر اذا دعاه أي من هو الذي لايلجأ المضطر الا
اليه والذي لايكشف ضر المضرورين سواه قال الامام أحمد أنبأنا عفان أنبأنا وهيب أنبأنا خالد الحذاء عن أبي تميمة الهجيمي عن

لايستحق العبادة قال مجاهد الذي يدعون من دونه هو الشيطان وقيل ماأشركوا به من
صنم أو غيره وهذا أولى (وأن الله هو العلي الكبير) أي ان ذلك الصنع البديع الذي وصفه
في الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله وبطلان ماسواه وعلوه وكبريائه على
الخلق له الصفات العليا والاسماء الحسنى وهو على الذات سمي الصفات كبير الشان جليل
القدر رفيع الذكر مطاع الامر جلي البرهان ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته وغاية
حكمته وشمول انعامه نوعا آخر فقال (ألم تر أن الفلك) أي السفن والمراكب (تجري في
البحر بنعمة الله) أي بلطفه بكم ورحمته لكم او بالريح لانها من نعم الله تعالى وذلك من
اعظم نعمه عليكم لانها تخلصكم من الغرق عند اسفاركم في البحر لطلب الرزق وقرئ
بنعمات الله جمع نعمة والباء للصلة او للحال (ليريكم من آياته) من للتبعيض اي بعض آياته
قال يحيى بن سلام وهو جري السفن في البحر بالريح وقال ابن شجرة المراد بقوله من آياته
مايشاهدونه من قدرة الله تعالى قال النقاش مايرزقهم الله من البحر (ان في ذلك لآيات
لكل صبار شكور) هذه الجملة تعليل لما قبلها اي ان فيما ذكر لآيات عظيمة وعبرا فخيمة
لكل من له صبر بليغ وشكر كثير يصبر عن معاصي الله ويشكر نعمه وهما صفتا المؤمن
فالايمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر فكأنه قال ان في ذلك لآيات لكل مؤمن حيث
يبعث نفسه في التفكر في عدم غرقه وفي سيره الى البلاد الشاسعة والاقطار البعيدة وفي
كون سيره ذهابا وايابا بريحين وتارة بريح واحدة وفي انجائه نوحا عليه السلام ومن
اراد الله تعالى من خلقه واغراق غيرهم من جميع اهل الارض وفي غير ذلك من شؤونه
واموره وافعاله وصنائعه (واذا غشيهم موج كالظلل) اي كالجبال التي تظل من تحتها شبه
الموج لكبره بما يظل الانسان من جبل او سحاب او غيرهما واغا شبه الموج وهو واحد
بالظلل وهي جمع لان الموج يأتي شيأ بعد شيء ويركب بعضه بعضا وقيل ان الموج في معنى
الجمع لانه مصدر واصل الموج الحركة والازدحام ومنه يقال ماج البحر وماج الناس
وقرئ كالظلال جمع ظل (دعوا الله) وحده (مخلصين له الدين) أي لايعولون على غيره في
خلاصهم لانهم يعلمون انه لايضر ولا ينفع سواه ولكنه يغلب على طبائعهم العادات
وتقليد الاموات فاذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله تعالى واخلصوا
دينهم له طلبا للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه لزوال ماينازع الفطرة الايمانية

من الهوى والتقليد بما دهاهم من الشدائد (فلما نجاهم الى البر) صاروا قسمين (فمنهم مقتصد) أي فقسم مقتصد أي عدل موف في البر بما عاهد عليه الله في البحر من اخلاص الدين له باق على ذلك بعد ان نجاه الله من هول البحر وأخرجه الى البر سالما قال الحسن معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة وقال مجاهد مقتصد في القول مضمر للكفر وقال الرازي المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات والظالم لنفسه وهو الذي تساوت سيآته وحسناته وقيل متوسط بين الكفر والايمان لانه انزجر بعض الانزجار ومنهم باق على كفره لان بعضهم كان أشد قولا وأعلى افتراء من بعض والاولى ما ذكرناه قيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك انه هرب عام الفتح الى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن نجانا الله من هذا لارجعن الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولاضعن يده في يدي فسكنت الريح ورجع عكرمة الى مكة وحسن اسلامه وفي الكلام حذف والتقدير فمنهم مقتصد ومنهم كافر لم يوف بما عاهد ويدل على هذا المحذوف قوله (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لانه نقض العهد الفطري ورفض ما كان عليه في البحر وهذا في مقابلة صبار كما ان كفور في مقابلة شكور والختر أسوأ الغدر وأقبحه قال الجوهري الختر الغدر يقال ختره فهو ختار أي غدار قال الماوردي وهذا قول الجمهور وقال ابن عطية انه الجاحد وجحد الآيات انكارها والكفور عظيم الكفر بنعم الله سبحانه قال ابن عباس ختار جحاد (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي) أي لا يغني ولا يقضي (والد عن ولده) شيأ ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه وقد تقدم بيان معناه في البقرة (ولا مولود هو) مبتدأ ثان خبره (جاز عن والده شيأ) والجملة خبر مولود وجاز الابتداء به وهو نكرة لانه في سياق النفي ثم الخبر مع المبتدا كلام وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لان الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم الى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في ذلك ان الخطاب للمؤمنين فأريد حسم أطماعهم ان ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة ومعنى التأكيد في لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للاب الادنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا ان يشفع لاجداده اذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فانه لمن ولد منك كذا في الكشاف وبالجملة فقد ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات وهما الوالد والولد وهما الغاية في الحنو

رجل من بلهجيم قال قلت يارسول الله الام تدعو قال أدعو الى الله وحده الذي ان مسك ضر فدعوته كشف عنك والذي ان أضللت بارض قفر فدعوته رد عليك والذي ان أصابتك سنة فدعوته أنبت لك قال قلت أوصني قال لاتسبن أحدا ولا تزهدن في المعروف ولو ان تلقى أخاك وأنت منبسط اليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك في اناء المستقي واتزر الى نصف الساق فان أبيت فالى الكعبين واياك واسبال الازار فان اسبال الازار من المخيلة وان الله لا يحب المخيلة وقد رواه الامام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابي فقال حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمي عن أبيه عن أبي تميمة الهجيمي عن جابر بن سليم الهجيمي قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه فقلت أيكم محمد رسول الله فأومأ بيده الى نفسه فقلت يارسول الله أنا من أهل البادية وفي جفاؤهم فأوصني قال لا تحقرن من المعروف شيأ ولو ان تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في اناء المستقي وان امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فانه يكون لك أجره وعليه وزره واياك واسبال الازار فان اسبال الازار من المخيلة وان الله لا يحب المخيلة ولا تسبن أحدا قال فما سببت بعده أحدا ولا شاة ولا بعيرا وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرفا وعندهما طرف صالح منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن هشام حدثنا عبدة بن نوح عن عمر بن الحجاج عن عبيد الله بن أبي صالح قال دخل علي طاوس يعودني فقلت له ادع الله لي (٣) يا أبا عبد الرحمن فقال ادع لنفسك فانه يجيب المضطر اذا دعاه وقال وهب بن منبه قرأت في الكتاب الاول ان الله تعالى يقول بعزتي انه من اعتصم بي فان كادته السموات بمن فيهن والارض بمن فيهن فاني اجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بي فاني أخسف به من تحت قدميه الارض فاجعله في الهواء فاكله الى نفسه وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل كنت أكاري على بغل لي من دمشق الى بلد الزبداني فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لي خذ في هذه فانها أقرب فقلت لا خبرة لي فيها فقال بل هي أقرب فسلكناها فانتهينا الى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لي

(٣) قوله ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن فقال ادع الخ في نسخة ادع الله لي قال يا أبا عبد الرحمن ادع الخ وحرر اه مصححه

أسند رأسي لعلي حتى انزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينا معه وقصد في فقربت من بين يديه ثم نعني فناشدته الله وقلت
حدا نعل ما عليه فقال دونك وما نزل ثم قال تعوذت بالله والعقوبة قبل يسل فاستسلمت بين يديه وقلت ان رأيت ان تتركني حتى
أصلي ركعتين فقال ويحك فقمت تصلي فأرت الى آخر الى فلم حضرني من حرف واحد فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول هيه افرغ
فأجرى الله لي لساني قوله تعالى أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء فاذا انا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة
فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت فقال انا رسول الذي يجيب
المضطر اذا دعاه ويكشف السوء
قال فأخذت البغل والحمل ورجعت
سالما وذكرت في ترجمة فاطمة بنت
الحسين ثم أحد الخلفاء قالت حرم
الكفار دما المسلمين في عزاة ونب
بجوار جد ساحبه وكان من سرى
السارون السلطان فقال للجواد
ما الذي يلك انما كنت اعدك لمثل
هذا اليوم فقلت له الجواد وقال
لاقصر وأنت تكل العلوفة الى
السواس فيظلمون ولا يطعمون
الا القليل فقال لك على عهد الله
اني لا اعلفك بعد هذا اليوم الا في
حجري فجرى الجواد عند ذلك ونجى
صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك
الا في حجره واشتهر أمره بين الناس
وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك
وبلغ ملك الروم امره فقال ما تضام
بلدة يكون هذا الرجل فيها واحتال
ليحصل في بلده فبعث اليه رجلا من
المرتدين عنده فلما انتهى اليه
اظهر له انه قد حسنت نيته في
الاسلام وقومه حتى استوثق ثم
خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل
وقد وعده شخصا آخر من جهة ملك
الروم ليتساعدا على أسره فلما
اكتنفاه ليأخذاه رفع طرفه الى السماء وقال اللهم انه انما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت قال فخرج السادس
سبعان فأخذاهما ورجع الرجل سالما وقوله تعالى ويجعلكم خلفاء الارض أي يخلف قرنا بعد القرن قبلهم وخلفا لسلف كما قال
تعالى ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين وقال تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الارض
ورفع بعضكم فوق بعض درجات وقال تعالى واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضا كما
قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية ويجعلكم خلفاء الارض أي أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل وقوما بعد قوم ولو شاء لأوجدهم كلهم

واحدة والشفقة على بعضهم لبعض فاعما اخص القرابات لا يجزي بالاولى فما بعد
لا جاب ومنه تصانا لاعني عن الابن وبالادني على ابنه على قال الجزري عن والد في
ليس لكل شفقته عليه والا يجزي عن ولد لما له عليه من حق التربية وغيرها فاذا
كان يوم القيامة فكل انسان يقول نفسي نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد وقال ابن
عباس كل امرئ تهمه نفسه اليوم اخلعاني لا يرحم سوالك ولا تعول على غيرك (ان
وعد الله) بالبعث (حق) لا يتخلف فما وعد به من الخير وأوعد به من الشر فهو كائن لا محالة
(فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وزخارفها عن الاسلام فانها زائلة ذاهبة فانية (ولا يغرنكم
بالله) بحلمه وامهاله (الغرور) بفتح الغين أي الدنيا أو الامل بأن يرجيكم التوبة والمغفرة
فيجرئكم على المعاصي وقال ابن عباس الغرور هو الشيطان وكذا قال مجاهد وعكرمة
وقتادة لان من شأنه أن يغر الخلق ويمنيهم الاماني الباطلة ويلهيهم عن الآخرة ويصدهم
عن طريق الحق وقال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصي ويتمنى المغفرة وقرئ بضم الغين
مصدر غره يغره غرورا ويجوز أن يكون مصدرا واقعا وصفا للشيطان على المبالغة (ان الله
عنده علم الساعة) أي علم وقتها الذي تقوم فيه قال الفراء ان معنى هذا الكلام النفي أي
ما يعلمه الا الله عز وجل قال النحاس وانما صار فيه معنى النفي لما ورد عن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم أنه قال في قوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو انها هذه أخرج
البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيح
الغيب خمس لا يعلمهن الا الله لا يعلم ما في غد الا الله ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا ما في
الارحام الا الله ولا متى ينزل الغيث الا الله وما تدري نفس بأي أرض تموت الا الله وفي
الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة في حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بشراطها
ثم قال في خمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا هذه الآية أي لا يدري أحد متى تقوم الساعة في
أي سنة أو أي شهر أو أي يوم أو أي ساعة ليلا أو نهارا وفي الباب أحاديث وعن مجاهد قال
جاء رجل من اهل البادية فقال ان امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني
متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت فأنزل الله ان الله عنده علم
الساعة الآية وعن عكرمة نحوه وزاد وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا
وزاد أيضا انه سأل عن قيام الساعة وقيل نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة من أهل

في وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولو شاء ان يجعلهم ذرية بعضهم من بعض ولكن لا يميت أحدا حتى يكون وفاة الجميع في وقت واحد فكانت تضيق عنهم الارض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الارض ويجعلهم قرونا بعد قرون وامما بعد امم حتى ينقضي الاجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عدا ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله اذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى (٢٢٧) أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله أي يقدر على ذلك أو إله مع الله يعبد وقد علم ان الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له قليلا ما تذكرون أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم الى الحق ويهديهم الى الصراط المستقيم (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) يقول تعالى أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر أي بما خلق من الدلائل السماوية والارضية كما قال تعالى وعلامات وبالنجم هم يهتدون وقال تعالى وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر الآية ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الازلين القنطين أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى في الآية الاخرى ان بطش ربك لشديد انه هو يبدئ ويعيد وقال تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ومن يرزقكم من السماء والارض أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الارض كما قال تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع وقال تعالى يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركا فيسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والازاهير وغير ذلك من ألوان شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى ولهذا قال تعالى أإله مع الله أي فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا قل هاتوا برهانكم على

البادية (وينزل الغيث) في الاوقات والامكنة التي جعلها معينة لانزاله ولا يعلم ذلك غيره قرئ من التنزيل والانزال (ويعلم ما في الارحام) من الذكور والاناث والصلاح والفساد (وما تدري نفس) من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والانبياء والجن والانس (ماذا تكسب غدا) من كسب دين أو كسب دنيا خيرا أو شرا (وما تدري نفس بأي أرض تموت) وقرئ بأية أرض وجوز ذلك الفراء وهي لغة ضعيفة قال الاخفش يجوز ان يقال مررت بجارية أي جارية والمعنى ولا تعلم نفس بأي مكان يقضي الله عليها بالموت من الارض في بر أو بحر في سهل أو جبل وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا ابرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها روي ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت قال كانه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري اليه تعجبا منه لاني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك ذكره النسفي في المدارك ورأى المنصور في منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمس أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة هو اشارة الى هذه الآية فان هذه العلوم الخمسة لا يعلمها الا الله قال الكرخي أضاف في الآية العلم الى نفسه في الثلاثة من الخمسة المذكورة ونفى العلم عن العباد في الاخيرتين منها مع ان الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها لان الثلاثة الاولى أمرها أعظم وأفخم فخصت بالاضافة اليه تعالى والاخيرتان من صفات العباد فخصتا بالاضافة اليهم مع انه اذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الخمسة أولى (ان الله عليم) بهذه الاشياء وبغيرها من الغيوب (خبير) بما كان وبما يكون وببواطن الاشياء كظواهرها ليس علمه محيطا بالظاهر فقط قال ابن عباس هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل فمن ادعى انه يعلم شيأ من هذه فانه كفر بالقرآن وعن الزهري أكثروا اقراءة سورة لقمان فان فيها أعاجيب والله أعلم وفيه رد على المنجم والكاهن اللذين يخبران بوقت الغيث والموت وغيرهما

(سورة السجدة آياتها تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية)

على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى إن كنتم صادقين في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول معلما لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله وقوله تعالى إلا الله استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو الآية وقال تعالى إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث إلى آخر السورة والآيات في هذا كثيرة وقوله تعالى وما يشعرون أيان يبعثون أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو جعفر الرازي عن داود ابن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت من زعم أنه يعلم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وقال قتادة إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات جعلها زينة للسماء وجعلها يهتدى بها وجعلها رجوما للشياطين فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به وإن أناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ومن سافر بنجم كذا وأبدع وكذا كان كذا وكذا ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه وهو كلام جليل متين صحيح وقوله بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها وقرأ آخرون بل أدرك علمهم أي تساوى علمهم في ذلك كما في الصحيح

سبأ على الاختلاف في أن آخر الآية إلى خلق جديد أو هم كافرون فعلى الأول تكون ثلاثين وعلى الثاني تكون تسعا وعشرين وهي مكية قاله ابن عباس وابن الزبير وأخرج البخاري عنه هي مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة أفمن كان مؤمنا إلى تمام الآيات الثلاث وكذا قال الكلبي ومقاتل وقيل إلا خمس آيات من قوله تتجافى جنوبهم إلى قوله الذي كنتم به تكذبون وقد ثبت عند مسلم وأهل السنن من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بالم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم عن جابر قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك وقد وردت في فضائل هذه السورة أحاديث

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة في البقرة وفي مواضع كثيرة من فواتح السور والله أعلم بمراده به (تنزيل الكتاب) فيه أوجه جمة ذكرها السمين (لا ريب فيه) أي لا شك في أنه (من رب العالمين) وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين (أم يقولون) أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أيقولون فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ (افتراه) أي افتعله واختلقه من تلقاء نفسه ثم أضرب عن معتقدهم هذا إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب فقال (بل) إضراب إبطال لنفس افترائه وحده وعلى هذا كل ما في القرآن إضراب فهو انتقال إلا هذا فإنه يجوز أن يكون إبطالا لأنه إبطال لقولهم أي ليس هو كما قالوا بل (هو الحق من ربك) فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها فقال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول وقيل قريش خاصة والتقدير لتنذر قوما العقاب وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة أي العقاب الذي أتاهم وهو ضعيف جدا فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به وقيل المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم (لعلهم يهتدون) أي كي يهتدوا أو رجاء أن يهتدوا والترجي معتبر من جهته عليه السلام (الله الذي خلق) أي أوجد

لمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة ما المسؤل عنها بأعلم من السائل أى تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤل والسائل قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس بل ادارك علمهم فى الآخرة أى غاب وقال قتادة بل ادارك علمهم فى الآخرة يعنى بجهلهم بربهم يقول لم ينفذ لهم علم فى الآخرة هذا قول وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس بل ادارك علمهم فى الآخرة حين لم ينفع العلم وبه قال عطاء الخراسانى والسدى ان علمهم انما يدرك و يكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وقال سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن انه كان يقرأ بل أدرك علمهم قال اضمحل علمهم فى الدنيا حين عاينوا الآخرة وقوله تعالى بل هم فى شك منها عائد على الجنس والمراد الكافرون كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا أى الكافرون منكم وهكذا قال ههنا بل هم فى شك منها أى شاكون فى وجودها ووقوعها بل هم منها عمون أى فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) يقول تعالى مخبرا عن منكرى البعث من المشركين انهم استبعدوا اعادة الاجساد بعد صيرورتها عظاما ورفاتا وترابا ثم قال لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل أى ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعا وقولهم ان هذا الا أساطير الاولين يعنون ما هذا الوعد باعادة الابدان الا أساطير الاولين أى أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعضهم عن بعض وليس له حقيقة قال الله تعالى مجيبا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد قل يا محمد لهؤلاء سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين أى المكذبين بالرسل وبما جاؤهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ثم قال تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تحزن عليهم أى المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات

وأبدع (السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) على التوزيع كما يأتى فى سورة فصلت وقد تقدم تفسير هذه الآية فى الاعراف وغيرها والمراد من ذكرها هنا تعريفهم كمال قدرته وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه قال الحسن الايام هنا هى من أيام الدنيا وقيل مقدار اليوم ألف سنة من سنى الدنيا قاله الضحاك فعلى هذا المراد بالايام هنا هى من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا وليست ثم للترتيب فى قوله (ثم استوى على العرش) بل بمعنى الواو والعرش فى اللغة سرير الملك والمراد به هنا الجسم النورانى المحيط بالعالم كله وهذا الاستواء فى سبع مواضع من القرآن الكريم والاصل الراجح ان نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر فى أن الله تعالى فوق العرش بائن من خلقه بالمعنى الذى يليق بجنابه الاقدس الاعلى وتأويله اخراج النص أو الظاهر عن معناه وهذا لا يجوز قطعا الا عند وجود ما يساويه أو يتقدم عليه ويعارضه ودونه خرط القتاد وقد اختلف الناس فى هذا على أربعة عشر قولا أولاها بالصواب مذهب سلف الامة وأئمتها انه استوى عليه بلا كيف مع تنزيهه عما لا يجوز عليه والآيات الصريحة والاحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة جدا وهى تغنى عن غيرها وردت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه وتبعها المعتزلة ورد عليهم الحافظ ابن القيم فى اعلام الموقعين بثمانية عشر وجها يطول ذكرها وقد جمع أهل العلم فيها سيما أهل القرآن وأصحاب الحديث مباحث بل رسائل بل كتبا طولوها بذكر الادلة النقلية بل العقلية والمسئلة أوضح من ان تلتبس على عارف وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل ولكن لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل بين بعض الطوائف الاسلامية الحق الصراح فيها وأطال سيما الحنابلة وأهل الحديث فانهم فى ذلك الفتن الكبرى والملاحم العظمى وما زالوا هكذا فى عصر بعد عصر الى يومنا هذا والحق ما عرفناك من مذهب السلف الصالح فالاستواء على العرش وكونه تعالى فوق الخلق عاليا عليهم قد نطق به القرآن الكريم فى مواطن يكثر حصرها ويطول نشرها وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غير حديث بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس فى نفسه ويحسه فى فطرته وتجذبه اليه طبيعته كما تراه فى كل من استغاث بالله سبحانه والتجأ اليه ووجه دعاءه الى جنابه الرفيع وعزه المنيع فانه يشير عند ذلك بكفه أو يومى بطرفه يستوى فى ذلك عند عروض أسباب

• ضيق مما يمكرون أي في حرج من مكرهم فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) يقول تعالى مخبرا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قال الله تعالى مجيبا لهم قل يا محمد عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون

قال ابن عباس أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي وهذا هو المراد قوله تعالى ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا وقال تعالى يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين وإنما دخلت اللام في قوله ردف لكم لأنه ضمن معنى عجل لكم كما قال مجاهد في رواية عنه عسى أن يكون ردف لكم عجل لكم ثم قال الله تعالى وإن ربك لذو فضل على الناس أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر سواء منكم من أسر القول ومن جهر به يعلم السر وأخفى ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى وما من غائبة قال ابن عباس يعني وما من شيء في السماء والأرض إلا في كتاب مبين وهذه كقوله ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل أكثر الذي هم

الأدعية وحدوث بواعث الاستغاثة ووجود مقتضيات الإزعاج وظهور دواعي الالتجاء عالم الناس وجاهلهم وباديهم وحاضرهم والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل من الخلف فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والاستقرار والكون في الفوق ثابت على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل والمؤول عن هذه الطريقة متعد بالسلف ولا واقف في طريق النجاة ولا معصوم عن الخطأ ولا سالك في جادة السلامة والاستقامة قال في حجة الله البالغة واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة وقالوا هم المتسترون بالبلكفة وقد وضح على وضوحا بينا أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى انتهى (ما لكم من دونه) أي ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه (من ولي) يواليكم ويرد عنكم عذابه (ولا شفيع) يشفع لكم عنده (أفلا تتذكرون) تذكر تدبر وتفكر وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل حتى تنتفعوا بها وتؤمنوا ولما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بين تدبيره للأمر فيها فقال (يدبر) أي يحكم (الأمر) بقضائه وقدره (من السماء إلى الأرض) إلى أن تقوم الساعة والمعنى ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولا وطلوعا ألف سنة من أيام الدنيا وقيل المراد بالأمر المأمور به من الأعمال أي ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض وقيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض وقيل ينزل الوحي مع جبريل وقيل العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات وما دون السموات موضع التصرف قال تعالى ولقد صرفناه بينهم ليذكروا وقال ابن عباس يدبر الأمر شأنها في الدنيا أي شأنها وحالها والأمور التي تقع فيها والمراد تدبير أمرها القضاء السابق الذي هو الإرادة الأزلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال (ثم يعرج) قرأ الجمهور على البناء للفاعل وقرئ على البناء للمفعول والأصل يعرج به أي يرجع ذلك الأمر ويعود ذلك التدبير والتصرف

فيه يختلفون كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى - ر الخ فالقرآن بالقول الوسط الحق العدل انه عبد من عباد الله وانبيائه ورسله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون وقوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين أى هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات ثم قال تعالى ان ربك يقضى بينهم أى يوم القيامة بحكمه وهو العزيز أى فى انتقامه العليم بافعال عباده وأقوالهم فتوكل على الله أى فى جميع أمورك وبلغ رسالة ربك انك على الحق المبين أى أنت على الحق المبين وان خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك انهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ولهذا قال تعالى انك لا تسمع الموتى أى لا تسمعهم شيأ ينفعهم فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم وقر الكفر ولهذا قال ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الامن يؤمن بآياتنا فهم مسلمون أى انما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الارض قيل من مكة وقيل من غيرها كما سيأتى تفصيله ان شاء الله تعالى فتكلم الناس على ذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه تكلمهم كلاما أى تخاطبهم مخاطبة وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويروى هذا عن على واختاره ابن جرير وفى هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم وقال ابن عباس فى رواية تجرحهم وعنه رواية قال كلا تفعل يعنى هذا وهذا وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن فرات عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال وثلاثة خسوف

فى المخلوقات بالحشر والحساب ووزن الاعمال والتعذيب والتنعيم وغير ذلك مما يتعرف ذلك اليوم (اليه) سبحانه (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية على الغيبة أى تعدونه من أيام الدنيا وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الارض كما قدمنا وقيل ان المراد يعرج اليه فى يوم القيامة الذى مقداره كذا من أيام الدنيا وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها وقيل هى أخبار أهل الارض تصعد اليه مع من يرسله اليها من الملائكة والمعنى انه يثبت ذلك عنده ويكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الارض فى كل وقت من الاوقات الى ان تبلغ مدة الدنيا آخرها وقيل المعنى يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان هى مقدار ألف سنة والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم يعرج اليه فى زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملائكة ثم يعرج بعد الالف لالف آخر وقيل المراد ان الاعمال التى هى طاعات يدبرها الله سبحانه وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج منها اليه الا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده وقيل الضمير فى يعرج يعود الى الملك وان لم يجر له ذكر لانه مفهوم من السياق وقد جاء صريحا فى قوله تعرج الملائكة والروح اليه والضمير فى اليه راجع الى السماء على لغة من يذكرها أو الى مكان الملك الذى يرجع اليه وهو الذى أقره الله فيه وقيل المعنى يدبر أمر الشمس فى الطلوع والغروب ورجوعها الى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة وقيل المعنى ان الملك يعرج الى الله فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة فان ما بين السماء والارض مسافة خمسمائة عام فمسافة النزول من السماء الى الارض والرجوع من الارض الى السماء ألف عام وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير وقيل مسافة النزول ألف سنة ومسافة الطلوع ألف سنة روى ذلك عن الضحاك وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة وليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدة النهار بين ليلتين والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر

يومان يوم مقامات وأندية * ويوم سير الى الاعداء تأديب

فان الشاعر لم يرد يومين مخصوصين وانما أراد ان زمانهم ينقسم شطرين فعبر عن كل

خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة مرفوعا وقال الترمذي حسن صحيح ورواه مسلم أيضا من حديث عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عنه موقوفا فالله أعلم (طريق أخرى) قال أبو داود الطيالسي عن طلحة بن عمرو وجرير بن حازم فأما طلحة فقال أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي ان أبا الطفيل حدثه عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة وأما جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود وحديث طلحة أتم وأحسن قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم الا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعا وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا انهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الارض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى ان الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الاموال ويصطحبون في الامصار يعرف المؤمن من الكافر حتى ان المؤمن ليقول يا كافر اقضني حقي وحتى ان الكافر ليقول يا مؤمن اقضني حقي ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفا والله أعلم ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعا وان ذلك في زمان عيسى بن مريم وهو يطوف بالبيت ولكن اسناده لا يصح (حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله ابن عمرو قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا (حديث

واحد من الشطرين يوم وعن ابن عباس في الآية قال من الايام الستة التي خلق الله فيها السموات والارض وعنه قال لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد فينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ولو كان الى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة وعنه قال في يوم من أيامكم هذه ومسيرة ما بين السماء والارض خمسمائة عام وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقيل في الجواب ان يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة والعرب تصف كثيرا يوم الكريهة بالطول كما تصف يوم السرور بالقصر وقيل ان يوم القيامة فيه أيام فمنها ما مقداره ألف سنة ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة وقيل هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ثم ينقل الى نوع آخر فيعذب خمسين ألف سنة وقيل مواقف القيامة خمسون موقفا كل موقف ألف سنة فيكون معنى يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة أنه يعرج اليه في وقت من تلك الاوقات أو موقف من تلك المواقف وعن مجاهد وقتادة والضحاك انه أراد سبحانه في قوله تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة المسافة من الارض الى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل والمراد انه يسير جبريل ومن معه من الملائكة في ذلك المقام الى الارض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا وأراد بقوله في يوم كان مقداره ألف سنة المسافة التي بين الارض وبين السماء الدنيا هبوطا وصعودا فانها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا وقيل ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله في يوم كان مقداره ألف سنة يعني يدبر الامر في زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون الشهر منه وكم تكون السنة منه وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة وقيل غير ذلك وقد وقف حبر الامة ابن عباس لما سئل عن الآيتين وقال هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم وقال ابن المسيب للسائل هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني والاشارة بقوله (ذلك) الى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الاوصاف أي ذلك الخالق المدبر (عالم

آخر) وروى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها ... الدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة تفرد به مسلم من حديث قتادة عن الحسن عن زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال ستا الدجال والدخان ودابة الارض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحرث (٢٣٢) وابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة والدجال وخويصة أحدكم وأمر العامة تفرد به (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج دابة الارض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتخطم انف الكافر بالعصا وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر ورواه الامام أحمد عن بهز وعفان ويزيد بن هرون ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به وقال فتخطم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى ان أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر ورواه ابن ماجه عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن حماد بن سلمة به (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو حدثنا أبو تميلة حدثنا خالد بن عبيد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضع بالبادية قريب من مكة فاذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج الدابة من هذا الموضع فاذا فتر في شبر قال ابن بريدة فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصا له فاذا هو بعصاي هذه كذا وكذا وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ان ابن عباس قال هي دابة ذات زغب لها اربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية قال قال عبد الله تخرج الدابة من صدع من الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها

(الغيب والشهادة) أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم وفي هذا معنى التهديد لانه سبحانه اذا علم بما يغيب وما يحضر فهو مجاز لكل عامل بعمله أو فهو يدبر الامر بما تقتضيه حكمته (العزيز) القاهر الغالب (الرحيم) بعباده (الذي أحسن كل شئ خلقه) قرئ بفتح اللام وباسكانها فعلى الاولى خلقه فعل ماض نعتا للشئ وعلى الثانية ففي نصبه أوجه الاول ان يكون بدلا من كل شئ بدل اشتمال والضمير عائد الى كل شئ وهذا هو الوجه المشهور وعند النحاة الثاني انه بدل كل من كل والضمير راجع الى الله سبحانه ومعنى أحسن حسن لانه ما من شئ الا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة فكل المخلوقات حسنة الثالث أن يكون كل شئ هو المفعول الاول وخلقه هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى أعطى والمعنى أعطى كل شئ خلقه الذي خصه به وقيل على تضمينه معنى ألهم قال الفراء ألهم خلقه كل شئ يحتاجون اليه الرابع انه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي خلقه خلقا كقوله صنع الله وهذا قول سيبويه والضمير يعود الى الله سبحانه والخامس انه منصوب بنزع الخافض والمعنى أحسن كل شئ في خلقه ومعنى الآية انه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته فبعض المخلوقات وان لم تكن حسنة في نفسها فهي متقنة محكمة فيكون هذه الآية معناها معنى أعطى كل شئ خلقه أي لم يخلق الانسان على خلق البهيمة ولا خلق البهيمة على خلق الانسان وقيل هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى أي أحسن خلق كل شئ حسن وقال ابن عباس أما رأيت القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها وعنه في الآية قال أما ان است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها وقال خلقه صورته وقال أحسن كل شئ القبيح والحسن والعقارب والحيات وكل شئ مما خلق وغيره لا يحسن شيأ من ذلك وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذ لقينا عمرو بن زرارة الانصاري في حلة قد أسبل فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بناحية ثوبه فقال يا رسول الله اني أحمش الساقين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عمرو بن زرارة ان الله عز وجل قد أحسن كل شئ يا عمرو ان الله لا يحب المسبلين وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال أبصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلا قد أسبل ازاره فقال ارفع ازارك فقال يا رسول الله اني أحنف تصطك ركبتاي فقال ارفع ازارك كل خلق الله حسن (وبدأ خلق الانسان) يعني آدم خلقه

(من طين) فصار على صورة بديعة وشكل بديع حسن (ثم جعل نسله) أي ذريته (من سلالة) أي نطفة سميت الذرية سلالة لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين والمذكور هنا صفة ذرية آدم والمذكور ثم صفة آدم (من ماء مهين) أي ممتهن لا خطر له عند الناس وهو المني وقال الزجاج من ماء ضعيف (ثم سواه) أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين وهو آدم أو جميع النوع والمراد أنه عدل خلقه وسوى شكله وقومه وناسب بين أعضائه على ما ينبغي كقوله في أحسن تقويم (ونفخ فيه من روحه) أي جعله حيا حساسا بعد أن كان جمادا والإضافة للتشريف والتكريم وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع وقيل للتخصيص أي نفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه والأول أولى ثم خاطب جميع النوع فقال (وجعل لكم) وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ولم يخاطبهم قبل ذلك لأن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه بعد ذلك وقال وجعل لكم (السمع) أي الأسماع (والأبصار والأفئدة) أي القلوب تكميلا لنعمته عليكم وتتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم هذه النعم فتسمعون كل مسموع وتبصرون كل مبصر وتعقلون كل متعقل وتفهمون كل ما يفهم وأفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل والكثير وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم ولهذا جمعا لأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الأذن ولا اختيار لها فيه فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض بخلاف الأبصار فمحلها العين وله فيه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه فيتعقل هذا دون هذا ويفهم هذا دون هذا (قليلا ما) أي شكرا قليلا أو زمانا قليلا (تشكرون) وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة إيذانا بأن ما ذكر من عدم شكرهم لتلك النعم موجب للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم (أئذا ضللنا في الأرض) الضلال الغيبوبة يقال ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره قد ضل قال قطرب المعنى غبنا في الأرض قرئ

وقال محمد بن إسحق عن أبان بن صالح قال سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم (١) أو لو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها قيل فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل ثم ماذا قال لا أعلم وعن عبد الله بن عمرو أنه قال تخرج الدابة ليلة جمع رواه ابن أبي حاتم وفي إسناده ابن البيلماني وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها وتضع الحبالى قبل التمام ويعود الماء العذب أجاجا ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون ويتعبون فيما لا ينالون ويعملون فيما لا يأكلون رواه ابن أبي حاتم عنه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول إن الدابة فيها من كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وقال ابن عباس هي مثل الحربة الضخمة وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال إنها دابة لها ريش وزغب وحافر وما لها ذنب ولها لحية وإنها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثلثها رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ثم تقول لهم الدابة يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار فذلك قول الله تعالى وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب

(١) قوله أو لو شئت بعصاي كذا بالنسخ بأيدينا وحرر الرواية اهـ

بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله الى بين يدي الله عزوجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا فقال تعالى ويوم نحشر من كل أمة فوجا أي من كل قوم وقرن فوجا أي جماعة ممن يكذب بآياتنا كما قال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وقال تعالى واذا النفوس زوجت وقوله تعالى فهم يوزعون قال ابن عباس رضي الله عنهما يدفعون وقال قتادة وزعة يرد أولهم على آخرهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يساقون حتى اذا جاؤا ووقفوا بين يدي الله عزوجل في مقام المساءلة قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون أي فيسئلون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون الآية وهكذا قال ههنا ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم وقد ردوا الى عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه خافية ثم قال تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاؤا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال تعالى ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب في نهارهم والنهار مبصرا أي منيرا مشرقا فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب والاسفار والتجارات وغير ذلك من شؤنهم التي يحتاجون اليها ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء انه خبير بما يفعلون من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون) يخبر تعالى عن هول يوم

ضللنا بفتح ضاد معجمة ولام مفتوحة بمعنى ذهبنا وضعنا وصرنا ترابا وغبنا عن الاعين بالدفن فيها وقرئ ضللنا بكسر اللام وهي لغة العالية من نجد قال الجوهري وأهل العالية يقولون ضللت بالكسر قال وأضله أي أضاعه وأهلكه يقال ضل الميت اذا دفن وقرئ صللنا بصاد مهملة ولام مفتوحة أي أنتنا وبها قرأ علي والحسن والاعمش وأبان بن سعيد قال النحاس ولا يعرف في اللغة صللنا ولكن يقال صل اللحم اذا أنتن قال الجوهري صل اللحم يصل بالكسر صلولا اذا أنتن مطبوخا كان أو نيئا والعامل في اذا محذوف تقديره نبعث أو نخرج لدلالة قوله (أئنا لفي خلق جديد) عليه أي نبعث ونصير أحياء والهمزة للاستنكار وهذا قول منكري البعث من الكفار فاضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بانكار البعث الى بيان ما هو أبلغ منه وهو كفرهم بلقاء الله فقال (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أي جاحدون له مكابرة وعنادا فان اعترافهم بانه المبدئ للخلق يستلزم اعترافهم بانه قادر على الاعادة ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يبين لهم الحق ويرد عليهم ما زعموه من الباطل فقال (قل يتوفاكم ملك الموت) يقال توفاه الله واستوفى روحه اذا قبضه اليه وملك الموت هو عزرائيل وقال ذلك هنا وقال في الانعام توفته رسلنا وفي الزمر الله يتوفى الانفس حين موتها ولا منافاة لان الله تعالى هو المتوفي حقيقة بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح وهم غير ملك الموت أعوان له ينزعونها من الاظافر الى الحلقوم فصحت الاضافات كلها والتفعيل والاستفعال يلتقيان في مواضع مثل تقضيته واستقضيته وتعجلته واستعجلته (الذي وكل بكم) أي بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم قيل ان ملك الموت يدعو الارواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر لذلك وهذا وجه الجمع بين الآيات كما تقدم (ثم الى ربكم ترجعون) أي تصيرون اليه تعالى أحياء بالبعث والنشور لا الى غيره فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر (ولو ترى) لو امتناعية وجوابه محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا وهولا هائلا لا يقادر قدره والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الزجاج والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبة لامته فالمعنى ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستعظامها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة

فيه الفزع في الصور وهو كما في الحديث قرن ينفخ فيه وهو في حديث الصور إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ
فيه أولا نفخة الفزع ويطولها وهي التي في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في
الأرض إلا من شاء الله وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري
حدثنا أبي حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي سمعت عبد الله بن عمرو رضي
الله عنه وجاءه رجل فقال ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال سبحان
الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما
لقد هممت أن لا أحدث أحدا
شيئا أبدا إنما قلت إنكم سترون بعد
قليل أمرا عظيما يحرق البيت
ويكون ويكون ثم قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يخرج
الدجال في أمتي فيمكث أربعين
لا أدري أربعين يوما أو أربعين
شهرا أو أربعين عاما فيبعث الله
عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود
فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس
سبع سنين ليس بين اثنين عداوة
ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل
الشام فلا يبقى على وجه الأرض
أحد في قلبه مثقال ذرة من خير
أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن
أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته
عليه حتى تقبضه قال سمعتها من
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فيبقى شرار الناس في خفة الطير
وأحلام السباع لا يعرفون معروفا
ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم
الشيطان فيقول ألا تستجيبون
فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة
الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم
حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا
يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس
ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل نعمان الشاك فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام
ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف
تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد
إلا أصغى ليتا ورفع ليتا الليت هو صفحة العنق أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق

الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من تأمل ما أوردته تعجب من هولها
وفظاعتها وتحير أن يكون للمتفكر والمتأمل فيها أو في أدلة إثباتها في علم العقيدة الواقع
(إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم) المراد بهم هم القائلون أئذا ضللنا في الأرض ويجوز أن
يراد بالمجرمين كل مجرم ويدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا والمعنى مطأطئوها
وخافضوها حياء وندما على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله والعصيان له (عند
ربهم) أي عند محاسبته لهم (ربنا) أي يقولون ربنا (أبصرنا) الآن ما كنا نكذب به
(وسمعنا) ما كنا ننكره وقيل أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك فهؤلاء
أبصروا حين لم ينفعهم البصر وسمعوا حين لم ينفعهم السمع (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل)
عملا (صالحا) كما أمرتنا وجعلنا نصب تلك الآيات (إنا موقنون) أي مصدقون وقيل
مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعا
فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا وأنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله أنهم لو ردوا
لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقيل هذا ادعاء منهم لصحة الأفئدة والاقتدار على فهم
معاني الآيات والعمل بموجبها كأن ما قبله ادعاء لصحة مشعري البصر والسمع كأنهم قالوا
أيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئا أصلا وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة إظهارا لثباتهم
على الإيمان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد في الاستدعاء طمعا في الإجابة إلى ما سألوه من
الرجعة وقيل معنى إنا موقنون إنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا
لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا فقيل والمعنى صرنا نسمع ونبصر فلا يحتاج إلى تقدير
مفعول ثم رد الله عليهم لما طلبوا الرجعة بقوله (ولو شئنا لآتينا) أعطينا (كل نفس
هداها) أي رشدها وتوفيقها إلى الإيمان بعد ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم
اختيار ذلك لاهتدوا جميعا ولم يكفر منهم أحد ولكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم
اختيار الكفر وإيثاره وهو حجة على المعتزلة فإنهم قالوا الآية محمولة على مشيئة الجبر وهو تأويل
فاسد قال النحاس في معنى هذا قولان أحدهما أنه في الدنيا والآخر أنه في الآخرة أي
لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا (ولكن حق القول مني) أي نفذ قضائي ووجب قدري وسبق
كلمتي وثبت وعيدي (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فهذا هو القول الذي
وجب من الله وحق على عباده ونفذ فيه قضاؤه فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كل
نفس

وهو الموت ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجمع الخلائق ولهذا قال تعالى وكل أتوه داخرين قرئ بالمد وبقصره على الفعل وكل بمعنى واحد وداخرين أى صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وقال تعالى ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفى حديث الصور انه فى النفخة الثالثة يأمر الله الارواح فتوضع فى ثقب فى الصور ثم ينفخ اسرافيل فيه بعد ما تنبت الاجساد فى قبورها وأماكنها فاذا نفخ فى الصور طارت الارواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى لترجعن كل روح الى جسدها فتجئ الارواح الى اجسادها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم قال الله تعالى يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون وقوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تمر مر السحاب أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا وقال تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقال تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وقوله تعالى صنع الله الذى اتقن كل شئ أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى اتقن كل شئ أى اتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع انه خبير بما يفعلون أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء ثم بين تعالى حال السعداء والاشقياء يومئذ فقال من جاء بالحسنة فله خير منها قال قتادة بالاخلاص وقال زين العابدين هى لا اله الا الله وقد بين تعالى فى الموضع الآخر ان له عشر امثالها وهم من فزع يومئذ آمنون كما قال فى الآية الاخرى لا يحزنهم الفزع الاكبر وقال تعالى أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة وقال تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقوله تعالى ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار أى من لقى الله بسيئة لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ولهذا قال تعالى هل تجزون الا ما كنتم تعملون وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهم وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وابراهيم النخعى وأبو وائل وأبو صالح ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم والزهرى والسدى

نس هداها وانما قضى عليهم هذا لانه سبحانه قد علم انهم من أهل الشقاوة وانهم ممن يختار الضلالة على الهدى وقدم الجن لان المقام مقام تحقير ولان الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ولا يلزم من قوله أجمعين دخول جميع الانس والجن فيها لانها تفيد عموم الانواع لا الافراد قاله بعض المحققين ورد بانه لو قصد ما ذكر كان المناسب التثنية دون الجمع بان يقول كليهما فالظاهر انه لعموم الافراد والتعريف فيهما للعهد والمراد عصاتهما ويؤيده قوله فى آية أخرى خطابا لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين قاله الشهاب وفى تخصيص الانس والجن اشارة الى انه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم (فذوقوا) أى العذاب والفاء لترتيب الامر بالذوق على ما قبله أى فاذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقوا قاله مقاتل واستعار الذوق للاحساس وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وان لم يكن مطعوما لاحساسها به كاحساس الذائقة بذوق المطعوم (بما نسيتم لقاء يومكم) الباء للسببية وفيه اشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم بل بذلك واختلف فى النسيان المذكور ههنا فقيل هو النسيان الحقيقى وهو الذى يزول عنده الذكر وقيل هو الترك قاله الضحاك ويحيى بن سلام والمعنى على الاول انهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له وعلى الثانى لابد من تقدير مضاف قبل اللقاء أى فذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا ورجح الثانى المبرد قال الرازى فى تفسيره ان اسم الاشارة فى قوله (هذا) يحتمل ثلاثة أوجه ان يكون اشارة الى اللقاء وان يكون الى اليوم وان يكون الى العذاب (انا نسيناكم) أى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعل الناسى قطعا لرجائكم قال يحيى المعنى نسيناكم عما تركتم الايمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير وكذا قال السدى وقال مجاهد تركناكم فى العذاب (وذوقوا) تكرير هذا للتأكيد والتشديد ولتبيين المفعول المطوى للذوق وللاشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا (عذاب الخلد) أى الدائم الذى لا انقطاع له (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى والتكذيب (انما يؤمن بآياتنا) مستأنفة لبيان من يستحق الهداية الى الايمان ومن لا يستحقها والمعنى انما يصدق بآياتنا وينتفع بها (الذين اذا ذكروا بها) لا غيرهم ممن يذكر بها أى يوعظ بها ولا يتذكر ولا يؤمن بها (خروا

سجدا) أي سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات الله وخوفا من سطوته وعذابه وتواضعا وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الإسلام (وسبحوا بحمد ربهم) أي نزهوه عن كل ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه التي أجلها وأكملها الهداية إلى الإيمان بالآيات قال ابن عباس نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ومعنى الآية فالواقع في سجودهم سبحان الله وبحمده أو سبحان ربي الأعلى وبحمده وقال سفيان المعنى صلوا بحمد ربهم (وهم لا يستكبرون) عن الإيمان به والسجود له كما استكبر أهل مكة عن السجود وأي حال كونهم خاضعين لله متذللين له غير مستكبرين عليه وقال ابن عباس لا يستكبرون عن إتيان الصلاة في الجماعات قيل هذه من عزائم سجود القرآن للقارئ والمستمع قال سليمان الجمل والمراد بالآيات في هذه الآية إن كان مطلق القرآن وإن لم تكن فيه آية سجدة أشكل قوله خروا سجدا فإن السجود لا يشرع لتلاوة القرآن إلا إذا كان فيه آية سجدة من آيات السجود المعروفة وإن كان المراد بها خصوص آيات السجدات أشكل قوله إذا ذكروا بها مع تفسير التذكير بالوعظ كما ذكروه ووجه الإشكال أن أكثر آيات السجدات بل كلها ليس فيها وعظ أي تخويف وتذكير بالعواقب إذ هذا حقيقة الوعظ بل غالبها المدح الساجدين تصريحا وذم غيرهم تلويحا كهذه الآية وقد يكون بعكس ذلك أي ذم غير الساجدين تصريحا ومدح الساجدين تلويحا كآية الانشقاق فليتأمل ولم نر من المفسرين من بين هذا ولا من تعرض له انتهى

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع) استئناف أو حال أي ترتفع وتنبو وتنحى يقال جفا الشيء عن الشيء وتجافى عنه إذا لم يلزمه ونبا عنه وتنحى قال الزجاج والرماني التجافي والتنحي إلى جهة فوق وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سب ونحوه والجنوب جمع جنب أي متجافية جنوبهم عن مضاجعهم والمضاجع جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع فيه وهم المتهجدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد وقال قتادة وعكرمة هو التنفل ما بين المغرب والعشاء وبه قال أبو حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هي صلاة الأوابين وقيل صلاة العشاء فقط وهو رواية عن الحسن وعطاء وقال الضحاك صلاة العشاء والصبح في جماعة وقيل هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها عن

والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد في قوله ومن جاء بالسيئة يعني بالشرك (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) يقول تعالى مخبرا رسوله وآمرا له أن يقول إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء كما قال تعالى قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وقوله تعالى الذي حرمها أي الذي إنما صارت حراما شرعا وقدرا بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها الحديث بتمامه وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة وقوله تعالى وله كل شيء من باب عطف العام على الخاص أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو وأمرت أن أكون من المسلمين أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له وقوله وأن أتلو القرآن أي على الناس أبلغهم إياه كقوله تعالى ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم وكقوله تعالى نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق الآية أي أنا مبلغ ومنذر فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من النس

المنذرين أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى كقوله تعالى فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقال إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها أي لله الحمد الذي لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه والإنذار إليه ولهذا قال تعالى سيريكم آياته فتعرفونها كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق وقوله تعالى وما ربك بغافل عما تعملون أي بل هو شهيد على كل

ثنى قال ابن أبى حاتم ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر حدثنا أبو امية بن ... عبد بن أبى سعيد سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فان الله لو كان غافلا شيأ لاغفل البعوضة والخردلة والذرة وقال أيضا حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر بن على قال أبى أخبرنى عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال فلو كان الله مغفلا شيأ لاغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم وقد ذكر عن الامام أحمد رحمه الله تعالى انه كان ينشد هذين البيتين اما له واما لغيره

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة القصص وهى مكية)

قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبى اسحق عن معديكرب قال أتينا عبد الله فسألناه ان يقرأ علينا طسم المائتين فقال ماهى معى ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الارت قال فأتينا خباب بن الارت فقرأها علينا رضى الله عنه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة وقوله تلك أى هذه آيات الكتاب المبين أى الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الامور وعلم ما قد كان وما هو كائن وقوله نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق الآية كما قال تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص أى نذكر لك الامر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى ان فرعون علا فى الارض أى تكبر وتجبر وطغى وجعل أهلها شيعا أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى يستضعف طائفة منهم يعنى بنى اسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الاعمال ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته و يقتل مع هذا

أنس بن مالك ان هذه الآية نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة وعنه قال نزلت فى صلاة العشاء وعنه قال كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء وعنه قال كنا نجتنب الفراش قبل صلاة العشاء وعنه قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راقدا قط قبل صلاة العشاء ولا متحدثا بعدها فان هذه الآية نزلت فى ذلك وعن ابن عباس فى الآية ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال هم الذين لا ينامون قبل صلاة العشاء فاثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة ان تغلبه عينه فوقتها قبل ان ينام الصغير ويكسل الكبير أخرجه ابن مردويه وعن بلال قال كنا نجلس فى المسجد وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع وعن أنس نحوه وعنه قال كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون وعن معاذ بن جبل قال قيام العبد من الليل وعنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وذكر حديثا وارشد فيه الى أنواع من الطاعات وقال فيه وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ هذه الآية أخرجه أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم وعن أبى هريرة مرفوعا فى حديث قال فيه وصلاة المرء فى جوف الليل ثم تلا هذه الآية أخرجه ابن مردويه وعن أنس فى الآية قال كان لا تمر عليهم ليلة الا أخذوا منها وأشهر الاقاويل ان المراد منه صلاة الليل وبه قال جماعة من أهل العلم وقد ورد فى فضل قيام الليل والحث عليه من الاحاديث الصحيحة ما هو مذكور فى كتب السنة وعن كعب قال اذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحديث رواه أحمد وعن ابن عباس يقول كلما استيقظوا ذكروا الله اما فى الصلاة واما فى القيام أو قعودا أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله (يدعون) أى تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين (ربهم خوفا) من عذابه (وطمعا) فى رحمته قال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة وفيه دليل على صحة العبادة والدعاء بالخوف والطمع وقد حققنا ذلك فى هداية السائل فليرجع اليها (ومما رزقناهم) أى من الذى رزقناهم أو من رزقهم (ينفقون) وذلك الصدقة الواجبة وقيل صدقة النفل والاولى الحمل على العموم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) النكرة فى سياق النفى تفيد العموم أى لا تعلم نفس من النفوس أى نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لاولئك الذين تقدم ذكرهم مما

ابناءهم ويستحيي نساءهم اهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه ان يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني اسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول ابراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر ابراهيم عليه السلام ولده انه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني اسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لان أجل الله اذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض الى قوله يحذرون وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون الى قوله يعرشون وقال تعالى كذلك وأورثناها بني اسرائيل أراد فرعون بحوله وقوته ان ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بان يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان انما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم ان رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) الراوعة

بقرة أعينهم قال أبو السعود أي لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عما عداهم وقيل المراد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم علما مفصلا والا فنحن نعلم ما أعد للمؤمنين من النعيم اجمالا من حيث انه غرف في الجنة وقصور وأشجار وأنهار وملابس ومآكل وغير ذلك قرئ قرة بالافراد وقرأت بالجمع وقرئ ما أخفي بسكون الياء على انه فعل مضارع مسند الى الله سبحانه وقرئ بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول وما أخفي بالنون مضمومة ويحتمل بالتحتية قال ابن عباس كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسه ثم اتخذ دونها أخرى ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ثم قال ومن دونهما جنتان لم يعلم الخلق ما فيهما وهي التي قال الله فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين تأتيهم منها كل يوم تحفة وعنه قال هذا مما لا تفسير له وعن ابن مسعود قال انه لمكتوب في التوراة لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ولا نبي مرسل وانه لفي القرآن فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة واقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة وهي معروفة فلا نطول بذكرها وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم وفيه دليل على ان المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا ثم بين سبحانه ان ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال (جزاء بما كانوا يعملون) أي لاجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الطاعات أو جوزوا جزاء بذلك (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) الاستفهام للانكار أي ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت والتباين ولهذا قال (لا يستوون) وفيه زيادة تصريح لما أفاده الانكار الذي أفاده الاستفهام على أبلغ وجه وآكده لما في عليه التصريح الآتي قال الزجاج جعل الاثنين جماعة حيث قال لا يستوون لاجل معنى من وقيل لكون الاثنين أقل الجمع وقيل أراد الجنس منهما ولم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا وحدا أولى فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفي النبي انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعمد الوقف على فاسقا ويبتدئ بقوله لا يستوون أي في المآل والمستقر أو في الشرف والمثوبة والعقوبة بل ويصلى

ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) ذكروا ان فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني اسرائيل خافت القبط ان يفني بني اسرائيل فيلي هم ما كانوا يلونه من الاعمال الشاقة وقالوا لفرعون انه يوشك ان استمر هذا الحال ان يموت شيوخهم وغلمانهم يتقالون ونساؤهم لا يمكن ان يقمن بما تقوم به رجالهم من الاعمال فيخلص الينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما فولد هارون عليه السلام في

الواقعة على الفريقين وفيه مراعاة معناها بعد مراعاة لفظها والمراد بالفسق الكامل بقرينة المقابلة للمؤمنين والا فالمؤمن قد يكون فاسقا ونظيره أفنجعل المسلمين كالمجرمين وقوله أم حسب الذين اجترحوا السيآت الآية اذليس كل مجرم ومسيء كافرا وعن ابن عباس قال قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب انا احد منك سنانا وأشجع جنانا وأبسط منك لسانا وأملأ حشو الكتيبة منك فقال له علي اسكت فانما أنت فاسق فنزلت هذه الآية يعني بالمؤمن عليا وبالفاسق الوليد وروى نحو هذا عن عطاء بن يسار والسدي وعبد الرحمن بن أبي ليلى ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين فقال (اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) قرئ بالجمع وبالافراد والمأوى هو الذي يأوون اليه واضاف الجنات اليه لكونه المأوى الحقيقي وقيل المأوى جنة من الجنات تأوي اليها أرواح الشهداء وقيل هي عن يمين العرش وقد تقدم الكلام على هذا (نزلا) أي انها معدة لهم عند نزولهم وهو في الاصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب اكراما له كما بيناه في آل عمران وقرئ نزلا بسكون الزاي (بما كانوا يعملون) أي بسبب ما كانوا يعملونه وليس المراد السبب الحقيقي حتى يخالف حديث لايدخل أحدكم الجنة بعمله بل ما يفضي الى الجنة بمقتضى وعد الله تعالى ثم ذكر الفريق الآخر فقال (وأما الذين فسقوا) أي خرجوا عن طاعة الله وتمردوا عليه وعلى رسله بالكفر والتكذيب واعلم أن العمل الصالح له مع الايمان تأثير فلذلك قال آمنوا وعملوا الصالحات وأما الكفر فلا التفات الى الاعمال معه فلهذا لم يقل وعملوا السيآت لان المراد من قوله فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لاعقاب عليه (فمأواهم النار) أي منزلهم الذي يصيرون اليه ويستقرون فيه هو النار (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) أي اذا أرادوا الخروج منها أعيدوا اليها راغمين مكرهين وقيل اذا دفعهم اللهب الى أعلاها ردوا الى مواضعهم وكلمة في للدلالة على انهم مستقرون فيها وانما الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) والقائل لهم هذه المقالة هم خزنة جهنم من الملائكة أو القائل لهم هو الله عز وجل وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الاغاظة لهم ما لايخفى وهذا دليل على ان المراد بالفاسق الكافر اذ التكذيب يقابل الايمان (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) وهو عذاب الدنيا

في السنة التي يتركون فيها الولدان وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها فاذا كان وقت ولادتها لايقبلها الا نساء القبط فان ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن وان ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بايديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى فلما حملت ام موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم يفطن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا واحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لايراه احد الا احبه فالسعيد من أحبه طبعا وشرعا قال الله تعالى وألقيت عليك محبة مني فلما ضاقت به ذرعا ألهمت في سرها وألقي في خلدها ونفث في روعها كما قال تعالى وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولاتخافي ولاتحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فاذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه وذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت ان تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به الى امرأة فرعون ولايدرين مافيها وخشين ان يفتتن عليها في فتحه دونها فلما كشفت عنه اذا هو غلام من أحسن الخلق واجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت اليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا الآية قال محمد بن اسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة لالام التعليل لانهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولاشك ان ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ولكن اذا نظر الى معنى السياق فانه تبقى اللام للتعليل لان معناه ان الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون ابلغ في ابطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقد روى عن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه انه كتب كتابا الى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى ونري

عون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقلنا لم لو شاء فرعون ان يكون لموسى وليا وناصرا والله تعالى يقول ليكون لهم عدوا وحزنا وقوله تعالى وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك الآية يعنى ان فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من ان يكون من بنى اسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه الى فرعون فقالت قرة عين لى ولك فقال فرعون اما لك فنعم واما لى فلا فكان كذلك وهداها الله بسببه واهلكه الله على يديه وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائى وغيره وقوله عسى ان ينفعنا وقد حصل لها ذلك وهداها الله به واسكنها الجنة بسببه وقولها او نتخذه ولدا اى ارادت ان تتخذه ولدا او تتبناه وذلك انه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى وهم لا يشعرون اى لا يدرون ما اراد الله منه بالتقاطهم اياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة (واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى مخبرا عن فؤاد ام موسى حين ذهب ولدها فى البحر انه اصبح فارغا اى من كل شىء من امور الدنيا الا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وابو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم ان كادت لتبدى به اى ان كادت من شدة وجدها وحزنها واسفها لتظهر انه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه اى امرت ابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها فقالت لها قصيه اى اتبعى اثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك فبصرت به عن جنب قال ابن عباس عن جانب وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد وقال قتادة جعلت تنظر اليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون واحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وابى ان يقبل شيأ من ذلك فخرجوا به الى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما

قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعى هو مصائب الدنيا وأسقامها وقيل الحدود وقيل القتل بالسيف يوم بدر وقيل سنى الجوع بمكة سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب وقيل عذاب القبر ولا مانع من الحمل على الجميع والدنو حسى ومعنوى (دون العذاب الاكبر) وهو عذاب الآخرة (لعلهم يرجعون) مما هم فيه من الشرك والمعاصى بسبب ما ينزل بهم من العذاب الى الايمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه وفى هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال ان العذاب الادنى هو عذاب القبر قال ابن مسعود العذاب الادنى يوم بدر والعذاب الاكبر يوم القيامة لعل من بقى منهم ان يتوب فيرجع وعنه قال العذاب الادنى سنون اصابتهم لعلهم يتوبون وقال أبى بن كعب العذاب الادنى مصائب الدنيا والروم والبطشة والدخان وعنه قال يوم بدر وقال ابن عباس الحدود قال الكرخى وفى هذا الترجى وجهان أحدهما معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا وكذلك ههنا والثانى نذيقهم العذاب اذاقة يقول القائل اذا رآهم لعلهم يرجعون بسببه انتهى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) أى لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الاقبال على الايمان والطاعة فجعل الاعراض مكان ذلك والمجىء بثم للدلالة على استبعاد ذلك وانه مما لا ينبغى ان لا يكون والاستفهام انكارى (انا من المجرمين منتقمون) أى من أهل الاجرام على العموم فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولا أوليا قال أبو السعود أى كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم أخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وغيرهم قال السيوطى بسند ضعيف عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ثلاث من فعلهن فقد أجرم من عقد لواء فى غير حق أو عق والديه أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم يقول الله انا من المجرمين منتقمون قال ابن كثير بعد اخراجه هذا حديث غريب (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة وانما ذكر موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ووجود من كان على دينه الى الزمان وانما لم يذكر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه (فلا تكن) يا محمد (فى مرية) أى

شك

شك وريبة (من لقائه) قال الواحدى قال المفسرون وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه سيلقى موسى قبل ان يموت ثم لقيه فى السماء أو فى بيت المقدس حين اسرى به وهذا قول مجاهد والكلبى والسدى وقيل فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة وستلقاه فيها وقيل فلا تكن فى شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج وقال الحسن ان معناه ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذى فلا تكن فى شك من انه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى فيكون الضمير فى لقائه على هذا الى محذوف والمعنى من لقائه مالاقى موسى قال النحاس وهذا قول غريب وقيل فى الكلام تقديم وتأخير والمعنى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم فلا تكن فى مرية من لقائه فجاء معترضا بين ولقد آتينا موسى الكتاب وبين قوله الآتى وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وقيل الضمير راجع الى الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن والمعنى انا لقد آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل مالقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من انك لقيت مثله ونظيره وما أبعد هذا ولعل الحامل لقائله عليه قوله وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فان الضمير راجع الى الكتاب وقيل ان الضمير فى لقائه عائد الى الرجوع المفهوم من قوله ثم الى ربكم ترجعون أى لاتكن فى مرية من لقاء الرجوع وهذا بعيد جدا قال السمين وهذه أقوال بعيدة ذكرت للتنبيه على ضعفها وأظهرها ان الضمير اما لموسى واما للكتاب أى لاترتب فى ان موسى لقى الكتاب وأنزل عليه وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم رأيت ليلة اسرى بى موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن جهنم والدجال فى آيات أراهن الله اياه قال فلا تكن فى مرية من لقائه فكان قتادة يفسرها ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد لقى موسى وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء فى المختارة بسند قال السيوطى صحيح عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلا تكن فى مرية من لقائه قال من لقاء موسى قيل أولقى موسى قال نعم الاترى الى قوله واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا وروى البخارى عن أنس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال أتيت على موسى ليلة المعراج عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلى فى قبره وصح فى حديث المعراج أيضا انه رآه

رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها قال الله تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانة له ان يرتضع غير ثدى أمه ولان الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا الى رجوعه الى امه لترضعه وهى آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرون فيمن يرضعه قالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون قال ابن عباس فلما قالت ذلك اخذوها وشكوا فى امرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من اذاهم ذهبوا معها الى منزلهم فدخلوا به على امه فاعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير الى امرأة الملك فاستدعت ام موسى واحسنت اليها واعطتها عطاء جزيلا وهى لاتعرف انها امه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ثم سألتها آسية ان تقيم عندها فترضعه فابت عليها وقالت ان لى بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ولكن ان أحببت ان أرضعه فى بيتى فعلت فاجابتها امرأة فرعون الى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والاحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق دار ولهذا جاء فى الحديث مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها ولم يكن بين الشدة والفرج الا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الامر ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا ولهذا قال تعالى فرددناه الى أمه كى تقر عينها أى به ولاتحزن أى عليه ولتعلم أن وعد الله حق أى فيما وعدها من رده اليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده اليها انه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته فى تربيته ماينبغى له طبعا وشرعا وقوله تعالى ولكن أكثرهم لايعلمون أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الامر كريها الى النفوس وعاقبته محمودة فى نفس الامر كما قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم وقال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين

في السماء السادسة فلعل رؤيته كانت في قبره قبل صعوده الى السماء ثم صعد اليها فوجده هنالك قد سبقه لما يريد الله وهذا وجه الجمع بين هذين الحديثين على ما ذكره الخازن واختلف في الضمير في قوله (وجعلناه) فقيل راجع الى الكتاب أي جعلنا التوراة (هدى لبني اسرائيل) قاله الحسن وغيره وقال قتادة انه راجع الى موسى أي وجعلنا موسى هدى لبني اسرائيل (وجعلنا منهم أئمة) أي قادة يقتدون بهم في دينهم وهم الانبياء الذين كانوا في بني اسرائيل وقيل هم اتباع الانبياء وقيل العلماء قاله قتادة وقرئ أئمة قال النحاس وهو لحن عند جميع النحويين لانه جمع بين همزتين في كلمة واحدة (يهدون) أي يدعونهم الى الهداية بما يلقونه اليهم من احكام التوراة ومواعظها (بأمرنا) لهم بذلك أو لاجل أمرنا (لما صبروا) أي حين صبروا والضمير للائمة وفي لما معنى الجزاء والتقدير لما صبروا جعلناهم أئمة أي لصبرهم وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس وقيل صبروا عن الدنيا وفيه دليل على ان الصبر ثمرته امامة الناس (وكانوا بآياتنا) التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب (يوقنون) أي يصدقون بها ويعلمون انها حق وانها من عند الله لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) أي يقضي بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار وقيل يقضي بين الانبياء وأممهم حكاه النقاش (فيما كانوا فيه يختلفون) فيظهر المحق من المبطل (أولم يهد لهم) أي أولم يتبين لاهل مكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا ولم يتبين لهم وقرئ نهد بالتحتية وبالنون وهي واضحة والفاعل ما دل عليه قوله (كم أهلكنا) أي كثرة اهلاكنا وقال المبرد ان الفاعل الهدى المدلول عليه بيهدي أي أولم يهد لهم الهدى (من قبلهم) حال من قوله (من القرون) كعاد وثمود وقوم لوط ونحوهم (يمشون في مساكنهم) أي والحال انهم يمشون في مساكن المهلكين ويشاهدونها وينظرون ما فيها من العبر وآثار العذاب ولا يعتبرون بذلك وقيل الضمير يعود الى المهلكين والمعنى أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم والاول أولى وقيل جملة مستأنفة بيان لوجه هدايتهم والمعنى يمرون في أسفارهم الى التجارة على ديارهم وبلادهم (ان في ذلك) المذكور من كثرة اهلاكنا الامم الخالية (لآيات) عظيمة (أفلا يسمعون) ويتعظون بها (أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز) أي أولم يعلموا انا نسوق الماء الى الارض التي لا تنبت الا بسوق الماء اليها وقيل هي

فلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر انه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما قال مجاهد يعني النبوة وكذلك نجزي المحسنين ثم ذكر تعالى سبب وصوله الى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية الى بلاد مدين فقال تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء وقال ابن جريج عن ابن المنكدر عن عطاء ابن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة فوجد فيها رجلين يقتتلان أي يتضاربان ويتنازعان هذا من شيعته أي اسرائيلي وهذا من عدوه أي قبطي قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق فاستغاث الاسرائيلي بموسى عليه السلام ووجد موسى فرصة وهو غفلة الناس فعمد الى القبطي فوكزه موسى عليه السلام فقضى عليه قال مجاهد وكزه أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات قال موسى هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة فلن أكون ظهيرا أي معينا للمجرمين أي الكافرين بك المخالفين لامرك (فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما تريد ان تكون من المصلحين) يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي انه أصبح في المدينة خائفا أي من معرة ما فعل يترقب أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الامر فمر في بعض الطرق فاذا ذلك الذي استنصره بالامس على ذلك القبطي يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له

موسى انك لغوى مبين أى ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطى فاعتقد الاسرائيلى لخوره وضعفه وذلته ان موسى انما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه ياموسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس وذلك لانه لم يعلم به الا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطى لقفها من فيه ثم ذهب بها الى باب فرعون وألقاها عندهم فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين) قال تعالى وجاء رجل وصفه بالرجولية لانه خالف الطريق فسلك طريقا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق الى موسى فقال له ياموسى ان الملأ يأتمرون بك أى يتشاورون فيك ليقتلوك فاخرج أى من البلد انى لك من الناصحين (فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة فخرج منها خائفا يترقب أى يتلفت قال رب نجنى من القوم الظالمين أى من فرعون وملئه فذكروا ان الله سبحانه وتعالى بعث اليه ملكا على فرس فارشده الى الطريق فالله أعلم ولما توجه تلقاء مدين أى أخذ طريقا سالكا مهيعا فرح بذلك قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل أى الطريق الاقوم ففعل الله به ذلك وهداه الى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديا مهديا ولما ورد ماء مدين أى لما وصل الى مدين وورد ماءها وكان لها بئر يرده رعاء الشاء وجد عليه أمة من الناس يسقون أى جماعة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أى تكفكفان غنمهما ان ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما قال ما خطبكما أى ما خبركما لا تردان مع هؤلاء قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء أى لا يحصل لنا سقى الا بعد فراغ هؤلاء وأبونا شيخ كبير أى فهذا الحال الملجئ لنا الى ما ترى قال الله تعالى فسقى لهما قال أبو بكر بن

اليابسة وأصله من الجرز وهو القطع أى التى تقطع نباتها لعدم الماء وازيل بالمرة ولا يقال للتى لا تنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله الآتى فنخرج به زرعا قال ابن عباس الجرز التى لا تمطر الا مطرا لا يغنى عنها شيأ الا ما يأتيها من السيول وعنه قال هى أرض باليمن وقيل أبين قال القرطبى فى تفسيره والاسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه وقيل أرض عدن قال الضحاك هى الارض العطشى وقال الفراء هى الارض التى لا نبات فيها وقال الاصمعى هى الارض التى لا تنبت شيأ قال المبرد يبعد ان يكون لارض بعينها لدخول الالف واللام وقيل هى مشتقة من قولهم رجل جرز اذا كان لا يبقى شيأ الا أكله وكذلك ناقة جرز اذا كانت تأكل كل شئ تجده وقال مجاهد انها أرض النيل لان الماء انما يأتيها فى كل عام (فنخرج به) أى بالماء (زرعا تأكل منه أنعامهم) أى من الزرع كالتبن والقصل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ونحوها مما لا يأكله الناس (وأنفسهم) أى يأكلون من الحبوب والثمار والاقوات الخارجة من الزرع مما يقتاتونه وقدم الانعام لان انتفاعها مقصور على النبات ولان أكلها مقدم لانها تأكله قبل ان يثمر ويخرج سنبله (أفلا يبصرون) هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحدونه لكونه المتفرد بايجاد ذلك وجعلت الفاصلة يبصرون لان الزرع مرئى وفيما قبله يسمعون لان ما قبله مسموع أو ترقيا الى الاعلى فى الاتعاظ مبالغة فى التذكير ودفع العذر (ويقولون) بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء والقائلون هم الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص (متى هذا الفتح) الذى تعدنا به يعنون بالفتح القضاء والفصل بين العباد وهو يوم البعث الذى يقضى الله فيه بين العباد قاله مجاهد وغيره قال الفراء والقتيبى هو فتح مكة قال قتادة قال أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم للكفار ان لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم الله بيننا وبينكم يعنون يوم القيامة فقال الكفار متى هذا الفتح وقال السدى هو يوم بدر لان أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون للكفار ان الله ناصرنا ومظهرنا عليكم وعن ابن عباس قال يوم بدر فتح للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فلم ينفع الذين كفروا ايمانهم بعد الموت (ان كنتم صادقين) فيما تدعونه من نصر المؤمنين واظهارهم على الكفار ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يجيب عليهم فقال (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم) وفى هذا دليل على ان يوم الفتح هو يوم

أبي شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون الاودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها الا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق الا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم اسناد صحيح وقوله تعالى ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير قال ابن عباس سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام الا البقل وورق الشجر وكان حافيا فما وصل الى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وان بطنه للاصق بظهره من الجوع وان خضرة البقل لترى من داخل جوفه وانه لمحتاج الى شق تمرة وقوله الى الظل قال ابن عباس وابن مسعود والسدي جلس تحت شجرة وقال ابن جرير حدثني الحسين بن عمرو العنقزي حدثنا أبي حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو ابن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود قال أحثثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التي أوى اليها موسى فاذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى اليها جملي وكان جائعا فأخذها فعالجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت وفي رواية عن ابن مسعود انه ذهب الى الشجرة التي كلم الله منها موسى كما سيأتي ان شاء الله فالله أعلم وقال السدي كانت الشجرة من شجر السمر وقال عطاء بن السائب لما قال موسى رب اني لما أنزلت الي من خير فقير أسمع المرأة (فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم الى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث احداهما اليه لتدعوه الى أبيها قال الله تعالى فجاءته احداهما تمشي على استحياء أي

ورحم

القيامة الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم لان يوم فتح مكة ويوم بدر كانا مما ينفع فيه الايمان وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح وقبل منهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا معنى ولا يقبل منهم الايمان والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على انه ليس مما ينبغي ان يسئل عنه لكونه أمرا بينا وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ايمانهم في ذلك اليوم كأنه قيل لا تستعجلوا وكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا والآية ان عمت غير المستهزئين فهي تعميم بعد تخصيص وان خصت بهم فهو اظهار في مقام الاضمار تسجيلا عليهم بالكفر وبيانا للعلة عدم النفع وعدم امهالهم (ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون ولا يؤخرون بتأخير العذاب عنهم ليتوبوا أو يعتذروا ولما فتحت مكة هربت قوم من بني كنانة فلحقهم خالد بن الوليد فأظهروا الاسلام فلم يقبله منهم خالد وقتلهم (فأعرض عنهم) أي عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم الا بما أمرت به (وانتظر) يوم الفتح وهو يوم القيامة أو يوم اهلاكهم بالقتل وموعدي لك بالنصر عليهم (انهم منتظرون) لاهلاككم أو انتظر عذابنا اياهم فهم منتظرون ذلك والآية منسوخة بآية السيف وذلك قوله لا ينفع الخ قاله ابن عباس وقيل غير منسوخة اذ يقع الاعراض مع الامر بالقتال وقرئ منتظرون بفتح الظاء مبنيا للمفعول قال الفراء لا يصح هذا الا باضمار أي انهم منتظر بهم قال أبو حاتم الصحيح الكسر أي انتظر عذابهم انهم منتظرون هلاككم

(سورة الاحزاب هي ثلاث وسبعون آية)

قال ابن عباس نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله وعن زر قال قال لي أبي بن كعب كأي تقرأ سورة الاحزاب أو كأي تعدها قلت ثلاثا وسبعين آية فقال أقط لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة أو أكثر من سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فرفع فيما رفع قال ابن كثير واسناده حسن وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ان عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة

مشى الحرائر كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه انه قال جاءت مستترة بكم درعها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون قال قال عمر رضي الله عنه جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع ولاجة ولاجة خراجة هذا اسناد صحيح قال الجوهري السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجريئة السليطة ومن النوق الشديدة قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة بل قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا أي يثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا فلما جاءه وقص عليه القصص أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له في السبب الذي خرج من أجله من بلده قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين يقول طب نفسا وقر عينا فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا ولهذا قال نجوت من القوم الظالمين وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال أحدها انه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل الى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن عبد العزيز الاودي حدثنا مالك بن أنس انه بلغه ان شعيبا هو الذي قص عليه موسى القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي انه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مرحبا بقوم شعيب واختان موسى هديت وقال آخرون بل كان ابن أخي شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه وما قوم لوط منكم ببعيد وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم انه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد وما قيل ان شعيبا عاش مدة طويلة انما هو والله أعلم احتراز من هذا الاشكال ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان اياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا وما جاء في بعض الاحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح اسناده كما سنذكره قريبا ان شاء الله ثم من الموجود في كتب بني اسرائيل ان هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود وثرون هو ابن أخي شعيب

ورجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجمنا بعده فاخشى ان يطول بالناس زمان ان يقول قائل لا نجد آية في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وقد روي عنه نحو هذا من طرق وعن عائشة قالت كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها الا على ما هو الآن قال النسفي واما ما يحكى ان تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي) أي يا أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ خطابنا وانما لم يقل يا محمد كما قال يا آدم يا موسى تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه في قوله محمد رسول الله ونحوه لتعليم الناس بانه رسول الله ليلقبوه بذلك ويدعوه به (اتق الله) أي دم على ذلك وازدد منه فهو باب واسع وعرض عريض لا يدرك مداه ولا ينال منتهاه (ولا تطع الكافرين) من أهل مكة ومن هو على مثل كفرهم (والمنافقين) الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر قال الواحدي انه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان وعكرمة وأبا الاعور السلمي وذلك انهم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل ان لها شفاعة لمن عبدها قال والمنافقين عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (ان الله كان عليما حكيما) أي كثير العلم والحكمة بليغهما قال النحاس ودل بقوله هذا على انه كان يميل اليهم يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم استدعاء لهم الى الاسلام والمعنى ان الله عز وجل لو علم ان ميلك اليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم لانه حكيم ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الامر بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين والمعنى انه لا يأمرك أو ينهاك الا بما علم فيه صلاحا أو فسادا لكثرة علمه وسعة حكمته (واتبع) في جميع أمورك (ما يوحى اليك من ربك) من القرآن ولا تتبع شيأ مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ولا من الرأي البحت فان فيما أوحي اليك ما يغنيك عن ذلك (ان الله كان بما تعملون خبيرا) تعليل لامره باتباع ما أوحي اليه وتأكيد لوجوبه والامر له صلى الله عليه وآله وسلم أمر لامته فهم مأمورون

عليه السلام وعن أبي حمزة عن ابن عباس الذي استأجر موسى يثرى رواه ابن جرير ثم قال الصواب ان هذا لا يدرك الا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك وقوله تعالى قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين أي قالت احدى ابنتي هذا الرجل قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لابيها يا أبت استأجره أي لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن اسحق وغير واحد لما قالت ان خير من استأجرت القوي الامين قال لها أبوها وما علمك بذلك قالت له انه رفع الصخرة التي (٢٤٨) لا يطيق حملها الا عشرة رجال واني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي كوني من ورائي فاذا اختلف على الطريق فاحذي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي اليه وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين تفرس في عمر وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين أي طلب اليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه احدى ابنتيه هاتين قال شعيب الجبائي وهما صفورا وليا وقال محمد بن اسحق صفورا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما اذا قال بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال اشتريت انه يصح والله أعلم وقوله على ان تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين فان تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك والا ففي الثمان كفاية ستجدني ان شاء الله من الصالحين أي لا أشاقك ولا أؤذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الاوزاعي فيما اذا قال بعتك هذا بعشرة نقدا أو بعشرين نسيئة انه يصح ويختار المشتري بأيهما أخذه صح وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا على هذا المذهب وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله والله أعلم ثم قد استدل أصحاب الامام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الاجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن حيث قال باب استئجار الاجير على طعام بطنه

باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه ولهذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله بما تعملون على قراءة الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية والواو ضمير الكفرة والمنافقين أي انه خبير بكايدهم فيدفعها عنك (وتوكل على الله) أي اعتمد عليه وفوض امورك اليه (وكفى بالله وكيلا) أي حافظا يحفظ من توكل عليه وقيل كفيلا برزقك وقال الزجاج لفظه وان كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلا ثم ذكر سبحانه مثلا توطئة وتمهيدا لما يتعقبه من الاحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه فقال (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وقيل هي مثل ضربه الله للمظاهر أي كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر امه حتى تكون له أمان وكذلك لا يكون الدعي ابن الرجل وقيل كان الواحد من المنافقين يقول لي قلب يأمرني بكذا وقلب بكذا فنزلت الآية لرد النفاق وبيان انه لا يجتمع مع الاسلام كما لا يجتمع قلبان والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله وجعلها محلا للعلم ومن زائدة وقال في جوفه لانه معدن الروح الحيواني المتعلق للنفس الانساني ومنبع القوى بأسرها فيمتنع تعدده لانه يؤدي الى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلا لكل القوى وغير أصل لها عن ابن عباس قال قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوما يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه الا ترى ان له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فنزل ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وعنه لفظ صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فقالوا ان له قلبين فنزلت وعنه أيضا قال كان رجل من قريش يسمى من دهائه ذا القلبين فأنزل الله هذا في شأنه (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم) قرئ اللائي بياء ساكنة بعد همزة وبياء ساكنة بعد ألف محضة قال أبو عمرو بن العلاء انها لغة قريش التي أمر الناس ان يقرؤا بها وتظاهرون مضارع ظاهر وقرئ مضارع تظاهر والاصل تتظاهرون وقرئ تظهرون والاصل تتظهرون وأخذ ذلك من لفظ الظهر كالحذلقى من التلبية واعاعدى بمن لانه ضمن معنى التباعد كأنه قيل متباعدين من نسائكم بسبب الظهار كما تقدم في تعدية الايلاء بمن في البقرة والظهار أصله ان يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر امي والمعنى ما جعل الله نساءكم اللائي تقولون لهن هذا القول كامهاتكم في التحريم ولكنه منكر من القول وزور وانما تجب به

الكفارة بشرطه وهو العود كما ذكر في سورة المجادلة بقوله والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا أي فيه بأن يخالفوه بامساك المظاهر منها زمنا يمكنه ان يفارقها فيه ولا يفارقها لان مقصود المظاهر وصف المرأة بالتحريم وامساكها يخالفه قاله الكرخي (وما جعل ادعياءكم) أي وكذلك ما جعل الادعياء الذين تدعون انهم أبناؤكم (أبناءكم) والادعياء جمع دعي وهو الذي يدعى ابنا لغير أبيه فهو فعيل بمعنى مفعول ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس لان افعلاء انما يكون جمع الفعيل المعتل اللام اذا كان بمعنى فاعل نحو تقي وأتقياء وغني وأغنياء وهذا وان كان فعيلا معتل اللام لان أصله دعيو فأدغم الا انه بمعنى مفعول فكان القياس جمعه على فعلى كقتيل وقتلى وجريح وجرحى ومريض ومرضى ونظيره هذا في الشذوذ قولهم أسير وأسارى والقياس أسرى وقد سمع فيه الاصل قاله السمين (ذلكم) أي ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء (قولكم بأفواهكم) أي ليس ذلك الا مجرد قول بالافواه ولا تأثير له في الخارج فلا تصير المرأة به أما ولا ابن الغير به ابنا ولا يترتب على ذلك شيء من احكام الأمومة والبنوة وقيل الاشارة راجعة الى الادعاء أي ادعاؤكم ان أبناء الغير ابناؤكم لا حقيقة له بل هو مجرد قول بالفم اذ الابن لا يكون الا بالولادة وفيه نسخ التبني وذلك ان الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه اليه الناس ويرث ميراثه وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعتق زيد بن حارثة الكلبي وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة فلما تزوج زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله هذه الآية ونسخ بها التبني قال النحاس وهذا من نسخ السنة بالقرآن قال القرطبي اجمع أهل التفسير على ان هذا القول انزل في زيد بن حارثة (والله يقول الحق) الذي يحق اتباعه لكونه حقا في نفسه لا باطلا فيدخل تحته دعاء الابناء لآبائهم (وهو يهدي السبيل) أي يدل على الطريق الموصلة الى الحق وفي هذا ارشاد للعباد الى قول الحق وترك قول الباطل والزور ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الابناء للآباء فقال (ادعوهم لآبائهم) للصلب وانسبوهم اليهم ولا تدعوهم الى غيرهم أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنت زيد بن حارثة بن شراحيل (هو أقسط

حدثنا محمد بن المصفى الحمصي حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحرث بن يزيد عن علي بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طس حتى اذا بلغ قصة موسى قال ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة سنين على عفة فرجه وطعام بطنه وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لان مسلمة بن علي وهو الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف الرواية عند الائمة ولكن قد روي من وجه آخر وفيه نظر أيضا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحرث بن يزيد الحضرمي (٢٤٩) عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة ابن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه وقوله تعالى اخبارا عن موسى عليه السلام قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل يقول ان موسى قال لصهره الامر على ما قلت من انك استأجرتني على ثماني سنين فان أتممت عشرا فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي أي فلا حرج علي مع ان الكامل وان كان مباحا لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الاسلمي رضي الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم في السفر فقال ان شئت فصم وان شئت فافطر مع ان فعل الصيام راجح من دليل آخر هذا وقد دل الدليل على ان موسى عليه السلام

انما فعل أكمل الاجلين وأتمهما وقال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الافطس عن سعيد بن جبير قال قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الاجلين قضى موسى فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل هكذا رواه البخاري وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية والاول أشبه والله أعلم وقد روي من حديث

ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني ابراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الحميدي عن سفيان وهو ابن عيينة حدثني ابراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب وكان من أسناني أو أصغر مني فذكره وفي اسناده قلب وابراهيم هذا ليس بمعروف ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن ابراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قال لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس الا من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم قرئ على يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحرث عن يحيى بن ميمون الحضرمي عن يوسف بن تيرح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى قال لا علم لي فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال جبريل لا علم لي فسأل جبريل ملكا فوقه فقال لا علم لي فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أزكاهما وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال قال مجاهد ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أي الأجلين قضى موسى فقال سوف أسأل اسرافيل فسأله فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوفاهما طريق أخرى مرسلة أيضا قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأتمهما فهذه طرق متعاضدة ثم قد روي هذا من رواية أبي ذر رضي الله عنه قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن حدثنا اسحق بن ادريس حدثنا عويذ بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأبرهما قال وان سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما قال البزار لا نعلم يروى عن أبي ذر الا بهذا الاسناد وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويذ بن أبي عمران وهو

عند الله) تعليل للأمر بدعائهم لآبائهم والضمير راجع الى مصدر ادعوهم ومعنى أقسط أعدل أي أعدل من كل كلام يتعلق بذلك فترك الاضافة للعموم كقوله الله أكبر وأعدل من قولكم هو ابن فلان ولم يكن ابنه لصلبه وأقسط افعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل وانظر الى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجمل الطلبية ثم وصل الخبرية بعدها ووصل بينها ثم فصل الاسمية بعدها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية ثم تمم الارشاد للعباد فقال (فان لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم (في الدين ومواليكم) فقولوا أخي ومولاي ولا تقولوا ابن فلان حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة قال الزجاج مواليكم أي أولياؤكم في الدين وقيل المعنى فان كانوا محررين ولم يكونوا أحرارا فقولوا موالي فلان (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أي لا اثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد قبل النهي فنسبتموه الى غير أبيه (ولكن) الاثم (ما تعمدت قلوبكم) وهو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء الى غير آبائهم مع علمكم بذلك قال قتادة لو دعوت رجلا لغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس بخلاف الحال في زيد فانه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد فان قاله أحد متعمدا عصى بقوله هذا عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير أبيه فالجنة عليه حرام أخرجه البخاري ومسلم (وكان الله غفورا رحيما) يغفر للمخطئ ويرحمه ويتجاوز عنه أو غفورا للذنوب رحيما بالعباد ومن جملة من يغفر له ويرحمه من دعا رجلا لغير أبيه خطأ أو قبل النهي عن ذلك أو على سبق اللسان ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة وخصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أي هو أحق بهم وأرأف وأشفق في كل ما دعاهم اليه من أمور الدين والدنيا فان نفوسهم تدعوهم الى ما فيه هلاكهم وهو يدعوهم الى ما فيه نجاتهم فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وان كانوا محتاجين اليها ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم وبالجملة فاذا دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشئ ودعتهم أنفسهم الى غيره وجب عليهم ان يقدموا ما دعاهم اليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم اليه ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم ويقدموا طاعته على ما تميل اليه أنفسهم وتطلبه

وتطلبه خواطرهم وقيل المراد بانفسهم في الآية بعضهم فيكون المعنى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض وقيل هي خاصة بالقضاء أي هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى بينهم وقيل أولى بهم في الجهاد بين يديه وبذل النفس دونه وقيل أولى بهم اي أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤف رحيم وفي قراءة ابن مسعود النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال مجاهد كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون اخوة لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبوهم في الدين والاول أولى وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا فليأتني فانا مولاه وقد ثبت في الصحيح انه صلى الله عليه وآله وسلم قال والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين واخرج ابن ابي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عليا فتنقصته فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغير وقال يا بريدة ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من كنت مولاه فعلي مولاه (وازواجه) صلى الله عليه وآله وسلم سواء دخل بهن أولا وسواء مات عنهن او طلقهن (امهاتهم) اى مثل امهاتهم في الحكم بالتحريم ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم فلا يحل لاحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له ان يتزوج بأمه فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن تحريما مؤبدا وبالتعظيم لجنابهن لا في النظر اليهن والخلوة بهن فانه حرام في حقهن كما في حق سائر الاجانب وتخصيص المؤمنين يدل على انهن لسن امهات نساء المؤمنين ولا بناتهن اخوات المؤمنين ولا اخوتهن اخوال المؤمنين وقال القرطبي الذي يظهر لي انهن امهات الرجال والنساء تعظيما لحقهن على الرجال والنساء كما يدل عليه قوله النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة قال ثم ان في مصحف أبي بن كعب وازواجه امهاتهم وهو أب لهم وقرأ ابن عباس بعد لفظ انفسهم وهو أب وازواجه امهاتهم عن عائشة ان امرأة قالت لها يا أمه فقالت أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم وعن ام سلمة قالت أنا ام الرجال

ضعيف ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحرث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اى الاجلين قضى موسى قال أبرهما وأوفاهما ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم ان موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته ان تسأل أباها ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة الا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت اثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا ثعول وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا افتتحتم الشام فانكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية هكذا أورده البزار وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة ح وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحرث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الاجل قيل يا رسول الله أى الاجلين قال أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام الى عصا فسماها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض فلم يصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان الا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبوب وقال صفوان ولا ضبوب قال أبو زرعة الصواب ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف قال النبي صلى الله عليه وسلم لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية وحدثنا أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش قال التي تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الضبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قلت فما

الثعول قال التي ليس لها ضرع الا كهيئة حلمتين قلت فالكمشة قال التي تفوت الكف كمشة الضرع صغير لا يدركه الكف مداره الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء وأخشى ان يكون رفعه خطأ والله أعلم وينبغي ان يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولا ضبوب ولا ثعول ولا كمشة لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفا عليه ما يقارب بعضه باسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه (٢٥٢) قال لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه الى الاجل الذي كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على غير لونها ذلك ولدها فهي لك فعمد موسى فدفع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا الا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى انى أنا الله رب العالمين وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين) قد تقدم في تفسير الآية قبلها ان موسى عليه السلام قضى أتم الاجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما وقد يستفاد هذا أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى فلما قضى موسى الاجل أى الاكمل منهما والله أعلم قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرا أخر وهذا القول الـصرة لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم فالله أعلم وقوله تعالى وسار بأهله قالوا كان موسى عليه السلام قد اشتاق الى بلده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيأ فتعجب من ذلك فبينما هو كذلك اذ آنس من جانب الطور نارا أى رأى نارا تضيء له على بعد فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا أى حتى أذهب اليها لعلى آتيكم منها بخبر وذلك لانه كان قد أضل الطريق أو جذوة

منكم والنساء وعن بجالة قال مر عمر بن الخطاب بغلام وهو يقرأ في المصحف وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فقال يا غلام حكها فقال هذا مصحف أبي فذهب اليه فسأله فقال انه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق وهن فيما وراء ذلك كالارث ونحوه كالاجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم الى بناتهن ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال (وأولوا الارحام) جمع رحم وهو القرابة (بعضهم أولى) أى أحق (ببعض) في الميراث وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الانفال وهي ناسخة لما كان في صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة قال قتادة لما نزل قوله سبحانه في سورة الانفال والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا فتوارث المسلمون بالهجرة ثم نسخ ذلك بهذه الآية وكذا قال غيره ويحتمل أن يكون النسخ بآية الانفال وهو قوله وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله قال الشهاب وهذا الاحتمال أولى لان سورة الانفال متقدمة نزولا على هذه السورة فنسبة النسخ اليها أولى وتكون هذه الآية مؤكدة لذلك وقيل ان هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمواخاة في الدين وقيل معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر (في كتاب الله) أى هذه الاولوية وهذا الاستحقاق كائن وثابت فيه والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن أو آية المواريث (من المؤمنين والمهاجرين) المعنى ان ذوى القرابات من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض أو أولوا الارحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب وقيل ان معنى الآية وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض الا ما يجوز لأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كونهن كالأمهات في تحريم النكاح وفي هذا من الضعف ما لا يخفى (الا) هذا الاستثناء اما متصل من أعم العام والتقدير أولى ببعض في كل شيء من الارث وغيره الا (ان تفعلوا الى أوليائكم معروفا) من صدقة أو وصية فان ذلك جائز قاله قتادة والحسن وعطاء ومحمد بن الحنفية قال ابن الحنفية نزلت في اجازة الوصية لليهودي والنصراني فالكافر ولي في النسب لا في الدين فتجوز الوصية له قال في الخازن ان الله لما نسخ التوارث بالحلف والاخاء والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا والمعنى لكن فعل المعروف للاولياء لا بأس به وضمن تفعلوا معنى توصلوا أو تسدوا فعدي بالى وقال مجاهد أراد بالمعروف

العصر فهو حقنا الحرمة بحق الايمان والهجرة (كان ذلك) أى نسخ الميراث بالهجرة والمخالفة والمعاقدة ورده الى ذوى الارحام من القرابات (فى الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ أو فى التوراة أو فى القرآن (مسطورا) مكتوبا (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) كأنه قال يا أيها النبى اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق الانبياء أو التقدير كان هذا الحكم مكتوبا فى الكتاب ووقت أخذنا قاله السمين قال قتادة أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصا على أن يصدق بعضهم بعضا ويتبع بعضهم بعضا وان ينصحوا لقومهم وان يعبدوا الله ويدعوا الناس الى عبادته والى الدين القيم وان يبلغوا رسالات ربهم وذلك حين أخرجوا من صلب آدم كالذر وهو جمع ذرة وهى أصغر النمل وهى صغيرة جدا بحيث ان نحو الاربعين منها أصغر من جناح بعوضة والميثاق هو اليمين وقيل هو الاقرار بالله والوصية والامر والاول أولى وقد سبق تحقيقه ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال (ومنك) خصوصا (ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) ووجه تخصيصهم بالذكر الاعلام بان لهم مزيد شرف وفضل لكونهم أصحاب الشرائع المشهورة والكتب المذكورة ومن أولى العزم من الرسل وتقديم ذكر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى وتقديم نوح فى آية شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا لانها سيقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم وما بعث به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من العهد الحديث وما بعث به من توسطهما من الانبياء المشاهير فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبة للمقصود من بيان أصالة الدين وقدمه قاله الكرخى ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا وما أخذه الله عليهم من عبادته والدعاء اليها ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين فأخذه عليهم فى المرة الاولى بمجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد ثم أخذه عليهم ثانية مغلظا شديدا ومثل هذه الآية قوله واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه أخرج الطبرانى وابن مردويه وابو نعيم فى الدلائل عن أبى مريم الغسانى ان اعرابيا قال يا رسول الله أى شئ كان أول نبوتك قال اخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ثم تلا هذه الآية

ى قال أى قال لعلكم تصطلون أى تستدفئون بها من البرد قال الله تعالى فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن أى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وهذا مما يرشد الى ان موسى قصد النار الى جهة القبلة والجبل الغربى عن يمينه والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتا فى أمرها فناداه ربه من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال رأيت الشجرة التى نودى منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف اسناده مقارب وقال محمد بن اسحق عن بعض من لا يتهم عن وهب بن منبه قال شجرة من العليق وبعض أهل الكتاب يقول انها من العوسج وعصاه من العوسج وقوله تعالى أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين أى الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا اله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه وقوله وأن ألق عصاك أى التى فى يدك كما قرره على ذلك فى قوله تعالى وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى والمعنى أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها فألقاها فاذا هى حية تسعى فعرف وتحقق ان الذى يكلمه ويخاطبه هو الذى يقول للشئ كن فيكون كما تقدم بيان ذلك فى سورة طه وقال ههنا فلما رآها تهتز أى تضطرب كأنها جان ولى مدبرا أى فى حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة الا ابتلعتها تنحدر فيها تتقعقع كأنها حادرة فى واد فعند ذلك ولى مدبرا ولم يعقب أى ولم يكن يلتفت لان طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله له أقبل ولا تخف انك من الآمنين رجع فوقف فى مقامه الاول ثم قال الله تعالى اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء أى اذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فانها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ولهذا قال من غير سوء أى من غير برص وقوله تعالى واضمم اليك جناحك من الرهب قال مجاهد من الفزع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام اذا خاف من شئ ان يضم اليه جناحه من الرهب وهو يده فاذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما اذا استعمل أحد ذلك على سبيل

الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال كان موسى عليه السلام قد ملئ قلبه رعباً من فرعون فكان إذا رآه قال اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره ففزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار وقوله تعالى فذانك برهانان من ربك يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ولهذا قال تعالى إلى فرعون وملئه أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع إنهم كانوا قوماً فاسقين أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه (قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته قال رب إني قتلت منهم نفساً يعني ذلك القبطي فأخاف أن يقتلون أي إذا رأوني وأخي هرون هو أفصح مني لساناً وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ولهذا قال واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري أي يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ولهذا قال إني أخاف أن يكذبون وقال محمد بن إسحق ردءاً يصدقني أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى سنشد عضدك بأخيك أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال في الآية الأخرى قد

نعم

إلى قوله ميثاقاً غليظاً ودعوة إبراهيم قال وابعث فيهم رسولاً منهم وبشرى عيسى بن مريم ورأت أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام وعن ابن عباس قال قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك قال وآدم بين الروح والجسد وعنه قال قيل يا رسول الله متى كنت نبياً قال وآدم بين الروح والجسد أخرجه البزار والطبراني وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الآية كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم أخرجه ابن عساكر وابن مردويه وأبو نعيم وعن ابن عباس قال ميثاقهم عهدهم وعنه قال إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم (ليسأل) أي لكي يسأل (الصادقين عن صدقهم) في تبليغ الرسالة إلى قومهم تبكيتاً للكافرين بهم وفي هذا وعيد لغيرهم لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم وقيل ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين وقوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم وقيل فعل ذلك ليسأل وقيل عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم والكافرين عن تكذيبهم فاستغنى عن الثاني بذكر مسببه وهو قوله (وأعد للكافرين) وقيل المعنى أثاب الصادقين وأعد للكافرين وقيل المعنى أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين وأعد للكافرين (عذاباً أليماً) قاله السمين وقيل الكلام قد تم عند قوله عن صدقهم وجملة وأعد مستأنفة لبيان ما أعده للكفار (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله) الكائنة (عليكم) هذا تحقيق لما سبق من الأمر بالتقوى بحيث لا يبقى معه خوف من أحد (إذ) أي حين (جاءتكم جنود) والمراد بهم جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغزوه إلى المدينة وهي الغزوة المسماة غزوة الخندق وكانت بعد حرب أحد بسنة وهم أبو سفيان بن حرب بقريش ومن معهم من الأحابيش وعيينة بن حصن الفزاري ومن معه من قومه غطفان وبنو قريظة والنضير فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة قاله ابن إسحق وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك كانت في سنة أربع وقد بسط أهل السير في هذه الواقعة ما هو معروف فلا نطيل بذكرها أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وابن

أوتيت سؤلك يا موسى وقال تعالى ووهبنا له من ر[حمتنا أخاه هرون ن]بيا ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون عليهما السلام فانه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه الى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى في حق موسى وكان عند الله وجيها وقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا أي حجة قاهرة فلا يصلون اليكما بآياتنا أي لا سبيل لهم الى الوصول الى أذاكم بسبب ابلاغكما آيات الله كما قال تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الى قوله والله يعصمك من الناس وقال تعالى الذين يبلغون رسالات الله الى قوله وكفى بالله حسيبا أي وكفى بالله ناصرا ومعينا ومؤيدا ولهذا أخبرهما ان العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون كما قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز وقال تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا الى آخر الآية ووجه ابن جرير على ان المعنى ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما ثم يبتدئ فيقول بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون تقديره انتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ولا شك ان هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الاول فلا حاجة الى هذا والله أعلم (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هرون الى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا انه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم الى العناد والمباهتة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا ما هذا الا سحر مفترى أي مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك وقوله وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين يعنون عبادة الله وحده لا شريك له يقولون ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ولم نر الناس الا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام مجيبا لهم ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده يعني مني ومنكم وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال ومن تكون له عاقبة الدار أي من النصرة والظفر والتأييد انه لا يفلح الظالمون أي المشركون بالله عز وجل (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله

نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال لقد رأيتنا ليلة الاحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الاحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ويقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة فما يستأذنه أحد منهم الا اذن له فيتسللون ونحن ثلاثمائة او نحو ذلك اذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا رجلا حتى مر علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد الا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي فأتاني وانا جاث على ركبتي فقال من هذا فقلت حذيفة قال حذيفة فتقاصرت الى الارض فقلت بلى يا رسول الله كراهية ان اقوم قال قم فقمت فقال انه كان في القوم خبر فأتني بخبر القوم قال وانا من اشد القوم فزعا واشدهم قرا فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته قال فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا في جوفي الا خرج من جوفي فما اجد منه شيأ فلما وليت قال يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيأ حتى تأتيني فخرجت حتى اذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد واذا رجل ادهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول الرحيل الرحيل ثم دخلت العسكر فاذا ادنى الناس مني بنو عامر يقولون يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم واذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبرا فوالله اني لاسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما انتصفت في الطريق او نحو ذلك اذا انا بنحو من عشرين فارسا معتمين فقالوا اخبر صاحبك ان الله كفاه القوم فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته وهو مشتمل في شملة يصلي وكان اذا حزبه امر صلى فأخبرته خبر القوم اني تركتهم يترحلون وانزل الله يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود الآية وعن ابن عباس في قوله اذ جاءتكم جنود قال كان يوم ابي سفيان يوم الاحزاب (فارسلنا عليهم ريحا) قال مجاهد هي ريح الصبا ارسلت على الاحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم وهي ريح تهب من الشرق وكانت باردة شديدة جدا ومع هذا لم تجاوزهم ويدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور اخرجه البخاري ومسلم

غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى واني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الالهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى فاستخف قومه فأطاعوه الآية وذلك لانه دعاهم الى الاعتراف له بالالهية فأجابوه الى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري وقال تعالى اخبارا عنه فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ان في ذلك لعبرة لمن يخشى يعني انه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحا لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة وحتى انه واجه موسى الكليم بذلك فقال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين وقوله فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى يعني أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته ان يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجرا لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الاخرى وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى واني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب وذلك لان فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه انما أراد بهذا ان يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى اله غير فرعون ولهذا قال واني لأظنه من الكاذبين أي في قوله ان ثم ربا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لانه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال وما رب العالمين وقال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري وهذا قول ابن جرير وقوله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الارض الفساد واعتقدوا انه لا قيامة ولا معاد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد ولهذا قال تعالى ههنا فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم أي أغرقناهم

وغيرهما من حديث ابن عباس وعنه قال لما كان ليلة الاحزاب جاءت الشمال الى الجنوب فقالت انطلقي فانصري الله ورسوله فقالت الجنوب ان الحرة لا تسري بالليل فغضب الله عليها وجعلها عقيما فأرسل الله عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم وقطعت أطنابهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور فذلك قوله فأرسلنا عليهم ريحا الآية وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون الا ذهب حزنه وللشعراء فيها كثير يعرفه كل من له المام بدواوينهم (وجنودا لم تروها) وهي الملائكة وكانوا ألفا ولم يقاتلوا وانما القوا الرعب في قلوب الاحزاب قال المفسرون بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض وأرسل الله عليهم الرعب وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه يا بني فلان هلم الي فاذا اجتمعوا قال لهم النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) أيها المسلمون من ترتيب الحرب وحفر الخندق واستنصاركم به وتوكلكم عليه (بصيرا) وقرئ يعملون بالتحتية أي بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله والتحزب على المسلمين واجتماعهم عليهم من كل جهة (اذ جاؤكم من فوقكم) أي اذكر اذ جاؤكم من أعلى الوادي وهو من جهة المشرق والذين جاؤا من هذه الجهة هم غطفان وسيدهم عيينة بن حصن وهوازن وسيدهم عوف ابن مالك وأهل نجد وسيدهم طليحة بن خويلد الاسدي وانضم اليهم عوف بن مالك وبنو النضير وعن عائشة في الآية قالت كان ذلك يوم الخندق (ومن أسفل منكم) أي من اسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة وهم قريش ومن معهم من الاحابيش وسيدهم أبو سفيان بن حرب وجاء أبو الاعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق ومعهم عامر بن الطفيل (واذ) معطوف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير (زاغت الابصار) أي مالت وعدلت عن كل شيء فلم تنظر الا الى عدوها مقبلا من كل جانب وقيل شخصت دهشا من فرط الهول والحيرة (وبلغت القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهي جوف الحلقوم وقيل رأس الغلصمة والغلصمة رأس الحلقوم وقيل هي منتهى الحلقوم والحلقوم مجرى الطعام والشراب وقيل مجرى النفس والمريء مجرى الطعام والشراب وهو تحت الحلقوم وقال الراغب رأس الغلصمة من

خارج

في البحر في صيحة واحدة فلم يبق منهم أحد فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ويوم القيامة لا ينصرون أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى أهلكناهم فلا ناصر لهم وقوله تعالى وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله وكما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك يوم القيامة هم من المقبوحين قال قتادة وهذه الآية كقوله تعالى وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم من انزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه وقوله تعالى من بعد ما أهلكنا القرون الاولى يعني انه بعد انزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الارض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الارض غير القرية التي مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى الآية ورواه ابن أبي حاتم من حديث عوف بن أبي جميلة الاعرابي بنحوه وهكذا رواه

خارج والمعنى ارتفعت القلوب عن مكانها ووصلت من الفزع والخوف الى الحناجر فلولا انه ضاق الحلقوم عنها وهو الذي نهاية الحنجرة لخرجت كذا قال قتادة وقيل هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب وان لم ترتفع القلوب الى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ولكنه مثل في اضطرابها وجبنها قال الفراء والمعنى انهم جبنوا وجزع أكثرهم وسبيل الجبان اذا اشتد الخوف ان تنتفخ رئته فاذا انتفخت الرئة ارتفع القلب الى الحنجرة ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) المختلفة فبعضهم ظن النصر ورجا الظفر وبعضهم ظن خلاف ذلك وقال الحسن ظن المنافقون انه يستأصل محمد وأصحابه وظن المؤمنون انه ينصر وقيل الآية خطاب للمنافقين والاولى ما قاله الحسن فيكون الخطاب لمن أظهر الاسلام على الاطلاق أعم من أن يكون مؤمنا في الواقع أو منافقا واختلف القراء في الالف في الظنونا فأثبتها وصلا ووقفا جماعة وتمسكوا بخط المصحف العثماني وجميع المصاحف في البلدان فان الالف فيها كلها ثابتة وتمسكوا أيضا بما في أشعار العرب من مثل هذا وأيضا ان هذه الالف تشبه هاء السكت لبيان الحركة وهاء السكت تثبت وقفا للحاجة اليها وقد تثبت وصلا اجراء للوصل مجرى الوقف وقرئ بحذفها في الوصل والوقف معا لانها لا أصل لها وقالوا هي من زيادات الخط فكتبت كذلك ولا ينبغي النطق بها وأما الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره وقولهم أجريت الفواصل مجرى القوافي غير معتد به لان القوافي يلزم الوقف عليها غالبا والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها وقرئ باثباتها وقفا وحذفها وصلا اجراء الفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الاطلاق ولانها كهاء السكت وهي تثبت وقفا وتحذف وصلا قاله السمين وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية وهذه الالف هي التي تسميها النحاة ألف الاطلاق والكلام فيها معروف في علم النحو وهكذا اختلف القراء في الالف التي في قوله الرسولا والسبيلا كما يأتي في آخر هذه السورة (هنالك ابتلي المؤمنون) ظرف مكان يقال للمكان البعيد هنالك كما يقال للقريب هنا وللمتوسط هناك أي في ذلك المكان الدحض وهو الخندق وقد يكون ظرف زمان أي عند ذلك الوقت ابتلوا وهو منصوب بابتلي وقيل بتظنون واستضعفه ابن عطية والمعنى ان في ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر وغيرها ليتبين المؤمن من المنافق

 أبو بكر البزار في مسنده عن عمرو بن علي الفلاس عن يحيى القطان عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفا ثم رواه عن نصر بن علي عن عبد الاعلى عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال (١) ما أهلك الله قوما من السماء والارض بعذاب بعد موسى ثم قرأ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى الآية وقوله بصائر للناس وهدى ورحمة أي من العمى والغي وهدى الى الحق ورحمة أي ارشادا الى العمل الصالح لعلهم يتذكرون أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه (وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا

(١) (قوله ما أهلك الله الخ) هكذا في نسخة وفي أخرى ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الارض الا قبل موسى الخ وحرراه

قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبر عن مريم وما كان من

أمرها قال تعالى وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون الآية أي وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين الآية وقال في آخر السورة ذلك من أنباء القرى نقصه عليك وقال بعد ذكر قصة يوسف ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون الآية وقال في سورة طه كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي وما كنت من الشاهدين لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين وقوله تعالى وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا أي وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ولكنا كنا مرسلين أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا علي بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني

واختبروا بالصبر على الإيمان (وزلزلوا زلزالا شديدا) قرأ الجمهور زلزلوا بضم الزاي الأولى وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بكسر الأولى وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسرا وقرأ الجمهور زلزالا بكسر الزاي الأولى وقرأ عاصم والجحدري وعيسى بن عمر بفتحها وهي لغة قال الزجاج كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح نحو قلقلته قلقالا وزلزلته زلزالا والكسر أجود وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال بمعنى مصلصل وزلزال بمعنى مزلزل قال ابن سلام معنى زلزلوا حركوا بالخوف تحريكا شديدا بليغا وقال الضحاك هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق وقيل المعنى أنهم اضطربوا اضطرابا مختلفا فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه (وإذ يقول المنافقون) يعني معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبي وأصحابه (والذين في قلوبهم مرض) هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب قيل هم قوم لا بصيرة لهم في دينهم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله) من النصر والظفر وفتح فارس والروم (إلا غرورا) أي باطلا من القول وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلا من أهل النفاق والشك وهذا القول المحكي عن هؤلاء كالتفسير للظنون المذكورة أي كان ظن هؤلاء هذا الظن كما كان ظن المؤمنين النصر وإعلاء كلمة الله (وإذ قالت طائفة منهم) قال مقاتل هم بنو سالم من المنافقين وقال السدي هم عبد الله بن أبي وأصحابه وقيل هم أوس بن قيظي وأصحابه والطائفة تقع على الواحد فما فوقه والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله (يا أهل يثرب لا مقام لكم) أي لا موضع لكم ولا مكان إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا في العسكر قرئ مقام بفتح الميم وبضمها على أنه مصدر من أقام يقيم وعلى الأولى هو اسم مكان وهما سبعيتان قال أبو عبيدة يثرب اسم الأرض ومدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ناحية منها قال السهيلي وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل وقيل يثرب اسم لنفس المدينة ولم تصرف للعلمية ووزن الفعل لأنه على وزن يضرب وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال

... وأجبتكم قبل أن تدعوني وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الاعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الاعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير انه قال ذلك من كلامه والله أعلم وقال مقاتل بن حيان وما كنت بجانب الطور اذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك اذا بعثت وقال قتادة وما كنت بجانب الطور اذ نادينا موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر ثم أخبر ههنا بصفة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى واذ نادى ربك موسى وقال تعالى اذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى وقال تعالى وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا وقوله تعالى ولكن رحمة من ربك أي ما كنت مشاهد الشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه اليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بارسالك اليهم لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا الآية أي وأرسلناك اليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم اذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بانهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره انزال كتابه المبارك وهو القرآن ان تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة وقال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال تعالى يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير الآية والآيات في هذا كثيرة (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة هي طابة ولفظ احمد انما هي طابة واسناده ضعيف وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ (فارجعوا) أمروهم بالهرب من عسكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم الى سلع والخندق بينهم وبين القوم فقال هؤلاء المنافقون ليس ههنا موضع اقامة وامروا الناس بالرجوع الى منازلهم بالمدينة وسلع جبل خارج المدينة قريب منها بينها وبين الخندق وقيل المعنى ارجعوا عن الايمان الى الكفر وقيل عن القتال والاول اولى (ويستأذن فريق منهم النبي) في الرجوع الى منازلهم وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون ان بيوتنا عورة) اى ضائعة سائبة ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدو وقال ابن عباس مخلية نخشى عليها السرق وعن جابر نحوه قال الزجاج يقال عور المكان يعور عورا وعورة وبيوت عورة وعورة وهي مصدر قال مجاهد ومقاتل والحسن قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق وقال قتادة قالوا بيوتنا مما يلي العدو ولا نأمن على اهلنا قال الهروي كل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة والعورة في الاصل الخلل في البناء ونحوه بحيث يمكن دخول السارق فيها فأطلقت على المختل والمراد ذوات عورة وقرئ عورة بكسر الواو اى قصيرة الجدران قال الجوهري العورة كل حال يتخوف منه في ثغر اوحرب قال النحاس يقال اعور المكان اذا تبينت فيه عورة واعور الفارس اذا تبين منه موضع الخلل ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله (وماهي بعورة) فكذبهم الله سبحانه فيما ذكروه ثم بين سبب استئذانهم وما يريدونه فقال (ان يريدون الا فرارا) أي ما يريدون الا الهرب من القتال وقيل المراد ما يريدون الا الفرار من الدين (ولو دخلت عليهم من أقطارها) يعني بيوتهم أو المدينة والاقطار النواحي جمع قطر وهو الجانب والناحية والمعنى لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها هذه العساكر المتحزبة ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة واستبيحت ديارهم وهتكت حرمهم ومنازلهم (ثم سئلوا الفتنة) من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة فيهم (لآتوها) أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة يعني ادخال بني حارثة أهل الشام على المدينة

انهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد لولا أوتى مثل ما أوتى موسى الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى الى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة التى أجراها الله تعالى على يدى موسى عليه السلام حجة وبراهين له على فرعون وملائه وبنى اسرائيل ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملائه

بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لهما أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال تعالى فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولهذا قال ههنا أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل أى أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة قالوا ساحران تظاهرا أى تعاونا وقالوا انا بكل كافرون أى بكل منهما كافرون ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر

فما أدرى اذا يممت أرضا
أريد الخير أيهما يلينى

أى فما أدرى يلينى الخير أو الشر قال مجاهد أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا قال يعنى موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم تظاهرا أى تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله ساحران يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوى والله أعلم وقال مسلم بن بشار عن ابن عباس قالوا ساحران تظاهرا قال يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصرى وقال الحسن وقتادة يعنى عيسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وهذا فيه بعد لان عيسى لم يجر له ذكر ههنا والله أعلم وأما من قرأ سحران تظاهرا فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال السدى يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال عكرمة يعنون التوراة والانجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره ابن جرير وقال الضحاك وقتادة

ومعنى الفتنة هنا اما القتال فى العصبية كما قال الضحاك او الشرك بالله او الرجعة الى الكفر الذى يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن قرئ لآتوها بالمد اى لاعطوها من انفسهم وبالقصر اى لجاؤها وفعلوها وهما سبعيتان (وما تلبثوا بها) اى بالمدينة بعد ان اتوا الفتنة (الا) تلبثا (يسيرا) حتى يهلكوا كذا قال الحسن والسدى والفراء والقتيبى وقال اكثر المفسرين ان المعنى وما احتبسوا عن فتنة الشرك الا قليلا بل هم مسرعون اليها راغبون فيها لا يقفون عنها الا مجرد وقوع السؤال لهم ولا يتعللون عن الاجابة بأن بيوتهم فى هذه الحالة عورة مع انها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعللوا عن اجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة ولم تكن اذ ذاك عورة ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله بالثبات فى الحرب وعدم الفرار عنه فقال (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) أى حلفوا من قبل غزوة الخندق ومن بعد بدر ان لا يولوا ظهورهم فرارا من العدو بل يثبتوا على القتال حتى يموتوا شهداء وهم قوم لم يحضروا وقعة بدر قال قتادة وذلك انهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (لا يولون الادبار) أى لا ينهزمون وجاء على حكاية اللفظ فجاء بلفظ الغيبة ولو جاء على حكاية المعنى لقيل لا نولى (وكان عهد الله مسؤلا) عنه ومطلوبا صاحبه بالوفاء به ومجازى على ترك الوفاء به (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) لانه لا بد لكل انسان من الموت اما حتف نفسه أو بقتل بالسيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى به القلم فمن حضر أجله مات أو قتل فر أو لم يفر (واذا لا تمتعون) أى وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع (الا) تمتعا أو زمانا (قليلا) بعد فراركم الى أن تنقضى آجالكم وكل آت قريب قرئ تمتعون بالفوقية والتحتية وبحذف النون (قل من ذا الذى يعصمكم) أى يجيركم (من الله ان أراد بكم سوأ) أى هلاكا أو هزيمة أو نقصا فى الاموال وجدبا ومرضا (أو) يصيبكم بسوء ان (أراد) الله (بكم رحمة) يرحمكم بها من خصب ونصر وعافية واطالة عمر وهذا على حد قوله علفتها تبنا وماء باردا وليس معمولا للسابق وهو يعصمكم لعدم صحة المعنى عليه وفى السمين قال الزمخشرى فان قلت كيف جعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة ولا عصمة الا من الشر قلت معناه أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام وأجرى

الانجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة سحران انهم يعنون التوراة والقرآن لانه قال بعده قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس الى أن قال وهذا كتاب أنزلناه مبارك وقال في آخر السورة ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن الآية وقال وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون وقالت الجن انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه وقال ورقة بن نوفل هذا الناموس الذي أنزل على موسى وقد علم

بالضرورة لذوي الالباب ان الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه انا أنزلنا التوراة فيه هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء والانجيل انما أنزل متمما للتوراة ومحللا لبعض ما حرم على بني اسرائيل ولهذا قال تعالى قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى فان لم يستجيبوا لك أي فان لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق فاعلم انما يتبعون أهواءهم أي بلا دليل ولا حجة ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين وقوله تعالى ولقد وصلنا لهم القول قال مجاهد فصلنا لهم القول وقال السدي بينا لهم القول قال قتادة يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع لعلهم يتذكرون قال مجاهد وغيره وصلنا لهم يعني قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظي وجعله ابن منده رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيي وهو الذي طلق تميمة بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا كذا ذكره ابن الاثير قال نزلت ولقد وصلنا لهم القول في عشرة أنا أحدهم رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه

يجري قوله متقدما استفاما ورجحا وحمل الثاني على الاول لما في العصمة من منع النفع قال الشيخ اما الوجه الاول ففيه حذف جملة لا ضرورة تدعو الى حذفها والثاني هو الوجه لاسيما اذا قدر مضاف محذوف أي يمنعكم من مراد الله قلت وأين الثاني من الاول ولو كان معه حذف جمل انتهى (ولا يجدون لهم من دون الله) أي غيره (وليا) يواليهم وينفعهم ويدفع الضر عنهم (ولا نصيرا) ينصرهم من عذاب الله (قد يعلم الله المعوقين منكم) يقال عاقه واعتاقه وعوقه اذا صرفه عن الوجه الذي يريده (والقائلين لاخوانهم هلم الينا) قال الواحدي قال المفسرون هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون انصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك انهم قالوا لهم ما محمد وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان وحزبه فخلوهم وتعالوا الينا وقيل ان القائل لهذه المقالة اليهود ومعنى هلم أقبل واحضر اسم فعل أمر وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث وعند غيرهم من العرب كبني تميم فعل أمر يقولون هلم للواحد المذكر وهلمي للمؤنث وهلما للاثنين وهلموا للجماعة وقد مر الكلام على هذا في سورة الانعام والمعنى ارجعوا الينا واتركوا محمدا فلا تشهدوا معه الحرب فانا نخاف عليكم الهلاك وقيل تعالوا الينا لنستريحوا يعني ان يهود المدينة طلبوا المنافقين ليستريحوا وخوفوا المؤمنين ليرجعوا وهلم هنا لازم وفي الانعام متعد لنصبه مفعوله وهو شهداءكم بمعنى أحضروهم وههنا بمعنى احضروا وتعالوا وكلام الزمخشري هنا مؤذن بانه متعد أيضا وحذف مفعوله فانه قال هلموا الينا أي قربوا أنفسكم الينا (ولا يأتون البأس) أي الحرب والقتال (الا) اتيانا (قليلا) خوفا من الموت ويقفون قليلا مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون وقيل المعنى لا يحضرون القتال الا رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة) أي بخلاء (عليكم) لا يعاونونكم بحفر الخندق ولا بالنفقة في سبيل الله قاله مجاهد وقتادة وقيل أشحة بالقتال معكم وقيل بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم وقيل اشحة بالغنائم اذا أصابوها قاله السدي العامة على نصب أشحة وفيه وجهان احدهما انه منصوب على الذم والثاني على الحال من ضمير يأتون قاله الزجاج أو هلم الينا قاله الطبري وقرئ بالرفع أي هم أشحة وهو جمع شحيح وهو جمع لا ينقاس عليه اذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء

نحو خليل وأخلاء وظنين وأظناء وضنين وأضناء وقد سمع أشحاء وهو القياس والشح البخل وتقدم في آل عمران قاله النحاس (فإذا جاء الخوف) من قبل العدو قاله السدي أو منه صلى الله عليه وآله وسلم قاله ابن شجرة (رأيتهم) أي أبصرتهم (ينظرون إليك) في تلك الحالة خوفا من القتال على القول الأول ومن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الثاني (تدور أعينهم) يمينا وشمالا لذهول عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة وقيل لشدة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه (كالذي يغشى عليه من الموت) أي كدوران عين الذي قرب من الموت وهو الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه فيذهل لبه ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف ويقال للميت إذا شخص بصره دارت عيناه ودارت حماليق عينيه (فإذا ذهب الخوف سلقوكم) أي استقبلوكم (بألسنة حداد) أي ذربة تفعل كفعل الحديد يقال سلق فلان فلانا بلسانه إذا أغلظ له في القول مجاهرا قال الفراء أي آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة ذربة ويقال خطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغا قال القتيبي المعنى آذوكم بالكلام الشديد والسلق الأذى قال ابن عباس معناه عضوكم وتناولوكم بالتنقص والغيبة قال قتادة المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم قال النحاس وهذا قول حسن (أشحة على الخير) أي على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة قاله يحيى بن سلام وقيل على المال أن ينفقوه في سبيل الله قاله السدي ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات (لم يؤمنوا) إيمانا خالصا بل هم المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (فأحبط الله أعمالهم) أي أبطلها يعني أظهر بطلانها لأنها لم تكن أعمالا صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله ويحبط قال مقاتل أبطل جهادهم لأنه لم يكن في إيمان أو المراد أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الإحباط لأعمالهم أو كان نفاقهم (على الله يسيرا) هينا بإرادته (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أي يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب أي قريشا وغطفان واليهود باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم ولم ينهزموا فقروا إلى

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به وقال تعالى وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله وقال تعالى إن الذين أوتوا الكتاب من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا وقال تعالى ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى إلى قوله فاكتبنا مع الشاهدين قال سعيد ابن جبير نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم يس والقرآن الحكيم حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له قال الله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ولهذا قال بما صبروا أي على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال إني لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميلا وقال فيما قال من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا وقوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ومما رزقناهم ينفقون أي ومن الذي رزقهم من الحلال

داخل المدينة وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع والفرق والجبن (وان يأت الأحزاب) مرة أخرى بعد هذه المرة والذهاب (يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) أي يتمنون لو أنهم كانوا في بادية لما حل بهم من الرهبة والبادي خلاف الحاضر يقال بدا يبدو بداوة اذا خرج الى البادية وسكنها (يسألون عن أنبائكم) واخباركم وما آل اليه أمركم وما جرى لكم كل قادم عليهم من جهتكم أو يسأل بعضهم بعضا عن الاخبار التي بلغته من اخبار الاحزاب ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى انهم يتمنون انهم بعيد عنكم يسألون عن اخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم وضعف نياتهم (ولو كانوا فيكم) أي معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال (ما قاتلوا) معكم (الا) قتالا (قليلا) خوفا من العار وحمية على الديار أو رياء من غير احتساب (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أي قدوة صالحة يقال لي في فلان أسوة أي لي به اقتداء والاسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم يوضع موضع المصدر يقال ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به قال الجوهري الاسوة والاسوة بالضم والكسر والجمع أسى وإسى وقد قرئ بهما وهما سبعيتان وهما أيضا لغتان كما قال الفراء وغيره وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال وخرج الى الخندق لنصرة دين الله اسوة والمعنى اقتدوا به اقتداء حسنا وهو ان تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو اذ كسرت رباعيته وجرح وشج وجهه وجاع بطنه وقتل عمه حمزة وأوذي بضروب الأذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته وهذه الآية وان كان سببها خاصا فهي عامة في كل شيء ومثلها وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوله قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله عن ابن عمر قال في الآية هذا في جوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة وهي خارجة عما نحن بصدده نعم فيه دلالة على لزوم الاتباع وترك التقليد الحادث الذي أصيب به الاسلام أي مصيبة وهل هذه الاسوة على الايجاب أو على الاستحباب فيه قولان قال القرطبي يحتمل ان تحمل على الايجاب في أمور الدين وعلى الاستحباب في أمور الدنيا (لمن كان يرجو الله) أي حسنة كائنة لمن يرجو الله والمراد انهم الذين يرجون

ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لاهليهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين أي اذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم الا كلام طيب ولهذا قال عنهم انهم قالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها قال محمد بن اسحق في السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم الى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا قال ويقال ان النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان قال ويقال والله أعلم ان فيهم نزلت هذه الآيات الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا نبتغي الجاهلين قال وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت قال ما زلت أسمع من علمائنا انهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم والآيات اللاتي في سورة المائدة ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا الى قوله فاكتبنا مع الشاهدين (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم انك يا محمد لا تهدي من أحببت أي ليس اليك ذلك انما عليك البلاغ

والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة كما قال تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وقال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت فى الصحيحين انها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى حقه ويحبه حبا طبعيا لا شرعيا فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان والدخول فى الاسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة قال الزهرى حدثنى سعيد ابن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومى رضى الله عنه قال لما حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أباجهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ياأباطالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى ان يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى وأنزل فى أبى طالب انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء أخرجاه من حديث الزهرى وهكذا رواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعماه قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال لولا ان تعيرنى بها قريش يقولون ماحمله عليه الا جزع الموت لاقررت بها عينك لا أقولها الا لاقر بها عينك فأنزل الله تعالى انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقال الترمذى حسن غريب لانعرفه الامن حديث يزيد بن كيسان ورواه الامام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حدثنى أبو حازم عن أبى هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى وقتادة انها نزلت فى أبى

الله ويخافون عذابه يعنى يرجون ثوابه ولقاءه (واليوم الآخر) أى انهم يرجون رحمة الله فيه أو يصدقون بحصوله وانه كائن لامحالة وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الاولى (وذكر الله) أى ولمن ذكر الله فى جميع أحواله ذكرا (كثيرا) وجمع بين الرجاء لله والذكر له فان بذلك تتحقق الاسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم بين سبحانه ماوقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للاحزاب ومشاهدتهم لتلك الجيوش التى أحاطت بهم كالبحر العباب فقال (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله) الاشارة بهذا الى مارأوه من الجيوش أو الى الخطب الذى نزل والبلاء الذى دهم وهذا القول منهم قالوه استبشارا بحصول ماوعدهم الله ورسوله من مجىء هذه الجنود وان يتعقب مجيئهم اليهم نزول النصر والظفر من عند الله وما فى ماوعدنا هى الموصولة أو المصدرية ثم أردفوا ماقالوه بقولهم (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبرهما ووجه اظهار الاسم الشريف والرسول بعد قوله ماوعدنا الله ورسوله هو قصد التعظيم وايضا الواحد منهما الجمع بين ضميرى الله ورسوله فى لفظ واحد وقال صدقا وقد ورد النهى عن جمعهما كما فى حديث بئس خطيب القوم انت لمن قال ومن يعصهما فقد غوى وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما فالجواب انه صلى الله عليه وآله وسلم اعرف بقدر الله منا وليس لنا ان نقول كما يقول قاله السمين (وما زادهم) مارأوه من اجتماع الاحزاب عليهم ومجيئهم (الا ايمانا) بالله (وتسليما) لامره قال الفراء مازادهم النظر الى الاحزاب الا ذلك قال على بن سليمان رأى يدل على الرؤية وتأنيث الرؤية غير حقيقى والمعنى مازادهم الرؤية الا ايمانا بالرب وتسليما للقضاء ولو قال مازادتهم لجاز وعن ابن عباس قال فى الآية ان الله قال لهم فى سورة البقرة أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الاحزاب فى الخندق قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله فأول المؤمنون ذلك ولم يزدهم الا ايمانا وتسليما (من المؤمنين) المخلصين (رجال صدقوا) أى أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال الصدق (ماعاهدوا الله عليه) أى وفوا بما عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة من الثبات معه والمقاتلة لمن قاتله بخلاف من كذب فى عهده وخان الله ورسوله وهم المنافقون وقيل هم الذين نذروا انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله

صلى

طالب حين عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول لا اله الا الله فأبى عليه ذلك وقال اى ابن أخى ملة الأشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد قال كان رسول قيصر جاء الى قال كتب معى قيصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه فى حجره ثم قال ممن الرجل قلت من تنوخ قال هل لك فى دين أبيك ابراهيم الحنيفية قلت انى رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع اليهم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر الى أصحابه وقال انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وقوله تعالى وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أى يخشى ان اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالاذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا قال الله تعالى مجيبا لهم أولم نمكن لهم حرما آمنا يعنى هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل لان الله تعالى جعلهم فى بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم فى حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد اسلموا وتابعوا الحق وقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ أى من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك المتاجر والامتعة رزقا من لدنا أى من عندنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النسائى أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة قال قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه ان الحرث بن عامر بن نوفل الذى قال ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) يقول تعالى معرضا باهل مكة فى قوله تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها أى طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الارزاق كما قال فى الآية الاخرى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان الى قوله فأخذهم العذاب وهم ظالمون ولهذا قال تعالى فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا أى دثرت ديارهم فلا ترى الا مساكنهم وقوله تعالى وكنا نحن الوارثين أى رجعت خرابا ليس

صلى الله عليه وآله وسلم ثبتوا له ولم يفروا أخرج البخارى وغيره عن أنس قال نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر وأخرج ابن سعد وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى والبغوى فى معجمه وابن جرير وابن أبى حاتم وابو نعيم والبيهقى عن أنس قال غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غبت عنه لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليرين الله ما أصنع فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو أين قال واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين طعنة وضربة ورمية ونزلت هذه الآية وكانوا يرون انها نزلت فيه وفى أصحابه وقد روى عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذى وصححه والنسائى وغيرهما وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم قال أشهد ان هؤلاء شهداء عند الله فأتوهم وزوروهم والذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد الى يوم القيامة الا ردوا عليه وقد تعقب الحاكم فى تصحيحه الذهبى كما ذكر ذلك السيوطى ولكنه قد أخرج الحاكم حديثا آخر وصححه وأخرجه أيضا البيهقى فى الدلائل عن أبى ذر قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد مر على مصعب بن عمير مقتولا على طريقه فقرأ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية وأخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله وهما يشهدان لحديث أبى هريرة ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله وقسمهم الى قسمين فقال (فمنهم من قضى نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد وقال ابن عمر أى مات على ما هو عليه من التصديق والايمان والنحب ما التزمه الانسان واعتقد الوفاء به وأوجبه على نفسه والقتل والموت قال ابن قتيبة قضى نحبه أى قتل وأصل النحب النذر كانوا يوم بدر نذروا ان لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله لهم فقتلوا فقيل فلان قضى نحبه أى قتل والنحب أيضا الحاجة وادراك الامنية يقول قائلهم ما لى عندهم نحب والنحب العهد ومعنى الآية ان من المؤمنين رجالا أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا وذلك يوم أحد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر أخرج

فيها أحد وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر ان سليمان عليه السلام قال للهامة يعني البومة ما لك لا تأكلين الزرع قالت لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه قال فما لك لا تشربين الماء قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح فيه قال فما لك لا تأوين الا الى الخراب قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا وكنا نحن الوارثين ثم قال تعالى مخبرا عن عدله وأنه لا يهلك أحدا ظالما له وانما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها وهي مكة رسولا يتلو عليهم آياتنا فيه دلالة على ان النبي الأمي وهو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول الى جميع القرى من عرب وأعجام كما قال تعالى لتنذر أم القرى ومن حولها وقال تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وقال لأنذركم به ومن بلغ وقال ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده وتمام الدليل قوله تعالى وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا الآية فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث الى أمها وأصلها التي ترجع اليها وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال بعثت الى الأحمر والأسود ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار الى يوم القيامة وقيل المراد بقوله حتى يبعث في أمها رسولا أي أصلها وعظيمها كأمهات الرساتيق والأقاليم حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة الى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقال وما عند الله خير للأبرار وقال وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع وقال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما الحياة الدنيا في الآخرة الا كما يغمس أحدكم اصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع اليه وقوله تعالى أفلا تعقلون أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة وقوله تعالى أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه

الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن طلحة ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا لأعرابي جاهل سله عمن قضى نحبه من هو وكانوا لا يجترئون على مسئلته يوقرونه ويهابونه فسأله الاعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم اني اطلعت من باب المسجد فقال أين السائل عمن قضى نحبه قال الاعرابي أنا قال هذا ممن قضى نحبه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من حديثه نحوه وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه وعن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من سره أن ينظر الى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر الى طلحة أخرجه سعيد بن منصور وأبو يعلى وأبو نعيم وابن المنذر وغيرهم وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله وأخرج ابن منده وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن علي ان هذه الآية نزلت في طلحة وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأحزاب الآن نغزوهم ولا يغزونا (ومنهم من ينتظر) قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان ابن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم فانهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقتال لعدوه ومنتظرون لقضاء نحبهم وحصول أمنيتهم بالقتل وادراك فضل الشهادة (وما بدلوا تبديلا) أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم بل ثبتوا عليه ثبوتا مستمرا أما الذين قضوا نحبهم فظاهر وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا (ليجزي الله) اللام يجوز أن يتعلق بصدقوا أو بزادهم أو بما بدلوا أو بمحذوف كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزي الله (الصادقين بصدقهم) أي بوفائهم بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء) اذا لم يتوبوا (أو يتوب عليهم) فما صدر عنهم من التغيير والتبديل ان تابوا جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم فكل من الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبها والسعي لتحصيلها ومفعول ان شاء وجوابها محذوف أي ان شاء تعذيبهم عذبهم وذلك اذا أقاموا على النفاق ولم يتركوه ولم يتوبوا عنه (ان

متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين يقول تعالى أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الاعمال من الثواب الذي هو صائر اليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل ثم هو يوم القيامة من المحضرين قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل انها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل وقيل في حمزة وعلي وأبي جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر انها عامة وهذا كقوله تعالى اخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات وذاك في الدركات فقال ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٢٦٧) وقال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) يقول تعالى مخبرا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الاصنام والانداد هل ينصرونكم أو ينتصرون وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون وقوله قال الذين حق عليهم القول يعني الشياطين والمردة والدعاة الى الكفر ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون فشهدوا عليهم انهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرؤا من عبادتهم كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال الخليل عليه السلام لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا الآية وقال الله

(ان الله كان غفورا) لمن تاب منهم بقبول التوبة (رحيما) بمن أقلع عما كان عليه من النفاق بعفو الحوبة ثم رجع سبحانه الى حكاية بقية القصة وما امتن به على رسوله والمؤمنين من النعمة فقال (ورد الله الذين كفروا) وهم الاحزاب كأنه قيل وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا (بغيظهم) الباء للسببية (لم ينالوا خيرا) المعنى ان الله ردهم بغيظهم لم يشف صدورهم ولا نالوا خيرا في اعتقادهم وهو الظفر بالمسلمين أو لم ينالوا خيرا أي خير بل رجعوا خاسرين لم يربحوا الا عناء السفر وغرم النفقة (وكفى الله المؤمنين القتال) بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة (وكان الله قويا) على كل ما يريده اذا قال له كن فيكون (عزيزا) قاهرا غالبا لا يغالبه أحد من خلقه ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته روى البخاري عن سليمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين انجلى الاحزاب يقول الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير اليهم (وأنزل الذين ظاهروهم) أي عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة فانهم عاونوا الاحزاب من قريش وغطفان ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا يدا واحدة مع الاحزاب وكانت في آخر ذي القعدة سنة خمس وقيل سنة أربع (من صياصيهم) جمع صيصة وهي الحصون وكل شئ يتحصن به فهو صيصة ومنه صيصة الديك وهي الشوكة التي في رجله وصياصي البقر والظباء قرونها لانها تمتنع بها ويقال للشوكة الحائك التي يسوى بها السدى والحمة صيصة وأخرج أحمد وابن مردويه وابن أبي شيبة عن عائشة خرجت يوم الخندق أقفو الناس فاذا أنا بسعد بن معاذ رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة بسهم فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله سعد فقال اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة فبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد قالت فجاء جبريل وان على ثناياه لوقع الغبار فقال أوقد وضعت السلاح لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح اخرج الى بني قريظة فقاتلهم فلبس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته وأذن في الناس بالرحيل ان يخرجوا فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما اشتد

تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب الى قوله وما هم بخارجين من النار ولهذا قال
وقيل ادعوا شركاءكم ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب أي وتيقنوا
انهم صائرون الى النار لا محالة وقوله لو انهم كانوا يهتدون أي فودوا حين عاينوا العذاب لو انهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا
وهذا كقوله تعالى ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا
انهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا وقوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين النداء الاول عن سؤال
التوحيد وهذا فيه اثبات النبوات
ماذا كان جوابكم للمرسلين اليكم
وكيف كان حالكم معهم وهذا كما
يسئل العبد في قبره من ربك ومن
نبيك وما دينك فأما المؤمن فيشهد
أنه لا اله الا الله وأن محمدا عبده
ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه
لا أدري ولهذا لا جواب له يوم
القيامة غير السكوت لان من كان في
هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى
وأضل سبيلا ولهذا قال تعالى
فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم
لا يتساءلون قال مجاهد فعميت عليهم
الحجج فهم لا يتساءلون بالانساب
وقوله فأما من تاب وآمن وعمل صالحا
أي في الدنيا فعسى أن يكون من
المفلحين أي يوم القيامة وعسى من
الله موجبة فان هذا واقع بفضل الله
ومنته لا محالة (وربك يخلق ما يشاء
ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله
وتعالى عما يشركون وربك يعلم
ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو
الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى
والآخرة وله الحكم واليه ترجعون)
يخبر تعالى انه المنفرد بالخلق
والاختيار وانه ليس له في ذلك منازع
ولا معقب قال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار أي ما يشاء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالامور كلها خيرها
وشرها بيده ومرجعها اليه وقوله ما كان لهم الخيرة نفي على أصح القولين كقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله
ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم وقد اختار ابن جرير ان ما ههنا بمعنى الذي تقديره ويختار الذي لهم فيه خيرة وقد
احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الاصلح والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضا فان
المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وانه لا نظير له في ذلك ولهذا قال سبحان الله وتعالى عما يشركون أي من

صلى

حصرهم واشتد البلاء عليهم قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى سعد
ابن معاذ فأتي به على حمار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احكم فيهم قال فاني
أحكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم فقال لقد حكمت فيهم
بحكم الله وحكم رسوله (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم
للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي وهي معنى قوله (فريقا تقتلون) منهم (وتأسرون فريقا)
قرئ الفعلان بالفوقية وبالتحتية فيهما على الخطاب وبالفوقية في الاول وبالتحتية في
الثاني فالفريق الاول هم الرجال والفريق الثاني هم النساء والذرية والجملة مبينة ومقررة
لقذف الرعب في قلوبهم ووجه تقديم المفعول في الاول وتأخيره في الثاني ان الرجال لما
كانوا أهل الشوكة وكان الوارد عليهم أشد الامرين وهو القتل كان الاهتمام بتقديم
ذكرهم أنسب بالمقام وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين فقيل كان المقتولون
من ستمائة الى سبعمائة وقيل ستمائة وقيل سبعمائة وقيل ثمانمائة وقيل تسعمائة
وكان المأسورون سبعمائة وقيل سبعمائة وخمسين وقيل تسعمائة (وأورثكم أرضهم)
أي عقارهم ونخيلهم (وديارهم) أي منازلهم وحصونهم (وأموالهم) أي الحلي والأثاث
والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير والنقود والامتعة (و) أورثكم (أرضا لم تطؤها)
بعد بقصد القتال واختلف المفسرون في تعيين هذه الارض المذكورة فقال يزيد بن
رومان وابن زيد ومقاتل انها خيبر ولم يكونوا اذ ذاك قد نالوها فوعدهم الله بها قال سليمان
الجمل وأخذت بعد قريظة بسنتين أو ثلاث لان خيبر كانت في السابعة في المحرم وهي
مدينة كبيرة ذات حصون عالية وذات مزارع ونخل كثير بينها وبين المدينة الشريفة
أربع مراحل انتهى ملخصا وتمام هذه القصة في سيرة الحلبي وقال قتادة كنا نحدث انها
مكة وقال الحسن فارس والروم وقال عكرمة هي كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم
القيامة والمضي لتحقق وقوعه (وكان الله على كل شيء قديرا) أي هو سبحانه قدير على كل
ما أراده من خير وشر ونعمة ونقمة وعلى انجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين (يا أيها النبي قل
لازواجك) قيل هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من ايذاء النبي صلى الله عليه
وآله وسلم وكان قد تأذى ببعض الزوجات قال الواحدي قال المفسرون ان أزواج النبي

الاصنام والانداد التي لا تخلق ولا تختار شيأ ثم قال تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون اى يعلم ما تكن الضمائر وما تنطوي عليه السرائر كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وقوله وهو الله لا اله الا هو أي هو المنفرد بالالهية فلا معبود سواه كما لا رب يخلق ويختار سواه له الحمد في الاولى والآخرة أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته وله الحكم اى الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته واليه ترجعون أي جميعكم يوم القيامة فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الاعمال (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم دونهما وبين انه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا الى يوم القيامة لاضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى من اله غير الله يأتيكم بضياء أي تبصرون به وتستأنسون بسببه أفلا تسمعون ثم أخبر تعالى انه لو جعل النهار سرمدا أي دائما مستمرا الى يوم القيامة لاضر ذلك بهم ولتعبت الابدان وكلت من كثرة الحركات والاشغال ولهذا قال تعالى من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم أفلا تبصرون ومن رحمته أي بكم جعل لكم الليل والنهار أي خلق هذا وهذا لتسكنوا فيه أي في الليل ولتبتغوا من فضله أي في النهار بالاسفار والترحال والحركات والاشغال وهذا من باب اللف والنشر وقوله ولعلكم تشكرون أي تشكرون الله بانواع العبادات في الليل والنهار ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا والآيات في هذا كثيرة (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله الها آخر يناديهم

صلى الله عليه وآله وسلم سألنه شيأ من عرض الدنيا وطلبن منه الزيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فآلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهن شهرا وأنزل الله آية التخيير هذه وكن يومئذ تسعا عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وسودة وهؤلاء من نساء قريش وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية واختلف في عدة أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم وترتيبهن وعدة من مات منهن قبله ومن مات هو عنهن ومن دخل بها ومن لم يدخل بها ومن خطبها ولم ينكحها ومن عرضت نفسها عليه والمتفق على دخوله بهن احدى عشرة امرأة كذا في المواهب وقد بسط الكلام عليهن في المقصد الثاني منه جدا فارجع اليه ان شئت (ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) أي سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الاموال والتنعم فيها (فتعالين) أي أقبلن الي بارادتكن واختياركن لاحد الامرين (أمتعكن) أي أعطكن المتعة (وأسرحكن) أي أطلقكن قرأ الجمهور في الفعلين بالجزم جوابا للامر وقيل ان جزمهما على انهما جواب الشرط وعلى هذا يكون قوله فتعالين اعتراضا بين الشرط والجزاء وقرئ بالرفع فيهما على الاستئناف (سراحا جميلا) المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة (وان كنتن تردن الله ورسوله) أي تردن رسوله وذكر الله للايذان بجلالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنده تعالى (والدار الآخرة) أي الجنة ونعيمها (فان الله أعد للمحسنات منكن) أي اللاتي عملن عملا صالحا (أجرا عظيما) لا يمكن وصفه ولا يقادر قدره وذلك بسبب احسانهن وبمقابلة صالح عملهن وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه على قولين الاول انه خيرهن باذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترن البقاء وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي والزهري وربيعة والثاني انه انما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن وبين الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهن في الطلاق وبهذا قال علي والحسن وقتادة والراجح الاول واختلفوا أيضا في المخيرة اذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا فذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا لا واحدة ولا أكثر وقال علي وزيد بن ثابت ان اختارت زوجها فواحدة بائنة وبه قال الحسن والليث وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك والراجح الاول لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت خيرنا

الرب تعالى على رؤس الاشهاد فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون أي في دار الدنيا ونزعنا من كل أمة شهيدا قال مجاهد يعني رسولا وقلنا هاتوا برهانكم أي على صحة ما ادعيتموه من ان لله شركاء فعلموا ان الحق لله اي لا اله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا وضل عنهم ما كانوا يفترون أي ذهبوا فلم ينفعوهم (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين) قال الأعمش عن المنهال

ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ان قارون كان من قوم موسى قال كان ابن عمه وهكذا قال ابراهيم النخعي وعبد الله بن الحرث ابن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام قال ابن جريج هو قارون بن يصهر ابن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث وزعم محمد بن اسحق بن يسار ان قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام قال ابن جريج وأكثر أهل العلم على انه كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فاهلكه البغي لكثرة ماله وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه وقوله وآتيناه من الكنوز أي الاموال ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة أي ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها قال الأعمش عن خيثمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فاذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا وقيل غير ذلك والله أعلم وقوله اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين أي وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ان الله لا يحب الفرحين قال ابن عباس يعني المرحين وقال مجاهد يعني الاشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم وقوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب اليه بانواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاخترناه فلم يعده طلاقا ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقا ودعوى انه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بان المخير لم يرد الفرقة بمجرد التخيير بل أراد تفويض المرأة وجعل أمرها بيدها فان اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية وان اختارت الفرقة صارت مطلقة واختلفوا في اختيارها نفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة فقال بالاول عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبي ليلى والثوري والشافعي وقال بالثاني علي وأبو حنيفة وأصحابه وروي عن مالك والراجح الاول لانه يبعد كل البعد ان يطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه على خلاف ما أمره الله به وقد أمره بقوله اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وروي عن زيد بن ثابت انها اذا اختارت نفسها فثلاث طلقات وليس لهذا القول وجه وقد روي عن علي انها اذا اختارت نفسها فليس بشئ واذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن مردويه عن جابر قال أقبل ابو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس فلم يؤذن له ثم اقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لابي بكر وعمر فدخلا والنبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لاكلمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفا فوجأت في عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه وقال هن حولي يسألنني النفقة فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان تسألان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس عنده فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن نساؤه والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال اني ذاكر لك أمرا ما أحب ان تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت ما هو فتلا عليها يا أيها النبي قل لازواجك الآية قالت عائشة أفيك أستأمر أبوي بل أختار الله ورسوله وأسألك ان لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال ان الله لم يبعثني متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا لا تسألني امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت فبدأ بي فقال اني ذاكر لك أمرا فلا عليك

أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولاهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذي حق حقه وأحسن كما أحسن الله اليك أي احسن الى خلقه كما أحسن هو اليك ولا تبغ الفساد في الارض أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الارض وتسيء الى خلق الله ان الله لا يحب المفسدين (قال انما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) يقول تعالى مخبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه الى الخير قال انما أوتيته على علم عندي أي أنا لا أفتقر الى ما تقولون فان الله تعالى انما أعطاني هذا المال لعلمه باني أستحقه ولمحبته لي فتقديره انما أعطيته لعلم الله في أني أهل له وهذا كقوله تعالى واذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم أي على علم من الله بي وكقوله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي أي هذا أستحقه وقد روي عن بعضهم أنه أراد انما أوتيته على علم عندي أي أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لان علم الكيمياء في نفسه علم باطل لان قلب الاعيان لا يقدر أحد عليها الا الله عز وجل قال الله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات الى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال وجهل وضلال وانما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الامر وليس كذلك قطعا لا محالة ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الافاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الاولياء من قلب بعض الاعيان ذهبا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وانما هذا عن مشيئة رب الارض والسموات واختياره وفعله كما روي عن حيوة بن شريح المصري رحمه الله أنه سأله سائل فلم يكن عنده

ان لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم ان أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه فقال ان الله قال يا أيها النبي قل لازواجك الى تمام الآية فقلت ففي أي هذا أستأمر أبوي فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما فعلت ثم لما اختار نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اياه أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيما لحقهن فقال (يا نساء النبي من يأت منكن) من بيانية لانهن كلهن محسنات (بفاحشة) أي معصية (مبينة) أي ظاهرة القبح واضحة الفحش وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن فهو كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقيل المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق وقال قوم الفاحشة اذا وردت معرفة فهي الزنا واللواط واذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي واذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته وقالت فرقة قوله هذا يعم جميع المعاصي وكذلك الفاحشة كيف وردت (يضاعف لها العذاب ضعفين) أي يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء اذا أتين بمثل تلك الفاحشة وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن ولان ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لاحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الاحرار على العبيد وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع ان تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه اذا عصى تضاعف العقوبات وقرئ يضعف على البناء للمفعول وفرق أبو عمرو وأبو عبيد بين يضاعف ويضعف فقالا يكون يضاعف ثلاثة عذابات ويضعف عذابين قال النحاس هذه التفرقة التي جاآ بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي يجعل ضعفين وهكذا ضعف ما قالاه ابن جرير قال قوم لو قدر الله الزنا من واحدة وقد أعاذهن الله عن ذلك لكانت تحد حدين لعظم قدرها كما يزاد حد الحرة على الامة والعذاب بمعنى الحد قال تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المرتين وقال مقاتل هذا التضعيف في العذاب انما هو في الآخرة كما أن ايتاء الاجر مرتين في الآخرة وهذا احسن لان نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأتين بفاحشة توجب حدا وقد قال ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط وانما خانتا

ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأحالها في كفه ثم أعطاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه والصحيح المعنى الأول ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) أي قد كان من هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة منا له وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أي لكثرة ذنوبهم قال قتادة (على علم عندي) على خير عندي وقال السدي على علم إني أهل لذلك وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فإنه قال في قوله قال إنما أوتيته على علم عندي قال لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال وقرأ (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) الآية (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون) يقول تعالى مخبراً عن قارون إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم أي ذو حظ وافر من الدنيا فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وقوله ولا يلقاها إلا الصابرون قال السدي وقد ولا يلقى الجنة إلا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم قال ابن جرير ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) لما ذكر تعالى اختيال

في الإيمان والطاعة وقال بعض المفسرين العذاب الذي توعدن بضعفين هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وكذلك الأجر قال ابن عطية وهذا ضعيف اللهم إلا أن يكون أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة على ما هو حال الناس عليه بحكم حديث عبادة بن الصامت وهذا أمر لم يرد في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا حفظ تقريره (وكان ذلك) أي تضعيف العذاب (على الله يسيراً) هيناً لا يتعاظمه ولا يصعب عليه فليس كونكن تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكونكن جليلات شريفات بما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حتى يتعذر عليه تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهن وأعوانهن أو شفعائهن وإخوانهن (ومن يقنت) قرئ بالتحتية وكذا يأت منكن حملاً على لفظ من في الموضعين وقرئ بالفوقية حملاً على المعنى والقنوت الطاعة أي تطع (منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) يعني أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة وفي هذا دليل قوي على أن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً لأن المراد إظهار شرفهن ومزيتهن في الطاعة والمعصية بكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين ولو كانت كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن على الحسنة بمرتين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين (وأعتدنا لها) زيادة على الأجر مرتين (رزقاً كريماً) جليل القدر قال المفسرون هو نعيم الجنة حكى ذلك عنهم النحاس ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً فقال (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) قال الزجاج لم يقل كواحدة من النساء لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة وقد يقال على ما ليس بآدمي كما يقال ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال (إن اتقيتن) الله وأطعتنه فإن الأكرم عند الله هو الأتقى فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن التقوى لا لمجرد اتصالهن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

وقدوقعت منهن ولله الحمد التقوى البينة والايمان الخالص والمشى على طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حياته وبعد مماته وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان اتقيتن فلستن كاحد من النساء وقيل ان جوابه قوله (فلا تخضعن بالقول) والاول اولى والمعنى لاتلن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ولاترققن الكلام قال ابن عباس يقول لاترخص بالقول ولاتخضعن بالكلام وعنه قال مقاربة الرجال بالقول فانه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهى قوله (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وشهوة أوشك وريبة أونفاق والمعنى لاتقلن قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة فى المقال اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع فيهن (وقلن قولا معروفا) عند الناس أى حسنا مع كونه خشنا بعيدا من الريبة على سنن الشرع لاينكر منه سامعه شيأ ولايطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه أوقولا يوجبه الاسلام والدين عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالى والاول أولى (وقرن فى بيوتكن) قرأ الجمهور بكسر القاف من وقر يقر وقارا أى سكن والامر منه قر بكسر القاف وللنساء قرن مثل عدن وزن وقال المبرد هو من القرار لامن الوقار تقول قررت بالمكان بفتح الراء والاصل اقررن بكسر الراء فحذفت الراء الاولى تخفيفا كما قالوا فى ظللت ظلت ونقلوا حركتها الى القاف واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف وقال أبوعلى الفارسى أبدلت الراء الاولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت فى قيراط ودينار وصارت الياء حركة الحرف الذى أبدلت منه والتقدير اقيرن ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين وتسقط همزة الوصل لتحريك مابعدها فيصير قرن وقرئ بفتح القاف وأصله قررت بالمكان اذا أقمت فيه بكسر الراء أقر بفتح القاف كحمد يحمد وهى لغة أهل الحجاز ذكر ذلك أبوعبيد عن الكسائى وذكرها الزجاج وغيره قال الفراء هو كما تقول هل حست صاحبك أى هل أحسسته قال أبوعبيد كان اشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف وذلك لان قررت بالمكان أقر لايجوزه كثير من أهل العربية والصحيح قررت أقر بالكسر ومعنى الآية الامر لهن بالتوقر والسكون فى بيوتهن وان لايخرجن وهذا يخالف ماذكرناه هنا عنه عن الكسائى وهو من أجل مشايخه وقد وافقه على الانكار لهذه

قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بانه خسف به وبداره الارض كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل يجر ازاره اذ خسف به فهو يتجلجل فى الارض الى يوم القيامة ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وقال الامام أحمد حدثنا النضر بن اسمعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الاعمش عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الارض فاخذته فانه ليتجلجل فيها الى يوم القيامة تفرد به أحمد واسناده حسن وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعلى بن منصور أخبرنى محمد بن مسلم سمعت زيادا النميرى يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما فامر الله الارض فاخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الشكر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر اليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر الى فقلت أعجب من جمالك وكمالك فقال ان الله ليعجب منى قال فمازال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فاخذه بعض قرابته فى كمه وذهب به وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله عليه السلام واختلف فى سببه فعن ابن عباس والسدى ان قارون أعطى امرأة بغيا مالا على ان تبهت موسى بحضرة الملا من بنى اسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول ياموسى انك فعلت بى كذا وكذا فلما قالت ذلك فى الملا لموسى عليه السلام أرعدت من الفرق وأقبل عليها بعد ماصلى ركعتين ثم قال أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتنى بالذى حملك على ماقلت فقالت اما اذا نشدتنى فان قارون أعطانى كذا وكذا على ان أقول ذلك لك وانا استغفر الله وأتوب اليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله فى قارون فاوحى الله اليه ان قد أمرت الارض ان تطيعك فيه فامر موسى الارض ان تبتلعه وداره فكان ذلك وقيل ان قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه

الثياب الارجوان المصبغة فرفي حفل ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون الى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال ما حملك على ما صنعت فقال يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي وادعو عليك فخرج موسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام تدعو أو ادعو أنا فقال بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى أدعو قال نعم فقال موسى اللهم مر الارض أن تطيعني اليوم فأوحى الله اليه اني قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم الى أقدامهم ثم قال خذيهم فأخذتهم الى ركبهم ثم الى مناكبهم ثم قال اقبلي بكنوزهم وأموالهم قال فأقبلت بها حتى نظروا اليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الارض وعن ابن عباس قال خسف بهم الى الارض السابعة وقال قتادة ذكر لنا انه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها الى يوم القيامة وقد ذكرهما اسرائيليات أضربنا عنها صفحا وقوله تعالى فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين أي ما أغنى عنه ماله وما جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره وقوله تعالى وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس أي الذين لما رأوه في زينته قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي ليس المال بدال على رضى الله عن صاحبه فان الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وان الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الايمان الا من يحب وليس لولا ان من الله علينا لخسف بنا أي لولا لطف الله بنا واحسانه الينا لخسف بنا كما خسف به لانا وددنا ان نكون مثله ويكأنه لا يفلح الكافرون يعنون انه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويلك اعلم ان ولكن خففت فقيل ويك ودل فتح ان على حذف اعلم وهذا القول ضعفه ابن جرير

القراءة أبو حاتم فقال ان قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب قال النحاس قد خولف أبو حاتم في قوله انه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان أحدهما ما حكاه الكسائي والآخر عن علي بن سليمان فأما المذهب الذي حكاه الكسائي فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيدة عنه وأما المذهب الذي حكاه علي بن سليمان فقال انه من قررت به عينا أقر وقيل المعنى واقررن به عينا في بيوتكن قال النحاس وهو وجه حسن وأقول ليس بحسن ولا هو معنى الآية فان المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار في بيوتهن وليس من قرة العين أي الزمن بيوتكن عن محمد بن سيرين قال نبئت انه قيل لسودة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما لك لا تحجين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرني الله ان أقر في بيتي فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) التبرج ان تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور قال المبرد هو مأخوذ من السعة يقال في أسنانه برج اذا كانت متفرقة والمعنى اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال وقيل التبرج هو التغنج والتبختر والتكسر في المشي وهذا ضعيف جدا والاول أولى وقد اختلف في المراد بالجاهلية الاولى فقيل ما بين آدم ونوح أو زمن داود وسليمان وقيل ما بين نوح وادريس قاله ابن عباس وكانت ألف سنة وقيل ما بين نوح وابراهيم وقيل ما بين موسى وعيسى أو ما بين عيسى ومحمد قاله ابن عباس وقيل ما قبل الاسلام والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان أو الاولى جاهلية الكفر والاخرى جاهلية الفسوق والفجور في الاسلام وقد بين حكمها في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الخ وقيل تذكر الاولى وان لم يكن لها أخرى وقال المبرد الجاهلية الاولى كما تقول الجاهلية الجهلاء قال وكان نساء الجاهلية تظهرن ما يقبح اظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فينفرد خليلها بما فوق الازار الى أعلى وينفرد زوجها بما دون الازار الى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل قال ابن عطية والذي يظهر لي انه أشار الى الجاهلية التي لحقنها وادركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة لانهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة الى ما كن عليه

والظاهر انه قوي ولا يشكل على ذلك الا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والله أعلم وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة وقيل معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه وكأن بمعنى أظن وأحتسب قال ابن جرير وأقوى الاقوال في هذا قول قتادة انها بمعنى ألم تر ان واستشهد بقول الشاعر سألتاني الطلاق ان رأتاني * قل مالي قد جئتماني بنكر ويكأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيآت الا ما كانوا يعملون) يخبر تعالى ان الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الارض أي ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم ولا فسادا فيهم كما قال عكرمة العلو التجبر وقال سعيد بن جبير العلو البغي وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين العلو في الارض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق وقال ابن جريج لا يريدون علوا في الارض تعظما وتجبرا ولا فسادا عملا بالمعاصي وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن أشعث السمان عن أبي سلام الاعرج عن علي قال ان الرجل ليعجبه من شراك نعله ان يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وهذا محمول على ما اذا أراد بذلك الفخر على غيره وأما اذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلا قال يا رسول الله اني أحب ان يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك فقال لا ان الله جميل يحب الجمال وقال تعالى من جاء بالحسنة أي يوم القيامة فله خير منها أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة وهذا مقام الفضل ثم قال ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيآت الا ما كانوا يعملون كما قال في الآية الاخرى ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون وهذا مقام الفضل والعدل (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك

وليس المعنى ان ثم جاهلية أخرى كذا قال وهو قول حسن ويمكن ان يراد بالجاهلية الاخرى ما يقع في الاسلام من التشبه باهل الجاهلية بقول أو فعل فيكون المعنى ولا تبرجن أيها المسلمات بعد اسلامكن تبرجا مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها وكان عليها من قبلكن أي لا تحدثن بافعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل وعن عائشة قالت الجاهلية الاولى كانت على عهد ابراهيم كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وكانت عائشة اذا قرأت هذه الآية تبكي حتى يبتل خمارها رواه مسروق (وأقمن الصلاة) الواجبة (وآتين الزكاة) المفروضة (وأطعن الله ورسوله) فيما أمر وفيما نهى وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فامرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع لانهما أصل الطاعات البدنية والمالية ولان من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما (انما يريد الله) أي انما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى وان لا تخضعن بالقول ومن قول المعروف والسكون في البيوت وعدم التبرج واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والطاعة (ليذهب عنكم الرجس) والمراد بالرجس الاثم والذنب المدنسان للاعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله وقيل الرجس الشك وقيل السوء وقيل عمل الشيطان والعموم أولى (أهل البيت) نصبه على النداء أو المدح (ويطهركم) من الارجاس والادناس (تطهيرا) كاملا وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ وزجر لفاعلها شديد وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير ان أهل البيت المذكورين في الآية هم زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة قالوا والمراد بالبيت بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومساكن زوجاته لقوله واذكرن ما يتلى في بيوتكن وأيضا السياق في الزوجات من قوله يا أيها النبي قل لازواجك الى قوله لطيفا خبيرا وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة وروي عن الكلبي ان أهل البيت المذكورين في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للاناث وهو قوله عنكم وليطهركم ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن وليطهركن وأجاب الاولون عن هذا بان التذكير باعتبار لفظ الاهل كما قال سبحانه

أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت فكان ذلك قول الرسل لامرأته كيف
أهل بيته بدون زوجته أو زوجته بدون أهله ثم يقول لهم ذلك [illegible] أما
الأولون فتمسكوا بالسياق فإنه في الزوجات كما ذكرنا وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر
من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم
خاصة وقال عكرمة من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وروي نحو هذا عنه بطرق وأما ما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه وابن جرير
وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت في
بيتي نزلت إنما يريد الله الآية وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم بكساء كان عليه ثم قال هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس
وطهرهم تطهيرا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه
عن أم سلمة أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بيتها على منامة له عليه كساء
خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها حريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادعي
زوجك وابنيك حسنا وحسينا فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي صلى الله عليه
وآله وسلم إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فأخذ النبي صلى
الله عليه وآله وسلم بفضلة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وأومى بها إلى
السماء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالها
ثلاث مرات قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يا رسول الله وأنا معكم فقال إنك
إلى خير مرتين وأخرجه أحمد أيضا من حديثها وفي إسناده مجهول وهو شيخ عطاء وبقية
رجاله ثقات وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه وقد ذكر ابن كثير في تفسيره
لحديث أم سلمة طرقا كثيرة في مسند أحمد وغيره وأخرج ابن مردويه والخطيب من
حديث أبي سعيد الخدري نحوه وأخرج الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه
عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما نزلت هذه الآية على النبي
صلى الله عليه وآله وسلم وذكر نحو حديث أم سلمة وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم
وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة قالت خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة
وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة
فأدخلها

[illegible] ولا تكونن من [illegible] مع أنه
[illegible] يقول تعالى آمرا رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ
الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ومخبرا له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى
إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد أي افترض عليك أداءه إلى الناس لرادك إلى معاد أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما
قال تعالى فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين وقال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا
أجبتم وقال وجيء بالنبيين والشهداء
وقال السدي عن أبي صالح عن ابن
عباس إن الذي فرض عليك
القرآن لرادك إلى معاد يقول لرادك
إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن قال
السدي وقال أبو سعيد مثلها وقال
الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن
عباس رضي الله عنهما لرادك إلى
معاد قال إلى يوم القيامة ورواه
مالك عن الزهري وقال الثوري
عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس لرادك إلى معاد إلى الموت
ولهذا طرق عن ابن عباس رضي
الله عنهما وفي بعضها لرادك إلى
معدنك من الجنة وقال مجاهد يحييك
يوم القيامة وكذا روي عن عكرمة
وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قزعة
وأبي مالك وأبي صالح وقال الحسن
البصري أي والله إن له لمعادا فيبعثه
الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة وقد
روي عن ابن عباس غير ذلك كما قال
البخاري في التفسير من صحيحه
حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى
حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة
عن ابن عباس لرادك إلى معاد قال
إلى مكة وهكذا رواه النسائي في
تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وهكذا روى العوفي عن ابن عباس لرادك
إلى معاد أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد بن إسحق عن مجاهد في قوله لرادك إلى معاد إلى مولدك بمكة وقال ابن أبي حاتم
وقد روي عن ابن عباس ويحيى بن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك وحدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال قال سفيان
فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله
عليه إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع

السورة مكيا والله أعلم وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله تعالى لرادك الى معاد قال هذه مما كان ابن عباس يكتمها وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال في قوله لرادك الى معاد قال الى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع الى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لان بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الاقوال ان ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه الى مكة وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة اذا جاء نصر الله والفتح الى آخر السورة انه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى اليه وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال لا أعلم منها غير الذى تعلم ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله لرادك الى معاد بالموت وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وابلاغها الى الثقلين الجن والانس ولانه اكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الاطلاق وقوله تعالى ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين أى قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد اذ أرسله اليهم وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب أى ما كنت تظن قبل انزال الوحى اليك ان الوحى ينزل عليك ولكن رحمة من ربك أى انما نزل الوحى عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فاذا منحك بهذه النعمة العظيمة فلا تكونن ظهيرا أى معينا للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك أى لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك لا تلوى على ذلك ولا تباله فان الله معل كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الاديان ولهذا قال وادع الى ربك أى الى عبادة ربك وحده لا شريك له ولا تكونن من المشركين وقوله ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو أى لا تليق العبادة الا له ولا تنبغى الالهية الا لعظمته وقوله كل شئ هالك الا وجهه اخبار بانه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فعبر بالوجه عن الذات

فادخلها معه ثم جاء على فادخله معه ثم قال انما يريد الله الآية وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن واثلة ابن الاسقع قال جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى فاطمة ومعه على وحسن وحسين حتى دخل فادنى عليا وفاطمة وأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ثم تلا هذه الآية وقال اللهم هؤلاء أهل بيتى اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قلت يا رسول الله وأنا من أهلك قال وأنت من أهلى قال واثلة انه لارجى ما أرجوه وله طرق فى مسند أحمد وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة الفجر يقول الصلاة يا اهل البيت الصلاة انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا واخرج مسلم عن زيد بن ارقم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذكركم الله فى اهل بيتى فقيل لزيد ومن اهل بيته أليس نساؤه من اهل بيته قال نساؤه من اهل بيته ولكن اهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس واخرج الحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسما فذلك قوله واصحاب اليمين واصحاب الشمال فانا من اصحاب اليمين وانا خير اصحاب اليمين ثم جعل القسمين اثلاثا فجعلنى فى خيرها ثلثا فذلك قوله واصحاب الميمنة واصحاب المشأمة والسابقون السابقون فانا من السابقين وانا خير السابقين ثم جعل الاثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم وانا اتقى ولد آدم واكرمهم على الله ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا فذلك قوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا فانا واهل بيتى مطهرون من الذنوب واخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابى الحمراء قال رابطت المدينة سبعة اشهر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا طلع الفجر جاء الى باب على وفاطمة فقال الصلاة الصلاة انما يريد الله الآية وفى اسناده ابو داود الاعمى وهو وضاع كذاب وفى الباب احاديث وآثار وقد ذكرناها هنا ما يصلح

وهكذا قوله شيئا كل شيء هالك الا وجهه أي الا اياه وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وقال مجاهد والثوري في قوله كل شيء هالك الا وجهه أي الا ما أريد به وجهه وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له قال ابن جرير ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

استغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد اليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافي القول الاول فان هذا اخبار عن كل الاعمال بانها باطلة الا ما أريد به وجهه (٢٧٨) الله تعالى من الاعمال الصالحة المطابقة للشريعة والقول الاول مقتضاه ان كل الذوات فانية وزائلة الا ذاته تعالى وتقدس فانه الاول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء قال أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلي حدثنا أبو الوليد قال كان ابن عمر اذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول أين أهلك ثم يرجع الى نفسه فيقول كل شيء هالك الا وجهه وقوله له الحكم أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه واليه ترجعون أي يوم معادكم فيجزيكم باعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة العنكبوت وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون) أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله تعالى أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون استفهام انكار ومعناه ان الله سبحانه وتعالى لا بد ان يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الايمان كما جاء في الحديث الصحيح أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة زيد له في البلاء وهذه الآية كقوله أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ومثلها في سورة براءة وقال في البقرة أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

للمسلك دون ما لا يبلغ وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وآله وسلم النازلات في منازله ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الاحاديث المصرحة بانهم سبب النزول فمن جعل الآية خاصة باحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب اعماله وأهمل ما لا يجوز اهماله وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير وغيرهما وقال جماعة هم بنو هاشم واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس وبقول زيد ابن أرقم المتقدم حيث قال ولكن آله من حرم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس فهؤلاء ذهبوا الى ان المراد بالبيت بيت النسب (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) أي اذكرن موضع النعمة اذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة قال القرطبي قال أهل التأويل آيات الله هي القرآن والحكمة السنة وقال مقاتل المراد بالآيات والحكمة أمره ونهيه في القرآن وقيل ان القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد وصدق النبوة وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع وقال قتادة في الآية القرآن والسنة تمتن بذلك عليهن وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل في الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار (ان الله كان لطيفا) بأوليائه (خبيرا) بجميع خلقه وجميع ما يصدر منهم من خير وشر وطاعة ومعصية فهو يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (ان المسلمين والمسلمات) بدأ سبحانه بذكر الاسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين والانقياد له مع العمل كما ثبت في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله جبريل عن الاسلام قال هو ان تشهد ان لا اله الا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان ثم عطف على المسلمين المسلمات تشريفا لهن بالذكر وهكذا فيما بعد وان كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين ونحو ذلك فالتذكير انما هو لتغليب الذكور على الاناث

البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ولهذا قال ههنا ولقد فتنا الذين
من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أي الذين صدقوا في دعوى الايمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه والله سبحانه
وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس
وغيره في مثل قوله الا لنعلم الا لنرى وذلك لان الرؤية انما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فانه يتعلق بالمعدوم والموجود وقوله
تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت ان يسبقونا ساء ما يحكمون

أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الايمان
انهم يتخلصون من هذه الفتنة
والامتحان فان من ورائهم من
العقوبة والنكال ما هو أغلظ من
هذا وأطم ولهذا قال أم حسب
الذين يعملون السيئات ان يسبقونا
أي يفوتونا ساء ما يحكمون أي
بئس ما يظنون (من كان يرجوا
لقاء الله فان أجل الله لآت وهو
السميع العليم ومن جاهد فانما
يجاهد لنفسه ان الله لغني عن
العالمين والذين آمنوا وعملوا
الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم
ولنجزينهم أحسن الذين كانوا
يعملون) يقول تعالى من كان
يرجو لقاء الله أي في الدار الآخرة
وعمل الصالحات ورجا ما عند الله
من الثواب الجزيل فان الله سيحقق
له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفرا
فان ذلك كائن لا محالة لانه سميع
الدعاء بصير بكل الكائنات ولهذا
قال تعالى من كان يرجو لقاء الله
فان أجل الله لآت وهو السميع
العليم وقوله تعالى ومن جاهد فانما
يجاهد لنفسه كقوله تعالى من عمل
صالحا فلنفسه أي من عمل صالحا فانما
يعود نفع عمله على نفسه فان الله
تعالى غني عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيأ ولهذا قال تعالى ومن جاهد فانما يجاهد
لنفسه ان الله لغني عن العالمين قال الحسن البصري ان الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف ثم أخبر تعالى أنه مع غناه
عن الخلائق جميعهم من بره واحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو انه يكفر عنهم أسوء الذي عملوا
ويجزيهم أجرهم باحسن الذي كانوا يعملون فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف
ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا

الاناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك ثم ذكر (والمؤمنين والمؤمنات) وهم
من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم (والقانتين والقانتات) القانت المطيع العابد وكذا القانتة
وقيل المداومين على العبادة والطاعة (والصادقين والصادقات) هما من يتكلم بالصدق
ويتجنب الكذب ويفي بما عوهد عليه (والصابرين والصابرات) هما من يصبر عن
الشهوات وعلى مشاق التكليف (والخاشعين والخاشعات) أي المتواضعين لله الخائفين منه
الخاضعين في عباداتهم لله (والمتصدقين والمتصدقات) هما من تصدق من ماله بما اوجبه
الله عليه وقيل ذلك اعم من صدقة الفرض والنفل (والصائمين والصائمات) قيل ذلك
مختص بالفرض وقيل هو اعم (والحافظين فروجهم والحافظات) فروجهن عن الحرام
بالتعفف والتنزه والاقتصار على الحلال (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) الله كثيرا هما
من يذكر الله على جميع احواله وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر
الله سبحانه بالقلب واللسان والخبر لجميع ما تقدم هو قوله (أعد الله لهم مغفرة) لذنوبهم
التي اذنبوها (واجرا عظيما) على طاعاتهم التي فعلوها من الاسلام والايمان والقنوت
والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر ووصف الاجر بالعظيم
للدلالة على انه بالغ غاية المبالغ ولا شئ اعظم من اجر هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع
ولا ينفد اللهم اغفر ذنوبنا واعظم اجورنا وقد اخرج احمد والنسائي وابن جرير وابن
المنذر والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة قالت قلت يارسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن
كما تذكر الرجال فلم يرعني منه ذات يوم الا نداؤه على المنبر وهو يقول ان الله يقول ان
المسلمين والمسلمات الآية واخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه والطبراني عن ام
عمارة الانصارية انها اتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ما ارى كل شئ الا للرجال
وما ارى النساء يذكرن بشئ فنزلت هذه الآية وعن ابن عباس قال قالت النساء يارسول
الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت هذه الآية اخرجه الطبراني وابن جرير
وابن مردويه باسناد قال السيوطي حسن (وما كان) اى ما صح ولا استقام (لمؤمن
ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم) قال القرطبي
لفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناها الحظر والمنع من الشئ والاخبار بانه لا يحل شرعا

عظيماً وقال هاهنا والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ولهذا قال تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إلي يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً ولهذا قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال نزلت في أربع آيات فذكر قصة وقال قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الآية وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً وقال الترمذي حسن صحيح (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة

أن يكون وقد يكون لما يمتنع عقلاً كقوله ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ومعنى الآية أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له ويجعل رأيه تبعاً لرأيه وجمع الضمير في قوله لهم ومن أمرهم لأن مؤمناً ومؤمنة وقعا في سياق النفي فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة قرئ أن يكون بالتحتية لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله لهم مع كون التأنيث غير حقيقي وقرئ بالفوقية لكونه مسنداً إلى الخيرة وهي مؤنثة لفظاً والخيرة مصدر بمعنى الاختيار ودل ذلك على أن الأمر للوجوب وقرئ بسكون التحتية وتحريكها ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقال (ومن يعص الله ورسوله) في أمر من الأمور ومن ذلك عدم الرضاء بالقضاء (فقد ضل ضلالاً مبيناً) أي ضل عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق عن ابن عباس قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها قالت لست بناكحته قال بلى فانكحيه قالت يا رسول الله أؤامر نفسي فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله قالت قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً قال نعم قالت إذن لا أعصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أنكحته نفسي أخرجه ابن جرير وابن مردويه وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزينب إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك قالت يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قومي وبنت عمتك فلم أكن لأفعل فنزلت هذه الآية وما كان لمؤمن يعني زيداً ولا مؤمنة يعني زينب إذا قضى الله ورسوله أمراً يعني النكاح في هذا الموضع أن يكون لهم الخيرة من أمرهم يقول ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به قالت قد أطعتك فاصنع ما شئت فزوجها زيداً ودخل عليها أخرجه ابن مردويه وعن ابن زيد قال نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزوجنا عبده وكان تزوج زيد بزينب قبل الهجرة بنحو ثمان سنين وبعد ما طلق زيد زينب زوجه

صلى

صلى الله عليه وآله وسلم ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط وكانت وهبت نفسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فزوجها من زيد وكان زوجه قبلها أم أيمن وولدت له اسامة وكانت ولادته بعد البعثة بثلاث سنين وقيل بخمس وفى شرح المواهب ان أم أيمن هى بركة الحبشية بنت ثعلبة أعتقها عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل بل اعتقها هو صلى الله عليه وآله وسلم وقيل كانت لامه اسلمت قديما وهاجرت الهجرتين ماتت بعده صلى الله عليه وآله وسلم بخمسة أشهر وقيل بستة ودلت الآية على لزوم اتباع قضاء الكتاب والسنة وذم التقليد والرأى وعدم خيرة الامر فى مقابلة النص من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وان كان السبب خاصا فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * لما زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيد بن حارثة زينب بنت جحش كما مر أنزل الله سبحانه (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالاسلام وأنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بان أعتقه من الرق وكان من سبى الجاهلية اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الجاهلية وأعتقه وتبناه وسيأتى فى سبب نزول الآية ما يوضح المراد منها قال القرطبي وقد اختلف فى تأويل هذه الآية فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبرى وغيره الى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد وكان حريصا على ان يطلقها زيد فيتزوجها هو ثم ان زيدا لما أخبره بانه يريد فراقها وشكا منها غلظة القول وعصيان الامر والاذى باللسان والتعظم بالشرف قال له اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك زينب وهو يخفى الحرص على طلاق زيد اياها وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ولكنه فعل ما يجب عليه من الامر بالمعروف قال علماؤنا رحمهم الله وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهرى والقاضى أبى بكر بن العلاء القشيرى والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم انتهى ما قاله القرطبي ملخصا (واتق الله) فى أمرها ولا تعجل بطلاقها (وتخفى) الواو للحال أى والحال انك تخفى (فى نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها زيد وقيل حبها (وتخشى الناس) أى تستحييهم أو تخاف من تعييرهم ان يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها (والله أحق ان تخشاه) فى كل حال وتخاف منه وتستحييه ولا تأمر زيدا

فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى علام؟ ولهذا قال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال ابن عباس يعنى فتنته ان يرتد عن دينه اذا أوذى فى الله وكذا قال غيره من علماء السلف وهذه الآية كقوله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه الى قوله ذلك هو الضلال البعيد ثم قال عز وجل ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أى ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم انا كنا معكم أى اخوانكم فى الدين كما قال تعالى الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين وقال تعالى فعسى الله ان يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين وقال تعالى مخبرا عنهم ههنا ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم قال الله تعالى أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين أى أوليس الله بأعلم بما فى قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وان أظهروا لكم الموافقة وقوله تعالى وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين أى وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله فى الضراء والسراء ومن يطيعه فى حظ نفسه كما قال تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم وقال تعالى بعد وقعة أحد التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب الآية (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش انهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى ارجعوا عن دينكم الى ديننا واتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم أى وآثامكم ان كانت لكم آثام فى ذلك علينا وفى رقابنا كما يقول القائل افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى قال الله تعالى تكذيبا لهم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون أى فيما قالوه انهم يتحملون عن أولئك خطاياهم فانه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى وقال تعالى

ولا يسئل حميم حميما يبصرونهم وقوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم اخبار عن الدعاة الى الكفر والضلالة انهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيأ كما قال تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الآية وفي الصحيح من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه الى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيأ

وفي الصحيح ما قتلت نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل وقوله تعالى وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون أي يكذبون ويختلقون من البهتان وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن حفص ابن أبي العاتكة حدثني سليمان بن حبيب المحاربي عن أبي أمامة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ ما أرسل به ثم قال اياكم والظلم فان الله يعزم يوم القيامة فيقول وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول أين فلان ابن فلان فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس اليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرب عزوجل ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن فيقول الرحمن اقضوا عن عبدي فيقولون كيف نقضي عنه فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقي من أصحاب الظلامات فيقول اقضوا عن عبدي فيقولون لم يبق له حسنة فيقول خذوا من سيآتهم فاحملوها عليه ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة الثمالي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ ان المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه

بامساكها كره حيث بعد ان أعلمك الله أنها ستكون زوجتك فعاتبه الله على هذا قال بعضهم وما ذكروه في تفسير هذه الآية من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وارادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه صلى الله عليه وآله وسلم واقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كانت النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وآله وسلم وهو زوجها لزيد ولا يشك في تنزيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ان يأمر زيدا بامساكها وهو يحب تطليقه اياها كما قال وأصح ما في هذا الباب ما قال علي بن الحسين ان الله قد أعلمه انها ستكون من أزواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال اني أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون زوجتك قال الخطيب وهذا هو الاولى والاليق بحال الانبياء وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى زوجناكها فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز ان يخبر الله انه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره فدل على انه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله من انها ستكون زوجته وانما أخفى ذلك استحياء ان يخبر زيدا أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي قال الكرخي وهذا القول هو المنصور المعول عليه عند الجمهور وقال البغوي وهذا هو الاولى وان كان الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الانبياء لان العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الاشياء ما لم يقصد فيه المأثم لان الود وميل النفس من طبع البشر انتهى ولهذا قال ابن عباس كان في قلبه حبها وقال قتادة ود أنه لو طلقها زيد قال الخازن وهذا قول حسن مرضي وكم من شئ يتحفظ منه الانسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلما الى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين وهو انما تحمل طلاق زيد لها وتزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اياها لازالة حرمة التبني وابطال سنته كما قال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم (فلما قضى زيد منها وطرا) قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في

النفس

فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان و (أصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين)

هذه تسلية (١) من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ... السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم الى الله تعالى ليلا ونهارا وسرا وجهارا ومع هذا مازادهم ذلك الا فرارا عن الحق واعراضا عنه وتكذيبا له وما آمن معه منهم الا قليل ولهذا قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون أى بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والانذار فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم فان الله (٢٨٣) يهدى من يشاء ويضل من يشاء وبيده الامر واليه ترجع الامور ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية الآية واعلم ان الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين * قال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال بعث نوح وهو لاربعين سنة ولبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا وقال قتادة يقال ان عمره كله ألف سنة الا خمسين عاما لبث فيهم قبل ان يدعوهم ثلثمائة سنة ودعاهم ثلثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين عاما وهذا قول غريب وظاهر السياق من الآية انه مكث في قومه يدعوهم الى الله ألف سنة الا خمسين عاما وقال عون بن أبى شداد ان الله تعالى أرسل نوحا الى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فدعاهم ألف سنة الا خمسين عاما ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وهذا أيضا غريب رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقول ابن عباس أقرب والله أعلم وقال الثورى عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال قال لى ابن عمر كم لبث نوح فى قومه قال قلت ألف سنة الا خمسين عاما قال فان

النفس من الشئ يقال قضى وطرا منه اذا بلغ ما أراد من حاجته فيه والمراد هنا انه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه وقيل المراد به الطلاق لان الرجل انما يطلق امرأته اذا لم يبق له فيها حاجة وقال المبرد الوطر الشهوة والمحبة وقال أبو عبيدة الوطر الارب والحاجة قال الامام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى كان يقال زيد بن محمد حتى نزل أدعوهم لآبائهم فقال انا زيد بن حارثة وحرم عليه أنا زيد بن محمد فلما نزع هذا الشرف وهذا الفخر منه وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يختص بها أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو انه سماه فى القرآن أى فى هذه الآية فذكره الله تعالى باسمه فى الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى فى المحاريب ونوه به غاية التنويه فكان فى هذا تأنيس له وعوض من الفخر بابوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألا ترى الى قول أبى بن كعب حين قال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الله أمرنى ان أقرأ عليك سورة كذا فبكى وقال أذكرت هنالك وكان بكاؤه من الفرح حيث ان الله تعالى ذكره فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلدا لا يبلى يتلوه أهل الدنيا اذا قرؤا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدا لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين اذ القرآن كلام الله القديم وهو باق لا يبيد فاسم زيد فى الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة يذكره فى تلاوتهم السفرة الكرام البررة وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين الا النبى من الانبياء ولزيد بن حارثة تعويضا من الله له مما نزع منه وزاد فى الآية أن قال واذ تقول للذى أنعم الله عليه أى بالايمان فدل على انه من أهل الجنة علم ذلك قبل أن يموت وهذه فضيلة أخرى رضى الله تعالى عنه انتهى (زوجناكها) وقرئ زوجتكها يعنى ولم نحوجك الى ولى من الخلق يعقد لك عليها تشريفا لك ولها فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير اذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شئ مما هو معتبر فى النكاح فى حق أمته وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وآله وسلم التى لا يشاركه فيها أحد باجماع المسلمين وكان تزوجه بزينب سنة خمس من الهجرة وقيل سنة ثلاث وهى أول من مات بعده من زوجاته الشريفات المطهرات ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنة وقيل المراد به الامر له بأن يتزوجها والاول أولى وبه جاءت الاخبار الصحيحة وقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول

---

(١) فى بعض نسخ ابن كثير زيادة هنا نصها ذكر سبحانه وتعالى ابتلاء نوح بقومه ألف سنة الا خمسين عاما وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم الله بالغرق ثم بعده بالحرق ثم ذكر ابتلاء ابراهيم بقومه وماردوا عليه وابتلاهم بطاعته ومتابعته ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار اليه أمره وأمرهم ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت اليه حاله وحالهم ثم ذكر ما ابتلى به عادا وثمود وقارون وفرعون وهامان وجنودهما من الايمان به وعبادته وحده لا شريك له ثم ابتلاءهم بانواع العقوبات ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد أعظم المرسلين صلى الله عليه وسلم بانواع الكفار من المشركين وأهل النفاق وامره ان لا يجادل أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن اه

الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأجسامهم وأخلاقهم الى يومك هذا وقوله تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا في سورة هود وتقدم تفسيره بما أغنى عن اعادته وقوله تعالى وجعلناها آية للعالمين أي وجعلنا تلك السفينة باقية اما عينها كما قال قتادة انها بقيت الى أول الاسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون الى قوله ومتاعا الى حين وقال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية وقال ههنا فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين وهذا من باب التدريج من الشخص الى الجنس كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين أي وجعلنا نوعها رجوما فان التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ولهذا نظائر كثيرة وقال ابن جرير لو قيل ان الضمير في قوله وجعلناها عائد الى العقوبة لكان وجها والله أعلم

(وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم امام الحنفاء انه دعا قومه الى عبادة الله وحده لا شريك له والاخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر فانه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره فقال لقومه اعبدوا الله واتقوه أي أخلصوا له العبادة والخوف ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون أي اذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة ثم أخبر تعالى ان الاصنام التي تعبدونها والاوثان لا تضر ولا تنفع وانما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وانما هي مخلوقة مثلكم هكذا رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد والسدي وروى الوالبي عن ابن عباس وتصنعون افكا أي تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد في رواية وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله وهي لا تملك لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق وهذا أبلغ في الحصر كقوله اياك نعبد واياك نستعين رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ولهذا قال فابتغوا أي فاطلبوا عند الله

الله صلى الله عليه وآله وسلم يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اتق الله وأمسك عليك زوجك فنزلت وتخفي في نفسك ما الله مبديه فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس خبزا ولحما حتى تركوه فكانت تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات وكانت تقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جدي وجدك واحد وليس من نسائك من هي كذلك غيري وقد أنكحنيك الله والسفير في ذلك جبريل قاله الخازن وقال عمر وابن مسعود ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية وقال أنس فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاتما شيئا لكتم هذه الآية وكذا روي عن عائشة (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أي ضيق ومشقة علة للتزويج وهو دليل على ان حكمه وحكم الأمة واحد الا ما خصه الدليل (في أزواج أدعيائهم) أي في التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا كما كانت تفعله العرب فانهم كانوا يتبنون من يريدون وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه أدعوهم لآبائهم وكانت العرب تعتقد انه يحرم عليهم نساء من تبنوه كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة والأدعياء جمع دعي وهو الذي يدعى ابنا من غير ان يكون ابنا على الحقيقة فأخبرهم الله ان نساء الأدعياء حلال لهم (اذا قضوا منهن وطرا) بخلاف ابن الصلب فان امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها (وكان أمر الله مفعولا) أي قضاؤه في أمر زينب ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضاء ماضيا موجودا في الخارج لا محالة وعن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تزوج زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل الله أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله يعني أعدل أخرجه الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيد اذهب فاذكرها علي فانطلق قال فلما رأيتها عظمت في صدري فقلت يا زينب أبشري أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكرك قالت

الرزق أي لا عند غيره فان غيره لا يملك شيأ واعبدوه واشكروا له أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم اليه ترجعون أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل وما على الرسول الا البلاغ المبين يعني انما على الرسول ان يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فاحرصوا لانفسكم ان تكونوا من السعداء وقال قتادة في قوله وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم قال يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا من قتادة يقتضي انه قد (٢٨٥) انقطع الكلام الاول واعترض بهذا الى قوله فما كان جواب قومه وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام ابراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لاثبات المعاد لقوله بعد هذا كله فما كان جواب قومه والله أعلم (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) يقول تعالى مخبرا عن الخليل عليه السلام انه أرشدهم الى اثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله اياهم بعد ان لم يكونوا شيأ مذكورا ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين فالذي بدأ هذا قادر على اعادته فانه سهل عليه يسير لديه ثم أرشدهم الى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الاشياء السموات وما فيهما من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات والارضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبراري وقفار وأشجار وأنهار وثمار وبحار كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار الذي يقول للشئ كن فيكون ولهذا قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير كقوله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ثم قال تعالى قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة أي يوم القيامة ان الله على كل شئ قدير وهذا المقام شبيه بقوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وكقوله تعالى أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون وقوله تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم

ما أنا بصانعة شيأ حتى أوامر ربي فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودخل عليها بغير اذن ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطعمنا الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك فما أدري أنا أخبرته ان القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت ادخل معه فالقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الآية ثم بين سبحانه انه لم يكن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرج في هذا النكاح فقال (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي فيما أحل الله له وقدره وقضاه يقال فرض له كذا أي قدر له (سنة الله) أي سن الله ذلك سنة أو اسم وضع موضع المصدر قاله الزمخشري أو مصدر كصنع الله ووعد الله (في الذين خلوا من قبل) أي ان هذا هو السنن الاقوم في الانبياء والامم الماضية ان ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره توسعة عليهم فكان لهم الحرائر والسراري عن كعب القرظي قال يعني يتزوج من النساء ما شاء هذا فريضة وكان من قبل من الانبياء هذا سنتهم قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة منهن ثلثمائة سرية وكان لداود مائة امرأة وقال ابن جريج الذين خلوا هم داود والمرأة التي نكح وزوجها واسمها اليسية فذلك سنة في محمد وزينب (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا وحكما مبتوتا وهو كظل ظليل وليل أليل وروض أريض في قصد التأكيد والقضاء الارادة الازلية المتعلقة بالاشياء على ما هي عليه والقدر عبارة عن ايجاده اياها على تقدير مخصوص معين لكن كل منهما يستعمل بمعنى الآخر فالمراد ايجاد ما تعلقت به الارادة قاله الشهاب ثم ذكر سبحانه الانبياء الماضين وأثنى عليهم فقال (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به الى عباده وخشيته في كل فعل وقول (ولا يخشون أحدا الا الله) أي سواه ولا يبالون بقول الناس ولا تعييرهم فيما أحل الله لهم بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه (وكفى بالله حسيبا) حاضرا في كل مكان حافظا لاعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسبا لهم في كل شئ ولما تزوج صلى الله عليه وآله وسلم زينب قال الناس امرأة ابنه فأنزل الله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أي ليس هو صلى

ما يريد لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فله الخلق والامر يفعل ما يشاء لانه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة كما في الحديث الذي رواه أهل السنن ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولهذا قال تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون أي ترجعون يوم القيامة وقوله تعالى وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شئ خائف منه فقير اليه وهو الغني عما سواه وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه

أي جحدوها وكفروا بالمعاد أولئك يئسوا من رحمتي أي لا نصيب لهم فيها وأولئك لهم عذاب أليم أي موجع شديد في الدنيا والآخرة (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) يقول تعالى مخبرا عن قوم ابراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل انهم ما كان لهم جواب بعد مقالة ابراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه وذلك لانهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا الى استعمال جاههم وقوة ملكهم فقالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وذلك انهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب الى عنان السماء ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا الى ابراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما ولهذا وأمثاله

حديثه

جعله الله للناس اماما فانه بذل نفسه للرحمن وجسده للنيران وسخا بولده للقربان وجعل ماله للضيفان ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الاديان وقوله تعالى فأنجاه الله من النار أي سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم في عبادتهم للاوثان انما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على انه مفعول له وأما على قراءة الرفع فمعناه انما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط ثم يوم القيامة ينعكس هذا

الله عليه وآله وسلم قال زيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ولا هو أب لاحد لم يلده قال الواحدي قال المفسرون لم يكن أبا أحد لم يلده وقد ولد له من الذكور ابراهيم والقاسم والطيب والمطهر قال القرطبي ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا قال وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له قال النسفي وكل رسول أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الاحكام الثابتة بين الآباء والابناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا أولاده حقيقة فكان حكمه كحكمهم والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير (ولكن رسول الله) قال الاخفش والفراء ولكن كان رسول الله وأجاز الرفع وكذا قرأ ابن أبي عبلة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى ولكن هو رسول الله (وخاتم النبيين) وقرأ الجمهور بتخفيف لكن ونصب رسول وخاتم ووجه النصب على خبرية كان المقدرة كما تقدم ويجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد وقرئ بتشديد لكن ونصب رسول على أنه اسمها وخبرها محذوف أي ولكن رسول الله هو وقرأ الجمهور وخاتم بكسر التاء وقرئ بفتحها ومعنى الاولى انه ختمهم أي جاء آخرهم ومعنى الثانية انه صار كالخاتم لهم الذي يختمون به ويتزينون بكونه منهم وقيل كسر التاء وفتحها لغتان قال أبو عبيدة الوجه الكسر لان التأويل انه ختمهم فهو خاتمهم وانه قال أنا خاتم النبيين وخاتم الشئ آخره ومنه قولهم خاتمه المسك وقال الحسن الخاتم هو الذي ختم به والمعنى ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده ولا معه قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون بعده نبيا وعنه ان الله لما حكم ان لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شئ عليما) قد أحاط علمه بكل شئ ومن جملة معلوماته هذه الاحكام التي ذكرت هنا أخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلي مثل النبيين كمثل رجل بنى دارا فأتمها الا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلي ومثل الانبياء كمثل رجل ابتنى دارا فأكملها وأحسنها الا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر اليها قال ما أحسنها الا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بي الانبياء وأخرج الشيخان من

الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا ثم يكفر بعضكم ببعض أي تجاحدون ما كان بينكم ويلعن بعضكم بعضا أي يلعن الاتباع المتبوعين والمتبوعون الاتباع كلما دخلت أمة لعنت أختها وقال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ههنا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار الآية أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة الى النار وما لكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين فأما المؤمنون فبخلاف ذلك قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل الأحمسي حدثنا أبو عاصم الثقفي الربيع (٢٨٧) بن سليمان بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت قال لي النبي صلى الله عليه وسلم أخبرك ان الله تعالى يجمع الاولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد فمن يدري أين الطرفين قالت الله ورسوله اعلم ثم ينادي مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبون قال أبو عاصم يرفعون رؤسهم ثم ينادي يا أهل التوحيد ثم ينادي الثالثة يا أهل التوحيد ان الله قد عفا عنكم قال فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلامات الدنيا يعني المظالم ثم ينادي يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب (فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم انه آمن له لوط يقال انه ابن أخي ابراهيم يقولون هو لوط بن هاران بن آزر يعني ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة الخليل لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح ان ابراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل ابراهيم عن سارة ما هي منه فقال أختي ثم جاء اليها فقال لها اني قد قلت له انك أختي فلا تكذبيني فانه ليس على وجه الارض مؤمن غيرك وغيري فأنت أختي في الدين وكأن المراد من هذا والله أعلم انه ليس على وجه الارض زوجان على الاسلام غيري وغيرك فان لوطا عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه الى بلاد الشام ثم أرسل في حياة الخليل الى أهل سذوم واقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي وقوله تعالى وقال اني مهاجر الى ربي يحتمل عود الضمير في قوله وقال اني مهاجر على لوط لانه هو أقرب المذكورين ويحتمل عوده الى ابراهيم قاله ابن عباس والضحاك وهو المكني

حديث أبي هريرة نحوه وأخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب نحوه أيضا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير وكل ما هو ذكر لله تعالى قال مجاهد هو أن لا ينساه أبدا وقال الكلبي ويقال ذكرا كثيرا بالصلوات الخمس وقال مقاتل هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال وقال ابن عباس في الآية لم يفرض على عباده فريضة الا جعل لها أجلا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فان الله لم يجعل له حدا ينتهي اليه ولم يعذر أحدا في تركه الا مغلوبا على عقله فقال اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم بالليل والنهار في البر والبحر في السفر والحضر في الغنى والفقر في الصحة والسقم في السر والعلانية وعلى كل حال وقد ورد في فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة وقد صنف في الاذكار المتعلقة بالليل والنهار جماعة من الائمة كالنسائي والنووي والجزري وغيرهم وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين وفضيلة الذكر ولذكر الله أكبر وقد ورد انه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي والبيهقي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قلت يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله قال لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى يتكسر ويختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما هو يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل وأخرجه أيضا الترمذي وابن ماجه وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذكروا الله حتى يقول المنافقون انكم مراؤن (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي نزهوه عما لا يليق به في وقت البكرة

عنه بقوله فآمن له لوط أي من قومه ثم أخبر عنه بأنه خرج مهاجرا من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا
قال إنه هو العزيز الحكيم أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية وقال قتادة
هاجرا جميعا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال إنها ستكون هجرة بعد
هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله عز وجل
وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت (٢٩٨) معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل ما تسقط منهم وقد أسند الإمام
أحمد هذا الحديث فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته إذ جاء رجل فانتبذ الناس عليه خميصة وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها فتلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الرحمن تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل من تخلف منهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع حتى عدها زيادة على عشرين مرة كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم
ورواه أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به وقد رواه أبو داود رحمه
في سننه فقال في كتاب الجهاد باب ما جاء في سكنى الشام حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا معاذ بن هشام حدثني (١) عن قتادة
عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة وينحاز أهل الأرض
إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير
وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول لقد رأيتنا

(١) بياض بأصله ولعله سقط من السند رجل من الرواة فحرر من النسخ المعتمدة اه

ووقت الأصيل وخص أول النهار وآخره بتخصيصهما بالذكر لزيادة ثوابه فيهما
وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله اذكروا تنبيها على مزيد شرفه ورفعة
ثوابه على غيره من الأذكار وقيل المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر وبالتسبيح أصيلا صلاة
المغرب وقال قتادة وابن جرير المراد صلاة الغداة وصلاة العصر وقال الكلبي أما بكرة فصلاة
الفجر وأما أصيلا فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء * قال المبرد والأصيل العشي
وجمعه أصائل وقد ورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها
حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال في يوم مائة مرة
سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر أخرجه أحمد ومسلم والترمذي
وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لنا
أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله رجل كيف يكسب أحدنا ألف حسنة
قال يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة وقيل معنى
سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته والمراد بقوله كثيرا هذه الكلمات يقولها
الطاهر والجنب والمحدث (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) الصلاة من الله على
العباد رحمته لهم وبركته عليهم ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال ويستغفرون
للذين آمنوا قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان المعنى يأمر ملائكته بالاستغفار
لكم والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح وقيل الصلاة من
الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل في عباده وقيل الثناء عليه وعطف ملائكته على
الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله عليكم فيغني عن التأكيد بالضمير
المنفصل والمراد بالصلاة هنا معنى مجازي يعم صلاة الله بمعنى الرحمة وصلاة الملائكة بمعنى
الدعاء لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة وقوله (ليخرجكم من الظلمات
إلى النور) متعلق بيصلي أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم من ظلمات
المعاصي إلى نور الطاعات ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهداية ومعنى الآية تثبيت المؤمنين
على الهداية ودوامهم عليها لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية قال البيضاوي جمع
الأول لتعدد أنواع الكفر وأفرد الثاني لأن الإيمان شيء واحد لا تعدد فيه ثم أخبر سبحانه

برحمته للمؤمنين تأنيسا لهم وتثبيتا فقال (وكان بالمؤمنين رحيما) وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها ثم بين سبحانه ان هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب بل هي عامة لهم ولمن بعدهم وفي الدار الآخرة فقال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) أي تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت أو عند البعث وعند دخول الجنة هي التسليم عليهم منه عز وجل يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم وقيل المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام وذلك لانه كان بالمؤمنين رحيما فلما شملتهم رحمته وأمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضا سرورا واستبشارا والمعنى سلامة لنا من عذاب النار قال الزجاج المعنى فيسلمهم الله من الآفات ويبشرهم بالامن من المخافات يوم يلقونه وقيل الضمير في يلقونه راجع الى ملك الموت وهو الذي يحييهم كما ورد انه لا يقبض روح مؤمن الا سلم عليه قاله البراء بن عازب وقال ابن مسعود اذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقال مقاتل هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (وأعد لهم أجرا كريما) أي في الجنة أو أعد لهم في الجنة رزقا حسنا ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم وهذا بيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي أرسله بها فقال (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا) أي على أمته يشهد لمن صدقه وآمن به وعلى من كذبه وكفر به قال مجاهد شاهدا على أمته بالتبليغ اليهم وعلى سائر الامم بتبليغ أنبيائهم اليهم (ومبشرا) للمؤمنين برحمة الله وبالجنة وبما أعده لهم من جزيل الثواب وعظيم الاجر (ونذيرا) للكافرين والعصاة بالنار وبما أعده الله لهم من أليم العقاب (وداعيا الى الله) يدعو عباد الله الى التوحيد والايمان بما جاء به والعمل بما شرعه لهم ومعنى (باذنه) بامره بذلك وتقديره وقيل بتيسيره قاله الكرخي وغيره (وسراجا منيرا) يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة قال الزجاج وسراجا أي ذا سراج منير أي كتاب نير وهو القرآن وانما شبه الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالسراج دون الشمس مع انها أتم لان المراد بالسراج هنا الشمس كما قال تعالى وجعل الشمس سراجا أو شبه بالسراج لانه تفرع منه هدايته جميع العلماء كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى بخلاف الشمس (وبشر

وماصاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب الى أحدنا من أخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لئن انتم اتبعتم أذناب البقر وتبايعتم بالعينة وتركتم الجهاد في سبيل الله ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا الى ما كنتم عليه وتتوبوا الى الله تعالى وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لتكونن هجرة بعد هجرة الى مهاجر أبيكم ابراهيم حتى لا يبقى في الارض الا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم وتقذرهم روح الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث يبيتون وماسقط منهم فلها ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج قوم من أمتي يسيئون الاعمال يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم قال يزيد لا أعلمه الا قال يحقر أحدكم علمه مع علمهم يقتلون أهل الاسلام فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه وكلما طلع منهم قرن قطعه الله فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع وقال الحافظ أبو بكر البيهقي حدثنا أبو الحسن بن الفضل أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو النضر اسحق بن ابراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الاوزاعي عن نافع وقال أبو النضر عمن حدثه عن نافع عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيهاجر أهل الارض هجرة بعد هجرة الى مهاجر ابراهيم حتى لا يبقى الا شرار أهلها تلفظهم الارضون وتقذرهم روح الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا لها ماسقط منهم غريب من حديث نافع والظاهر ان الاوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء والله أعلم وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب الى الحفظ وقوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب كقوله فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا أي انه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده وكذلك قال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة أي زيادة كما قال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما وكون

يعقوب ولد لاسحق نص عليه القرآن وثبتت به السنة النبوية قال الله تعالى أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه
ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا الآية وفي الصحيحين ان الكريم ابن
الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فاما ما رواه العوفي عن ابن عباس
في قوله ووهبنا له اسحق ويعقوب قال هما ولدا ابراهيم فمعناه ان ولد الولد بمنزلة الولد فان هذا الامر لا يكاد يخفى على من هو دون
ابن عباس وقوله تعالى وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله اياه خليلا
وجعله للناس اماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد ابراهيم عليه السلام الا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني اسرائيل من سلالة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم فقام في ملئهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الاطلاق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ولم يوجد نبي من سلالة اسمعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام وقوله وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين أي جمع الله له من سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب والمورد العذب والزوجة الحسنة الصالحة والثناء الجميل والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه كما قال تعالى وابراهيم الذي وفى أي قام بجميع ما أمر به
وكمل طاعة ربه ولهذا قال تعالى وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة
لمن الصالحين وكما قال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين الى قوله وانه في الآخرة لمن الصالحين (ولوطا اذ
قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم
المنكر فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين) يقول تعالى
مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام انه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الاعمال في اتيانهم الذكران من العالمين

المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين
من أمتك (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) على مؤمني سائر الامم في الرتبة والشرف وزيادة
على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان وقد بين ذلك سبحانه بقوله والذين آمنوا
وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير
عن ابن عباس قال لما نزلت يا أيها النبي الآية وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أمر عليا
ومعاذا ان يسيرا الى اليمن فقال انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فانه قد أنزلت
علي يا أيها النبي انا أرسلناك الآية وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن عطاء بن يسار
قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم في التوراة قال أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها
النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك
المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو
ويصفح وزاد أحمد ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح
بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث
فقال وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ولم يقل عبد الله بن عمرو
وهذا أولى فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسئل عن التوراة فيخبر بما فيها ثم نهاه سبحانه
عن طاعة أعداء الدين فقال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) فيما يشيرون به عليك من
المداهنة في الدين والمداراة في أمر الدعوة ومن استعمال لين الجانب في التبليغ وفي الآية
تعريض لغيره من أمته لانه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه
ويشيرون به عليه وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة (ودع أذاهم) اي لا تبال
بما يصدر منهم اليك من الاذى بسبب تصلبك في دين الله وشدتك على اعدائه أو دع أن
تؤذيهم أنت مجازاة لهم على ما يفعلونه من الاذى لك فالمصدر على الاول مضاف الى الفاعل
وعلى الثاني مضاف الى المفعول قيل هي منسوخة بآية السيف (وتوكل على الله) في كل
شؤنك (وكفى بالله وكيلا) توكل اليه الامور وتفوض اليه الشؤن فمن فوض اليه اموره
كفاه ومن وكل اليه أحواله لم يحتج فيها الى سواه ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاق زينب
وكان قد دخل بها وخطبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انقضاء عدتها كما تقدم خاطب

المؤمنين

ولم يسبقهم الى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا ... ـر بالله تعالى ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل
أى يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم وتأتون فى ناديكم المنكر أى يفعلون مالا يليق من الاقوال والافعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيأ من ذلك فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملا قاله مجاهد ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة رضى الله عنها والقاسم ومن قائل كانوا يتناطحون بين الكباش ويتناقرون بين الديوك وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا اشرا من ذلك وقال

الامام أحمد حدثنا حماد بن اسامة أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة حدثنا سماك بن حرب عن أبى صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى وتأتون فى ناديكم المنكر قال يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث أبى اسامة حماد بن اسامة أبى يونس القشيرى عن حاتم ابن أبى صغيرة به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن لانعرفه الا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير عن عمرو بن قيس عن الحكم عن مجاهد وتأتون فى ناديكم المنكر قال الصفير ولعب الحمام والجلاهق والسؤال فى المجلس وحل أزرار القباء وقوله تعالى فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال رب انصرنى على القوم المفسدين (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ولما ان جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) لما استنصر لوط عليه السلام عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على ابراهيم عليه السلام فى هيئة اضياف فجاءهم بما ينبغى للضيف فلما رأى ابراهيم انه لاهمة لهم الى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة

المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة اذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال (ياأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) أى عقدتم بهن عقد النكاح أو بالكتابيات وانما خص المؤمنات بالذكر للتنبيه على ان من شأن المؤمن أن لاينكح الا مؤمنة تخيرا للنطفة وقد اختلف فى لفظ النكاح هل هو حقيقة فى الوطئ أو فى العقد أو فيهما على طريقة الاشتراك وكلام صاحب الكشاف فى هذا الموضع يشعر بانه حقيقة فى الوطئ فانه قال النكاح الوطئ وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث انه طريق اليه ونظيره تسمية الخمر اثما لانها سبب فى اقتراف الاثم ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله الا فى معنى العقد كما قاله صاحب الكشاف والقرطبى وغيرهما (ثم) التراخى ليس قيدا وفائدة التعبير بثم ازالة ما عسى ان يتوهم من ان تراخى الطلاق بقدر امكان الاصابة كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة (طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) اى تجامعوهن فكنى عن ذلك بلفظ المس ومن آداب القرآن الكناية عن الوطئ بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والغشى والاتيان وقد استدل بهذه الآية القائلون بانه لاطلاق قبل النكاح وهم الجمهور وبه قال على وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبى وقتادة واكثر اهل العلم وبه قال الشافعى وذهب ابن مسعود ومالك وابو حنيفة الى صحة الطلاق قبل النكاح اذا قال اذا تزوجت فلانة فهى طالق فتطلق اذا تزوجها وبه قال النخعى واصحاب الرأى وقال ربيعة والاوزاعى ان عين امرأة وقع وان عمم فلا يقع وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لاطلاق فيما لا تملك ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك أخرجه أبو داود والترمذى بمعناه وعن ابن عباس قال جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخارى (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) أى تحصونها بالاقراء والاشهر أجمع العلماء على انه اذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة وذهب أحمد الى ان الخلوة توجب العدة والصداق وقد حكى ذلك الاجماع القرطبى وابن كثير والمعنى تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها واسناد ذلك الى الرجال للدلالة على ان العدة حق لهم كما يفيده قوله فما لكم وقرئ تعتدونها بتشديد الدال وبتخفيفها وفى هذه وجهان احدهما ان يكون بمعنى الاولى مأخوذ من الاعتداد اى

فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر فلما جاءت ابراهيم البشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع
لعلهم ينظرون لعل الله ان يهديهم ولما قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا
امرأته كانت من الغابرين أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في
صورة شباب حسان فلما رآهم كذلك سيء بهم وضاق بهم ذرعا أي اهتم بأمرهم ان هو أضافهم خاف عليهم من قومه وان لم يضفهم
خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة قالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك
كانت من الغابرين انا منزلون على
أهل هذه القرية رجزا من السماء
بما كانوا يفسقون وذلك ان جبريل
عليه السلام اقتلع قراهم من قرار
الارض ثم رفعها الى عنان السماء
ثم قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة
من سجيل منضود مسومة عند
ربك وما هي من الظالمين ببعيد
وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة
وجعلهم عبرة الى يوم التناد وهم من
أشد الناس عذابا يوم المعاد ولهذا
قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة أي
واضحة لقوم يعقلون كما قال تعالى
وانكم لتمرون عليهم مصبحين
وبالليل أفلا تعقلون (والى مدين
أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله
وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في
الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم
الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)
يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب
عليه السلام انه أنذر قومه أهل
مدين فأمرهم بعبادة الله وحده
لا شريك له وان يخافوا بأس الله
ونقمته وسطوته يوم القيامة فقال
يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم
الآخر قال ابن جرير قال بعضهم
معناه واخشوا اليوم الآخر وهذا كقوله تعالى لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وقوله ولا تعثوا في
الارض مفسدين نهاهم عن العبث في الارض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها وذلك لأنهم كانوا ينقصون المكيال
والميزان ويقطعون الطريق على الناس هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة وزلزلت عليهم بلادهم وصيحة
أخرجت القلوب من حناجرها وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الارواح من مستقرها انه كان عذاب يوم عظيم وقد تقدمت قصتهم
مبسوطة في سورة الاعراف وهود والشعراء وقوله فأصبحوا في دارهم جاثمين قال قتادة ميتين وقال غيره قد ألقي بعضهم على بعض

تستوفون عددها ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف قال الرازي ولو كان من
الاعتداء الذي هو الظلم لضعف لان الاعتداء يتعدى بعلى وقيل من الاعتداد بحذف
حرف الجر اي تعتدون عليها اي على العدة مجازا والوجه الثاني ان يكون المعنى تعتدون
فيها والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا فيكون معنى الآية
على القراءة الآخرة فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة وقد انكر ابن
عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال ان البزي غلط عليه وهذه الآية مخصصة لعموم
قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولقوله واللائي يئسن من المحيض من
نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر (فمتعوهن) اي اعطوهن ما يستمتعن به والمتعة
المذكورة هنا قد تقدم الكلام عليها في البقرة وقال سعيد بن جبير هذه المتعة المذكورة
هنا منسوخة بالآية التي في البقرة وهي قوله وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد
فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم وقيل المتعة هنا هي أعم من أن تكون نصف
الصداق أو المتعة خاصة ان لم يكن قد سمى لها فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى
عملا بقوله فنصف ما فرضتم ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملا بهذه الآية ويؤيد ذلك
قوله تعالى ولا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة
ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وهذا الجمع لا بد منه وهو مقدم على الترجيح
وعلى دعوى النسخ ويخصص من هذه الآية من توفي عنها زوجها فانه اذا مات بعد العقد
عليها وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتد أربعة أشهر وعشرا قال ابن كثير
بالاجماع فيكون المخصص هو الاجماع (وسرحوهن سراحا جميلا) أي اخرجوهن من غير
اضرار ولا منع حق من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة والسراح الجميل الذي لا اضرار
فيه وقيل هو ان لا يطالبها بما كان قد أعطاها وقيل هو هنا كناية عن الطلاق وهو بعيد
لانه قد تقدم ذكر الطلاق ورتب عليه التمتع وعطف عليه السراح الجميل فلا بد ان يراد به
معنى غير الطلاق وعن ابن عباس في الآية قال هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من
قبل ان يمسها فاذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدة عليها تتزوج من شاءت ثم قال فمتعوهن
وسرحوهن سراحا جميلا يقول ان كان سمى لها صداقا فليس لها الا النصف وان لم يكن
سمى لها صداقا فامتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل وعن ابن عمر قال اذا

(وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يخبر تعالى عن هؤلاء الامم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم وأخذهم والانتقام منهم فعاد قوم هود وكانوا يسكنون الاحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى وكانت العرب تعرف مساكنها جيدا وتمر عليها كثيرا وقارون صاحب الاموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم فكلا أخذنا بذنبه أى كانت عقوبته عما يناسبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا وهم عاد وذلك انهم قالوا من أشد منا قوة فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جدا تحمل عليهم حصباء الارض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الارض فترفع الرجل منهم من الارض الى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم اعجاز نخل منقعر ومنهم من أخذته الصيحة وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه وتوعدوهم بان يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الاصوات منهم والحركات ومنهم من خسفنا به الارض وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا وعصى الرب الاعلى ومشى فى الارض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد انه أفضل من غيره واختال فى مشيته فخسف الله به وبداره الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ومنهم من أغرقنا وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر وما كان الله ليظلمهم أى فيما فعل بهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أى انما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية وهو من باب اللف والنشر وهو انه ذكر الامم المكذبة ثم قال فكلا أخذنا بذنبه أى من هؤلاء المذكورين وانما

نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن منسوخة نسختها التى فى البقرة فنصف ما فرضتم وعن سعيد ابن المسيب نحوه وعن الحسن وأبى العالية قالا ليست بمنسوخة لها نصف الصداق ولها المتاع وعن ابن جريج قال بلغ ابن عباس ان ابن مسعود يقول ان طلق مالم ينكح فهو جائز فقال ابن عباس أخطأ فى هذا ان الله يقول اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن ولم يقل اذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن وعن ابن عباس انه تلا هذه الآية وقال لا يكون طلاق حتى يكون نكاح وقد وردت أحاديث فيها انه لا طلاق الا بعد نكاح وهى معروفة (ياأيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) ذكر سبحانه فى هذه الآية انواع الانكحة التى أحلها لرسوله وبدأ بأزواجه اللاتى قد أعطاهن أجورهن أى مهورهن فان المهور أجور الابضاع ولهذا قال الكرخى ان النكاح بلفظ الاجارة جائز وقال أهل الرأى التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الاجارة وبينهما منافاة وايتاء الاجور اما تسليمها معجلة أو فرضها أو تسميتها فى العقد واختلف فى معنى الآية فقال ابن زيد والضحاك ان الله أحل له ان يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم وقال الجمهور المراد احللنا لك أزواجك الكائنات عندك لانهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها وهذا هو الظاهر لان قوله أحللنا وآتيت ماضيان وتقييد الاحلال بايتاء الاجور ليس لتوقف الحل عليه لانه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل مع الوطء والمتعة مع عدمه فكأنه لقصد الارشاد الى ما هو أفضل (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى السرارى اللاتى دخلن فى ملكك بالغنيمة والمعنى مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة من نسائهم المأخوذات على وجه القهر والغلبة مثل صفية وجويرية فاعتقهما وتزوجهما وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له ابراهيم وليس المراد بهذا القيد اخراج ما ملكه بغير الغنيمة فانها تحل السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما ولكنه خرج مخرج الغالب وأشار به الى ما هو الافضل كالقيد الاول المصرح بايتاء الاجور وهكذا قيد المهاجرة فى قوله (وبنات عمك وبنات عماتك) أى نساء قريش (وبنات خالك وبنات خالاتك) أى نساء بنى زهرة (اللاتى هاجرن معك) فانه للاشارة الى ما هو الافضل وللايذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر أى أحللنا لك ذلك زائدا على الازواج اللاتى آتيت أجورهن على قول

ميت على هذه الآية فقد روى ابن جريج قال قال ابن عباس في قوله فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا قال قوم لوط ومنهم من أغرقنا قال قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس فان ابن جريج لم يدركه ثم قد ذكر الله في هذه السورة اهلاك قوم نوح بالطوفان وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق وقال قتادة فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا قال قوم لوط ومنهم من أخذته الصيحة قوم شعيب وهذا بعيد أيضا لما تقدم والله أعلم (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهائه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم الا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فانه لا يجدي عنه شيئا فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فانه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به انه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الانداد وسيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم ثم قال تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون أي وما يفهمها ويتدبرها الا الراسخون في العلم المتضلعون منه قال الامام أحمد حدثنا اسحق ابن عيسى حدثني ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا أبي حدثنا أبو سنان عن عمرو بن مرة قال ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها الا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون (خلق الله السموات والأرض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) يقول تعالى مخبرا

الجمهور لانه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها لما قال بعد ذلك وبنات عمك وبنات عماتك لان ذلك داخل فيما تقدم والاول أولى والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها قال السمين ليس مع للقران بل لوجودها فحسب كقوله وأسلمت مع سليمان وقيل ان هذا القيد في المهاجرة معتبر وانها لا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ويؤيد هذا حديث ام هانئ وسيأتي ووجه افراد العم والخال وجمع العمة والخالة ما ذكره القرطبي ان العم والخال في الاطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز وليس كذلك العمة والخالة قال وهذا عرف لغوي جاء الكلام عليه بغاية البيان وحكاه عن ابن العربي وقال ابن كثير انه وحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الاناث كقوله عن اليمين وعن الشمائل وقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وجعل الظلمات والنور وله نظائر كثيرة انتهى وقال النيسابوري وانما لم يجمع العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع ان لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد ولم يحسن هذا الاختصار في العمة والخالة لامكان سبق الوهم الى ان التاء فيهما للوحدة انتهى وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض والمعارضة وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة بسبق الوهم الى ان التاء للوحدة وليس في العم والخال ما يسبق الوهم اليه بانه أريد به الوحدة الا مجرد صيغة الافراد وهي لا تقتضي ذلك بعد اضافتها لما تقرر من عموم اسماء الاجناس المضافة على ان هذا الوجه الاحسن لا يصفو عن شوب المناقشة أيضا قال الشهاب وقد سئل كثير عن حكمة افراد العم والخال دون العمة والخالة حتى ان السبكي صنف جزأ فيه سماه بذل الهمة في افراد العم وجمع العمة وقد رأيت لهم فيه كلمات كلها ضعيفة كقول الرازي ان العم والخال على زنة المصدر ويستوي فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة وقيل انهما يعمان اذا أضيفا والعمة والخالة لا يعمان لتاء الوحدة انتهى أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني وغيرهم عن ام هانئ بنت أبي طالب قالت خطبني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاعتذرت اليه فعذرني فانزل الله يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى قوله هاجرن معك قالت فلم أكن أحل له لاني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت نزلت في هذه الآية وبنات عمك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك أراد

عن قدرته العظيمة انه خلق السموات والارض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب لتجزى كل نفس بما تسعى ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى وقوله تعالى ان في ذلك لآية للمؤمنين أى لدلالة واضحة على انه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والالهية ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وابلاغه للناس وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر يعني ان الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أى ان مواظبتها تحمل على ترك ذلك وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن

عباس مرفوعا من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله الا بعدا ذكر الآثار الواردة في ذلك قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن هرون المخرمي الفلاس حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد حدثنا عمر بن أبي عثمان حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له وحدثنا علي بن الحسين حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس في قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا فهذا موقوف قال ابن جرير وحدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة ان تنهاه عن الفحشاء والمنكر قال وقال سفيان قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك قال فقال سفيان اى والله تأمره وتنهاه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن جويبر عن الضحاك عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر والموقوف أصح كما رواه الاعمش عن مالك بن الحرث عن عبد الرحمن بن يزيد قال قيل لعبد الله ان فلانا يطيل الصلاة قال

النبي ان يتزوجني فنهي عني اذ لم أهاجر وعن ابن عباس في قوله انا أحللنا لك أزواجك الى قوله خالصة لك قال فحرم الله عليه سوى ذلك من النساء وكان قبل ذلك ينكح في أى النساء شاء لم يحرم ذلك عليه وكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا ان ينكح في أى النساء أحب فلما أنزل اني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه (وامرأة مؤمنة) أى وأحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد وهذا يدل على ان الكافرة لا تحل له قال امام الحرمين وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه قال ابن العربي والصحيح عندي تحريمها وبهذا يتميز علينا فانه ما كان في جانب الفضائل والكرامات فحظه فيه أكثر وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات وقصر هو صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنات ولهذا كان لا تحل له الكتابية الكافرة لنقصانها بالكفر انتهى واما تسريه بالامة الكتابية فالاصح فيه الحل لانه صلى الله عليه وآله وسلم استمتع بأمته ريحانة قبل ان تسلم كذا في المواهب وكانت يهودية من سبي قريظة ومما خص به ايضا انه يحرم عليه نكاح الامة ولو مسلمة لان نكاحها معتبر بخوف العنت وهو معصوم وبفقدان مهر الحرة ونكاحه غني عن المهر ابتداء وانتهاء وبرق الولد ومنصبه صلى الله عليه وآله وسلم ينزه عنه كذا في الروض وشرحه (ان وهبت نفسها للنبي) اى ملكتك بضعها باى عبارة كانت بغير صداق واما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك بل مقيدا بارادتك فهي جملة شرطية لا تستلزم الوقوع ولهذا قال (ان اراد النبي ان يستنكحها) يقال نكح واستنكح مثل عجل واستعجل وعجب واستعجب ويجوز ان يراد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح او طلب الوطء قاله القرطبي اى يصيرها منكوحة له ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر وذلك جار منه مجرى القبول وحيث لم تكن الآية نصا في كون تمليكها بلفظ الهبة لم تصلح ان تكون مناطا للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة وايراده في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات عن الخطاب للايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به كما نطق به قوله الآتي خالصة لك وقد قيل انه لم ينكح النبي من الواهبات انفسهن احدا ولم يكن عنده منهن شئ وقال قتادة كانت عنده ميمونة بنت الحرث قال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الانصارية أم المساكين

ان الصلاة لا تنفع الا من أطاعها وقال ابن جرير حدثنا علي حدثنا اسمعيل بن مسلم عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا والاصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والاعمش وغيرهم والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف بن موسى أنبأنا جرير يعني ابن عبد الحميد عن الاعمش عن أبي صالح قال أراه عن جابر شك الاعمش قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه ما تقول وحدثنا محمد بن موسى الحرشي أخبرنا زياد بن عبد الله عن الاعمش عن أبي صالح عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ولم يشك ثم قال وهذا الحديث قد رواه عن الاعمش غير واحد واختلفوا في اسناده فرواه غير واحد عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو غيره وقال قيس عن الاعمش عن أبي سفيان عن جابر قال جرير وزياد عن عبد الله عن الاعمش عن أبي صالح عن جابر وقال الامام أحمد حدثنا وكيع أخبرنا الاعمش قال أرى أبا صالح عن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق فقال انه سينهاه ما تقول وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الاكبر ولهذا قال تعالى ولذكر الله أكبر أي أعظم من الاول والله يعلم ما تصنعون أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم وقال أبو العالية في قوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال ان الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة الاخلاص والخشية وذكر الله فالاخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه وقال ابن عون الانصاري اذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر وقال حماد بن أبي سليمان ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر يعني ما دمت فيها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ولذكر الله أكبر يقول ولذكر الله لعباده أكبر اذا ذكروه من ذكرهم اياه وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن داود بن أبي هند عن رجل عن ابن عباس ولذكر الله أكبر قال ذكر الله عند طعامك

وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر الاسدية وقال عروة ابن الزبير وهي أم حكيم بنت الاوقص السلمية أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن عائشة قالت التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خولة بنت حكيم وأخرج البخاري وغيره عن عروة ان خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله ابن عبيدة قالوا تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة امرأة ست من قريش خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة وثلاث من بني عامر بن صعصعة وامرأتان من بني هلال بن عامر ميمونة بنت الحرث وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وزينب أم المساكين والعامرية وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه وزينب بنت جحش الاسدية والسبيتين صفية بنت حيي وجويرية بنت الحرث الخزاعية وأخرج البخاري وابن مردويه عن أنس قال جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله هل لك بي حاجة فقالت ابنة أنس ما كان أقل حياءها فقال هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعرضت نفسها عليه وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي ان امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوهبت نفسها له فصمت الحديث بطوله وكان من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ان النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر والزيادة على أربع ووجوب تخيير النساء وعليه جماعة واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الامة فذهب أكثرهم الى انه لا ينعقد الا بلفظ النكاح والتزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي وقال ابراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة ومن قال بالقول الاول اختلفوا في نكاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذهب قوم الى انه كان ينعقد في حقه صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ الهبة وذهب قوم آخرون الى انه لا ينعقد كما في حق سائر الامة وكان اختصاصه في ترك المهر وعدم لزومه له لا في لفظ النكاح واختلفوا في ان العقد بلفظ الهبة هل وقع له بالفعل أم لا فقال ابن عباس ومجاهد لم يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح أو ملك يمين وقال آخرون وقع واختلفوا فيها كما تقدم وقال الزمخشري

وعند منامك قلت فان صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول قال وأى شئ يقول قلت قال يقول الله تعالى فاذكرونى أذكركم فلذكر الله ايانا أكبر من ذكرنا اياه قال صدق قال وحدثنا أبى حدثنا النفيلى حدثنا اسمعيل عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى ولذكر الله أكبر قال لها وجهان قال ذكر الله عند ماحرم قال وذكر الله اياكم أعظم من ذكركم اياه وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم أخبرنا هشيم أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال قال لى ابن عباس هل تدرى ماقوله تعالى ولذكر الله أكبر قال قلت نعم قال فما هو قلت التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك قال لقد قلت قولا عجبا وماهو كذلك ولكنه انما يقول ذكر الله اياكم عندما أمر به أو نهى عنه اذا ذكرتموه أكبر من ذكركم اياه وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وروى أيضا عن ابن مسعود وأبى الدرداء وسلمان الفارسى وغيرهم واختاره ابن جرير (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) قال قتادة وغير واحد هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وانما هو الاسلام أو الجزية أو السيف وقال آخرون بل هى باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتى هى أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة الآية وقال تعالى لموسى وهرون حين بعثهما الى فرعون فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد وقوله تعالى الا الذين ظلموا منهم أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح المحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال الى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله عز وجل لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد الى قوله ان الله قوى عزيز قال جابر أمرنا من خالف كتاب الله ان نضرب بالسيف قال مجاهد الا الذين ظلموا منهم يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية وقوله تعالى وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم يعنى اذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا يقدم على تكذيبه لانه قد يكون حقا ولا على تصديقه فلعله ان يكون باطلا ولكن يؤمن به ايمانا

الزمخشرى قيل الموهوبات أربع ميمونة وزينب وأم شريك وخولة وفى السمين هذا من اعتراض الشرط على الشرط والثانى قيد فى الاول ولذلك أعربوه حالا لان الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء ان يتقدم الثانى على الاول فى الوجود فلو قال ان أكلت ان ركبت فانت طالق فلا بد ان يتقدم الركوب على الاكل وانه يشترط ان لا يكون ثمة قرينة تمنع من تقدم الثانى على الاول كقولك ان تزوجتك ان طلقتك فعبدى حر فانه لا يتصور هنا تقديم الطلاق على التزويج الا انى قد عرض لى اشكال على ماقاله الفقهاء بهذه الآية وذلك ان الشرط الثانى هنا لا يمكن تقدمه فى الوجود بالنسبة الى الحكم الخاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لا أنه لا يمكن عقلا وذلك ان المفسرين فسروا قوله تعالى ان أراد بمعنى قبل الهبة لانه بالقبول منه يتم نكاحه وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة اذ القبول متأخر وأيضا فالقصة كانت على ماذكرته من تأخر ارادته عن هبتها وهو مذكور فى التفسير وقد عرضت هذا الاشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر عنهم جواب الا ماقدمته من ان ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلت لك آنفا انتهى وقد بين الله سبحانه ان هذا النوع من النكاح خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحل لغيره من أمته فقال (خالصة لك من دون المؤمنين) لفظ خالصة اما حال من امرأة قاله الزجاج او حال من فاعل وهبت أى حال كونها خالصة لك دون غيرك أو مصدر مؤكد كوعد الله أى خلص لك خلوصا أو نعت مصدر مقدر أى هبة خالصة فنصبها بوهبت وقد أجمع العلماء على ان هذا خاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وانه لا يجوز لغيره ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها الا ماروى عن أبى حنيفة وصاحبيه انه يصح النكاح اذا وهبت وأشهد هو على نفسه بمهر وأما بدون مهر فلا خلاف فى ان ذلك خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا قال (قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من خلوص الاحلال له أى مافرضه الله سبحانه على المؤمنين فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه فان ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الاخلال به ولا الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريما له فلا يتزوجوا الا أربعا بمهر وبينة وولى وعن ابن عمر فى الآية قال فرض الله عليهم انه لا نكاح الا بولى وشاهدين وعن ابن عباس مثله وزاد ومهر (وما ملكت أيمانهم) أى وعلمنا مافرضنا

محلا معلقا على شرط وهو ان تكون مسلمة لا مؤولا قال البخاري رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا علي
ابن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية
ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي
أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وهذا الحديث تفرد به البخاري وقال الامام أحمد حدثنا عثمان
ابن عمر أخبرنا يونس عن الزهري أخبرني ابن أبي نملة ان أبا نملة الانصاري أخبره انه بينما هو

جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أعلم قال اليهودي أنا أشهد انها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وان كان باطلا لم تصدقوهم قلت وأبو نملة هذا هو أبو عمارة وقيل عمار وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الانصاري رضي الله عنه ثم ليعلم ان أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لانه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عاصم أخبرنا سفيان عن سليمان بن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث ابن ظهير عن عبد الله هو ابن مسعود قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا اما أن تكذبوا الحق أو تصدقوا باطلا فانه ليس أحد من اهل الكتاب الا وفي

قلبه تالية تدعوه الى دينه كتالية المال وقال البخاري حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا ابراهيم بن سعد أخبرنا ابن احسب
شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل اليكم على رسول الله صلى
الله عليه وسلم أحدث تقرؤنه محضا لم يشب وقد حدثكم ان أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله
ليشتروا به ثمنا قليلا الا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسئلتهم لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم وقال
البخاري وقال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن انه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر

عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهم ممن يجوز سبيه وحربه لا ممن كان لا يجوز سبيه
أو كان له عهد من المسلمين أي تكون الامة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف
المجوسية والوثنية وان تستبرأ قبل الوطء (لكيلا يكون عليك حرج) قال المفسرون
هذا يرجع الى أول الآية أي أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والواهبة نفسها لك
لكيلا يكون عليك حرج فتكون اللام متعلقة بأحللنا وقيل هي متعلقة بخالصة قاله
السمين وأبو السعود والتعلق باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له
صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى والحرج الضيق أي وسعنا عليك في الحلال لئلا
يضيق صدرك فتظن انك قد أثمت في بعض المنكوحات (وكان الله غفورا رحيما)
يغفر الذنوب فيما يعسر التحرز عنه ويرحم العباد بالتوسعة في ذلك ولذلك وسع الامر ولم
يضيقه (ترجي من تشاء منهن) قرئ ترجي مهموزا وغير مهموز وهما لغتان والارجاء التأخير
يقال أرجأت الامر وأرجيته اذا أخرته (وتؤوي اليك من تشاء) أي تضم اليك يقال
آواه اليه بالمد ضمه اليه وأوى مقصورا أي ضم اليه والمعنى ان الله وسع على رسوله صلى
الله عليه وآله وسلم وجعل الخيار اليه في نسائه فيؤخر من شاء منهن ويؤخر نوبتها
ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق ويضم اليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها وقد
كان القسم واجبا عليه حتى نزلت هذه الآية فارتفع الوجوب وصار الخيار اليه وكان ممن
آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة
وصفية فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسوي بين من آوى في القسم وكان يقسم لمن
أرجاه ما شاء هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية وهو الذي يناسب ما مضى وقد دلت
عليه الادلة الثابتة في الصحيح وغيره قال ابن العربي هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي
ينبغي ان يعول عليه لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون فرض عليه تطييبا لنفوسهن
وصونا لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي الى ما لا ينبغي وقيل هذه الآية في الواهبات
أنفسهن لا في غيرهن من الزوجات قاله الشعبي وغيره وقيل معنى الآية في الطلاق أي
تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن ان المعنى تنكح من شئت من نساء
أمتك وتترك نكاح من شئت منهن وقد قيل ان هذه الآية ناسخة لقوله لا يحل لك النساء
من بعد وعن ابن عباس ترجي أي تؤخر وعنه قال من شئت خليت سبيله منهن ومن

كعب الاحبار فقال ان كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب قلت
معناه انه يقع منه الكذب لغة من غير قصد لانه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة لانهم لم يكن
في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الامة العظيمة ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الامة لايعلمها الا الله عز وجل
ومن منحه الله تعالى علما بذلك كل بحسبه ولله الحمد والمنة (وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن
هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا
لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) قال ابن جرير يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا اليك هذا الكتاب وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد وقوله تعالى فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من احبارهم العلماء الاذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما وقوله تعالى ومن هؤلاء من يؤمن به يعني العرب من قريش وغيرهم وما يجحد بآياتنا الا الكافرون أي ما يكذب بها ويجحد حقها الا من يستر الحق بالباطل ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ثم قال تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل ان تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف انك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول
النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الآية وهكذا كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم دائما الى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل
الى الاقاليم ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه انه عليه السلام كتب يوم الحديبية هذا ما قاضى
عليه محمد بن عبد الله فانما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري ثم أخذ فكتب وهذه محمولة على الرواية الاخرى ثم أمر فكتب
ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرؤا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في

أحببت أمسكت منهن وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت كنت أغار من
اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقول تهب المرأة نفسها فلما أنزل
الله ترجي من تشاء منهن الآية قلت ما أرى ربك الا يسارع في هواك وعن أبي رزين قال
هم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن لا تخل
سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت فأنزل الله ترجي
من تشاء منهن يقول تعزل من تشاء فأرجى منهن نسوة وآوى نسوة وكان ممن أرجى ميمونة
وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء وكان ممن آوى
عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء وأخرج
البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يستأذن
في يوم المرأة منا بعد ان أنزلت هذه الآية ترجي من تشاء منهن فقلت لها ما كنت تقولين
قالت كنت أقول ان كان ذلك الي فاني لا أريد ان أوثر عليك أحدا (ومن ابتغيت ممن
عزلت) الابتغاء الطلب والعزل الازالة والمعنى ان أردت ان تؤوي اليك امرأة ممن قد
عزلتهن من القسمة وتضمها اليك (فلا جناح عليك) في ذلك والحاصل ان الله سبحانه
فوض الامر الى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير وعزل وامساك وضم
من أرجى وارجاء من ضم اليه وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه ونفيا للحرج عنه وأصل
الجناح الميل يقال جنحت السفينة اذا مالت والمعنى لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت
(ذلك) أي ما تقدم من التفويض الى مشيئته وهو مبتدأ وخبره قوله (أدنى أن تقر أعينهن)
أي ذلك التخيير والتفويض الذي فوضنا اليك أقرب الى رضاهن وأطيب لانفسهن اذ كان
من عندنا لانهن اذا علمن انه من الله قرت أعينهن واطمأنت نفوسهن وذهب التغاير
وحصل الرضا قرئ تقر على البناء للفاعل مسندا الى أعينهن وقرئ بضم التاء من أقر
وفاعله ضمير المخاطب ونصب أعينهن على المفعولية وقرئ على البناء للمفعول وقد تقدم
بيان معنى قرة العين في سورة مريم (ولا يحزن) أي لا يحصل معهن حزن بتأثيرك بعضهن
دون بعض (ويرضين بما آتيتهن كلهن) أي بما أعطيتهن من تقريب وارجاء وعزل وايواء
وكان يقسم بينهن في القسمة حتى مات ولم يستعمل شيئا مما أبيح له ضبطا لنفسه وأخذا
بالافضل غير سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنهما (والله يعلم ما في قلوبكم) من

يجالسهم وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما نعتقد أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلم إخبارًا عن الدجال مكتوب بين عينيه كافر وفي رواية ك ف ر يقرؤه كل مؤمن وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له قال الله تعالى وما كنت تتلو أي تقرأ من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك تأكيد أيضًا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه وقوله تعالى إذًا لارتاب المبطلون أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قال الله تعالى قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض الآية وقال ههنا بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا كما قال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظانًا أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء في الحديث الآخر لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظًا ومعنى ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم واختار [illegible] ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصري فقط قلت وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم وقوله تعالى وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون

كل ما تضمرونه ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء والميل إلى بعضهن (وكان الله عليمًا) بكل شيء وبما في ضمائركم لا يخفى عليه خافية (حليمًا) عنكم لا يعاجل العصاة بالعقوبة فينبغي أن يتقي محارمه لأنه إنما الحلم وعقوبته أعظم (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك واجتمعن في عصمتك وهن التسع اللاتي توفي عنهن وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية قاله أبو السعود وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال الأول أنها محكمة وأنه حرم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله له بذلك وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن وقال أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين إن المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله قال القرطبي وهو اختيار ابن جرير وقيل لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات لأنهن لا يصح أن يتصفن بأمهات المؤمنين وهذا القول فيه بعد لأنه يكون التقدير لا يحل لك النساء من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر وقيل هذه الآية منسوخة بالسنة وبقوله ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء وبهذا قالت أم سلمة وعائشة وعلي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وغيرهم وهذا هو الراجح وسيأتي ما يدل عليه من الأدلة عن زياد رجل من الأنصار قال قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم متن ما كان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قلت قوله لا يحل لك النساء من بعد قال إنما أحل له ضربًا من النساء ووصف له صفة فقال يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله وامرأة مؤمنة ثم قال لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة وعن ابن عباس قال نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال لا يحل لك النساء من بعد الآية فأحل له الفتيات المؤمنات وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات

عندكما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات والارض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدهم الى ان محمدا رسول الله كما جاء صالح بناقته قال الله تعالى قل يا محمد انما الآيات عند الله أى انما أمر ذلك الى الله فانه لو علم انكم تهتدون لاجابكم الى سؤالكم لان ذلك سهل عليه يسير لديه ولكنه يعلم منكم انكم انما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم الى ذلك كما قال تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وقوله وانما أنا نذير مبين أى انما بعثت نذيرا لكم بين النذارة فعلى ان أبلغكم رسالة الله تعالى ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقال تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذى هو أعظم من كل معجزة اذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم أى أولم يكفهم آية انا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذى فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم وانت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الاولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلى كما قال تعالى أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل وقال تعالى وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى وقال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا الليث حدثنى سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من الانبياء من نبى الا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فارجو ان أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة أخرجاه من حديث الليث وقد قال

دين غير الاسلام وقال يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك الى قوله خالصة لك من دون المؤمنين وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء وعنه قال نهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان يتزوج بعد نسائه الاول شيأ وعنه فى الآية قال حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه وعن أنس قال لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال لا يحل لك النساء من بعد وعن أم سلمة قالت لم يمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له ان يتزوج من النساء ما شاء الا ذات محرم وذلك قول الله ترجى من تشاء منهن الآية وأخرج أحمد وأبو داود فى ناسخه والترمذى وصححه والنسائى والحاكم وصححه عن عائشة قالت لم يمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له ان يتزوج من النساء ما شاء الا ذات محرم لقوله ترجى من تشاء منهن الآية وعن ابن عباس مثله وعن أبى رزين لا يحل لك النساء من بعد قال من المشركات الا ما سبيت فملكت يمينك (ولا ان تبدل بهن من أزواج) أى ليس لك ان تطلق واحدة منهن أو أكثر وتتزوج بدل من طلقت منهن أى من المسلمات غيرهن من الكتابيات لانه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية ومن مزيدة لتأكيد النفى وفائدته استغراق جنس الازواج بالتحريم وقال ابن زيد هذا شئ كانت العرب تفعله تقول خذ زوجتى وأعطنى زوجتك وقد أنكر ابن جرير والنحاس ما ذكره ابن زيد قال ابن جرير ما فعلت العرب هذا قط ويدفع هذا الانكار منهما ما أخرجه الدارقطنى عن أبى هريرة قال كان البدل فى الجاهلية ان يقول الرجل للرجل تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى فأنزل الله عز وجل ولا ان تبدل بهن وأخرجه أيضا عنه البزار وابن مردويه وأخرجا عن أبى هريرة قال كان البدل فى الجاهلية ان يقول الرجل للرجل بادلنى امرأتك وأبادلك امرأتى أى تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى فأنزل الله هذه الآية قال فدخل عيينة بن حصن الفزارى على رسول صلى الله عليه وآله وسلم وعنده عائشة فدخل بغير اذن فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين الاستئذان قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الانصار منذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء الى جنبك فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم هذه عائشة أم المؤمنين قال أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله قال يا عيينة ان الله حرم ذلك فلما ان خرج قالت عائشة من هذا قال أحمق مطاع وانه على ما ترين لسيد قومه (ولو أعجبك حسنهن) وهذا كقولك اعطوا السائل ولو على فرس أى فى كل

الله تعالى ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون أى ان فى هذا القرآن لرحمة أى بيان للحق وازاحة للباطل وذكرى بما فيه حلول
النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون ثم قال تعالى قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا أى هو
أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من اخبارى عنه بانه أرسلنى فلو كنت كذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى ولو
تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وانما أنا صادق عليه فيما
أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات يعلم ما فى السموات والارض أى لا تخفى
عليه خافية والذين آمنوا بالباطل
وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون
أى يوم القيامة سيجزيهم على
ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا فى
تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل
كذبوا رسل الله مع قيام الادلة على
صدقهم وآمنوا بالطواغيت
والاوثان بلا دليل فيجازيهم على
ذلك انه حكيم عليم (ويستعجلونك
بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم
العذاب وليأتينهم بغتة وهم
لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب
وان جهنم لمحيطة بالكافرين يوم
يغشاهم العذاب من فوقهم ومن
تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم
تعملون) يقول تعالى مخبرا عن
جهل المشركين فى استعجالهم
عذاب الله ان يقع بهم وبأس الله
ان يحل عليهم كما قال تعالى واذ قالوا
اللهم ان كان هذا هو الحق من
عندك فامطر علينا حجارة من
السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقال
ههنا ويستعجلونك بالعذاب ولولا
أجل مسمى لجاءهم العذاب اى لولا
ما حتم الله من تأخير العذاب الى
يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا
سريعا كما استعجلوه ثم قال وليأتينهم بغتة أى فجأة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بيرت
بالكافرين أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة قال شعبة عن سماك عن عكرمة قال فى قوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين
قال البحر وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عمر بن اسمعيل بن خالد حدثنا أبى عن مجالد عن الشعبى انه سمع ابن عباس
يقول ان جهنم لمحيطة بالكافرين وجهنم هو هذا البحر الاخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو
جهنم وقال الامام أحمد حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الله بن أمية حدثنى محمد بن حيى أخبرنى صفوان بن يعلى عن أبيه ان النبى صلى

حل ولو على هذه الحالة المنافية للاعطاء وقيل تقديره مفروضا اعجابك بهن أى لا يحل لك
التبدل بازواجك ولو أعجبك حسن غيرهن وجمالهن ممن أردت ان تجعلها بدلا من احداهن
وهذا التبدل أيضا من جملة ما نسخه الله فى حق رسوله على القول الراجح ونسخها اما
بالسنة أو بقوله انا أحللنا لك أزواجك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف قال ابن
عباس يعنى أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبى طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ان يخطبها فنهى عن ذلك (الا ما ملكت يمينك) استثناء من النساء
لانه يتناول الحرائر والاماء وقيل منقطع والمعنى تحل لك الاماء وقد ملك صلى الله عليه وآله
وسلم بعد هن مارية القبطية أهداها له المقوقس ملك القبط وهم أهل مصر والاسكندرية
وولدت له ابراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان ومات فى حياة أبيه وله سبعون يوما وقيل سبعة
وعشرة اشهر وفى رواية انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل عليه بنفسه بل امرهم فصلوا
قاله ابن حجر فى شرح الهمزية وقد اختلف العلماء فى تحليل الامة الكافرة على قولين
الاول انها تحل للنبى صلى الله عليه وآله وسلم لعموم هذه الآية وبه قال مجاهد وسعيد
ابن جبير وعطاء والحسن والثانى انها لا تحل للنبى صلى الله عليه وآله وسلم تنزيها لقدره
عن مباشرة الكافرة ويترجح القول الاول بعموم هذه الآية وتعليل المنع بالتنزه ضعيف
فلا نزه عما أحله الله فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بامور النكاح لا باعتبار غير ذلك
فالمشركون نجس بنص القرآن ويمكن ترجيح القول الثانى بقوله سبحانه ولا تمسكوا
بعصم الكوافر فانه نهى عام (وكان الله على كل شئ رقيبا) أى مراقبا حافظا وفى الآية
دليل على جواز النظر الى من يريد نكاحها من النساء ويدل عليه ما روى عن جابر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع ان ينظر الى
ما يدعوه الى نكاحها فليفعل أخرجه أبو داود وعن أبى هريرة ان رجلا أراد أن يتزوج
امرأة من الانصار فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم انظر اليها فان فى أعين الانصار
شيأ قال الحميدى يعنى هو الصغر وعن المغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لى النبى
صلى الله عليه وآله وسلم هل نظرت اليها قلت لا قال فانظر اليها فانه أحرى ان يدوم بينكما
أخرجه الترمذى وقال حسن (يا أيها الذين آمنوا) شروع فى بيان ما تجب رعايته على
الناس من حقوق نساء النبى اثر بيان ما تجب مراعاته عليه من حقوقهن (لا تدخلوا

الله عليه وسلم قال البحر هو جهنم قالوا يا يعلى فقال ألا ترون ان الله تعالى [illegible] قال لا والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى اعرض على الله ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله [illegible] ذا تفسير غريب وحديث غريب جدا والله أعلم ثم قال عز وجل يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم كقوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وقال تعالى لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل وقال تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم الآية فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب الحسى وقوله تعالى ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر انا كل شئ خلقناه بقدر وقال تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون افسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون (يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على اقامة الدين فيها الى أرض الله الواسعة حيث يمكن اقامة الدين بان يوحدوا الله و يعبدوه كما أمرهم ولهذا قال تعالى يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو القرشى حدثنى أبو سعد الانصارى عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين الى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيدهم بنصره وجعلهم سيوما ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون الى المدينة النبوية يثرب المطهرة ثم قال تعالى كل نفس ذائقة الموت ثم الينا

بيوت النبى) هذا نهى عام لكل مؤمن ان يدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الا باذن منه وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة فى وليمة زينب وقد أخرج البخارى ومسلم عن أنس قال قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب وفى لفظ انه قال عمر يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون واذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وآله وسلم انهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الآية وأخرج ابن جرير عن عائشة ان أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم كن يخرجن بالليل اذا تبرزن الى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالى عشيا وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الاعلى قد عرفناك يا سودة حرصا على ان ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب قال يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الآية وأخرج ابن سعد عن أنس قال نزل الحجاب مبتنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش وذلك سنة خمس من الهجرة وحجب نساءه من يومئذ وأنا ابن خمس عشرة سنة وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان وقال نزل الحجاب على نسائه فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة وبه قال قتادة والواقدى وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط ان ذلك كان فى سنة ثلاث وفى الآية دليل على ان البيت للرجل ويحكم له به فان الله أضافه اليه اضافة ملك وأما اضافته الى الازواج فى قوله ما يتلى فى بيوتكن فهى اضافة محل بدليل انه جعل فيها الاذن الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم والاذن انما يكون من المالك واختلف العلماء فى بيوت النبى صلى الله عليه وآله وسلم التى كان يسكن فيها نساؤه بعد موته هل هى ملك لهن أولا على قولين فقالت طائفة كانت ملكا لهن بدليل انهن سكن فيها بعد موت النبى صلى

ترجعون أي أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ووفاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا خالدين فيها أي ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا نعم أجر العاملين نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين الذين صبروا أي على دينهم وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي أخبرنا صفوان المؤذن أخبرنا الوليد بن مسلم أخبرنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام الأسود حدثني أبو معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام وعلى ربهم يتوكلون في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص بقعة بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ولهذا قال تعالى وكأين من دابة لا تحمل رزقها أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد الله يرزقها وإياكم أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض والطير في الهواء والحيتان في الماء قال تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي حدثنا يزيد يعني ابن هرون حدثنا الجراح بن منهال الجزري هو أبو العطوف عن الزهري عن رجل عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي يا ابن عمر ما لك لا تأكل قال قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده

الله عليه وآله وسلم إلى وفاتهن وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهب لهن ذلك في حياته الثاني أن ذلك كان إسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة وامتدت سكناهن بها إلى الموت وهذا هو الصحيح وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهما فإن ذلك من مؤنتهن التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استثناها لهن كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال لا تقسم ورثتي دينارا ولا درهما ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤنة عاملي فهو صدقة هكذا قال أهل العلم قالوا ويدل على ذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن قالوا وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على أنها لم تكن لهن ملكا وإنما كان لهن سكنى حياتهن فلما توفين جعل ذلك زيادة في المسجد الحرام الذي يعم المسلمين نفعه كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما مضين إلى سبيلهن فزيد إلى أصل المال فصرف لمنافع المسلمين مما يعم نفعه الجميع والله الموفق كذا قاله القرطبي واعلم أن قالون همز النبي حيث وقع إلا في موضعين من هذه السورة أحدهما هذه الآية والثاني قوله إن وهبت نفسها للنبي فأبدلها ياء في الوصل وهمزها في الوقف كما ذكره الشاطبي ولم يسهلها كما سهل غيرها لأنه رأى الإبدال هنا جاريا على القياس فيه فرجحه أو اقتفى لغيره ولأنه أفصح من التسهيل ولذلك أنكر على من قال يا نبيء الله بالهمز وهذا مما أعثار عليه فلله در التنزيل وما فيه من دقائق التأويل (إلا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مأذونا لكم أي إلا مصحوبين بالإذن أو إلا بأن يؤذن لكم أو إلا وقت أن يؤذن لكم وقوله (إلى طعام) متعلق بيؤذن على تضمينه معنى الدعاء أي إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام (غير ناظرين إناه) انتصاب غير على الحال والعامل فيه يؤذن أو مقدر أي ادخلوا غير ناظرين ومعنى ناظرين منتظرين وإناه نضجه وإدراكه يقال أنى يأني إنى إذا حان وأدرك قال الرازي في الآية إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطا بكونه إلى طعام فإن لم يؤذن إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز فنقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن

الدخول

ولوشئت لدعوت ربي فاعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبؤن رزق سنتهم ويضعف اليقين
قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان الله عزوجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فان الحياة بيد الله الاواني لا أكنز
دينارا ولا درهما ولا اخبأ رزقا لغد هذا حديث غريب وأبو العطوف الجزري ضعيف وقد ذكروا ان الغراب اذا فقس عن فراخه
البيض خرجوا وهم بيض فاذا رآهم أبوهم كذلك نفر عنهم أياما حتى (٣٠٥) يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه

فيقيض الله تعالى طيرا صغارا
كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك
الايام حتى يسود ريشه والابوان
يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه
أبيض الريش نفرا عنه فاذا رأوه قد
اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة
والرزق ولهذا قال الشاعر

يا رازق النعاب في عشه
وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في
الاوامر كقول النبي صلى الله عليه
وسلم سافروا تصحوا وترزقوا قال
البيهقي أخبرنا املاء أبو الحسن
علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد
ابن عبيد أخبرنا محمد بن غالب حدثني
محمد بن سنان أخبرنا محمد بن عبد
الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة
حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر
قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم سافروا تصحوا وتغنموا قال
ورويناه عن ابن عباس وقال الامام
أحمد حدثنا قبيصة أخبرنا ابن لهيعة
عن دراج عن عبد الرحمن بن محمد
عن أبي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم سافروا تربحوا
وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا وقد

ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا وعن معاذ بن جبل مرفوعا وفي لفظ سافروا
مع ذوي الجدود والميسرة قال ورويناه عن ابن عباس وقوله وهو السميع العليم أي السميع لاقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم
(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده
ويقدر له ان الله بكل شئ عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم
لا يعقلون) يقول تعالى مقررا انه لا اله الا هو لان المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بانه المستقل بخلق السموات والارض

الدخول واما كونه لا يجوز الا باذن الى الطعام فلما هو مذكور في سبب النزول ان الخطاب
مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول في وقتهم
بغير اذن وقال ابن عادل الاولى ان يقال المراد هو الثاني لان التقديم والتأخير خلاف
الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لاسيما اذا علم
ان غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله باذنه الى غير الطعام
انتهى والاولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال قد دلت الادلة على جواز
دخول بيوته صلى الله عليه وآله وسلم باذنه لغير الطعام وذلك معلوم لا شك فيه فقد كان
الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم وذلك يوجب قصر هذه الآية
على السبب الذي نزل فيه وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وآله
وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه وأمثالهم فلا تدل على المنع من الدخول
مع الاذن لغير ذلك والا لما جاز لاحد أن يدخل بيوته باذنه لغير الطعام واللازم باطل
فالملزوم مثله قال ابن عطية وكانت سيرة القوم اذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر
من شاء الى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه وكذلك اذا فرغوا منه جلسوا كذلك
فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودخل في النهي سائر
المؤمنين والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك فمنعهم من الدخول الا باذن عند الاكل لا قبله
لانتظار نضج الطعام ثم بين سبحانه ما ينبغي في ذلك فقال (ولكن اذا دعيتم) وأذن لكم
فادخلوا وفيه تأكيد بليغ للمنع وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول وهو عند الاذن
وقال ابن العربي وتقدير الكلام ولكن اذا دعيتم وأذن لكم (فادخلوا) والا فنفس
الدعوة لا يكون اذنا كافيا في الدخول وقيل ان فيه دلالة بينة على أن المراد بالاذن الى
الطعام هو الدعوة اليه قال الرازي فيه لطيفة وهي ان في العادة اذا قيل لمن يعتاد دخول
دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال
لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين اذا قيل لكم لا تدخلوا فلا تدخلوا
واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وقوله الا أن يؤذن لكم يفيد الجواز وقوله ولكن اذا
دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فليس تأكيدا بل هو مفيد فائدة جديدة (فاذا طعمتم) أي
أكلتم الطعام يقال طعم بكسر العين يطعم بفتحها طعما كفهم وطعما كقفل وفي الخطيب

والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار وانه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم فتفاوت بينهم فمنهم الغنى والفقير وهو العليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر فذكر انه المستقل بخلق الاشياء المتفرد بتدبيرها فاذا كان الامر كذلك فلم يعبد غيره ولم يتوكل على غيره فكما انه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الالهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب (٣٠٦) وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها وانها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان أى الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء بل هى مستمرة أبد الآباد وقوله تعالى لو كانوا يعلمون أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى ثم أخبر تعالى عن المشركين انهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائما فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين كقوله تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم الآية وقال ههنا فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقد ذكر محمد بن اسحق عن عكرمة ابن أبى جهل انه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فارا منه فلما ركب فى البحر ليذهب الى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فانه لا ينجى ههنا الا هو فقال عكرمة والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره فانه لا ينجى فى البر أيضا غيره اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤفا رحيما فكان كذلك وقوله تعالى ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الاصول لام العاقبة لانهم لا يقصدون ذلك ولا شك انها كذلك بالنسبة اليهم وأما بالنسبة الى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه اياهم لذلك فهى لام التعليل وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله ليكون لهم عدوا وحزنا (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ومن أظلم ممن

اذا أكلتم طعاما أو شربتم شرابا (فانتشروا) أى اذهبوا حيث شئتم فى الحال ولا تمكثوا بعد الاكل والشرب والمراد الالزام بالخروج من المنزل الذى وقعت الدعوة اليه عند انقضاء المقصود من الاكل ولا تدخلوها حين (ولا) تمكثوا (مستأنسين لحديث) يستأنس بعضكم ببعض لاجل حديث يحدثه به يقال أنست به انسا من باب علم وفى لغة من باب ضرب والانس بالضم اسم منه واستأنست به وتأنست به اذا سكن القلب ولم ينفر (ان ذلكم) أى الانتظار أو المكث والاستئناس للحديث وأشير اليهما بما يشار به الى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما فى قوله تعالى عوان بين ذلك أى ان ذلك المذكور من الامرين (كان) فى علم الله (يؤذى النبى) لانهم كانوا يضيقون عليه المنزل وعلى أهله ويتحدثون بما لا يريده قال الزجاج كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يحتمل اطالتهم كرما منه فيصبر على الاذى فى ذلك فعلم الله من يحضره الادب فصار أدبا لهم ولمن بعدهم (فيستحيى منكم) أى يستحيى ان يقول لكم قوموا أو اخرجوا (والله لا يستحيى من الحق) أى لا يترك ان يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من بيانه واظهاره والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة قرأ الجمهور يستحيى بياءين وروى عن ابن كثير انه قرأ بياء واحدة وهى لغة تميم يقولون استحى يستحى مثل استق يستقى وهذا أدب أدب الله به الثقلاء وعن عائشة حسبك فى الثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم وقال اذا طعمتم فانتشروا ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال (واذا سألتموهن) أى أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم (متاعا) أى شيأ يتمتع به من الماعون وغيره والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به فلا وجه لما قيل من ان المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب) أى من وراء ستر بينكم وبينهن فبعد آية الحجاب لم يكن لاحد أن ينظر الى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة (ذلكم) أى سؤال المتاع من وراء الحجاب وقيل الاشارة الى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع والاول أولى واسم الاشارة مبتدأ وخبره قوله (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى أكثر تطهيرا لها من الريبة وخواطر السوء التى تعرض للرجال فى أمر النساء وللنساء فى أمر الرجال وأبعد للتهمة وأقوى فى الحماية وفى هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له والمكالمة من

دون

افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى الكافرين والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى لإيلاف قريش الى آخر السورة وقوله تعالى أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار فكفروا بنبي الله

وعبده ورسوله فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فأخرجوه من بين أظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم ببدر ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ثم قال تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثاني مكذب ولهذا قال تعالى أليس في جهنم مثوى للكافرين ثم قال تعالى والذين جاهدوا فينا يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه الى يوم الدين لنهدينهم سبلنا أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد ابن أبي الحواري أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون قال أحمد بن أبي الحواري فحدثت به أبي سليمان يعني الداراني فأعجبه وقال ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما في قلبه وقوله وإن الله لمع المحسنين قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري حدثنا أبو جعفر الرازي عن المغيرة عن الشعبي قال قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن الى من أساء اليك ليس الإحسان أن تحسن الى من أحسن اليك والله أعلم آخر تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة

دون حجاب لمن تحرم عليه فإن مجانبة ذلك أحسن بحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته (وما كان) أي ما صح ولا استقام (لكم أن تؤذوا رسول الله) بشيء من الأشياء كائناً ما كان ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده وتكليم نسائه من دون حجاب (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) أي ولا كان لكم ذلك بعد وفاته أو فراقه لأنهن أمهات المؤمنين ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات قال ابن عباس في الآية نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعده قال سفيان وذكروا أنها عائشة وعن السدي قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت هذه الآية وعن قتادة قال قال طلحة بن عبيد الله لو قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتزوجت عائشة فنزلت وعن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قال نزلت في طلحة لأنه قال إذا توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوجت عائشة قال ابن عطية وهذا عندي لا يصح على طلحة قال القرطبي قال شيخنا الإمام أبو العباس وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب في نقله وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال وعن ابن عباس قال قال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو قد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تزوجت عائشة وأم سلمة فأنزل الله وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية وعنه أن رجلاً أتى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكراً ولا قالت لي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله وإنه ليس أحد أغير مني فمضى ثم قال يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده فأنزل الله هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته وعن أسماء بنت عميس قالت خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت إن أسماء متزوجة علياً فقال لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله والذي جرى عليه الرملي في شرح المنهاج أن من عقد عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحرم على غيره سواء دخل بها صلى الله عليه وآله وسلم أولا وأما حكم إمائه فمن

(تفسير سورة الروم وهي مكية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) نزلت هذه الآيات حين غلب نيسابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه الى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي وقال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو اسحق عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى الم غلبت الروم في أدنى الارض قال غلبت وغلبت قال كان المشركون يحبون ان تظهر فارس على الروم لانهم أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لانهم أهل الكتاب فذكر ذلك لابي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا جعلتها أراه قال العشر قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون الى قوله وهو العزيز الرحيم هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبي اسحق الفزاري عن سفيان بن سعيد الثوري به وقال الترمذي حسن غريب انما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن اسحق الصغاني عن معاوية بن عمرو به ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن سعيد أو سعيد الثعلبي الذي يقال له أبو سعد من أهل طرسوس حدثنا أبو اسحق الفزاري فذكره وعندهم قال سفيان فبلغني انهم غلبوا يوم بدر حديث آخر قال سليمان بن مهران الاعمش عن مسلم عن مسروق قال قال عبد الله خمس قد مضين الدخان واللزام والبطشة والقمر والروم أخرجاه وقال ابن جرير حدثنا ابن

دخل بها منهن حرمت على غيره والا فلا (ان ذلكم) أي نكاح أزواجه من بعده (كان عند الله عظيما) أي ذنبا عظيما وخطبا هائلا شديدا وهذا من اعلام تعظيم الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا واعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فان من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده (ان تبدوا شيئا) أي تظهروه على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله كان بكل شيء عليما) يعلم كل شيء من الاشياء ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله وما تكتمونه في صدوركم وفي هذا وعيد شديد لان احاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها قال أبو امامة بن سهل في الآية ان تكلموا به فتقولون نتزوج فلانة لبعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو تخفوا ذلك في أنفسكم فلا تنطقوا به يعلمه الله ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن) فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم في رؤية وكلام ولم يذكر العم والخال لانهما يجريان مجرى الوالدين وقال الزجاج العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية وهذا ضعيف جدا فان تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر اليها لا سيما أبناء الاخوة وأبناء الاخوات واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا يستلزم ان لا يجوز للنساء الاجنبيات ان ينظرن اليها لانهن يصفنها واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة من انه يكره للمرأة ان تضع خمارها عند عمها أو خالها والاولى ان يقال انه سبحانه اقتصر ههنا على بعض من ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم (ولا نسائهن) هذه الاضافة تقتضي ان يكون المراد بالنساء المؤمنات لان الكافرات غير مأمونات على العورات والنساء كلهن عورة فيجب على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الاحتجاب عنهن كما يجب على سائر المسلمات أي ما عدا ما يبدو عند المهنة اما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات قاله ذا قيل هو خاص أي لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل عام في المسلمات والكتابيات (ولا ما ملكت أيمانهن) من العبيد والاماء ان يروهن ويكلموهن من غير حجاب وقيل

الاماء

وكيع حدثنا المحاربي عن داود بن أبي هند عن عامر هو الشعبي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال كان فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون ان تظهر فارس على الروم وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لانهم أهل كتاب وهم أقرب الى دينهم فلما نزلت الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين قالوا يا أبا بكر ان صاحبك يقول ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين قال صدق قالوا هل لك الى أن نقامرك فبايعوه على أربع قلائص الى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شئ ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ما بضع سنين عندكم قالوا دون العشر قال اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الاجل قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى الم غلبت الروم الى قوله تعالى وعد الله لا يخلف الله وعده حديث آخر قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي حدثنا مؤمل عن اسرائيل عن أبي اسحق عن البراء قال لما نزلت الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون قال المشركون لابي بكر ألا ترى الى ما يقول صاحبك يزعم ان الروم تغلب فارس قال صدق صاحبي قالوا هل لك ان نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلا فحل الاجل قبل ان يغلب الروم فارس فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وساءه ذلك وكرهه وقال لابي بكر ما دعاك الى هذا قال تصديقا لله ولرسوله قال تعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله الى بضع سنين فأتاهم أبو بكر فقال لهم هل لكم في العود فان العود أحمد قالوا نعم فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فجاء به أبو بكر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذا السحت قال تصدق به حديث آخر قال أبو عيسى الترمذي حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنا اسمعيل بن أبي أويس أخبرني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال لما نزلت الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لانهم واياهم أهل كتاب وفي ذلك قوله تعالى يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وكانت قريش تحب ظهور فارس لانهم واياهم

الاماء خاصة ومن لم يبلغ من العبيد والخلاف في ذلك معروف وقد تقدم في سورة النور ما فيه كفاية ثم أمر سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الامر كله ونقل الكلام من الغيبة الى الخطاب وفي هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل (واتقين الله) في كل الامور التي من جملتها ما هو مذكور هنا من الاحتجاب أي ان يراكن أحد غير هؤلاء قال ابن عباس في الآية أنزلت هذه في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة (ان الله كان على كل شئ) من أعمال العباد (شهيدا) لم يغب عنه شئ من الاشياء كائنا ما كان فهو مجاز للمحسن باحسانه وللمسئ باساءته والشهيد الذي يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح (ان الله وملائكته يصلون على النبي) هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وموته وأظهر بها منزلته عنده تعالى والضمير في يصلون راجع الى الله والى الملائكة وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحدا فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع الخطيب يقول من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله ووجه ذلك انه ليس لاحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد وهذا الحديث ثابت في الصحيح وثبت أيضا في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر مناديا ينادي يوم خيبر ان الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الاهلية ولاهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله والملائكة واحدا والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحمل الذم لذلك الخطيب الجامع بينهما على انه صلى الله عليه وآله وسلم فهم منه ارادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله فيختص المنع بمثل ذلك وهذا أحسن ما قيل في الجمع وقالت طائفة في هذه الآية حذف والتقدير ان الله يصلي وملائكته يصلون وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره في ضمير واحد ولا يرد أيضا ما قيل ان الصلاة من الله الرحمة ومن ملائكته الدعاء فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون ويقال على القول الاول انه أريد بيصلون معنى مجازي يعم المعنيين وذلك بان يراد بقوله يصلون يهتمون باظهار شرفه أو يعظمون شأنه أو يعتنون بأمره وحكى البخاري عن أبي العالية ان صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته

يسيرون فيها؟ فلما نزلت هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من
بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فقال ناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع
سنين أفلا نراهنك على ذلك قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر كم تجعل
البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه قال فسموا بينهم ست سنين قال فمضت الست السنين قبل أن
يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت (٢١٠) السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبي
بكر تسمية ست سنين قال لأن الله
تعالى قال في بضع سنين قال وأسلم عند
ذلك ناس كثير هكذا ساقه الترمذي
ثم قال هذا حديث حسن صحيح
لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن
ابن أبي الزناد وقد روي نحو هذا
مرسلا عن جماعة من التابعين مثل
عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة
والسدي والزهري وغيرهم ومن
أغرب هذه السياقات ما رواه الامام
سنيد بن داود في تفسيره حيث قال
حدثني حجاج عن أبي بكر بن عبد
الله عن عكرمة قال كانت في فارس
امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال
فدعاها كسرى فقال إني أريد أن
أبعث إلى الروم جيشا وأستعمل
عليهم رجلا من بنيك فأشيري علي
أيهم أستعمل فقالت هذا فلان
وهو أروغ من ثعلب وأحذر من
صقر وهذا فرخان وهو أنفذ من
سنان وهذا شهربراز وهو أحلم من
كذا تعني أولادها الثلاثة فاستعمل
أيهم شئت قال إني استعملت
الحليم فاستعمل شهربراز فسار إلى
الروم بأهل فارس فظهر عليهم
فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع
زيتونهم قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال أما رأيت بلاد الشام عصيا
قلت لا قال أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت والزيتون الذي قطع فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته قال عطاء الخراساني
حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم وبعث كسرى شهربراز فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى
الشام إليكم فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون قال عكرمة ولقي المشركون أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم

وصلاة الملائكة الاستغفار وروى الترمذي في سننه عن سفيان الثوري وغير واحد من
أهل العلم أنهم قالوا صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار وقال عطاء بن أبي
رباح صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي والمقصود من هذه الآية
أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته وأن
الملائكة تصلي عليه وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه وقد اختلف أهل العلم
في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل هي واجبة أو مستحبة بعد اتفاقهم على
أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره فقال قوم
من أهل العلم إنها واجبة عند ذكره وقال قوم تجب في كل مجلس مرة وقد وردت
أحاديث مصرحة بذم من سمع ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يصل عليه واختلف أهل
العلم في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تشهد الصلاة المفروضة هل هي
واجبة أم لا فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة قال ابن المنذر يستحب
أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن ترك ذلك
تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من
أصحاب الرأي وغيرهم وهو قول جمهور أهل العلم قال وشذ الشافعي فأوجب على تاركها
الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرملة بن
يحيى ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته قال الطحاوي لم يقل به أحد من أهل العلم غير
الشافعي وقال الخطابي وهو من الشافعية إنها ليست بواجبة في الصلاة قال وهو قول
جماعة الفقهاء إلا الشافعي ولا أعلم له في ذلك قدوة انتهى وقد قال بقول الشافعي جماعة
من أهل العلم منهم الشعبي والباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيرا كما
حكاه أبو زرعة الدمشقي وبه قال ابن راهويه وابن المواز من المالكية وقد جمع الشوكاني
رحمه الله في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكر فيها احتجاج الموجبين لها وما أجاب به
الجمهور وفي شرحه على المنتقى ورسالته هداية السائل إلى أدلة المسائل ما يشفي ويكفي
وأنهض ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ إن الله أمرنا أن نصلي عليك
فكيف نصلي عليك في صلاتنا قال قولوا الحديث فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على
الوجوب وأما على بطلان الصلاة بتركه ووجوب الإعادة لها ففيه نظر لأن الواجبات لا تسلم

من أهل الكتاب وانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فانزل الله تعالى الم غلبت الروم في أدنى الارض الى قوله ينصر من يشاء فخرج
أبو بكر الصديق الى الكفار فقال أفرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم
على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام اليه أبي بن خلف فقال كذبت يا أبا فصيل فقال له أبو بكر انت أكذب يا عدو الله
فقال أناحبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت الى ثلاث سنين
ثم جاء أبو بكر الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال ما هكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده

عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والاركان واعلم انه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل ولو لم يكن منها الا الاحاديث الثابتة في الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة والمكرمة النبيلة وأما صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة ومنها ما هو مطلق وهي معروفة في كتب الحديث فلا نطيل بذكرها والذي يحصل به الامتثال لمطلق الامر في هذه الآية هو ان يقول القائل اللهم صل وسلم على رسولك أو على محمد او على النبي أو اللهم صل على محمد وسلم ومن أراد أن يصلي ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها او الارشاد اليها فذلك أكمل وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة وسيأتي بعضها وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل وكان ظاهر هذا الامر بالصلاة والتسليم في الآية ان يقول القائل صليت عليه وسلمت عليه او الصلاة عليه والسلام عليه أو عليه الصلاة والتسليم لان الله سبحانه أمرنا بايقاع الصلاة عليه والتسليم منا فالامتثال هو ان يكون ذلك على ما ذكرنا فكيف كان الامتثال لامر الله لنا بذلك ان نقول اللهم صل عليه وسلم بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بان نصلي عليه ونسلم عليه وقد أجيب عن هذا بان هذه الصلاة والتسليم لما كانا شعارا عظيما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتشريفا كريما وكلنا ذلك الى الله عز وجل وأرجعناه اليه وهذا الجواب ضعيف جدا وأحسن ما يجاب به ان يقال ان الصلاة والتسليم المأمور بهما في الآية هما ان نقول اللهم صل عليه وسلم أو نحو ذلك مما يؤدي معناه كما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقتضى ذلك البيان في الاحاديث الكثيرة ان هذه هي الصلاة الشرعية واعلم ان هذه الصلاة من الله على رسوله وان كان معناها الرحمة فقد صارت شعارا له يختص به دون غيره فلا يجوز لنا ان نصلي على غيره من أمته كما يجوز لنا ان نقول اللهم ارحم فلانا أو رحم الله فلانا وبهذا قال الجمهور من العلماء مع اختلافهم هل هو محرم أو مكروه كراهة شديدة أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب لا تصلح الصلاة على احد الا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن يدعى للمسلمين

في الخطر وماده في الاجل فخرج أبو بكر فلقي أبيا فقال لعلك ندمت فقال لا تعال ازايدك في الخطر وأمادك في الاجل فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين قال قد فعلت فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون قال عكرمة لما ان ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب وهو أخو شهر براز فقال لاصحابه لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى فبلغت كسرى فكتب كسرى الى شهر براز اذا أتاك كتابي فابعث الي برأس فرخان فكتب اليه شهر براز أيها الملك انك لن تجد مثل فرخان له نكاية وصوت في العدو فلا تفعل فكتب اليه ان في رجال فارس خلفا منه فعجل الي برأسه فراجعه فغضب كسرى فلم يجبه وبعث بريدا الى أهل فارس اني قد نزعت عنكم شهر براز واستعملت عليكم فرخان ثم رفع الى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال اذا ولي فرخان الملك وانقاد له أخوه فاعطه هذه فلما قرأ شهر براز الكتاب قال سمعا وطاعة ونزل عن سريره وجلس
عليه فرخان ورفع اليه الصحيفة اللطيفة فلما قرأها قال ائتوني بشهر براز وقدمه ليضرب عنقه فقال شهر براز لا تعجل حتى أكتب
وصيتي قال نعم فدعا بالسفط فاعطاه الصحائف فقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت ان تقتلني بكتاب واحد فرد الملك الى
أخيه شهر براز وكتب شهر براز الى قيصر ملك الروم ان لي اليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصحف فالقني ولا تلقني الا في
خمسين روميا فاني لا ألقاك الا في خمسين فارسيا فاقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف
ان يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه بانه ليس معه الا خمسين رجلا ثم بسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما مع كل واحد منهما

سكن فدعا بترجمانا بينهما فقال شهر براز ان الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وان كسرى حسدنا وأراد ان أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي ان يقتلني فقد خلعناه جميعا فنحن نقاتل معك قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما الى صاحبه ان السر بين اثنين فاذا جاوز اثنين فشا قال أجل فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما فأهلك الله كسرى وجاء الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح والمسلمون معه فهذا اسياق غريب وبناء عجيب ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى الم غلبت الروم قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة وأما الروم فهم من سلالة العيص بن اسحق بن ابراهيم وهم أبناء عم بني اسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون الى القطب الشمالي وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب الى جهة الشمال فكان الروم على دينهم الى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطنطين وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته الى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفا فتابعها يقال تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط الا انه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وانما هي الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا الى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة وابتدعوا الرهبانية وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهي القسطنطينية يقال انه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة وبنى ببيت لحم ثلاث

والمسلمات بالاستغفار وقال في المواهب لم ينقل ان الأمم المتقدمة كان يجب عليهم ان يصلوا على أنبيائهم انتهى وقال في الأنموذج ومن خواصه صلى الله عليه وآله وسلم انه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله تعالى على غيره صلى الله عليه وآله وسلم فهي خصيصة اختصه الله بها دون سائر الأنبياء انتهى وقال قوم ان ذلك جائز لقوله تعالى وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ولقوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ولقوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته ولحديث عبد الله بن أبي أوفى الثابت في الصحيحين وغيرهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللهم صل عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى ويجاب عن هذا بان هذا الشعار الثابت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له ان يخص به من شاء وليس لنا ان نطلقه على غيره وأما قوله تعالى هو الذي يصلي الخ وقوله أولئك عليهم صلوات فهذا ليس فيه الا ان الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مرة واحدة عشر صلوات وليس في ذلك أمر لنا ولا شرعه الله في حقنا بل لم يشرع لنا الا الصلاة والسلام على رسوله وكما ان لفظ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعار له فكذا لفظ السلام عليه وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة والترحم على من بعدهم والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا الى ذلك بقوله سبحانه والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم عن ابن عباس ان بني اسرائيل قالوا لموسى هل يصلي ربك فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصلي ربك فقل نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي فأنزل الله على نبيه ان الله وملائكته يصلون على النبي الآية أي يبركون وعنه ان صلاة الله على النبي هي المغفرة ان الله لا يصلي ولكن يغفر وأما صلاة الناس على النبي فهي الاستغفار له (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أي ادعوا له بالرحمة وقولوا اللهم صل على محمد أو وصلى الله على محمد فانكم أولى بذلك وعن ابن عباس انه قرأ صلوا عليه كما صلى الله عليه (وسلموا تسليما) أي حيوه بتحية السلام وقولوا اللهم سلم على محمد أو انقادوا لأمره انقيادا والأول أولى ثم هي واجبة مرة عند الطحاوي وكلما ذكر اسمه عند الكرخي وهو الاحتياط وعليه الجمهور قال

أبو السعود وهذه الآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا أى من غير تعرض لوجوب التكرار وقال القسطلانى قيل هى مستحبة وقيل واجبة فى التشهد الاخير من كل صلاة وعليه الشافعى وهو رواية عن أحمد وقيل تجب فى الصلاة من غير تعيين لمحل منها وقيل تجب فى خارج الصلاة وقيل كلما ذكر وقيل فى كل مجلس مرة وان تكرر ذكره فيه وقيل تجب فى العمر مرة واحدة وقيل تجب فى الجملة من غير حصر وقيل يجب الاكثار منها من غير تقييد بعدد وتسليما مصدر مؤكد قال الامام ولم تؤكد الصلاة لانها مؤكدة بقوله ان الله وملائكته الخ وقيل انه من الاحتباك حذف عليه من أحدهما والمصدر من الآخر وقال بعض الفضلاء انه سئل فى منامه لم خص السلام بالمؤمنين دون الله والملائكة ولم يذكر له جوابا قلت وقد لاح لى فيه نكتة سرية أى شريفة وهى ان السلام تسليمه عما يؤذيه فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذى النبى والاذية انما هى من البشر فناسب التخصيص بهم والتأكيد واليه الاشارة بما ذكر بعده قاله الشهاب وأقول هذه الآية من باب الاكتفاء على حد قوله سرابيل تقيكم الحر والمعنى ان الله وملائكته يصلون على النبى ويسلمون وقد ثبت بالادلة الصحيحة القرآنية وغيرها تسليم الله تعالى على غيره صلى الله عليه وآله وسلم من الانبياء والصلحاء والنكتة التى ذكرها الشهاب لا تخلو عن تكلف وبعد تأمل وعن كعب بن عجرة قال لما نزلت ان الله وملائكته الآية قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه وأخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديثه بلفظ قال رجل يا رسول الله اما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك قال قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى من حديث طلحة بن عبيد الله قال قلت يا رسول الله كيف الصلاة عليك قال قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وفى الاحاديث اختلاف ففى بعضها على ابراهيم فقط وفى بعضها على آل ابراهيم فقط وفى بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى حميد الساعدى انهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد والاحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا وفى بعضها التقييد بالصلاة كما فى حديث ابن مسعود عند ابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه ان رجلا قال يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك اذا نحن صلينا

محاريب وبنت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية اتباع يعقوب الاسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطور وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة والغرض انهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وابهة كثيرة فناواه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذوالاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة انه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهور ان كسرى بنفسه غزاه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك

عليك في صلاتنا الحديث وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله وجميع التعليمات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه الا النادر اليسير من الاحاديث فينبغي للمصلي عليه ان يضم آله اليه في صلاته عليه وقد قال بذلك جماعة ونقله امام الحرمين والغزالي قولا عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره ولا حاجة الى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الاحاديث الصحيحة به ولا وجه لقول من قال ان هذه التعليمات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملا لمطلق الاحاديث على المقيد منها بذلك القيد لما في حديث كعب بن عجرة وغيره ان ذلك السؤال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عند نزول الآية وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال صلوا على انبياء الله ورسله فان الله بعثهم كما بعثني ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال

(ان الذين يؤذون الله ورسوله) قيل المراد بالأذى هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصي لاستحالة التأذي منه سبحانه وقيل ان الأذى في حق الله تعالى مجاز عن المعصية وفي حق الرسول حقيقة وقيل المراد أذى رسول الله فقط وذكر الله للتشريف...

هذا القدر الايذاء حقيقي في حق الرسول والمجازي في حقه تعالى لاستحالة حقيقة التأذي عليه سبحانه قال الواحدي قال المفسرون هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد فقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله وكذبوا رسول الله وشجوا وجهه وكسروا رباعيته وقالوا مجنون شاعر كذاب ساحر وبه قال ابن عباس قال القرطبي وبهذا قال جمهور العلماء وقال عكرمة الاذية لله سبحانه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله الا الله بنحت الصور وغيرها وقال جماعة ان الآية على حذف مضاف والتقدير ان الذين يؤذون أولياء الله وقيل معنى الاذية الالحاد في أسمائه وصفاته وأما اذية رسوله فهي كل ما يؤذيه من الاقوال والافعال ومنه ترك الاتباع وفعل التقليد لآراء الرجال وايثاره عليه (لعنهم الله) معنى اللعنة الطرد والابعاد من رحمته وجعل ذلك (في الدنيا والآخرة) لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم الا واللعنة واقعة عليهم مصاحبة لهم (وأعد لهم) مع ذلك اللعن (عذابا مهينا) يصيرون به في الاهانة في الدار الآخرة لما يفيده معنى الاعداد من كونه في الدار الآخرة عن ابن عباس في الآية قال نزلت في الذين طعنوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين اتخذ صفية بنت حيي وروي عنه انها نزلت في الذين قذفوا عائشة ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الاذية لصالحي عباده فقال (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) بوجه من وجوه الاذى من قول أو فعل ومعنى قوله (بغير ما اكتسبوا) انه لم يكن ذلك بسبب فعلوه يوجب عليهم الاذية ويستحقونها به وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم فأما الاذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبوه مما يوجب عليه حدا أو تعزيرا أو نحوهما فذلك حق أثبته الشرع وأمر أمر الله به وندبنا اليه وهكذا اذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب فان القصاص من الفاعل ليس من الاذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير

ما اكتسبوا

لجماعة الا ان نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الامر دبر قيصر مكيدة ورأى في نفسه خديعة فطلب من كسرى ان يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء فأجابه الى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه ان عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو واياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره وسأل من كسرى ان يمكنه من الخروج الى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال اني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي فان رجعت اليكم قبل الحول فأنا ملككم وان لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار ان شئتم استمررتم على بيعتي وان شئتم وليتم عليكم غيري فأجابوه بانك ملكنا ما دمت حيا ولو غبت عشرة أعوام فلما خرج من

ما اكتسبوا فقال (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) أي ظاهرا واضحا لا شك في كونه من البهتان والاثم وقد تقدم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الاثم قيل انها نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه وقيل نزلت في شأن عائشة وقيل نزلت في الزناة كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء وهن كارهات وعن الفضيل لا يحل لك ان تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق فكيف ايذاء المؤمنين والمؤمنات ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأمر بعض من ناله الاذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال (يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار قال الجوهري الجلباب الملحفة وقال الشهاب ازار واسع يلتحف به وقيل القناع وقيل هو كل ثوب يستر جميع بدن المرأة من كساء وغيره كما ثبت في الصحيح من حديث أم عطية انها قالت يا رسول الله احدانا لا يكون لها جلباب فقال لتلبسها أختها من جلبابها قال الواحدي قال المفسرون يغطين وجوههن ورؤسهن الا عينا واحدة فيعلم انهن حرائر فلا يعرض لهن بأذى وبه قال ابن عباس وقال الحسن تغطي نصف وجهها وقال قتادة تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الانف وان ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه وقال المبرد يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن ومن للتبعيض أي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز عن الأمة (ذلك) أي ادناء الجلابيب وهو مبتدأ وخبره (أدنى) أقرب (ان يعرفن) فيتميزن عن الاماء ويظهر للناس انهن حرائر (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن ولاهلهن وليس المراد به ولهذا الخ ان تعرف الواحدة منهن من هي بل المراد ان يعرفن انهن حرائر لا اماء لانهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر قال السبكي في الطبقات الكبرى ان من أئمة الشافعية أحمد بن عيسى شارح التنبيه استنبط من هذه الآية ان ما يفعله علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الاكمام والعمة ولبس الطيلسان حسن وان لم يفعله السلف لان فيه تمييزا لهم وبذلك يعرفون فيلتفت الى فتاواهم وأقوالهم انتهى ومنه يعلم ان تمييز الاشراف بعلامة أمر مشروع أيضا انتهى أقول ما أرده هذا الاستنباط وما أقل نفعه لا سيما بعد ما ورد في السنة المطهرة من النهي عن الاسراف في اللباس واطالته وقد منع عن ذلك سلف الامة وأئمتها فأين هذا من ذلك وانما هو بدعة أحدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ولذا قال علي القاري في معرض الذم لهم عمائم كالابراج وكمائم كالاخراج وأنكر عليهم ذلك أشد الانكار وما ذكره من ان زي العلماء والاشراف سنة رده ابن الحاج في المدخل بانه مخالف لزيهم في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خير القرون فان قيل انهم به يعرفون قيل انهم لو بقوا على الزي الاول عرفوا به أيضا لمخالفته لما عليه غيرهم الآن وأطال في انكار ما قالوه وقد بسطنا القول على ذلك في حجج الكرامة بالفارسية أيضا فراجعه (وكان الله غفورا) لما سلف من ترك ادناء الجلابيب (رحيما) بهن او غفورا

القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى الى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الاساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب الى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه الا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر الى القسطنطينية الا منها فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو انه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة وركب في بعض الجيش وأمر باحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم في الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الاحمال في النهر

لذنوب المذنبين رحمتها بهم فيدخلن في ذلك حولا أولياء وقد أخرج البخاري ومسلم
وغيرهما عن عائشة قالت خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة
لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف
تخرجين قالت فانكفأت راجعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي وإنه ليتعشى
وفي يده عرق فدخلت وقالت يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا
وكذا فأوحي إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال إنه قد أذن لكن أن تخرجن
لحاجتكن وعن أبي مالك قال كان نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخرجن لحاجتهن
بالليل وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما
نفعله بالإماء فنزلت هذه الآية يا أيها النبي قل لأزواجك الآية وعن محمد بن كعب القرظي
قال كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين يؤذيهن فإذا قيل له قال كنت أحسبها
أمة فأمرهن الله أن يخالفن زي الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا
إحدى عينيها ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين يقول ذلك أحرى أن يعرفن وعن ابن عباس
في هذه الآية قال أمر الله نساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين
وجوههن من فوق رؤسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة وعن أم سلمة قالت لما نزلت
هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الأنصار كأن على رؤسهن الغربان من
السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها هكذا في الرواية بلفظ من السكينة وليس لها معنى
فإن المراد تشبيه الأكسية السود بالغربان لأن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال كأن على
رؤسهم الطير وعن عائشة قالت رحم الله نساء الأنصار لما نزلت يا أيها النبي قل لأزواجك
الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها فصلين خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأن
على رؤسهن الغربان وعن ابن عباس في الآية قال كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر
الله نساء المؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن وإدناء الجلباب أن تقنع وتشده على
جبينها قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع
تتشبهين بالحرائر ألقي القناع قلت ولكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد والأمة
والخامل والقليل العقل مثل قولك يا خسيس وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على
هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة وكان
الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء وربما
تعرضوا للحرة بحسبان الأمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الملاحف
وستر الرؤس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع ثم توعد سبحانه أهل النفاق والإرجاف فقال
(لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق (والذين في قلوبهم مرض) أي شك وريبة
عما هم عليه من الاضطراب (والمرجفون في المدينة) عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر
الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم قال القرطبي
أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد والمعنى أن المنافقين قد جمعوا بين
النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين فهو على هذا من باب قوله

فلما مرت كسرى وجنده ظن أنهم
قد خاضوا من هنالك فركبوا في
طلبهم وعرفت المخاضة عن الفرس
وقدم قيصر فأمرهم بالهوص
والخوض فخاضوا وأسرعوا السير
ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا
القسطنطينية فكان ذلك يوما
مشهودا عند النصارى وبقي كسرى
وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا
يصنعون لم يحصلوا بلاد قيصر
وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا
حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم
فكان هذا من غلب الروم لفارس
وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب
فارس للروم وكانت الوقعة الكائنة
بين فارس والروم حين غلبت الروم
بين أذرعات وبصرى على ما ذكره
ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهي
طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز
وقال مجاهد كان ذلك في الجزيرة
وهي أقرب بلاد الروم من فارس
فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس
بعد بضع سنين وهي تسع فإن البضع
في كلام العرب ما بين الثلاث إلى
التسع وكذلك جاء في الحديث الذي
رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما
من حديث عبد الله بن عبد الرحمن
الجمحي عن الزهري عن عبيد الله بن

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

والواو مقحمة وقيل الموصوف متغاير ومتعدد فكان من المنافقين قوم يرجفون وقوم يتبعون النساء للريبة وقال عكرمة وشهر بن حوشب الذين فى قلوبهم مرض هم الزناة من قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض والمرض هو الزنا والارجاف فى اللغة اشاعة الكذب والباطل يقال أرجف بكذا اذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهى الزلزلة يقال رجفت الارض أى تحركت وتزلزلت ترجف رجفا والرجفان الاضطراب الشديد وسمى البحر رجافا لاضطرابه والارجاف واحد الاراجيف وأرجفوا فى الشئ خاضوا فيه وذلك بان هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بانهم هزموا وتارة بانهم قتلوا وتارة بانهم غلبوا ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الاخبار فتوعدهم الله سبحانه بقوله (لنغرينك بهم) أى لنحرشنك ولنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك قال المبرد قد أغراه الله بهم فى قوله الآتى ملعونين أينما ثقفوا الخ فهذا فيه معنى الامر بقتلهم وأخذهم أى هذا حكمهم اذا كانوا مقيمين على النفاق والارجاف قال النحاس وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأقول ليس هذا بحسن ولا أحسن فان قوله ملعونين الخ انما هو لمجرد الدعاء عليهم لا انه أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتالهم ولا تسليط له عليهم وقد قيل انهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الارجاف فلم يغره الله بهم وجملة لنغرينك بهم جواب القسم (ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) وانما عطف بثم لان الجلاء عن الاوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه يعنى انها للتفاوت الرتبى ولدلالة على ان ما بعدها أبعد مما قبلها وأعظم وأشد عندهم والمعنى لا يساكنونك فى المدينة الا جوارا قليلا حتى يخرجوا أو يهلكوا (ملعونين أينما ثقفوا) أى مطرودين أينما وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا والتشديد يدل على التكثير وقيل ان هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم والاول أولى وقيل معنى الآية انهم ان أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة الا وهم مطرودون ملعونون وقد فعل بهم صلى الله عليه وآله وسلم هذا فانه لما نزلت سورة براءة جمعوا فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم يا فلان قم فاخرج فانك منافق ويا فلان قم فقام اخوانهم من المسلمين وتولوا اخراجهم من المسجد (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الامم الماضية وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم وكذا حكم المرجفين وهو منتصب على المصدر قال الزجاج سن الله فى الذين ينافقون الانبياء ويرجفون بهم ان يقتلوا حيثما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى تحويلا وتغييرا بل هى ثابتة دائمة فى أمثال هؤلاء فى الخلف والسلف يجريها الله مجرى واحدا فى الامم لاثباتها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع وقال الخطيب أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاقوال أما الافعال اذا وقعت والاخبار فلا تنسخ (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت حصولها ووجودها وقيامها قيل السائلون عنها هم

عبد الله عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر فى مناحبة الم غلبت الروم الآية الا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث الى تسع ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو انه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله أى للروم اصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث الاعمش عن عطية عن أبى سعيد قال لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فاعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به وأنزل الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وقال آخرون بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية

أولئك المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً أو امتحاناً لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وسائر الكتب (قل إنما علمها عند الله) يعني أنه سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً (وما يدريك) أي ما يعلمك ويخبرك يا محمد (لعل الساعة تكون قريباً) أي في زمان قريب وانتصاب قريباً على الظرفية ولتذكير تكون الساعة في معنى اليوم أو الوقت مع كون التأنيث ليس بحقيقي والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبيان أنها إذا كانت مخفية عنه لا يعلم وقتها وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف بغيره من الناس وفي هذا تهديد عظيم للمستعجلين وإسكات للممتحنين والمشركين ولمن يثبت علم المغيبات للأنبياء والصلحاء وغيرهم من الخلق (إن الله لعن الكافرين) أي طردهم وأبعدهم من رحمته (وأعد لهم) في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم في الدنيا (سعيراً) أي ناراً شديدة التسعر (خالدين فيها) أي في السعير لأنها مؤنثة أو لأنها في معنى جهنم (أبداً) بلا انقطاع وهذا تأكيد لما استفيد من خالدين (لا يجدون ولياً) يواليهم ويحفظهم من عذابها (ولا نصيراً) ينصرهم ويخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم في النار) أي اذكر وقرئ تقلب بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول وقرئ بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وبضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم وقرئ بفتح التاء واللام على معنى تتقلب ومعنى هذا التقلب المذكور في الآية هو تقلبها تارة على جهة منها وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن أو تغير ألوانهم بلفح النار فتسود تارة وتخضر أخرى أو تبديل جلودهم بجلود أخرى وخصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة وحينئذ (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم أو حال من ضمير وجوههم أو من نفس الوجوه تمنوا أنهم أطاعوا الله والرسول وآمنوا بما جاء به لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون وهذه الألف في الرسولا والتي تأتي في السبيلا هي الألف التي تقع في الفواصل وتسمى ألف الإطلاق لإطلاق الصوت كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) وقرئ ساداتنا بكسر التاء جمع سادة فهو جمع الجمع وسادة جمع على غير قياس سواء جعل جمع السيد أو سائد والجملة معطوفة على الجملة الأولى والعدول إلى الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم الأول بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم وقال مقاتل هم المطعمون في غزوة بدر والأول أولى ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة والتعبير عنهم بعنوان السادة والكبراء لتقوية الاعتذار والإيهام في مقام التحقير والإهانة وفي هذا زجر عن التقليد شديد وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه ولكن لمن يفهم معنى

قال عكرمة والزهري وقتادة وغير واحد ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس شكراً لله تعالى ففعل فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه مع دحية ابن خليفة فأعطاه دحية لعظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش بغزة حتى [illegible] فجلسوا بين يديه فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فقال أبو سفيان أنا فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذبوه فقال أبو سفيان فوالله لولا أن يأثروا علي الكذب لكذبت فسأله هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سأله أن قال فهل يغدر قال قلت لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام

كلام الله ويقتدى به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الانعام فى سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب (فأضلونا السبيلا) أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسوله والسبيل هو التوحيد ثم دعوا عليهم فى ذلك الموقف فقالوا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى مثلى عذابنا مرتين للضلال والاضلال وقال قتادة عذاب الدنيا والآخرة وقيل عذاب الكفر وعذاب الاضلال (والعنهم لعنا كبيرا) أى كبيرا فى نفسه شديدا عليهم وقرئ بالمثلثة أى كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) بقولهم ان به أدرة أو برصا أو عيبا وسيأتى بيان ذلك وفيه تأديب للمؤمنين وزجر لهم من أن يدخلوا فى شئ من الامور التى تؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مقاتل وعظ الله المؤمنين أن لا يؤذوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كما آذى بنو اسرائيل موسى وقد وقع الخلاف فيما أوذى به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت هذه الآية فحكى النقاش ان أذيتهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم قولهم زيد بن محمد وقال أبو وائل انه صلى الله عليه وآله وسلم قسم قسما فقال رجل من الانصار ان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله وعن ابن مسعود مثله فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فاحمر وجهه ثم قال رحم الله موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما وقيل نزلت فى زيد بن ثابت وزينب بنت جحش وما سمع فيهما من قالة الناس (فبرأه) أى طهره (الله مما قالوا) وأظهر براءته لهم وما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه وهو الامر المعيب وأذى موسى هو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها وقد أخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله عز وجل أراد ان يبرئ موسى مما قالوا فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها وان الحجر عدى بثوبه فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا فوالله ان بالحجر لندبا من ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا وأخرج نحوه البزار وابن الانبارى وابن مردويه من حديث أنس وقال ابن عباس قال له قومه انه آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه فخرج موسى يتبعها عريانا حتى انتهت به الى مجالس بنى اسرائيل فرأوه وليس بآدر فذلك قوله فبرأه الله مما قالوا الآية وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود وناس من الصحابة ان الله أوحى الى موسى انى متوف هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلقا نحو الجبل فاذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب فلما نظر هرون الى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال يا موسى انى أحب ان أنام على هذا السرير قال نم عليه قال نم معى فلما ناما أخذ هرون الموت فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت

الحديبية لان قيصر انما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم ولاصحاب القول الاول ان يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى اصلاحه وتفقد بلاده ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره والله أعلم والامر فى هذا سهل قريب الا انه لما انتصر فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لان الروم أهل كتاب فى الجملة فهم أقرب الى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى الى قوله ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وقال تعالى ههنا ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنى أسيد الكلابى قال سمعت العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه قال رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك فى خمسة عشر سنة وقوله

الشجرة ورفع السرير الى السماء فلما رجع موسى الى بنى اسرائيل قالوا اقتل هرون وحسده
حب بنى اسرائيل وكان هرون ألين لهم وألين لهم وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم
فلما بلغه ذلك قال ويحكم انه كان أخى أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم
دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا اليه بين السماء والارض فصدقوه (وكان عند الله
وجيها) أى عظيما ذا وجاهة والوجيه العظيم القدر الرفيع المنزلة يقال وجه الرجل
يوجه وجاهة فهو وجيه وقيل مستجاب الدعوة وقيل الوجاهة انه كلمه تكليما وقرأ عبد الله
بالموحدة من العبودية وهى حسنة قاله الكرخى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فى كل أمر
من الامور (وقولوا قولا سديدا) أى صوابا وحقا قال قتادة ومقاتل يعنى فى شأن زيد
وزينب ولا تنسبوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى ما لا يحل وقال عكرمة ان القول
السديد لا اله الا الله وقيل هو الذى يوافق ظاهره باطنه وقيل هو ما أريد به وجه الله دون
غيره وقيل هو الاصلاح بين الناس والسديد مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض
والظاهر من الآية انه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا فى جميع ما يأتونه ويذرونه فلا يخص
ذلك نوعا دون نوع وان لم يكن فى اللفظ ما يقتضى العموم فالمقام يفيد هذا المعنى لانه
أرشد سبحانه عباده الى أن يقولوا قولا يخالف قول أهل الاذى وأخرج أحمد وابن أبى حاتم
والطبرانى وابن مردويه عن أبى موسى الاشعرى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم صلاة الظهر ثم قال على مكانكم اثبتوا ثم أتى الرجال فقال ان الله أمرنى ان
آمركم ان تتقوا الله وان تقولوا قولا سديدا ثم أتى النساء فقال ان الله أمرنى ان آمركن
ان تتقين الله وان تقلن قولا سديدا ثم ذكر الله سبحانه ما لهؤلاء الذين امتثلوا الامر
بالتقوى والقول السديد من الاجر فقال (يصلح لكم أعمالكم) أى يجعلها صالحة
لا فاسدة بما يهديكم اليه ويوفقكم فيه أو يتقبلها (ويغفر لكم ذنوبكم) أى يجعلها
مكفرة مغفورة (ومن يطع الله ورسوله) فى فعل ما هو طاعة واجتناب ما هو معصية
(فقد فاز فوزا عظيما) أى ظفر بالخير ظفرا عظيما ونال خير الدنيا والآخرة وهذه الجملة
مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما هو لاهل الطاعة من الخير
بعد بيان ما لاهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها
فقال (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن
منها) أى خفن من الامانة ان يؤدينها فيلحقهن العقاب أو خفن من الخيانة فيها
واختلف فى تفسير الامانة المذكورة هنا فقال الواحدى معنى الامانة ههنا فى قول جميع
المفسرين الطاعة والفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب قال القرطبى
الامانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الاقوال وهو قول الجمهور وقد اختلف فى
تفاصيل بعضها فقال ابن مسعود هى فى أمانة الاموال كالودائع وغيرها وروى عنه انها
فى كل الفرائض وأشدها أمانة المال وقال أبى بن كعب من الامانة ان ائتمنت المرأة على
فرجها وقال أبو الدرداء غسل الجنابة أمانة وان الله لم يأمن ابن آدم على شئ من دينه غيرها
وقال ابن عمر أول ما خلق الله من الانسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فلا تلبسها

تعالى وهو العزيز أى فى انتصاره
وانتقامه من أعدائه الرحيم بعباده
المؤمنين وقوله تعالى وعد الله
لا يخلف الله وعده أى هذا الذى
أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر
الروم على فارس وعد من الله حق
وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه
ووقوعه لان الله قد جرت سنته ان
ينصر أقرب الطائفتين المقتتلين
الى الحق ويجعل لها العاقبة ولكن
أكثر الناس لا يعلمون أى بحكم الله
فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية
على وفق العدل وقوله تعالى يعلمون
ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون أى أكثر الناس
ليس لهم علم الا بالدنيا وأكسابها
وشؤنها وما فيها فهم حذاق أذكياء
فى تحصيلها ووجوه مكاسبها وهم
غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم
فى الدار الآخرة كان أحدهم مغفل
لا ذهن له ولا فكرة قال الحسن
البصرى والله ليبلغ أحدهم بدنياه
ان يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك
بوزنه وما يحسن يصلى وقال ابن
عباس فى قوله تعالى يعلمون ظاهرا
من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة
هم غافلون يعنى الكفار يعرفون
عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال

الابحق فان حفظتها حفظتك فالفرج أمانة والاذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وقال السدى هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته اياه فى قتله وما أبعد هذا القول وليت شعرى ماهو الذى سوّغ للسدى تفسير هذه الآية بهذا فان كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له فى ذلك متمسك أبعد من كل بعيد وأوهن من بيت العنكبوت وان كان تفسيره هذا عملا بما تقتضيه اللغة العربية فليس فى لغة العرب ما يقتضى هذا ويوجب حمل هذه الامانة المطلقة على شئ كان فى أول هذا العالم وان كان هذا تفسيرا منه بمحض الرأى فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير واشدد يديك فى تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية فهو قرآن عربى كما وصفه الله فان جاءك التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا تلتفت الى غيره واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وكذلك ما جاء عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فانهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جمع الى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية ولكن اذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به فى لغة العرب فعليك ان تضم الى ما ذكره الصحابى ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها فخذ هذه كلية تنتفع بها وقد ذكرنا فى خطبة هذا التفسير ما يرشدك الى هذا قال الحسن ان الامانة عرضت على السموات والارض والجبال فقالت وما فيها فقال لها ان أحسنت آجرتك وان أسأت عذبتك فقالت لا قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه وقيل له ذلك فقال قد تحملتها وروى نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد قال النحاس وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير وقيل هذه الامانة هى ما أودعه الله فى السموات والارض والجبال وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته ان يظهروها فأظهروها الا الانسان فانه كتمها وجحدها كذا قال بعض المتكلمين مفسر القرآن برأيه الزائف فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا قال جماعة من العلماء ومن المعلوم ان الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة فيها وهذا العرض فى الآية هو عرض تخيير لا عرض الزام ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لامره ساجدة له وقيل المراد بالعرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها وقال القفال وغيره العرض فى هذه الآية ضرب مثل أى ان السموات والارض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أى أن التكليف أمر عظيم حقه ان تعجز عنه السموات والارض والجبال وقد كلفه الانسان وهو ظلوم جهول لو عقل وهذا كقوله لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وقيل ان عرضنا بمعنى عارضنا أى عارضنا الامانة بالسموات والارض والجبال فضعفت هذه الاشياء عن الامانة ورجحت الامانة بثقلها عليها وقيل ان عرض الامانة على السموات والارض والجبال انما كان من آدم عليه السلام وان الله أمره ان يعرض ذلك عليها وهذا أيضا تحريف لا تفسير وقد قيل

(أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) يقول تعالى منبها على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وانه لا اله غيره ولا رب سواه فقال أولم يتفكروا فى أنفسهم يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الاشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والاجناس المختلفة فيعلموا انها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وانها مؤجلة الى أجل مسمى وهو يوم القيامة ولهذا قال تعالى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من اهلاك من كفر بهم ونجاة من

ان المراد بالامانة العقل والراجح ما قدمناه عن الجمهور وما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم
وروده على المعنى العربى ولا انطباقه على ما تقتضيه الشرع ولا موافقته لما يقتضيه
التعريف بالامانة عن ابن عباس فى الآية قال الامانة الفرائض عرضها الله على السموات
والارض والجبال ان ادوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير
معصية ولكن تعظيما لدين الله ان لا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو فى
الآية قال عرضت على آدم فقيل خذها بما فيها فان أطعت غفرت لك وان عصيت عذبتك
قال قبلتها بما فيها فما كان الا قدر ما بين العصر الى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب
وقيل هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن ان لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى
شئ لا فى قليل ولا فى كثير فعرض الله هذه الامانة على أعيان السموات والارض والجبال
وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف وانما أتى فى قوله فابين الخ بضمير كضمير
الاناث لان جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وان كان مذكرا وانما ذكر ذلك لئلا
يتوهم انه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال (وحملها الانسان) أى
التزم بحقها وهو آدم بعد عرضها عليه قيل ان ما كلف الانسان حمله بلغ من عظمه وثقل
محمله انه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الاجرام وأقواه وأشده ان يحمله ويشتغل
به فابى حمله وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه وضعف قوته قال الزجاج معنى حملها
خان فيها وجعل الآية فى الكفار والفساق والعصاة وقيل معنى حملها كلفها وألزمها
أو صار مستعدا لها بالفطرة أو حملها عند عرضها عليه فى عالم الذر عند خروج ذرية آدم من
ظهره وأخذ الميثاق عليهم (انه كان ظلوما جهولا) أى وهو فى ذلك الحمل ظلوم لنفسه جهول
لما يلزمه أو جهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير أو جهول بأمر ربه كما قال الحسن
وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا لا يدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقيل ظلوما جهولا
حيث حمل الامانة ولم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان
العرب وما جاء القرآن الا على أساليبهم وفى تفسير الآية أقوال أخر والاول أولى وهو
قول السلف (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) متعلق بحملها أى
حملها الانسان ليعذب الله العاصى ويثيب المطيع وعلى هذا فقوله انه كان ظلوما جهولا
معترضة بين الجملة وغايتها للايذان بعدم وفائه بما تحمله قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن
حيان ليعذبهم بما خانوا من الامانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذى أقروا به
حين أخرجوا من ظهور آدم وقال الحسن وقتادة هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها
وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدوها والالتفات الى الاسم الجليل أولا لتهويل
الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موضع الاضمار ثانيا فى قوله (ويتوب الله على المؤمنين
والمؤمنات) لابراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه
والله أعلم أى يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الامانة قال ابن قتيبة أى عرضنا ذلك ليظهر
نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر ايمان المؤمن فيعود عليه بالمغفرة
والرحمة ان حصل منه تقصير فى بعض الطاعات ولذلك ذكر لفظ التوبة فدل على ان

صدقهم فقال تعالى أولم يسيروا فى
الارض أى بأبدانهم وعقولهم
ونظرهم وسماع أخبار الماضين
ولهذا قال فينظروا كيف كان
عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد
منهم قوة أى كانت الامم الماضية
والقرون السالفة أشد منكم قوة
أيها المبعوث اليهم محمد صلى الله
عليه وسلم وأكثر أموالا وأولادا
وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا فى
الدنيا تمكينا لم تبلغوا اليه وعمروا
فيها أعمارا طوالا فعمروها أكثر
منكم واستغلوها أكثر من
استغلالكم ومع هذا فلما جاءتهم
رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا
أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم
من الله من واق ولا حالت أموالهم
وأولادهم بينهم وبين بأس الله ولا
دفعوا عنهم مثقال ذرة وما كان الله
ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب
والنكال ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون أى وانما أوتوا من أنفسهم
حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤا بها
وما ذلك الا بسبب ذنوبهم السالفة
وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال
تعالى ثم كان عاقبة الذين أساؤا
السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا
بها يستهزؤن كما قال تعالى ونقلب

المؤمن

المؤمن العاصي خارج من العذاب (وكان الله غفورا) أي كثير المغفرة للمؤمنين التائبين من عباده اذا قصروا في شيء مما يجب عليهم من الامانة وغيرها حيث عفا عن فرطاتهم (رحيما) بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم مكرما لهم بأنواع الكرم وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الامانة وذكر رفعها عن القلوب عند قرب الساعة فلا نطول بذكرها

(سورة سبا هي أربع أو خمس وخمسون آية وهي مكية)

قال القرطبي في قول الجميع الا آية واحدة اختلف فيها وهي قوله ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك فقالت فرقة هي مكية وقالت فرقة هي مدنية وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية ان شاء الله تعالى وفيمن نزلت وعن ابن عباس قال نزلت سورة سبا بمكة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله) التعريف ان أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود وان أجرى على الاستغراق فالتعريف مشعر باستحقاق جميع افراد الحمد لله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب وقيل معناه ان كل نعمة من الله فهو الحقيق بان يحمد ويثنى عليه واللام لام التمليك لانه خالق ناطق الحمد أصلا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلا وقيل هي لام التخصيص والمعنى متقارب أي وله بكل المحامد الاختصاص (الذي له ما في السموات وما في الارض) معناه ان جميع ما هو فيهما في ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء ويحكم فيه بما يريد فكل نعمة واصلة الى العبد فهي مما خلقه له ومن به عليه فحمده على ما في السموات والارض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم ولما بين ان الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به بين ان الحمد الاخروي مختص به كذلك أيضا فقال (وله الحمد في الآخرة) كما له في الدنيا لان النعم في الدارين كلها منه وقيل المعنى ان له على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه في الدار الآخرة اذا دخلوا الجنة كما في قوله وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقوله الحمد لله الذي هدانا لهذا وقوله الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقوله الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله وقوله وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما انه المحمود في الدنيا وهو المالك للآخرة كما انه المالك للدنيا غير ان الحمد هنا واجب لان الدنيا دار تكليف وثم لا لعدم التكاليف وانما يحمد أهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذا بما نالوه من الاجر العظيم كما ورد يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذي أحكم أمر الدارين (الخبير) بأمر خلقه فيهما وبضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والارض التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية فقال (يعلم ما يلج في الارض) أي ما يدخل ويوضع فيها من مطر أو كنز أو دفين أو أموات (وما يخرج منها) من زرع ونبات وحيوان وشجر وعيون ومعادن وأموات اذا بعثوا (وما ينزل من السماء)

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وقال تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال تعالى فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وعلى هذا يكون السوأى منصوبة مفعولا لاساؤا وقيل بل المعنى في ذلك ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أي كانت السوأى عاقبتهم لانهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن فعلى هذا يكون السوأى منصوبة خبر كان هذا توجيه ابن جرير ونقله عن ابن عباس وقتادة ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم وهو الظاهر والله أعلم لقوله وكانوا بها يستهزؤن (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) يقول تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على اعادته ثم اليه ترجعون أي يوم القيامة

من الامطار والرياح والثلوج والبرد والصواعق وأنواع البركات ومن ذلك ما ينزل منها من الملائكة وكتبه الى انبيائه وقرئ ينزل مسندا الى ماو ننزل مشددا مسندا الى الله سبحانه (وما يعرج فيها) أي في السماء من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ومعنى العروج معنى الاستقرار فعدى بفي دون الى والسماء جهة العلو مطلقا (وهو الرحيم) بعباده (الغفور) لذنوبهم وتفريطهم في أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الاطلاق أو كفار مكة على الخصوص والاول اولى والمعنى لا تأتينا بحال من الاحوال انكارا منهم لوجودها بالكلية بمجرد تمامها في حال تكونهم أوفي حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد وانما عبروا عنها بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها فرد الله عليهم كلامهم وأثبت ما نفوه وأمر رسوله ان يقول لهم (قل بلى) على معنى ليس الامر الا اتيانها (وربي لتأتينكم) وهذا القسم لتأكيد الاتيان على أتم الوجوه وأكملها وقرئ لتأتينكم بالفوقية أي الساعة وبالتحتية على أن المراد الساعة اليوم أو الوعد كما في قال اما تأتيكم البعث أو أمره كما قال هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي امر ربك (عالم الغيب) تقوية للتأكيد لان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به تؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة اثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الامر (لا يعزب) أي لا يغيب (عنه) ولا يستتر عليه ولا يبعد عنه من عزب يعزب بكسر الزاي اذا غاب وبعد وخفي وقرئ بضم الزاي قال الفراء والكسر أحب الي وهما لغتان (مثقال ذرة) أي مقدار أصغر نملة ووزن ذرة (في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك) أي من مثقال ذرة وفيه اشارة الى ان مثقال الذرة ذكر للتحديد بل الصغر فيه لا يريب أيضا ولو اقتصر على الاصغر لوهم انه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان وأما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال (ولا أكبر) منه (الا في كتاب مبين) أي الا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه ومكتوب فيه فهو مؤكد لنفي العزوب (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات) اللام للتعليل لقوله لتأتينكم أي اتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب (أولئك) اي الذين آمنوا وعملوا الصالحات (لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) أي حسن وهو الجنة بسبب ايمانهم وعملهم الصالح مع الفضل عليهم من الله سبحانه ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند اتيان الساعة فقال (والذين سعوا في) ابطال (آياتنا) المنزلة على الرسل وقدحوا فيها وصدوا الناس عنها وجاهدوا في ردها بالطعن فيها ونسبتها الى السحر والشعر وغير ذلك لان المكذب بآيات الله احقاء آيات بين ان يحتاج الى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لاهل بعد المسالك به (معاجزين) مقدرين عجزنا او مسابقين لنا يحسبون انهم يفوتونا ولا يدركون وذلك باعتقادهم انهم لا يبعثون يقال أعجزه وعاجزه اذا غالبه وسبقه وقرئ معاجزين ومعجزين أي مثبطين للناس عن الايمان بالآيات (أولئك) الذين سعوا (لهم عذاب من رجز) الرجز هو العذاب فمن للبيان وقيل الرجز هو أسوأ العذاب واشده والاول اولى ومن ذلك قوله فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء (اليم) أي الشديد

الالم

فجازى كل عامل بعمله ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون قال ابن عباس ييأس المجرمون وقال مجاهد يفتضح المجرمون وفي رواية يكتئب المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا اليهم ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون قال قتادة هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها يعني انه اذا رفع هذا الى عليين وخفض هذا الى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون قال مجاهد وقتادة ينعمون وقال يحيى بن أبي كثير يعني سماع الغناء والحبرة أعم من هذا كله قال العجاج

فالحمد لله الذي أعطى الحبر
موالي الحق ان المولى شكر

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون)

الاثم ولما ذكر الذين سعوا في ابطال آيات الله ذكر الذين يؤمنون بها فقال (ويرى) أى يعلم (الذين أوتوا العلم) وهم الصحابة قاله قتادة وقال مقاتل هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل جميع المسلمين والاولى انه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات أى ان ذلك السعي منهم يدل على جهلهم لانهم مخالفون لما يعلمه اهل العلم في شأن الكتاب (الذى انزل اليك من ربك هو الحق) أى الصدق يعنى انه من عند الله (ويهدى الى صراط) معطوف على الحق عطف فعل على اسم لانه في تأويله كما في قوله صافات ويقبضن أى وقابضات كأنه قيل وهاديا وقيل انه مستأنف وفاعله ضمير يرجع الى فاعل أنزل وهو القرآن والصراط الطريق أى ويهدى الى طريق (العزيز) في ملكه (الحميد) عند خلقه والمراد انه يهدى الى دين الله الاسلام وهو التوحيد ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال (وقال الذين كفروا) بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) أى هل نرشدكم الى رجل يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم والتعبير برجل المنكر من باب التجاهل كأنهم لم يعرفوا منه الا انه رجل وهو عندهم أشهر من الشمس قاله الشهاب وقال القرطبي كانوا يقصدون بذلك السخرية والهزاة (ينبئكم) يخبركم بأمر عجيب ونبإ غريب هو انكم (اذا مزقتم كل ممزق) أى فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتا وترابا وقال الكرخي أى كل مكان تمزيق من القبور وبطون الوحش والطير (انكم لفى خلق جديد) أى تخلقون وتنشؤن خلقا جديدا وتبعثون من قبوركم أحياء وتعودون الى الصور التى كنتم عليها بعد ان تمزقت أجسادكم كل تمزيق قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث وأخرجوا الكلام مخرج التلهى به والضاحك مما يقوله من ذلك قال الزجاج التقدير اذا مزقتم كل ممزق بعثتم أو ينبئكم بانكم تبعثون اذا مزقتم وأصل المزق خرق الاشياء يقال ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق وعن قتادة في الآية قال قال ذلك مشركو قريش اذا أكلتكم الارض وصرتم رفاتا وعظاما وتقطعتكم السباع والطير انكم ستحيون وتبعثون قالوا ذلك تكذيبا له وجديد عند البصريين بمعنى فاعل يقال جد الشئ فهو جاد وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جددته أى قطعته ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار انهم رددوا ما وعدهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من البعث بين أمرين فقالوا (أفترى على الله كذبا أم به جنة) أى أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله قال قتادة اما ان يكون يكذب على الله واما ان يكون مجنونا والهمزة في أفترى همزة الاستفهام وحذفت لاجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله أطلع الغيب ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله فقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ليس الامر كما زعموا بل هم الذين ضلوا عن الفهم وادراك الحقائق فكفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بما جاءهم به فصاروا بسبب ذلك (فى العذاب) الدائم في الآخرة وهم اليوم (والضلال البعيد) عن الحق غاية البعد ثم وبخهم سبحانه بما اجترؤا عليه من التكذيب مبينا لهم ان ذلك لم يصدر منهم الا لعدم التفكر والتدبر

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وارشاد لعباده الى تسبيحه وتحميده في هذه الاوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو اقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو اسفار النهار بضيائه ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى وله الحمد في السموات والارض أى هو المحمود على ما خلق في السموات والارض ثم قال تعالى وعشيا وحين تظهرون فالعشاء هو شدة الظلام والاظهار قوة الضياء فسبحان خالق هذا وهذا فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا كما قال تعالى والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها وقال تعالى والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وقال تعالى والضحى والليل اذا سجى والآيات في هذا كثيرة وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذى وفى لانه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات

فى خلق السماء والارض وان من قدر على هذا الخلق العظيم لايعجزه ان يبعث من مخلوقاته ماهو دون ذلك ويعيده الى ما كان عليه من الذات والصفات فقال (أفلم يروا

الى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والارض) والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام والمعنى أعموا فلم يروا ومن المعلوم ان مابين يدى الانسان هو كل مايقع نظره عليه من غير ان يحول وجهه اليه وخلفه هو كل مالايقع نظره عليه حتى يحول نظره اليه فعم الجهات كلها أى انهم اذا نظروا ورأوا السماء قدامهم وخلفهم وكذلك اذا نظروا الى الارض رأوها خلفهم وقدامهم فالسماء والارض محيطتان بهم فهو القادر على ان ينزل بهم ماشاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله وانكارهم للبعث فهذه الآية اشتملت على أمرين أحدهما ان هذا الخلق الذى خلقه الله من السماء والارض يدل على كمال القدرة على ماهو دونه من البعث كما فى قوله أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم والامر الآخر التهديد لهم بان من خلق السموات والارض على هذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم كما قال (ان نشأ نخسف بهم الارض) كما خسفنا بمن كان قبلهم كقارون (أو نسقط عليهم كسفا) أى قطعا (من السماء) كما أسقطها على أصحاب الايكة فكيف يأمنون ذلك وقال قتادة ان يشأ أن يعذب بسمائه فعل وان يشأ أن يعذب بارضه فعل وكل خلقه له جند قرئ بالنون وبالتحتية فى الافعال الثلاثة (ان فى ذلك) المذكور المرئى من خلق السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظرين من جميع الجوانب (لآية) واضحة ودلالة بينة (لكل عبد منيب) أى راجع الى ربه بالتوبة والاخلاص وخص المنيب لانه المنتفع بالتفكر وقال قتادة منيب أى تائب مقبل الى الله وقال هنا الآية بالتوحيد وفيما بعد ذلك لآيات بجمعها لان ماهنا اشارة الى احياء الموتى فناسب التوحيد ومابعد اشارة الى سبأ قبيلة تفرقت فى البلاد فصاروا فرقا فناسب الجمع ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين اليه داود وسليمان كما قال فى داود فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وقال فى سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب فقال (ولقد آتينا داود منا فضلا) أى آتيناه بسبب انابته فضلا منا على سائر الانبياء واختلف فى هذا الفضل على أقوال فقيل النبوة وقيل الزبور وقيل العلم وقيل القوة كما فى قوله واذكر عبدنا داود ذا الايد وقيل تسخير الجبال كما فى قوله ياجبال أوبى معه وقيل التوبة وقيل الحكم بالعدل كما فى قوله ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق وقيل هو الانة الحديد كما فى قوله وألنا له الحديد وقيل حسن الصوت والاولى أن يقال ان هذا الفضل المذكور هو ماذكره الله بعده من قوله (ياجبال) الى آخر الآية أى قلنا له ياجبال (أوبى معه) التأويب التسبيح كما فى قوله انا سخرنا الجبال معه يسبحن قال أبو ميسرة هو التسبيح بلسان الحبشة وقال ابن عباس أوبى سبحى وروى مثله عن مجاهد وعكرمة وابن زيد وكان اذا سبح داود سبحت الجبال معه ومعنى تسبيحها ان الله يجعلها قادرة على ذلك أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود وقيل معنى أوبى سيرى معه من التأويب الذى هو سير النهار أجمع قراءة العامة أوبى على صيغة

والارض وعشيا وحين تظهرون وقال الطبرانى حدثنا مطلب بن شعيب الازدى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث بن سعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن ابن البيلمانى عن أبيه عن عبد الله ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون الآية بكمالها أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته اسناد جيد ورواه أبو داود فى سننه وقوله تعالى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى هو مانحن فيه من قدرته على خلق الاشياء المتقابلة وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط فانه يذكر فيها خلقه الاشياء واضدادها ليدل خلقه على كمال قدرته فمن ذلك اخراج النبات من الحب والحب من النبات والبيض من الدجاج والدجاج من البيض والانسان من النطفة والنطفة من الانسان والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى ويحيي الارض بعد موتها كقوله

الامر من التأويب وهو الترجيع والتسبيح أو السير أو النوح وقرئ أوبي بضم الهمزة أمر من آب يؤب اذا رجع أي ارجعي معه (والطير) بالنصب عطفا على فضلا على معنى وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياها تسخيرها له أو ناديناالجبال والطير وقال سيبويه وأبو عمرو ابن العلاء انتصابه بفعل مضمر على معنى وسخرنا له الطير وقال الزجاج والنحاس يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول استوى الماء والخشبة وقال الكسائي أي آتيناه فضلا وتسبيح الطير وفي هذا النظم من الفخامة مالا يخفى (وألنا له الحديد) أي جعلناه لينا له ليعمل به ما شاء قال ابن عباس كالعجين وقال الحسن كالشمع يعمله من غير نار وقال السدي كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وكذا قال مقاتل وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم (أن اعمل سابغات) أي بان اعمل أو لان اعمل أو ان مفسرة لقوله ألنا فاله الحوفي وفيه نظر لانها لا تكون الا بعد القول أو ما هو في معناه وقيل التقدير أمرناه ان اعمل ولا ضرورة تدعو الى ذلك والمعنى دروعا سابغات والسوابغ الكوامل الواسعات يقال سبغ الدرع والثوب وغيرهما اذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه فضلة وقرئ صابغات بالصاد لاجل الغين (وقدر في السرد) السرد نسج الدروع ويقال السرد والزرد كما يقال السراد والزراد لصانع الدروع والسرد أيضا الخرز يقال سرد يسرد اذا خرز ومنه سرد الكلام اذا جاء به متواليا ومنه حديث عائشة لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسرد الحديث كسردكم قال سيبويه ومنه سريد أي جرى ومعنى سرد الدروع احكامها وان يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف قال قتادة كانت الدروع قبل داود ثقالا فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فتثقل ولا الخفة فتزيل المنعة وقال ابن زيد التقدير الذي أمر به في قدر الحلقة أي لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها وقيل ان التقدير في المسمار أي لا تجعل مسمار الدرع دقيقا فيقلق ولا غليظا فيفصم الحلق وقال ابن عباس قدر في السرد أي في حلق الحديد وعنه لا تدق المسامير وتوسع الحلق فتسلس ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتفصم واجعله قدرا وقال البقاعي انه لم تكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة اليها بسبب الانة الحديد والا لم يكن بينه وبين غيره فرق ولا كان للالانة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب اليه بغير مسامير وقال الرازي معناه انك غير مأمور به أمر ايجاب وانما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الايام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل فيه القوت فحسب ثم خاطب داود وأهله فقال (واعملوا) عملا (صالحا) كما في قوله اعملوا آل داود شكرا ثم علل الامر بالعمل الصالح بقوله (اني بما تعملون بصير) أي لا يخفى على شئ من ذلك فأجازيكم به (ولسليمان الريح) أي سخرنا له الريح كما قال الزجاج قرأ عاصم بالرفع على الابتداء والخبر أي ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة وقرئ الريح والرياح بالافراد والجمع (غدوها) أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح الى الزوال أي جريها من أول النهار

تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون الى قوله وفجرنا فيها من العيون وقال تعالى وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج الى قوله وان الله يبعث من في القبور وقال تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا الى قوله لعلكم تذكرون ولهذا قال ههنا وكذلك تخرجون (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) يقول تعالى ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته انه خلق أباكم آدم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الانسان ثم كسا الله تلك العظام لحما ثم نفخ فيه الروح فاذا هو سميع بصير ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال الى ان صار يبني

الى الزوال (شهر ورواحها) أي سيرها من الزوال الى الغروب (شهر) والجملة مستأنفة لبيان تسخير الريح أو حالية من الريح والمعنى انها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل أو بابل وبينهما مسيرة شهر وقيل انه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند (وأسلنا) أي أذبنا (له عين القطر) أي النحاس الذائب قال الواحدي قال المفسرون أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء وكان بأرض اليمن وانما يعمل الناس اليوم مما أعطي سليمان ولولا ذلك ما لان النحاس أصلا لانه قبل سليمان لم يكن يلين أصلا لا بنار ولا بغيرها والمعنى أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود وقال قتادة أسال الله عينا يستعملها فيما يريد قال ابن عباس القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان وانما يعمل الناس بعد فيما كان أعطي سليمان وقال مجاهد القطر الصفر والمعنى جعلنا النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته أي كالعين النابعة من الارض (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) الاذن مصدر مضاف الى فاعله أي بسحره أو بتيسيره بأمر ربه (ومن يزغ منهم) أي ومن يعدل من الجن (عن أمرنا) الذي أمرناه به وهو طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) قال أكثر المفسرين وذلك في الآخرة وقيل في الدنيا قال السدي وكل الله بالجن ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة تحرقه ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال (يعملون له ما يشاء من محاريب) من للبيان والمحاريب في اللغة كل موضع مرتفع وهي الابنية الرفيعة والقصور العالية والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال والمساكن قال المبرد لا يكون المحراب الا أن يرتقى اليه بدرج ومنه قيل للذي يصلى فيه محراب لانه يرفع ويعظم وقال مجاهد المحاريب دون القصور وقال أبو عبيدة المحراب أشرف بيوت الدار وقال الضحاك وقتادة المراد بالمحاريب هنا المساجد وكان مما عملوا له بيت المقدس (وتماثيل) جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء أي صورته بصورته من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك قيل كانت هذه التماثيل صور الانبياء والملائكة والعلماء والصلحاء كانوا يصورونها في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا وفي الحديث ان أولئك كان اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ليذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة وقيل هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان وقيل صور السباع والطيور وقد استدل بهذا على ان التصوير كان مباحا في شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن ابن عباس قال اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال يا رب انفخ فيها الروح فانها أقوى على الخدمة فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه وكان أسفنديار من بقاياهم فقيل يا داود وسليمان اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور (وجفان) جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة (كالجواب) جمع جابية وهي حفيرة كالحوض وقيل هي الحوض الكبير يجبى الماء أي يجمعه قال الواحدي قال المفسرون يعني قصاعا في العظم كحياض الابل يجتمع

المدائن والحصون ويسافر في أقطار الاقاليم ويركب متن البحور ويدور أقطار الارض ويكتسب ويجمع الاموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه فسبحان من قدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكرة والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولهذا قال تعالى ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالا حدثنا عوف عن قسامة ابن زهير عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الابيض والاحمر والاسود وبين ذلك الخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك ورواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الاعرابي به وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا أي خلق لكم من جنسكم اناثا تكون لكم أزواجا

على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها قال النحاس الاولى اثبات الياء في الجوابي ومن حذف الياء قال سبيل الالف واللام أن يدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها فلما كان يقال جواب ودخلت الالف واللام أقر على حاله فحذف الياء قال الكسائي يقال جبوت الماء وجبيته في الحوض أي جمعته والجابية الحوض الذي يجبى فيه الماء للابل وقال النحاس والجابية القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشئ أي يجمع ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد جمعته في الكساء وقال ابن عباس كالجوبة من الارض (وقدور راسيات) قال ابن عباس أثافيها منها وقال قتادة هي قدور النحاس تكون بفارس وقال النحاس هي قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ومعنى راسيات ثابتات لا تحمل ولا تحرك لعظمها وكان يصعد اليها بالسلالم وكانت باليمن قيل انها باقية الى الآن ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم سليمان وأهله فقال (اعملوا آل داود شكرا) أي وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرا لله على ما آتاكم أو اعملوا عملا شكرا على انه صفة مصدر محذوف أو اعملوا للشكر على انه مفعول له أو حال أي شاكرين أو مفعول به وسميت الطاعة شكرا لانها من جملة أنواعه أو منصوب على المصدرية بفعل مقدر من جنسه أي اشكروا شكرا قيل المراد بآل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته وقيل المعنى ارحموا أهل البلاء واسألوا ربكم العافية وسئل الجنيد عن الشكر فقال بذل المجهود بين يدي المعبود ثم بين بعد أمرهم بالشكر ان الشاكرين له من عباده ليسوا بكثير فقال (وقليل من عبادي الشكور) أي العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل وقال ابن عباس يقول قليل من عبادي الموحدين توحيدهم والشكور المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس من يشكر على أحواله كلها وقيل من يشكر على الشكر ومن يرى عجزه عن الشكر وعن داود عليه السلام انه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي حكمنا على سليمان به وألزمناه اياه (ما دلهم) اي الجن (على موته الا دابة الارض) يعني حتى أكلت الارضة عصاه فخر ميتا وهي دويبة يقال لها سرفة وقرئ الارض بفتح الراء اي الاكل يقال أرضت الخشبة أرضا اذا أكلتها الارض (تأكل منسأته) قال البخاري يعني عصاه اي عصاه التي كان متكئا عليها والمنسأة العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم اي زجرتها قال الزجاج المنسأة التي ينسأ بها اي يطرد قرأ الجمهور منسأته بهمزة مفتوحة وقرئ بهمزة ساكنة وبألف محضة قال المبرد بعض العرب تبدل من همزتها ألفا فلما أكلتها الارضة شكرتها الجن وأحبوها فهم يأتونها بالماء والطين في خروق الخشب وزاد السدي وقالوا لها لو كنت تأكلين الطعام والشراب لاتيناك بهما (فلما خر) اي سقط سليمان (تبينت الجن) اي ظهر لهم وانكشف من تبينت الشئ اذا علمته اي علمت الجن (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) اي لو صح ما يزعمونه من انهم يعلمون الغيب لعلموا بموته ولم يلبثوا بعد موته مدة

لتسكنوا اليها كما قال تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها يعني بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الاقصر الايسر ولو انه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل اناثهم من جنس آخر من غيرهم اما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الازواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الازواج من غير الجنس ثم من تمام رحمته ببني آدم ان جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم مودة وهي المحبة ورحمة وهي الرأفة فان الرجل يمسك المرأة اما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة اليه في الانفاق أو للالفة بينهما وغير ذلك ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته العظيمة خلق السموات والارض أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وسقوف اجرامها وزهارة

طوله في العذاب اي العمل الذي أمرهم به والطاعة له وهو اذذاك ميت قال مقاتل العذاب المهين الشقاء والنصب في العمل قال الواحدي قال المفسرون كانت الناس في زمان سليمان يقولون ان الجن تعلم الغيب فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا والجن تعمل تلك الاعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى اكلت الارضة عصاه فخر ميتا فعلموا بموته علم الناس ان الجن لا تعلم الغيب ويجوز ان يكون تبينت من بين الشيء لا من تبينت الشيء أي ظهر وتجلى وان وما في حيزها بدل اشتمال مع تقدير محذوف أي ظهر أمر الجن للناس انهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين قرأ الجمهور تبينت على البناء للفاعل مسندا الى الجن وقرأ ابن عباس وغيره على البناء للمفعول ومعنى القراءتين يعرف مما ذكرنا قال ابن عباس لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ثم خر على رأس الحول فأخذت الجن عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته فارسلوها عليها فاكلتها في سنة وكان ابن عباس يقرأ فلما خر تبينت الانس قال سفيان وفي قراءة ابن مسعود وهم يدأبون له حولا واخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كان سليمان اذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لما انت فتقول لكذا وكذا فان كانت لغرس غرست وان كانت لدواء كتبت فصلى ذات يوم فاذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الخروب قال لاي شيء انت قالت لخراب هذا البيت قال لها سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها في حائط له ثم قال سليمان اللهم عم عن الجن موتي حتى تعلم الانس ان الجن لا يعلمون الغيب فهيأ عصى فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكئ عليها فمكث حولا ميتا والجن تعمل فاكلتها الارضة فسقطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الانس ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين وكان ابن عباس يقرؤها كذلك فشكرت الجن للارضة فأينما كانت يأتونها بالماء وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفا وأخرج الديلمي عن زيد بن أرقم مرفوعا يقول الله اني تفضلت على عبادي بثلاث النتن الدابة على الحبة ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه واسليت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل ذكر أهل التاريخ ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقي في الملك مدة أربعين سنة وشرع في بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وتوفي وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل ان داود أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فمات قبل ان يتمه فوصى به الى سليمان فأمر الشياطين باتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل ربه ان يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم علم الغيب روى ان افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده ان يدنو منه ولما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها والمقصود من ذكر هذه القصة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكرها لقومه لعلهم

كواكبها وبجومها النواات والسيارات وخلق الارض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار وقوله تعالى واختلاف ألسنتكم يعني اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء تترلهم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرور وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالبة وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن وهؤلاء أكراد الى غير ذلك مما لا يعلمه الا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم وهي حلاهم فجميع أهل الارض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم الى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لا بد ان يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى ولو توافق جماعة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ان في ذلك لآيات للعالمين ومن اياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله اى ومن الآيات ما جعل الله من صفة

يتعظون وينزجرون ويعتبرون بها فقال (لقد كان لسبإ) المراد بها القبيلة التي هي من
أولاد سبإ وهو سبأ بن يشجب بضم الجيم بن يعرب بن قحطان بن هود قرأ الجمهور لسبإ
بالتنوين على أنه اسم حي اي الحي الذين هم أولاد سبإ وقرئ لسبأ ممنوع الصرف بتأويل
القبيلة ويقوي القراءة الاولى قوله (في مسكنهم) ولو كان على تأويل القبيلة لقال في
مسكنها وقرأ الجمهور على الجمع واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ووجه الاختيار انها
كانت لهم منازل كثيرة ومساكن متعددة وقرئ بالافراد ووجه الافراد انه مصدر يشمل
القليل والكثير أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي
يقال لها الآن مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال وكانت أخصب البلاد وقد
أخرج احمد والبخاري والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن فروة بن مسيك
المرادي قال أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت يارسول الله ألا اقاتل من ادبر من
قومي بمن اقبل منهم فأذن لي في قتالهم وأمرني فلما خرجت من عنده أرسل في اثري فردني
فقال ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث اليك وأنزل في
سبإ ما انزل فقال رجل يارسول الله وما سبأ ارض أم امرأة قال ليس بأرض ولا امرأة
ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة فأما الذين
تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة واما الذين تيامنوا فالازد والاشعريون وحمير وكندة
ومذحج وأنمار فقال رجل يارسول الله وما أنمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة واخرج
احمد وعبد بن حميد والطبراني وابن عدي والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس
نحوه بأخصر منه (آية) اي علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه بملاحظة
احوالها السابقة وهي نضارتها وخصبها وثمارها واللاحقة كتبديلها وعدم ثمرها ثم بين
هذه الآية فقال (جنتان) اي جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) اي وهاتان
الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد احاطتا به من جهتيه وقيل عن يمين من اتاهما
وشماله وكانت مساكنهم في الوادي وكل طائفة من تلك الجماعتين في تقاربها وتضامها
كأنها جنة واحدة والآية هي الجنتان كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل فيمتلئ
من انواع الفواكه التي تتساقط من غير ان تمسها بيدها وقال عبد الرحمن بن زيد ان الآية
التي كانت لاهل سبإ في مساكنهم انهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا
عقربا ولا حية ولا غير ذلك من الهوام واذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند
رؤيتهم لبيوتهم قال القشيري ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل
جهة بساتين كثيرة وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها (كلوا من رزق ربكم) اي قيل
لهم ذلك وهذا الأمر للاذن والاباحة وقيل لم يكن ثم أمر ولكن المراد تمكينهم من تلك
النعم والاول أظهر وقيل انها قالت لهم الملائكة وقيل انهم خوطبوا بذلك على لسان
نبيهم والمراد بالرزق هو ثمار الجنتين (واشكروا له) على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا
بطاعته واجتنبوا معاصيه (بلدة طيبة) مستأنفة لبيان موجب الشكر والمعنى هذه بلدة
طيبة لكثرة أشجارها وطيبة ثمارها وقيل معنى كونها طيبة انها غير سبخة وقيل ليس فيها

النوم في الليل والنهار فيه تحصل
الراحة وسكون الحركة وذهاب
الكلال والتعب وجعل لكم
الانتشار والسعي في الاسباب
والاسفار في النهار وهذا ضد النوم
ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون أي
يعون قال الطبراني حدثنا حجاج
ابن عمران السدوسي حدثنا عمرو
ابن الحصين العقيلي حدثنا محمد بن
عبد الله بن علاقة حدثنا ثور بن
يزيد عن خالد بن معدان سمعت
عبد الملك بن مروان يحدث عن
أبيه عن زيد بن ثابت رضي الله
عنه قال أصابني أرق من الليل
فشكوت ذلك الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال قل اللهم غارت
النجوم وهدأت العيون وأنت حي
قيوم ياحي ياقيوم اهدئ ليلي فقلتها
فذهب عني (ومن آياته يريكم
البرق خوفا وطمعا وينزل من
السماء ماء فيحيي به الارض بعد
موتها ان في ذلك لآيات لقوم
يعقلون ومن آياته ان تقوم السماء
والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة
من الارض اذا أنتم تخرجون)
يقول تعالى ومن آياته الدالة على
عظمته انه يريكم البرق خوفا وطمعا
اي تارة تخافون مما يحدث بعده
من أمطار مزعجة وصواعق متلفة

دوابهم لبث هوائها قد بحاسنها صحيحا وقيل كان على ثلاث مراحل من صنعاء وفي المسافة مصلى البلد والبلدة على كل موضع من الارض عامرا كان وخلاء (ورب غفور) اي المنعم بما عليهم رب غفور اذ جمع لهم بين المغفرة وطيب البلدة ولم يجمع ذلك لجميع خلقه وقال مقاتل المعنى وربكم ان شكرتموه فيما رزقكم رب غفور للذنوب وقيل انه جمع لهم بين طيب البلد والمغفرة للاشارة الى ان الرزق قد يكون فيه حرام فرئ بنصب البلدة وربا على تقدير اسكنوا البلدة واشكروا ربا ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي انعم بها عليهم فقال (فاعرضوا) عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا انبياءهم قال السدي بعث الله الى اهل سبا ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وكذا قال وهب وزاد وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع فذلك اعراضهم ثم لما وقع منهم الاعراض عن شكر النعمة ارسل الله عليهم نقمة سلب بها النعمة عليهم كما قال (فارسلنا عليهم سيل العرم) وذلك ان الماء كان ياتي ارض سبا من اودية اليمن من مواردها من جبال وحسر الماء وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض وكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فاخصبوا وكثرت اموالهم فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذا فنقبت ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم فهذا هو سيل العرم وهو جمع عرمة وهي السكر التي تحبس الماء وكذا قال قتادة وقال السدي العرم اسم للسد والمعنى ارسلنا عليهم سيل السد العرم وقال عطاء العرم اسم الوادي وقال الزجاج العرم اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم وهو الذي يقال له الخلد فنسب السيل اليه لكونه سبب جريانه قال ابن الاعرابي العرم من اسماء الفار وقال مجاهد وابن ابي نجيح العرم ماء احمر ارسله الله في السد فشقه وهدمه وقيل ان العرم اسم المطر الشديد وقيل اسم للسيل الشديد والعرامة في الاصل الشدة والشراسة والصعوبة يقال عرم فلان اذا اشتد وتصعب وروي عن ابن الاعرابي انه قال العرم السيل الذي لا يطاق وقال المبرد العرم كل شيء حاجز بين شيئين وعن ابن عباس قال العرم الشديد وعنه قال واد كان باليمن كان يسيل الى مكة (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) اي اهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والانواع الحسنة واعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيهما بل هما من الشوك والحشيش وتسميتهما جنتين تهكم بهم على طريق المشاكلة ثم بين ذلك فقال (ذواتي) تثنية ذوات مفرد على الاصل لان اصل ذو ذوي فلما وقعت الكلمة والياء لاما لامها قلبت ذرو واصله ذوي فتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت الفاء فصار ذوات ثم حذفت الواو تخفيفا وفي تثنيته وجهان تارة يعتبر لفظه الان فيقال ذواتا وتارة يعتبر الاصل حذف الواو فيقال ذواتان وقال السمين في تثنية ذات لغتان احدهما الرد الى الاصل فان اصلها ذوية فالعين واو واللام ياء لانها مؤنثة ذو والثانية التثنية على اللفظ فيقال ذاتان (اكل خمط) قرئ بتنوين اكل وعدم اضافته الى خمط وقرئ بالاضافة والاولى اولى قال الخليل الخمط ضرب من الاراك له حمل يؤكل وكذا قال ابن عباس وكذا قال كثير من المفسرين وقال ابو عبيدة

ورقة تخرجون منه وما يأتي بعده من المراعي ومنه ولهذا قال تعالى وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها اي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها حتى اذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ولهذا قال ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ثم قال تعالى ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره كقوله تعالى ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه وقوله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا اجتهد في اليمين قال والذي تقوم السماء والارض بامره اي هي قائمة ثابتة بامره لها وتسخيره اياها ثم اذا كان يوم القيامة بدلت الارض غير الارض والسموات وخرجت الاموات من قبورها احياء بامره تعالى ودعائه اياهم ولهذا قال تعالى ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون اي من الارض كما قال تعالى يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا وقال تعالى فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة وقال تعالى ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم

الخمط كل شجرة مرة ذات شوك وقيل هو ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به وقال الزجاج كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله وقال المبرد كل شيء يتغير الى ما لا يشتهى يقال له خمط ومنه اللبن اذا تغير والخمط اسم للمر والحامض من كل شيء والخمط نعت لأكل او بدل منه لان الأكل هو الخمط بعينه وقال الأخفش الاضافة احسن في كلام العرب مثل ثوب خز ودار آجر والاولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه قال الجوهري الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل (وأثل) هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال الا انه أعظم من الطرفاء طولا وورقه كورق الطرفاء ومنه اتخذ منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواحدة أثلة والجمع أثلات وقال الحسن الاثل الخشب وقال أبو عبيدة هو شجر النضار والاول أولى ولا ثمر للاثل (وشيء من سدر قليل) السدر شجر معروف قال الفراء هو السمر وقال الازهري السدر من الشجر سدران بري لا ينتفع به ولا يصلح للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل وهو الذي يسمى الضال والثاني سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب قيل ووصف السدر بالقلة لان منه نوعا يطيب أكله وهو النوع الثاني الذي ذكره الازهري ولذا يغرس في البساتين قال قتادة بينما شجرهم من خير شجر اذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الاراك والطرفاء والسدر ويحتمل ان يرجع قوله قليل الى جميع ما ذكر من الخمط والاثل والسدر والاشارة بقوله (ذلك) الى ما تقدم من التبديل أو الى المصدر (جزيناهم بما كفروا) أي ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة باعراضهم عن شكرها (وهل نجازي الا الكفور) أي وما نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة الا الشديد الكفر المتبالغ فيه قرأ الجمهور بضم الياء التحتية وفتح الزاي على البناء للمفعول وقرئ بالنون وكسر الزاي مبنيا للفاعل وهو الله سبحانه والكفور على الاولى مرفوع وعلى الثانية منصوب وظاهر الآية انه لا يجازي الا الكفور مع كون أهل المعاصي يجازون وقد قال قوم ان معنى الآية انه لا يجازى هذا الجزاء وهو الاصطلام والاهلاك الا من كفر وقال مجاهد ان المؤمن تكفر عنه سيآته والكافر يجازى بكل عمل عمله وقال طاوس هو المناقشة في الحساب وأما المؤمن فلا يناقش وقال الحسن ان المعنى انه يجازى الكافر مثلا بمثل ورجح هذا الجواب النحاس (وجعلنا بينهم) أي وكان من قصتهم انا جعلنا بينهم أي بين سبأ وهم باليمن قبل ارسال السيل عليهم (وبين القرى التي باركنا فيها) بالماء والشجر وهي قرى الشام يعني الارض المقدسة قاله ابن عباس (قرى ظاهرة) أي متواصلة عامرة مخصبة وكان متجرهم من أرضهم التي هي مأرب الى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا وكانوا لا يحتاجون الى زاد يحملونه من أرضهم الى الشام فهذا من جملة الحكاية لما أنعم الله به عليهم قال الحسن ان هذه القرى هي بين اليمن والشام قيل انها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ الى الشام وقيل هي بين المدينة والشام قال المبرد القرى الظاهرة هي المعروفة وانما قيل لها ظاهرة لظهورها اذا خرجت من هذه ظهرت

جميع لدينا محضرون (وله من في السموات والارض كل له قانتون وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) يقول له تعالى وله من في السموات والارض أي ملكه وعبيده كل له قانتون أي خاضعون خاشعون طوعا وكرها وفي حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا كل حرف يذكر فيه القنوت في القرآن فهو الطاعة وقوله وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أيسر عليه وقال مجاهد الاعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخاري حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

تلك الاخرى فكانت قرى ظاهرة أي معروفة يقال هذا أمر ظاهر أي معروف وقيل ظاهرة للأعين الناظرين أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) أي جعلنا السير من القرية الى القرية ومن المنزل الى المنزل مقدرا معينا واحدا وذلك نصف يوم في الغدو والرواح فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك كما قال المفسرون قال الفراء أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في أخرى الى أن يصل الى الشام وانما يبالغ الانسان في السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق فاذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه المشقة بل ينزل أينما أراد والحاصل ان الله سبحانه عدد عليهم النعم ثم ذكر ما نزل بهم من النقم ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر اليه ثم ذكر بعد ذلك تبديله المفاوز والبراري كما سيأتي (سيروا فيها) أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى المتصلة فهو أمر تمكين أي ومكناهم من السير فيها متى شاؤا وفي لفظ في اشعار بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى قال ابن عباس أي اذا ظعنوا من منازلهم الى أرض الشام المقدسة (ليالي وأياما آمنين) مما تخافونه وقال قتادة كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضا ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه قيل وأتى بلفظ النكرة تنبيها على قصر أسفارهم أي كانوا لا يحتاجون الى طول السفر لوجود ما يحتاجون اليه ثم ذكر سبحانه انهم لم يشكروا النعمة بل طلبوا التعب والكد (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وكان هذا القول منهم بطرا وطغيانا لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العافية فتمنوا طول الاسفار والتباعد بين الديار وسألوا الله تعالى ان يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن من المفاوز والقفار والبراري المتباعدة الاقطار فأجابهم الله الى ذلك وخرب تلك القرى المتواصلة وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني اسرائيل حيث قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها الآية مكان المن والسلوى وكقول النضر بن الحرث اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وقرأ الجمهور ربنا بالنصب على انه منادى مضاف وقرؤا أيضا باعد وقرئ بعد بتشديد العين وقرأ ابن السميفع بضم العين فعلا ماضيا فيكون معنى هذه القراءة الشكوى من بعد الاسفار وقرئ ربنا بالرفع وباعد بفتح العين على انه فعل ماض على الابتداء والخبر والمعنى لقد باعد ربنا بين أسفارنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس واختارها أبو حاتم قال لانهم ما طلبوا التبعيد انما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطرا وأشرا وكفرا للنعمة وقرئ ربنا بالرفع وبعد بفتح العين مشددة والمعنى على هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء فيكون هذا من جملة بطرهم وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميفع السابقة مع رفع بين على انه الفاعل كما قيل في

انفرد باخراجه البخاري كما انفرد برواته أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة وقد رواه الامام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا أبو يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه أو مثله وقال آخرون كلاهما بالنسبة الى القدرة على السواء وقال العوفي عن ابن عباس كل عليه هين وكذا قاله الربيع بن خثيم ومال اليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال ويحتمل ان يعود الضمير في قوله وهو أهون عليه الى الخلق اي وهو اهون على الخلق وقوله وله المثل الاعلى في السموات والارض قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى ليس كمثله شئ وقال قتادة مثله انه لا اله الا هو ولا رب غيره وقال مثل هذا ابن جرير وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكره هذه الآية لبعض أهل المعارف

اذا سكن الغدير على صفاء
وجنب ان يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء
كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي
يرى في صفوها الله العظيم

قوله لقد تقطع بينكم وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على انه ظرف والتقدير بعد سيرنا بين أسفارنا قال النحاس وهذه القرا آت اذا اختلفت معانيها لم يجز ان يقال احداهما أجود من الاخرى كما لا يقال ذلك في اخبار الآحاد اذا اختلفت معانيها ولكن أخبر عنهم بانهم دعوا ربهم ان يبعد بين أسفارهم فلما فعل ذلك شكوا وتضرروا ولهذا قال سبحانه (وظلموا أنفسهم) حيث كفروا بالله وطغوا وبطروا نعمته وتعرضوا لنقمته (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس باخبارهم وعبرة لمن بعدهم والاحاديث جمع حديث بمعنى الخبر كما في القاموس والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجبا من فعلهم وأمرهم وشأنهم واعتبارا بحالهم وعاقبتهم (ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق بحيث لا يتوقع بعده عود اتصال وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث وذلك ان الله سبحانه لما أغرق مكانهم وأذهب جنتهم تفرقوا في البلاد فصارت العرب تضرب بهم الامثال فتقول تفرقوا أيدي سبا وذهبوا أيادي سبا والايدي ههنا بمعنى الاولاد لانهم يعتضد بهم وفي المفصل الايدي الانفس كناية أو مجاز قال في الكشف وهو أحسن قال الشعبي فلحقت الانصار يعني الاوس والخزرج بيثرب وغسان بالشام والازد بعمان وخزاعة بتهامة وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الانصار ولحق آل خزيمة بالعراق (ان في ذلك) أي فيما ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم (لآيات) بينات وعبرا ظاهرات ودلالات واضحات (لكل صبار شكور) أي لكل من هو كثير الصبر عن المعاصي والشكر لله على نعمه وخص الصبار والشكور لانهما المنتفعان بالمواعظ والآيات (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه) قرئ بتخفيف صدق ونصب ظنه قال الزجاج وهو على المصدر أي صدق وظن ظنا أو صدق في ظنه أو على الظرفية والمعنى انه ظن بهم انه اذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك وقرئ صدق بالتشديد وظنه بالنصب على انه مفعول به وقال أبو علي الفارسي أي صدق الظن الذي ظنه قال مجاهد ظن ظنا فصدق ظنه فكان كما ظن وقرئ صدق بالتخفيف وابليس بالنصب وظنه بالرفع وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل صدق وابليس مفعوله والمعنى ان ابليس سول له ظنه شيأ فيهم فصدق ظنه فكأنه قال ولقد صدق عليهم ظن ابليس قيل وهذه الآية خاصة باهل سبا والمعنى انهم غيروا وبدلوا بعد ان كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم وقيل هي عامة أي صدق ابليس ظنه على الناس كلهم الا من أطاع الله قاله مجاهد والحسن قال الكلبي انه ظن انه ان أغواهم أجابوه وان أضلهم أطاعوه فصدق ظنه فاتبعوه قال الحسن ما ضربهم بسوط ولا بعصى وانما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته وعن ابن عباس في الآية قال قال ابليس ان آدم خلق من تراب ومن طين ومن حما مسنون خلقا ضعيفا واني خلقت من نار والنار تحرق كل شئ لاحتنكن ذريته الا قليلا قال فصدق ظنه عليهم وانتصاب (الا فريقا من المؤمنين) على الاستثناء وفيه وجهان أحدهما ان يراد به بعض المؤمنين لان كثيرا من المؤمنين يذنب وينقاد لابليس في بعض المعاصي ولم يسلم منه الا فريق وهم الذين قال الله فيهم ان عبادي

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شئ وقهر كل شئ بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعا وقدرا وعن مالك في تفسيره المروي عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى وله المثل الاعلى قال لا اله الا الله (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين) هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون ان شركاءه من الاصنام والانداد عبيد له ملك له كما كانوا يقولون لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى ضرب لكم مثلا من انفسكم أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء أي يرضى أحدكم ان يكون عبده شريكا له في ماله فهو وهو فيه على السواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم أي تخافون ان يقاسموكم الاموال قال ابو مجلز

فيه ظنه عليهم ... وقيل المراد به المؤمنون كلهم لأنهم لم يتبعوه في أصل الدين على
أن تكون من بيانية (وما كان له عليهم من سلطان) أي من تسلط عليهم أي يكرههم على
الكفر وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين ... عليهم بعد على من صدق
عليهم ظنه ... وقيل السلطان القوة وقيل الحجة والاستثناء في
قوله (إلا لنعلم) منقطع والمعنى لا سلطان له عليهم ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم وقيل
المراد بالعلم الاستعلاء ... وقيل إلا لنعلم ... وقرئ
لنعلم على البناء للمفعول والأول أحسن والعلم هنا على تمييز والاختيار كذا قاله وقيل
إن العلم موجود ... على المعلوم ... وقيل هو متصل مفرغ من
أعم الأحوال أي ما كان له تسلط عليهم بحال من الأحوال إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة
(ممن هو منها في شك) لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليا (وربك على
كل شيء حفيظ) أي محافظ عليه وحفيظ فعيل بمعنى فاعل ... والقادر على
التي لا يمكن ... ولا العاجز ... على كل شيء من ... (قل ادعوا
الذين زعمتم من دون الله) قرئ قل بكسر اللام ... أصل التقاء الساكنين
وبقية ... العين ... وحمزة ...
وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق
هذا القول ... لا زعمتم محذوف وقد ... آلهة ... عليهما ...
يقول ادعوهم لكشف الضر الذي نزل بكم في سني الجوع ثم أجاب عنهم
فقال (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) أي ليس لهم قدرة على خير
ولا شر ولا على جلب نفع ولا دفع ضرر في أمر من الأمور وذكر السموات والأرض لقصد
التعميم لكونهما ظرف الموجودات الخارجية (وما لهم فيهما من شرك) أي ليس لآلهتهم
في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف (وما له منهم من ظهير) أي
وما لله سبحانه من آلهتهم من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن
فيهما ... (ولا تنفع الشفاعة عنده
إلا لمن أذن له) الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال
إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل
ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ويجوز أن يكون
المعنى لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له
أي لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير المستحقين لها وقيل
والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له ... على ...
... قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أذن ... وقرأ الجمهور أذن مبنيا للفاعل أي أذن له
الله ... وقيل ... على ... والآذن هو الله
سبحانه ومثل هذه الآية قوله تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وقوله تعالى
ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ثم أخبر الله

أن معه شريكا لا يخفى أن يقاسمك
... وليس له ذلك كما أنك
لا شريك له والمعنى أن أحدكم
يأنف من ذلك فكيف يجعلون
لله من خلقه وهذا كقوله تعالى
ويجعلون لله ما يكرهون أي من
البنات حيث جعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها
بنات الله وقد كان أحدهم إذا بشر
بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم
يتوارى من القوم من سوء ما بشر
به أيمسكه على هون أم يدسه في
التراب فهم يأنفون من البنات
وجعلوا الملائكة بنات الله تقسيرا
الله ما لا يرضونه لأنفسهم ...
... للكفر وهكذا في هذا المقام
يجعل الشرك من عبيده وخلقه
و... بأي حال ... ويأنف
غيرة لنفسه من ذلك أن يكون عبده
شريكا في ماله ...
تعالى الله عن ذلك علوا
كبيرا قال الطبري حدثنا محمد بن
المرج الأصبهاني حدثنا إسماعيل
ابن عمرو البجلي حدثنا حماد بن شعيب
عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد
بن جبير عن ابن عباس قال كان
يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك
لا شريك لك إلا شريكا هو لك
تملكه وما ملك فأنزل الله تعالى

سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال (حتى اذا فزع عن قلوبهم) قرئ مبنيا للمفعول والفاعل هو الله سبحانه وقرئ مبنيا للفاعل وفاعله ضمير يرجع الى الله سبحانه وكلتا القراءتين بتشديد الزاي وفعل معناه السلب فالتفزيع ازالة الفزع وقرئ مخففا وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ والمعنى فرغ الله قلوبكم أي كشف عنها الخوف وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه افرنقع من الافرنقاع وهو التفرق قال قطرب معنى فزع أخرج ما فيها من الفزع وهو الخوف وقال مجاهد كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة وقال ابن عباس فزع جلي وهو التفرق والمعنى ان الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والانبياء والاصنام كائنا من كان الا ان يأذن الله سبحانه للملائكة والانبياء ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى وهم من خشيته مشفقون فاذا اذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الامر الهائل والخوف الشديد من أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير او يحدث شئ من اقدار الله فاذا سري عنهم (قالوا) للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالاذن (ماذا قال ربكم) أي ماذا أمر الله به (قالوا) أي فيقولون لهم قال القول (الحق) وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم (وهو العلي الكبير) فله ان يحكم في عباده بما يشاء ويفعل ما يريد ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم الا باذنه وان يشفع الا لمن ارتضى وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يامر به الرب والمعنى لا تنفع الشفاعة الا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله دون الجمادات والشياطين وقيل ان الذين يقولون ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والانبياء وقال الحسن وابن زيد ومجاهد معنى الآية حتى اذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة قالت لهم الملائكة ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق فاقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقيل انما يفزعون حذرا من قيام الساعة وقيل كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أوحى الجبار الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله فقالوا الحق وقد علموا ان الله لا يقول الا حقا قال ابن عباس وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوا خروا سجدا فلما رفعوا رؤسهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضا عنه قال ينزل الامر الى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون ماذا قال ربكم ثم يرجعون الى أنفسهم فيقولون الحق وهو العلي الكبير وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي

هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الاولى والاحرى قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ثم قال تعالى مبينا ان المشركين انما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا بل اتبع الذين ظلموا أي المشركون أهواءهم أي في عبادتهم الانداد بغير علم فمن يهدي من أضل الله أي فلا أحد يهديهم اذا كتب الله ضلالهم وما لهم من ناصرين أي ليس لهم عن قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه لانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) يقول تعالى فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فانه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه

الكبير الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وعن ابن مسعود قال اذا تكلم
الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ولا
يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال
ربك فيقول الحق أخرجه أبو داود والصلصلة صوت الاجراس الصلبة بعضها على بعض
وفي معناه أحاديث ثم أمر الله سبحانه رسوله ان يبكت المشركين ويوبخهم فقال (قل من
يرزقكم من السموات والارض) أي من ينعم عليكم بهذه الارزاق التي تتمتعون بها فان
آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة والرزق من السماء هو المطر وما ينتفع به منها من الشمس
والقمر والنجوم والرزق من الارض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ولما كان الكفار
لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام ولا تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق الى آلهتهم
وربما يتوقفون في نسبته الى الله مخافة ان تقوم عليهم الحجة أمر الله رسوله بان يجيب
عن ذلك فقال (قل الله) أي هو الذي يرزقكم من السموات والارض ثم أمره الله سبحانه
ان يخبرهم بانهم على ضلالة لكن على وجه الانصاف في الحجة بعدما سبق تقرير من هو
على الهدى ومن هو على الضلالة فقال (وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)
والمعنى ان أحد الفريقين من الذين يوحدون الله الخالق الرازق ويخصونه بالعبادة
والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر لعلى أحد
الامرين من الهدى والضلالة ومعلوم لكل عاقل ان من عبد الذي يخلق ويرزق وينفع
ويضر هو الذي على الهدى ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر هو
الذي على الضلالة فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى وهم المسلمون وفريق
الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح وهذا من الكلام المنصف الذي
كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك قال المبرد ومعنى
هذا الكلام معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه أحدنا كاذب وقد عرف انه الصادق
المصيب وصاحبه الكاذب المخطئ انتهى وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى
والضلال لان صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال
كأنه منغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه قال المبرد أو عند البصريين على بابها وليست
للشك لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا اذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى
وقال أبو عبيدة والفراء هي بمعنى الواو وتقديره وانا على هدى واياكم لفي ضلال مبين قيل
أو اياكم معطوف على اسم ان وخبرها هو المذكور وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي انا
لعلى هدى أو في ضلال مبين أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ويجوز العكس وهو
كون المذكور خبر الثاني وخبر الاول محذوفا كما في قوله والله ورسوله أحق ان يرضوه
ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الانصاف وأدخل فيه وأبعد من
الجدل والمشاغبة فقال (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) أي انما أدعوكم
الى ما فيه خير لكم ونفع ولا ينالني من كفركم وترككم لاجابتي ضرر وهذا كقوله سبحانه
لكم دينكم ولي دين وفي اسناد الجرم الى المسلمين ونسبة مطلق العمل الى المخاطبين مع

لا الفطرة كما تقدم عند قوله تعالى
وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم
قالوا بلى وسنذكر الاحاديث ان الله
تعالى فطر خلقه على الاسلام ثم طرأ
على بعضهم الاديان الفاسدة
كاليهودية والنصرانية والمجوسية
وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله قال
بعضهم معناه لا تبدلوا خلق الله
فتغيروا الناس عن فطرتهم التي
فطرهم الله عليها فيكون خبرا بمعنى
الطلب كقوله تعالى ومن دخله كان
آمنا وهو معنى حسن صحيح وقال
آخرون هو خبر على بابه ومعناه انه
تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة
على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد
الا على ذلك ولا تفاوت بين الناس
في ذلك ولهذا قال ابن عباس
وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير
ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك
وابن زيد في قوله لا تبديل لخلق الله
أي لدين الله وقال البخاري قوله
لا تبديل لخلق الله لدين الله خلق
الاولين دين الاولين والفطرة الاسلام
حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله أخبرنا
يونس عن الزهري أخبرني أبو سلمة
ابن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما من مولود يولد الا على الفطرة فأبواه

كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والاثم الواضح من الانصاف ما لا يقادر قدره والمقصود المهادنة والمتاركة وقد قيل نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف ثم أمر سبحانه بأن يهددهم بعذاب الآخرة لكن على وجه لا تصريح فيه فقال (قل يجمع بيننا ربنا) أي يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) أي يحكم ويقضي بيننا فيثيب المطيع ويعاقب العاصي (وهو الفتاح) أي الحاكم بالحق القاضي بالصواب (العليم) بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح قيل وهذه أيضا منسوخة بآية السيف ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء) أي ألحقتموهم بالله شركاء له وهذه الرؤية هي القلبية فيكون شركاء هو المفعول الثالث ويجوز أن تكون هي البصرية ويكون شركاء منتصبا على الحال وأريد بأمرهم بإراءته الاصنام مع كونها بمرأى منه صلى الله عليه وآله وسلم اظهار خطئهم واطلاعهم على بطلان رأيهم أي أروني بالنظر أي صفة فيها اقتضت الحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزامهم الحجة ثم ردعليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال (كلا بل) أي ارتدعوا عن دعوى المشاركة بل المنفرد بالالهية (هو الله العزيز) بالقهر والغلبة (الحكيم) بالحكمة الباهرة (وما أرسلناك الا كافة للناس) في انتصاب كافة وجوه فقيل انه منتصب على الحال من الكاف في أرسلناك قال الزجاج أي وما أرسلناك الا جامعا للناس بالانذار والابلاغ والكافة بمعنى الجامع والهاء فيه للمبالغة كعلامة قال أبو حيان ان اللغة لا تساعد عليه لان كف ليس معناه جمع بل معناه منع يقال كف يكف أي منع يمنع والمعنى الا مانعا لهم من الكفر ومنه الكف لانه يمنع من خروج ما فيه وقيل انه منتصب على المصدرية والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية والمراد أنها صفة مصدر محذوف أي الارسالة كافة وقيل انه حال من الناس والتقدير وما أرسلناك الا للناس كافة ورد بأنه لا يتقدم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الاعراب ويجاب عنه بأنه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون وممن رجح كونها حالا من المجرور بعدها ابن عطية وقال قدمت للاهتمام والتقوي ورده الزمخشري وقال خطأ وقال الحلبي بل هو الصحيح وقيل المعنى الا ذا كافة أي ذا منع فحذف المضاف قيل اللام في للناس بمعنى الى أي ما أرسلناك الى الناس الا جامعا لهم بالانذار والابلاغ أو مانعا لهم من الكفر والمعاصي عن قتادة قال أرسل الله محمدا الى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة أخرجه البخاري ومسلم وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الانس والجن وهذه درجة خص بها دون سائر الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام (بشيرا ونذيرا) حال أي مبشرا لهم بالجنة

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس ابن يزيد الايلي عن الزهري به وأخرجاه أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة فمنهم الاسود بن سريع التميمي قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا يونس عن الحسن عن الاسود بن سريع قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت معه فأصبت ظفرا فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية فقال رجل يا رسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا انما خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية وقال كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها

أو بالفصل لمن أقر ومنذر لهم من النار أو بالعدل لمن أصر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون متى) يكون (هذا الوعد) الذي تعدوننا به وهو قيام الساعة أخبرونا به (إن كنتم صادقين) قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عنهم فقال (قل لكم ميعاد يوم) أي ميقات يوم وهو يوم البعث وقيل وقت حضور الموت وقيل أراد يوم بدر لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان وميعاد مصدر بمعنى الوعد أو اسم زمان قال أبو عبيدة الوعد والوعيد والميعاد بمعنى (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه بالاستمهال ولا تتقدمون عليه بالاستعجال بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه وهذا جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوا بسؤالهم من التعنت والإنكار ثم ذكر سبحانه طرفا من قبائح الكفار ونوعا من أنواع كفرهم فقال (وقال الذين كفروا) يعني مشركي العرب (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) أي بما أنزل قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل أو القيامة أو الجنة والنار يعني أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة فقال (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) الخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له والمعنى محبوسون في موقف الحساب وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا عجيبا وحالا فظيعا (يرجع بعضهم إلى بعض القول) أي فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال (يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم الرؤساء المتبوعون (لولا أنتم) صددتمونا عن الإيمان بالله والاتباع لرسوله (لكنا مؤمنين) بالله مصدقين لرسوله وكتابه (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا) مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه (أنحن صددناكم عن الهدى) أي أمنعناكم عن الإيمان (بعد إذ جاءكم) الهدى قالوا هذا منكرين لما ادعوه عليهم من الصد لهم وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك ثم بينوا لهم أنهم الصادون لأنفسهم الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا (بل كنتم مجرمين) أي مصرين على الكفر كثيري الإجرام عظيمي الآثام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) ردا لما أجابوا به عليهم ودفعا لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم (بل مكر الليل والنهار) أي أبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا بل من جهة مكركم بنا ليلا ونهارا وأصل المكر في كلام العرب الخديعة والحيلة يقال مكر به إذا خدعه واحتال عليه قيل هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها وقال الأخفش هذا مكر الليل والنهار قال النحاس والمعنى والله أعلم بل مكركم في الليل والنهار ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا وقال سفيان الثوري بل عملكم في الليل والنهار ويجوز أن يجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازي كما تقرر في علم المعاني قال المبرد كما تقول العرب

فانوا شايم وداينها أو بنصرانها ورواه النسائي في كتاب السير عن زياد بن أيوب عن هشيم عن يونس وهو ابن عبيد عن الحسن البصري به ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري قال الإمام أحمد حدثنا هاشم أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس مرفوعا كذلك وقد قال الإمام أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا حماد يعني ابن سلمة أنبأنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال أتى علي زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد

نهاره صائم وليله قائم وفي السمين واضافة المكر الى الليل والنهار اما على الاسناد المجازي كقولهم ليل ماكر فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه واما على الاتساع في الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه وهذا أحسن من قول من قال ان الاضافة بمعنى في أي في الليل لان ذلك لم يثبت في غير محل النزاع وقرئ برفع مكر ونصب الليل والتقدير بل مكر كائن في الليل والنهار وقرئ مكر بفتح الكاف وتشديد الراء مضافا بمعنى الكرور من كر يكر اذا جاء وذهب أي مكر الليل والنهار صدنا أو صدنا مكرهما وقرئ مكر بفتح الكاف وتشديد الراء لكنه بنصب على المصدرية أي بل يكون الاغواء مكرا دائما لا يفترون عنه (اذ تأمروننا) أي بل مكركم بنا وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي اشباها وأمثالا قال المبرد يقال ند فلان فلان أي مثله وهذا قول القادة للاتباع ان ديننا الحق وان محمدا كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار ان تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) الضمير راجع الى الفريقين أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم وأخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة وقيل المراد باسروا هنا أظهروا لانه من الاضداد يكون تارة بمعنى الاخفاء وتارة بمعنى الاظهار وقيل المعنى تبينت الندامة في أسرة وجوههم والجملة مستأنفة أو حال من الذين استضعفوا والذين استكبروا (وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا) الاغلال جمع غل يقال في رقبته غل من حديد أي جعلت الاغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار والمراد بالذين كفروا هم المذكورون سابقا والاظهار لزيد الذم أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا (هل) أي ما (يجزون الا) جزاء (ما كانوا يعملون) في الدنيا من الشرك والكفر بالله والمعاصي أو الا بما كانوا يعملون على حذف الخافض ولما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار اتبعه بما فيه التسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان ان كفر الامم السابقة بمن أرسل اليهم من الرسل هو كائن مستمر في الاعصر الاول فقال (وما أرسلنا في قرية) من القرى (من نذير) ينذرهم ويحذرهم عقاب الله (الا قال مترفوها) حال من قرية وان كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي والمعنى قال متنعموها ورؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر لرسلهم (انا بما) أي بالذي (أرسلتم به) من الايمان والتوحيد (كافرون) عن أبي رزين قال كان رجلان شريكين خرج أحدهما الى الساحل وبقي الآخر فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتب الى صاحبه يسأله ما فعل فكتب اليه انه لم يتبعه أحد من قريش الا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الى ما تدعو قال الى كذا وكذا قال أشهد انك رسول الله قال وما علمك بذلك قال انه لم يبعث نبي الا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية فارسل اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد أنزل تصديق ما قلت ثم ذكر سبحانه ما افتخروا به من الاموال والاولاد وما قاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه

المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان عن فلان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنهم فقال الله أعلم بما كانوا عاملين قال فلقيت الرجل فاخبرني فامسكت عن قولي ومنهم عياض بن حمار المجاشعي قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته ان ربي عز وجل أمرني ان أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا كل ما نحلته عبادي حلال واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم ان يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ثم ان الله عز وجل نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب وقال انما بعثتك لابتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم ان الله أمرني ان أحرق قريشا فقلت رب اذا يثلغ رأسي فيدعه خبزة قال استخرجهم كما

الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا) والمعنى ان الله فضلنا عليكم بالاموال والاولاد فى الدنيا وذلك يدل على انه قد رضى ما نحن عليه من الدين (وما نحن بمعذبين) فى الآخرة بعد احسانه الينا فى الدنيا ورضاه عما أرادوا انهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرا الى أحوالهم فى الدنيا وظنوا انهم لولم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا ان المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فابطل الله ظنهم وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بان يجيب عنهم ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم وتحقيقا للحق الذى عليه يدور أمر التكوين وقال (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسطه له (ويقدر) أى يضيق على من يشاء ان يضيقه عليه فهو سبحانه قدير رزق الكافر والعاصى استدراجا له وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيرا لاجره وليس مجرد بسط الرزق لمن يبسطه له يدل على انه قد رضى عنه ورضى عمله ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على انه لم يرضه ولا رضى عمله بل كل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فقياس الدار الآخرة على الدار الاولى فى مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك ومن جملة هذا الاكثر من قاس أمر الآخرة على الاولى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته تعالى خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق والمعنى ليسوا بالخصلة التى تقربكم عندنا قربى قال مجاهد الزلفى القربى والزلفة القربة قال الاخفش زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا قال الفراء ان التى تكون للاموال والاولاد جميعا وهو الصحيح وقيل المعنى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتى الخ وذلك ان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث وقال الزجاج ان المعنى وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ثم حذف الخبر الاول لدلالة الثانى عليه ويجوز فى غير القرآن باللتين وباللاتى وباللواتى وبالذى للاولاد خاصة أى لا تزيدكم الاموال والاولاد عندنا درجة ورفعة ولا تقربكم تقريبا (الا من آمن) هو استثناء منقطع أى لكن من آمن (وعمل) عملا (صالحا) وقيل انه متصل على ان يجعل الخطاب عاما للكفرة والمؤمنين على انه ابتداء كلام لا مقول لهم (فاولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها (لهم جزاء الضعف) أى جزاء الزيادة وهى المرادة بقوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وهو من اضافة المصدر الى المفعول أى جزاء التضعيف للحسنات وقيل لهم جزاء الاضعاف لان الضعف فى معنى الجمع أو من اضافة الموصوف الى صفته أى لهم الجزاء المضاعف قال مجاهد أى تضعيف الحسنة وعن محمد بن كعب قال اذا كان الرجل غنيا تقيا آتاه الله أجره مرتين وتلا هذه الآية الى قوله فأولئك لهم جزاء الضعف وقال تضعيف الحسنة (بما عملوا) الباء للسببية (وهم فى الغرفات) أى غرفات الجنة قرئ بالجمع لقوله لنبوئنهم من الجنة غرفا وفى قراءة سبعية بالافراد بمعنى الجمع حملا لأل على انها جنسية لقوله أولئك يجزون الغرفة (آمنون) من كل هائل وشاغل وسائر المكاره ومن جميع ما يكرهون ثم لما ذكر سبحانه

استفزز بصوتك واغرهم بغرك وانفق قسمة تى عليك وابعث جيشا ابعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا والخائن الذى لا يخفى له طمع وان دق الا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسى الا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن قتادة به وقوله تعالى ذلك الدين القيم أى التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون أى فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله الآية وقوله تعالى منيبين اليه قال ابن زيد وابن جريج أى راجعين

حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال (والذين يسعون في آياتنا) بالرد لها وابطالها والطعن فيها حال كونهم (معاجزين) مسابقين لنا زاعمين انهم يفوتوننا بانفسهم أو معاندين لنا بكفرهم (أولئك في العذاب) أي عذاب جهنم (محضرون) تحضرهم الزبانية اليها لا يجدون عنها محيصا ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال (قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ليس في ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة وفي القارئ هذا في شخص واحد باعتبار وقتين أو في المؤمن وما سبق في شخصين أو في الكافر فلا تكرار ونحوه في البيضاوي قال الشهاب بل فيه تقرير لان التوسيع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان فانه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد (وما أنفقتم من شئ) على أنفسكم وعيالكم وقيل ما تصدقتم (فهو يخلفه) عليكم أي يعطي خلفه اذا كان في غير اسراف يقال أخلف له وأخلف عليه اذا أعطاه عوضه وبدله وذلك البدل اما في الدنيا واما في الآخرة أو فيهما معا اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد واما آجلا بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه وقال مجاهد هذا في الآخرة وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله أخرجه مسلم وقال ابن عباس في الآية يعني في غير اسراف ولا تقتير وعن مجاهد والحسن مثله وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلما أنفق العبد من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا الا نفقة في بنيان أو معصية أخرجه الدارقطني والبيهقي وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعا باطول منه وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله عز وجل أنفق يا ابن آدم أنفق عليك وثبت في الصحيح من حديثه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وعن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ثم قال اقرؤا مواضع الخلف فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه اذا لم تنفقوا كيف يخلف أخرجه ابن مردويه وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان المعونة تنزل من السماء على قدر المؤنة (وهو خير الرازقين) فان رزق العباد لبعضهم البعض انما هو بتيسير الله وتقديره وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز كما يقال في الرجل انه يرزق عياله وفي الامير انه يرزق جنده والرازق للامير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم ومن أخرج من العباد الى غيره شيأ فهو مما رزقه الله وأجراه على يده قال بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشتهٍ لا يجد وكم من واجد لا يشتهي (و) اذكر (يوم يحشرهم جميعا) هو متصل بقوله ولو ترى اذ الظالمون موقوفون أي ولو تراهم أيضا يوم يحشرهم الله جميعا للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف (ثم يقول

اليه واتقوه أي خافوه وراقبوه وأقيموا الصلاة وهي الطاعة العظيمة ولا تكونوا من المشركين أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه قال ابن جرير حدثني يحيى بن واضح حدثنا يونس عن ابن اسحق عن يزيد ابن أبي مريم قال مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر ما قوام هذه الآية قال معاذ ثلاث وهن المنجيات الاخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها والصلاة وهي الملة والطاعة وهي العصمة فقال عمر صدقت حدثني يعقوب أنبأنا ابن علية أنبأنا أيوب عن أبي قلابة ان عمر رضي الله عنه قال لمعاذ ما قوام هذا الامر فذكر نحوه وقوله تعالى من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم فارقوا دينهم أي تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وسائر أهل الاديان الباطلة

للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) أي يقول تقريعاً للمشركين وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وإنما خص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين قال النحاس والمعنى أن الملائكة إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين وارداً على المثل السائر إياك أعني فاسمعي يا جارة (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) مستأنفة أي تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ما اتخذناهم عابدين ولا توليناهم وليس لنا غيرك ولياً ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين وهم إبليس وجنوده ويزعمون أنهم يرونهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات الله وقيل كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها (أكثرهم بهم مؤمنون) أي أكثر المشركين بالجن مؤمنون مصدقون لهم فيما يقولون لهم قيل والأكثر في معنى الكل (فاليوم لا يملك بعضكم) وهم المعبودون (لبعض) وهم العابدون (نفعاً) أي شفاعة ونجاة (ولا ضراً) أي عذاباً وهلاكاً وإنما قيل لهم هذا القول إظهاراً لعجزهم وقصورهم وتبكيتاً لعابديهم وقوله ولا ضراً هو على حذف مضاف أي لا يملكون لهم دفع ضر والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الإخبار به عليه (ونقول للذين ظلموا) أنفسهم بعبادة غير الله (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) في الدنيا ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم فقال (وإذا تتلى عليهم آياتنا) القرآنية حال كونها (بينات) واضحات الدلالات ظاهرات المعاني على التوحيد (قالوا ما هذا) يعنون التالي لها وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أي أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها (وقالوا) ثانياً (ما هذا) يعنون القرآن الكريم (إلا إفك مفترى) أي كذب في حد ذاته غير مطابق للواقع مختلق على الله من حيث نسبته إليه فمفترى تأسيس لا تأكيد (وقال الذين كفروا) ثالثاً (للحق لما جاءهم) أي لأمر الدين الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن هذا إلا سحر مبين) وفي تكرير الفعل والتصريح بالفاعل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين وقيل أريد بالأول وهو قولهم إلا إفك مفترى معناه وبالثاني وهو قولهم إن هذا إلا سحر مبين نظمه المعجز وقيل إن طائفة منهم قالوا إنه إفك وطائفة قالوا إنه سحر وقيل إنهم جميعاً قالوا تارة إنه إفك وتارة إنه سحر والأول أولى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) أي ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية دالة على صحة الإشراك يدرسون فيها ويقرؤونها (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إلى الإشراك أو إلى الحق وينذرهم بالعذاب فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها قال قتادة ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال الفراء أي من أين كذبوك ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه ثم خوفهم

عما عدا أهل الإسلام كما قال تعالى إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله الآية فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية منهم فقال من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون أولم يروا أن الله يبسط الرزق

سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم فقال (وكذب الذين من قبلهم) أي من كفار القرون الخالية (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أي ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة والنعمة وكثرة المال والاولاد وطول الاعمار فأهلكهم الله كعاد وثمود وأمثالهم ولم تنفعهم قوتهم شيأ في دفع الهلاك عنهم حين كذبوا رسلهم فهؤلاء أولى بان يحل بهم العذاب لتكذيبهم رسولهم والمعشار لغة في العشر قال الجوهري معشار الشيء عشره وفي البحر المعشار مفعال من العشر ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع ومعناهما العشر والربع وقيل المعشار عشر العشر والاول أولى وقيل ان المعنى ما بلغ من قبلهم معشار ما آتيناه هؤلاء من البينات والهدى وقيل ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم وقيل ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان والاول أولى وقيل المعشار عشر العشير والعشير هو عشر العشر فيكون جزأ من ألف جزء قال الماوردي وهو الاظهر لان المراد به المبالغة في التقليل قلت مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لاجلها الخروج عن المعنى العربي وقال ابن عباس في الآية يقول من القوة في الدنيا وعن ابن جريج نحوه (فكذبوا رسلي) عطف على كذب الذين من قبلهم على طريقة التفسير كقوله كذبت قوم نوح فكذبوا عبدنا الآية والاولى ان يكون من عطف الخاص على العام لان التكذيب الاول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم فمعناه كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة وتكذيب الرسل أخص منه وان كان مستلزما له فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية وما بينهما حال أو اعتراض وقال البيضاوي لا تكرير لان الاول للتكثير والثاني للتكذيب ونحوه في الكشاف وبمثله قال الكرخي (فكيف كان نكير) أي فكيف كان انكاري لهم بالعذاب والعقوبة فليحذر هؤلاء من مثل ذلك قيل والتقدير فاهلكناهم فكيف نكيري والنكير اسم بمعنى الانكار ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال (قل انما أعظكم بواحدة) أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه وأوصيكم بخصلة واحدة وهي (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) فهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها أي هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا لان الاجتماع يشوش الفكر ويعمي البصر ويمنع من الروية ويقل الانصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع الا نصرة المذهب وليس المراد القيام على الرجلين والنهوض والانتصاب على القدمين بل المراد القيام بطلب الحق والاعتناء والاشتغال بالتدبر واحداق الفكر فيه كما يقال قام فلان بأمر كذا وقيل المراد بواحدة هي لا اله الا الله كذا قال مجاهد والسدي وقيل القرآن لانه يجمع المواعظ كلها والاولى ما ذكرناه وقال الزجاج المعنى لان تقوموا وقال السدي معنى مثنى وفرادى منفردا برأيه ومشاورا لغيره وقال القتيبي مناظرا مع عشيرته ومتفكرا في نفسه وقيل المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل قاله الماوردي وما أبرد هذا القول وأقل جدواه

لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يقول تعالى مخبرا عن الناس انهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له وانه اذا أسبغ عليهم النعم اذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره وقوله تعالى ليكفروا بما آتيناهم هي لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله فسوف يعلمون قال بعضهم والله لو توعدني حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا الذي يقول للشيء كن فيكون ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان أم أنزلنا عليهم سلطانا أي حجة فهو يتكلم أي ينطق بما كانوا به يشركون وهذا استفهام انكار

ونصبهما على الحال وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة فإذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزداد بصيرة قال الشاعر

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل غريبة * فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

(ثم تتفكروا) في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من الكتاب فإنكم عند ذلك تعلمون أن (ما بصاحبكم من جنة) وذلك لأنهم كانوا يقولون إن محمدا مجنون فقال الله سبحانه قل لهم اعتبروا أمري بواحدة وهي أن تقوموا لله وفي ذاته مجتمعين فيقول الرجل لصاحبه هلم فلنتصادق هل رأينا بهذا الرجل من جنة أي جنون أو جربنا عليه كذبا ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر فإن في ذلك ما يدل على أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم صادق وأنه رسول من عند الله وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون قال محمد بن كعب في الآية يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيتفكر ما بصاحبه من جنة وقال قتادة يقول إنه ليس بمجنون وقيل مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر عظيم والدعوى الكبيرة لا يعرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم حلما وأحدهم ذهنا وأرصنهم رأيا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به فوجب أن يصدقوه في دعواه لاستجماع انضمام المعجزة الواضحة وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتري الكذب ولا قد جربوا عليه كذبا مدة عمره وعمرهم وقيل ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون واختار أبو حاتم وابن الأنباري الوقف على قوله ثم تتفكروا وعلى هذا تكون جملة ما بصاحبكم من جنة مستأنفة كما قدمنا وقيل ليس بوقف لأن المعنى ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبا أو رأيتم منه جنة أو في أحواله من فساد (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) أي ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة أي قدامها وهو عذاب الآخرة وهو كقوله صلى الله عليه وآله وسلم بعثت بين يدي الساعة ثم أمره سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال (قل ما سألتكم من أجر) أي من جعل (فهو لكم) يقول لم أسألكم على الإسلام جعلا أي ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي في مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه والمراد نفي السؤال بالكلية كما يقول القائل ما أملكه في هذا فقد وهبته لك يريد أنه لا ملك له فيه أصلا ومثل هذه الآية قوله قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى وقوله ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ثم بين لهم أن أجره عند الله سبحانه فقال (إن أجري إلا على الله) لا على غيره (وهو على كل شيء شهيد) أي مطلع لا يغيب عنه منه شيء فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصحكم ودعائكم إليه إلا منه (قل إن ربي يقذف) القذف في الأصل الرمي بالسهم والحصى والكلام قال الكلبي يرمي على معنى يأتي به وقال مقاتل يتكلم (بالحق) وهو القرآن والوحي أي يلقيه إلى أنبيائه وقال قتادة بالحق أي بالوحي والمعنى أنه يبين الحجة

أي لم يكن شيء من ذلك ثم قال تعالى وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور أي يفرح في نفسه يفخر على غيره وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية قال الله تعالى إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء كما ثبت في الصحيح عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وقوله تعالى أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته

ويظهره الناس على ألسن رسله وقيل يرمى الباطل بالحق فيدمغه (علام الغيوب) قرئ برفع علام وبنصبه قال الفراء والرفع في مثل هذا أكثر كقوله ان ذلك لحق تخاصم أهل النار وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث في الغين وهو جمع غيب والغيب هو الامر الذى غاب وخفى جدا (قل جاء الحق) أى الاسلام والتوحيد وقال قتادة القرآن وقال النحاس التقدير صاحب الحق أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج وأقول لا وجه لتقدير المضاف فان القرآن قد جاء كما جاء صاحبه (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى ذهب الباطل ذهابا لم يبق له اقبال ولا ادبار ولا ابداء ولا اعادة فجعل مثلا في الهلاك بالمرة والابداء فعل الشئ ابتداء والاعادة فعله على طريق الاعادة ولما كان الانسان مادام حيا لايخلو عن ذلك كنى به عن حياته وبنفيه عن هلاكه ثم شاع ذلك في كل ماذهب ولم يبق له أثر وان لم يكن ذا روح فهو كناية أيضا أو مجاز متفرع على الكناية وقيل يجوز أن تكون ما استفهامية أى أى شئ يبديه وأى شئ يعيده وعن قتادة قال الشيطان لايبدئ ولا يعيد اذا هلك وعنه قال ماخلق ابليس شيأ ابتداء ولا يبعثه وبه قال مقاتل والكلبى وقيل الباطل الاصنام والاول أولى (قل ان ضللت) عن الطريق الحقة الواضحة وقرئ بفتح اللام وهذه لغة نجد وهى الفصيحة وبكسرها وهى لغة أهل العالية (فانما أضل) أى اثم ضلالى يكون (على نفسى) وقال عمر بن سعد أى انما أوخذ بجنايتى وذلك ان الكفار قالوا له تركت دين آبائك فضللت فأمره الله ان يقول لهم هذا القول (وان اهتديت فبما يوحى الى ربى) من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن وما مصدرية أو موصولة والتقابل هنا من جهة المعنى دون اللفظ (انه سميع قريب) منى ومنكم يعلم الهدى والضلالة وان بولغ في اخفائهما وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسوله ان يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال (ولو ترى اذ فزعوا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له قيل المراد فزعهم عند نزول الموت بهم أو غيره من بأس الله تعالى وقال الحسن هو فزعهم في القبور من الصيحة وقال قتادة هو فزعهم اذا خرجوا من قبورهم وقال السدى هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا الى التوبة وقال ابن معقل هو فزعهم اذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة وقال سعيد بن جبير هو الخسف الذى يخسف بهم في البيداء فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة (فلا فوت) أى فلا يفوتنى أحد منهم ولا ينجو منهم ناج قال مجاهد فلا مهرب وقال ابن عباس فلا نجاة (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض أو من القبور وهى قريبة من مساكنهم في الدنيا كما قاله أبو حيان أو قريب من موقف الحساب وقيل أى قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت وهذا على قول من يقول هذا الفزع عند النزع وقيل أخذوا من جهنم فألقوا فيها وقيل من حيث كانوا فهم من الله قريب لايبعدون عنه ولا يفوتونه وقال ابن عباس من تحت أقدامهم وعنه قال

وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (فآت ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) يقول تعالى آمرا باعطاء ذى القربى حقه أى من البر والصلة والمسكين وهو الذى لاشئ له ينفق عليه أوله شئ لايقوم بكفايته وابن السبيل وهو المسافر المحتاج الى نفقة ومايحتاج اليه في

رأت في منامها أن الناس يغزون في آخر الزمان الكعبة ليصيروها فلما يدخلون البيداء يخسف بهم وهو الخسف من مكان قريب ذكره القرطبي وقد ثبت في الصحيح أحاديث في جيش يخسف بهم في البيداء من حديث حفصة وعائشة وخارج الصحيح من حديث أم سلمة وصفية وأبي هريرة وابن مسعود وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة وقال في آخرها فذلك قوله عز وجل في سورة سبأ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت الآية وقيل يجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذي بمعنى الإجابة يقال فزع الرجل إذا أجاب الصارخ الذي يستغيثه كفزعهم إلى الحرب يوم بدر (وقالوا) وقت الفزع وهو وقت نزول العذاب بهم عند الموت كقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده أو عند البعث قال الكفار كلهم يؤمنون حينئذ (آمنا به) أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قاله قتادة أو بالقرآن وقال مجاهد بالله عز وجل وقال الحسن بالبعث ثم نفى الله عنهم نفع الإيمان بقوله (وأنى) أي من أين (لهم التناوش) أي التناول وهو تفاعل من النوش الذي هو التناول والمعنى كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد وهو في الآخرة وقد تركوه في الدنيا وهو معنى قوله (من مكان بعيد) وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة قال ابن السكيت يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه أو لحيته ناشه ينوشه نوشا ومنه المناوشة في القتال وذلك إذا تدانى الفريقان وقيل التناوش الرجعة أي وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا وقال ابن عباس قال يسألون الرد إلى الدنيا وليس بحين رد وقيل التناوش تناول الشيء وليس بحين ذلك وقال السدي هو التوبة أي طلبوها وقد بعدت لأنه إنما تقبل في الدنيا وقرئ التناوش بالواو وبالهمز واستبعد الثانية أبو عبيد والنحاس ولا وجه للاستبعاد فقد ثبت ذلك في لغة العرب وأشعارها قال الفراء الهمزة وتركها متقارب (وقد كفروا به من قبل) أي والحال أن قد كفروا بما آمنوا به من قبل هذا الوقت وذلك حال كونهم في الدنيا قيل بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب) أي يرمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في الرسول من المطاعن أو في العذاب من البت على نفيه يقولون لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الآخرة كما حكاه من قبل وقيل المعنى يقولون في القرآن أقوالا باطلة أنه سحر وشعر وأساطير الأولين وقيل يقولون في محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنه ساحر شاعر كاهن مجنون وقرئ يقذفون مبنيا للمفعول أي يرجمون بما يسوءهم من جراء عملهم من حيث لا يحتسبون وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه وهذا استعارة تمثيلية والجملة إما معطوفة على وقد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية واستحضار لصورتها أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم (وحيل بينهم) فعل مبني للمفعول وإذا بني للفاعل يقال فيه حال وهو فعل لا يتعدى ونائب الفاعل

سفره ذلك خير للذين يريدون وجه الله أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى وأولئك هم المفلحون أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه قد نهي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه وقال ابن عباس الربا رباآن فربا لا يصح يعني ربا البيع

ضمير المصدر المفهوم من الفعل كأنه قيل وحيل هو أى الحول وجعل بعضهم نائب الفاعل الظرف وهو بينهم واعترض بأنه ينبغى حينئذ ان يرفع (وبين ما يشتهون) من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك وقيل حيل بينهم وبين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم أو حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع الى الدنيا (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بأمثالهم ونظرائهم من كفار الامم الماضية الذين كانوا قبلهم فى الدنيا سابقين عليهم فى الزمان والاشياع جمع شيع وشيع جمع شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع فالاشياع جمع الجمع (انهم كانوا فى شك مريب) تعليل لما قبله أى فى شك موقع فى الريبة أو ذى ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار أو فى التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين يقال أراب الرجل اذا صار ذا ريبة فهو مريب وقيل هو من الريب الذى هو الشك والتهمة فهو كما يقال عجب عجيب وشعر شاعر وهذا رد على من زعم ان الله لا يعذب على الشك والله أعلم

(سورة فاطر وتسمى سورة الملائكة وهى خمس أو ست وأربعون آية وهى مكية)

قال القرطبى فى قول الجميع وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنزلت سورة فاطر بمكة وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد التى وصلت فيها النعم الاربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة وهى الايجاد الاول ثم الابقاء الاول ثم الايجاد الثانى المشار اليه بسورة سبأ ثم الابقاء الثانى الذى هو أنهاها وأحكمها وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء قاله الخطيب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وعلى غير مدة كذا قال المفسرون والظاهر ان هذا ليس من معنى الفطر لغة وانما أخذوه من المعنى وسياق الكلام وأصل الفطر فى اللغة الشق عن الشئ مطلقا يقال فطرته فانفطر ومنه فطر ناب البعير اذا طلع فهو بعير فاطر وتفطر الشئ تشقق وقيل الشق طولا فكأنه شق العدم باخراجهما منه وبابه نصر كما فى المختار والفطر أيضا الابتداء والاختراع وهو المراد هنا عن ابن عباس قال كنت لا أدرى ما فاطر حتى أتانى اعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع والمعنى الحمد لله مبدع السموات والارض ومخترعهما والمقصود من هذا ان من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الاعادة وانما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيما له وتعليما لعباده كيفية الثناء عليه تعالى قرئ فاطر على صيغة اسم الفاعل وفطر على صيغة الفعل الماضى (جاعل الملائكة رسلا) الى عباده يجوز فيه الوجهان كما تقدم والرسل من الملائكة هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل فالمراد بالملائكة بعضهم اذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم صرح الطيبى بان جاعل هنا للاستمرار فباعتبار انه يدل على المضى يصلح كونه صفة للمعرفة وباعتبار انه يدل على الحال والاستقبال يصلح للعمل وقرئ رسلا بسكون

و ربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها واضعافها ثم تلا هذه الآية وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وانما الثواب عند الله فى الزكاة ولهذا قال تعالى وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء فى الصحيح وما تصدق احد بعدل تمرة من كسب طيب الا اخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد وقوله عز وجل الله الذى خلقكم ثم رزقكم أى هو الخالق الرازق يخرج الانسان من بطن

السين وهي لغة تميم قال يحيى بن سلام يرسلهم الله الى الانبياء يبلغون اليهم رسالاته بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة وقال السدي الى العباد بنعمة أو نقمة أو يوصلون اليهم آثار صنعته (أولي) أي ذوي اسم جمع لذو (أجنحة) جمع جناح نعت لرسلا وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا أو للملائكة وهو جيد معنى اذ كل الملائكة لها أجنحة فهي صفة كاشفة والمسوغ للتخالف في التعريف جعل أل جنسية (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة والقصد منه التكثير واختلافهم في عدد الاجنحة لا الحصر والا فبعضهم له ستمائة وغير ذلك وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الاعداد عن صيغ الى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه وقد تقدم الكلام عليها في النساء قال قتادة بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وبعضهم له أربعة ينزلون بها من السماء الى الارض ويعرجون بها من الارض الى السماء أقول الاصل جناحان لانهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الاصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه (يزيد في الخلق ما يشاء) مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة والمعنى انه يزيد في خلق الملائكة والاجنحة ما يشاء وهو قول أكثر المفسرين واختاره الفراء والزجاج قال ابن مسعود رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل في صورته له ستمائة جناح وقيل ان هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة فقال الزهري وابن جريج انها حسن الصوت وقال قتادة الملاحة في العينين والحسن في الانف والحلاوة في الفم وقيل الوجه الحسن وقيل الخط الحسن وقيل الشعر الجعد وقيل العقل والتمييز وقيل العلوم والصنائع وقيل الصوت الحسن وجودة العقل ومتانته ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الاعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الامور وذلاقة في اللسان ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف وبه قال الزمخشري (ان الله على كل شيء قدير) تعليل لما قبله من انه يزيد في الخلق ما يشاء (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) أي ليس لك من الامر شيء فما يأتيهم الله به من مطر ورزق ونعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لا يحاط به لا يقدر أحد أن يمسكه وقال ابن عباس ما يفتح الله للناس من باب توبة فلا ممسك لها هم يتوبون ان شاؤوا وان أبوا وما أمسك من باب توبة فلا مرسل له من بعده وهم لا يتوبون واستعير الفتح للاطلاق والارسال ايذانا بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالا وتنكير الرحمة للاشاعة والابهام كأنه قيل أي رحمة كانت سماوية أو أرضية والعموم مفهوم من اسم الشرط ومن رحمة بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزئ فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمات ومن في موضع الحال وقيل المعنى ان الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على ارسالهم غير الله وقيل هو الدعاء وقيل

أنه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والاملاك والمكاسب كما قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن سلام بن شرحبيل عن حبة وسواء ابني خالد قالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلح شيئا فأعناه فقال لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما فان الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل وقوله تعالى ثم يميتكم أي بعد هذه الحياة ثم يحييكم أي يوم القيامة وقوله تعالى هل من شركائكم أي الذين تعبدونهم من دون الله من

التوبة وقيل التوفيق والهداية ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه (وما يمسك) من ذلك (فلا مرسل له من بعده) أى لا يقدر أحد ان يرسله من بعد امساكه والامساك يتناول كل شئ يمنعه الله من نعمه فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه ولا منعم غيره (وهو العزيز الحكيم) فيما أمسك وفيما أرسل على مقتضى حكمته ثم أمر الله سبحانه عباده ان يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التى لا تعد ولا تحصى كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فقال (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) قيل الخطاب لاهل مكة ونعمة الله عليهم اسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم وقيل لجميع الناس ونعمة الله عليهم هى التى تقدمت من بسط الارض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وارسال الرسل لبيان السبيل دعوة اليه وزلفة لديه والزيادة فى الخلق وفتح أبواب الرزق ومعنى هذا الذكر هو ارشادهم الى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها وليس المراد ذكرها باللسان فقط ولكن المراد ذكرها به وبالقلب أى لا تنسوها والنعمة هنا بمعنى الانعام وعليه درج الجلال وقيل انها بمعنى المنعم به ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله (هل من خالق غير الله) من زائدة مؤكدة أى لا خالق الا الله سبحانه وهو استفهام تقرير وانكار وتوبيخ (يرزقكم من السماء والارض) خبر المبتدأ أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق وخبره محذوف والرزق من السماء بالمطر ومن الارض بالنبات وغير ذلك (لا اله الا هو) مستأنفة مسوقة لتقرير النفى المستفاد من الاستفهام (فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون وهو مأخوذ من الافك بالفتح وهو الصرف يقال ما أفكك عن كذا أى ما صرفك عنه وقيل هو مأخوذ من الافك بالكسر وهو الكذب لانه مصروف عن الصدق قال الزجاج أى من أين يقع لكم الافك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بان الله خلقكم ورزقكم ثم عزى الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ليتأسى بمن قبله من الانبياء ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ولهذا نكر رسلا أى رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم لانه أسلى له وجواب الشرط محذوف أى فاصبر كما صبروا ودل عليه قوله فقد كذبت الخ (والى الله) لا الى غيره (ترجع الامور) فيجازى كلا بما يستحقه قرئ ترجع بفتح التاء على البناء للفاعل وبضمها على البناء للمفعول (يا أيها الناس ان وعد الله) بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار (حق) كما أشير اليه بقوله والى الله ترجع الامور (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بزخرفها ونعيمها والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهى صورة اليها كما فى قولهم لا أرينك ههنا قال سعيد بن جبير غرور الحياة الدنيا ان يشتغل الانسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى والمعنى لا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله تعالى (ولا يغرنكم بالله) فى حلمه وامهاله (الغرور) بفتح الغين أى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان قاله ابن السكيت وأبو حاتم ويجوز ان يكون مصدرا

يفعل من ذلكم من شئ أى لا يقدر أحد منهم على فعل شئ من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله سبحانه وتعالى عما يشركون أى تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن ان يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

واستبعده الزجاج لأن غررته متعدٍّ ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضربا إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ومعنى الآية لا يغرنكم الشيطان بالله فيقول لكم إن الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضله عليكم أو لسعة رحمته لكم وقرئ بضم الغين وهو الباطل قال ابن السكيت والغرور بالضم ما يغر من متاع الدنيا وقال الزجاج يجوز أن يكون الغرور بالضم جمع غارّ مثل قاعد وقعود قيل ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزوم والنهوك وفيه ما تقدم عن الزجاج من الاستبعاد ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال (إن الشيطان لكم عدو) ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله والتنكير للتعظيم أي عدو عظيم لأن عداوته عامة قديمة والعموم يفهم من قوله لكم حيث لم يخص بعضا دون بعض والتقدم من الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار (فاتخذوه عدوا) أي فعادوه بطاعة الله ولا تطيعوه في معاصي الله وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأفعالكم وعقائدكم عن صميم قلوبكم وإذا فعلتم فعلا فقط والله فانه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح قال القشيري ولا يقوى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب فإنه لا يغفل عن عداوتكم ولا تغفلوا أنتم عن مولاكم لحظة ذكره الخطيب ثم بين الله سبحانه لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم وحذرهم عن طاعته فقال (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أي إنما يدعو أشياعه وأتباعه والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار واللام للتعليل ومحل الموصول في قوله (الذين كفروا) الرفع على الابتداء وقوله (لهم عذاب شديد) خبره أو الرفع على البدل من فاعل يكونوا أو النصب على البدل من حزبه أو الجر على البدل من أصحاب والرفع على الابتداء أقوى الوجوه لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه فالفريق الأول قال لهم عذاب شديد والفريق الثاني قال فيه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ويعطيهم أجرا كبيرا وهو الجنة قال ابن جريج كل شيء في القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ورزق كريم فهو الجنة (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين عاقبتي الفريقين ومن في موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف قال الكسائي والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات قال ويدل عليه قوله فلا تذهب الخ قال وهذا كلام عربي طريف لا يعرفه إلا القليل وقال الزجاج تقديره كمن هداه وقدره غيرهما كمن لم يزين له وهذا أولى لموافقته لفظا ومعنى وقد وهم صاحب الكشاف فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائي قال النحاس والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف والمعنى أن الله عز وجل نهى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم كما قال فلعلك باخع نفسك قيل التقدير أفمن زين الخ تريد أن تهديه إنما ذلك إلى الله لا إليك والذي إليك هو التبليغ قال قتادة والحسن الشيطان زين لهم هي والله الضلالات وقيل نفسه الأمارة وهواه القبيح وهو من إضافة الصفة للموصوف أي عمله السيء قال ابن

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم المراد بالبر هنا الفيافي وبالبحر الأمصار والقرى وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف وقال زيد بن رفيع ظهر الفساد يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط وعن البحر تعمى دوابه رواه ابن أبي حاتم وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ظهر الفساد في البر والبحر قال فساد البر قتل ابن آدم وفساد البحر أخذ السفينة غصبا

عباس نزلت في أبي جهل ومشركي مكة وقيل نزلت في أصحاب الأهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لانهم يعتقدون تحريمها مع ارتكابهم اياها وحملها (فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) مقررة لما قبلها او محققة للحق ببيان ان الكل بمشيئته أي يضل من يشاء ان يضله ويهدي من يشاء ان يهديه وهذه الآية ترد على القدرية قولهم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أي لا تحزن عليهم قرئ بفتح الفوقية والهاء مسند الى النفس فيكون من باب لا أرينك ههنا أي لا تتعاط أسباب ذلك وقرئ بضم التاء وكسر الهاء ونصب نفسك أي فلا تهلكها عليهم أي على عدم ايمانهم وقوله حسرات مفعول لاجله والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه على كثرة قبائحهم الموجبة للتأسف والتحسر عليهم ويجوز ان ينتصب حسرات على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه وقال المبرد انها تمييز وعليهم صلة لتذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا والحسرة شدة الحزن وهم النفس على مافات من الامر وأشد التلهف على الشيء الفائت تقول حسر على الشيء من باب طرب وحسرة أيضا فهو حسير (ان الله عليم بما يصنعون) لا تخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ليتفكروا في ذلك وليعتبروا به فقال (والله الذي أرسل الرياح) قرأ الجمهور بالجمع وقرئ الريح بالافراد وهي سبعية عن ابن مسعود قال يقوم ملك بالصور بين السماء والارض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله في السموات والارض الا من شاء الله الا مات ثم يرسل الله من تحت العرش منيا كمني الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الارض من الثرى ثم قرأ هذه الآية (فتثير سحابا) جاء بالمضارع بعد الماضي استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة لان ذلك أدخل في اعتبار المعتبرين والمعنى انها تزعجه وتحركه من حيث هو (فسقناه) فيه التفات عن الغيبة وقال أبو عبيدة سبيله فتسوقه لانه قال فتثير سحابا قيل النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق (الى بلد) هو يذكر ويؤنث والبلدة البلد (ميت) أي أرض ليس بها نبات ولا مرعى قال المبرد ميت وميت واحد وقال هذا قول البصريين (فأحيينا به الارض) أي أحيينا بالمطر النازل منه الارض بانبات النبات فيها وان لم يتقدم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه أو أحيينا بالسحاب لانه سبب المطر (بعد موتها) أي بعد يبسها استعار الاحياء للنبات والموت لليبس (كذلك النشور) أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الارض بعد موتها والنشور البعث من نشر الانسان نشورا أي مثل احياء موات الارض في صحة المقدورية وسهولة التأتي احياء الاموات اذ ليس بينهما الا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها فكيف تنكرونه وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيه به عن أبي رزين العقيلي قال قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى قال أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء قلت بلى قال كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور

وقال عطاء الخراساني المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره والقول الاول أظهر وعليه الاكثرون ويؤيده ما قاله محمد بن اسحق في السيرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك ايلة وكتب اليه ببحره يعني ببلده ومعنى قوله تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي وقال أبو العالية من عصى الله في الارض فقد أفسد في الارض لان صلاح الارض والسماء بالطاعة ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود لحد يقام في الارض أحب الى اهلها من أن يمطروا أربعين صباحا والسبب في هذا أن الحدود اذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات واذا تركت المعاصي كان سببا في حصول البركات في السماء والارض ولهذا اذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر

أخرجه أحمد والبيهقي والطبراني وغيرهم (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) فليطلبها
منه لا من غيره قال الفراء معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فإنها لله جميعا وقال قتادة من
كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله فجعل معنى فلله العزة الدعاء إلى طاعة من له العزة كما
يقال من أراد المال فالمال لفلان أي فليطلبه من عنده وقال الزجاج تقديره من كان
يريد بعبادة الله العزة فالعزة له سبحانه فإن الله عز وجل يعزه في الدنيا والآخرة وقيل المراد به
المشركون فإنهم كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله واتخذوا من دون الله آلهة
ليكونوا لهم عزا وقيل المراد الذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا أنفسهم الذين
يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والظاهر في معنى الآية
أن من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل فلله العزة جميعا ليس لغيره منها شيء
فتشمل الآية كل من طلب العزة ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من
أين تنال العزة وتستحق ومن أي جهة تطلب فتكون الألف واللام للاستغراق وهو
المفهوم من آيات هذه السورة (إليه) تعالى لا إلى غيره (يصعد الكلم الطيب) الصعود
والحركة إلى فوق وهو العروج أيضا وموضع الثواب فوق وموضع العذاب أسفل
ومعنى صعوده إليه قبوله له أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف وخص
الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيبا من
ذكر الله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتلاوة وغير ذلك فلا وجه لتخصيصه بكلمة
التوحيد أو بالتحميد والتمجيد وقيل المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا وقيل يصعد
إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم وفيه دليل على علوه تعالى فوق الخلق
وكونه بائنا منهم بذاته الكريمة كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة والأحاديث
المستفيضة الصحيحة وقيل المراد بصعوده علم الله به والأولى ما ذكرناه أولا (والعمل الصالح
يرفعه) أي يرفع الكلم الطيب كما قال الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد
وقتادة وأبو العالية والضحاك ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح وقيل
إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب ومفعوله العمل الصالح ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل
إلا مع التوحيد والإيمان وقيل إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل والمعنى أن الله
يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب لأن العمل يحقق الكلام وقيل العمل الصالح يرفع
صاحبه وهو الذي أراد العزة وقال قتادة المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه أي
يقبله فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع وكذا على قول من قال يرفع صاحبه
قرأ الجمهور يصعد من صعد الثلاثي والكلم بالرفع على الفاعلية وقرأ علي وابن مسعود
يصعد بضم حرف المضارعة من أصعد والكلم بالنصب على المفعولية وقرأ الضحاك على
البناء للمفعول وقرأ الجمهور الكلم وقرأ أبو عبد الرحمن الكلام وقرؤوا العمل بالرفع على
العطف أو على الابتداء وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال عن ابن
مسعود في الآية قال إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله سبحانه إن
العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله

الصلاة ووضع الجزية وهو تركها
فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف
فإذا أهلك الله في زمانه الدجال
وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل
للأرض أخرجي بركتك فيأكل
من الرمانة الفئام من الناس
ويستظلون بقحفها ويكفي لبن
اللقحة الجماعة من الناس وما ذاك
إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد صلى
الله عليه وسلم فكلما أقيم العدل
كثرت البركات والخير وثبت في
الصحيح أن الفاجر إذا مات تستريح
منه العباد والبلاد والشجر
والدواب ولهذا قال الإمام أحمد
ابن حنبل حدثنا محمد والحسين
قالا حدثنا عوف (١) عن أبي قحذم
قال وجد في زمان زياد صرة فيها
حب يعني من بر أمثال النوى
مكتوب فيها هذا نبت في زمان كان
يعمل فيه بالعدل وروى مالك عن
زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا
الشرك وفيه نظر وقوله تعالى
ليذيقهم بعض الذي عملوا الآية
أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس
والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة

(١) في نسخة أخرى ابن أبي قحذم
وحرر اهـ مصححه

قبض

قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ثم يصعد بهن الى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن ثم قرأ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال أداء الفرائض فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به الى الله ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وكان عمله أولى به أخرجه الطبراني والبيهقي والحاكم وصححه وغيرهم (والذين يمكرون السيئات) ليس مفعولا به لان مكر لازم فانتصابه على انه صفة لمصدر محذوف أي يمكرون المكرات السيئات ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون فيكون السيئات مفعولا به قال مجاهد وقتادة هم أهل الريا وقال أبو العالية هم الذين مكروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما اجتمعوا في دار الندوة وقال الكلبي هم الذين يعملون السيئات في الدنيا وقال مقاتل هم المشركون (لهم عذاب شديد) أي بالغ الغاية في الشدة (ومكر أولئك هو يبور) أي يهلك ويفسد ويبطل ومنه وكنتم قوما بورا وقد أبارهم الله ابارة بسبب مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه بواحدة منها والمكر في الاصل الخديعة والاحتيال والاشارة بقوله أولئك الى الذين مكروا السيئات على اختلاف الاقوال في تفسير مكرهم وجملة هو يبور خبر مكر أولئك ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على صحة البعث والنشور فقال (والله خلقكم) ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم (من تراب) وقال قتادة يعني آدم والتقدير على هذا خلق أباكم الاول وأصلكم الذي ترجعون اليه من تراب (ثم من نطفة) أخرجها من ظهر أبيكم (ثم جعلكم أزواجا) أي زوج بعضكم ببعض فالذكر زوج الانثى أو جعلكم أصنافا ذكرانا واناثا (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) أي لا يكون حمل ولا وضع الا والله عالم به فلا يخرج شيء من علمه وتدبيره ومن زائدة (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب) قرئ ينقص مبنيا للمفعول وللفاعل ومن عمره بضم الميم وبسكونها والمعنى ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره الا في اللوح المحفوظ قال الفراء يريد آخر غير الاول فكنى عنه بالضمير كأنه الاول لان لفظ الثاني لو ظهر كان كالاول كأنه قال ولا ينقص من عمر معمر فالكناية في عمره ترجع الى آخر غير الاول ومثله قولك عندي درهم ونصفه أي نصف آخر قيل انما سمي معمرا باعتبار مصيره اليه والمعنى ما يمد في عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدا بل على معنى انه لا يجعل من الابتداء ناقصا الا وهو في كتاب قال سعيد بن جبير وما يعمر من معمر الا كتب عمره كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة نقص من عمره يوم نقص من عمره شهر نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله فما مضى من أجله فهو النقصان وما يستقبل فهو الذي يعمره قال النسفي هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس

على صنيعهم لعلهم يرجعون أي عن المعاصي كما قال تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ثم قال تعالى قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل أي من قبلكم كان أكثرهم مشركين أي فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم (فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين) يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة الى الاستقامة في طاعته والمبادرة الى الخيرات فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله أي يوم القيامة اذا أراد كونه فلا راد له يومئذ يصدعون أي يتفرقون ففريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا قال تعالى من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من

يقولون لا يزيد الله في عمره إذا أراد نقصه الأجل أو تأويل الآية أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك نقصان عمره أي وقال قتادة المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين وقيل المعنى إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع ودونه إن عصى فأيهما بلغ فهو في كتاب والضمير في من عمره يرجع إلى معمر وقيل المعنى وما يعمر من معمر إلى الهرم ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب الله أي بقضاء الله قاله الضحاك واختاره النحاس قال وهو أشبه بظاهر التنزيل والأولى أن يقال ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضي التطويل وأسباب تقتضي التقصير فمن أسباب التطويل ما ورد في صلة الرحم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره أي يؤخر في عمره فليصل رحمه ونحو ذلك ومن أسباب التقصير الاستكثار من معاصي الله سبحانه فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان والكل في كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية وبين قوله سبحانه فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويؤيد هذا قوله سبحانه يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقد قدمنا في تفسير هاتين الآيتين ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحا وبيانا قال ابن عباس في الآية يقول ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت له ذلك فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه وليس أحد قضيت عليه أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله ولا ينقص من عمره إلا في كتاب يقول كل ذلك في كتاب عنده وأخرج أحمد ومسلم وأبو عوانة وابن حبان والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول أي رب أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله ويكتبان ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قالت أم حبيبة اللهم أمتعني بزوجي النبي وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنك سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل الله شيئا قبل حله أو يؤخر شيئا ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء وأنه يعتلج هو والقضاء وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر فلا معارضة بين الأدلة كما قدمنا (إن ذلك) أي ما سبق من الخلق وما بعده (على الله يسير) لا يصعب عليه شيء ولا يعزب عنه كثير ولا قليل ولا كبير ولا صغير ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته فقال (وما يستوي البحران هذا) أي أحدهما (عذب فرات) شديد العذوبة (سائغ شرابه) مريء سهل انحداره في الحلق لعذوبته (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة وقيل هو الذي

فضله أي يجازيهم مجازاة الفضل الجسيمة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله إنه لا يحب الكافرين ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ولهذا قال تعالى وليذيقكم من رحمته أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ولتجري الفلك بأمره أي في البحر وإنما سيرها بالريح ولتبتغوا من فضله أي في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ولعلكم تشكرون أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى ثم قال تعالى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم

بحرق الحلق بملوحته فالمراد بالبحرين العذب والمالح فالعذب الفرات الحلو والاجاج المر وقرئ سيغ مشددا وقرئ ملح بفتح الميم وقيل المقصود من الآية ضرب مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر (ومن كل) منهما (تأكلون لحما طريا) وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل وهذا وما بعده اما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة للتمثيل والمعنى كأنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته كذلك لا يساوي الكافر المؤمن وان شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من النفع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة الخ قاله أبو السعود (وتستخرجون حلية) وهي اللؤلؤ والمرجان وهو صغار اللؤلؤ وقال الطرطوشي هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف وهكذا شاهدناه بمغارب الارض كثيرا انتهى والظاهر ان المعنى وتستخرجون منهما حلية وقال المبرد انما تستخرج الحلية من المالح وروى عن الزجاج انه قال انما تستخرج الحلية منهما اذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده ورجح النحاس قول المبرد ومعنى (تلبسونها) تلبسون كل شئ منها بحسبه كالخاتم في الاصبع والسوار في الذراع والقلادة في العنق والخلخال في الرجل ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما (وترى الفلك فيه) أي في كل واحد من البحرين وقال النحاس الضمير يعود الى المالح خاصة ولولا ذلك لقال فيهما (مواخر) يقال مخرت السفينة تمخر اذا شقت الماء بجريها فيه فالمعنى وترى السفن في البحرين شواق للماء بعضها مقبلة وبعضها مدبرة بريح واحدة وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل (لتبتغوا من فضله) أي فعل ذلك لتبتغوا قال مجاهد ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر الى البلدان البعيدة في المدة القريبة كما تقدم في البقرة (ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم به عليكم من ذلك (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي يضيف بعض أجزائهما الى الآخر فيزيد في أحدهما بالنقص في الآخر وقد تقدم تفسيره في آل عمران وفي مواضع من الكتاب العزيز (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلاف الصيغة لما ان ايلاج احد الملوين في الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تجدد ولا تعدد فيه وانما المتعدد المتجدد آثاره (كل) منهما (يجري) في فلكه (لاجل مسمى) قدره الله لجريانهما وهو يوم القيامة وقيل هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك وهو سنة للشمس وشهر للقمر وقيل المراد به جري الشمس في اليوم والقمر في الليلة وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان (ذلكم) أي الفاعل لهذه الافعال المتقدمة من أول السورة الى هنا وهو مبتدأ وخبره (الله ربكم له الملك) أي هذا الذي من صنعته ما تقدم هو الخالق المقدر والقادر والمقتدر المالك للعالم والمتصرف فيه ويجوز أن يكون قوله

بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه وان كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤا أممهم به من الدلائل الواضحات ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم وكان حقا علينا نصر المؤمنين أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا كقوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا موسى بن أعين عن ليث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية وكان حقا علينا نصر المؤمنين (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا

لله الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)
أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه والقطمير القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة
والنواة وتصير عليها كاللفافة لها وقال المبرد هو شق النواة وقال قتادة هو القمع
الذي على رأس النواة قال الجوهري ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت
منها النخلة وقال ابن عباس القطمير القشر وقيل الخيط الذي يكون على ظهر النواة
ومعلوم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة الفتيل وهو ما في شق النواة
والقطمير وهو اللفافة والثفروق وهو ما بين القمع والنواة والنقير وهو ما في ظهرها
ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون فقال
(إن تدعوهم) أي إن تستغيثوا بهم في النوائب (لا يسمعوا دعاءكم) لكونها
جمادات لا تدرك شيئا من المدركات (ولو سمعوا) فرضا وتقديرا (ما استجابوا لكم) لعجزهم
عن ذلك قال قتادة المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم وقيل المعنى لو جعلنا لهم عقولا وحياة
فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولما استجابوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر
(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أي يتبرءون من عبادتكم لهم ويقولون ما كنتم إيانا
تعبدون ويجوز أن يرجع والذين تدعون من دونه وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم
الكفار وهم الملائكة والجن والشياطين والمعنى أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه
حقا وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم كما أخبر الله عن عيسى بقوله ما يكون لي أن
أقول ما ليس لي بحق قال القرطبي ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا أي يحييها الله
حتى تخبر بأنها ليست أهلا للعبادة (ولا ينبئك مثل خبير) أي لا يخبرك أيها المفتون
بأسباب الغرور مثل من هو خبير بالأشياء عالم بخفيات الأمور وهو الله سبحانه فإنه لا أحد
أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها ثم ذكر
سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال (يا أيها الناس أنتم الفقراء)
المحتاجون (إلى الله) في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء إليه على الإطلاق في
أنفسهم وفيما يعرض لهم من سائر الأمور وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم
لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى
فقرهم غير معتد به ولذلك قال وخلق الإنسان ضعيفا ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل
للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغنى الذي هو مطمح الأغنياء فقال (والله
هو الغني) على الإطلاق (الحميد) المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم ثم ذكر سبحانه
نوعا آخر من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه واستغناؤه عنهم فقال (إن يشأ
يذهبكم) يفنكم إلى العدم ويهلككم وفيه بلاغة كاملة أي ليس إذهابكم موقوفا إلا على
مشيئته ثم زاد على بيان الاستغناء قوله (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) يطيعونه
ولا يعصونه أو يأت بنوع من أنواع الخلق وعالم من العوالم غير ما تعرفون (وما ذلك)
الإذهاب لكم والإتيان بآخرين (على الله بعزيز) أي بممتنع ولا متعسر وقد مضى
تفسير هذا في سورة إبراهيم (ولا تزر) أي لا تحمل نفس (وازرة) آثمة (وزر) إثم نفس

أصاب به من يشاء من عباده إذا هم
يستبشرون وإن كانوا من قبل أن
ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر
إلى آثار رحمة الله كيف يحيي
الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي
الموتى وهو على كل شيء قدير ولئن
أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من
بعده يكفرون) يبين تعالى كيف
يخلق السحاب التي ينزل منه الماء
فقال تعالى الله الذي يرسل الرياح
فتثير سحابا إما من البحر كما ذكره غير
واحد أو مما يشاء الله عز وجل
فيبسطه في السماء كيف يشاء أي
يمده فيكثره وينميه ويجعل من
القليل كثيرا ينشئ سحابة ترى في
رأي العين مثل الترس ثم يبسطها
حتى تملأ أرجاء الأفق وتارة يأتي
السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة
ماء كما قال تعالى وهو الذي يرسل
الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى
إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد
ميت إلى قوله كذلك نخرج الموتى
لعلكم تذكرون وكذلك قال هاهنا
الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا
فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله
كسفا قال مجاهد وأبو عمرو بن

(أخرى)

(أخرى) فحذف الموصوف للعلم به بل كل نفس تحمل وزرها ولا تخالف هذه الآية قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع اثقالهم لانهم انما حملوا أثقال اضلالهم مع اثقال ضلالهم والكل من أوزارهم لامن أوزار غيرهم ومثل هذا حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فان الذي سن السنة السيئة انما حمل وزر سنته السيئة وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الاحوص ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في حجة الوداع ألا لايجني جان الا على نفسه لايجني والد على ولده ولا مولود على والده وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم عن أبي رمثة قال انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأيته قال لابي ابنك هذا قال اى ورب الكعبة قال أما انه لايجني عليك ولا تجني عليه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قال ابن عباس يلقى الاب والام الابن فيقولان له يابني احمل عنا بعض ذنوبنا فيقول لا استطيع حسبي ما علي (وان تدع مثقلة الى حملها) قال الفراء أي نفس مثقلة بالذنوب قال وهذا يقع للمذكر والمؤنث قال الاخفش أي وان تدع مثقلة انسانا الى حملها وهو ذنوبها والحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه والجمع احمال وحمول وحملت المتاع حملا من باب ضرب فأنا حامل والانثى حاملة بالتاء لانها صفة مشتركة قال ابن السكيت الحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس شجرة والحمل بالكسر ما كان على ظهر أو رأس قال الازهري وهذا هو الصواب وهو قول الاصمعي وقال امرأة حامل وحاملة اذا كانت حبلى (لايحمل منه) أي من حملها (شئ) قال ابن عباس لكونه عليه وزر لايجد أحدا يحمل عنه من وزره شيأ (ولو كان ذا قربى) أي ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها لم يحمل من حملها شيأ ومعنى الآية وان تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى الى حمل شئ من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيأ ولو كانت قريبة لها من النسب كالاب والام والابن والاخ فكيف بغيرها ممن لاقرابة بينها وبين الداعية لها وقرئ ذو قربى على ان كان تامة كقوله وان كان ذو عسرة قال الزمخشري ونظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لان المعنى على ان المثقلة اذا دعت أحدا الى حملها لايحمل منه ولو كان مدعوها ذا قربى وهو ملتئم ولو قلت ولو وجد ذو قربى لخرج عن التئامه انتهى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالانذار أي انهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ويخشونه في الخلوات عن الناس قال الزجاج تأويله ان انذارك انما ينفع الذين يخشون ربهم فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الانذار كقوله انما أنت منذر من يخشاها وقوله انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب (وأقاموا الصلاة) أي احتفلوا بأمرها ولم يشتغلوا عنها بشئ مما يلهيهم وأداموها (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) وقرئ من أزكى فانما يزكى لنفسه والتزكى التطهر من ادناس الشرك والفواحش والمعنى ان من تطهر بترك المعاصي واستكثر من العمل الصالح فانما

العلاء ومطر الوراق وقتادة يعني قطعا وقال غيره مترا كما كما قاله الضحاك وقال غيره المسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الارض وقوله تعالى فترى الودق يخرج من خلاله اى فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون أى لحاجتهم اليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله اليهم وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين معنى الكلام ان هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزليين من نزول المطر اليهم قبل ذلك فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيما وقد اختلف النحاة في قوله من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فقال ابن جرير هو تأكيد وحكاه عن بعض أهل العربية (١) وقال آخرون من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله أي الانزال لمبلسين ويحتمل ان يكون ذلك من دلالة التأسيس ويكون معنى الكلام انهم كانوا محتاجين اليه

(١) قوله وقال آخرون الى قوله لمبلسين هذه العبارة زائدة في بعض النسخ ولعلها عين ماقبلها فتأمل اه مصححه

يتطهر لنفسه لان نفع ذلك مختص به كما ان وزر من تدنس لا يكون الا عليه لا على غيره (والى الله المصير) لا الى غيره ذكر سبحانه أولا انه لا يحمل أحد ذنب أحد ثم ذكر ثانيا ان المذنب ان دعا غيره وان كان من قرابته الى حمل شئ من ذنوبه لا يحمله ثم ذكر ثالثا ان ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شئ ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر وقد قرر بيان التنافى أولا بين ذاتيهما وثانيا بين وصفيهما وثالثا بين مستقريهما وداريهما فى الآخرة فقال (وما يستوى الاعمى) أى المسلوب حاسة البصر واستوى من الافعال التى لا يكتفى فيها بواحد فلو قلت استوى زيد لم يصح فمن ثم لزم العطف على الفاعل أو تعدده (والبصير) الذى له ملكة البصر فشبه الكافر بالاعمى وشبه المؤمن بالبصير وقيل مثل للجاهل والعالم (ولا) تستوى (الظلمات ولا النور) فشبه الباطل بالظلمات وشبه الحق بالنور قيل انما جمع الظلمات وأفرد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) بالفتح شدة حر الشمس وهو خلاف البرد قال حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حرا وحرورا من بابى ضرب وقعد لغة والاسم الحرارة فهو حار وحرت النار تحر من باب تعب توقدت واستعرت والحرة بالفتح أرض ذات حجارة سود والجمع حرار مثل كلبة وكلاب والحرور وزان رسول الريح الحارة قال الاخفش لا يكون الحرور الا مع شمس النهار والسموم يكون بالليل وقيل عكسه وقال رؤبة بن العجاج الحرور يكون بالليل خاصة والسموم يكون بالنهار خاصة وقال الفراء السموم لا يكون الا بالنهار والحرور يكون فيهما قال النحاس وهذا أصح وقال قطرب الحرور الحر والظل البرد والمعنى انه لا يستوى الظل الذى لا حر فيه ولا أذى والحر الذى يؤذى قيل أراد الثواب والعقاب وسمى الحر حرورا مبالغة فى شدة الحر لان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال الكلبى أراد بالظل الجنة وبالحرور النار وقال عطاء يعنى ظل الليل وشمس النهار ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن والكافر وهو أبلغ من الاول فقال (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) فشبه المؤمنين بالاحياء وشبه الكافرين بالاموات وهو أبلغ من الاول لكمال التنافى بين الحى والميت ولذلك أعيد الفعل وأما التنافى بين الاعمى والبصير فليس تاما لامكان اشتراكهما فى كثير من الادراكات وقال ابن قتيبة الاحياء العقلاء والاموات الجهال قال قتادة هذه كلها أمثال اى كما لا يستوى هذه الاشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن وقد زيدت لا فى المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين فى الاولى واثنتين فى الثانية وواحدة فى الثالثة والكل لتأكيد نفى الاستواء فلزيادة شاملة لاصل زيادتهما كالاولى من الجملة الاولى ولتكريرها كالثانية منها (ان الله يسمع من يشاء) ان يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ووفقهم لطاعته وهذا شروع فى تسلية النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتتمة بقوله فكيف كان نكير والمراد من قوله يسمع يهدى ويوصل من يشاء وصوله وهدايته فيحييه بالايمان (وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم اى كما لا يسمع من مات كذلك لا يسمع من مات قلبه قرئ بتنوين مسمع وقطعه عن الاضافة وباضافته (ان أنت الا نذير) أى ما أنت الا رسول

قبل نزوله ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت فترقبوه فى ابانه فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم بغتة بعد الاياس منه والقنوط فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى فانظر الى آثار رحمة الله يعنى المطر كيف يحيى الارض بعد موتها ثم نبه بذلك على احياء الاجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى ان ذلك لمحيى الموتى أى ان الذى فعل ذلك لقادر على احياء الاموات انه على كل شئ قدير ثم قال تعالى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون يقول تعالى ولئن أرسلنا ريحا يابسة على الزرع الذى زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرا أى قد اصفر وشرع فى الفساد لظلوا من بعده أى بعد هذا الحال يكفرون أى يجحدون ما تقدم اليهم من النعم كقوله تعالى أفرأيتم ما تحرثون الى قوله بل نحن محرومون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه

منذر ليس عليك الا الانذار والتبليغ وليس للنذير من الهدى شئ انما الهدى والضلالة بيد الله عزوجل (انا أرسلناك بالحق) أي محقا أو محقة أو ارسالا متلبسا بالحق اي بالهدى (بشيرا) بالوعد الحق (ونذيرا) بالوعيد الحق أو بشيرا لاهل الطاعة ونذيرا لاهل المعصية (وان من أمة الا خلا فيها نذير) أي ما من أمة من الامم الماضية الا مضى فيها نذير من الانبياء ينذرها والامة الجماعة الكثيرة ويقال لكل أهل عصر والمراد هنا أهل العصر واقتصر على ذكر النذير دون البشير لانه الصق بالمقام فان قلت كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يخل فيها نذير قلت اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لانه لا نبي بعده فهل من مدكر وهذا يقتضي ان أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم وهو خلاف ما في شرح ابن حجر على الهمزية ان أهل الفترة من أهل الجنة وان غيروا وبدلوا وعبدوا غير الله لانه لم يرسل اليهم رسولا لان من قبلهم من الرسل انتهت رسالته بموته اذ لم يعلم لاحد من الرسل استمرار رسالته بعد الموت الا نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهم غير مكلفين بما يفعلونه ولو كان صورة معصية لكن ورد النص بتعذيب بعض أهل الفترة كعمرو ابن لحي فيلتزم و يعتقد فيمن ورد فيهم بخصوصهم لا لان ما فعلوه كفر بل لحكمة يعلمها الله تعالى لم نطلع عليها انتهى ملخصا وحينئذ فالظاهر انه لا يحصل الاتصال بين الآية و بين ما تقرر الا بان يلتزم ان جملة العرب أمة و يصدق تقدم النذير فيها بتقدم سمعيل وان بني اسرائيل أمة و يصدق تقدم النذير فيهم بتقدم عيسى ومن قبله فتأمل ثم سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعزاه فقال (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم الماضية أنبياءهم (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة (وبالزبر) أي الكتب المكتوبة كصحف ابراهيم وهي ثلاثون وكصحف موسى قبل التوراة وهي عشرة وكصحف شيث وهي ستون فجملة الصحف مائة تضم لها الكتب الاربعة فجملة الكتب المنزلة على الانبياء مائة وأربعة قاله الحفناوي (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل قيل الكتاب المنير داخل تحت الزبر وتحت البينات والعطف لتغاير المفهومات وان كانت متحدة في الصدق والاولى تخصيص البينات بالمعجزات والزبر بالكتب التي فيها مواعظ والكتاب بما فيه شرائع وأحكام وجواب الشرط محذوف أي فاصبر كما صبروا وان المذكور دليل له (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الظاهر موضع المضمر لمزيد التصريح بذمهم بما في حيز الصلة ويشعر بعلة الاخذ (فكيف كان نكير) الاستفهام تقريري كما قاله الكرخي وينبغي ان يتأمل فيه أي فكيف كان نكيري عليهم وعقوبتي لهم والنكير بمعنى الانكار وهو تغيير المنكر وقد مضى بيان هذا قريبا ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة وخلقا من مخلوقاته البديعة فقال (ألم تر) والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له وهذه الرؤية هي القلبية أي ألم تعلم (ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) أي بالماء يعني المطر والنكتة في هذا الالتفات

عن عبد الله بن عمرو قال الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البر والعاصف والقاصف وهما في البحر وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عبيد الله ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا عبد الله بن عياش حدثني عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الريح مسخرة من الثانية يعني من الارض الثانية فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك فقال يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور قال له الجبار

صبر كل ... يستعمل ... جمع الجمع ولأن ... خراج أنواع من ...
... (ثمرات مختلفا ألوانها) أي مختلفا ألوان الجنس ... من الرمان والتفاح
والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئتها ثم أي بعضها أبيض وبعضها أحمر وبعضها
أصفر وبعضها أخضر وبعضها أسود ... في الأبيض والأحمر والأسود (ومن
الجبال جدد) الجدد جمع جدة وهي الطريق قال الأخفش ولو كان جمع جديد لقال
جدد بضم الجيم والدال نحو سرير وسرر وقرأ الزهري جدد بضم الجيم جمع جديدة
يقال جديدة وجدد وجدائد وقال أبو الفتح معناها آثار جديدة ... وقرئ
جددا بفتحتين ... من حيث النقل والمعنى ... الجدد ... الطرائق
... وقيل الجدد ... حدث ... الى ...
قال الجوهري الجدة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ... والجدة الطريقة والجمع
جدد ... قال المبرد جدد طرائق وخطوط قال الواحدي ونحو هذا قال المفسرون
في تفسير الجدد وقال الفراء هي الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر
واحدها جدة (بيض وحمر) صفة لجدد (مختلف ألوانها) صفة ثانية والمعنى أن الله
سبحانه أخبر عن جدد الجبال وهي طرائقها والخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض
ولون بعضها الحمرة (وغرابيب سود) الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب
قال الجوهري تقول هذا أسود غربيب أي شديد السواد وإذا قلت غرابيب سود جعلت
السود بدلا من غرابيب قال الفراء الكلام فيه تقديم وتأخير تقديره وسود غرابيب لأنه
يقال أسود غربيب وقلما يقال غربيب أسود وقيل الغربيب تأكيد للأسود كما
للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ... والمعنى ومن الجبال جدد
بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد ... جدد بيض
وحمر وسود وقيل التقدير ومن الجبال ذو جدد لأن الجدد إنما هي في ألوان بعضها
(ومن الناس والدواب) وقرئ بتخفيف الباء (والأنعام) أي وبعضهم ... ذو ...
وبعض (مختلف ألوانه) بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة قال الفراء أي
خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال ... سبحانه اختلاف الألوان في هذه
الأشياء لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه (كذلك) أي
مختلفا مثل ذلك الاختلاف والتقدير مختلف ... اختلافا كما كذلك ... كاختلاف
الجبال والثمار وقال ابن عطية متعلق بما بعده أي مثل ذلك المطر والاعتبار في
مخلوقات الله واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء وهو مردود بأن ما بعد إنما
لا يعمل فيما قبلها والراجح الوجه الأول والوقف على كذلك تام ثم استأنف الكلام وأخبر
سبحانه بقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهذه الجملة ... بين المختشين
... على معنى إنما يخشاه سبحانه ... العالمون به ... من صفاته الجليلة
وأفعاله الجميلة وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته وهم العلماء به
وبعظيم قدرته قال مجاهد إنما العالم من خشي الله عز وجل ومثله عن الشعبي وقال

تبارك وتعالى لا ذا يكف الارض
ومن عليها ولكن أرسل عليهم
بتدرعاتم فهي التي ذاب انه في كتابه
ما من شيء أتت عليه الا جعلته
كالرميم هذا حديث غريب ورفعه
منكر والاظهر انه من كلام عبد الله
ابن عمرو رضي الله عنه (إنك
لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء
إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي
العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من
يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) يقول
تعالى كما أنك ليس في قدرتك أن
تسمع الأموات في أجداثها ولا يبلغ
كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم
مع ذلك مدبرون عنك كذلك
لا تقدر على هداية العميان عن
الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك
الى الله فانه تعالى بقدرته يسمع

مسروق كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا وعن ابن مسعود نحوه فمن كان أعلم بالله
كان أخشاهم له قال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم ووجه تقديم المفعول
ان المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر لانعكس الامر وقرئ برفع الاسم الشريف ونصب
العلماء ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشاف الخشية في هذه القراءة
استعارة والمعنى انه يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس قال
ابن عباس العلماء بالله الذين يخافونه وعنه قال الذين يعلمون ان الله على كل شيء قدير وعن
ابن مسعود قال ليس العلم من كثرة الحديث ولكن العلم من الخشية وفي لفظ بكثرة الرواية
وعن حذيفة بحسب المؤمن من العلم ان يخشى الله وعن عائشة قالت صنع رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم شيأ فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه
وآله وسلم فخطب فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله انى
لاعلمهم بالله واشدهم له خشية أخرجه البخاري ومسلم (ان الله عزيز غفور) تعليل
لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده (ان الذين
يتلون كتاب الله) أي يستمرون على تلاوته ويداومونها والكتاب هو القرآن العظيم
ولا وجه لما قيل ان المراد به جنس كتب الله (وأقاموا الصلاة) أي فعلوها في أوقاتها مع
كمال أركانها وأذكارها عن ابن عباس قال نزلت في حصين بن الحرث بن عبد المطلب
ابن عبد مناف (وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) فيه حث على الانفاق كيفما تهيأ
فان تهيأ سرا فهو أفضل والا فعلانية ولا يمنعه ظنه ان يكون رياء فان ترك الخير مخافة ذلك
هو عين الرياء ويمكن ان يكون المراد بالسر الصدقة المطلقة وبالعلانية الزكاة واليه أشار
في التقرير قاله الكرخي وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة (يرجون
تجارة) أي ثواب الطاعة (لن تبور) أي لن تكسد ولن تهلك والاخبار برجائهم لثواب
ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم واللام في قوله (ليوفيهم أجورهم) متعلقة بلن
تبور على معنى انها لن تكسد لاجل ان توفيهم أجور أعمالهم الصالحة ومثل هذه الآية
قوله سبحانه فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وقيل
ان اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق أي فعلوا ذلك ليوفيهم ومعنى (ويزيدهم من
فضله) انه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم قيل بتفسيح القبور
أو بتشفيعهم فيمن أحسن اليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه (انه غفور
شكور) تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة أي غفور لذنوبهم شكور لطاعاتهم (والذي
أوحينا اليك من الكتاب) يعني القرآن وقيل اللوح المحفوظ على ان من تبعيضية
أو ابتدائية (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي موافقا لما تقدمه من الكتب (ان الله
بعباده لخبير بصير) أي محيط بجميع أمورهم الباطنة والظاهرة (ثم أورثنا الكتاب
الذين اصطفينا من عبادنا) انما قدم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب
والمعنى ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب وهو القرآن أي قضينا وقدرنا بان
نورث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي نزلناه عليك فأورثنا استعارة تبعية سمى

الاموات أصوات الاحياء اذا شاء
ويهدي من يشاء ويضل من يشاء
وليس ذلك لاحد سواه ولهذا قال
تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا
فهم مسلمون أي خاضعون
مستجيبون مطيعون فأولئك هم
الذين يسمعون الحق فيتبعونه
وهذا حال المؤمنين والاول مثل
الكافرين كما قال تعالى انما
يستجيب الذين يسمعون والموتى
يبعثهم الله ثم اليه يرجعون وقد
استدلت أم المؤمنين عائشة رضي
الله عنها بهذه الآية انك لا تسمع
الموتى على توهيم عبد الله بن عمر في
روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه
وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر
بعد ثلاثة أيام ومعاتبته اياهم
وتقريعه لهم حتى قال له عمر

اعطاء الكتاب اياهم من غير كد وتعب فى وصوله اليهم بتوريث الوارث ومن للبيان أو للتبعيض والمراد بعبادنا أمة الاجابة سواء حفظوه أولا فعطيته لجميعهم حتى من لم يحفظه لانه قدوته وفيه هدايته وبركته ومعنى اصطفائهم اختيارهم واستخلاصهم ولا شك ان علماء هذه الامة من الصحابة فمن بعدهم الى يوم الدين امة قد شرفهم الله على سائر العباد وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وأكرمهم بكونهم أمة خير الانبياء وسيد ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام وخصهم بحمل أفضل الكتب قال مقاتل يعنى قرآن محمد جعلناه ينتهى الى الذين اصطفيناهم من عبادنا وقيل ان المعنى أورثناه من الامم السالفة أى أخرجناه عنهم وأعطيناه الذين اصطفينا والاول أولى ثم قسم سبحانه هؤلاء الذين أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده الى ثلاثة أقسام فقال (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وفى قوله (باذن الله) تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها أى بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه (ذلك) أى توريث الكتاب والاصطفاء وقيل السبق الى الخيرات والاول أولى وهو مبتدأ وخبره (هو الفضل الكبير) أى الفضل الذى لا يقادر قدره وقد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية لانه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم وهو من اصطفاهم من العباد فكيف يكون من اصطفاه الله ظالما لنفسه فقيل ان التقسيم هو راجع الى العباد أى فمن عبادنا ظالم لنفسه وهو الكافر ويكون ضمير يدخلونها عائدا الى المقتصد والسابق وقيل المراد بالظالم لنفسه هو المقصر فى العمل به وهو المرجى لامر الله وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب وهذا فيه نظر لان ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء وقيل الظالم لنفسه هو الذى عمل الصغائر وقد روى هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبى الدرداء وعائشة وهذا هو الراجح لان عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ووجه كونه ظالما لنفسه انه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له فانه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظ عظيم وقيل الظالم هو صاحب الكبائر قلت ومنشأ الاشكال هو من جعل الوارثين هم العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ لو جعلت الوراثة لجميع الامة زال الاشكال للقطع بان منهم ظالما لنفسه ولا ينافى الاصطفاء اكرمهم وفضلوا الامم الآخرة وقد ورد فى ذلك شئ كثير كما لا يخفى ويؤيده ما سيأتى آخر البحث والله أعلم وقد اختلف السلف فى تفسير السابق والمقتصد فقال عكرمة وقتادة والضحاك ان المقتصد المؤمن العاصى والسابق التقى على الاطلاق وبه قال الفراء وقال مجاهد فى تفسير الآية فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون من الناس كلهم وقال المبرد ان المقتصد هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها وقال الحسن الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته والمقتصد الذى استوت حسناته وسيئاته والسابق من رجحت حسناته على سيئاته وقال مقاتل الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد والمقتصد الذى

يارسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا فقال والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وتأولته عائشة على انه قال انهم الآن يعلمون ان ما كنت أقول لهم حق وقال قتادة أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه الارد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو

لم يصب كبيرة والسابق الذى سبق الى الاعمال الصالحة وحكى النحاس ان الظالم صاحب الكبائر والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيآته فيكون قوله الآتى جنات عدن يدخلونها الذين سبقوا بالخيرات لاغير قال وهذا قول جماعة من أهل النظر لان الضمير فى حقيقة النظر لما يليه أولى وقال الضحاك فمنهم ظالم لنفسه أى من ذريتهم ظالم لنفسه وقال سهل بن عبد الله السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم لنفسه الجاهل وقال ذو النون المصرى الظالم لنفسه الذاكر لله بلسانه فقط والمقتصد الذاكر بقلبه والسابق الذى لا ينساه وقال الانطاكى الظالم صاحب الاقوال والمقتصد صاحب الافعال والسابق صاحب الاحوال وقال ابن عطاء الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق وقيل الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار والمقتصد الذى يعبده طمعا فى الجنة والسابق الذى يعبده لا لسبب وقيل الظالم الذى يحب نفسه والمقتصد الذى يحب دينه والسابق الذى يحب ربه وقيل الظالم الذى ينتصف ولا ينصف والمقتصد الذى ينصف وينتصف والسابق الذى ينصف ولا ينتصف وقيل الظالم هو المرجأ لامر الله والمقتصد هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيأ قال النسفى وهذا التأويل يوافق التنزيل فانه تعالى قال والسابقون الاولون من المهاجرين الآية وقال بعده وآخرون اعترفوا بذنوبهم الآية وقال بعده وآخرون مرجون لامر الله انتهى وقال الربيع بن أنس الظالم صاحب الكبائر والمقتصد صاحب الصغائر والسابق المجتنب لهما وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله والذين كفروا لهم نار جهنم وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده وهم أهل الايمان وعليه الجمهور وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذى استوى ظاهره وباطنه والسابق الذى باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالى للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالى له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقد ذكر الثعلبى وغيره أقوالا كثيرة ولا شك ان المعانى اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة وهو يصدق الظالم للنفس بمجرد احرامها الحظ وتفويت ما هو خير لها فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوتها من الثواب وان كان قائما بما أوجب الله عليه تاركا لما نهاه عنه فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا اشكال فى الآية ومن هذا قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقول يونس انى كنت من الظالمين ومعنى المقتصد هو من يتوسط فى أمر الدين ولا يميل الى جانب الافراط ولا الى جانب التفريط وهذا من أهل الجنة وأما السابق فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين وهو خير الثلاثة وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه والسابق أفضل منهما فقيل ان التقديم لا يقتضى التشريف كما فى قوله لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ونحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين وقيل وجه التقديم هنا ان الظالمين كثير وان المقتصدين بالنسبة الى اهل

العليم القدير) ينبه تعالى على تنقل الانسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تكسى العظام لحما وينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا ثم حدثا ثم مراهقا ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع فى النقص فيكهل ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ولهذا قال تعالى ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء أى يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد وهو العليم القدير قال

المعاصي قليل والسابقين بالنسبة الى الفريقين أقل قليل فقدم الاكثر على الاقل والاول أولى فان الكثرة بمجردها لا تقتضي تقديم الذكر وقال ابن عطاء انما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل انما قدمه ليعرفه ان ذنبه لا يبعده من ربه وقيل ان أول الاحوال معصية ثم توبة ثم استقامة وقال جعفر الصادق بدأ بالظالمين اخبارا بانه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة وقد قيل في وجه التقديم غير ما ذكرناه مما لا حاجة الى التطويل به وعن ابن عباس في الآية قال هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورثهم الله كل كتاب أنزل فظالمهم مغفور له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال في هذه الآية هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم يدخلون الجنة وفي اسناده رجلان مجهولان وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وغيرهم عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله ثم أورثنا الكتاب الآية فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الآية قال البيهقي اذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلا انتهى وفي اسناد أحمد محمد بن اسحق وفي اسناد ابن أبي حاتم رجل مجهول وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أمتي ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة وثلث يمحصون ويكشفون ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون لا اله الا الله وحده فيقول الله ادخلوهم الجنة بقولهم لا اله الا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب وهي التي قال الله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وتصديقها في التي ذكر في الملائكة قال الله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فجعلهم ثلاثة أفواج فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذي يكشف ويمحص ومنهم مقتصد وهو الذي يحاسب حسابا يسيرا ومنهم سابق بالخيرات فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب باذن الله يدخلون الجنة جميعا قال ابن كثير بعد ذكره هذا الحديث غريب جدا انتهى وهذه الاحاديث يقوي بعضها بعضا ويجب المصير اليها ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن اسامة بن زيد فمنهم ظالم لنفسه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم من هذه الامة وكلهم في الجنة وما أخرجه الطيالسي وعبد بن حميد والطبراني وغيرهم عن عقبة بن صهبان قال قلت لعائشة أرأيت قول الله ثم أورثنا الكتاب الآية قالت أما السابق فمن مضى في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشهد له بالجنة وأما المقتصد فمن تبع

الامام أحمد حدثنا وكيع عن فضيل ويزيد حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي قال قرأت على ابن عمر الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا فقال الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا ثم قال قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قرأت علي فأخذ علي كما أخذت عليك ورواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث فضيل به ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبي سعيد نحوه (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم

آثارهم فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلك ومن اتبعنا وكل فى الجنة وعن ابن مسعود قال هذه الامة ثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيئون بذنوب عظام الا انهم لم يشركوا فيقول الرب ادخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى ثم قرأ ثم أورثنا الكتاب الآية وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب انه كان اذا نزع بهذه الآية ثم أورثنا الكتاب قال الا ان سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وأخرجه البيهقى وغيره عنه من وجه آخر مرفوعا وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعا وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه أصحاب الاعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن عثمان بن عفان انه نزع بهذه الآية ثم قال ألا ان سابقنا أهل جهادنا الا وان مقتصدنا أهل حضرنا الا وان ظالمنا أهل بدونا وأخرج البيهقى فى البعث عن البراء بن عازب قال أشهد على الله انه يدخلهم الجنة جميعا وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قال كلهم ناج وهى هذه الامة وأخرج الفريابى وعبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال هى مثل التى فى الواقعة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون صنفان ناجيان وصنف هالك وعنه قال هو الكافر والمقتصد أصحاب اليمين وهذا المروى عنه رضى الله عنه لايطابق ماهو الظاهر من النظم القرآنى ولا يوافق ماقدمنا من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن جماعة من الصحابة وعن عبد الله بن الحارث ان ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية فقال نجوا كلهم ثم قال تحاكت مناكبهم ورب الكعبة ثم اعطوا الفضل بأعمالهم أخرجه ابن أبى شيبة وغيره وقد قدمنا عن ابن عباس مايفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الاقوال عنه وقوله (جنات عدن) مبتدأ وخبره (يدخلونها) والضمير يعود الى الاصناف الثلاثة فلا وجه لقصره على الصنف الاخير وقرئ جنة بالافراد وقرئ جنات بالنصب على الاشتغال وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) هو من حليت المرأة فهى حال وفيه اشارة الى سرعة الدخول فان فى تحليتهم خارج الجنة تأخيرا للدخول فلما قال يحلون فيها اشار الى ان دخولهم على وجه السرعة (من أساور من ذهب) من الاولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور كائنة من ذهب والاساور جمع اسورة جمع سوار (ولؤلؤا) منصوب بالعطف على محل من أساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب أى مرصعا باللؤلؤ أو يحلون أساور ولؤلؤا وهو الاولى أخرج الترمذى والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله جنات عدن يدخلونها الآية فقال ان عليهم التيجان ان أدنى لؤلؤة لتضئ مابين المشرق والمغرب (ولباسهم فيها حرير) لما فيه من

قوله نزع بهذه الآية هكذا فى الاصل وحرر اه مصححه

والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا فعلوا مافعلوا من عبادة الاوثان وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا فمنه اقسامهم بالله انهم مالبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وانهم لم ينظروا حتى يعذر اليهم قال الله تعالى كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث أى فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون

الله ولي به وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) قرأ الجمهور الحزن بفتحتين وقرئ بضم الحاء وسكون الزاي والمعنى انهم يقولون هذه المقالة اذا دخلوا الجنة وصيغة الماضي للدلالة على التحقق قال قتادة حزن الموت وقال عكرمة حزن السيئات والذنوب وخوف رد الطاعات وقال ابن عباس حزن النار وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وقال الكلبي ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد بن جبير هم الخبز في الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو لمعاد وهذا أرجح الأقوال فإن الدنيا وإن بلغ نعيمها أي مبلغ لا يخلو من شوائب ونوائب تكثر فيها الأحزان وخصوصا أهل الايمان فانهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه مضطربي القلوب في كل حين هل تقبل أعمالهم أو ترد حذرين من عاقبة السوء وخاتمة الشر ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة وأما أهل العصيان فهم وإن نفس عن خناقهم قليلا في حياة الدنيا التي هي دار الغرور وتناسوا دار القرار فلا بد من ذكرهم قد يشتد وجلهم ويعظم مصيبتهم وتغلي مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت وقربوا من منازل الآخرة ثم إذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوؤهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غما وحزنا حتى يتفضل الله عليهم بالمغفرة ويدخلهم الجنة فهنالك يذهب عنهم أحزانهم وتزول غمومهم وهمومهم وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال هم قوم في الدنيا يخافون الله ويجتهدون له في العبادة سرا وعلانية وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت فعندها قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وروى البغوي بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله الا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور شكور) غفر لنا العظيم وشكر لنا القليل من أعمالنا أو غفر لنا السيئات وقبل الطاعات وقيل غفور لمن عصاه شكور لمن أطاعه (الذي أحلنا) أي أنزلنا (دار المقامة) أي التي يقام فيها أبدا ولا يتحول عنها (من فضله) أي تفضلا منه ورحمة (لا يمسنا فيها نصب) أي لا يصيبنا في الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) أي إعياء من التعب وكلال من النصب ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ذكر جزاء عباده الطالحين فقال (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) بالموت (فيموتوا) ويستريحوا من العذاب قرئ فيموتوا بالنصب جوابا للنفي وقرئ باثبات النون قال ابن عطية هي ضعيفة ولا وجه لها والعطف بالفاء على كقوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد تسليمهم فلم يعرفوا مبلغ العذاب وكلما خبت النار زيد اسعارها وهذه الآية مثل قوله سبحانه لا يموت فيها ولا يحيى (كذلك نجزي كل كفور) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع

فأقسموا عن ساعة لبثهم في كتاب الله أي كتاب الأعمال الى يوم البعث أي من يوم خلقهم الى أن بعثهم ولكنكم كنتم لا تعلمون قال الله تعالى فيومئذ أي يوم القيامة لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم أي اعتذارهم عما فعلوا ولا هم يستعتبون أي ولا هم يرجعون الى الدنيا كما قال تعالى وان يستعتبوا فما هم من المعتبين (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) يقول تعالى ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا

يجزى كل من هو مبالغ فى الكفر لا بجزاء أخف وأدنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول (وهم يصطرخون فيها) من الصراخ وهو الصياح أى وهم يستغيثون فى النار رافعين أصواتهم والصارخ المستغيث (ربنا) أى يقولون ربنا أو قائلين ربنا وقال مقاتل انهم ينادون ربنا (أخرجنا نعمل) عملا (صالحا غير الذى كنا نعمل) من الشرك والمعاصى فنجعل الايمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر والطاعة بدل المعصية قيل وزيادة قوله غير الذى كنا نعمل للتحسر على ما عملوه من غير الاعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم فى الدنيا كانت غير صالحة فاجاب الله عليهم بقوله (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والواو للعطف على مقدر كما فى نظائره وما نكرة موصوفة أى أولم نعمركم عمرا يتمكن من التذكر فيه من تذكر فقيل هو ستون سنة وقيل أربعون وقيل ثمانى عشرة سنة قال بالاول جماعة من الصحابة ومنهم ابن عباس وبالثانى الحسن ومسروق وغيرهما وبالثالث عطاء وقتادة أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وفى اسناده ابراهيم بن الفضل المخزومى وفيه مقال وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعذر الله الى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة وعن سهل بن سعيد مرفوعا نحوه أخرجه عبد بن حميد والطبرانى والحاكم وعن على ابن أبى طالب قال العمر الذى عيرهم الله به ستون سنة وأخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم وابن المنذر والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمار أمتى ما بين الستين الى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك قال الترمذى بعد اخراجه حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وعن ابن عباس فى هذه الآية هو ست وأربعون سنة وعنه قال العمر الذى أعذر الله الى ابن آدم فيه بقوله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أربعون سنة (وجاءكم النذير) قال الواحدى قال جمهور المفسرين هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير هو الشيب ويكون معناه على هذا القول أولم نعمركم حتى شبتم وقيل هو القرآن وقيل الحمى قال الازهرى معناه ان الحمى رسول الموت أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه والشيب نذير أيضا لانه يأتى فى سن الاكتهال وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذى هو سن اللهو واللعب وقيل هو موت الاهل والاقارب وقيل هو كمال العقل وقيل البلوغ (فذوقوا فما للظالمين من نصير) الفاء لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير وفى فما للتعليل أى فذوقوا عذاب جهنم لانكم لم تعتبروا ولم تتعظوا فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ويحول بينكم وبينه قال مقاتل فذوقوا فما للمشركين من مانع يمنعهم (ان الله عالم غيب السموات والارض) قرأ الجمهور بالاضافة وقرئ بالتنوين

انهم فيه الامثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون أى لو رأوا أى آية كانت سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون انها سحر وباطل كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ولهذا قال ههنا كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم فان الله تعالى منجزلك ما وعدك من نصره اياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك

ونصب غيب والمعنى انه عالم بكل شيء ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية فلو ردكم الى الدنيا لم تعملوا صالحا كما قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالاولى وقيل هذه الجملة مفسرة للجملة الاولى وذات تأنيث ذو بمعنى صاحب أي بالامور صاحبة الصدور ومصاحبتها الها من حيث اختباؤها فيها (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) جمع خليفة ويقال للمستخلف خليفة وخليف ويجمع الاول على خلائف والثاني على خلفاء أي جعلكم أمة خالفة لمن قبلها قال قتادة خلفا بعد خلف وقرنا بعد قرن والخلف هو التالي للمتقدم وقيل جعلكم خلفاء في أرضه (فمن كفر) منكم هذه النعمة (فعليه كفره) أي عليه ضرر كفره لا يتعداه الى غيره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) أي غضبا وبغضا (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) أي نقصا وهلاكا والمعنى ان الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم الا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم الا خسارا والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على ان اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة ثم أمره سبحانه ان يوبخهم ويبكتهم فقال (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون) أي اخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم (من دون الله) أي غيره وهم الاصنام وغيرها (أروني ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال من أرأيتم والمعنى اخبروني عن شركائكم أروني أي شيء خلقوا من الارض وقيل ان الفعلين وهما أرأيتم وأروني من باب التنازع وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين (أم لهم شرك في السموات) أي أم لهم شركة مع الله في خلقها أو ملكها أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الالهية (أم آتيناهم) الضمير فيه وفي قوله لهم الاحسن ان يعود الى الشركاء لتناسق الضمائر وقيل يعود على المشركين فيكون التفاتا من الخطاب الى الغيبة أي أم أنزلنا عليهم (كتابا) بالشركة وأم في الموضعين منقطعة بمعنى بل والهمزة فيكون قد أضرب عن الاستفهام الاول وشرع في استفهام آخر والاستفهام انكاري (فهم على بينة منه) أي على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب قرئ بينة بالتوحيد وبالجمع قال مقاتل يقول هل أعطينا كفار مكة كتابا فهم على بيان منه بان مع الله شريكا ثم أضرب سبحانه عن هذا الى غيره فقال (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) أي ما يعد الظالمون بعضهم بعضا كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لاتباعهم الا غرورا يغرونهم به ويزينونه لهم وهو الاباطيل التي تغر ولا حقيقة لها وذلك قولهم ان هذه الآلهة تنفعهم وتقربهم الى الله وتشفع لهم عنده وقيل ان الشياطين تعد المشركين بذلك وقيل المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضا هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) أي يمنعهما من الزوال قاله الزجاج أو كراهة ان تزولا

في الدنيا والآخرة ولا يستخفنك الذين لا يوقنون أي بل اثبت على ما بعثك الله به فانه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليا رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين فأنصت له علي حتى فهم ما قال فاجابه وهو في الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال حدثنا

وقيل لئلا تزولا والجملة مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه وبديع صنعه بعد بيان ضعف الاصنام وعدم قدرتها على شئ وقيل المعنى ان شركهم يقتضى زوال السموات والارض كقوله تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول على المنبر قال وقع فى قلب موسى هل ينام الله عز وجل فأرسل الله اليه ملكا فأرقه ثلاثا وأعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره ان يحتفظ بهما فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس أحداهما على الاخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان قال ضرب الله له مثلا ان الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والارض أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والدارقطنى والبيهقى فى الاسماء والصفات وغيرهم وروى من طرق عن ابن سلام وابن أبى بردة (ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده) أى ما أمسكهما أحد من بعد امساكه أو من بعد زوالهما والجملة سادة مسد جواب القسم والشرط ومن الاولى زائدة والثانية ابتدائية قال الفراء أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد قال وهو مثل قوله ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون وقيل المراد زوالهما يوم القيامة (انه كان حليما غفورا) تعليل لما قبله من امساكه تعالى السموات والارض (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) المراد قريش اقسموا قبل ان يبعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بهذا القسم حين بلغهم ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى دينا منهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذبوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى من احدى الامم المكذبة للرسل والنذير النبى والهدى الاستقامة وكانت تمنى ان يكون منهم رسول كما كان الرسل فى بنى اسرائيل وأنث احدى لكون أمة مؤنثة كما قال الاخفش وقيل المعنى من احدى الامم على العموم وقيل من الامة التى يقال لها احدى الامم تفضيلا لها (فلما جاءهم نذير) أى ما تمنوه وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى هو أشرف نذير وأكرم رسول وكان من أنفسهم (ما زادهم) مجيئه (الا نفورا) منهم عنه وتباعدا عن اجابته (استكبارا فى الارض) أى لاجل الاستكبار والعتو أو بدل من نفورا أو حال قاله الاخفش وهذا جواب لما وفيه دليل على انها حرف لا ظرف اذ لا يعمل ما بعد ما النافية فيما قبلها وتقدمت له نظائر واسناد الزيادة الى النذير مجاز لانه سبب فى ذلك كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم (ومكر السيئ) أى ولاجل مكر العمل السيئ أو ومكروا المكر السيئ والمكر هو الحيلة والخداع والعمل القبيح وأضيف الى صفته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى قرأ الجمهور ومكر السيئ بخفض همزة السيئ وقرأ الاعمش وحمزة بسكونها وصلا وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة ونزهوا الاعمش على جلالته ان يقرأ بها قالوا وانما كان

وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبى زرعة عن على ابن ربيعة قال نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو فى صلاة الفجر فقال ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين فاجابه على رضى الله عنه وهو فى الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون طريق أخرى قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن الجعد أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبى يحيى قال صلى على بن أبى طالب رضى الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

يقف بالسكون فغلط من روى عنه انه كان يقرأ بالسكون وصلا وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف ومثله قراءة من قرأ وما يشعركم بسكون الراء ومثل ذلك قراءة أبي عمرو إلى بارئكم بسكون الهمزة وغير ذلك كثير قال أبو علي الفارسي هذا على اجراء الوصل مجرى الوقف وقرأ ابن مسعود ومكرا سيئا (ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله) أي لا تنزل عاقبة السوء الا بمن أساء قال الكلبي يحيق بمعنى يحيط والحوق الاحاطة يقال حاق به كذا أي أحاط به وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب ولكن قطرب فسره هنا بينزل (فهل ينظرون) أي ما ينظرون (الا سنة الاولين) أي سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك (فلن تجد لسنة الله تبديلا) أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنها بالامم المكذبة من انزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا عنه والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) بأن يحول أحد ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل كناية عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هذه الجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده أي ألم يسيروا في أرض الشام واليمن والعراق فينظروا وما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فان ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام (وكانوا) أي والحال انهم كانوا (أشد منهم قوة) وأطول أعمارا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا فما نفعهم طول المدى وما أغنت عنهم شدة القوة (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض) أي ما كان ليسبقه ويفوته شيء من الاشياء كائنا ما كان فيهما وهذا تقرير لما فهم مما قبله من استئصال الامم السابقة (انه كان عليما قديرا) أي كثير العلم كثير القدرة لا يخفى عليه شيء ولا يصعب عليه أمر وهذا تعليل لذلك التقرير (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من الذنوب وعملوا من الخطايا (ما ترك على ظهرها) أي الارض (من دابة) من الدواب التي تدب كائنة ما كانت أما بنو آدم فلذنوبهم وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم وقيل المراد ما ترك على ظهر الارض من دابة تدب من بني آدم والجن وقال بالاول ابن مسعود وقتادة وقال بالثاني الكلبي وقال ابن جريج والاخفش والحسين بن الفضل أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم أخرج الفريابي وغيره عن ابن مسعود قال ان كاد الجعل ليعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ هذه الآية قيل وجه الملازمة بين الشرط والجزاء انه تعالى اذا كان يؤاخذ الناس بما كسبوا كان ينقطع عنهم النعم التي من جملتها المطر فاذا انقطع عنهم المطر انقطع النبات فيموت جميع الحيوانات فهذا كناية أريد بها المروم وقوله على ظهرها فيه استعارة مكنية قال قتادة وقد فعل ذلك في زمن

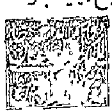
انه ياسر بن فأجابه على رضى الله عنه وهو في الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون * (ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر) * قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم فلما انصرف قال انه يلبس علينا القرآن فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء وهذا

نوح وقال يحيى بن سلام يحبس الله المطر فيهلك كل شئ (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) أى بمن يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب وفى هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين والعاصل

فى اذا هو جاء

لا بصيرا

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن أوله سورة يس)



اسناد حسن ومتن حسن وفيه سر عجيب ونبأ غريب وهو أنه صلى الله عليه وسلم تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل ذلك على ان صلاة المأموم متعلقة بصلاة الامام

آخر تفسير سورة الروم

ولله الحمد

والمنة

وممّا قيل في تقريظ هذا التفسير الجليل حسن الشكل عديم المثيل ما أنشأه علامة زمانه ونابغة آنه الهمام الاكمل الالد الافضل مديد الباع رحب الذراع بديع الاختراع حسن البديهة بلا دفاع الذي قطع في حلبة البيان كل مجاري الاستاذ الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الباري فقال

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الرحيم الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان نحمده على توفيقه للاشتغال بعلوم الحكمة والتأويل ونستمده الهداية لمعالم الآثار وأنوار التنزيل ونشهد أن لا اله الا الله شهادة ننال بها درج الجنان ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بروح الحق وجامع البيان صلى الله وسلم عليه وعلى آله السادة الائمة وعلى أصحابه حملة السنة وهداة الامة ﴿ وبعد ﴾ فقد وقفت على التفسير المسمى فتح البيان في مقاصد القرآن لمولانا وسيدنا الامام العلامة القدوة احقق الفهامة الحافظ الشهير الحجة الناسك الداعي السامي الى المحجة سلطان العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين السيد الجليل والعالم الفاضل النبيل صديق بن حسن بن علي القنوجي الذي ما زال في نشر العلم يروح ويجي فرأيته تفسيرا جامعا لما تفرق في غيره من الفوائد وفائقا لما عداه لكثرة ما حواه من الشوارد والزوائد مشتملا على صحيح التفسير المأخوذ من منقول الاثر طاويا ما في غيره من المطولات فذا نشر لا يستلذه الا من حوى الكمالين ولا يشهد بفضله الا من مشى طريقة الجلالين ولا يعرف انه سليم من زائف النقود الا من له خبرة بتفسير الزمخشري والبيضاوي وأبي السعود ولا يدري انه أحمد اللباب وطرح القشور الا من طالع ابن كثير وابن جرير والقرطبي والبغوي والدر المنثور والله انه لكتاب كريم يجل عن الصفة وتفسير عظيم طوبى لمن حصله وعرفه فمن أراد تفسير كتاب الله رواية ودراية أو طلب ان يستفيد بانوار التنزيل وتبيانا وهداية فعليه بالاشتغال بهذا التفسير الجليل وليعكف عليه فانه كافل بما يبغيه من اعراب وقراءة وتفسير وتأويل لأني تأملته تامل ناقد بصير فرأيته آية باهرة ولا ينبئك مثل خبير

دررا أضاءت في لجين صحائف * كالكوكب الدري في اضوائه
فكأنها منثورة بطروسها * نجم تضيء سماؤه بسمائه
وكأنما هي في يدي غواصها * نور اليد البيضا رحسن ثنائه
لله غواص أتى بفوائد * يستوجب الاعلاء على نظرائه

فأدم اللهم على مؤلفه النعمة وادفع اللهم عنه البلاء والنقمة وأفض على قلبه أنوار

المعارف وانفع عما أبداه في تفسيره هذا من الفوائد واللطائف فلقد أحيا به ما اندرس
من تفاسير الائمة الفحول وجاء بها معزوة الى الصحاح والاصول
لم يغادر مما يعول عليه في فن التفسير شيأ الا أبداه
فعافاه الله ورعاه وأطال عمره في
طاعته ورضاه
آمين

وحرر في السابع والعشرين من شهر صفر سنة اثنين وتسعين بعد الالف ومائتين

كتبه محمد بن أحمد
ابن عبد البارى
انتهى بلفظه